

عالم الفكر

٦

■ ابن خلدون مؤرخاً

■ كتاب الفرج بعد الشدة

■ كتاب الالمام للتوحي

■ أضواء على كتابات المقرئ

المجلد الرابع عشر - العدد الثاني

يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٢

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٣
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

قراءات جديدة في كتابات قديمة

التمهيد	بقلم مستشار التحرير	٣
ابن خلدون مؤرخا	الدكتور سعد زغلول عبد الحميد	١١
كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي	الدكتور محمد حسن عبدالله	٧١
كتاب الأمام للنوري الاسكندراني	الدكتور عزيز سوريال عطية	١٢٧
أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن علي المقرئ وكتاباته	الدكتور سعيد عاشور	١٦٥

• • •

شخصيات وآراء

أبو بكر الرازي	الدكتور جلال شوقي	٢١١
----------------	-------------------	-----

• • •

مطالعات

الغيزاء والحبل عند العرب	الدكتور محمد عيسى صالحية	٢٢٣
--------------------------	--------------------------	-----

• • •

من الشرق والغرب

قراءة ثانية من معجم البلدان لياقوت الحموي	الدكتور احسان صدقي العمدة	٢٦٣
---	---------------------------	-----

• • •

صدر حديثا

الصراع من أجل أن تكون انسانا	عرض وتحليل الدكتور عدنان الدوري	٣٠٣
« الجريمة وعلم الاجرام والقضوية »		

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

تمهيد

لم يختلف المثقفون في الوطن العربي في الوقت الحاضر حول شيء قدر اختلافهم حول أهمية التراث بالنسبة لحياتنا الثقافية والدور الذي يمكن أن يؤديه في حركة الفكر ، ان كان له فيها دور على الاطلاق ، وقد أثبتت بذلك تساؤلات عديدة تتناول ماهية التراث وجدوى الاشتغال أو الانشغال به ، وإذا ما كان يستحق كل ذلك العناية الذي يبذله المتخصصون في التنقيب عنه وتنقيحه وتحقيقه ونشره ودراسته ومدى الفائدة التي يمكن أن تعود علينا من كل هذه الجهود ، والمحكات والمعايير التي يمكن الاسترشاد بها في اختيار وانتقاء الأعمال التي ننشرها ونقدمها لجمهور القراء . ولقد كان من الطبيعي أن تختلف وجهات النظر وتتعدد الآراء نتيجة لظروفنا الثقافية الراهنة والوضع الذي يجد فيه المثقفون أنفسهم ، والذي يكاد يصل الى حد التمزق النفسي الرهيب بين الرغبة في المحافظة على الهوية الثقافية العربية ، والدفاع عن مقومات الثقافة العربية والاسلامية ضد الغزو الثقافي ، أو ما يطلق عليه أحياناً اسم الامبريالية الثقافية والاستعمار الثقافي الوافد من الغرب من ناحية ، والرغبة في متابعة التطورات الثقافية والتيارات الفكرية التي يموج بها العالم في الخارج وما يرتبط بذلك من الاعتقاد بأن التراث القديم يمثل عبئاً ثقيلاً يعوق حركة الانطلاق في مجالات الفكر الحديث من الناحية الأخرى . وواضح أن هذه الأمور كلها تندرج تحت القضية الأساسية التي تعرف في الوقت الحالي بقضية الأصالة والمعاصرة . وهي قضية عامة تشترك فيها كل مجتمعات العالم الثالث ، أو المجتمعات التقليدية ، التي تخضع لعمليات التغير الاجتماعي والثقافي ، نتيجة لاتصالها المتزايد بالعالم الخارجي ، وقد تجاوزت القضية بذلك حدود الثقافة بالمعنى الضيق

موقفنا من التراث

للكلمة ، الى مجال الثقافة بالمعنى الانثروبولوجي الواسع . ومن هنا كانت مشكلة التراث تنتمي الى دائرة أوسع وأعم وأشمل هي مشكلة العلاقة بين القديم والجديد التي نصادفها في كل المجتمعات التي تتعرض للتغير السريع الناجم عن احتكاك الثقافة التقليدية بثقافات أخرى غريبة أكثر تقدماً وتطوراً ، ووقوع الثقافة التقليدية الأصلية تحت وطأة وتأثير الثقافة الوافدة ، وشعور تلك المجتمعات بالأخطار التي تهدد ثقافتها ، والتي قد تصل الى حد طمس معالمها وهدم مقوماتها الأساسية ، ثم رد الفعل الطبيعي والمنطقي الذي يترتب على ذلك الشعور والذي يتمثل في أبسط صوره في الالتجاء الى التراث التقليدي للاحتواء به من هذا الخطر الثقافي الزاحف . فالوضع هنا يشبه الى حد كبير الوضع الذي سبق أن عاجلته بقدرة وبراعة وعمق عالمة الانثروبولوجيا البريطانية الأستاذة مونيكاهنتر Monica Hunter منذ حوالي نصف قرن في كتاب لها يحمل عنواناً له مغزاه هو « رد الفعل ضد الغزو Reaction to Conquest » ، وقد درست في هذا الكتاب الضخم العميق موضوعاً محدداً هو وطأة الحضارة الأوروبية على بعض الجماعات القبلية في جنوب أفريقيا . وكان لا بد لها أن تتناول بالوصف والتحليل نظمهم الاجتماعية الأصلية وعاداتهم وأنماط سلوكهم وقيمهم وثقافتهم التقليدية قبل الهجمة الثقافية الوافدة من الخارج ، ونوع الخلل الذي طرأ على هذه الحياة التقليدية ورد الفعل الذي تولد في المجتمع ازاء هذا الغزو الثقافي والصراع الذي نشب بين أنصار الجديد الذين ينادون بتقبل الحضارة الغربية ومسائرتها على اعتبار أنها هي حضارة العصر التي سوف تتيح لهم اللحاق بأحداث العالم وتطوراتها ، والخروج من حالة التقوقع الثقافي والفكري والاجتماعي التي يعيشون فيها ، وبين أنصار القديم الذين لا يرون في هذه الحضارة الجديدة الوافدة سوى التفكك الأسري والاجتماعي ، والأمراض الاجتماعية من دعة وإدمان للخمر ، وأمراض سرية وتناسلية وضياح للقيم والتقاليد ، بل وضياح للإنسان ذاته نتيجة لازدياد الفردية ، وقتل روح الجماعة ، وهدم التماسك الاجتماعي ؛ وان من الخير الرجوع الى التراث القديم بكل ما يحمله من تقاليد وآداب غير مكتوبة ، ولكنها تتناقل شفاهة عبر الأجيال ، حاملة في ثناياها كل قيم المجتمع وأخلاقياته . فالموضوع كما عاجلته مونيكاهنتر له اذن جانبه الانساني العام الذي يتعدى حدود تلك القبائل الاقليمية المتخلفة ، ويتجاوزها الى كافة المجتمعات والثقافات التقليدية التي تتعرض للغزو الثقافي الأجنبي ومنها المجتمع العربي .

وعلى الرغم من الفوارق الجوهرية بين العالم العربي وتلك الجماعات الأفريقية القبلية ، فالموقف واحد في جوهره . والأمر لا يخرج في النهاية عن أن يكون عملية هجوم أو غزو ثقافي من الغرب وحضارته على الثقافة العربية الاسلامية وتهديد لها ، مما أثار لدى بعض الأوساط إحساساً عميقاً بالقلق ، تمثل في المناداة بضرورة العودة الى التراث والعمل على احياؤه كنوع من الملاذ الأخير الذي يمكن أن نحتمي به من ضياح شخصيتنا الثقافية ، وان كانت هناك فئات أخرى ترحب بهذا الاحتكاك الثقافي وتقبله بدون مناقشة أو مع بعض التحفظات . فكأن الاهتمام بموضوع التراث واثارة مشكلة جدوى الاشتغال به ، واختلاف الآراء حول ذلك ، كل هذا نجم - الى حد كبير - من الشعور العام بالضعف والتخلف ازاء الثقافة الحديثة الوافدة من الغرب والرغبة الطبيعية لدى البعض على الأقل في الدفاع عن « الهوية الثقافية » ، والالتجاء في ذلك الى سلاح التراث ، على الرغم من كل ما قد يحمله ذلك من مخاطر العودة الى الماضي ، والتقوقع على الذات ، والانفصال عن الحاضر ، والابتعاد - الى حد كبير - عن التيارات الثقافية والفكرية المعاصرة .

ولست أقصد هنا الى التعرض للآراء المختلفة والأفكار المتضاربة حول قضية التراث . ولكنني أرجو أن أعرض

الموضوع من وجهة نظر محددة بالذات ، تقوم على التسليم منذ البداية بأهمية التراث وضرورة العمل على احيائه - أو احياء بعضه على الأقل - والتعريف به وتقريبه الى ذهن الرجل العادي فضلاً عن خاصة المثقفين ، على أمل أن يصبح ذلك التراث جزءاً أساسياً في تكويننا الفكري والثقافي .

ونقطة الانطلاق في هذه المعالجة هي اعتبار الثقافة وحدة كلية متكاملة وعملية مستمرة تتعدى في وجودها كل اللحظات الزمنية الآنية وتتصل حلقاتها ببعضها ببعض ، بغير انقطاع على مر العصور ، على الرغم مما قد يطرأ على بعض مظاهرها من تغير واختلاف ، وما تتعرض له أثناء ذلك من إضافات واستعارات من الثقافات الأخرى التي تحتك بها . وهذا معناه أن الثقافة تنمو وتتطور وتكتسب قدرات جديدة باستمرار ، وأن العقبات التي قد تعترض سبيلها وتعوق نموها اثنا هي في آخر الأمر تجارب وخبرات جديدة ، من شأنها أن تزيد هذه الثقافة عمقاً وثراء إذا أحسن الاستفادة منها . وعلى ذلك فليس ثمة ما يدعو الى التنكر للجذور أو الأصول الثقافية القديمة أو قطع الصلة بها ، رغم أن ذلك سوف يساعد على تطوير واقعنا الثقافي ، وربطه بالحركات الفكرية السائدة في الخارج ، واضفاء طابع المعاصرة على هذا الواقع . وأي محاولة لقطع الصلة بين حاضر الثقافة وماضيها في أي مجتمع من المجتمعات لن يؤدي الا الى ظهور مسوخ ثقافية شوهاء لا تمت الى ذلك المجتمع بصلة .

ومن الناحية الأخرى ، فان استعارة عناصر ثقافية من مجتمعات وثقافات أخرى وتمثلها لن تؤدي بالضرورة الى ضياع المقومات الثقافية الأصيلة واختفائها تماماً ، بل قد يكون ذلك عامل قوة ونمو واثراء . واذا كنا نقول ان الثقافة كائن حي وعملية مستمرة ومتصلة الحلقات ، فان بقاء هذه الثقافة واستمرارها في الوجود ، وتطورها مع الاحتفاظ بأصالتها ومقوماتها الأساسية ، تستدعي ربط الماضي المتمثل في التراث الثقافي بالحاضر والعمل على تحديثه « وعصرته » - ان صح هذا التعبير - عن طريق تقريبه الى الأفهام ، وتقديمه بصورة تتلاءم وتتفق مع ظروف واطراح ومتطلبات الحياة الفكرية في الوقت الحالي ، بحيث يصبح عنصراً متكاملأ في الثقافة المعاصرة . فالمسألة فيما يتعلق بالثقافة العربية والتراث العربي الاسلامي تنحصر في كيف نضمن الاحتفاظ بذلك التراث العريق ونضمن في الوقت ذاته عدم تخلفنا ثقافياً عن التيارات والحركات الفكرية الحديثة المتلاحقة .

والذي يدعو الى الاستغراب ، ويستحق الملاحظة ، هو أن التراث الثقافي لم يؤلف في الحضارة الغربية مشكلة عويصة تستنزف قوى المثقفين هناك ، وترهق عقولهم وتدفعهم الى ذلك الانقسام الخطير حول أهمية وجدوى الاهتمام به ، مثلما حدث في العالم العربي منذ أواخر القرن الماضي وحتى الآن . فعلى الرغم من كل ما أحرزه الغرب من تقدم في العلم والتكنولوجيا ، ومختلف مظاهر الحياة ، وأوجه النشاط العقلي والفكري فانه لم يتشكك قط في أهمية التراث ، أو على الأقل لم يعتبر ذلك مشكلة عويصة تستحق الوقوف أمامها طويلاً ، وتنقسم حولها الآراء ، وتباين وجهات النظر ، بل على العكس من ذلك ، كان دائماً يعتبر الاهتمام بالدراسات التراثية مسألة مسلماً بها ، وليس علامة على التخلف أو عاملاً من عوامله ، وانه ليس ثمة تناقض على الإطلاق بين ذلك التراث سواء أكان هو التراث اليوناني الروماني ، أو تراث العصور الوسطى ، وحتى عصر النهضة ، وبين ما أحرزته حضارتهم وحققته من تقدم . فثمة اذن نوع من الاتصال والاستمرار ابتداء من الثقافة الهيلينية حتى الحضارة العلمية المعاصرة .

ولقد كانت هناك دائماً جهود طويلة مضيئة ومتصلة لدراسة التراث الثقافي في الغرب وتحليله ومحاولة فهمه وتطويره لتطلعات العصر وتقريبه الى أذهان الأجيال المتتالية حتى يؤلف جزءاً من ثقافتهم الخاصة وتكوينهم الذهني . وهو الأمر الذي نفتقر اليه نحن هنا بالنسبة لتراثنا العربي والاسلامي العريق . ولسنا نقصد بذلك تلك الجهود المثمرة التي تبذل في الغرب لنقل التراث اليوناني الروماني ، وترجمته من لغته الأصلية الى اللغات الأوروبية الحديثة فحسب ، بحيث نجد أن العمل الواحد يترجم أكثر من مرة في اللغة الواحدة ، ويتوفر على هذه الترجمات كبار المتخصصين من الأساتذة ، وانما أقصد أيضاً (ترجمة) التراث داخل اللغة الواحدة من (اللغة) التي كانت سائدة في عصر من العصور الى (اللغة) السائدة الآن . والمثال الفذ في ذلك هو نقل ملحمة بيولف Beowulf الشهيرة من اللغة الانجليزية القديمة الى الانجليزية الحديثة ، لتيسير قراءتها للرجل العادي . وذلك فضلاً عن الشروح والتعليقات والتفسيرات والدراسات المختلفة ، التي تتناول مختلف جوانب هذه الأعمال ، وتلقى الضوء عليها ، وتقربها الى ذهن الرجل الحديث ، وتساعد بالتالي على (عصrone) ذلك التراث وتحديثه . بل لقد أخضع هذا التراث القديم للدراسة والتحليل في ضوء النظريات العلمية الحديثة بقصد التعمق في أغواره . فلم تحمل الأساطير اليونانية القديمة ، على زعم أنها خرافات تتعارض مع نظريات العلم الحديث ، وانما خضعت لتفسيرات التحليل النفسي وللتأويلات الانثربولوجية ، بل وكانت هي ذاتها مصدراً لقيام نظريات جديدة ، تحتل مكاناً مرموقاً في تاريخ العلم . والمثال الواضح لذلك هو نظرية فرويد عن عقدة أوديب التي تقوم وترتكز على أسطورة أوديبوس المشهورة . والدراسات التاريخية والاركيولوجية والانثربولوجية والاجتماعية والسيكولوجية وغيرها حول تلك الأساطير تفوق الحصر . وليس ثمة ما يدعو الى الدخول هنا في تفاصيل هذا الموضوع . لأن كل ما نهدف اليه هو الاشارة الى موقف الحضارة الأوربية العلمية العقلانية المعاصرة من التراث القديم ، وكيف أن هذا الموقف لم يسمح بوجود فجوة واسعة سحيقة ، تفصل بين الفكر القديم والفكر الحديث ، وذلك بعكس ما هو عليه الحال في الثقافة العربية ، حيث أدى الاهمال والتنكر الطويلين للتراث من ناحية ، والجري غير الواعي وراء الحضارة والفكر الغربي من ناحية أخرى ، الى قيام هذه الفجوة الرهيبة بين القديم الأصيل ، والجديد المعاصر ، وهي فجوة تعبر عن نفسها بوضوح في ذلك التساؤل الذي يثور الآن حول جدوى التراث ، وهل نهمله على اعتبار أنه من مخلفات الماضي ، أم نعمل على احياؤه كوسيلة للمحافظة على الهوية الثقافية بصرف النظر عن قيمته في ذاته .

وتحمل هذه النظرة الضيقة - وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنها - كثيراً من الخطر لأنها انما تهتم بالتراث حتى تهرب من الحاضر الواقع بشروره ومتاعبه ، وتعيش في الماضي الذي يمثل المرحلة الزاهرة السعيدة في تاريخ الفكر العربي والأصالة العربية . ولذا فان أصحاب هذه النظرة لا يأبهون كثيراً بمسألة (تحديث) التراث ، أو العمل على تقريبه للأذهان والأفهام ، وتحليله في ضوء النظريات العلمية الحديثة بقدر ما يهتمون بمجرد التحقيق والنشر والشرح اللغوي ، والدعوة الى التمثيل بالتراث ، وإحياء القيم التي كانت تلازمه ، والعودة الى أنماط الحياة المرتبطة به . ولست أعتقد أن ذلك هو خير أسلوب لخدمة التراث وتطويره . فهو موقف يؤدي في آخر الأمر الى جود ذلك التراث ذاته ، ويقائه على ما كان عليه ، وزيادة النفور منه ولن يؤدي بحال الى أن يصبح ذلك التراث جزءاً من الحياة الثقافية والفكرية المعاصرة .

ولسنا ننكر أو نهون من شأن الجهود التي يبذلها المتخصصون في تنقيح التراث ونشره ، ولكن هذه كلها عمليات تتم في

نطاق ضيق محصور ، ويقوم بها متخصصون لخدمة غيرهم من المتخصصين ، ولا يكاد أثرها يتجاوز حدود المهتمين بالدراسات التراثية ، دون أن تمس في ذلك القاريء العادي ، أو من يمكن تسميته بالمتقن العام . وصحيح أن هناك بعض الجهود التي تبذل لإعادة كتابة التراث وتبسيطه ، وتقديمه في أسلوب عصري حديث بقصد تقريبه الى أذهان وأذواق وأفهام النشء ، وقد حققت هذه المحاولات - أو بعضها على الأقل - كثيراً من النجاح ، ولكنها مع ذلك جهود فردية وقليلة وينقصها عنصر الاستمرار . والطريف في الأمر هو أننا كنا الى عهد غير بعيد نعطي مسألة تقريب التراث من أذهان النشء أهمية وعناية أكبر مما نعطيها لها الآن ، وكانت كتب التراث المبسطة أو (المهدبة) توزع على طلاب المدارس في مرحلة التعليم الثانوي . وأفضل الأمثلة على ذلك كتابان كان لهما بغير شك شأن في تعريف الطلاب ببعض التراث العربي ، وكانا بداية لاثارة اهتمام الكثيرين بمتابعة الكتابات التراثية ، وأعني بهما كتاب (مهذب رحلة ابن بطوطة) بعد تنقية الكتاب الأصلي من كثير من الشوائب والاطناب والتطويل الملل ، بحيث أصبحت قراءته متعة للكثيرين ، وكتاب (كليله ودمنة) . بل الأكثر من ذلك أن بعض كتب التراث كانت تقرر على الطلاب في صورتها الأصلية بغير حذف أو تبسيط أو تعديل الا في أضيق الحدود ، ان كانت تناهيا يد التغيير على الاطلاق .

والمثال الذي يحضرني الآن هو كتاب قدامة بن جعفر (نقد النثر) الذي كان يقرأه طلاب السنوات الأخيرة من المرحلة الثانوية رغم صعوبته وعمقه . وما أظن أن الكثيرين من خريجي الجامعات العربية الآن ، بما في ذلك خريجو كليات الآداب ، قرأوا هذا الكتاب أو حتى سمعوا به وباسم صاحبه . وليس العيب في هذا الوضع هو عيب الأجيال الناشئة ، بقدر ما هو عيب نظام التعليم وفلسفته في الوقت الحالي ، والميل الغالب الى التبسيط والتسطيح . ولكن هذه مسألة أخرى ليس هنا مجال التعرض لها .

والمهم هنا هو أن الذي نفتقر اليه بحق هو العمل على نقل أو (ترجمة) التراث الى اللغة الحديثة السائدة بين أوساط المتعلمين كوسيلة أولى لتقريب التراث وإدخاله الى حياتنا الفكرية كي يصبح جزءاً عضواً من تفكيرنا ، وحتى يلتحم مع بقية مكونات الثقافة العربية المعاصرة بنفس المعنى الذي التحمت به الأعمال التراثية في الغرب بالثقافة العلمية الحديثة المتطورة .

وسوف يساعد ذلك بطريقة فعالة ومجدية على إحياء الأعمال التراثية الأصيلة ذاتها . ولست أقصد بالأحياء هنا عملية النشر بعد تحقيق النص بالأسلوب التقليدي المتبع الآن ، وإنما المقصود بالأحياء هنا نفخ الحياة من جديد في هذا التراث ، وبعثه من رقدته عن طريق تحديثه وإعادة النظر فيه ، في ضوء النظريات العلمية الحديثة ، سواء أكانت نظريات لغوية أم سيكولوجية أو اجتماعية أو انثروبولوجية أو غير ذلك . وكما سبق أن ذكرنا فإن الأسلوب المتبع حتى الآن في تحقيق التراث ونشره ، يترك هذا التراث في آخر الأمر مادة ميتة خالية من الحياة بالنسبة لعامة المثقفين ، أو حتى خاصتهم من غير المتخصصين في شئون التراث ، لأنها تقنع بتقدمه في ضوء العصر الذي ظهر فيه فحسب ، وبذلك يبدو جزءاً من ذلك الماضي الذي راح وانقضى ، ويظل بعيداً وغريباً عن الثقافة المعاصرة ، بل ومتعارضاً معها في كثير من الأحيان . وإذا كنا قد أشرنا الى بعض الجهود التي بذلت لتبسيط التراث ، وتقديمه لطلاب المدارس الثانوية في فترة

معينة من تاريخنا المعاصر ، فان ثمة جهداً ينبغي الإشارة اليه والاشادة به لانه كان يحاول تقريب هذا التراث للقاريء المثقف في العالم العربي ، ولكنه توقف هو أيضاً رغم ما حققه من نجاح . وأنا أعني بذلك الجهد المضني الذي بذل في اصدار مجلة (تراث الانسانية) التي كانت تنشر في مصر ، واستمرت في الصدور تسع سنوات ، وكان لي حظ الاشراف على تحريرها لفترة قصيرة ، قبل أن تعصف بها القرارات غير المدروسة والمتسارعة ، فتوقفت عن الصدور ، رغم ما كانت تؤديه من خدمات ممتازة في مجال التعريف بالتراث . فقد كانت المجلة تعني بتقديم أمهات الكتب التراثية العالمية (وليس فقط كتب التراث العربي الاسلامي) ، وتعرف بهذه الكتب وتقديم ملخصات وافية لمحتواها ، والعصر الذي ظهرت فيه ، وحياة أصحابها ، ومقتطفات منها ، والاثر الذي تركته . وربما كان أهم نقطة عرضت لها بعض الكتابات التي ظهرت في هذه المجلة ، هو الاهتمام بابرار المنهج الذي اتبع في تلك الأعمال ، والموقف المنهجي والنظري لأصحابها . فهذه ناحية هامة وجوهية بغير شك ، كما أنها هي الناحية التي تتعدى وتتخطى كل حدود الزمان والمكان . وإذا كان هناك من يرفض الاهتمام بأعمال التراث ، على أساس أن المادة التراثية تنتمي الى عصور غير عصرنا ، فليس هناك من يستطيع أن يرفض المشكلات والمواقف المنهجية ، التي تكشف عن التوجه العقلي ، أو الموقف الذهني الذي يصدر عنه الكاتب في كتاباته .

فكان الذي يهم في المحل الأول في دراسة التراث ومحاولة احياائه والاهتمام به ، ليس هو المادة التي تضمها الأعمال التراثية وانما المبادئ العقلية وقوانين الفكر التي كانت تحكم تفكير المفكرين والكتاب والعلماء والأدباء الذين تركوا لنا هذا التراث الضخم ، والأسلوب الذي كانوا يتبعونه في ائتالياف والدراسة والتحليل ، والمناهج التي كانوا يصيدرون عنها ، والتي كانت توجه دراستهم وبحوثهم ، على اعتبار أن المنهج هو في جوهره موقف عقلي يقفه الباحث ، ويتمسك به في نظرتة الى الأشياء . فالذي يبقى من كل النتاج الفكري بعد أن تزول أهمية وجدة المادة ، هو المنهج والطرائق والمعايير التي كان يتمسك بها أصحاب تلك الكتابات ، وربما كان ذلك أوضح في الأعمال التراثية العلمية منه في الكتابات التي تدور حول الموضوعات الانسانية ، من أدبية وفلسفية واجتماعية . فالمادة العلمية في كتب التراث لم تعد تتلاءم بغير شك مع العصر الحديث ، بعد كل ما أحرزه العلم من تقدم ، ومع ذلك فان هذه الكتابات العلمية ذاتها تكشف لنا بغير شك عن نوع التفكير الذي كان يسود في العصر الذي تنتمي اليه ، والاهتمامات التي كانت تشغل بال العلماء وتستقطب جهودهم ، كما أنه تكشف لنا عن مدى ما تحقق من تقدم علمي في عصر معين من العصور . والأهم من هذا كله هو أنها تكشف لنا عن القيود والضوابط والمبادئ والمعايير التي كانت تحكم عملية التفكير والبحث العلمي . وهذه أمور أكثر بقاء واستمراراً ويمكن أن تكون جزءاً من موقفنا نحن الآن في نظرتنا الى الأشياء ، وذلك لو أمكن لنا دراسة هذه الأعمال التراثية من هذه الزاوية بالذات . فمسألة المنهج في الكتابات التراثية اذن مسألة محورية وتستحق أن تعطى ما هي جديرة به من عناية واهتمام .

وثمة ناحية أخرى قلما نلتفت اليها في دراستنا للأعمال التراثية ، وان لم تغب عن أذهان بعض المستشرقين والمهتمين بالتراث العربي والاسلامي من الأجانب ، واعني بذلك اخضاع بعض القضايا والأحكام الواردة في كتب التراث للفحص والاختبار ، ليس في ضوء الظروف التي أنتجتها ، ولكن في ضوء المعطيات والأوضاع الراهنة التي تسود الآن في

المجتمع العربي ، أو حتى في غيره من المجتمعات التقليدية ، بحيث تعتبر هذه القضايا والأحكام بمثابة الفروض التي يراد اختبار مدى صحتها ، بالرجوع الى ملاسبات وشروط جديدة . والمثال الذي أحب أن أشير اليه هنا لتوضيح ما أريد أن أقول ، هو مبدأ « العصبية » كما عرضه ابن خلدون في « المقدمة » فنحن نعرف أن كثيراً من علمائنا ومفكرينا درسوا « المقدمة » وظهرت حولها كتابات عديدة ، تتفاوت فيما بينها تفاوتاً شديداً في درجة العمق ، والقدرة على التحليل ، والقاء الضوء على آراء ابن خلدون ، أو مجرد العرض السريع الضحل والتلخيص المبسر وترديد آراء ابن خلدون بعد صياغتها في عبارات أخرى كثيراً ما تكون أقل دقة واحكاماً من عبارات ابن خلدون نفسه . وهذا لا ينفي بطبيعة الحال وجود عدد قليل من الكتابات الممتازة عن ابن خلدون ، ومقدمته وآرائه ونظرياته ، كما لا ينكر وجود دراسات أخرى تناقش هذه الآراء بالإشارة الى بعض النظريات الاجتماعية الجديدة . فهذه كلها اسهامات تستحق الاحترام والاعجاب . ولكن ما أقصده هنا هو أن مبدأ العصبية عند ابن خلدون يستحق أن يعرض له بعض الباحثين العرب بالمناقشة ، في ضوء المادة الانثوجرافية التي يتم جمعها من المجتمعات القبلية القائمة الآن في الوطن العربي ، فمثل هذا العمل خليق بأن يبين لنا في آخر الأمر مدى دقة نظرية ابن خلدون ، ومطابقتها للواقع ، وصلاحياتها لفهم وتفسير أحد أشكال التنظيم الاجتماعي في المجتمع العربي المعاصر . والمعروف أن نظرية ابن خلدون قد أثارت مخيلة عالم اللاهوت ، المستشرق الشهير « ويليام روبرتسون سميث » وأنه استرشد بها في دراسته لنظام القرابة في بلاد العرب القديمة ، وهو كتاب أثار بدوره مخيلة عالم الانثروبولوجيا البريطاني الشهير « إيفانز بريتشارد » فاستعان بهذه النظرية ذاتها في دراسته لنظام القرابة لدى قبائل النوير في جنوب السودان ، وإلى حد أقل في دراسته الرائعة العميقة عن التنظيم الاجتماعي والقبلي في برقة (ليبيا) ، وذلك في كتابه الشهير عن (The Sanusi of Cyrenaica) وقد أوضحت هذه النظرية لإيفانز بريتشارد بالخروج علينا بمبدأ هام ، يفسر في ضوئه نسق القرابة والنسق السياسي في هذين المجتمعين ، وهو المبدأ الذي يعرف الآن في كل الكتابات الانثروبولوجية المعاصرة باسم « الانشقاق والالتحام » . فهذا مجال طيب اذن لما يكن أن نفعله في مجال الاهتمام بالتراث العربي الضخم ، والعمل على إحيائه ، وتطويره لمطالبات العصر والظروف القائمة الآن ، بدلاً من الاكتفاء بتحقيقه ونشره وتلخيصه وربطه طيلة الوقت بالعصر الذي أنتجه ، وبالتالي تقييده وتكبيله بقيود الماضي ومنعه من الانطلاق والتحليق (*) .



ولقد كانت الفلسفة التي تكمن وراء هذا العدد الذي بأيدي القراء هي أن يقوم الأساتذة الباحثون بمحاولات رائدة في مجال إعادة النظر في بعض الكتابات التراثية ، وقراءة هذه الأعمال قراءة جديدة لا تقنع بالتلخيص ، وانما ترمي في المحل الأول الى تقديم هذه الأعمال في ضوء العصر الذي نعيش فيه ، مع الاهتمام بوجه خاص بالنواحي المنهجية .

(*) سبق لي أن اقترحت هذا الموضوع على بعض الزملاء من أساتذة الانثروبولوجيا في بعض الجامعات العربية ، على أمل أن يهتم واحد منهم أو أكثر ليس فقط بدراسة مبدأ العصبية ، وإسهام كل من روبرتسون سميث ، وإيفانز بريتشارد وتلاميذها في فهم ابن خلدون ، وانما القيام بمثل هذه الدراسات من وجهة نظر عربية من ناحية ، ومحاولة البحث عن بعض المبادئ النظرية في كتب التراث الأخرى ، التي تصلح لأن تكون فروضاً موجهة لبحوث أصلية جديدة ، مما يؤدي الى ارتباط الماضي بالحاضر ، وبالتالي استمرار التراث في الكتابات المعاصرة . وثمة ما يشير الى استجابة البعض لذلك ، وترب ظهور عدد من الدراسات في هذا المجال الخصب .

ولقد ركزنا في طلبنا اليهم جميعاً على ضرورة إبراز هذه النواحي ، باعتبارها الجانب الأكثر رسوخاً واستمراراً ، والتي يمكن أن توجه البحوث التراثية في المستقبل . وهذه على أية حال بداية لجهود طويلة ، نرجو أن نستمر فيها ، على أمل أن يؤدي ذلك الى الوصول الى نظرة متكاملة الى مناهج البحث في الأعمال التراثية ، والمبانيء العقلية التي كانت تحكم هذه الأعمال ، ومدى امكان الاستعانة بهذه المناهج والمبانيء في إقامة فكر عربي جديد ، يسترشد بجهود المفكرين السابقين مثلما يسترشد بالفكر الغربي المعاصر .

د. أحمد أبو زيد

التمهيد :

حول المقدمة والتاريخ :

قد يظهر لأول وهلة أن اختيار ابن خلدون كمؤرخ ،
والتعرض لكتابه العبر ، أمر مستغرب . فابن خلدون
أشهر من أن يعرف ، وكتابه غلب على غيره من كتب
التاريخ الاسلامي في المشرق وفي المغرب .

واذا كان من المعروف ان الباحثين المحدثين كرسوا
لدراسة ابن خلدون وكتاب العبر العديد من الأبحاث ،
مما لم يحظ بمثله غيره من علماء العرب ومفكري
الاسلام ، فانه من المعروف ايضا أن الجزء الأول من
العبر ، الذي اشتهر باسم « مقدمة ابن خلدون » هو
الذي أذاع صيت المؤرخ المغربي الكبير ، ورفع - كما
أراد الكثيرون بحق - الى مصاف الفلاسفة وكبار
المفكرين .

والحقيقة ان الكتاب الأوروبيين بدأوا الاهتمام جديا
بدراسة ابن خلدون منذ النصف الثاني من القرن التاسع
عشر ، بعد أن قام دسلان (De Slane) ، الذي كان
قد شغل منصب المترجم الرسمي للجيش الفرنسي في
الجزائر قبل ان يصبح عضوا بالمجمع الفرنسي ، بترجمة
الاقسام الخاصة بتاريخ البربر من كتاب العبر الى
الفرنسية ، ثم بترجمة الجزء الأول من الكتاب الى
الفرنسية تحت عنوان « مقدمات ابن خلدون » Les
Prolegomenes . فكان الأوروبيين هم الذين
أطلقوا اسم المقدمة أو المقدمات على الجزء الأول
من تاريخ العبر . اذ أن ابن خلدون يسمى هذا الجزء
من كتابه ب : « الكتاب الأول في : « طبيعة العمران في

ابن خلدون مؤرخاً تأريخ العرب والبربر في كتاب العبر

سعد زغلول عبد الحميد

قسم التاريخ - كلية الآداب جامعة الكويت

الخليقة ، وما يعرض من البدو والحضر ، والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها ، وبذلك
من العلل والأسباب»^(١) .

والصحيح ان لتاريخ ابن خلدون مقدمتين : أولاها لا تحمل عنوانا ، وهي خطبة الكتاب في ٤ صفحات ٢١ -
٧) ، وتبدأ بالحمدلة والتصلية . أما البعدية فهي في التعريف بفن التاريخ ، موضوع الكتاب ، الذي يسميه
« كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » ، ثم
يرتب الكتاب على :

- مقدمة : في فضل علم التاريخ

- ثم ثلاثة كتب : - الأول في العمران

- الثاني في اخبار العرب

- الثالث في اخبار البربر

وهو يشير بعد ذلك الى انه انتهز فرصة الرحلة الى المشرق من اجل تكملة الكتاب فيما يتعلق بتاريخ المشرق ودول العجم
هناك . ويختم ابن خلدون خطبة الكتاب هذه بالاشارة الى عنايته بأولية الأجيال والدول ، واسباب التصرف والحول ،
وما يعرض في العمران من بدو وحضر مع ايضاح البراهين والعلل . وهو يعرف قيمة كتابه بفضل علومه الغربية ،
ويهدي نسخته الى السلطان ابي فارس عبدالعزيز (ابن السلطان ابي الحسن) المريني ، ليوقف على خزانة طلبة العلم
المرينية بجامع القرويين بفاس .

أما مقدمة الكتاب كما ألفها ابن خلدون فتقع في حوالي ٢٢ صفحة من طبعة بولاق (٧ - ٢٨) وهي تحمل عنوان :
« فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والاماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها » .
وهي مع الخطبة الأولى تكوينان موضوعا واحدا في علم التاريخ ، وتعتبران جميعا مقدمة الكتاب . وهكذا لا يخرج ابن
خلدون في كتابة مقدمة كتابه التاريخي على ما كان متعارفا عليه ، عند من سبقه من كتاب العرب والمسلمين ، من
مؤرخين وغيرهم . فهو يكتب مقدمة في عدد قليل من الصفحات بغرض بيان اهداف الكتاب ، من : التعريف بالعلم
الذي يعالجه ، والمنهج الذي يتبعه في التأليف والمظان التي يرجع اليها ، الى جانب ما يرجي من انتهاج سبيل الحق
والعدل - غرض كل بحث علمي .

المقدمة في التاريخ :

يعرف ابن خلدون التاريخ في المقدمة بأنه « فن غزير المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية (ج ١ ص ٧) ، وهو
ينص قبل ذلك في الخطبة (ج ١ ص ٣) ، على انه علم من النوع السهل الممتنع ، كما نقول الآن ، اذ : « يتساوى في

(١) انظر طبعة بولاق ١٨٨٢ ، وهي المصورة في ط . بيروت باسم منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٣٩١ - ١٩٧١ م ، والنص في ٥٣٤ ص يضاف اليها الفهرسة في
١١ ص

فهمه العلماء والجهال « فهو علم له » ظاهر « و » باطن . والظاهر هو الشكل الخارجي الممثل في الأحداث او الاخبار التاريخية في تسلسلها الزمني المعروف . اما الباطن فهو يعني كنه العملية التاريخية من حيث النظر في اسباب الوقائع وتحقيق عللها وبيان العلاقة بين المقدمات والنتائج في مسار الحوادث . ولكل ذلك فالتاريخ ، كما يراه : « اصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد في علومها وخلق » . بمعنى ان التاريخ علم عقلي بدلا من تصنيفه بين العلوم النقلية .

ومجرد النقل ، دونما تحقيق وتدقيق ، مرفوض في التاريخ ، فهو السبب الأول لما يقع فيه الناقلون من المغالط . والتاريخ محتاج الى معارف مساندة متنوعة ، من : « قواعد السياسة وطبيعة العمران ، والأحوال في الاجتماع الانساني » الى جانب قياس الحاضر بالماضي وعكس ذلك من قياس الماضي بالحاضر (ج ١ ص ٧ ، ص ٢٣) .

وهو يفرق بين « فحول المؤرخين » في الاسلام وبين الأدعياء المتطفلين ، ويضع في طبقة الكبار : ابن اسحق ، والطبري وابن الكلبي والواقدي ، والمسعودي (ج ١ ص ٣) ، وهؤلاء هم اصحاب التاريخ العام . اما اصحاب التواريخ المحلية من الكبار ، فمنهم ابن حيان مؤرخ الاندلس والدولة الاموية بها ، والرقيق مؤرخ افريقية والدول التي كانت بالقيروان^(٢)

ويأتي بعد الطبقة الأولى من المؤرخين ، طبقة ثانية من المقلدين الذين يوصفون ببلادة الطبع والعقل ، فيكتفون باحتذاء المثال ، ويكررون في موضوعاتهم الأخبار المتداولة بأعيانها لا يذكرون اسباب نشوء الدول وتطورها ، ولا يعرفون علة الوقوف عند غايتها (ج ١ ص ٤) .

ويصنف ابن خلدون طبقة ثالثة من صغار المؤرخين الذين افرطوا في الاختصار ، فاكثفوا في تقليدهم بأساء الملوك ، وعدد ايام ملكهم ، دونما اشارة الى الانساب (ج ١ ص ٤) والأنساب كانت مهمة في القديم من اجل معرفة العائلات المالكة ، والاسر الوزارية واصول اصحاب الوظائف العامة (ج ١ ص ٢٦) . وهو يعطي نموذجاً لهذا النوع من التاريخ هو كتاب ابن رشيقي القيرواني ، الموسوم بـ « ميزان العمل » (ج ١ ص ٤) .

وهو يضيف بعد هؤلاء طبقة رابعة فمن يسميهم بالعوام ، ومن لا رسوخ لهم في المعارف وهم الذين استخفوا مطالعة التاريخ وحمله ، والخوض فيه والتطفل عليه ، فاختلطت اللباب بالقشر ، والصادق بالكاذب (ج ١ ص ٢٣) .

نقد طبقة الكبار من الفحول :

ولكن تصنيف مؤرخي الاسلام في طبقات اشبه بطبقات الخاصة والعوام والجماهير في المجتمع لا يعني وجود فواصل دقيقة بينهم ، أو ان طبقة الخاصة منهم كانت فوق مستوى نقد مؤرخنا الذي جعل التاريخ في مصاف العلوم الحكمية اي العقلانية الراقية .

(٢) العبر ، ج ١ ص ٤ - في الاصل « أبو حيان » ، و « ابن الرقيق » .

فالمسعودي الذي وضعه في قمة الكبار من الفحول ، وجعله النموذج الذي احتذاه في موسوعيته من أتى بعده فنحا منحاه (ج ١ ص ٤) ، وكذلك الواقدي لا تسلم كتبها (من المطعن والمغمز ما هو معروف عند اللآبات ، ومشهور بين الحفظة الثقات) ورغم ذلك «فان الكافة اختصتهم بقبول اخبارهم ، واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم» . وهنا ينص على أن «الناقد البصير قسطاس نفسه ، في تزييفهم فيما ينقلون او اعتبارهم . فللعمران طبائع في احواله ترجع اليها الأخبار ، وتحمل عليها الروايات والآثار» (ج ١ ص ٣) .

وهو عندما ينتقل في مجال النقد التاريخي من التعميم الى التخصيص ، ينكر على المسعودي اكثر من رواية وهمية ومغلوبة ، مما يتعلق بالتاريخ القديم او تاريخ الرسل وما يختص بتاريخ الخلفاء . وفي الرواية الأولى ينتقد الوهم في احصاء اعداد العساكر حيث اخذ المسعودي بالرواية التي تقول ان جيوش بني اسرائيل التي أحصاها موسى (عم) بلغت ٦٠٠ الف رجل او اكثر (٣) والثانية متعلقة بالروايات الاسطورية التي تريد ان يكون ملوك اليمن القدامى (التبابعة) قد غزوا افريقية وبلاد المغرب ، وان ملكهم افريقش هو الذي سمي اهل المغرب باسم البربر ، وان قبائل صنهاجة وكتامة حفدة الحميريين من اليمنية . وهي الرواية التي اخذ بها كل من الطبري والجرجاني وابن الكلبي - الامر الذي يأباه بحق نسبة البربر (٤) .

وابن خلدون ينكر ايضا ان تكون قصة زواج العباسة اخت الرشيد بجعفر بن يحيى هي السبب في نكبة البرامكة ، ويأبى على العباسة ان «تدنس شرفها العربي بمولى من موالى العجم» كما يتساءل : «وكيف يسوغ من الرشيد ان يصهر الى موالى الاعاجم على بعد همته وعظم آبائه» . وهنا يطبق ابن خلدون نظريته في قياس الماضي بالحاضر او الغائب بالشاهد فيقول :

«ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المصنف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زناتة لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها . وفي سلطان قومها ، واستنكره ولج في تكذيبه» . وهو يقدم اثر ذلك الاسباب المنطقية للنكبة ، مما يتمثل في استبدال البرامكة بالدولة (ج ١ ص ١٣) ، وهو ما اخذ به ابن عبد ربه (ج ١ ص ١٤) .

أما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد للخمر ، فمردود عليه بما يشهد به الطبري له من الدين والعدالة ، وصحابة العلماء والعبادة (ج ١ ص ١٤) والمعروف ان الرشيد كان يمتنع الخمر ، وان كان يشرب النبيذ (نبيذ التمر) على مذهب اهل العراق (ج ١ ص ١٥) .

وقصة ابن عبد ربه التي تحكي عن زواج الخليفة المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل اثر مغامرة قصصية مثيرة ، صعد فيها الخليفة الى سطوح بعض الدور العالية في زنبيل مدلي بمعالق وجدائل من الحرير ، مرفوضة هي الاخرى بالنسبة للخليفة الذي عرف بدينه وعلمه وكذلك بالنسبة لمنصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها (ج ١ ص ١٧) .

(٣) وهو يفتد صحة الرقم عن طريق عدم امكانية ادارة مثل العدد في صفوف منتظمة في ميدان القتال ، وكذلك عن طريق المقارنة بجيوش فارس في القديم وعند الفتح العرب حيث لم يزيدوا في الغامسية عن ٦٠ ألفا أو ١٢٠ ألفا عند المكثرين (انظر لاج ١ ص ٨ هذا ، كما ثبت في الاسرائيليات أن جنود سليمان كانت ١٢ ألفا) (انظر ج ١ ص ٩) .

(٤) ج ١ ص ٩ ، وانظر كذلك ص ١٠ حيث الاشارة الى أن ملوك اليمن غزوا المغرب وكذلك المشرق حتى بلاد الصين والروم حتى القسطنطينية ، وحيث يقول : وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة ، غريبة في الوهم والغلط ، وأشبه بأحاديث الغصص الموضوع .

وابن خلدون يعارض بعد ذلك من ينفي نسب الفاطميين ، ويستدل على صحة النسب بنجاح الدعوة . فكأنه يأخذ بالمبدأ القانوني الذي يقول ببطلاق كل ما بني على باطل . ويدلل على صحة هذه المقالة بما حدث للقرامطة الذين تلاشت دعوتهم بعد ظهورها بصفتهم ادعاء في النسب الشريف (ج ١ ص ١٨) أما عن موقف العباسيين من الفاطميين وانكارهم لنسبهم ، فأسبابه الأحقاد السياسية .

وهنا يشير ابن خلدون الى واحدة من نظرياته في السياسة فيقول « ان الدولة والسلطان سوق للعالم تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع . . . وتحدي اليه ركائب الروايات والاخبار وما نفق فيه نفق عند الكافة . فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل والأفن . . . ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقها الا برز الخالص واللجين المصفى وان ذهبت مع الاغراض والحقود ، وماجت بسماسرة البغي والباطل نفق البهرج والزائف » وهو يتبع ذلك بمبدئه النقدي الذي يقول : والناقد البصير قسطاس نظره ، وميزان بحثه وملتمسه » (ج ١ ص ١٩) .

وابن خلدون عندما يدافع بعد ذلك عن صحة نسب الادارسة الشرفاء ، يجنح بعض الشيء عن قواعد النقد التي يقرها فالى جانب ما يدل به على صحة النسب ، من ظهور احوال البادية ، وعداء الدولة العباسية ، يقف بقوة الى جانب تنزيه اهل البيت ، وان فراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن ، ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بآثمه وولج الكفر من بابه .

وهو يفسر اطنابه في الدفاع عن الادارسة بسبب ما سمعه بنفسه من بعض القادحين في نسبهم افتراء ، على زعم انه ينقله عن بعض مؤرخي المغرب ممن انحرف عن اهل البيت . ويختم ذلك قائلاً : « ونفي العيب حيث يستحيل العيب عيب ، لكنني جادلت عنهم في الحياة الدنيا ، وارجو ان يجادلوا عني يوم القيامة » (ج ١ ص ٢١) . وهنا يخرج ابن خلدون عن موضوعيته وعقلانيته في سبيل التشجيع للادارسة - ملوك المغرب - وحب آل البيت .

وهو بعد ذلك يدافع عن صحة نسب المهدي محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية ضد خصومه من ضعة الرأي من فقهاء المغرب وقتئذ ، ويستند في تأييد صحة نسبه الى نجاح دعوته ، فكأنه يقرر مبدأ في طبيعة الاشياء من حيث ضرورة : كون النتائج من جنس المقدمات . هذا ، وان عاد واكد ان سبب نجاح ابن تومرت هو الاستناد الى العصبية في قبائل مصمودة لأن النسب الفاطمي كان خفياً قد درس عند الناس ، وبقي عنده وعند عشيرته ، يتناقلونه فيما بينهم . فان ابن تومرت انسلخ من نسبه الأول (الفاطمي) « ولبس جلدة هؤلاء (المصامدة) وظهر فيها ، فلا يضره الانتساب الأول في عصبية اذ هو مجهول عند اهل العصابة » ، وهو الأمر الذي له نظائر عند العرب (ج ١ ص ٢٣) .

نظرية التطور « تبدل الأحوال » :

وبعد ايراد تلك الامثلة من مغالط المؤرخين يعود ابن خلدون مرة اخرى الى اسباب الغلط عندهم ، والعلوم التي يحتاج اليها المؤرخ ، واصول النقد التاريخي مما سبقت الاشارة اليه ، وكل ذلك كتمهيد لأهم نظرياته التاريخية ، وهي نظرية التطور التي يسميها بـ « تبدل الاحوال » .

والحقيقة ان ملاحظة التطور في المجتمع هي اهم اهداف المؤرخ ، فهي التي تميز بين التاريخ في شكله التقليدي القديم الذي يعني تسجيل الاحداث ، كما وقعت ، بمعنى الاخبار وبين التاريخ كعلم يعني بشرح اسباب الاحداث وبيان اولياتها . فكان التاريخ له وجهان كما يقال عن العملة وهما : الظاهر والباطن عند ابن خلدون . والظاهر هو القشر او الزبد الطافي على السطح ، والباطن هو اللب او القاع من البحر حيث الجوهر .

وفي التطور يقول « ان احوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال ، وكما يكون ذلك في الاشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عبادته » (ج ١ ص ٢٤) ويلاحظ ابن خلدون ان هذا التطور يكون بطيئاً فلا تظهر علاماته بشكل واضح الا على المدى الطويل ، وهكذا لا يتفطن اى تلك الحركة الخفية الا « آحاد من اهل الخلقة » اي الموهوبين من اهل البصر والبصيرة ، كما نرى .

وهو يجعل هذا التبدل في الأحوال السبب الحقيقي في تقلب الأمم والدول على مر العصور ، من : الفرس والسريانيين والنبط والتابعة وبنى اسرائيل والقبط من العصور القديمة المبكرة ، ثم تبدلت الاحوال فجاء الفرس ثانية والروم والعرب في العصور القديمة المتأخرة ، الى ان جاء الاسلام بدولة العرب (مضر) ، فانقلبت تلك الأحوال اجمع انقلاباً اخرى ، وصارت الى ما اكثره متعارف لهذا العهد ، يأخذ الخلف عن السلف « ثم درست دولة العرب . . . وصار الأمر في ايدي سواهم من العجم ، مثل : الترك بالشرق والبربر بالمغرب ، والفرنجة بالشمال ، فذهبت بذهابهم امم ، وانقلبت احوال وعوائد نسي شأنها وأغفل امرها » (ج ١ ص ٢٤) .

والرأي في المسار الخفي الذي يسلكه التطور ، والذي يؤدي ما بين دهر وآخر الى ذلك الانقلاب الذي يؤدي بأمم ودول ويحجى امما ودولا غيرها ، انه يسير في دوائر يرتفع من اسفل الى اعلى في دور الرقي الذي يكون بطيئاً ، ليشتهى من اعلى الى اسفل في شكل نقلة سريعة ، هي : ذلك الانقلاب الذي يمثل تمام التبدل . ويمكن لنا ان نتصور مسار التطور في نظرية ابن خلدون تلك ، بمسار سلك حلزوني الشكل ، مشدود افقياً بين قطبين فكان الاحداث التاريخية تسير اماما وفي شكل دوائر مترابطة فيما بينها ، تعلو وتهبط عبر الزمن ، حسبما تقتضي الاحوال .

أما عن أسباب التبدل الرئيسية فتتمثل بشكل اساسي فيما يطرأ على اصحاب الدول الجديدة من التغير ، عندما يأخذون في التحول عن اسلوب حياتهم المعتادة ، عن طريق النقل عمن كان قبلهم من اهل الدول السابقة ، فتقلدهم رعيتهم وذلك حسبما هو معروف في الامثال الحكمية ، من ان الناس على دين ملوكهم . فعن طريق التقليد والمحاكاة يتم التبدل والتغير ، ويتحول مسار الأحوال الى غير طريقها المرسوم اولاً ، وغالباً ما يذهل الناس عن مراقبة هذا التحول ، فلا يلاحظه الا اللماح الفطن .

ومن هذا المدخل يعرف ابن خلدون بما طرأ من التبدل على بعض الوظائف الهامة في دولة الاسلام ، مما يعالجه بالتفصيل في الكتاب الأول الخاص بالعمران ، مثل : التعليم والقضاء .

والذي دعاه الى ضرب المثل بالتعليم ، هو ما كان يقال من ان والد الحجاج كان معلماً بينما كان التعليم على ايامه هو ، في القرن الثامن الهجري ، من حرف المستضعفين من الناس الذين لا يحق لهم التطلع الى الرتب الرئاسية العليا التي ليسوا اهلاً لها ، خشية وقوعهم في المهالك « لانقطاع الجذم او العصبية » اما التعليم في صدر الاسلام فكان من مسئوليات العرب ، اصحاب الدولة من اهل الانساب والعصبية ، الذين كانوا يقومون بنشر تعاليم الاسلام على سبيل « التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي » (ج ١ ص ٢٥) كما آل اليه الحال فيما بعد .

والذي لم يقله ابن خلدون هنا ، هو : ان عدداً من كبار الثوار في دولة الاسلام اتخذوا مهنة التعليم ستاراً لهم ، ونجحوا بفضلها في جمع الانصار حولهم ، وتأليف جماهير الناس ضد حكامهم . وأهم الأمثلة على ذلك ثلاثة عرفتهم الدولة الفاطمية ، أولهم : ابو عبدالله الشيعي ، الذي وقع على عاتقه اقامة الدولة الفاطمية في المغرب (سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م ، وثانيهما : الثائر الزناتي أبويزيد المعروف بصاحب الحمار الذي ثار على القائم في المهديّة (سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م) ، وثالثهم : أبوركوة الاموي الذي ثار في برقة على أيام الخليفة الحاكم ، والذي هدد القوات الفاطمية في مصر (سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٧م) . كل هؤلاء اتخذوا مهنة التعليم مع قيامهم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ستاراً لثوراتهم . واطن ان هذه الأمثلة - الى جانب مثال المهدي ابن تومرت ، صاحب دولة الموحدين - هي التي كانت تشجع بعض ممتنهي التعليم الى التطلع الى العمل السياسي الذي حذرهم ابن خلدون من مغبة الطمع فيه لعدم الاهلية .

ومثل هذا ما يقوله عن وظيفة القضاء قديماً حيث كانت الرئاسة لبعض القضاة ، بل وقيادة الجيوش ايضاً ، وان احوال بيان ذلك الى فصل القضاء من الكتاب الأول « (ج ١ ص ٢٥) مع النص على أنّ القضاء في القديم كان « لأهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها » كما هي الوزارة بالمغرب على ايامه في اواخر القرن الثامن الهجري (ج ١ ص ٢٦) .

انقلاب اواخر القرن الثامن الهجري (١٤م) :

ويختتم صاحب العبر مقدمته التاريخية بالعودة الى تعريف التاريخ ، في معناه الضيق بانه الاخبار المتعلقة بعصر او بجيل في رقعة مكانية محددة ، فكأنه تسجيل للأحداث وذلك في مقابل التاريخ بمعناه الواسع الذي يعني بالتعرف على الاحوال العامة مما يتعلق بالاقاليم العريضة على طول الحقب الزمنية الممتدة . فذلك هو الاصل الذي يعتمده المؤرخ في شرح اخباره والغرض النهائي الذي يهدف اليه في التأليف (انظر العبر ج ١ ص ٢٧) .

المسعودي إماماً للمؤرخين :

وأهم من حقق مثل هذا هو المسعودي في كتابه مروج الذهب الذي ألفه حوالي سنة ٣٣٠هـ / ٩١٢م . فلقد شرح فيه أحوال الأمم والأقاليم شرقاً وغرباً ، « فذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والممالك والدول ، وفرق بين شعوب العرب والعجم ، فصار اماماً للمؤرخين يرجعون اليه ، وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه (العبر ج ١ ص ٢٧) .

فكان إبداع المسعودي الذي جعل منه اماماً للمؤرخين في نظر ابن خلدون يتلخص في امرين اولهما : رؤية واسعة (بانورامية) الى التاريخ ، تخرج به من دائرة الأخبار المروية في سير الرجال الى تتبع احوال الشعوب والامم ، في مجالاتها الرخبة ، مما يتناول الاجتماع والعقائد والاقتصاد وغيرها . أما ثانيهما : فيتمثل في رؤيته النفاذة في التفرقة بين الشعوب الاسلامية في المشرق ، ما بين عرب وعجم ، بمعنى ختام حلقة جديدة في دور التطور . ففي ذلك الوقت - عندما كان يكتب المسعودي حوالي منتصف القرن الرابع الهجري - كانت الخلافة العباسية قد اضمحلت بعد ظهور وظيفة امير الامراء التركي ، كما كانت دولة العرب قد دالت تماماً في المشرق ، بقيام دول اعجمية ، من : فارسية وتركية . فكان المسعودي هو صاحب الفضل في تسجيل عملية التجدد التي تمت على ايامه ، والتي تغيرت فيها الاحوال فكانها خلقت خلقاً جديداً .

والذي لم يقله ابن خلدون هنا ، هو : ان اول من فطن حقيقة الى عملية تطور الاسلام في المشرق من دولة عربية الى دولة تركية اعجمية ، هو الجاحظ اديب العربية في كل عصر وزمان . فلقد سجل الجاحظ ملاحظات غريبة في شأن هذا التبدل ، في رسالته التي بعث بها الى الفتح بن خاقان - نديم المتوكل والمتوفي معه سنة ٢٤٧هـ / ١١ ديسمبر ٨٦١م - في فضائل الترك . فلقد لاحظ الجاحظ - دون غيره من المعاصرين - ما كان يطرأ على بنية الدولة الاسلامية من التغير عند مقارنته بين العناصر التي تكونت منها جيوش الخلافة على ايامه ، من : الخراسانية والترك والعرب ، وغيرهم من عناصر المحاربين الذين عرفوا بالموالي والأبناء . وكان تركيزه على الترك منهم بصفة خاصة ، وعلى صفاتهم القتالية^(٥) .

أما عمن اقتدى بالمسعودي في منهجه التاريخي الجامع ، فهو البكري الاندلسي (ت ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) وخاصة في كتاب المسالك والممالك ، دون غيره (العبر ، ج ١ ص ٢٧) فكان - تجربة البكري ، لم تنجح الا في مجال الجغرافية الوصفية ، وذلك انه لم تكن قد حدثت تطورات ذات بال مما سجله في كتبه التاريخية .

والمهم من كل ذلك هو ما يستشعره ابن خلدون من انه يعيش في المغرب فترة انقلاب تختتم دورة من دورات التجدد في تاريخ الدول ، مما يعني انهيار نظام قديم ايدانا بقيام نظام جديد ، وذلك على ايامه في أواخر القرن الثامن الهجري (١٤م) . « فقد انقلبت احوال المغرب الذي نحن شاهده ، وتبدلت بالجملة . واعتاض من اجيال البربر ، اهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة ، من اجيال العرب بما كسروهم وغلبيهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان ، وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم . هذا ، الى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المئة الثامنة ، من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب بأهل الجيل ، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحامها ، وجاء للدول على حين هرمها ، وبلغ الغاية من مداها ، فقلص من ظلالها ، وفل من حدها ، وأوهن من سلطانها ، وتداعت الى التلاشي والاضمحلال احوالها . وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر ، فخربت الامصار والمصانع ودرست السبل والمعالم ، وخلت الديار والمنازل ، وضعفت الدول والقبائل ، وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل

(٥) انظر بحثنا في « الترك والاسلام في العصر الوسيط » مجلة عالم الفكر ، المجلد ١٠ ، العدد ٢ ، ١٩٧٩ ، وخاصة ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

بالمغرب ، لكن على نسبته ومقدار عمرانه . وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمبول والانقباض فبادر بالاجابة - والله - وارث الارض ومن عليها .

واذا تبدلت الأحوال جملة ، فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث « (ج ١ ص ٢٧) .

فابن خلدون يسجل انه شاهد عيان لعملية تغيير جذرية في تاريخ المغرب ، اعتباراً من منتصف القرن الـ ٨هـ / ١٤م . وأن هذه العملية تمثلت في فقدان دول البربر لما كان لها من السلطان بسبب القبائل العربية البدوية القاطنة في كل آفاق المغرب ، من بواديه وحواضره .

أما عن بدء مسار دورة التبدل هذه فيرجع الى منتصف القرن الخامس الهجري (١١م) حينما بدأت مسيرة قبائل بني هلال من صعيد مصر نحو بلاد القيروان على عهد المستنصر الفاطمي ووزيره اليازوري . فكانت الهجرة الهلالية العامل المحرك للعملية التاريخية التي اثارت الاضطراب السياسي وأودت بالازدهار الاقتصادي ، وقلبت عناصر البنية الاجتماعية رأساً على عقب ، فأدت الى التغير التام الذي عاشه ابن خلدون في منتصف القرن الـ ٨هـ / ١٤م .

فكان دورة التطور المغربية استغرقت ثلاثة قرون . وهي نفس المدة تقريبا التي استغرقتها دورة التبدل المشرقية الأولى التي لاحظها الجاحظ حوالي منتصف القرن الثالث الهجري (٩م) والتي سجل اكتمالها المسعودي في مروج الذهب ، بعد ذلك بقرن ، حوالي منتصف القرن الرابع الهجري (١٠م) .

وذروة التبدل الذي شاهده ابن خلدون تمثلت في الطاعون الجارف الذي اكتسح البلاد في وقت كان الاضمحلال قد بلغ غايته ، فقضى على الناس وعى معالم العمران ، وعلى الجملة قضى على كل مكونات البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد .

وهو يرى أن موجة التغير هذه قد مرت ببلاد المشرق هي الأخرى ، وإن كان تأثيرها يظهر بشكل نسبي اقل وضوحاً بسبب كثافة العمران هناك .

انه يرى ان ما أصاب العالم اشبه ما يكون بنوبة الخمود والانكماش التي تعرف في علم الحياة بمرحلة البيات الشتوي عند الحيوان ، والتي تنتهي بتحسّن الأحوال الطبيعية وتجدد الحياة بشكل يوحى بميلاد جديد .

أما عن نعيه البلاد والعباد ، فانه يذكرنا بمقالة ابن الاثير - الذي نقل ابن خلدون الكثير عنه ، فيما يتعلق بتاريخ المشرق ودوله - عندما بدأ في تسجيل غزوة جنكيز خان للمشرق الاسلامي على ايامه حيث اعلن انه يتردد كثيراً في

تسجيل الحادثة العظمى التي اعتبرها نعيًا للإسلام والمسلمين ، فقال « فيا ليت امي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل حدوثها ، وكنت نسيًا منسياً »^(٦) ولقد اثبتت الاحداث ان الغزوة المغولية لم تكن شراً مطلقاً ، اذا انها امدت الاسلام في المشرق بدماء تركية جديدة ، اعادت اليه الشباب والحيوية ، وفقتت عن عصر جديد من النهضة على المستويات السياسية والحضارية والثقافية ، ما زالت آثارها باقية .

ومثل هذا ما لاحظته ابن خلدون حوالي منتصف القرن الـ ٨هـ / ١٤م ، من امكانية تجدد بلاد المغرب وعودة الوحدة السياسية اليها والحيوية العمرانية بفضل اعمال بعض كبار الرجال من مثال السلطان ابي الحسن المريني .

ابن خلدون خليفة المسعودي في امامة التاريخ

والنموذج لمن يأتي بعده من المؤرخين :

ويحتم ابن خلدون المقدمة في علم التاريخ بأن العهد الذي يعيشه في حاجة الى من « يدون احوال الخليفة والآفاق واجيالها ، والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها ، ويقفوا مسلك المسعودي لعصره ، ليكون اصلاً يقتدى به من يأتي من المؤرخين من بعده » .

هذا ، ولو انه يستدرك قائلًا انه لن يعالج في كتابه الا تاريخ القطر المغربي : « لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب واحوال اجياله وامه ، وذكر ممالكه ودوله ، دون ما سواه من الاقطار لعدم اطلاعي على احوال المشرق وامه ، وان الأخبار المتناقلة لا توفي كنه ما اريده منه » .

وهو هنا رغم الحاجة الى الاقتداء بالمسعودي في كتابة تاريخ شامل لفترة زمنية عريضة وبشكل متكامل حتى يمكنه ملاحظة عملية التطور التاريخية التي عرفها بـ (التبدل) يرجع الى قاعدة منهجية مضادة تتمثل في مبدأ التخصص ، اي الدراسة في العمق بدلا من الاستعراض الأفقي ، وخاصة في الموضوعات المألوفة مما يتعلق بالتاريخ الوطني الذي تتوفر مصادره المباشرة ومن نبه على هذا الامر بالنسبة لتاريخ المغرب ، ابن الاثير في تاريخه الكامل ، حيث يقرن ما يقتبسه من المختصين في تاريخ المغرب مثل الرقيق القيرواني ، او ابن رشيق او البكري بقوله : فهم اعلم ببلادهم او : ورب البيت ادري بما فيه^(٧) .

وهو يحتاج للمسعودي بأنه تمكن من استيفاء كتابه في التاريخ العام بفضل ما قام به من الرحلات البعيدة وتعرفه بنفسه على احوال البلاد التي ذكرها في كتابه ، وان كان قد قصر في استيفاء احوال المغرب (الذي لم يره) .

(٦) انظر الكامل لابن الاثير ، أحداث سنة ٦١٧ هـ ، ج ١٢ ص ٣٥٨ (ط . تورنجر - الصياد ببيروت ١٩٧٩)

(٧) انظر الكامل لابن الاثير ، أحداث سنة ٩٢ ، ج ٤ ص ٥٥٦ (من فتح الاندلس)

وخلاصة القول في مقدمة كتاب العبر « في علم التاريخ » ان ابن خلدون عرض فيها بايجاز كل نظرياته في علم التاريخ ، من : التعريف به وبفوائده ، ومناهج البحث فيه عن طريق النقد واطراح النقل ، ومعرفة العلل والاسباب ، والالمام بالنواميس الطبيعية من اجل قياس الحاضر بالماضي والماضي بالحاضر ، وذلك في عملية تجعل من الماضي والحاضر والمستقبل نسيجاً واحداً ، كما تجعل من التطور أس العملية التاريخية ، ومن ادراك كنهه : الغرض النهائي الذي يقصد اليه المؤرخ من تأليفه .

هذا ، كما عرض بسرعة في ثنايا علم التاريخ عدداً من نظرياته في العمران و اشار الى بعض موضوعاته ، مثل : العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات ، والعصبية ، والتعليم والقضاء مما عالجته بتفصيل في الكتاب الأول ، فافتى بالاحالة اليه .

واخيراً فرغم ما وجهه ابن خلدون من النقد الى المسعودي من حيث انه اكتفى بالنقل في عدد من القصص التاريخية التي لا سند لها من الصحة ، مما سبق عرضه ، فانه ظل يضع المسعودي في طبقة الكبار من الفحول ، لكي يجعله في آخر الأمر اماماً للمؤرخين ، ويجعل من نفسه خليفة له او مجدداً لتراثه التاريخي - الامر الذي يتطلب النظر في مروج الذهب .

ما بين كتاب العبر ومروج الذهب :

ان اشادة ابن خلدون بالمسعودي بصفته اماماً للمؤرخين المسلمين التي لا تعادلها الا اشادة المحدثين من الأوروبيين بابن خلدون ، بصفته رائد المؤرخين المجددين واول علماء الاجتماع المحدثين ، تفرض علينا امعان النظر في مروج الذهب ، بهدف ملاحظة مدى التزام مؤرخنا باقتفاء منهج المسعودي ، ابتداء من المقدمة .

والمسعودي يجعل من مقدمته لمروج الذهب باباً من ابواب الكتاب ، يسميه : « باب ذكر جوامع أغراض الكتاب »^(٨) . فهو يجعل المقدمة اذن في اغراض الكتاب الذي يجعله ثالث كتبه المعتمدة ، وهي :

- أخبار الزمان : وهو مطول يعالج الاحداث الى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م على عهد المتقي لله (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) .
- الكتاب الأوسط : وهو وسط بين المطول والمختصر ، ويتناول موضوعات اخبار الزمان ملخصة ، مع اضافة ما جد من الاحداث المعاصرة بعد سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م .
- مروج الذهب : موجز للكتاب الأول ومختصر للكتاب الثاني ، ويركز فيه معلوماتها ، اضافة الى ما جد من الاحداث على عهد كل من المستكفي بالله (٣٣٣ - ٣٣٤هـ) ثم المطيع لله (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) بعده ، وهو آخر خلفاء بغداد من معاصريه ، وان كان المسعودي يختم كتابه في فسطاط مصر سنة ٣٣٦هـ - على عهد انوجور الاخشيدي ، تحت وصاية كافور - اي قبل عشر سنوات من وفاته (سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)^(٩) .

(٨) انظر مروج الذهب ، تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد ، ط . دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٣ - ١٩٨٣ ، ج ١ ص ٩ - ١٨ .

(٩) عن تأليفه للكتب الثلاث ، انظر مروج الذهب ، ج ١ ص ١٠ - ٩ ومن المستكفي انظر ج ٤ ص ٣٥٥ ، ومن المطيع ص ٣٧٢ ، ومن الانتهاء من تأليف الكتاب ص ٣٨٥ .

الأخبار أم العلوم :

والمسعودي يبين أن الباحث له على التأليف « في التاريخ واخبار العالم » هوجة العلم ، واقتفاء اثر الحكماء ، حتى « يبقى للعالم ذكرا محمودا ، وعلما منظوما عتيذا » (مروج ، ج ١٢ ص ١٢) . وهو في متن الكتاب يبين ايضا فوائد التأليف ، اذ : « لولا تقييد العلماء خواطبرهم على الدهر لبطل اول العلم ، وضاع آخره » . فلاخبار (اي علم التاريخ) هي ام العلوم : اذ يستخرج منها كل علم ، كما ينبني عليها الفقه ، ويتم القياس ، كما توجد فيها امثال الحكماء وتقتبس منها مكارم الاخلاق وتلتبس فيها آداب سياسة الملك .

ويفضل هذه الشمولية اصبح التاريخ علما « يستمتع بسماعه العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحق الغافل ، ويأنس بمكانه ويتزعج اليه الخاصي والعامي ، ويميل الى رواياته العربي والعجمي (مروج ، ج ٢ ص ٦٧) وواضح ان ابن خلدون تأثر بهذه التعاريف المسعودية ، عندما قال : « ان التاريخ علم تسمو الى معرفته السوق والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقبال ، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال ، اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول . . . وفي باطنه نظر وتحقيق . . . » (العبر ، ج ١ ص ٣) .

منهج المسعودي :

أما عن منهج دراسة المسعودي فهو يعتمد على معلوماته الشخصية كشاهد عيان عبر اسفاره في الصحراء والبحر والبر ، من الصين في اقصى المشرق الى الشام ومصر في الغرب ، وذلك كما قال الشاعر :

تيمم أقطار البلاد ، فتارة
لدى شرقها الاقصى وطورا الى الغرب
سرى الشمس ، لا تنفك تقذفه النوى
الى أفق ناء يقصر بالركب

فهو يستعلم بدائع الأمم بالمشاهدة ، ويعرف خواص الاقاليم بالمعاينة ، ويفاوض الملوك على تغاير اخلاقهم وتباعد ديارهم ، ويعرف كيف يفرق بين مواقف كل منهم (مروج ، ج ١ ص ١١) وهو يلج على انه « ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما غنى اليه من الأخبار عن اقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع ايامه بين تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق من معدنه وأثارة كل نفيس من مكمنه » (مروج ، ج ١ ص ١٢) .

ورغم اهتمام المسعودي بطرائف الأخبار ، فانه يعرف أصول المنهج العلمي المبني على النقد والذي يهدف الى الوصول الى الحقيقة . فهو يشير الى كثرة العناء في العلم ، وقلة الذين يفهمون معانيه « فلا تعاین إلا عمها جاهلا ، ومتعاطيا ناقصا قد قنع بالظنون ، وعمى عن اليقين » .

وهو يسجل أنه لم يبدأ في تأليف كتبه - الأنفة الذكر - الا بعد أن عانى صناعة التأليف في ضروب من فنون العلم والآداب ، مثل : أصول الديانات ، واصول الفتوى وقوانين الاحكام ، وموضوع الامامة وما يدور حولها من : النص والاختيار ، وعلم الظاهر والباطن ، الى جانب ما كتبه في السياسة والسياسة المدنية ، واجزاء المدينة ، وكيفية تركيب العوالم ، والأجسام السماوية وغيرها (مروج ، ج ١ ص ١٢) .

مصادر المسعودي :

وفيما يتعلق بمظانته التاريخية ، يبدأ بإشارة عامة في النقد التاريخي ، يذكر فيها اصابة بعض المؤلفين وخطأ البعض ، رغم اجتهاد كل منهم على قدر طاقته ، وامكان فطنته ، ثم يأخذ في تسجيل اسمائهم مع اسماء بعض كتبهم ، فممن ذكرهم من مشاهير الاخباريين والمؤرخين واصحاب السير والآثار :

وهب بن منبه ، وأبو مخنف ، وابن اسحق ، والواقدي ، وابن الكلبي ، وأبو عبيدة ، وابن المقفع ، وابن سلام ، والمدائني ، والجاحظ ، والنوفلي (علي بن محمد بن سليمان) وابن لهيعة المصري ، وابن عبد الحكم المصري ، واسحق ابن ابراهيم الموصلي (صاحب كتاب الاغاني) والبلاذري ، واحمد بن ابي طاهر ، (صاحب اخبار بغداد) ، وعلي بن مجاهد (صاحب كتاب اخبار الامويين) وابن قتيبة الدينوري ، والطبري (فقيه عصره وناسك دهره) وابن الماشطة (وله كتاب الوزراء) ثم الجوزجاني .

ومن المذكورين من اصحاب الوظائف الديوانية :

ابن أبي الدنيا (مؤدب المكتفي بالله) واحمد بن محمد خالد البرقي (الكاتب صاحب الثبيان) ، وابن خرداذبه (صاحب البريد ، وله : كتاب الكبير في التاريخ ، وكتابه النفيس في (المسالك والممالك) والقاضي ابو البشر الدولابي ، وابن زكريا الرازي (الطبيب وله كتاب سير الخلفاء) والصولي (وله كتاب الاوراق في اخبار الخلفاء) وقدامة بن جعفر (الكاتب وله : زهر الربيع في الاخبار ، وكتاب الخراج) وابراهيم بن موسى الواسطي (الكاتب وله اخبار الوزراء) وعلي بن الفتح المعروف بالمطوق (الكاتب ، وله : اخبار وزراء المقتدر بالله) وعبدالله بن الحسين بن سعد (الكاتب ، وله كتاب التاريخ في اخبار الخلفاء من بني العباس وغيرهم) وسنان بن ثابت بن قرة (نديم المعتضد بالله) .

هذا ، الى جانب من كتبوا في فنون تاريخية جانبية مثل : الخليل بن الهيثم الهرومي (صاحب الحيل والمكايد في الحروب) ومحمد بن زكريا الغلابي المصري (صاحب كتاب الاجواد) ويوسف بن ابراهيم (صاحب اخبار ابراهيم بن المهدي) ومحمد بن الحارث الثعلبي (صاحب كتاب اخلاق الملوك ، المؤلف للفتح بن خاقان) ، وابي سعيد السكري (صاحب كتاب ابيات العرب) ومحمد بن الأزهري (وله كتاب المهرج والاحداث) .

والمسعودي يقرر انه لم يذكر الا كتب المشاهير من المصنفين والمعروفين من المؤلفين ، وهو يعتذر عن عدم ذكر كتب « تواريخ اصحاب الاحاديث في معرفة اسماء الرجال واعصارهم وطبقاتهم » ، مشيراً الى انه اتي على ذكر طبقات اهل العلم على اختلاف انواعهم وتنازعهم في آرائهم ، وذلك الى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م) ، في كتابيه الأولين : اخبار الزمان - والكتاب الأوسط .

وهو يشيد من بين من ذكرهم ، بابن خرداذبه الذي « كان اماماً في التأليف ، متبرعاً في ملاحاة التصنيف ، اتبعه من يعتمد واخذ منه ، ووطيء على عقبه ، وقفوا اثره » . وهو لا يعلم احسن من كتاب فتوح البلدان للبلاذري في بابهِ .

أما الطبري فهو يكثر من الثناء على تاريخه : الزاهي على المؤلفات بما جمع من الاخبار وما اشتمل من صنوف العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته وتنفع عائدته « ويكفي ان مؤلفه : فقيه عصره وناسك دهره الذي انتهت اليه علوم فقهاء الامصار ، وحلة السنن والآثار » .

وهو يشيد ايضا بكتاب الأوراق للصولي ، من حيث انه « ذكر غرائب لم تقع لغيره ، واشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه » كما كان عظوظا من العلم ، ممدودا من المعرفة ، مرزوقا من التصنيف ، وحسن التأليف .

ومثل هذا يقال عن قدامة بن جعفر الذي « كان حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجزا للالفاظ ، مقربا للمعاني » في كل من : زهر الربيع ، والخراج ، حيث يكفي النظر فيهما للتأكد من حقيقة ما يذكره وصدق ما يصفه (مروج ، ج ١ ص ١٤ - ١٦) .

النقد لعدم الاختصاص

والغريب في هذا الباب الخاص بتقويم المصادر ، هو ان المسعودي يخص بالنقد سنان بن ثابت ابن قرة الحراني ، وهو الفيلسوف ، دون غيره من أصحاب التأليف على اختلاف صناعاتهم : فلقد ألف سنان كتابا جمع فيه أخبارا « زعم أنها صحت عنده ولم يشاهدها ووصل ذلك بأخبار المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠١ م) وذكر صحبته إياه ، وأيامه السالفة معه ثم ترقى الى خليفة خليفة في التصنيف » .

والذي يأخذه المسعودي على سنان بن قرة ، انه انتحل - وهو الفيلسوف - ما ليس من صناعته واستنبح ما ليس من طريقته . فلقد استفتح الكتاب بجوامع من الكلام في أخلاق النفس وأقسامها من : الناطقة والغضبية والشهوانية ، وذكر لها من السياسات المدنية ، مما ذكره أفلاطون في كتاب السياسة المدنية ، ولما مما يجب على الملوك والوزراء .. ورغم ما يقرره من أن سنان « أحسن في كتابه ، ولم يخرج عن معانيه » فانه لم يغفر له أنه « خرج على مركز صناعته وتكلف ما ليس من مهنته » (مروج ، ج ١ ص ١٦ - ١٧) .

فكان المسعودي يدعو الى احترام التخصص العلمي ، وينادي بمراعاة تصنيف العلوم وتحديد الفواصل فيما بينها . وهو هنا لا يأخذ على الفيلسوف اشتغاله بعلم التاريخ ، بقدر ما يعيب عليه الخلط بين المقدمات الفلسفية العقلية وبين الموضوعات الاخبارية الثقيلة ، مما يعني اخضاع عناصر علمية متنافرة الى نظام علمي موحد ، وهو الأمر الذي لا يتفق مع منهج الدراسات التاريخية ، والذي يخالف ما تعارف عليه المختصون في التأليف التاريخي .

وهو ينص في متن الكتاب على فضيلة علم الأخبار على كل علم ، وان شرف منزلته صحيح في كل فهم ، وانه لا يصبر على فهمه ويتقن ما فيه وإيراده وأصداره الا انسان قد تجرد له وفهم معناه ، وذاق ثمرته ، واستسفر من غره ، ونال من سروره - مما يؤكد إصراره على مبدأ التخصص في التاريخ ودفع للتطفل عليه (انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦٧) .

والمسعودي يشعر بنفاسة كتابه ، ويحسن تبيين ما فيه من الفوائد فيسميه : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وهو لذلك يحذر من أن يعرض له أحد بالتحريف أو التبديل والتغيير ويستنزل غضب الله ونقمته على من يفعل ذلك - أيا كانت ملته ، وأيا كان رأيه (مروج ، ج ١ ص ١٨) .

ومجمل القول في مقدمة المسعودي أنها عرضت لأصول التأليف ، كما عرفت ببعض قواعد النقد التاريخي ، وأهم مصادر التاريخ الإسلامي في قرونه الأولى . فمحنة العلم هي الباعث الأول على التأليف والمؤلفات المعتبرة لا تكون إلا بعد ممارسة الكتابة ومعاينة التصنيف ، بدءاً بالعلوم المساندة مما يتعلق بالسياسة ونظم الحكم أو علم الظاهر والباطن . ونظن أنه كان للمسعودي تأثيره على ابن خلدون عندما عرف التاريخ بأنه علم له ظاهر يهتم بالأخبار الشكلية ، وباطن يعتني بالمضمون والفهم والتعليل .

وتتلخص قواعد النقد التاريخي عنده في ضرورة أن تكون المعلومات أصيلة بمعنى أن يكون المؤلف نفسه شاهد عيان . وهذا يعني بالتالي كشف الجهال من المؤلفين الذين يأخذون بالظنون ويتهاونون في التحقق من صحة الأخبار .

ورغم ذلك فالمسعودي يعرف أن الأخبار تنقسم إلى قسمين ، أولهما : ما يجب علمه والعمل به ، وهو ما شاع بين الجمهور ، ورواه الكافة عن الكافة ويسمى أخبار التواتر . والآخر ما نقله آحاد الرواة وقبوله أي الاعتقاد في صحته غير واجب ، إذ هو من النوع الممكن أي الذي ليس بواجب ولا ممتنع ، مثلها في ذلك مثل : الاسرائيليات من الأخبار ، والأخبار عن عجائب البحار (مروج ، ج ٢ ص ٢٢٨) .

ومصادر المسعودي متنوعة تتراوح ما بين كتب في التاريخ وأخرى في العلوم المساندة . وهو يوجه المديح إلى كل من : ابن خرداذبه ، والبلاذري ، والصولي ، وقدامة بن جعفر ، ويخص الطبري وتاريخه بالمزيد من الشناء . أما عن نقده لمؤلف سنان بن قره بن ثابت فهو التزام باحترام التخصص ، ورفض لتدخل غير المختصين في علم التاريخ ، حتى لو كانوا فلاسفة . وكل ذلك مما يمكن أن يكون مصدر الهام لابن خلدون في مقدمته في علم التاريخ .

وأخيراً نلاحظ أنه رغم أن المسعودي سار في كتابته على نهج قدامى المؤرخين الذين اتبعوا طريقة الحوليات ، إلا أنه مزج بين هذه الطريقة ، وبين الترتيب الموضوعي الذي يحفظ للواقعة التاريخية وحدتها . فهو يفرد باباً أو « كتاباً » لكل دولة ، ويخصص فصلاً لكل أمير أو حادثة فلا يفقد الموضوع وحدته .

في مقدمة ابن الأثير في علم التاريخ

وهنا نستحسن الإشارة إلى مقدمة ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ /) في تاريخه « الكامل » وهو من مصادر ابن خلدون الأساسية فيما يتعلق بدول الأعاجم في المشرق ، من الفرس والترك . والحقيقة أن ابن الأثير يجمع ما بين صفة العالم

المدقق والمؤرخ الموهوب . ولقد تنبه المحدثون الى أهمية كتابه فبدأوا نشره في أوروبا اعتباراً من سنة ١٨٥١ بمعرفة تورنبرج الذي قام بترجمته الى اللاتينية أيضاً . ولم تقتصر أهمية الكامل على تاريخ المشرق فقط بل انه زاحم كتب المغاربة - ويضمنها عبر ابن خلدون - بصفته مرجعاً لا غنى عنه بالنسبة لتاريخ المغرب والأندلس ، حتى استلقت منه الحوليات الخاصة بأخبار المغرب والأندلس وترجمت الى الفرنسية بمعرفة فانيان (Fagnan) وهو الأمر الذي أكدت صحته مكتشفات بروفنسال من الوثائق الخاصة بتاريخ المرابطين والموحدين ^(١٠) .

وابن الأثير يشير في بدء خطبة الكتاب الى أهداف مطالعة التاريخ ، ومعرفة الحوادث ، ويذكر تباين المؤرخين في تحصيل الغرض من حيث الاسهاب المستقصي والاختصار المخل ، ويلفت النظر الى ما تؤدي اليه هذه المناهج من القصور ، مما يتلخص في ترك عظيم الحوادث والاهتمام بصغائر الأمور ، أو اهتمام كل مؤرخ بأخبار بلده ، والتقصير فيما سواه ، فالشرقي يخل بذكر أخبار المغرب ، والغربي يهمل أحوال المشرق (الكامل ، ج ١ ص ٢ - ط تورنبرج) . وهو بعد ذلك ينتقد أدعياء المعرفة ممن يحتقر التواريخ ويزدريها ، ظناً ان غاية قائدها انما هو القصص والأخبار (الكامل ، ج ١ ص ٦) .

وابن الأثير خلال ذلك يفلسف التاريخ فيتكلم في « الجلي » من الحوادث و« الخفي » منها ، كما يتكلم في « العرض » و« جوهر المعرفة » وكذلك عن « القشر » و« اللباب » وهي المصطلحات التي تذكر بعلم الظاهر والباطن عند المسعودي ، ويعتريف ابن خلدون للتاريخ بأنه علم له ظاهر وباطن ، مما سبقت الإشارة اليه .

أما عن المنهج الذي اتبعه ابن الأثير في التأليف فيختلف عن منهج الطبري وأقرانه من أصحاب الحوليات . فلقد تنبه الى سلبات منهج الحوليات حيث تذكر الحادثة الواحدة في سنين ، فتأتي مقطعة ، فعمد - عندما لخص الطبري وأكمل ما في روايته من النقص - الى جمع الحادثة في موضع واحد بشكل متناسق ، « فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً » (الكامل ، ج ١ ص ٣ - ٤) كما خص كل حادثة كبيرة مشهورة بترجمة خاصة بها ، ووضع الحوادث الصغار في آخر السنة ، تحت عنوان « عدة حوادث » :

والذي نراه أن هذه التعديلات التي ادخلها ابن الأثير في منهج الحوليين في الكتابة التاريخية لا تجعل منه مؤرخاً موهوباً فقط ، بل ترفعه الى درجة المجددين أصحاب الطرق المبتكرة في التأليف .

وابن الأثير ينحي التاريخ عن مكانه بين العلوم الأدبية عندما يرتفع به عن مستوى القصص والحكايات ، ويصفه بين العلوم النفعية ، حيث يعدد فوائده الدنيوية والأخروية . وهو هنا يشبه القراءة بالرؤية ، فمن يطالع أخبار قوم كأنه

(١٠) انظر Fagnan, annales du Maghreb et de l'Espagne, Alger, 1901 ورسائل موحدية ، تحقيق ودراسة بروفنسال ، النص العربي الرباط ، ١٩٣٤

يعاصرهم وهكذا يمد التاريخ في العمر على طول امتداد العصور التاريخية ، وعن هذا الطريق تنكث تجارب الانسان - وان كانت نظرية - بفضل المعرفة بالحوادث - « ويزداد بذلك عقلاً » (١١) .

أما فوائد التاريخ الأخرى فتأتى بمشاهدة تغلب الدنيا بأهلها وتتابع نكباتها التي لم يسلم من نكدها غني ولا فقير ، مما يؤدي الى الزهد فيها والاعراض عنها ، عن طريق التزود للأخرة بمحاسن الأخلاق ، من : الصبر والتأسي - رغم ما هو معروف من طلب الناس اليسير من حطام الدنيا ، وولعهم بحب العاجل (١٢) .

ونظرية مواجهة المتاعب الدنيوية - بصفتها موضوع علم التاريخ - بالرجوع الى الله تذكرنا بمقالات اوروسيوس ، مؤرخ القرن الخامس الميلادي ، وصاحب « تاريخ العالم » الذي ترجم الى العربية في الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجري (١٠ م) ، والذي عرف عند الكتاب العرب باسم تاريخ « هيروشيئ » هذا ، وان كان اوروسيوس قد تأثر في مقالته الدينية هذه بمعاصره أسقف مدينة بونة (عنابة الحالية) وهو القديس أغسطين . وهنا لا بأس من الإشارة الى أن كتاب اوروسيوس كان من المراجع الأثيرة لدى ابن خلدون الذي أخذ عنه كثيراً من النقول فيما يتعلق بالتاريخ القديم ولقد عني الدكتور عبد الرحمن بدوي بهذا الموضوع في ثانياً اهتمامه بتاريخ اوروسيوس الذي انتهى مؤخرًا من تحقيقه ونشره ، مما يعتبر إضافة هامة الى المكتبة العربية الحديثة (١٣) .

وهنا لا بأس من الإشارة الى أن المسعودي يعتبر من أوائل المؤرخين المسلمين الذين أخذوا الكثير من النقول عن قدامى الكتاب من أصحاب تاريخ عصور ما قبل الاسلام وهذا ما يتضح في الأقسام من تاريخه التي يعالج فيها أخبار الهند والفرس واليونان والرومان . ومما يؤسف له أن المسعودي لا يذكر أسماء مصادره ، مكتفياً بنسبة الأخبار الى « الموثوق بهم من العلماء » مما يوحي بأنه لجأ الى السماع وليس الى القراءة . وهكذا يظل الكشف عن مصادر المسعودي القديمة من : يونانية ولاتينية ، من الموضوعات التي يرجى أن تنال ما تستحقه من عناية الباحثين .

وابن الأثير أيضاً يرجع - بصفته مؤرخاً موسوعياً - هو الآخر الى النقل من كتب التاريخ الأوروبي القديم ، وهو الأمر الذي يظهر بشكل واضح فيما يتعلق بتاريخ الأندلس قبل الفتح الاسلامي . وهو اذا لم يكن قد ذكر تاريخ اوروسيوس ،

(١١) الكامل ، ج ١ ص ٧ - ولا بأس هنا من مقارنة كلام ابن الأثير بكلام اوروسيوس الذي يفرق بين المشاهدة والسماع ، فيقول : ان الأمور السالفة كلها كانت أصعب مما شاهدها كانت أطرف عند من سمعها . . . (كما يقول) ان القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر . وان مقاساة الأسير من الشدة أشق على النفس من تذكر الكثير مما فرط منها . . . فليعلم إذ رأي ذلك أن الذي أظن فيه من الشكاية بزمانه ليس لافراط شدة الزمان ، لكنه لضيق صبره ولؤم طباعه .

وأنا واصلت من الحال السالفة ما أوضح به انها كانت أشد وأصعب من الحال الحاضرة ، وان كانت هذه مشاهدة ، وتلك خبراً ، انظر اوروسيوس ، تاريخ العالم ، نشر عبد الرحمن بدوي ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(١٢) لا بأس هنا من الإشارة الى مقالة اوروسيوس في خطبة « تاريخ العالم » (من أن كل بلاد ومحنة ، يكون لسبيين : أما لتزكية الأخيار وأما لعقوبة الأشرار) (اوروسيوس ، تاريخ العالم نشر عبد الرحمن بدوي ، ص ٥٣) أو ما يقوله بعد ذلك من أنه لم يتم السلم في الدنيا ولا هدوء البال في أهلها الا بعد مجيء المسيح . وأهم في أوليتهم كانوا يعانون من محاربة الاجتناس والنكبات في الحرب (تاريخ العالم ، ص ٣١٧) .

(١٣) انظر عبد الرحمن بدوي ، ابن خلدون ومصادره اللاتينية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، أعمال ندوة ابن خلدون ، مطابع النجاة الجديدة ، الرباط ١٩٧٩ (ص ١٣٥ - ١٥٩) وانظر عبد الرحمن بدوي ، اوروسيوس ، تاريخ العالم ، الترجمة العربية القديمة ، بيروت (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ١٩٨٢ .

جريا على عادته في اهمال ذكر مصادره في بعض الأحيان ، واذا كانت أخبار ملوك القوط الى أيام لذريق التي يذكرها مما يعتبر متأخرا عن عصر أروسيوس ، فلا بأس أن يكون ابن الأثير قد نقل معلومات تلك الفترة المتأخرة عن إضافة أو ذيل لتاريخ هيروشيئس ألحق به فيما بعد - وهو الأمر المقبول (١٤) .

وأخيرا فإن ابن الأثير يدرك قدر نفسه ، ويعرف أهمية تاريخه ، كما فعل المسعودي من قبل وابن خلدون من بعد . فهو رغم اشارته - تواضعا - الى ان من « بالموصل لابد أن يشل عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب يشعر بقيمة كتابه ، فيقول : « ولكني جمعت فيه ما لم يجتمع في كتاب واحد » (الكامل ، ج ١ ص ٣) وهو الأمر الذي يؤكد محمد النسوي ، صاحب كتاب سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي عندما يقول بمناسبة أخبار الغزوة المغولية في « الكامل » : لله در مقيم ببلاد الشام لا يخفى عليه ما يدور في أطراف بلاد الهند وأعماق بلاد الصين (١٥) .

التاريخ بمعناه الحضاري عند كل من المسعودي وابن خلدون :

والمهم من كل ما تقدم هو وجود نوع من المشاركة أو أوجه الشبه بين المقدمات التاريخية لكل من المسعودي وابن الأثير وابن خلدون ، وان كان ابن الأثير قد انفرد بأنه لم يجعل لمقدمته عنوانا خاصا ، بل تركها مجرد خطبة أو افتتاحية لكتابه « الكامل » الذي التزم في تأليفه اياه بأن يكون مؤرخا متخصصا ، بمعنى الالتزام بالحدود المتعارف عليها للتاريخ ، من حيث كونه تاريخا سياسيا أولا وقبل كل شيء . دون التاريخ الحضاري . وهو ما يفرق بينه وبين المسعودي وابن خلدون في فهمها للتاريخ .

والحقيقة انه رغم أن ابن خلدون اقتدى بالمسعودي في فهم التاريخ بمعناه الحضاري الشامل فمن الواضح أنه يوجد ثمة خلاف ظاهر بين كل من كتاب العبر ومروج الذهب من حيث الشكل والمضمون . ولكي تسهل المقارنة فلا بأس من عرض سريع لمحتويات كل من الكتابين ، بعد أن عرضنا لمقدمتيهما .

مروج الذهب :

ومروج الذهب كتاب في التاريخ العام ، يعالج قصة الانسانية منذ بدء الخليقة الى وقت الانتهاء من تدوين الكتاب في جمادي الأولى سنة ٣٣٦ هـ / ٢١ نوفمبر ٩٤٧ م ، بفسطاط مصر (مروج ، ج ٤ ص ٢٨٥) . والكتاب الذي بين أيدينا يقع في ٤ مجلدات تحوي ١٦٥١ صفحة ، تبدأ بالمقدمة التاريخية التي سبقت الإشارة إليها ، والتي أعطاها المؤلف اسم الباب الأول ثم التعريف بمحتويات الكتاب التي سماها بالباب الثاني ، وهما في ٢٧ صفحة . أما الخاتمة فيشير فيها

(١٤) قارن دراسة عبد الرحمن بلدي (أروسيوس ، تاريخ العالم ، ص ٣٧) حيث الإشارة الى قول ابن خلدون أخبارا عن عهد لذريق منسوبة الى أروسيوس ، والقراض أن يكون النقل عن هتصر لأروسيوس تصرف فيه مصنفه في الترجمة العربية .

(١٥) انظر محمد النسوي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ط . القاهرة ص ٣٥ .

المسعودي الى طريقته في التأليف ، من حيث الاتيان على أخبار أهل كل عصر ، وما حدث من الأحداث ، وما كان من الكوائن الى جانب ما أسلفه في كتابه هذا من ذكر البر والبحر والعامر والفاقر ، كما يعد بتأليف كتاب جديد يضمه فنونا من الأخبار وأنواعا من طرائف الآثار . . ويسميه بـ « كتاب وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار » (مروج ، ج ٤ ص ٣٨٥) .

واخيرا ينتهي الكتاب بـ « ذكر جامع التواريخ الثاني ، من الهجرة الى هذا الوقت (سنة ٣٣٦) (مروج ، ج ٤ ص ٣٨٧) ثم « ذكر تسمية من حج بالناس من أول الاسلام الى سنة ٣٣٥ هـ (مروج ، ج ٤ ص ٣٩٦) فكأنها تلخيص تاريخي أشبه بفهرست للكتاب وبالنظر في متن الكتاب دون المقدمات والخواتيم يتضح لنا أنه ينقسم الى كتابين أولهما في التاريخ القديم ويبدأ بعنوان : « ذكر المبدأ وشأن الخليقة » (ج ١ ص ٢٨) ويستغرق ٦٢٣ صفحة ، تنتهي بصفحة ٢٧١ من الجزء (المجلد) الثاني ، حيث يبدأ الكتاب الثاني في التاريخ الاسلامي (ص ٢٧٢) ويستغرق ١٠٠٨ ص ، ويبدأ بعنوان : « ذكر مولد النبي (صلعم) ونسبه ، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب » الى أن ينتهي بالخاتمة (ج ٤ ص ٣٨٥) فيكون في ٩٨٥ صفحة دون الملحقات .

في التاريخ القديم ، وطريقة التجميع

والكتاب الأول يتناول الأنبياء ، وأخبار الأمم والملوك في العصور القديمة ، من : الهند والصين والترك والأكراد والسريان والفرس بطوائفهم ، والروم واليونان والقبط والنبط ، والسودان - ومنهم : البجة والحيش - والصقالبة والفرنجة والجلالقة ، والعرب البائدة ، من : عاد وثمود وطسم وجديس ، والعرب الباقية من : قريش وقحطان .

وطريقة المسعودي هي ألا يلتزم بموضوع في سرد الأخبار والسير ، بل يستطرد دائما الى موضوعات جانبية حسبما تؤدي اليه مصادفات الكلام ، دون التزام بحدود الموضوع وهو الأمر الذي يدركه بنفسه . فهو يعتذر عن الاستطرد في بعض الاحيان وان كان يلتزم العذر بطريقته هذه في التأليف ، حيث يبين مزاياها التي تتلخص في الشمول الذي يربط بين مختلف الأحداث على تباين طبائعها ، ويجعلها تأخذ بعضها برقاب بعض ، فكأنها الفسيفساء البديعة التي لا يمل الانسان من النظر اليها بسبب تنوع ألوانها الأصيلة . (١٦)

وهو يعتز بأصالة معلوماته وينتقد الجاحظ عندما يستدل على أن منيع كل من النيل ونهر مهران (السند) واحد بسبب وجود التماسيح في كل منهما ، ويأخذ عليه انه لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار . . . وانما كان حاطب ليل ، ينقل من كتب الوراقين .

(١٦) انظر ج ٢ ص ٢٣٥ - حيث يقول : « ولولا أن الكتاب يرد على أغراض مختلفة من الناس لما هم عليه من اختلاف الطابع والتباين في المراد لما ذكرنا بعض ما نورد فيه من أنواع العلوم وفنون الاخبار . وقد يلحق الانسان الملل لقراءته مالا يهوي نفسه فينتقل منه الى غيره ، فجعلنا فيه من سائر ما يحتاج الناس من ذوي المعرفة الى علمه ، ولما تغلغل بنا الكلام في نظمه وتجميعه ، واتصاله بغيره من المعاني مما لم يتقدم ذكره . . . »

المعلومات الجغرافية

والمسعودي - الى جانب الأخبار والسير - يعرف بالارض والبحار ومباديء الأنهار والجبال ، فيتكلم عن الأقاليم السبعة ورأي بطليموس في صفة الأرض ، ويذكر البحر الحبشي وبحر الروم ونيطش (الأسود) وبحر الصين وفارس والهند ، ويخبر عن الأنهار ، من : النيل وجيحون والفرات ودجلة . ويصف البلدان من : الشام ومصر واليمن والمغرب والعراق والحجاز ، الى جانب ما يعرف به من الأمم والممالك المجهولة في منطقة الأبواب (منطقة جبال ما بين قزوين والأسود) ، مثل : جيدان وعميق ، واللان ، وكشك وغيرها .

تأثير البيئة

ومن المعلومات المفيدة التي يشير اليها في هذا المجال تأثير البيئة على الانسان : فسحب الشام ومرتفعاته ورياحه تحسن الجسم ، وتصفي اللون ، وان كانت تبلى العقل وتحفي الطبع (ج ٢ ص ٦١) . أما حرارة مصر وركود هوائها فتكدر الألوان وتغيب الفطن . والمغرب يقسي القلب ويوحش الطبع ، ويذهب بالرحمة (ج ٢ ص ٦٢) والجبال (همدان أو عراق العجم) تخشن الأجسام وتبلى الأفهام لغلظ التربة وتكاثف الهواء . أما العراق ، سره الأرض وقلبها ، حيث وقف الاعتدال ، فصفت أمزجة أهله ، ولطفت أذهانهم ، واحتدت بخواطرهم ، فهو مفتاح الشرق ومناره (ج ٢ ص ٦٣) .

أصل « العمران » البدوي عند المسعودي

وتأثير البيئة على النامي من النبات والحيوان والانسان من الموضوعات التي اهتم بها ابن خلدون في المقدمة ، وجعلها من النوايس الطبيعية التي تفسر أحوال العمران وطبائعه ، وخاصة العمران البدوي وهو - على وجه الخصوص - العمران العربي الذي أطنب في وصفه وتفسيره .

ونظرية العمران البدوي واضحة محددة المعالم عند المسعودي ، وان كان يستخدم مصطلح « البوادي » بمعنى سكان البادية . وهو ان خص به العرب في المقام الأول ، فانه يشرك غيرهم في هذا اللون من الحياة البدوية ، مثل : الترك والكرد والبجة والبربر ، وهي الأمم التي يصفها بـ « المتوحشة » (انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ١١١ ، ١١٧ ، ١١٨) .

والمهم هنا أن المسعودي يعلل سكنى البدو بأنه يمثل طريقة الحياة على السجية كما عرفها الجيل الأول من سكان الأرض ، وهي تعني سكنى البيوت والأطلال (السقائف وانتجاع الأماكن الرفهة الخصبية (شتاء وربيعاً) والانتقال عنها

إذا اجذبت (صيفا) فهو نهج الأقدمين (مروج ، ج ٢ ص ١١٨) . فالبداءة عنده هي النجعة ، وهي رحلة الشتاء والصيف سعياً وراء الكلاً ورعي الماشية . وهو التعريف الذي خالف على أساسه ابن خلدون المفسرين الذين قالوا بأن رحلة الشتاء والصيف عند قريش كانت من أجل التجارة : شتاء إلى اليمن وصيفاً إلى الشام ، فقال : إن إيلاف قريش كان من أجل رحلة الانتجاع الطبيعية ، كما هو الحال عند غيرهم من قبائل البدو^(١٧) بل وأهل الجبال أيضاً^(١٨) .

وفي حياة البادية يقول المسعودي إن العرب فضلوا حياة الأرض والسكنى حيث شاءوا - وهي ما عبر عنه قبل ذلك بالنجعة - لأنها تحقق الشعور بالعزة والأنفة ، من حيث الاستقلال وعدم الخضوع لغيرهم من ذوي السلطان أو أصحاب الدول^(١٩) .

وهناك علة تضاف إلى تلك ، وهي أن التقيد بسكنى الأبنية (في المدن) يحدد الحركة وينتقص من الحرية ، بينما يسمح سكنى البادية بتخير البقاع الصحيحة الهواء التي تصون الأجسام ، وتحفظ صفاء الألوان وقوة العقول واعتدال الأمزجة ، وهي الأمور التي ميزت العرب على غيرهم من بوادي الأمم المتفرقة ، مثل : الكرد (مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٠ - ١٢١) .

وهكذا « تخيرت العرب في البر أنزالا منها : مشات ، ومنها مصايف » و « لجميع العرب مياه يجتمعون عليها ، وملكية يعرجون إليها . . . ، ولست تكاد ترى قبيلة من العرب توغل من الأماكن المعروفة لهم والمياه المشهورة بهم (ج ٢ ص ١٢٢) وبناء على وجه الشبه بين أسلوب حياة كل من العرب والكرد ، قيل إن الأكراد عرب أصلاً ، من قبائل ربيعة ، وإن كانوا قد انحازوا إلى الجبال (ج ٢ ص ١٢٢) وقريب من هذا ما قيل من نسبة أهل التبت من الترك إلى اليمنية من عرب حمير (مروج ، ج ٢ ص ١٢٣ - ١٢٤) .

ولقد أخذ ابن خلدون نظرية المسعودي هذه في البداءة ، وجعل منها العامل المحرك في تاريخ العرب ، وعلى أساسها فسر تاريخ المغرب الإسلامي - بصفة خاصة - من حيث أنه صراع بين ممالك المغرب ودوله وبين قبائل البدو فيه من : العرب والبربر .

والمسعودي يعدد - هنا - من بوادي البربر في المغرب ، عدداً كبيراً من القبائل مثل : هواة وزناتة وضريسة ومقبلة وورفجومة ونفزة وكتامة ولواتة ومزاتة ونفوسة ونقطة وصدينة ومصمودة و (زنارة) وغمارة و (قالملة) . . . الخ (مروج

(١٧) انظر المعبر ، ج ٢ ص ٣٣٦ - حيث يقول : « ويقال إن هاشم بن عبد المطلب أول من سن الرحلتين في الشتاء والصيف للعرب ، وذكره ابن اسحق ، وهو غير صحيح لأن الرحلتين من عوائد العرب في كل جيل لمراعي إبلهم ومصالحتها لأن معاشهم فيها ، وهذا معنى العرب . . . وهو معنى العروبية . . . »

(١٨) انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦٥ - حيث النص على أن أهل بابل كانوا يشنون بالعراق ويصيفون بالجبال . وانظر أيضاً ص ٥٩ - عن إيلاف والتقریش بمعنى أمن الطريق وجمع القبائل .

(١٩) انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ١١٩ . وأيضاً ص ١٢١ - حيث قال خطيبهم لكسرى أنهم ملوك الأرض ولم تملكهم ، وأهم أمنوا عن التحصن بالأسوار ، واعتدوا على السيوف .

ج ٢ ص ١١٩) . وكما نسب الأكراد والأتراك الى العرب بسبب طبيعة حياتهم البدوية ، كذلك كان الأمر بالنسبة لقبائل البربر التي نسب بعضها مثل : صنهاجة الى قبائل اليمن (القحطانية أو الحميرية) ، كما نسب البعض الآخر ، مثل : زناتة الى قبائل قيس (مروج ، ج ٢ ص ١٤٤) .

المعلومات الحضارية في مروج الذهب

ويضمن المعلومات الجغرافية يقدم المسعودي في القسم الأول من مروج الذهب معلومات طريفة عن نخب مختارة من الحيوانات والطيور ، مثل : الكركدن (وحيد القرن) الموجود في السند والهند ، والبازي الأبيض والشاهين وأنواع من القردة ، والطاووس ، والزرافة ، والفيلة والزبرقان ثم السمك الرعاد ، وفرس البحر والتمساح في النيل .

وهو يظهر فطنة علمية عندما يرفض ما يقوله الجاحظ من أن مدة حمل الكركدن تصل الى سبع سنوات وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ثم يدخل رأسه في بطنها (وكأنه صغير الكانغر) وهو يسأل أهل الخبرة ممن زار بلاد الهند ، ويعرف ان الكركدن نوع من الجواميس والبقر ويتساءل عما اذا كان الجاحظ قد قرأ ذلك في كتاب أم سمعه من بعض الرواة (مروج ، ج ١ ص ١٧١ - ١٧٢) .

وهو يذكر أنواعا من الأحجار الكريمة مثل : الدر واليشب والزمرّد ، ويعرف بمعادنها (مناجها) وكيفية استخراجها . كما يعرف بوسائل التسلية ، مثل الترد والشطرنج وبالعبادات الغربية عند الشعوب ، مثل : عادة الهنود في الاحتفال بموت الملوك وعادة حرق الموتى عند الصقالبة والروس ، وعادة تعذيب أهل الهند أنفسهم .

أما عن الديانات والمذاهب ، فمروج الذهب مرجع من الطراز الأول ، لا يضاهيه في ذلك غيره من كتب المتقدمين والمتأخرين . فهو يخبرنا عن حكمة الهنود ورأيهم في بدء العالم وخالقه ، ويتكلم عن المراتب الدينية لرجال النصرانية ، ومبدأ النصرانية في مصر ، ومذهب الصابئة وعبادة الكواكب ، وزرادشت (بنى المجوس) والزندقة ومذهب مانى ومذهب بوداسف متنبى الهند ، والبرمك سادن معبد النوبهار ، والمجوسية (عبادة النيران) وعبادة الأصنام في بلاد العرب ، ومذاهب العرب القدماء في الاعتقاد في : النفوس والهام والغيلان والهواتف والجنان والسناس والعنقاء .

أما أهم بيوت العبادة منذ القديم ، فهي : البيت الحرام ، ومعابد البوذيين وأشهرها النوبهار (قرب بلخ وكان سادنه يعرف بالبرمك ، واليه ينسب البرامكة) ، البيوت المعظمة عند اليونانيين (ويضمنها الأهرام بمصر) وعند الصابئة ثم بيوت النيران المجوسية التي كانت منتشرة في خراسان وفارس ، والتي وصف المسعودي واحدا منها زاره بنفسه في مدينة اصطخر (مروج ، ج ٢ ص ٢٥٤) .

وترد أيضا في سياق الأخبار ، آراء الفلاسفة من حكماء اليونان ، من : بطليموس الى جالينوس وبليناس ، الى جانب أهل التحصيل بمصر وغيرها من البلاد ، وذلك بمناسبة تقسيم العالم الى الأقاليم السبع وصفة الأرض ، والقول

بأن الهواء مسكون ، والقول في الاسطسقات ، من : الارض والماء (الثقيلين) الى الهواء والنار (الخفيفين) (مروج ج ١ ص ٨٨ ، ص ١٧٨ - ١٨٨) .

هذا الى جانب ما يتخلل كل ذلك من ملاحظات النقد التاريخي ، من الخروج على أصول التأليف أو الالتزام بالمنهج العلمي في انتقاء الأخبار . أو تقييم للكتاب التاريخي الذي « يجمع لك الأول والآخر ، والغائب والحاضر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب والبادي والحاضر . » (مروج ، ج ٢ ص ٦٧) .

من هذا العرض لموضوعات القسم الأول من مروج الذهب ، في التاريخ القديم وما تخلله من الجغرافيا وعجائب البلدان ، والديانات والمعتقدات ، وعلم التاريخ قد يخيّل لنا لأول وهلة ، أن هذا القسم يمثل مقدمة للموضوع الأساسي الثاني وهو تاريخ الاسلام . ولكن الأمر ليس كذلك إذ أن المسعودي سار في تأليفه للقسم الاسلامي على نفس التاريخ القديم ، من : تقديم المادة التاريخية في مزيج من أنواع المعرفة الأخرى . وهو يضع الأحداث الصغيرة الى جانب العظيمة ، ويخلط ما هو جاد صارم بما هو هزلي ساخر ، وكل ذلك في شكل فسيفساء مبرقشة الألوان - يمكن ان ترضى سائر الأذواق - كما سبقت الإشارة .

في النظم والرسوم

فهو في ثنايا الرواية التاريخية يتكلم عن جهود الدولة في اقامة نظمها مثل : نظام تعبئة الجيوش على عهد علي ، وترتيب حلبة الخيل أيام الوليد بن يزيد ، والتفريق في الطواف حول الكعبة بين الرجال والنساء أيام ولاية خالد القسري ، وآثار الرسول التي كان يتداولها الخلفاء ، وتعليم أبناء الخلفاء أولياء العهد أيام الرشيد والمتوكل ، والبناء المسمى بالحيرى الذي أحدثه المتوكل ، وتطوير الملابس الرسمية على عهد المعتز والمستعين ، وهدم مطامير العذاب على عهد المكتفى ، في الوقت الذي كان المسعودي يؤلف كتابه سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .

اخلاق الناس

وهو يتكلم في أخلاق الخلفاء من معاوية وحلمه الى سليمان وشهره ، وعمر بن عبد العزيز وزهده ، ويزيد بن عبد الملك وعشقه ، وهشام وبخله ، والوليد (بن يزيد) وفسقه والسفاح وكرمه ، والمنصور وحزمه ، وإبراهيم بن المهدي واسرافه ، والمأمون وعلمه ، والمتوكل وطربه الى أخلاق رجال الدولة ، من : الحجاج الى البرامكة . وربما كان أهم من ذلك كلامه في أخلاق العامة (ج ١ ص ٤٣) وتأثير العادة ، ومدجج الصمت ، وبيان شر الرجال والنساء ، وسر كراهية الناس للموت ، وطبائع الخصيان وأخبار المحتالين .

الديانات والمذاهب

وفىما يتعلق بالديانات والمذاهب يعرف بالشيعية الكيسانية ، والخوارج وفرقهم وعلمائهم ، والمعتزلة وبيان أصولهم الخمسة ، والامامة واختلاف أهل النحل ، والراوندية ورأيهم فى الامامة ، واعتقاد العباسيين فى انتقال الخلافة اليهم

بمقتضى كتاب عندهم ، والخرمية والباطنية ، ويمين الله الذى يعاقب من حلف كاذبا ، والزنادقة من المانوية وبعض الفرق المهدية ، والقول بخلق القرآن .

والمسعودى يرجع كثيرا فى هذا الباب الى كتابه الموسوم : ب « المقالات فى أصول الديانات » كما يشير الى بعض كتب الجاحظ مثل : كتابه فى العثمانية ، وكتابه فى الراوندية فى الامامة .

الطب وغيره من العلوم

وفى العلوم الطبية يذكر خبرة الطبيب أجبريل ابن بختيشوع فى تدبير الطعام ، وفى الحوار بين الخليفة الواثق وبين جلسائه من الأطباء من : ابن ينجيشوع الى ابن ما سويه وميخائيل ، وربما حنين بن إسحق يعرض للطب النظرى والتطبي ، والغذاء ، وتفصيل الاسنان ، وتأليف حنين بن اسحق فى الطب للواثق ، كما يذكر خصائص الحجر المعروف باليشب ، والقول فى الكيمياء وعجائب البلدان ، وفى علم الحيوان هناك وصف الخيل . وفى الشعر ينص على مازاده علماء العروض على ما استنبطه الخليل بن احمد من أوزان الشعر ، وكذلك فى الغناء والتلحين والرقص .

الطبخ والأطعمة

وفى الطبخ والطعام يورد حديث وصف الأطعمة للمستكفى ، من : السكراج والكوامخ والسلحم ، ومن البوادر والنوادر كالجونة والطيهوج ، والشطيريات والمجنبات ، الى جانب ما قيل من الشعر فى : السنبوسج والهلين والأرزية والهريسة والمضيرة والجواذبة والقطائف . هذا ، الى جانب أطعمة العامة من الناس ، مثل طعام الفلاح الذى أطعم المهدي اياه ، من : البقل والكراث وخبز الشعير والزيت ، أو سكباج الملاحين الذى أثار فوحه شهية المتوكل .

وفى وسائل التسلية هناك مجالس الشراب ، ومجالس الغناء والسمر ، واستماع حديث الملوك ، والمناظرات بين العلماء ، والغرام بالخيال والكلام فى الشطرنج .

طرائف الأخبار

أما طرائف الأخبار التى يقصد بها الترويح عن النفس وان دخلت فى مجال الادب ، فمنها طرف أخبار الحجاج : كزواج والده بأمه وسبب ولوعه بسفك الدماء ، وأخبار ليلي الأخيلية معه ، وبعض أخبار عمر بن عبد العزيز مثل : قصته مع قاضى الحجاز الذى هام بجارية مغنية ، وعشق يزيد بن عبد الملك ، ووصف أنواع الشراب للوليد بن يزيد ، وسعى الرشيد فى زواج الشاعر أبي العتاهية ، وحديث جلساء البرامكة فى العشق وأسبابه ، وقصة زواج العباسة أخت الرشيد من جعفر البرمكي ، وزواج المأمون ببوران ، وزواج الحسين بن الأفشين بآترجه بنت أشناس بمعرفة المعتصم ، وزواج المعتضد ببنت خمارويه .

أخبار الخلفاء

أما أخبار الخلفاء فمنها ما يؤخذ منه العبرة والموعظة في إدارة دفة الحكم ، مثل : سواس بنى أمية وهم : معاوية وعبد الملك وهشام ، ومنها ما يتعلق بعصر النهضة من أخبار خلفاء العباسيين كما رواها محمد العبدى الخراساني للخليفة القاهر الذي كان مسمولاً مغلوعاً وقت تدوين مروج الذهب . فالمنصور هو أول خليفة ترجمت له كتب الحكمة والمنطق والهيئة والهندسة والحساب من اليونانية والرومية (اللاتينية) والفهلوية (الفارسية الوسطى) والفارسية ، والسريانية وأخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها ، كما كان أول خليفة استعمل مواليه وغلماؤه في أعماله وصرفهم في مهماته ، وقدمهم على العرب فامتثل ذلك الخلفاء من بعده من ولده ، فسقطت وبادت العرب .

٢٣٦

وهكذا يظهر المأمون الى جانب المنصور كمغرم بأحكام النجوم ، سائر على سنن آل ساسان ، مجتهد في قراءة الكتب القديمة ، معن في درسها ، مواظب على قراءتها الى ان ينتهي الأمر بأن افتن في فهمها ، وبلغ درايتها ، بمعنى أنه أصبح حكيماً فيلسوفاً . فكان عصر المأمون يمثل مرحلة تالية لعصر الترجمة هي عصر النهضة العلمي الذي يمثله الخليفة بشخصه . وهو الذي أظهر القول بالتوحيد وقرب اليه الجدليين والمناظرين ، والزعم بمجلسه الفقهاء ، وأهل المعرفة من الأدباء وأجرى عليهم الأرزاق .

وعلى عهد المهدي ظهر الملحدون لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان . ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره ، وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنفه في ذلك ابن أبي العرجاء ، وحماة عجرد وغيرهم ، من : تأييد المذاهب المانية والديصانية والمرقونية ، فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس . وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب للرد على الملحدين .

أما الرشيد فأيامه كانت تسمى « أيام العروس » لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها . ولقد شاركت زوجته زبيدة (أم جعفر) في أيام السعادة تلك فهي التي اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن . وجعلت هن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقرايط والمناطق ، فما ست قدودهن وبرزت اردافهن ، وذلك من أجل خدمة ابنها الخليفة الأمين ، الذي أبرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فشاع استخدام الجوارى الغلاميات على هذا النسق عند العامة والخاصة (مروج ، ج ٤ ص ٣١٨) .

أما المتوكل فقد خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والوائق من الاعتقاد فنهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه ، وأمر بالتقليد ، وأظهر الرواية للحديث .

أما الأخبار المأساوية في تاريخ الخلافة ، وهي التي تشد الانتباه بما تثيره من شجون حزنية ، فمنها مقاتل الطالبيين ، وحصار مكة ، ونبش القبور ، ورفع رأس الأمين على خشبة في صحن دار أخيه الخليفة الفيلسوف ، وجلد أحمد بن حنبل ، وقتل الخلفاء وتعذيب الوزراء (مروج ، ج ٤ ص ٢٢٩) .

مقتل المتوكل

والمنظر يتمثل في مدينة سامرا ليلة الاربعاء ٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ / ١١ ديسمبر ٨٦١ م ، في قاعة الشراب الفسيحة في القصر الخلفي . وعن توزيع الأشخاص : فالمتوكل على سريريه تحيط به بطانته من الندماء وعلى رأسهم الفتح بن خاقان ، أقربهم الى قلب الخليفة . وعلى بعد قليل جلست جوقة المغنين والموسيقيين ، والخدم وقوف على رؤوس الحاضرين يديرون الكؤوس .

وعن الأدوار ، فعندما يعمل الشراب في الخليفة ، ويغني المغنون يقبل على البكاء ويعد مضي ثلاث ساعات من الليل كان المتوكل يتمايل على سريريه من شدة السكر ، والخدم عند رأسه يحاولون اقامته ، وهنا يقبل القائد التركي باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك ملثمين يقتحمون المجلس والسيوف ت برق في أيديهم في ضوء الشموع . وعندما صعد باغر الى سرير الخليفة صاح الفتح بن خاقان : ويلكم ، وهنا يفر الحضور من الجلساء والندماء ، ولم يبق في المجلس غير الفتح ابن خاقان الذي أخذ يدافع عن سيده ببطولة الشجعان .

« قال البحتري : فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف . . . على جانبه الأيمن فقلده الى خاصرته . ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك ، وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من متنه ، وهو صابر لا يتنحى ولا يزول . . . ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعا . . . » (انظر مروج الذهب ، ج ٤ ص ١٢٠ - ١٢١) .

مقتل المهتدي

والمهتدي في ورعه كان يريد أن يجدد عهد عمر بن عبد العزيز في بني هاشم : فلقد قلل الرجل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وكسر آنية الذهب والفضة وأمرها ففصرت دنائير ودراهم ، كما عمد الى الصور التي كانت تزين حيطان المجالس الخلافية فمحييت ، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء ، والديوك ، وقتل السباع المحبوسة . . . وخفض نفقته الى ١٠٠ (مائة) درهم ، بعد ان كانت نفقة موائد الخلفاء ١٠ (عشرة) آلاف درهم .

وما هو أغرب من ذلك ما يقال من أنه : كان يصوم الدهر ويقوم الليل وهو في جبة صوف ، والغل (القيد) في يديه (مروج ، ج ٤ ص ١٨٩ - ١٩٠) فكانه واحد من متصوفة الملا متية .

أما عن مقتله ، فالمنظر يتمثل أولا في شوارع مدينة سامرا ، يوم الثلاثاء ١٥ رجب سنة ٢٥٥ هـ / ١٠ يونية ٨٦٩ م ، بعد محاولة فاشلة من جانب الخليفة في مواجهة خصومه من قواد الترك وعلى رأسهم القائد بايكال . فالمهتدي يجري صائحا في الأسواق مستغيثا بالعامّة ، قبل أن يختفي في إحدى الدور ، ويحمل منها الى دار القائد التركي يارجوج ويدور جدل بين الخليفة وحرسه التركي حول مدى ما يصح من سيرة الخليفة في رجاله الذين يتراوح ما بين تركي وخزري وفرغاني ، من أنواع الاعاجم .

وينتهي الأمر بأن يأتي الأتراك بالخناجر ويقتلوا المهتدي على طريقتهم الخاصة « وكان أول من جرحه ابن عم لبايكال ، جرحه بخنجر في أوداجه ، وانكب عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه ، وأقبل يمص الدم حتى روى منه ، والتركي سكران . فلما روى من دم المهتدي قام قائماً وقد مات المهتدي ، فقال : يا أصحابنا قد رويت من دم المهتدي كما رويت في هذا اليوم من الخمر^(٢٠) » .

هذه المآسي التي عرفها المشرق اعتباراً من منتصف القرن الثالث الهجري (٩ م) هي التي تمثل دورة التطور التي اكتملت على أيام المسعودي ، حسب رأي ابن خلدون في المقدمة ، وعرفها بأنها حالة التبدل الطبيعية ، وشبهها بما كان يطرأ على بلاد المغرب من التغير على عهده ، في منتصف القرن الثامن الهجري (١٤ م) حيث كانت قبائل العرب من السلالة الهلالية تقوم بدور أشبه ما يكون بدور الأتراك في المشرق ، من حيث التسلط على الدول المغربية ، وإن كان بطريقة مخالفة .

أما ما تعرض له من الأخبار المتنوعة ، مما يعالج نظم الحكم والسياسة أو الأخلاق والعادات والمذاهب والديانات والعلوم وطرائف الأخبار وخصائص عهود الخلفاء فهي تجعل من المسعودي وكأنه مؤرخ حضارة . ومروج الذهب من هذا الوجه أشبه ما يكون بمقدمة ابن خلدون التي اعتبرها البعض تأليفاً في فلسفة التاريخ بينما رأى البعض أن موضوعها (هو التاريخ كما ينبغي أن يكون ، بمعناه الشمولي الجامع ، وهو ما ينسجم مع رأي ابن خلدون في كتاب مروج الذهب .

وهكذا نجد أنه من المناسب أن نعرض بإيجاز لمحتويات المقدمة في محاولة لبيان مدى تأثير ابن خلدون بطريقة المسعودي في التأليف التاريخي .

مقدمة ابن خلدون : المحتوى

والكتاب الأول من عبر ابن خلدون المعروف بالمقدمة ، وهو المجلد الأول من طبعة بولاق سنة ١٨٨٢ ، يقع في ٥٠٦ صفحة دون المقدمة « في فضل علم التاريخ » والفهرسة التي تقع في ١١ صفحة . وهو يحمل عنوان : « الكتاب الأول : في طبيعة العمران في الخليقة ، وما يعرض من البدو والحضر والتغلب ، والكسب والمعاش ، والصنائع والعلوم ونحوها ، وما لذلك من العلل والأسباب » .

والمقدمة مقسمة إلى ٦ فصول ، على الوجه الآتي :

- فصل ١ (٦٧ ص) : في العمران البشري على الجملة ، وفيه ٦ مقدمات في : ضرورة الاجتماع الانساني والجغرافيا - وخاصة أثر البيئة في الانسان - وفي أصناف المدركين للغيب ، وحقيقة النبوة والكهانة .

(٢٠) مروج الذهب ، ج ٤ ص ١٨٦ - هذا وإن كانت هناك روايات أخرى من قتله ، من القول أنه عصرت مذاكيره حتى مات ، أو أنه جعل بين لوسين عظيمين وشده بالهبال ، أو أنه قتل خطأ . وهي الروايات التي تتفق مع عادات الترك القديمة التي لاتسمح بارتاة دم النبلاء .

- فصل ٢ (٢٨ ص) : في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل . ومن عناصره فصول في : البدو والحضر والعصبية والأنساب والملك ، واحوال العرب ، من : التغلب على البسائط ويعدهم عن سياسة الملك .

- فصل ٣ (١٥٧ ص) : في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية . وفيه فصول في العلاقة بين الدولة والعصبية ، وبين الدعوة الدينية والعصبية ، ونظريات في عمر الدولة وانتقالها من البداوة الى الحضارة ، وتعريفات بالخلافة والامامة ونظم الحكم ، وما يلحق بذلك من العمران والمجاعات ، والمذاهب الفاطمية ، وعلم الحدثنان .

- فصل ٤ (٣٢ ص) في البلدان والأمصار وسائر العمران . وفيه فصول في : الدول وأحوال المدن ، وتفاضل الأمصار في العمران وأسعار المدن ، والحضارة بصفتها غاية العمران ونهاية لعمره ، وفي لغات أهل الأمصار .

- فصل ٥ (٤١ ص) : في المعاش ووجوه من الكسب والصنائع ، وفيه نظريات في : الكسب ووجوه المعاش ، والفلاحة والتجارة والصنائع ثم تعريف بأهم الحرف والصناعات .

- فصل ٦ (٦١ ص) : في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوه . وفيه فصول في العلاقة بين العلم والعمران ثم عرض لمختلف العلوم من نقلية وعقلية ، ومنها السحر والطلسمات وأسرار الحروف ، والطب الروحاني ، واستخراج أجوبة المسائل من زايحة العالم . وآخرها فصل في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد - وفيه أشعار الهلالية والزناتية - ثم الموشحات والأزجال الأندلسية .

أوجه الشبه والاختلاف ما بين مقدمة العبر ومروج الذهب

وبالمقارنة بين محتويات كل من مروج الذهب ومقدمة العبر نجد نوعاً من التشابه بينهما ، يظهر بصورة خاصة في المقدمات الجغرافية ، وأجيال البدو من العرب والبربر (والاكراد والترك) ، وفي نظم الحكم وما يتعلق منها بالامامة والخلافة والمهدية الفاطمية ، والأديان والمذاهب ، والعلوم ومنها : الفلسفة والطب والسحر والتنجيم وقبل كل ذلك الاهتمام بأخبار العامة من الناس ، من : السوق والخدم واصحاب الحرف والصناعات .

والحقيقة أن تأثر ابن خلدون بالمسعودي لا يحتاج الى دليل ، فابن خلدون يرى في كتاب مروج الذهب النموذج الذي يجب أن يقتدى به ، وإن طريقة المسعودي في تدوين التاريخ بشكل شمولي جامع هو المنهج الذي يخرج بالتاريخ من حدوده السياسية الضيقة الى آفاقه الحضارية الرحبة ، التي تجعل منه تاريخاً للامم والشعوب بعد أن كان أخباراً عن الأمراء والملوك .

ولكن رغم ما يشير اليه من أوجه الشبه هذه ، فإن المقدمة الخلدونية تمتاز على مروج الذهب للمسعودي بوحدة الموضوع . فالمعلومات المتنوعة التي يعرضها المسعودي في شكل استطرادات أشبه ما تكون بفسيفساء مبرقشة ، تظهر في

المقدمة عند ابن خلدون ، في شكل موضوعات متماسكة ، حسنة السبك جيدة الحبكة . بل انها تتبلور في آخر الأمر في شكل نظريات عامة في العمران بمعنى الاجتماع الانساني ، وهي التي عرفت بفلسفة التاريخ ، هي التي رفعت ابن خلدون الى مصاف كبار المفكرين العالمين .

تقييم المقدمة :

وهكذا رفع جوتييه في كتابه المعنون بـ « ماضي افريقية الشمالية : القرون المعتمة » ابن خلدون الى مرتبة القديس أغسطين ، وقال : ان القارة الافريقية فقيرة في الرجال من طراز أغسطين وابن خلدون^(٢١) أما أرنولد توينبي ، مؤرخ الحضارات المعاصرة فقد وصف مقدمة ابن خلدون بأنها : عمل لم يقم بمثله انسان في أي زمان ولا مكان^(٢٢) هذا ، ولو ان توينبي يقارن في نفس هذا البحث بين ابن خلدون وكل من ثيوديد ومكيافلي وغيرهما من المؤرخين العالمين ، مثل يوسيفوس وبوليبيوس . وهنا نشير الى ان ايف لاکوست في كتابه عن ابن خلدون الذي عنوانه ، بـ «مولد التاريخ في العالم الثالث»^(٢٣) ، لا يجب أن يقارن مؤرخنا الا بثيوديد . وفي تلك المقارنة يرى : ان اكتشاف المقدمة في القرن الـ ١٩ م ، وترجمتها في أوروبا ، وافق تطور علم التاريخ والاجتماع ، حيث أصبح التفكير التاريخي عقلياً مادياً بشكل لا يتفق مع التفكير الديني (ص ١٦٩ ، ص ١٧٢) وانه على عكس هيرودوت الذي ظل يهدف الى الحفاظ على القصص المدهش من النسيان ، كما ظلت فكرته ضعيفة عن الزمنية والسببية ، ظهر عند ثيوديد لأول مرة البحث الواعي لمعقولة الأفعال البشرية (ص ١٧٣) وبالمقارنة يتضح أن كتاب القديس أغسطين وهو « مدينة الله » أثر لاهوتي وتبريري ذو برهنة تاريخية (ص ١٧٥) . أما ابن خلدون فانه بفضل نظرياته في النقد التاريخي ، الذي يتمثل في : غياب الشرح والتعليل وقبول الأحكام الاعتبارية ، ونقل الأخبار التقليدية والروايات المنقبة والأسطورية ، وإهمال الوقائع الاقتصادية والاجتماعية ، مع الاهتمام بالبلاغة ووفرة الوقائع دون الربط بينهما ، كل ذلك جعل منه (ابن خلدون) المؤرخ الوحيد الذي تجاوز ثوسيديد قبل القرن التاسع عشر الميلادي وبناء على ذلك ، فاذا كان ثوسيديد هو مخترع التاريخ فان ابن خلدون هو الذي جعل من التاريخ علماً (ص ١٧٧) .

ما بين المقدمة والتاريخ في كتاب العبر :

ولكنه اذا كانت المقدمة في نظر ايف لاکوست ، مؤلفاً موسوعياً الطابع ، يحوى عرضاً منهجياً وتحليلاً للبنية الاجتماعية والسياسية (ص ٨١) ، فان تاريخ ابن خلدون أشبه ما يكون بتواريخ سابقيه من المسلمين . فطريقته في تاريخ البربر تتمثل في تبويب الوقائع في فصول تتعلق بمختلف السلالات الحاكمة ، واهتمامه الأكبر ينصب على الأحداث العسكرية (ص ٧٩) .

(٢١) E.F. Gautier, Le Passe de I, A frique du nord, 1000 Siecles Obscurs, Paris, 1942, P. 80

وانظر كتابنا في : تاريخ المغرب العربي الاسكتلندية ١٩٧٩ ، ج ١ ص ٣١ .

(٢٢) انظر محمد عبد الله حنان ، ابن خلدون ، القاهرة ط ٣٠ ، ١٩٦٥ ص ١٩١ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ (حيث ترجمة بحث توينبي الى العربية)

(٢٣) انظر الترجمة العربية بمعرفة ميشال سليمان ، نشر دار ابن خلدون ، بيروت ، ط ١٩٧٨ .

والحقيقة أن النقد الحديث يكاد يكون قد استقر على أن ابن خلدون أهمل قواعد النقد التاريخي التي أصر عليها في المقدمة ، فلم يطبقها في تاريخه الذي جاء تقليديا ، مثل بقية كتب التاريخ الاسلامي من العصور السابقة . فهو يكتفي بالنقل ، ويهمل ذكر مصادره في كثير من الأحيان ، وهو لا يطبق نظرياته في قيام الدول وتطور العمران ، فيكتفي برواية الأخبار دوئها سببية أو تعليل^(٢٤) .

وإذا صح ذلك تكون المقدمة وحدها ، كتاب تفكير وجهد ، وهي في جزء واحد من سبعة أجزاء يتكون منها كتاب العبر ، ويكون التاريخ عملا تقليديا عاديا ، وهو في الستة الباقية من الأجزاء .

وهنا نصل الى تحديد هدفنا من تلك المحاولة في دراسة ابن خلدون ، وهو هدف مزدوج يتلخص أولا في : النظر الى المقدمة التي رفعت من شأن المؤرخ المغربي الكبير على أنها عمل تركيبى قائم على تجميع عناصر التراث الاسلامي المختلفة ، في فترة كان هذا التراث قد فقد كثيرا من بريقه ، واستيعاب تلك العناصر في أطرها التاريخية ثم تمثلها في شكل نظريات عامة يمكن أن تفسر كيفية مسار المجتمع في حياته اليومية المعتادة ، عبر الزمن ، وبذلك يصبح التاريخ أبا للعلوم ، كما يقول المسعودي ويمكن لنا أن نعرض هذه الفكرة بطريقة موجزة ، فنقول : ان المقدمة تستمد قيمتها من حيث هي تلخيص عبقرى لتاريخ التراث الاسلامي . وهذا يعني : أن التقدير للتراث وأصحابه من متقدمين ومتأخرين ، بينا العبقرية للمؤرخ المجدد الذي ظهر وكأنه في غير وقته - وهو ما حاولنا بيانه ، مقتصرين بشكل عام على عمل المسعودي ، قدوة ابن خلدون .

وثانيا ، في النظر الى التاريخ في كتاب العبر على أنه عمل ينسجم مع عبقرية صاحبه ، وهو الأمر الطبيعي ، رغم ما تواتر من انه تاريخ تقليدي ، وذلك لا يتأتى الا بالنظر الموضوعي في محتوى الكتاب ومضمونه ، وما يتعلق بذلك من ظروف تأليفه .

موضوعات التاريخ في كتاب العبر

بعد المقدمة وهي الكتاب الأول ، يحتوي التاريخ في كتاب العبر على كتابين في ٦ أجزاء (مجلدات) ، وهما : الكتاب الثاني : « في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة الى هذا العهد » ، ويقع في ٤ أجزاء (أي مجلدات ، من طبعة بولاق) هي : الثاني (في ٥٣٤ ص بدون الفهارس)^(٢٥) ، والثالث (في ٥٤٢ ص) ، والرابع (في ٥٢١ ص) والخامس (في ٥٦٣ ص) - بالإضافة الى ٨٨ صفحة من المجلد السادس^(٢٦) ، فيكون مجموع صفحات الكتاب الثاني ٢٢٤٨ بدون الفهارس .

(٢٤) انظر على عبد الواحد والي ، مقدمة ابن خلدون الفصل الخاص بالمآخذ الموجهة الى بحوث ابن خلدون في التاريخ ، ج ١ ص ١٥٠ .

(٢٥) الجزء الثاني من طبعة بولاق بحري على قطعتين : الأولى من ص ٢ الى ٣٣٨ ، وآخرها في قرش ولها فهرست خاص في آخرها ، والثانية تبدأ في نفس المجلد بالفهرست الخاص بها في ص ٣٤٢ ، ثم تأخذ ترقيا جديدا من ص ٢ الى ص ١٩٠ (حيث بيعة الحسن وتسليمه لمعاوية) .

(٢٦) القسم الخاص بالعرب في أول الجزء السادس يبدأ بالترقيم المعتاد وهو ص ٢ . وسبب وضعه في المجلد السادس الخاص بالبربر هو أنه في أعبار الطبعة الرابعة من العرب المعاصرين لابن خلدون من بني هلال ، فهو إذن وثيق الصلة بتاريخ البربر

وهكذا يبدأ الكتاب الثالث ، في الصفحة ٨٩ من الجزء (المجلد) السادس (في ٣٣٦ ص) وهو : « في أخبار البربر والأمة الثانية من أهل المغرب ، وذكر أوليتهم وأجيالهم ودولتهم منذ بدء الخليقة لهذا العهد ، ونقل الخلاف الواقع بين الناس في أنسابهم » ويستغرق الجزء السابع (في ٤٦٤ ص) ، ويكون عدد صفحاته (٨٠٠ ص) بدون الفهارس . .

وبذلك يكون القسم التاريخي من كتاب العبر في ٣٠٤٨ صفحة ، بدون الفهارس ، وهو مع المقدمة (٥٣٤ ص) يكون عملاً ضخماً ، يقدره المقرئ ويصفه بالتاريخ الكبير ، بمناسبة ما ينقله من الترجمة التي ألفها ابن الخطيب في الاحاطة لابن خلدون ، والتي ذكر فيها من تواليفه : شرح البردة ، وتلخيص كتب ابن رشد ، وتأليف كتاب في الحساب ، الى جانب ما نظم من أشعار ، فيقول « قلت هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادئ أمره وأواسطه ، فكيف لو رأى تاريخه الكبير . . ديوان العبر . . » وقد عرف في آخره بنفسه « (٢٧) .

وابن خلدون في تأليفه التاريخي ملتزم بعمل المقدمات ، فهو يخص الكتاب الثاني : في أخبار العرب ، بمقدمتين وبرنامج ، وأولى المقدمتين ، في : أمم العالم واختلاف أجيالهم والكلام على الجملة في أنسابهم (ج ٢ ص ٢ وما بعدها) وثانيتهما في : كيفية وضع الأنساب في الكتاب (كتابنا) لأهل الدول وغيرهم : كالأغصان للشجرة (ص ١٤) . . وهنا يحسن الاسراع بالإشارة الى أن ابن خلدون مغرم بالأنساب ، محب لتوضيح أخباره وأعلى الأصح تلخيصها في رسوم في شكل شجرة النسب من جذورها الى أغصانها . وهو يعرف بعلم الأنساب ويبين أهميته التاريخية وفوائده العملية مما يتعلق بالمواريث وعلم الفرائض . أما البرنامج فيعني به محتويات الكتاب من الدول العربية على ترتيبها ، والدول المعاصرة لها من العجم .

وهو مولى بالتقسيم والتصنيف ، مثل معظم الفلاسفة ، فهو يقسم العرب الذين يعرف بأخبارهم الى أربع طبقات :

- ١ - العرب العاربة : عاد وثمود ، ومعاصروهم
- ٢ - العرب المستعربة : اليمنية والسبائية ومعاصروهم من ملوك بابل ونيينوى والقبط ، وبنو اسرائيل والفرس على طبقاتهم ، واليونان والروم . . . الخ .
- ٣ - العرب التابعة : من العدنانية والقحطانية ، ومالكهم في الحيرة والشام الى قریش وظهور الاسلام ، وقيام دولة الخلافة حيث ينتهي الجزء الثاني بتسليم الحسن الأمر لمعاوية .

ويستغرق الجزء الثالث تاريخ الدولتين : الأموية والعباسية ، وقيام الدويلات المستقلة في عرض عام في ثنايا دولة الخلافة ، من : الصفارية والسامانية وثورات الزنج والقرامطة والدولة الطولونية والفاطمية ، والدول المتغلبة على بغداد ، من : الديلمية والسلجوقية حتى ظهور التتر وسقوط بغداد ، وانتقال الخلافة الى مصر .

وهو يعود في الجزء الرابع الى دراسة تاريخ الدويلات المستقلة في شكل كيانات ذاتية يبدأها بالثورات العلوية والدول التي قامت على أساس التشيع ، من : الزيدية والأدارسة والزنج ، والعباسيين بالقيروان والقاهرة ، والقرمطية بالبحرين ، والاسماعيلية بالموت ، وبني الحسن بمكة ثم المهوشم ، وأخيرا دولة بني الرسي أئمة الزيدية بصعدة .

بعد ذلك تأتي أخبار المعارضين للدولة العباسية من الأمويين في الأندلس ، وفيها يشير الى أخبار ثوار اشبيلية ويضمنهم آله من بني خلدون (ج ٤ ص ١٥ - ١٣٦) ، ثم من أتى بعدهم ، مثل : دولة بني حمود (الأدارسة) بقرطبة ، وملوك الطوائف ثم دولة بني الأحمر المعاصرة حيث لا يزيد ما بين المسلمين على أيامه على ما بين رندة من الغرب وألبيرة من شرق الأندلس ، وهي مسافة حوالي ١٠ (عشر) مراحل طولاً ، في مرحلة أو أقل من مرحلة عرضاً : ما بين البحر والشمال (الجوف) (العبر ، ج ٤ ص ١٧١) وأخيرا دول بني اذفونش من الجلالقة .

ثم تأتي دول العرب المتغلبين التابعة للدولة العباسية في المغرب من : الدولة الأغلبية وما يلحق بها ، ودول الاسلام في اليمن من تابعين لبغداد أو شيعة ، وبني حمدان ، وبني عقيل بالموصل ، وبني مزيد بالحلة .

ثم دول العجم التابعين للدولة العباسية ، من : الطولونية ، والახشيديّة والصفارية وآل سبكتين وبني سامان ، والغورية والقراخانية والخطائية .

أما موضوعات الجزء الخامس فأولها دولة السلجوقية من الترك ، وتبدأ بمقدمات في أنسابهم وجغرافية بلادهم ، وفي طبيعة حياتهم البدوية التي يستنجدون فيها مساقط الغيث ومن الواضح أن هذه القطعة أضيفت كمقدمة دون ترتيب ، وربما وضعت في غير موضعها إذ تأتي بعدها معلومات عن ألب ارسلان ثم عنوان عن غزاته الى خلاط وأسر ملك الروم .

وبعد سلاطين السلاجقة يأتي ملوك الغور ثم خروج التتر وفرار خوارز مشاه ، ثم سلاجقة الشام وآل زنكي ، وأخبار الفرنج في سواحل الشام ، والفرنج (الصقليين) في سواحل أفريقية والدولة الأيوبية والحروب مع الفرنج بالشام .

وأخيرا تأتي أخبار دولة الترك القائمين بالدولة العباسية بمصر والشام من بعد بني أيوب لهذا العهد (المماليك) وتبدأ بمقدمات في أنساب الترك ، ودخولهم في خدمة الخلفاء ، وجلب التجار لهم بمصر ، لكثرة رقيقهم نتيجة لغلبة التتر على شعوب الترك من القفجاق والروس والجركس وإن الغرض من جلبهم الى مصر ليس للاستعباد بل لتكثيف العصبية وتغليظ الشوكة وبذلك تنتهي أخبار الطبقة الثالثة من العرب .

ويبدأ الجزء السادس بالطبقة الرابعة من العرب المستعجمة أهل الجيل الناشئ لهذا العهد (عهد المؤلف) وفيه أخبار دخول بني هلال وسليم المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) والتي تستغرق ٨٨ صفحة .

ولما كان الكتاب الثالث الخاص بالبربر يأتي بعد ذلك ويستغرق بقية الجزئين السادس والسابع فكان ابن خلدون قصد أن تكون قصة دخول الهلالية الى المغرب مقدمة لتاريخ البربر ، بمعنى أن تاريخ البربر في المغرب ليس الا تاريخ العرب في أفريقيا الشمالية ، وهو الأمر الذي لم يغيب عن فطنة مدير مطبعة بولاق . والا لكان بدأ الجزء السادس مع بداية الكتاب الثالث في أخبار البربر ، والأمة الثانية من أهل المغرب من صفحة ٨٩ .

وتبدأ أخبار البربر بالتعريف بمواطنهم ، وفضائلهم ، وأخبارهم على الجملة من الفتح الاسلامي الى ولاية بني الأغلب ، وهو ما سبق أن تحدث فيه في الجزء الرابع (ص ١٨٥) ثم يستعرض قبائل البتر ودولة بني واسول ملوك سجلماسة ، ثم قبائل البرانس ودولة آل زيري ، وآل حماد بالقلعة .

وتأتي الطبقة الثانية من صنهاجة ؛ ويستعرض قبائلها ، من : المصامدة وبرغواطة وغمارة ، ويدخل في ثناياها أخبار الادارة للمرة الثانية (أنظر ج ٤ ص ١٢) وبني عبد المؤمن وبني حفص ، والصراع بينهم وبين بني مرين وبني عبد الواد ، وهي الفترة التي عاصرها ابن خلدون حيث ولاية الامير أبي عبدالله البجاية ، واستيلاء أبي الحسن على أفريقية وواقعة العرب مع السلطان أبي الحسن بالقيروان (سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) ، وولاية السلطان أبي العباس ثم ابنه أبي فارس ، ورياسة بني يملول بتوزر .

والجزء السابع والآخر يستوعب خبر قبائل زناتة الذين كانوا يجارون العرب في سكني الخيام واتخاذ الابل وركوب الخيل وايلاف الرحلتين بمعنى تتبع القطر والكلأ في الانتجاع صيفا وشتاء .

وأسلوب الحياة البدوية هذا يسميه ابن خلدون « العربية » (ص ٤) .

وهنا يظهر ابن خلدون دراية بأحوال البربر ، فيتكلم عن أنساب بعض القبائل المجهولة النسب ، من زناتة ، كما يكشف عن دراية بشيء من فقه لغتهم وصوتياتها . ثم هو يقسم زناتة الى طبقات كما سبق له أن قسم العرب وصنهاجة ، تبعاً لأجيالهم .

والطبقة الأولى هم بنو يفرن ، ومنهم أبو يزيد الثائر على الفاطميين بالمهدية ، كما كانت لهم وقتل دولة بوهراة وتاهرت . ومنهم مغراوة الذين دخلوا في خدمة الادارة ثم ظاهروا دعوة المروانية بالأندلس ، وملكوا فاس الى عهد لمتونة المرابطين .

والطبقة الثانية هم بنو واسين ، ومنهم بنو مرين وبنو عبد الواد ، حيث العودة الى الدولة الحفصية والفترة التي عاصرها ابن خلدون ، وهزيمة السلطان أبي الحسن ، واستيلاء أبي عنان ثم أبي سالم ثم أبي العباس على تلمسان ، ومحنة أخيه يحيى بن خلدون على يدي أبي تاشفين ثم يأتي بنو سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت (تازروت) ، ويستمرسل أخبارهم الى سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م .

وفي الدولة المرينية تأتي أخبار يعقوب بن عبد الحق وجهاده في الأندلس حيث أجاز ٤ مرات ، وانتفاض ابن الأحمر (صاحب غرناطة) ومظاهرته للطاغية على طريف ، وانعقاد السلم مع الطاغية شانجة . وتأتي أخبار السلطان أبي الحسن مرة أخرى ، وقضائه على دولة بني عبد الواد في تلمسان ، وهزيمته المؤلة في طريف سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م وواقعة العرب مع السلطان بالقيروان سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ .

وينتهي الجزء السابع بملحق في التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب تستغرق ٨٣ صفحة (من ص ٣٧٩ الى ص ٤٦١) (٢٨) .

ما بين الكاتب والكتاب : ابن خلدون والعبر

والحقيقة ان تعريف ابن خلدون بنفسه كخاتمة لكتابه يعتبر مرشدا هاما لمن يرغب في دراسة كتاب العبر . فتأليف الكتاب الكبير بمقدمته العجيبة يمثل في حقيقة الأمر خلاصة تجارب صاحبه على المستويين النظري والعملي . والذي نقصده بالتجارب النظرية هو تكوين ابن خلدون العلمي الذي يظهر بشكل فذ في الكتاب الأول في المقدمة ، أما التجارب العملية التي تعنى اشتغاله بالوظائف الديوانية وممارساته السياسية فتظهر بجلاء في الأجزاء المعاصرة من تاريخه ، وهي التي مكنته من بلورة كثير من نظرياته في التاريخ والاجتماع والسياسة .

فابن خلدون عاش زهاء ٧٦ سنة (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦) قضى معظمها في خدمة ملوك المغرب والأندلس المعاصرين ، متجولا ما بين : تونس وقسنطينة وبيجاية وتلمسان وغرناطة وفاس ومراكش ، وغيرها من حواضر البادية في بسكرة وقلعة بني سلامة قبل أن ينتهي به المطاف الى مصر (كما فعل المسعودي) . هذا ، ومن المهم الإشارة الى أنه بدأ العمل في الوظائف الديوانية مبكرا قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، وأنه كثيرا ما استغل الوظيفة من أجل الدراسة والتحصيل العلمي ، وهو الأمر الذي كانت تسمح به ظروف العمل في بطانة الحكام الذين كانوا يتجملون بصحبة العلماء . هذا ، الى جانب أنه كان يسمح لنفسه بترك الوظيفة ما بين الحين والآخر ليأخذ قسطا من الراحة . . يقضيه وحده في التأمل والقراءة والكتابة .

ومن المهم الإشارة قبل ذلك أو بعده ، الى أن مؤرخنا كان شخصا موهوبا ، وأنه سليل أسرة كبيرة كان لها نشاطها السياسي والعلمي منذ قرون طويلة ، في كل من الأندلس والعدوة الأفريقية (سبتة) وتونس ، وكل ذلك له أثره في تكوينه العلمي وبنيتة الشخصية .

(٢٨) وهذا التعريف نشر مستقلا بعد أن وجدت منه نسخ مزودة ومنقحة بمعرفة ابن خلدون بعد انتقاله الى مصر ، وذلك بإشراف محمد بن تاويع الطنجي ، ونحت عنوان « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا » ، القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، ١٩٥١ .

ولما كنا نقتض هذا الجزء المستقل من الكتاب ، فإننا سوف نرجع الى التعريف كما هو في ختام الجزء السابع من العبر ، وهو يحقق الغرض الذي نهدف اليه من هذه الدراسة ، انشاء الله ، مع الإشارة الى من رجع اليه اذا ظهرت الحاجة الى ذلك .

بنو خلدون : ما بين اشبيلية وتونس

تنسب أسرة ابن خلدون الى جدها خالد الحضرمي أصلاً ، الذي دخل الأندلس منذ وقت مبكر ، ونزل اشبيلية ، حيث عرف - على الطريقة الأندلسية - باسم خلدون ، في شكل صيغة الجمع من أجل التعظيم والتفخيم . وشاركت الأسرة في العمل السياسي على أيام الأمويين (٢٩) ، واستمر لها شأنها في اشبيلية حتى أيام بني عباد اذ شاركوا في موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) ومع اضمحلال دولة الموحدين في الأندلس وانكشاف بسائط اشبيلية أمام العدو رأت الأسرة الانتقال الى العدو المغربية ، فاستقرت في سبتة في كنف بني العز من سادة المدينة ، وذلك قبل أن يرحلوا الى أفريقية في رعاية أميرها أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي الذي استقل عن الموحدين سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م وعلى عهد الأمير أبي اسحق (ابن أبي زكريا يحيى ، وهو الرابع من أمراء الحفصيين) عين جد أبيه أبو بكر محمد في وظيفة كاتب الأشغال ، المختص بالاشراف على الشؤون المالية في الدولة (التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٣٨٣) ، ثم انتقل جده محمد (ابن محمد) الى بجاية حيث ولي حجابة أبي فارس (ابن أبي اسحق) الذي كان مبعداً من قبل أبيه هناك ، ولكنه لم يلبث أن استعفى من تلك الوظيفة ، ورجع الى الحضرة تونس .

ولما قامت ثورة ابن أبي عمارة المعروف بالدعي في تونس ، راح ضحيتها جده أبو بكر محمد اذ لم يكتف الدعي باعتقاله ومصادرته ، بل انه دبر التخلص منه خنقا في محبسه . وعندما انتقل جده محمد مع السلطان أبي اسحق الى بجاية حيث كان يعمل من قبل حاجبا لدى الأمير أبي فارس بن أبي اسحق . قبض عليهم أبو فارس ، وأخرجهم معه عندما قاتل الدعي ابن عمارة قرب مرماجنة .

وعندما استعاد أبو اسحق ملكه صار محمد بن خلدون حاجبا له بعد الفاخاري ، كما استمر في الحجابة على عهد الأمير أبي عصيد (حفيد المستنصر) وان كان رديفاً للحاجب محمد بن الدباغ (أي حاجبا ثانياً) . وعلى عهد الأمير خالد ظل محمد بن خلدون محتفظاً بما كان له من الامتيازات دون منصب رسمي ، ولكنه عاد الى الخدمة على عهد الأمير أبي يحيى اللحياني ، ولكن في شكل وال أو قائد لمنطقة الجزيرة ، عندما ظهر للأمير خطر بعض بطون قبائل سليم في تلك الناحية .

وعندما انتهت امانة اللحياني ترك محمد بن خلدون الخدمة ، وفي سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م خرج لأداء فريضة الحج . والظاهر أنه كان قد قرر عدم العودة الى الاشتغال بالوظائف الديوانية ، اذ يقول مؤرخنا انه « أظهر التوبة » بعد الحج ، وانه عاود الحج مرة أخرى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م ثم لزم كسر بيته . وهكذا عندما عرضت عليه الحجابة سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م ، عقب وفاة محمد بن عبد العزيز المعروف بالمزوار ، « أبي واستعفى ، فأعفاه (السلطان) » ولكنه

(٢٩) فيما يتعلق بوقت دخول خلدون الى الأندلس يكاد مؤرخنا يشكك في أن يكون ذلك قد حدث لأول الفتح - منذ ٧٠٠ سنة من مهده - اذ لم يعرف من أجداده الا عشرة فقط ، ومن المحتمل أن يكون عشرة منهم قد سقطت أسماؤهم (المبرج ج ٧ ص ٣٧٩) وهذا مادعا على عبد الواحد وافي الى اقتراح لأبأس به يكون دخول خلدون على أسسه الى الأندلس في القرن الثالث الهجري ، أي عندما شاركت الأسرة في العمل السياسي والثورة على محمد بن الأمير عبد الله (انظر المقدمة ، دراسة على عبد الواحد ص ١٨ ص ٤٢ - .

أخذ بنصيبه في تعيين محمد بن سيد الناس حاجبا . وهكذا يكون محمد ، جد مؤرخنا قد قضى حوالي ٢٠ (عشرين) سنة ، زاهدا في الوظائف والخدمة عاكفا على صلاته وصيامه ، حسبنا نظن ، الى أن توفي وهو ملازم لداره سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م (العبر ، ج ٧ ص ٣٨٣ - ٣٨٤) .

ولم يكن من الغريب اذن أن ينزع محمد بن أبي بكر ، والد المؤرخ وسمي جده الأقرب وجد أبيه « عن طريقة السيف والخدمة الى طريقة العلم والرباط » فلقد قرأ والد ابن خلدون وتفقه ، « وكان مقدما في صناعة العربية - وله بصر بالشعر وفنونه » ولم يكن من الغريب أن يعنى الوالد بتنشئة ابنه (مؤرخنا) تنشئة مناسبة لمركزه العلمي ، وان لم يهمله القضاء طويلا ، اذ توفي في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ، تاركا اياه ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره .

ولم تتمثل كارثة الطاعون في فقد مؤرخنا لوالده وسنده في مطلع شبابه ، بل في القضاء على المشيخة من أهل العلم والتحصيل ، وبذلك تم الاستئصال ماديا ومعنويا في البلاد التونسية .

عبد الرحمن بن خلدون وتكوينه العلمي :

المدرسة التونسية :

ولد عبد الرحمن بن خلدون ، صاحب العبر ، في مدينة تونس ، أول رمضان سنة ٧٣٢ هـ / ٢٦ مايه ١٣٣٢ م في وقت ازدهرت فيه العاصمة الحفصية كمركز للثقافة والعلوم ، بفضل مشاركة علماء الأندلس الذين كانوا قد نزحوا عن الأندلس الى المغرب وتونس اثر استفحال حرب الاسترداد بعد فشل الموحدين في مكافحة القشتاليين ، في مطلع القرن السابع الهجري ، (١٣ م) ، وانكشف اهم مراكز الاسلام في قرطبة واشبيلية ، أي منذ حوالي مائة سنة حينما غادر بنو خلدون اشبيلية الى سبتة .

وأول من يذكر ابن خلدون من أساتذته ، هو :

- أبو عبدالله بن نزال الأنصاري ، وهو أصلا من جالية الأندلس ، من أعمال بلنسية ، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها . ولقد قرأ عليه القرآن - بعد أن حفظه - بالقراءات السبع المشهورة كما عرض عليه قصيدة الشاطبي في القراءات ، وكتاب التفسير لأحاديث الموطأ لأبن عبد البر ، كما درس عليه كتابا أخرى ، مثل : كتاب التسهيل لأبن مالك ، ومختصر ابن الخطيب في الفقه (العبر ، ج ٧ ص ٣٨٤) .

وفي اللغة العربية كان والده أول أساتذته ، الى جانب : الشيخ أبي عبدالله محمد الحصايري ، وله شرح على كتاب التسهيل ، وأبي العباس أحمد بن القصار ، المتخصص في النحو ، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الرسول ، وكان بتونس حيا وقت تأليف الكتاب (ما بين ٧٧٦ هـ و ٧٨٣ هـ) وأمام العربية والأدب بتونس في ذلك الوقت هو : أبو عبدالله محمد بن بحر ، الذي وجهه الى حفظ الشعر . ولقد حفظ مؤرخنا كتب الأشعار الستة ، والحماسة للاعلام ، وطائفة من شعر المتنبي ، وبعض أشعار كتاب الأغاني .

أما امام المحدثين وقتئذ بتونس ، فهو أبو عبدالله محمد بن جابر ، الملقب بشمس الدين ، ولقد سمع عليه كتاب مسلم بن الحجاج (الصحيح) ، وكتاب الموطأ جميعه ، الى جانب بعض من الأمهات الخمس . ولقد حرص ابن خلدون على أن يأخذ منه اجازة عامة . والاجازة العامة تعتبر بمثابة الشهادة التي تعطى حاملها الحق في تدريس كل مؤلفات من أعطائها وما قام بتدريس من كتب الآخرين .

وفي الفقه أخذ ابن خلدون عن أبي عبدالله محمد الحياي ، وأبي القاسم محمد القصير فدرس عليهما : كتب التهذيب لأبي سعيد البردعي ، ومختصر المدونة ، وكتاب المالكية ، كما حصل منها على الاجازة .

هؤلاء الأساتذة السبعة - ويضمنهم والده - الذين كانوا مدرسته الأولى في تونس ببرنامجهما التقليدي في علوم القراءات والعربية والحديث والفقه ، درجوا كلهم في الطاعون الجارف .

مدرسة مغربية بتونس

ومن حسن حظ مؤرخنا أن الأحوال السياسية المضطربة في بلاد المغرب ، في عصر التبدل والتغير ، في القرن الثاني الهجري (١٤ م) أدت الى أن تصبح العاصمة الحفصية ، تونس لفترة من الوقت ، مركزا للمدرسة علمية أخرى ، هي المدرسة المغربية ، ممثلة في بطانة السلطان أبي الحسن المريني ، من العلماء المعينين في مجلس علمه الذي كان يتجمل به ، وذلك عندما ملك أفريقيا سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م (العبر ، ج ص ٣٨٤ - ٣٨٥) .

ومن أخذ ابن خلدون عنهم من علماء المغرب هؤلاء ، حسبما يعرف بهم في التعريف بنفسه : - شيخ الفتيا بالمغرب وأمام مذهب مالك : أبو عبدالله محمد بن سليمان السطحي ، الذي تردد على مجلسه وأفاد منه (٣٠) .

وأمام المحدثين كاتب السلطان أبي الحسن ، و « صاحب علامته التي توضع أسفل مکتوباته - أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي أصلا (٦٧٥ - ٧٤٩ هـ / ١٢٧٦ - ١٣٤٨ م) (٣١) . ولقد لازمه ابن خلدون وأخذ عنه « سماعا واجازة » : الأمهات (الخمس) ، وكتاب الموطأ ، والسير لابن اسحق ، وكتاب ابن الصلاح في الحديث ، الى غير ذلك من الكتب التي سقطت من ذاكرته .

(٣٠) انظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٣٨٥ ، وأيضا ص ٣٨٩ (حيث الإشارة الى أن قبيلته سطة من بطون أوربة بنواحي فاس ، وأنه أخذ العلم في فاس عن الشيخ أبي الحسن الصغير امام المالكية بالمغرب وقتئذ . وكان ضمن من قرأ عليه موسى بن خلدون اخو مؤرخنا . ولقد حظروا قمة القيروان مع السلطان أبي الحسن ، وعلمص معه الى تونس واقام بها نحو من ستين .

(٣١) العبر ، ج ٧ ص ٣٨٥ - ص ١٩١ - ١٩٢ . حيث الإشارة الى أنه أخذ العلم في بلده سنة ثم استكمل دراسته في غرناطة بعد أن استولى على سبتة الرئيس أبو سعيد صاحب الأندلس واشتغل كاتبا في خدمة الوزير أبي عبد الله بن الحكيم يفرناطة وعندما استعاد بنو مرين سبتة شغل وظيفة الكاتب سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م على عهد أبي سعيد ثم انه ترقى الى وظيفة رئيس الكتاب ، صاحب العلامة سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م ، وظل كذلك على عهد السلطان أبي الحسن وان كان قد تخلف عن واقعة القيروان . وعندما اضطرت تونس لتوازي عبد المهيمن في بيت بني خلدون ، مما أسخط السلطان عليه ، ولو أنه عاد ورضى عنه - وتوفي عبد المهيمن في الطاهون الجارف سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م .

وابن خلدون يشير هنا الى أن عبد المهيم لم يكن أستاذا في الحديث واللغة العربية والأدب فقط بل كان خبيراً في العلوم العقلية أيضاً . وهو يصبر على دقة عبد المهيم العلمية ، فكتبه مضبوطة كلها مقابلة ، ولا يخلو ديوان منها عن ضبط يخط بعض شيوخه المعروفين في سنده الى مؤلفه ، حتى الفقه والعربية الغربية الاسناد الى مؤلفها في هذه العصور ، (العبر ، ج ٧ ص ٣٨٥) . ولا بأس أن يكون لعبد المهيم تأثيره على ابن خلدون فيما أخذ به نفسه في التأليف التاريخي من التحقيق والتدقيق .

- أما ابن رضوان المالقي (أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان) ، كاتب السلطان ، ومساعد أبي محمد عبد المهيم صاحب العلامة ورئيس الكتاب (٣٢) فهو من مفاخر المغرب في براعة الخط وكثرة العلم ، واجادة فقه الوثائق ، والبلاغة في الترسل ، وجودة الشعر والخطابة على المنابر - لأنه كان كثيراً ما يصلي بالسلطان . وينص ابن خلدون على أنه أفاد منه وان لم يتخذ أستاذا لمقارنة السن بينهما (٣٣) .

وأمام المغرب في القراءات : الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي ، الذي قرأ عليه القرآن بالجمع بين القراءات السبع من طريق أبي عمرو الداني وابن شريح (وان لم يكملها) وحصل منه على اجازة عامة (٣٤) .

والى جانب من سبق ذكرهم ممن ينص ابن خلدون في التعريف على أنه أخذ منهم العلم يذكر آخرين من علماء المغرب ممن كانوا في جملة مجلس أبي الحسن ، مثل : ابني الامام عبد الرحمن وعيسى (٣٥) ومحمد ابن الصباغ المكناسي ، تلميذ الألبى ، وكان اماما في معرفة الموطأ ، مبرزاً في المعقول والمنقول ، ومحمد بن عبد النور التندرومي ، وكان مبرزاً في الفقه المالكي ، وأخوه علي بن عبد النور الذي هاجر الى مصر واشتغل هناك بالكيمياء ، الأمر الذي ورطه مع الناس (ج ص ٣٩٣ - ٣٩٥) .

ومن هؤلاء : محمد بن النجار ، تلميذ كل من امام التعاليم محمد بن هلال شارح المجسطي في الهيئة (في سبعة) ،

(٣٢) العبر ، ج ٧ ص ٣٨٥ ، وص ٣٩٢ حيث الإشارة الى أنه غادر مالقة بعد وقعة طريف ونزل سبتة حيث تقرب من السلطان أبو الحسن الذي نظم في جملة الكتاب ، واختص بخدمة عبد المهيم رئيس الكتاب .

(٣٣) العبر ، ج ٧ ص ٣٨٦ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٤ - حيث الإشارة الى أنه بعد رحيل السلطان أبو الحسن بقي بتونس وعمل كاتباً لابنه أبو الفضل الى أن استعاد الحفصيون تونس على يدي الفضل بن أبي يحيى . كما عمل كاتباً لدى السلطان أبي عثمان ، وأصبح كاتب العلامة من سنة ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م الى سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م وفي دولة السلطان أبي سالم صارت العلامة الى علي بن محمد بن سمود (الى جانب ديوان العساكر والانشاء) بينما صار التوقيع والسر لمؤرخنا عبد الرحمن بن خلدون . وبعد وفاة أبي سالم سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦١م عاد ابن رضوان الى وظيفته كصاحب العلامة على عهد كل من الوزير عمر بن عبد الله ، والوزير عبد العزيز بن أبي الحسن . وعندما آلت السلطة بعد ذلك الى السعيد في كفاية الوزير أبي بكر بن هازي بن الكاس ثم الى السلطان احمد ، ظل ابن رضوان على حاله الى أن هلك بأزمور ، في حملة (حركة) السلطان احمد الى مراكش لخصار عبد الرحمن ابن أبي يفلوس بن السلطان أبي علي . . .

(٣٤) العبر ، ج ٧ ص ٣٨٥ ، وص ٣٩٤ - حيث الإشارة الى أنه أخذ العلم والعربية من مشيخة فاس ، ودوي عن الرحالة ابن رشيد ، وأنه كان له صوت جميل « من مزمار آل داود »

(٣٥) أبو زيد عبد الرحمن وأخوه أبو موسى عيسى اللذان عرفا معاً بـ « ابنا الامام » لأن والدهما كان اماماً لبعض المساجد في عمل تلمسان . ولقد قريبا أبو هوروي لها مدرسة ، قبل ذلك . ولقد قريبا أبو الحسن بعد أن دخل تلمسان سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م ، وصحبها في وقعة طريف بالاندلس التي توفي بعدها أبو زيد ، بينما بقي أبو موسى في صحبته في حملة إفريقية سنة ٧٤٨هـ / ١٩٤٨م ، قبل وفاته بتلمسان في الطاعون الجارف (العبر ، ج ٧ ص ٣٨٨ - ٣٨٩)

وابن البنا (في مراكش) الذي هلك في الطاعون (ج ص ٣٩٥) وأحمد بن شعيب (من فاس) الذي برع في الأدب واللغة والعلوم العقلية والطب ، وهلك في الطاعون (ج ٧ ص ٣٩٥) .

وآخرهم صديق ابن خلدون : محمد بن مرزوق (المولود في تلمسان ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م والمتوفي في القاهرة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م) ، تلميذ ابن الامام ، وأسرته خدمة (سدة) تربة الشيخ أبي مدين بالعباد بتلمسان ، ويذكر له أنه ساعد السلطان أبا سالم في الوصول الى العرش ، وانه جعل ابن خلدون يشاركه في ذلك (التعريف ، العبر ، ج ٧ ، ص ٣٩٦ - ٣٩٨) .

شيخ العلوم العقلية في المدرسة المغربية الآبلي (٦٨١ - ٧٥٧ هـ / ١٢٨٢ - ١٣٥٦ م)

أما مفخرة المدرسة المغربية حقيقة ، فهو : أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الآبلي أصلاً نسبة الى بلد آبله (AVILA) من شمال الأندلس (الجوف) قرب مدريد ^(٣٦) التلمساني منشأ حيث دخل أبوه وعمه كجند في خدمة بني عبد الواد ، شيخ العلوم العقلية . والحقيقة أن المدرسة المغربية كانت معروفة بأنها مدرسة تقليدية ، تأخذ الفقه المالكي ولا تنحرف الى غيره من المذاهب ، وهو الأمر الذي بلغ الذروة على عهد المرابطين الذين ينسب اليهم احراق أو تمزيق كتاب الاحياء للغزالي ، بناء على نصيح فقهاء المالكية . وكان فقهاء المالكية هؤلاء لا يعرفون شيئاً من الكلام أو الجدل المنطقي حتى أنهم لم يحيروا جواباً عندما تقدموا لمناظرة محمد بن ثومرت صاحب دعوة الموحدين ، اثر عودته من المشرق وتعلمه تلك الفنون العقلية . والحقيقة ان الحال كان على ذلك المنوال أواخر القرن السابع الهجري (١٣) وأوائل الثامن (١٤ م) .

فالآبلي نفسه ، أستاذ ابن خلدون ، وشيخ العلوم العقلية كما يصفه مؤرخنا لم يكن يعرف شيئاً عن تلك العلوم ، الأمر الذي سبب له نوعاً من الصدمة النفسية ، عندما استمع الى أساتذة هذه الفنون العقلية لأول مرة في مصر ، فلم يدرك شيئاً مما يتكلمون فيه .

وقصة الآبلي تبدأ في تلمسان عاصمة بني عبد الواد ، عندما تعرضت للحصار في شعبان سنة ٦٩٨ هـ / ماية ١٢٩٩ م) من قبل يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني الذي ضرب حولها سياجاً من الأسوار ، واختط الى جانبها مدينة نزل بها ، سماها المنصورة : فلقد استمر ذلك الحصار أكثر من ثماني سنوات ، توفي أثناءها أمير تلمسان : عثمان بن يغمراسن العبد وادي سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م ، وهي السنة الخامسة من الحصار ، وولي بعده ابنه أبو زيان محمد . وجهد بنو عبد الواد من الحصار حتى أكلوا الجيف والفيران وخربوا أسقف منازلهم من أجل الوقود . ويمدنا ابن خلدون بمعلومات عجيبة في طرافتها عن الأسعار في المدينة وهي تعاني الجوع أثناء الحصار . فقد بلغ ثمن البقرة ٦٠ مثقالاً ، والشاه ٧١/٢ مثقال . أما لحم الجيف ، فبلغ رطل لحم البغال والحمر منه ١/٨ مثقال ، ورطل لحم الخيل ١٠ دراهم صغار وبلغ ثمن الرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى ٣٠ درهما .

(٣٦) انظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٣٨٩ ، وانظر على عبد الواحد والي ، مقدمة ابن خلدون ، الدراسة ، ج ١ ص ٥١ .

أما أسعار الخضر والفاكهة فكانت كالآتي : الأصل الواحد من الكرنب $\frac{3}{8}$ المثقال ومن الخس ٢٠ درهماً ومن اللفت ١٥ درهماً ، والواحدة من القثاء والفقوس ٤٠ درهماً والخيار $\frac{3}{8}$ الدينار ، والبطيخ ٣٠ درهماً ، والحبة من التين والأجاص درهماً .

أما الأدم ، فقد بلغ سعر الأوقية من الزيت ١٢ درهماً ، ومن السمن ١٢ درهماً ، ومن الشحم ٢٠ درهماً ، وبلغت الأوقية من الفول ٢٠ درهماً ومن الملح ١٠ دراهم ومن الحطب ١٠ دراهم . ولم ينقذ أهل تلمسان من الحصار المميت سوى مقتل يوسف بن يعقوب . فجأة على يدي أحد خصيانه ، واستنصار حفيده أبي ثابت بأبي زيان ، فكان ذلك اليوم الفرج بالنسبة لهم (أنظر العبر ٢ ج ٦ ص ٩٥ - ٩٦) .

في هذا الوقت كان الآبلي الشاب ، الذي يناهز الخامسة والعشرين من عمره ، يشغل وظيفة القهرمان في دار بني يغمراسن ملوك تلمسان ، وهو واحد من مصادر ابن خلدون ، شهود العيان عن هذه الفترة (ج ٦ ص ٩٦ - ٩٧) . وعقب الحصار عرف الآبلي أن والده إبراهيم كان قد أخذ رهينة بمعرفة يوسف بن يعقوب المريني عندما استولى على مرسى هنين أثناء الحصار وقرر الذهاب لرؤيته ، ولكن الشاب الذي كان قد نشأ له ميل إلى العلم صدم نفسياً عندما وجد أباه في خدمة المرينيين قائداً لجماعة الجند الأندلسيين بتاوريرت ، فترع عن طوره وكره المقام في المنطقة ، فارتدى ملابس الزهاد ، وسار إلى رباط العباد حيث ضريح سيدي أبي مدين ، وهو يزعم المسير إلى الحج ، مختفياً في صحبة الفقراء .

وكان من حسن حظ الآبلي أن التقى بداعية علوي من أهل كربلاء كان قد جاء إلى رباط العباد بقصد إقامة دعوته هناك ، ولكنه لما رأى كثرة العسكر المريني يش من تحقيق قصده ، واعتزم العودة إلى العراق ، فسار في صحبته . وعلى طول الطريق إلى تونس انكشفت للآبلي حقيقة أمر العلوي ، ومن تونس ركبت الجماعة البحر إلى الاسكندرية ، ومنها سارت إلى مدينة مصر .

وحضر الآبلي مجالس علماء مصر ، مثل : تقي الدين بن دقيق ، وابن الرفعة ، وصفي الدين الهندي والتبريزي ، وغيرهم فرسان المعقول والمنقول ، فلم يكن قصاره إلا تمييز أشخاصهم إذا ذكرهم ، وهو الأمر الطبيعي بالنسبة لعالم ناشئ ، وافد من المغرب حيث لا تروج كثيراً علوم المعقول (٣٧) .

والظاهر أن الآبلي عندما عاد من رحلته المشرقية إلى تلمسان أراد أن يعوض ما أصابه من خيبة الأمل في سماع العلوم

(٣٧) هذا ولو أن الرواية التي ينقلها ابن خلدون تقول : أنه كان قد أصيب باعتلاط في عقله نتيجة لشربه الكافور للتداوي من حملة أصابته في السفينة ، وهو الأمر الذي يشك في صحته ، إذ لو كان الآبلي قد تعرض للاصابة في عقله فإن ذلك يكون قد حدث عندما رأى والده في الحملة العسكرية التي كان يكرها ، وهو الأمر الذي أدى به إلى أن « نزع عن طوره ، وليس المسوح ، قبل أن يسير مع الداعي العلوي نحو تونس » (التعريف ، العبر ٢ ، ج ٧ ص ٣٩٠ ، ومن الداعية العلوي انظر أيضاً المقدمة ، نشر عبد الواحد ، ج ٢ ص ٩٢٧) ومن العلماء المصريين المذكورين ، من ابن دقيق العيد وغيره ، انظر للمؤلف « الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري في المصور الإسلامية الوسيطة » ، بحث في كتاب « مجتمع الاسكندرية عبر المصور » طبعة جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٩ (حيث الإشارة إلى أن مدرسة الاسكندرية كانت وقت الآبلي تقليدية متأثرة بالوالدين عليها من علماء المغرب والأندلس ، بينما القاهرة كانت مفتوحة على العلوم العقلية بتأثير علماء الشرق) .

العقلية بمصر ، فهجم عليها عند من يعرفها في تلمسان ووجد ضالته في الشيخ أبي موسى عيسى بن الامام ، الذي كان تعلم المنقول والمعقول في تونس وجاء الى تلمسان بعلم كثير منها ، فبدأ بقراءة المنطق والأصليين . ومن الواضح أن تعلمه الحساب بين ما كان قد تعلمه من العقلية جعل سلطان تلمسان وقتئذ ، وهو أبو حو بن يغمراسن بن زيان ، يستخدمه في الاشراف على الادارة المالية وجباية الأموال ، وهو الأمر الذي لم يرحب به الآبلي ، صاحب النفس الشفافة والميول العلمية العقلية ، فترك تلمسان وسار نحو المغرب (التعريف ، العبر ٢ ج ٧ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ص ٣٩٠) .

هذا ، ولا بأس أن تكون الرغبة في استكمال دراسة العلوم العقلية ، هي السبب في هربه الى فاس ثم الى مراكش سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م . ففي فاس أقام متواريا على عهد السلطان أبي الربيع ، لكي يأخذ التعاليم على أستاذها اليهودي : خليفة المغيلي . وعندما استوفي فنونها عليه غادر فاس الى مراكش ، حيث الامام أبو العباس بن البنا ، المبرز في التصوف علما وحالا ، وشيخ المعقول والمنقول في بلاد المغرب وقتئذ (التعريف ، العبر ٢ ج ٧ ص ٣٨٦ ص ٣٩٠) .

فلقد نزل الآبلي على الشيخ أبي العباس ابن البنا ، ولازمه وأخذ عنه ، وتضلع في علم المعقول والتعاليم والحكمة ، حتى أصبح خليفة ابن البنا دون منازع في تلك العلوم . وهكذا استدعاه شيخ المسكرة ، علي بن محمد بن تروميت ، الذي كان في طاعة السلطان ، ليقراً عليه . فصعد جبل هسكورة وبقي عدة سنوات يفيدهم ويعلمهم الى أن استنزله السلطان أبو سعيد مع شيخ الجبل ابن تروميت ، وأسكنه معه بالبلد الجديد من فاس . وعندما آل ملك المغرب الى السلطان أبي الحسن ، وفتح تلمسان ، استدعاه من فاس ونظمه في جملة العلماء بمجلسه .

وظل الآبلي ، وهو في بطانة السلطان - يحضر مجالسه ، ويشهد وقائمه ، كما حدث في طريف والقيروان - يقوم بتعليم العلوم العقلية : « وينشأ بين أهل المغرب حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصاره » ، وبذلك أصبح أستاذ الجيل في هذا الفن في كل بلاد المغرب .

وهكذا فعندما قدم الآبلي على تونس في جملة السلطان أبي الحسن ، لزمه ابن خلدون « وأخذ عنه العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية » وأثبت جدارته حتى شهد له الأستاذ الآبلي بالتبريز في ذلك (التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٣٨٦ ، ص ٣٩١) ، فكان صاحب الفضل في تكوينه العلمي المميز ، واتجاهاته العقلانية التي جعلت منه مؤرخاً فيلسوفاً (٣٨) .

(٣٨) ولا بأس من الإشارة هنا الى أن العلامة القوية التي كانت بين والد ابن خلدون وبين الآبلي كانت من الأسباب التي ساعدت على تأثر مؤرخنا بأستاذه الفيلسوف ، كما كان لابن خلدون تأثيره على الآبلي ، فهو الذي لبّطه عن مصاحبة السلطان عندما غادر تونس في أسطوله والذي طرق في الطريق الى المغرب . ولقد بقي الآبلي في تونس الى أن خلف السلطان أبو هنان والده أبا الحسن في ملك المغرب ، وفتح تلمسان فكتب فيه يطلبه من سلطان تونس أبي اسحق إبراهيم بن يحيى الذي كان في كفالة شيخ الموحدين ابن تافراكون ، الذي أسلمه الى سفره ، وبذلك عاد الآبلي الى بطانة سلطان المغرب ، منتظاً في طبقة أشياخه من العلماء ، وظل كذلك الى أن توفي سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م (التعريف ، العبر ٢ ج ٧ ص ٣٩١) وفي أهمية الآبلي في تكوين شخصية ابن خلدون العلمية نحب ان نشير الى كتاب الأستاذ محمد طه الحاجري ، ابن خلدون ما بين حياة العلم ودنيا السياسة ، حيث ينص الآبلي بفصل يسميه : القسم الثاني من الكتاب ، ويحمل عنوان « أبو عبد الله الآبلي ، صفحة مطوية - من الحياة العلمية في المغرب العربي » (من ص ١٤٧ الى ص ١٧١) .

ابن خلدون ما بين الوظائف الديوانية والتجارب السياسية والدراسة العلمية :

هذا التكوين العلمي المتين كان يهيء ابن خلدون ، من غير شك ، الى تولي الوظائف الديوانية التي يشغلها أعوان الأمراء والولاة في الحكم . فاذا ما عرفنا ما كان يتمتع به مؤرخنا من شخصية طموحة وذكاء فذ ، لم نعجب اذ نراه يرتقي في سلم الوظائف العالية وهو لم يبلغ العشرين من عمره .

أودى الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م بالدي ابن خلدون ومعظم المشيخة وكان الآبلى من القلائد ممن نجوا منه ، فاستمر ابن خلدون في ملازمته والقراءة عليه الى أن استدعاه السلطان أبو عنان الى المغرب فارتحل اليه ، فكانت تلمذته على الآبلى ثلاث سنين .

وبعد رحيل الآبلى الى فاس ، دخل ابن خلدون ، في خدمة السلطان أبي اسحق صاحب تونس ووزيره المستبد به أبي محمد بن تافراكين ، كصاحب العلامة ، خلفا لصاحبها المعزول محمد بن علي بن عمر ، وذلك في وقت حرج ، انشقت فيه الأسرة الحفصية على نفسها ، فبدأ الصراع مع صاحب قسنطينة الأمير أبي زيد عبد الرحمن ، حفيد السلطان أبي يحيى (٣٩)

وفي أول سنة ٧٥٣ هـ / فبراير ١٣٥٢ م ، خرج ابن خلدون مع سلطانه والوزير والعساكر ومن انضم اليهم من عرب أبي الليل للقاء الخصوم ، ولكنه ما أن شعر بالهزيمة حتى ترك معسكره ناجيا بنفسه نحو قفصة من بلاد الجريد في الجنوب التونسي ، وفي هذا الوقت أتت الأخبار بأن السلطان أبا عنان ، صاحب المغرب ملك تلمسان عنوة ، وقتل سلطانها عثمان بن عبد الرحمن ، كما ملك بجاية من صاحبها الأمير أبي عبدالله ، حفيد السلطان أبي يحيى وعهد بولايتها الى عمر بن علي ، شيخ بني وطاس ، فأجفل صاحب قسنطينة الأمير أبو زيد عبد الرحمن الذي كان يحاصر تونس ، ومرو بقفصة . فكانت فرصة انتهزها ابن خلدون للخروج في صحبة بعض قواده الى مدينة بسكرة ، ومنها سار الى تلمسان ، وافدا على السلطان أبي عنان وفي الطريق التقى بحاجب السلطان محمد بن أبي عمرو الذي صحبه معه الى بجاية التي اضطربت أمورها اثر مقتل واليها الوطاس ، بتدبير أعوان أميرها السابق ، وبعد وفوده على السلطان في تلمسان رجع الى بجاية حيث قضى شتاء سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م مع ابن أبي عمرو والحاجب . وفي السنة التالية ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م كان الحاجب يستدعيه الى فاس ، وينظمه في أهل مجلس السلطان العلمي ، ويلزمه شهود الصلوات معه ، ويستعمله في كتابته والتوقيع بين يده (ج ٧ ص ٣٩٩ - ٤٠٠) .

والغريب في الأمر أن ابن خلدون الذي فسر هربه من معسكر سلطان بجاية - حيث كان صاحب العلامة - بأنه كان يشعر بالوحشة لموت المشيخة ولعدم استكمال الدراسة على بقية العلماء الذين رحلوا الى المغرب ، وأنه كان يزعم للحاق

(٣٩) الصريف ، المبرج ٢ ص ٣٩٨ - ٣٩٩ . حيث يعرف ابن خلدون بأن العلامة التي كتبها عن السلطان ، والتي تعتبر بمثابة التوقيع في الخطابات الرسمية ، هي : الحمد لله والشكر له ، بالقلم الغليظ ، ما بين البسلة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم .

بهم لولا اعتراض أخيه الأكبر محمد (ج ٧ ص ٣٩٩) ، يعود هنا فيقرر أنه قبل وظيفة الكتابة على كره منه ، استصغارا لشأنها « اذ كنت لم أعهد مثله لسلفي » - رغم ما قاله قبل ذلك من أنه لقي من السلطان في العام الماضي :- « ما لم احتسبه ، اذ كنت شاباً لم يطر شاربي » (ج ٧ ص ٤٠٠) .

والمهم أنه يعود وينسجم مع نفسه عندما يقرر أنه عكف على النظر والقراءة ، ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس ، مثل الأستاذ محمد بن الصفار ، امام القراءات لوقته ، وشيخ المحدثين ، الرحالة : محمد بن رشيد الفهري ، وصديقه قاضي الجماعة بفاس محمد المغربي (الذي عزل سنة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م) وتوفي آخر سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م والامام محمد بن أحمد الشريف الحسني (٧١٠ هـ / ٧٧١ هـ / ١٣١٠ م / ١٣٦٩ م) ، فارس المعقول والمنقول وصاحب الفروع والأصول ، تلميذ أولاد الامام والآبلي في تلمسان ، وأستاذ القاضي ابن عبد السلام في تونس ، « والذي انتصب لتدريس العلم وبه ، فملاً المغرب معارف وتلاميذ (العبر ، ج ٧ ص ٤٠١ - ٤٠٢) » ومحمد بن يحيى الرجعي (من برجة الأندلس) ، الذي كتب للأمير أبي زكريا ابن السلطان أبي يحيى صاحب بجاية ثم ابنه محمد ثم السلطان أبي عنان ، قبل أن يموت قاضياً للعسكر في عهد أبي سالم ، ومحمد بن عبد الرزاق ، الذي كان قاضياً لفاس قبل محمد المغربي ، الى غير أولئك وهؤلاء من أهل المغرب والأندلس حسبما يقول ابن خلدون ، « وكلهم لقيت وذاكرت وأفدت منه ، واجازني بالاجازة العامة » (ج ٧ ص ٤٠٢ - ٤٠٣) .

المحنة في فاس (٧٥٨ - ٧٦٠ هـ / ١٣٥٦ م - ١٣٥٨ م)

كانت مدة ستين من دخوله في حاشية السلطان العلمية ، وكتابه بين يدي الحاجب محمد بن أبي عمرو ، كافية لكي يوثق ابن خلدون صلته بالسلطان أبي عنان ، ويصبح كاتبه المقرب الأمر الذي كثر المنافسين وأثارهم . ففي أواخر سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م ، وبينما كان أبو عنان قد بدأ يعاني من مرضه الذي مات فيه ، غمى إليه أن الأمير محمد صاحب بجاية والمحددة اقامته في فاس تحت أنظار السلطان ، يخطط للعودة سرا الى بلده ، وان ابن خلدون الذي كان على علاقة متينة بالأمير الحفصي ، يشارك في المؤامرة فقبض عليه هو الآخر وامتحن بالعذاب والسجن (٤٠) .

ومع أن الأمير محمد أطلق سراحه بعد فترة وجيزة ، فان ابن خلدون ظل في الاعتقال حتى اضطر الى مخاطبة السلطان قبل وفاته بقصيدة مديح طويلة في نحو ٢٠٠ (مائتي) بيت ومات السلطان أبو عنان في ٢٤ من ذي الحجة سنة ٧٥٩ هـ / ٣٠ نوفمبر ١٣٥٨ م ، ومؤرخنا رهن الاعتقال ، ولكن الوزير الحسن بن عمر أفرج عنه ، بل وأعادته الى ما كان عليه (ج ٧ ص ٤٠٣ - ٤٠٤) والمفروض أن يكون ابن خلدون قد عاد كاتباً للسلطان الجديد وهو السعيد بن أبي عنان ، ولكنه يكاد يوقعنا في الخطأ عندما يصرح فجأة بأنه كان يومئذ يكتب عن القائم بأمر بني امرين ، منصور بن سليمان الذي نصبوه للملك .

(٤٠) العبر ، ج ٧ ص ٤٠٣ - حيث يعترف ابن خلدون بأنه هُمل من التحفظ مما قد تثيره علاقته بصديقه الأمير الحفصي من خيرة السلطان .

والحقيقة أن أمور الأسرة المرينية الحاكمة كانت قد اضطربت تماما عند وفاة أبي عنان . فبينما كان ابن خلدون يكتب للمنصور بن سليمان ، وكان السعيد محاصرا في قصره بالبلد الجديد من فاس ومعه وزيره الحسن بن عمر ، كانت هناك جماعة أخرى في فاس تدعو لمطالب جديد بالسلطنة ، هو : أبو سالم ، أخو أبي عنان الذي كان منفيا بالأندلس . ومن هؤلاء الخطيب ابن مرزوق الذي استعان بصديقه ابن خلدون الذي كان عليه أن يغير موقفه مرة أخرى فيتخلى عن منصور وينضم إلى معسكر أبي سالم . وقام ابن خلدون بدور نشط في نجاح أبي سالم الذي دخل دار ملكه في ١٥ شعبان سنة ٧٦٠ هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٣٥٩ م بعد ١٥ يوما فقط من انضمام ابن خلدون إلى معسكره . وكانت المكافأة : التعيين « في كتابة السر والترسيل عنه والانشاء لمخاطباته » (ج ٧ ص ٤٠٤ - ٤٠٥) .

وهنا من المهم الإشارة إلى ما يقوله ابن خلدون ، من أنه انفرد بأسلوب الكلام المرسل الواضح في الكتابة بدلا مما كان متعارفا عليه عند الكتاب من استعمال الكلام المسجوع الخفي المعاني وإن كان قد عوض السجع والايقاع باصطناع الشعر ، الذي « انثالت عليه من بحور توسطت بين الاجادة والقصور » ، ومن أهم ما يعتز به من أشعاره تلك القصيدة التي أنشدتها السلطان أبا سالم بمناسبة ليلة المولد النبوي سنة ٧٦٣ هـ/ ديسمبر ١٣٦١ م (ج ٧ ص ٤٠٥ - ٤٠٦) .

ومع مرور الوقت غلب ابن مرزوق على السلطان أبي سالم ، وفي سبيل ذلك أخذ في السعاية بأهل الدولة ، من ابن خلدون وأمثاله ، إلى أن انتهى الأمر بثورة الوزير عمر بن عبدالله ، وخلع أبي سالم وقتله . وفي عهد الوزير عمر بن عبدالله بقي ابن خلدون على ما كان عليه . وكان آخر ما وليه على عهد أبي سالم خطة المظالم ، ولكنه رغم ما زيد في جراته ، يصرح بأنه كان يسمو إلى أرفع مما كان فيه بسبب طغيان الشباب ، ولمودة سابقة مع الوزير عمر منذ أيام أبي عنان ومؤامرة صاحب بجاية التي كان هو الآخر مشاركا فيها (ج ٧ ص ٤٠٨) .

والمهم أن ابن خلدون لم يرض عن وضعه الجديد فطلب العودة إلى بلده وسمح له بالرحيل بعد لأي ، ولكن شريطة ألا يمر بطريق تلمسان حتى لا يدخل في خدمة سلطانها أبي حمو العبد وادي . وهنا اختار ابن خلدون الذهاب إلى أفريقية عن طريق الأندلس .

الرحلة إلى الأندلس

والظاهر أن الذي وجه أنظار ابن خلدون إلى الأندلس هو ما سبق له من معرفة سلطانها أبي عبدالله المخلوع عندما وفد على السلطان أبي سالم لفترة من الوقت بفاس ، عن طريق وزيره أبي عبدالله ابن الخطيب ثم ما أداه له من خدمات عقب جوازه إلى الأندلس لاستعادة ملكه بمعاونة ملك قشالة ، أولا ثم مؤازرة الوزير عمر بن عبدالله بعد ذلك (أنظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٤٠٩ - ٤١٠) .

وهكذا بعث ابن خلدون في أول سنة ٧٦٤ هـ/ أكتوبر ١٣٦٢ م بزوجه وولده إلى أخوالهم بقسنطينة ، وكتب إلى

سلطانها أبي العباس (الحفصي) بأنه يجيز عليه من الأندلس ، ثم سار الى سبتة ، حيث نزل ببيت أبي العباس أحمد بن الشريف الحسني ، ومن سبتة نزل ابن خلدون الى جبل الفتاح (طارق) الذي كان يومئذ لصاحب المغرب ، ومنه الى غرناطة حيث رحب به ابن الخطيب والسلطان ، في ٨ ربيع الأول سنة ٧٦٤ هـ / ٢٧ ديسمبر ١٣٦٢ م (ج ٧ ص ٤١٠ - ٤١١) .

وأهم أعمال ابن خلدون في غرناطة : سفارته الى ملك قشتالة في أشبيلية نيابة عن سلطان غرناطة في السنة التالية (٧٦٥ هـ - ١٣٦٣ م) من أجل الصلح . وكانت فرصة عاين فيها آثار أسلافه بأشبيلية ، كما التقى عنده بالطبيب اليهودي : ابراهيم بن زورور الذي كان في خدمة سلطان غرناطة ، والذي التقى به ابن خلدون في فاس عندما أتى ليعالج السلطان أبا عنان ، قبل أن يلتحق بخدمة الملك القشتالي . وينص ابن خلدون على أن ابن زورور الطبيب مدحه لدى الملك ، وأن هذا الأخير عرض عليه البقاء عنده على أن يرد عليه تراث آبائه الذي كان بيد زعماء الدولة ، وأن مؤرخنا تفادى من ذلك بما قبله الملك بطره (بتره) (ج ٧ ص ٤١٢) .

والظاهر أن ابن خلدون استحسن الإقامة في غرناطة فأخذ يتقرب من السلطان ، ويدبر أمر استقراره بأهله وولده فأخذ موافقته ، لولا ما ظهر من عدم ارتياح ابن الخطيب الى ذلك وكان من حسن حظ ابن خلدون أن صاحبه الأمير أبا عبدالله صاحب بجاية نجح في استعادتها في رمضان سنة ٧٦٥ هـ / ١٣٦٤ م ، وأرسل اليه يستدعيه فاستأذن السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة في الرحيل فأذن له ، وأمر له بمرسوم بالتشجيع كتبه ابن الخطيب ، وكانت فرصة للحفاظ على ماكان بينه وبين الوزير الغرناطي الصديق (٤١) .

ولاية الحجابة في بجاية

ركب ابن خلدون البحر من مرسى المرية ، ووصل بجاية في منتصف سنة ٧٦٦ هـ / مارس ١٣٦٥ ، وأحسن أهل بجاية استقباله فتهافتوا عليه بمسحون أعطافه ويقبلون يده ، واحتفل السلطان صاحب بجاية بمقدمه ، وأسرع بتنفيذ ما كان قد وعده به كتابة في فاس من العهد اليه بخطة الحجابة حتى حصل على سلطانه (ج ٧ ص ٤١٨) . وابن خلدون يعرف الحجابة في المغرب بأنها استبداد بالسلطة دون ولي الأمر ، كما كان الحال مع ابن الخطيب في غرناطة ، وحال من عمل معهم من وزراء بني مرين في فاس . وفي ذلك يقول : « واستقللت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه » . وهو يبين كيف أنه أحسن الخدمة خصوصاً بعد أن ثار الشقاق بين أميره أبي عبد الله وبين ابن عمه أبي العباس صاحب قسنطينة ، بفضل عرب أوطانهم ، من : الدواودة ، من رياح .

(٤١) انظر الترميز ، العبر ، ج ٧ ص ٤١٢ - ٤١٦ . أما موضوع ظهور (مرسوم) التشجيع ، فهو أمر الى الغزاة أو الاشياخ والخدام في البر والبحر بتكريم ابن خلدون ، وتقديم كل ما يحتاج اليه من معونة في تشييمه ونزوله الى أن يكمل الغرض من سفره . وهو بتاريخ ١٩ جمادي الأولى سنة ٧٦٦ هـ / ١٣ فبراير ١٣٦٥ م ، وبعد التاريخ : العلامة بخط السلطان ، ونصها : « صح هذا » .

فبعد انهزام أميره الذي كان قد بدد ما كان جمعه له من الأموال الكثيرة ، التي أنفقها في العرب ، خرج ابن خلدون الى قبائل البربر بالجلال ، فاستباح حماهم وأخذ رهنهم على الطاعة حتى استوفى منهم الجباية التي كانوا ممتنعين منها منذ سنين . ولكن الصراع انتهى بمقتل أبي عبد الله على يدي ابن عمه أبي العباس بمدخلته بأهل بجاية ، وجاء الخبر الى مؤرخنا وهو مقيم بقصور السلطان بالقصبة ، وطلب منه البعض أن يبائع لواحد من أبناء صاحبه القتييل ، ولكنه فضل استقبال المنتصر وتمكينه من البلد ، وأخيرا انتهت السعاية فيه بطلب الاذن في ترك الوظيفة ، والخروج من بجاية . وتم له ذلك ، فسار الى منازل العرب ثم انه قصد بسكره من بلاد الزاب (ج ٧ ص ٤١٨ - ٤١٩) .

في بسكرة

وفي بسكرة وصلته دعوة من السلطان أبي حمو صاحب تلمسان للحاق به ، قبل أن يحاول الثار لصهره أبي عبد الله ، على أمل ان يساعده في استئلاف قبائل عرب رياح ، مع وعد باعطائه وظيفتي الحجابة وكتابة العلامة ، وكتب له مدرجة بذلك ، أرفقها بالكتاب وتاريخها ١٧ رجب سنة ٧٦٩ هـ / ١١ مارس ١٣٦٨ م (ج ٧ ص ٤٢٠ - ٤٢١) .

ورغم أن ابن خلدون استمال كبراء عرب رياح الى جانب أبي حمو ، فانه لم يستجب لخدمته بل أرسل أخاه الأصغر يحيى ، الذي كان قد خرج من اعتقال أبي العباس ، الى السلطان أبي حمو كالثائب عنه في الوظيفة . وهو يفسر ذلك بأنه كان قد تخلص من غواية الرتب بسبب اغفاله العلم لمدة طويلة . ومن تلمسان وصلت ابن خلدون رسالة من الوزير ابن الخطيب من غرناطة ، يعبر فيها عن شوقه اليه نثرا وشعرا ، وهي رسالة طويلة استغرقت ٥ (خمس) صفحات ، وتاريخها ١٤ ربيع الثاني سنة ٧٧٠ هـ / ٢٩ نوفمبر ١٣٦٨ م التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٤٢١ - ٤٢٢) . تبعتها رسالة أخرى بعث بها اليه أخوه يحيى من تلمسان . وتتميز هذه الرسالة بأنها لا تكتفي بالتعبير عن الاشواق ، وما اليها من الأخبار الخاصة ، بل انها تتعرض لأخبار الوطن الأندلسي التي كانت جيدة في ذلك الوقت ، من حيث : الخصب ، والظهور على العدو ، وافتتاح عدد من الحصون ، مثل : آش وبرغة ووبرة ، ودخول بلد أطريه (بنت اشبيلية) عنوة ، وافتتاح رندة . وهو يشير أيضا الى وفاة الوزير المغربي عمر بن عبد الله واضطراب الأحوال بعده ، ويعرف باسم شيخ الغزاة الجديد في الأندلس ، وعين استقر بالأندلس من رجال المغرب ، ويعودة السلطان ملك النصارى بطره الى ملكه بأشبيلية ومناهضة أخيه له ، مما كان خيرا على المسلمين حتى ان سلطان الأندلس تلقب بـ «الغني بالله» مما يجعل تلك الرسالة التي تحمل تاريخ ٢ جمادي الاولى سنة ٧٦٩ هـ / ٢٤ ديسمبر ١٣٦٧ م ، وثيقة تاريخية من الطراز الأول (٤٢) .

ويورد ابن خلدون بعد ذلك اجابته على رسالتي ابن الخطيب فيشيد بانتصارات الخلافة النصرية والوزارة (الخطيبية) ، ويذكر مهلك صاحب بجاية على يد ابن عمه ، واستقرار السلطان أبي اسحق صاحب تونس بعد مهلك

(٤٢) انظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ولا بأس من الاشارة إليها الى ان الكتاب يحمل في آخره أخبارا عن آخر ما وصل الى غرناطة من مؤلفات المشاركة مع ذكر لآخر مؤلفات ابن الخطيب .

القائم بأمره أبي محمد بن تافراكين الذي كان يستظهر بالعرب على حساب الرعية . الى جانب الاشارة الى أخبار المشرق المتمثلة في اختلال طريق الحاج ، واضطراب أمور السلطنة المملوكية ، وكثرة المهرج في أزقة القاهرة وأسواقها (ج ٧ ص ٤٢٧ - ٤٢٩) . كما يورد نص خطاب وصله من ابن الخطيب مع أحد الحجاج وطيه مدرجة فيها توصية بالطبيب أبي عبد الله الشقوري الذي استقر بتلمسان (ج ٧ ص ٤٢٩ - ٤٣٠) .

ما بين سلاطين المغرب وعرب بني هلال

والمهم بعد ذلك ان ابن خلدون خرج من بسكرة مغرباً للقاء أبي حمو الذي تحالف مع أبي اسحق ابن أبي بكر صاحب تونس ، والذي كان يطمع في أن يستنفر له ابن خلدون عرب الدواودة ، على أمل العودة معه الى بجاية ، ولكنهم تعرضوا لهجوم عرب زغبة ، الذين فاجأوا بعد ذلك معسكر أبي حمو فقلّوه ، ورجع مهزوما الى تلمسان ، وظل ابن خلدون مستمرا في مشايعته لأبي حمو ، والايلاف بينه وبين عرب الدواودة والسلطان أبي اسحق صاحب تونس وابنه خالد بعده . وفي أواخر سنة ٧٧١ هـ / اغسطس ١٣٧٠ م ، وفد عليه بطائفة من الدواودة ، الا أن أبا حمو الذي استشعر الخطر من جانب سلطان المغرب الأقصى عبد العزيز ، أخذ يعد العدة للخروج الى الصحراء . ولما كان طريق العودة الى بلاد رباح قد تعذر بسبب الفتنة ، فان ابن خلدون استأذن في الانصراف الى الأندلس ، ولكنه ما ان نزل بمرسي هنين حتى أنفذ السلطان عبد العزيز - وكان قد وصل الى تازا - سرية قبضت عليه ، وأحضرتة أمام السلطان الذي عنفه على مفارقتة دارهم ، ولكنه قبل عذره وأطلقه من الغد .

وهنا تعرض ابن خلدون لصدمة نفسية شبيهة بتلك التي كانت قد أصابت شيخه الأبلى بعد حصار تلمسان الشنيع ، فعمد هو الآخر الى رباط الشيخ الولي أبي مدين بالعباد من أطراف تلمسان ، ونزل بجواره « مؤثرا للتخلي والانقطاع للعلم ، لو تركت له » (ج ٧ ٤٣١ - ٤٣٢) .

بعد أن دخل السلطان عبد العزيز تلمسان انسحب أبو حمو الى بلاد رباح ، فرأى عبد العزيز الاستعانة بابن خلدون من أجل اكتساب عرب رباح الى جانبه ، فاستدعاه من خلوته بالعباد بعد أن كان قد أخذ في تدريس العلم ، ولم يسعه الا اجابته . وودع ابن خلدون السلطان عبد العزيز بعد مكتبة عدد من زعماء الدواودة من أجل المساعدة في تسهيل المهمة ، وذلك في ١٠ من المحرم سنة ٧٧٢ هـ / ٥ اغسطس ١٣٧٠ م ، ولحق بعسكر الوزير أبي بكر بن غازي في أحياء عرب المعقل وزغبة . وعندما وصل ابن خلدون الى المسيلة كان أبو حمو وأحياء عرب رباح معسكرين قريبا منها . (ونجحت المهمة إذ أعلن شيوخ رباح طاعتهم وسمحوا للعسكر المريني بدخول وطنهم ، ومفاجأة أبي حمو وهو في طريقه من المسيلة الى الصحراء ، وانتهاب نعيمه ورجاله وأمواله ، فلم ينجح الا بنفسه تحت ستار الليل .

وتخلف ابن خلدون أياما عند أهله ببسكرة ثم رحل الى السلطان بتلمسان في وفد عظيم من الدواودة . ولكن الأمور لم تلبث أن ساءت من جديد بعودة بطون من الدواودة الى الخلاف والتحالف مع أبي زيان العبدوادي ، « واشتعل المغرب الاوسط نارا » كما يقول مؤرخنا ، بثورة مغراوة في بلاد شلف ، وانقطع هو ببسكرة ولم يعد يستطيع الاتصال

بالسلطان عبد العزيز الا بالكتب^{٤٣} ، وذلك في الوقت الذي كان ابن الخطيب قد فر من غرناطة ، مغاضبا لسلطانه ، ووصل الى تلميسان في كنف السلطان عبد العزيز هو الآخر^(٤٣)

وكان على ابن خلدون أن يشارك في تهدة الأحوال عن طريق الاستعانة بأهل الطاعة من الدواودة في اخضاع العصاة منهم . من عرب حصين بجبل تيطرى ، بمنطقة القفطا ، فقام بالمهمة التي انتهت بخضوع عرب الدواودة وفرار أبي زيان العبدواوي الى صحراء واركللا ورجع الى أهله ببسكرة من حيث خاطب السلطان بما وقع ، منتظرا لأوامره (ج ٧ ص ٤٣٩ - ٤٤٠)

العودة الى المغرب الأقصى :

وأنت أوامر السلطان عبد العزيز باستدعاء ابن خلدون فجأة عندما ضاق ذرعا باضطراب العرب ، وعزم على مطاردتهم . وخرج ابن خلدون بأهله من بسكرة في ١٢ ربيع الأول سنة ٧٧٤ هـ / ١٣ سبتمبر ١٣٧٢ م ، ولكنه لم يصل مليانة حتى وصله نبأ وفاة عبد العزيز وتنصيب ابنه أبي بكر السعيد بعده ، في كفالة الوزير ابن غازي الذي رحل الى فاس وفي الطريق الى المغرب عبر الصحراء ، تعرضت قافلة ابن خلدون الى غارة قام بها عرب المعقل بتحريض من أبي هو الذي كان قد عاد الى ملكه بتلسمان ، فتركته عاريا الى ان وصل الى العمران . وفي فاس أكرمه الوزير ابن غازي لسابق صحبتها منذ ولاية أبي سالم (ج ٧ ص ٤٤٠ - ٤٤١) .

ولم يمض شتاء سنة ٧٧٤ هـ / ٤٣ - ١٣٤٤ م حتى اضطربت أمور المغرب نتيجة لمنافرة بين الوزير أبي بكر والسلطان ابن الأحمر بسبب ابن الخطيب . وانتهى الأمر بأن أطلق سلطان غرناطة أحد المطالبين بالعرش المريني من حبسه ، وهو عبد الرحمن بن أبي يفلوسن الذي استولى على تازا ، كما أن ابن عم الوزير أبي بكر ، وهو محمد بن الكاس الذي كان قد كلف بالدفاع عن جبل طارق انتهى به الأمر الى التفاهم مع ابن الأحمر على أن يترك له الجبل في مقابل أن يؤيد ترشيح مطالب آخر بالعرش ، هو : السلطان أحمد بن أبي سالم الذي أخرج من حبسه في طنجة . وبفضل العسكر الأندلسي نجح السلطان أبو العباس أحمد في هزيمة الوزير أبي بكر ، وبفضل نصائح سلطان غرناطة تم الاتفاق بين السلطان أحمد والأمير عبد الرحمن على أن تكون للإخير إمارة سجلماسة . وعندما عجز الوزير أبو بكر عن مواجهة خصومه ، وافق على الصلح ، وعزل سلطانه السعيد بن عبد العزيز ، ودخل أبو العباس أحمد دار الملك في أول سنة ٧٧٦ هـ / يونيه ١٣٧٤ م (ج ٧ ص ٤٤١ - ٤٤٣) .

(٤٣) ج ٧ ص ٤٣٢ - ٤٣٤ . ولقد كتب ابن الخطيب الى ابن خلدون من تلمسان يعرله بخبره ولكن ابن خلدون لا يسجل ذلك الخطاب الذي لم يكن يحضره ، فاكفى بتسجيل نص جوابه عليه . وهو يطمئنه على حسن مهده ، ويحمد الله على خلاصه من ورطة الخدمة في غرناطة ، ويؤكد له حسن علاقته بالسلطان عبد العزيز (الباب المولوي) ويسلم على ولده أبي الحسن . وتاريخ الخطاب ١ شوال سنة ٧٧٢ هـ / ٢٠ ابريل ١٣٧٠ م ، انظر ص ٤٣٤ - ٤٣٦ . وهو يسجل نسخة كتاب ابن الخطيب الى سلطان غرناطة عندما دخل جبل الفتح في إمالة بني مرين . وفي ذلك الخطاب يعتبر ابن الخطيب لسلطانه من فملته وان كان عزاءه أنه فارقه في وقت الأمان والهدنة ، وهو يسدي اليه النصائح من : تقوي الله والاقتصاد في اللهو (ج ٧ ص ٤٣٦ - ٤٣٩) .

أما عن موقف ابن خلدون من تلك الأزمة ، فيقول انه كان مقيماً بفاس « في ظل الدولة وعنايتها ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه » ، وأنه عندما كان السلطان أبو العباس أحمد والأمير عبد الرحمن يحاصران الوزير أبا بكر ، كان يباكرهما معاً ، فكانا يكرمانه ، وإن ذلك أدى إلى القبض عليه بتحريض وزير أبي العباس أحمد ، وهو محمد بن الكاس ، ولكن الأمير عبد الرحمن أمر وزيره مسعود بن ماسي فأطلقه من الغد . وهكذا عندما خرج الأمير عبد الرحمن نحو مراكش خرج ابن خلدون معه وفي نيته الجواز إلى الأندلس مع الوزير مسعود من ساحل آسفى (في الجنوب) ، ولكنه عاد ورجع إلى فاس لا ستثذان السلطان بالجواز إلى الأندلس ، « بقصد القرار والدعة » - هذه المرة (ج ٧ ص ٤٤٣) .

الاندلس محطة عبور بين المغربين : الأقصى والأوسط :

من تجارب ابن خلدون في الرحيل من افريقية إلى المغرب الأقصى والعكس ، يتضح لنا أن اضطراب الأحوال السياسية في ذلك القرن الثامن الهجري (١٤ م) ، عصر التبدل والتغيير ، كانت قد جعلت من الأندلس وكأنها محطة عبور ، أي « ترانسيت » ما بين طرفي بلاد المغرب : الأقصى والأدنى ، تماماً كما كان الحال بالنسبة للصحراوات المغربية الكبرى ، مع فارق أن ما يتهدد المسافر في الصحراء هو التعرض لغارات العرب ، بينما كان قرصان النصارى يهددون المسافرين في البحر ، كما حدث لابن الشريف الحسنى رئيس الشورى في سبته ، الذي استضاف ابن خلدون في جوازه الأول إلى الأندلس ، فقد أخذ قرصان النصارى الأندلسيين ووالده في بحر الزقاق ، ولم يخلصا من الأسر إلا بعد سعي من السلطان أبي سعيد الذي دفع فدية مقدارها ٣ (ثلاثة) آلاف دينار (التعريف ، العبرج ٧ ص ١٤٠) .

والحقيقة أن ما يقوله ابن خلدون في سفرته الأخيرة من أنه يجوز إلى الأندلس بقصد القرار والدعة ، لم يكن إلا أمنية خادعة في نوع من الحياة الناعمة بعيداً عن ميدان السياسة المضطرب ، وهذا ما يتضح له بمجرد نزوله إلى الأرض الأندلسية في ربيع سنة ٧٧٦ هـ / سبتمبر ١٣٧٤ م . فلقد لقي كاتب السلطان ابن الأحمر الذي خلف الوزير ابن الخطيب وهو الفقيه أبو عبد الله بن زمرك ، كان في طريقه إلى التهنته بفاس ، فأوصاه بأن يرسل إليه أسرته بغرناطة . ولكن أصابع الاتهام ما لبثت أن اتجهت نحوه من المغرب خشية أن يحرض ابن الأحمر على الميل إلى صنيعته الأمير عبد الرحمن صاحب مراكش وسجلماسة . وعندما امتنع ابن الأحمر من إرجاعه إلى المغرب أظهروا له أنه كان يسعى في خلاص ابن الخطيب قبل أن يقتل في محبسه . وهكذا نجحوا في إثارة سلطان غرناطة ضد ابن خلدون ، فرضى بإخراجه من بلاده إلى المغرب .

النزول في تلمسان

ونزل مؤرخنا في مرسى تلمسان وهو هين . ولما كان السلطان أبو حمو ساخطاً عليه بسبب تأليه عرب الزاب عليه ، فإنه أصدر أوامره بمقامه هناك ، قبل أن يقبل الشفاعة فيه ، ويسمح له بالقدوم إلى تلمسان حيث استقر بالعباد ، ولحق به أفراد أسرته في ١٠ شوال ٧٧٦ هـ / ١٣ مارس ١٣٧٥ م .

والظاهر أن ابن خلدون كان قد تعب فعلا بعد حوالي ربع قرن من الخدمة الديوانية في ذلك الوقت المتقلب ، فما أن عرض عليه السلطان أبو حمو أن يعود الى السعي في استئلاف الزاودة حتى كره تلك المهمة ومجتها نفسه . وهكذا خرج من تلمسان ، وهو يبتغي الفرار من الخدمة ، فلحق بأحياء أولاد عريف في قبلة جبل كزول ، الذين رجبوا به وأحضروا أهله من تلمسان ، وأنزلوه بينهم في قلعة أولاد سلامة ، من بلاد بني توجين .

تأليف الكتاب في قلعة بني سلامة (تازروت) (٧٧٦ - ٧٨٠ هـ / ١٣٧٥ - ١٣٧٨ م)

وفي قلعة بني سلامة قدر لابن خلدون أن يعتزل بعيدا عن شواغل الدنيا لمدة ٤ (أربع) سنوات تقريبا ، وأن يشغل وقته بالتأليف وفي ذلك يقول « فشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها ، وأكملت المقدمة على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتنخضت زبدتها ، وتألفت نتائجها ، وكانت من بعد ذلك الفيئة الى تونس ، كما نذكر ان شاء الله تعالى » (ج ٧ ص ٤٤٤ - ٤٤٥) .

وابن خلدون يوضح أن اشتغاله بالتأليف وحيدا في بادية أولاد عريف كان بسبب استيحاشه من كل من دولتي المغرب في فاس وتلمسان . وأنه خلال فترة تفرغه تلك انتهى من « مقدمة الكتاب الى أخبار العرب والبربر وزنات » (ج ٧ ص ٤٤٥) ومن الواضح هنا أنه يقصد بـ [المقدمة] الجزء الأول من الكتاب ، وأنه يقصد بأخبار العرب والبربر وزنات : الاقسام الأولى الخاصة بالعرب والأجزاء الأخيرة الخاصة بتاريخ البربر . وذلك أنه كان يخطط للكتابة في تاريخ المغرب ، مجال تخصصه ومعارفه ، حسبما ينص في المقدمة التاريخية .

وبعد أن أنهى العمل في شكله الأولى عن طريق الاملاء من حفظه أو النظر في بعض الأحيان فيما تيسر له من المراجع في القلعة النائية رأى ضرورة الاطلاع على المصادر الأساسية التي لا توجد الا في المدن الكبيرة (الأمصار) ، حتى يتمكن من تنقيح الكتاب وتصحيحه ، حسبما تقضي أصول المنهج .

وبعد أن استرد عافيته من مرض طرأ عليه ، ربما بسبب الإرهاق في عمل الكتاب ، خاطب السلطان أبا العباس في السماح له بالانتقال الى العاصمة تونس . وفي رجب من سنة ٧٨٠ هـ / أكتوبر ١٣٧٨ م ، ترك قلعة بني عريف ، وسلك القفر مع جماعة من عرب رياح أثناء نجعتهم ومر على الدوسن بأطراف بلاد الزاب ، لكي ينزل على صاحبة قسنطينة . ولما كان السلطان أبو العباس قد خرج في العساكر لأقرار الأمور في بلاد الجرن وكروشوكة يحى بن يملول . هناك ، فان ابن خلدون سعى الى لقائه ، ولحق به بظاهر سوسة ، فأمره بالعودة الى تونس ، التي وصلها في شهر شعبان .

وعندما عاد السلطان من حملته المظفرة قرب ابن خلدون منه ، وكان ذلك سببا في سعايات الحاسدين ، مثل : شيخ الفتيا محمد بن عرفة ، الى جانب نجاح دروسه في اجتذاب طلبة العلم . ويفضل تشجيع السلطان أبي العباس انكسب مؤرخنا على الكتابة فأكمل منه : أخبار البربر وزنات ، وكتب من أخبار ما قبل الاسلام ، وأخبار الدولتين : الأموية

والعباسية ما وصل اليه منها . وبذلك أتم من الكتاب نسخة أولى ، رفعها الى خزانة كتب السلطان ، مع قصيدة في مدحه حتى لا يتهم بالعود عن هذا الواجب ، استهلها منشداً :

هل غير بابك للغريب مؤمل أو عن جنابك للأمانى معدل

وذكر فيها فتوحاته في العرب من أولاد أبي الليل ومهلل والمعل ، وفي وصف العرب يقول :

عجب الأنام لشأنهم بادون قد تذلت بحيمهم المطي الدليل
ومنها ذكر الكتاب المؤلف بخزائنه ، من : تسميته ، ومنهجه ، ومضمونه

واليك من سير الزمان وأهله
صحفاً تترجم عن أحاديث الأولى
لخصت كتب الأولين بجمعها
والسنت حوشتي الكلام كأنما
(عبراً) يدين بفضلها من يعدل
درجوا فتجمل عنهم وتفصل
وأنتيت أولها بما قد أغفلوا
يبهسي السدى به ويزهر المحفل
(ج ٧ ص ٤٤٦ - ٤٤٩) .

ولم يهتأ ابن خلدون بمقامه في تونس بسبب سعاية بطانة السلطان ، وعلى رأسهم ابن عرفة ، حتى ظهر له سوء ظن السلطان به عندما أمر بخروجه معه في حملته الى توزر حيث كان ابن يملول قد عاد اليها سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م . ومع أن السلطان أمره بالعودة قبله الى تونس ، فإنه عندما قرر الرجوع من جديد الى بلاد الزاب سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ، خشى مؤرخنا الذي كان قد جاوز الثانية والخمسين من عمره أن يمر بتجربة العام الماضي الشاقة مرة أخرى ، فانتهاز فرصة وجود سفينة مقلعة الى الاسكندرية لكي يتوصل الى السلطان أن يخلي سبيله لقضاء فريضة الحج ، فكان آخر العهد به بتونس وبلاد المغرب والاندلس .

الاقامة في مصر (٧٨٤ - ٨٠٨ هـ / ١٣٨٢ - ١٤٠٦ م) :

لقى ابن خلدون وداعاً حافلاً في مرسى تونس في ١٥ شعبان سنة ٧٨٤ هـ / ٢٦ سبتمبر ١٣٨٢ م ، من قبل أعيان الدولة والبلد ، وطلبة العلم . وهو يقول عندما يركب البحر : « وتفرغت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم ، والله ولي الأمور سبحانه » ، فكانه يرى أن الهدف من رحلته المشرقية هو التفرغ للعلم : قراءة وتدريساً وتأليفاً ، وهو ما حققه الى حد كبير في مصر ، وإن كان قد اشتغل بالقضاء ، ولقى في سبيل الوظيفة كثيراً من العنت .

وصلت سفينة ابن خلدون الى الاسكندرية بعد أكثر من أربعين يوماً ، في أول شوال (يوم الفطر) وذلك لعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت (٣٠ أكتوبر - ١٣٨٢ م) واقتماد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون « كما

يحلوه أن يضع هذا اليوم في موضعه من تاريخ مصر . وهو لا يفوته بالمناسبة - وهو يعرف أنه يكتب التاريخ ليقرأه الملوك قبل العامة - أن يسجل أنه كان يترقب ذلك أي وصول الظاهر برقوق الى سدة الحكم ، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك ، تمهيداً له « (ج ٧ ص ٤٥١) ، تماماً كما فعل مع تيمورلنك ، وإن بالغ هناك بعض الشيء عندما قال انه كان يعرف من كتب الخدثان ظهور « عمر » قبل أربعين عاماً ، ويتمنى رؤيته ، الأمر الذي أثار دهشة المترجم الفقيه عبد الجبار بن النعمان (٤٤) .

وبدلاً من أداء فريضة الحج اكتفى بالانتقال في أول ذي القعدة (٧ يناير ١٣٨٣ م) الى : « حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدج الذر من البشر ، وإيوان الاسلام ، وكرسي الملك » . القاهرة . وهو عندما يجوب شوارع القاهرة يتذكر مقالات الشيوخ والأصحاب فيها . فكبير علماء المغرب أبو عبد الله المقرئ يقول له عنها : « من لم يرها لم يعرف عز الاسلام » والشيخ أبو العباس ابن ادريس ، يقول : « كأنما انطلق أهلها من السحاب » يشير الى كثرة أممها وأمنهم العواقب ، والفقيه أبو القاسم البرجي ، قاضي العسكر بفاس ، وسفير السلطان أبي عنان الى ملوك مصر ، يقول عنها على سبيل الاختصار : « ان الذي يتخيله الانسان فائماً يراه دون الصورة التي تخيلها لا تساع الخيال عن كل محسوس ، الا القاهرة فانها أوسع من كل ما يتخيل فيها » (ج ٧ ص ٤٥١ - ٤٥٢) .

أما عن نشاطه في مصر فقد بدأ بالجلوس للتدريس بالجامع الأزهر ، ثم الاتصال بالسلطان وعن طريقه سمح سلطان تونس لأهله باللاحاق به . وبعد التدريس الحر في الأزهر ، ولى وظيفة التدريس بالمدرسة القمحية بمصر - نسبة الى قمح الفيوم الذي كان ينفق عليها منه - قبل أن يصل الى منصب قاضي قضاة المالكية في مصر سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م .

وهو في معرض اشاداته بالمنصب يسجل ما قد يقال عن قاضي قضاة الشافعية ، من : « أن مباشرة السلطان قديماً بالولاية انما كانت تكون له » (ج ٧ ص ٤٥٣) بمعنى أنه الذي كان يقوم باجراءات تنصيب السلطان في رئاسة الدولة .

وابن خلدون يسجل ملاحظات قاسية عن خطة القضاء في مصر على أيامه . وربما كان ذلك في معرض دفاعه عن ممارسته للقضاء على طريقة أهل المغرب ، الأمر الذي كان موضع نقد أقرانه من المصريين ، من أهل القضاء والفتيا . فهو يقول انه قام المقام المحمود في ولايته لاتأخذه في الله لومة لائم ، مسوياً بين الخصوم ، معرضاً عن الشفاعات ، جانحاً الى التثبت في سماع البيّنات ، مع النظر في عدالة الشهود . « فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر ، والطيب ملتبساً بالخبث ، والحكام ممسكون عن انتقادهم . . . فشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها ، فعاقبت منه بموجب العقاب ومؤلم النكال ، وتأدى لعلمي الجرح في طائفة منهم فمنعتهم من تحمل الشهادة ، وكان منهم كتاب الدواوين للقضاة . . . » وهو يشير الى ما كان قد فشتاً من الضرر في الأوقاف وفيما أصاب الفتاوي من التعارض والتناقض بسبب الخلاف بين المذاهب وغيره (ج ٧ ص ٤٥٣ - ٤٥٤)

وكان من الطبيعي أن تواجه عملية الإصلاح التي يحاولها ابن خلدون معارضة قوية ممن يتضررون منها ، وإن تجعل منهم ومن أصحابه القضية خصوماً للداء له .

والظاهر أنه كان للوافدين على مصر من المغاربة دورهم فيما أصاب مؤسسة القضاء المصرية من الفساد ، فهو يذكر أنه كان بين من كافحهم بهذا الصدد من أهل الهوى « ملتقطون سقطوا من المغرب يشعذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك ، لا ينتمون الى شيخ معروف مشهور . . . » اتخذوا الناس هزوا ، وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض ومأبئة للحرم ، فأرغمهم ذلك منى ، وملاهم حسداً وحقدًا على ، وخلوا الى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة ، ليشترروا بها الجاه ويحترثوا به على الله ، وربما اضطروا أهل الحقوق الى تحكيمهم فيحكمون بما يلقي الشيطان على ألسنتهم ، يترخصون به الإصلاح . . فقطعت الحبل في أيديهم ، وأمضيت أحكام الله فيمن أجاروه ، فلم يغنوا عنه من الله شيئاً ، وأصبحت زواياهم مهجورة . . وانطلقوا يراطنون السفهاء من النيل في عرضى وسوء الأحداث عني . . ويدسون الى السلطان التظلم منى . . (ج ٧ ص ٤٥٤ ، محمد طه الحاجري ، ابن خلدون ، ص ٢٥٠)

وكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بعزله من القضاء ، في الوقت الذي أصيب في أهله الوافدين من تونس بحرا بغرقهم على مشارق المرسى بالاسكندرية ، فعكف على تدريس العلم والقراءة والتدوين لمدة ثلاث سنين ثم انه قرر قضاء فريضة الحج المرجأة منذ خمس سنوات ، وذلك في عام ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م .

وفي الينبع ميناء المدينة ، وصلته رسالة من ابن زمرك كاتب سر السلطان بن الأحمر ، صحبة أحد الحجاج وفي طي الكتاب قصيدة في مدح الملك الظاهر برقوق ، وفي فصل منه تعريف بشأن الوزير مسعود بن رحو ، المستبد بأمر المغرب لذلك العهد . وتاريخ الكتاب ٢٠ محرم ٧٨٩ هـ / ١١ فبراير ١٣٨٧ م . هذا ، كما كتب اليه أبو الحسن على ابن الحسن البني ، قاضي الجماعة بغرناطة يواسيه - رداً على خطاب كان قد وصله من ابن خلدون كما يظهر - في صرفه عن خطة القضاء ، ويحمد له ثناءه على السلطان الذي أنعم عليه بالاعفاء ، ويعرفه بأن سلطان غرناطة أثنى عليه عندما اطلع على خطابه . وتاريخ هذه الرسالة : صفر سنة ٧٩٠ هـ / فبراير ١٣٨٨ م .

وكان في طي الرسالة مدرجة يعتذر فيها القاضي الغرناطي عن كتابة « الرسالة بغير خطه » ، وفيها يعرف ابن خلدون بأخبار المغرب مما يتعلق بما أصاب البلاد من المهرج بسبب ما حدث من النزاع بين السلطان أبي العباس وعسكر النصاري الذين كانوا في خدمته (ج ٧ ص ٤٦٠ - ٤٦٢)

نهاية التعريف في العبر ، واستكمالها في فترة تالية :

وهنا نختتم ابن خلدون التعريف بنفسه في كتاب العبر ، مبرراً استطراداته وهو يقول : « انما كتبت هذه الأخبار ، وإن كانت خارجة عن غرض هذا الكتاب المؤلف ، لأن فيها تحقيقاً لهذه الوقائع ، وهي مذكورة في أماكنها ، فرمى يحتاج

الناظر الى تحقيقها من هذا الموضوع وهو يتبع ذلك بذكر رجوعه من الحج الى القاهرة ، ومقابلته للسلطان برقوق ، والنكبة التي لحقت به من خلعه وعوده الى السلطنة ، ولزوم مؤرخنا « كسر البيت متمعا بالعافية لابسا برد العزلة ، عاكفا على قراءة العلم وتدريسه لهذا العهد فاتح ٧٩٧ هـ / ٢٧ اكتوبر ١٣٩٤ م » كل ذلك في سبعة أسطر (ج ٧ ص ٤٦٢) .

ولما كان قد دخل القاهرة في عودته من الحج في جمادي سنة ٧٩٠ هـ / ٦ يونية ١٣٨٨ م (ج ٧ ص ٤٥٥) ، فكأنه لخص سيرته خلال سبع سنوات في تلك الأسطر السبعة ، وهو ما لم نعتده من مؤرخنا المدقق ، الذي لا تفوته شاردة ولا واردة . واذا كان من المقبول أن يكون عدم مشاركته في أحداث الثورة التي بدأت في الشام وأدت الى سجن السلطان برقوق في الكرك ، واستمرت أكثر من عام قبل عودته الى كرسية بمصر (في غرة ٧٩٢ هـ / ٢٠ ديسمبر ١٣٨٩ م) وهو ما يسجله ابن خلدون بالتفصيل في تاريخه (العبر ، ج ٥ ص ٤٨٣ - ٤٩٣) ، هو ما جعله يمر عليها مرورا عابرا ، فان ما يدعو الى الاستغراب أنه حدثت في الفترة ما بين سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م و ٧٩٧ هـ / ١٣٩٥ م ، أحداث كان يمكن أن يهتم بها ، ولم يشر اليها في التعريف . من ذلك وصول هدية ملك تونس أبي العباس أحمد لبرقوق بعد عودته الى كرسية ، والتي وصلت القاهرة في أواخر رمضان من سنة ٧٩٢ هـ / سبتمبر ١٣٩٠ م (ج ٥ ص ٥٠١) . وكذلك الأمر بالنسبة لحج يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من عرب المعقل الذي كان في طاعة السلطان المريني أبي العباس بن أبي سالم ، والذي حج سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩٢ م واتصل بالسلطان برقوق ، فتقدم ابن خلدون الى السلطان وعرفه بمحله من قومه ، « فأكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية الى صاحب المغرب » واحتفى السلطان أبو العباس بالهدية وعزم على أن يرد عليها بهدية مثلها من طرف المغرب ، مع نفس الأمير العربي يوسف بن غانم ، لولا أن وافاه الأجل قرب تازا سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م (العبر ، ج ٧ ص ٣٦٣) وكذلك وصول ملك بغداد أحمد بن أويس الى القاهرة في ربيع سنة ٧٩٦ هـ / يناير ١٣٩٤ م مستصرخا السلطان الظاهر برقوق بعد أن أستولى تمر (تيمور لنگ) على ملكه وخروج السلطان الى دمشق في جمادى من أجل رصد تحركات تيمور لنگ الذي كان يحاصر ماردین ويجوس خلال بلاد الروم وقلاع الاكراد ، والذي يصفه ابن خلدون في تاريخه بالعدو (العبر ، ج ٥ ص ٥٤٠ ، ٥٥٤ - ٥٥٦) .

ولما كان ابن خلدون قد قدر له أن يعيش إلى سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م فالظاهر أنه استدرك مع مرور الوقت هذا النقص الذي ألم بالتعريف نفسه فأكملة الى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م ، وذلك كما في النسخة التي حققها محمد بن تاويع الطنجي ، والتي نشرت في القاهرة ١٩٥١ م . ففي تلك النسخة المنقحة ذكر لتعيينه مدرسا للحديث بمدرسة صرغتمش سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م ، وبالتالي شيخا (ناظرا) لخانقاه بيبرس ، الأمر الذي زاد في روايته . أما عن الثورة على برقوق فقد خصها بفصل طويل طبق فيه نظريته في العصبية ، كما لاحظ الأستاذ عنان (٤٥) ، وهو ما يسجله ابن خلدون في التاريخ بصدد كلامه « عن دولة الترك القائمين بالدولة العباسية بمصر والشام من بعد بني أيوب ولهذا العهد » ، اذ يقول ان جلب التجار للماليك الترك بمصر ، وتنافس أهل الملك في شرائهم لم يكن بقصد الاستعباد « انما هو اكتشاف للعصبية وتغليظ للشوكة ، ونزوع الى العصبية الحامية » (العبر ج ٥ ص ٣٧١) .

وخلال الفترة من ٨٠٣هـ / ١٤٠٠ م وحتى وفاته سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م ، ولى القضاء خمس مرات وعزل أربع مرات ، اذ أنه توفي في ٢٦ رمضان سنة ٨٠٨هـ / ١٦ مارس ١٤٩٦ ، وعمره ٧٨ سنة ، وهو يشغل منصب قاضي قضاة المالكية (٤٦)

أما أهم مغامراته طوال حياته المليئة بالمغامرات ، فتتمثل في لقائه لتيمورلنك في الشام سنة ٨٠٣هـ / ، وهي التي سجلها في التعريف بنفسه عندما نقحه وزاد فيه ، وإن لم يسجلها في تاريخه الذي وصل فيه في بعض المواضع الى سنة ٧٩٦هـ / بمناسبة وفاة السلطان المرىني أبي العباس وولاية ابنه أبي فارس (ج ٧ ص ٣٦٣) أو بمناسبة فرار ملك بغداد أحمد بن أويس أمام تيمورلنك الى الشام ثم وصوله الى مصر مستصرخا السلطان برقوق في ربيع سنة ٧٩٦هـ / يناير ١٣٩٤ م (ج ٥ ص ٥٥٥) ، وذلك ان تسجيله لبداية سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤ م أتى في نهاية التعريف بمناسبة لزومه البيت عاكفا على القراءة والتدريس (ج ٧ ص ٤٦٢) .

فبعد تأزم الأمور اثر عودة السلطان فرج من الشام الى مصر ، أثبت ابن خلدون أنه قوى القلب ثابت الجنان ، اذ قرر لقاء « فاتح العالم الثاني » فتدلى من قلعة دمشق وسار الى معسكر التتر . هذا ، كما أظهر خبرة بالسياسة ومعرفة بكيفية اكتساب قلوب كبار الرجال من أصحاب السلطان . فهو بعد السلام يومئذ ايماء الخضوع ، ويقبل اليد التي تمد اليه . وهو بعد ذلك يفاجئ المترجم عندما يؤكد أنه - وهو رجل العلم والتحقيق - كان ينتظر لقاء سلطان العالم وملك الدنيا منذ ٤٣ سنة ، وأنه لا يعتقد أنه ظهر في الخليفة منذ آدم لهذا العهد مثله (٤٧) .

وفيما يتعلق بالتأليف أسفر اللقاء عن طلب تيمور - الذي لفت انتباهه لباس ابن خلدون المغربي - أن يقوم مؤرخنا بكتابة وصف كامل لبلاد المغرب كلها : أقاصيها وأدانيها ، وجباله وأنهاره ، وقراه وأمصاره حتى كأنه يشاهدها . فكتب له رسالة في وصف المغرب بلغت ١٢ (اثنتي عشرة) كراسة صغيرة ، يظن أنها تمثل التمهيد الجغرافي للكتاب الثالث في تاريخ البربر (المراجع السابقة) .

وبذلك اكتمل الفصل الختامي من كتاب العبر المعروف بالتعريف ، كما اكتمل الكتاب نفسه ، من المقدمة الى التاريخ تنقيحاً وتأليفاً خلال ٢٤ سنة قضاها ابن خلدون في مصر عاكفا على التدريس والقراءة والتدوين والتأليف ، مما لم يخرج في معظمه عن دائرة كتاب العبر . وذلك اننا نرى أن مهنة القضاء التي اشتغل بها وثيقة الصلة بصناعة التاريخ من حيث إنها ترفده بأسباب النقد في سبيل البحث عن الحقيقة ، مما يعرفه القضاء في الاجراءات وتعديل الشهود وتصحيح الوثائق ومعرفة القرائن وتقرير البينات ، وهي الأمور التي تمثل اصول البحث العلمي وقواعد النقد التاريخي ، وهي التي تفسر كيف نشأ التاريخ في كنف علم الحديث مبنيًا - في سير الرجال - على قاعدتي الجرح والتعديل .

(٤٦) انظر عنان ، ابن خلدون ، ص ٨٨ ، ص ٩٧ ، على عبد الواحد وافي ، مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ١١١ ، ص ١٢٣ ، ص ١٣١-١٣٢

(٤٧) انظر على عبد الواحد ، مقدمة ابن خلدون ، ج ١ ص ١٢٧-١٢٨ ، عنان ، ابن خلدون ٩٠-٩١ . وفي موضوع ابن خلدون . وتيمورلنك نشر الى دراسة فيشل W.J. Fischel. Ibn Khaldoun and Tamerlane Barkeley-Los Angeles 1952

سيرة المؤلف وملحمة الكتاب :

من ذلك العرض للتعريف بابن خلدون يتضح أن سيرة المؤلف تكاد تلتحم بالكتاب في بنية واحدة . فتكوين ابن خلدون العلمي في مراحل مختلفة ، سواء في المدرسة المغربية الأندلسية بتونس في صباه المبكر ، أو عند مقام السلطان أبي الحسن بالعاصمة الحفصية ، أو في كنف السلطان أبي عنان في فاس ، أو في رحاب المدرسة المصرية بروافدها العلمية الشرقية ، في آخر الأمر ، (كل هذا) يمثل الجانب العلمي أو الثقافي في كتاب العبر ، كما يظهر في المقدمة أي الكتاب الأول ، متوجا - بطبيعة الحال - بالنظريات الخلدونية في النقد التاريخي والعمران البشري .

أما عن أشغاله الديوانية ونشاطاته الدبلوماسية والسياسية ، لدى الحفصيين بتونس أو بني عبد الواد بتلمسان أو بني مرين بفاس أو بني الأحمر النصريين بغرناطة ، فإنها تلتحم بالجزء الأصيل من الكتاب ، متمثلا في تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عصر ابن خلدون أو في ذلك القرن الثامن الهجري (١٤ م) الذي عاشه والذي رآه يختم دورة تاريخية كانت قد بدأت في منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) بهجرة العرب الهلالية ، فهو يعرف الدول والأسر الحاكمة ، ويعمل في تدبير سياساتها وينغمس في بؤرة مؤامراتها . وما هو أهم من هذا ، أنه يعرف الشعوب والقبائل وأحوال معاشها ، وعلاقاتها بحكامها وما ترجوه من الدول التي تعيش في كنفها . فهو يعرف عرب هلال وسليم على عهده معرفة جيدة ، وخاصة في الجنوب التونسي وفي بلاد الزاب ، وهو متخصص في أحوال بني رباح من الهلالية وخاصة بطون الدواودة منهم وهم الدواودية أصلا ، وهو يعرف أيضا القبائل البربرية في جبال أفريقيا والمغرب الأوسط ، ويستطيع أن يجوس خلال ديارها ، ويستبجح حماها - كما يحلوه أن يقول - وأن يجعلها تدفع الضرائب (المغارم) ، علامة خضوع الفرد للدولة ، الى جانب ضريبة الدم أو الدفاع .

وتاريخ جماعات العرب والبربر في ظل دول المغرب خلال القرن الثامن الهجري (١٤ م) يمثل الجزء الأصيل من تاريخ البربر الذي يرجع فيه ابن خلدون الى الوثائق الرسمية التي عرفها في الدواوين ، والى مشاهداته الخاصة وما يسمعه من شهود العيان ، من : أساتذته أو من أهل الحرب والسياسة ، أو ما ينقله من عامة الناس من روايات شعبية تظهر في شكل قصص بطولي أو في شكل ملاحم شعرية ، مما ينفث الحياة في التاريخ ، وينقله من نطاق الأحداث السياسية الجافة الى وقائع المجتمع الحية ، وهذا ما تتردد أصدائه في النصف الثاني من كل من الجزئين السادس والسابع في تواريخ قبائل صنهاجة وزناتة . وهو ما تمثل فيما سماه في المقدمة بعصر التبدل والتغير ، وهو ما يسميه بعض المحدثين بأزمة القرن الرابع عشر .

أما عن الأندلس : الرقعة من الشواطئ الجنوبية على امتداد ١٠ (عشر) مراحل في عمق مرحلة أو أقل ، فكانت وثيقة الصلة بدولة المغرب الأقصى المرينية التي كان لها بعض الأقاليم الأندلسية ، مثل : جبل طارق ورندة ، وعن هذا

الطريق ارتبط البلدان في بنية تاريخية واحدة . فالجهاد كان يتطلب تدخل المرينيين في الأندلس ، والعلاقات بين غرناطة وفاس كان تتحسن وتسوء بناء على ذلك ، واللاجئون السياسيون من كل من البلدين يوجدون في البلد الآخر : أبو سالم في الأندلس ثم (الغني بالله) وابن الخطيب في المغرب . . ومثل هذا يقال عن العلاقة بين قشتالة من جهة وكل من غرناطة وفاس من جهة أخرى ، بل ان العلاقات المتدهورة بين الممالك الاسبانية المسيحية هي الأخرى سمحت لغرناطة في بعض الأحيان أن تقف موقف الحكم بينها ، بل وأن تستعيد عددا من القرى والحصون من أحواز أشبيلية ، كما شرح ابن الخطيب في بعض رسائله لابن خلدون .

والى جانب ذلك بينت رحلات مؤرخنا كيف أن الأندلس كانت في بعض الأحيان أشبه ما تكون بمحطة عبور (ترانسيت) بين كل من طرفي المغرب : الأقصى والأدنى ، عندما يزداد اضطراب الأمور في العدة المغربية ، وكل هذا من القطع التاريخية النادرة في كتاب العبر ، التي تجعل منه مصدرا أصيلا لتاريخ الفترة المعاصرة للمؤلف والقريبة من عهده .

والحقيقة أن تلك الأصالة لم تتوقف عند تاريخ المغرب ، كما كان يظن ابن خلدون وهو يبدأ الكتابة في المغرب ، ويقول أنه سيكتفي بتاريخ بلاده التي يعرفها دون غيرها من بلاد المشرق . فبفضل رحلته المشرقية وأقامته الطويلة في مصر تمكن من تأصيل معلوماته ليس عن مصر والشام ودولة الترك المملوكية فقط ، بل عن كل تاريخ بلاد المشرق ، ولقد أتى تأصيل معلوماته عن المشرق عن طريقين أولهما : تجاربه الشخصية في القاهرة صاحبة العلاقات المتشعبة مع بلدان العالم ، وثانيهما : مدرسة التاريخ المصرية العريقة بمكتباتها العامة ، حيث كانت القاهرة قد أصبحت بغداد الجديدة بخلافاتها العباسية في كنف سلاطين المماليك ، الأمر الذي سمح له باستكمال تاريخ دول المشرق العديدة حتى تاريخ التتر على عهد تيمورلنك ، وتاريخ العثمانيين الى أيام بايزيد (ابو زيد) الذي ولى سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩ م .

وهكذا اكتمل تاريخ البربر على طول ٢٤ سنة قضاها ابن خلدون في مصر ، وتحول من تاريخ اقليمي محدود الأفق الى تاريخ عالمي متسع المنظور . واذا كان ابن خلدون قد قدم حوالى سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦ م نسخة كاملة من الكتاب بمقدمته وتاريخه الى الملك الظاهر بركوق ، كما بعث نسخة أخرى منه هدية الى السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني لتوقف على خزانة الكتب في جامع القرويين بفاس ، فان ملحمة الكتاب لم تنته الا قبل أشهر من وفاته ، بفضل ما أضافه الى التعريف بنفسه (٤٨) .

(٤٨) انظر محمد طه الحاجري ، ابن خلدون بين العلم والسياسة ، ص ٢٣٢ - حيث يقول بهذا كله يمكن القول ان كتاب العبر . نتاج مصري قاهري في معظمه ، بقدر ما هو نتاج افرنجي في أصله وبنيته . وانظر على عبد الواحد وافي ، مقدمة ابن خلدون ، ج ١ ص ١٣٤ وقارن ، ايف لاسكوس ، الترجمة العربية ليشال سليمان ، ص ٧٨ - حيث يرى ان المقدمة تتألف من ٣ كتب : الأول والثاني منها يوضحان محتوى تاريخ البربر ، أما الكتاب الثالث الخاص بالحقوق واللاهوت والفلسفة ، فأغلب الظن أنه وضع بعد ذلك في مصر .

الخلاصة

والذى نريد أن نخرج به من هذا العرض لكتاب العبر يتلخص في أن الكتاب بأقسامه الثلاثة ، : من المقدمة الى التاريخ الى خاتمة التعريف تمثل نسيجاً واحداً متكاملًا سداته حياة المؤلف وتجاربه ، ولحمته تكوينه العلمى ومعارفه . فالمقدمة شرح للتاريخ وان تقدمت عليه ، والتاريخ من حيث هو تاريخ العرب والبربر أو البدو والحضر - هو مصدر وحى ابن خلدون والهامة في عمل المقدمة ، أما التعريف فيأتى في النهاية لكى يبين مراحل العملية الحيوية التى تمخضت عن مولد الكتاب الكبير ، منذ تحصيل العلم ، الى كتابة ملخصات في علوم مساعدة مما ذكره ابن الخطيب في ترجمة ابن خلدون ، حتى البدء في كتابة تاريخ للبربر انتهى بأن صار تاريخاً عاماً للعرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، وبذلك حقق ابن خلدون ما كان يصبو اليه من أن يصبح اماماً للمؤرخين بعد المسعودى .

واذا كنا قد عرضنا لتاريخ مروج الذهب للمسعودى ، في محاولة لبيان كيفية اقتداء ابن خلدون بالمسعودى ، وتأثير مروج الذهب في كتاب العبر ، فان ما قصدنا اليه يرمى الى ما هو أبعد من هذا الهدف . فالمسألة تتعلق بالتراث العربى الاسلامى الذى استوعبه ابن خلدون في المقدمة وتمكن من تلخيصه بطريقه فذة ، بفضل امتلاكه اللغة وتطويره للعبارة ، قبل أن ينجح في بلورته في نظريات عامة .

والنتيجة التى نريد أن نخلص اليها تتمثل هنا في أن العلوم العربية الاسلامية هى القاعدة التى انصبت عليها المقدمة ، وان النظريات في التاريخ والعمران لاتبدأ من فراغ ، بل هى حصيلة التأمل في أعمال الجهد والفكر التى بدأها قدامى الأساتذة ، من : الجاحظ الى المسعودى والماوردي والطوطشى ، الى ابن الأثير الذى كان له تأثيره على ابن خلدون من غير شك ، وهذا لا يمنع من الاشارة بذكاء الرجل وعبقريته ، ولكننا نريد أن تكون تلك الاشارة بالسوية بين امام المؤرخين في القرن الثامن (١٤) وأسلافه من الأئمة السابقين .

أما عن التاريخ الذى قيل أنه تقليدي ، لا يستجيب لقوانين النقد التاريخي ونظريات العمران كما شرحت في المقدمة ، فهو الذى أوحى بتلك القوانين والنظريات ، كما سبقت الاشارة ، وبهذه المناسبة فابن خلدون لاتغيب عنه نظريات المقدمة تماماً في عرضه التاريخي . فهو اذا كان قد أهمل ذكر مصادره في كثير من الأحيان فانه يشير اليها في أحيان أخرى . ففي تاريخ الفاطميين في مصر يذكر ما جمعه ملخصاً من كتب ابن الأثير وابن الطوير ، الى جانب المسيحي (ج ٤ ص ٨٢) . وفي تاريخ القرامطة يشير الى الثعالبي والجيصري والبيهقي ، وكذلك ابن سعيد (ج ٤ ص ٩٢) وفي

تاريخ الأندلس يذكر ابن حيان وابن حزم والحجازي (ج ٤ ص ١٣٦ - ١٣٧) وهو لا ينقل اعتباطاً بل يلتزم بالنظر والنقد ، كما فعل مع ابن الأثير فيما يتعلق باستيلاء الخطا على تركستان ، حيث ينص على أنه نقل « الخبر عن اضطراب عنده فيه . . على أن أخبار هذه الدولة الخانية في كتابه ليست جلية ولا متضحة وهو يرجو الله أن يد في عمره الى أن يحقق أخبارها » بالوقوف عليها في نطاق الصحة . وأن يلخصها مرتبة لأنه لم يوفها حقها من الترتيب لعدم وضوحها في نقله . . (ج ٤ ص ٣٩٥)

وفما يتعلق بنظريات العمران وقيام الدول ، يشير الى نظرية العصبية وأهميتها في قيام الدولة في أكثر من موضع ، ليس في تاريخ العرب والبربر فقط ، بل وفي تاريخ الترك والمماليك أيضا (ج ٥ ص ٣٧١) .

ومنهج ابن خلدون في تأليف تاريخه العام ، هو التلخيص واستكمال الثغرات أو النقص مع تقريب المعاني باستخدام الأسلوب المرسل ، البعيد عن السجع والصنعة . وهذا ما يتضح من قصيدته التي قدم بها الكتاب لأول مرة الى السلطان أبي العباس الحفصي سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م حيث يقول :

لخصت كتب الأولين بجمعها وأتيت أولها بما قد أغفلوا
وألنت حوشى الكلام كائما سرد اللغات بها لنطقي ذلوا

فكان هذين البيتين من الشعر يلخصان أهم مظاهر عبقرية صاحبهما ، من : المقدرة الفائقة على الاستيعاب والتلخيص ، والتعبير عن القصد بأقرب السبل : طريق الكلام المرسل ، وهو السهل الممتنع .

وأخيرا يأتي ما انفرد به ابن خلدون في كتابته للتاريخ ، من المبالغة في التقسيم والتصنيف . فرغم أن العبر في تاريخ العرب والعجم والبربر وغيرهم من الدول المعاصرة ، فانه يضع كل الأمم والشعوب التي أرخ لها منذ أقدم العصور وحتى القرن الثامن (١٤ م) ، على طول أكثر من ثلاثة آلاف صفحة في اطار واحد ، هو تاريخ العرب وحدهم ، منذ عاد وثمود في جنوب جزيرة العرب الى هلال وسليم في شمال جزيرة المغرب .

وهكذا توالت وقائع العجم والبربر في المشرق وفي المغرب ، في ثنايا أخبار طبقات العرب الاربعة ، من : العرب البائدة والباقية ثم عرب دولة الاسلام في المشرق والمغرب ، وأخيرا جيل عرب المغرب من الهلالية . وإلى جانب هذا التقسيم الافقي ، ينقسم التاريخ الاسلامي رأسيا الى أربع شرائح أخرى هي : تاريخ الدولتين (الأموية والعباسية) وتاريخ دول أحزاب المعارضة من : الشيعة والخوارج وغيرهم ، وتاريخ الدول المناصرة لخلافة بغداد ، وأخيرا تاريخ

البربر أودول المغرب في القرن الثامن (١٤ م) ويعرضه مندرجا تحت تاريخ العرب الهلالية منذ دخولهم الى المغرب في القرن الخامس (١١ م) .

وهنا نحب أن نشير في الختام الى أن ابن خلدون ، على عكس ما قد يراه البعض من أنه مغربي شعوبي مناهض للعرب - بسبب ما قاله عن العرب في فصل العمران البدوي والأمم الوحشية تظهر في تقسيمه لكتاب العبر الى طبقات أربعة من أجيال العرب ، متعصبا للعروبة والعروية حتى أن تاريخ البربر الذين يتعصب لهم ، كما يجلو للبعض أن يقول ، يظهر في آخر الأمر وكأنه تاريخ للهلالية ، قبل أن يكون تاريخا لصنهاجة أو الزناتية ، فكان كتاب العبر ، كما تراءى للمؤلف ، هو فقط في : تاريخ العرب .

(١) صورة عصر :-

كتاب « الفرج بعد الشدة » ألفه القاضي « المحسن ابن علي التنوخي » المعروف بالقاضي التنوخي . وهذا الكتاب تقوم مادته الأساسية على الأخبار والنوادر التي تساق في أسلوب قصصي ، ومع أهمية هذا الجانب ، من الفن القصصي في التراث العربي لا يزال قليل الحظ من عناية الباحثين ، وموضع اتهام عند بعض المستشرقين فإن أهمية الفرج بعد الشدة تتجاوز كونه من أحسن المصادر وأقربها إلى المنهج العلمي التوثيقي ، وإلى الشمول أيضا ، إلى أمور أخرى لا تقل في درجة الضرورة ، لعلاقته بالسيرة الشخصية لمؤلفه ، ولدلالاته المتنوعة التي تتشعب إلى المستويات الاجتماعية ، والأنشطة الإنسانية في عصر مؤلفه .

لقد ولد القاضي التنوخي سنة سبع وعشرين وثلثمائة (٣٢٧ هـ) بالبصرة (١) ، وتوفي سنة أربع وثمانين وثلثمائة (٣٨٤ هـ) ببغداد ، وإذا فقد عاش في صميم القرن الهجري الرابع في أهم مواطن الحضارة العربية الإسلامية ، وفي أنضج مراحلها وأشدها خطرا .

وهذا القرن الرابع الهجري ، له صورتان على قدر من التضاد عظيم ، فهو عصر التقدم العلمي والنشاط التأليفي ، عصر الانفتاح على الحضارات الأجنبية وتميز الحضارة العربية ، عصر الترف الزائد والفقر القاتل . عصر المؤامرات والاضطرابات والايوثة ، عصر السلطة الضائعة والأمن المفتقد .

في القرن الرابع الهجري ظهرت الثمار العظيمة التي غرسها عصر الرشيد ، وعصر المأمون من بعده . في

كتاب الفرج بعد الشدة للقاضى التنوخي دراسة فنية تحليلية

محمد حسن عبدالله

(كلية الآداب - جامعة الكويت)

(١) انظر : وفيات الأعيان مجلد ٤ ص ١٦٢ ، وتاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٥٦ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٦٨ وفتح السعادة ج ١ ص ٢٤٩ . وفي معجم الأدباء أنه ولد سنة ٣٢٩ هـ ج ١٧ ص ٩٢ .

مجالات الحضارة بكل ما تنطوي عليه من توسع في العمران ، واعتناء بالفنون والآداب ، وتشجيع للعلماء ، وتيسير للحصول على المعرفة من منابعها المتقدمة . توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ ، أى قبل ميلاد القاضى التنوخى بقرن كامل يزيد بضع سنوات ، وفي إبان تلك الفترة كانت الخمائر قد عملت عملها ، وتفتحت البراعم العظيمة التى شهد عصر المأمون نفسه بشايرها ، وفاض نورها في عصر المعتصم ، واستمر اشعاعها في عصور خلفائه لتبلغ الذروة في السطوع والابهار أثناء مراحل توصف من الناحية السياسية بأنها عصر ضعف الخلفاء ، واضطراب الأمن ، وانتشار الفساد الإدارى . وهذا هو الوجه الآخر القاتم المضاد للوجه المشرق بنور الحضارة العربية .

وإذا كنا لا نستطيع أن نستقصى جوانب الصورة على امتداد الأرض العربية ، ما بين المشرق والاندلس ، فإنا لا نستطيع - أيضا - أن نخوض في تفاصيلها الدقيقة ، وإن تكون في حدود العراق وما حوله ، لان الوفاء بهذه التفاصيل يتجاوز قدرة هذه الصفحات ، ونكتفى بأن نسجل اشارات دالة في حدود الفترة التى عاشها التنوخى ، بذكر بعض أعلام العصر في بعض مجالات المعرفة ، فنجد أمثال أبي الحسن الاشعري ، والاسفرايينى ، والقشيري ، وامام الحرمين الجوينى ، والباقلانى ، وأبي بكر الجصاص ، وهم من الفقهاء والمتكلمين . ومن علماء اللغة محمد بن دريد الازدى ، وابي بكر الانبارى ، وابي الحسن الرمانى . ومن المتصوفة « جماعة اخوان الصفاء » التى تعتبر من أهم مدارس الاستنارة العقلية في تاريخ الفلسفة الاسلامية . وفي مجال الطب وترجمة كتب الحكمة من اليونانية والسريانية الى العربية نكتفى بأن نقرب صفحات كتاب ابن أبي أصيبعة : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لنكتشف أن العمل في ميدان الطب ممارسة وترجمة ، وفي مجال الفلسفة ، اختصت به أسرى توارثه أفرادها جيلا بعد جيل ، مثل آل بختيشوع بن جورجس ، وآل الطيفورى وآل حنين وحنين بن اسحق هو الذى نقل بعض ما كتب أرسطو بأمر المأمون ، وآل ثابت بن قرة الحرانى ، وفي مجال التأليف كان عصر المشافهة قد ولى ، وآتى ثماره الوثائقية في مؤلفات القرنين الثانى والثالث ، ثم طور التأليف كما وكيفا ، فظهرت الدراسات المتخصصة ، كما ظهرت الدراسات الموسوعية المتعددة الاهتمامات ، بأحجامها الهائلة ، وقد ذكرنا من أسماء الفقهاء واللغويين والحكماء من لا يصعب الوقوف على ما كتبوا في حقول نشاطهم الخاص وعلى المستوى الموسوعى ، فيما يخص المرحلة التى نعنى بها ، يكفى أن نذكر « تاريخ الرسل والملوك » لمحمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) و « مروج الذهب » للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) و « الاغانى » لابن الفرج الاصبهانى (ت ٣٥٦ هـ) و « الفهرست » لابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) وهذه المصادر لا يستغنى عنها طالب المعرفة في أى مجال له علاقة بالحضارة العربية ، منذ أقدم عصورها ، وحتى تاريخ تأليف هذه الكتب الموسوعية ، وسنرى في فقرة تالية كيف أضاف القاضى التنوخى من مؤلفات معاصريه ، فضلا عن سابقيه ، ما أغنى به سماعه من جلسائه وأساتذته ، مما يدل - في النهاية - على ازدهار حركة التأليف ، فضلا عن الابداع الفنى ، والمتنبى وحده (ت ٣٥٤ هـ) يضىء قرنا كاملا ، بل هو مضىء الى اليوم وسيبقى كذلك ما بقيت العربية ، والنقد الادبى ، ويكفى أن نذكر : ابن طباطبا العلوى صاحب « عيار الشعر » (ت ٣٢٢ هـ) وقدامة بن جعفر ، مؤلف « نقد الشعر » (ت ٣٣٧ هـ) والآمدى ، صاحب كتاب « الموازنة » (ت ٣٧٠ هـ) والقاضى الجرجانى مؤلف « الوساطة » (ت ٣٩٢ هـ) هذه دعائم عصر مزدهر باللوان الثقافية المتنوعة ، يقف أبوبكر الرازى ، الطبيب الفيلسوف - علامة شاخنة على بدايته (توفى سنة ٣١١ هـ) ، ويقف بديع الزمان الهمذانى على نهايته (توفى سنة ٣٩٨ هـ) وقد يكون في الانتقال من الطب والفلسفة في البداية الى المقامات

الادبية وصنعتها اللغوية في النهاية دلالات مختلفة على تحرك مركز الثقل في ثقافة العصر ، وغميده للطابع الخاص الذي سيميز القرن التالي .

لقد ألف المستشرق آدم مثر كتابه تحت عنوان : « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، او : عصر النهضة في الاسلام » ، وهذا الربط أو هذا الوصف له مسوغاته التي تجد أدلتها في كل أشكال النشاط الفكري والفني والعلمي والعمرائي^(٢) ولعل هذه الصياغة لعنوان الكتاب ، كانت وراء اختياره لعنوان كتابه عن المرحلة ذاتها في سلسلة كتاباته عن التاريخ والحضارة الاسلامية ، اذ سماه « ظهر الاسلام » والظهر عالية النهار ، وليس فيما قبله ، أو بعده ، ما يدانيه في تمامه . لقد أرجع الشيخ محمد الخضري رقى العلوم في عصر المأمون الى سببين : أن المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه ، وإن كثرة من العلماء مختلفي الاتجاهات قد وجدت في عصره^(٣) ولعله كان ينبغى عليه أن يضيف سببا ثالثا هو الحرية الفكرية التي أتاحت للعلماء ، بدجة سمحت بعقد ندوات ومناظرات حتى في مجلس الخليفة نفسه ، بغير قيود الا أدب المناظرة ، بل يذكر الشيخ الخضري أنه تناظر في مجلس المأمون اثنان في معنى « الامامة » ينصر أحدهما « الامامية » والآخر « الزيدية » يقول الخضري « وهذان المذهبان كلاهما ان صحا يذهبان بما في أيدي آل العباس من الامامة ، ولم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهما^(٤) . وقد استمر هذا الاتجاه الصاعد في عصر المعتصم ، وتراجع بعض الشيء في عصر المتوكل (قتل سنة ٢٤٧ هـ) وتذبذب صعودا وهبوطا فيما بعد ، ولكن باب الحوار لم يغلق على الرغم من تسلط بعض المذاهب المحافظة كالحنابلة ، ونستطيع أن نجد في صميم القرن الرابع محاوره مشهودة بين أبي سعيد السيرافي النحوي (ت ٣٦٨ هـ) ومثى بن يونس القنائي ، الذي « انتهت اليه رئاسة أهل المنطق في عصره » حول المنطق اليوناني والنحو العربي^(٥) وهي مؤثر مهم عن طبيعة العصر واتجاه التيارات الفكرية . كما سنجد بعض الخلفاء يقرضون الشعر ، ويلحنون ويغنون ، وكان الوزراء من كبار المثقفين ، وحتى أولئك الذين لم يكونوا عربا فانهم لم يكونوا أقل حماسة للثقافة العربية ، كان عضد الدولة البويهى يقول الشعر ويحاور ندماؤه فيه ، وكان القاضي التنوخى من جلسائه ، كما كانت له خزائن كتب نادرة ، أقام لها خازنا خاصا ، هو أحمد بن محمد مسكويه ، الذي اختص من الفلسفة بالناحية الخلقية ، فألف « تهذيب الاخلاق » كما ألف كتاب « تجارب الأمم » جرى فيه على نسق خاص ، وهو الاهتمام بمواضع العبرة في الاحداث التاريخية ، والتعليق عليها تعليق الحكيم المجرب^(٦)

هذا هو الوجه المشرق للقرن الرابع الهجري ، أما الوجه الآخر فتمثله أوضاع الخلافة في ضعفها وضياعها بين المتغلبين من قادة الترك ، والديلم ، والمتسللين الى مواقع التأثير في قصر الخلافة من الجوارى والقهرمانات والخصيان ، والطامحين الى الاستقلال من أصحاب الحركات الانفصالية ، كالقرامطة ، والديلم ، والطولونية ، والحمدانية ، وغيرهم ممن عانت منهم دولة الخلافة العباسية أشد العناء .

(٢) نقله الى العربية محمد عبد الهادي أبو ريعة سنة ١٩٦٧ م .

(٣) محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ص ٢٠٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٢١٠ . وقد عابت عليه بعض الطوائف والعامه ذلك .

(٥) أوردها أبو حيان التوحيدى في كتابه : المقابسات ص ١٢١ . والامتناع والمؤانسة ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها .

(٦) ظهر الاسلام ج ١ ص ٢٣٢ .

ان كتاب « الفرج بعد الشدة » سيقدم لنا من خلال أخباره القصصية صورة ذلك العصر السياسية ، وهى لا تزيد على أن تكون سلسلة لا تنقطع من الحروب الداخلية وحوادث النهب والتصفية والمصادرة ، وخراب المدن وكبس السجون وقطع الطريق على القوافل ، تلك التى تحمل رسائل أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، لقد خلع الخليفة القاهر ، وسمل^(٧) سنة ٣٢٢ هـ . وأخذ الخليفة الراضى مكانه ، وقد ولد القاضى التنوخى بعد خمس سنوات مضت من خلافة الراضى ، وهذا يعنى أنه عاصر خلافة الراضى ، والمتقى ، والمستكفى ، - والمطيع ، والطائع الذى خلع سنة ٣٨١ هـ ، وأعقبه القادر ، الذى ظل خليفه لأكثر من واحد وأربعين عاما ، وقد مات التنوخى بعد ثلاث سنوات فى خلافته ، وهؤلاء الخلفاء الستة لم يكن لهم من الخلافة غير الاسم ، وهم بين مقتول ومعزول ومن لا يدري من أمره شيئا ، فضلا عن أمر المسلمين . وقد كان منصب الوزارة جزءا من هذه الفوضى وصدى لها ، فكان لمن يتغلب على خصمه ، أو يستولى على اقليم ، أو يهزل الرشوة للخليفة . ويكفى أن نقلب صفحات الجزء الثامن من كتاب ابن الاثير « الكامل فى التاريخ » ، الذى يرصد الحوادث المستجدة عاما بعد عام ، لنرى الصورة القلقة ، بل المفزعة ، للحياة السياسية والادارية ، وللنظام المالى فى ذلك العصر الذى يزهو بالعلماء والادباء . سنكتفى بمجرد اشارة الى أسباب مبايعة المعتذر بالخلافة بعد وفاة المكتفى . لقد فكر الوزير - وهو العباس بن الحسن - فىمن يصلح للخلافة ، فطلب مشورة أصحابه ، وكان عبد الله بن المعتز أكثر المرشحين شهرة ، ولكن مستشار الوزير رفضه ، وقال معللا : « فليتق الله الوزير ، ولا ينصب الامن قد عرفه ، واطلع على جميع أحواله ، ولا ينصب بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ، ولا طماعا فيشره فى أموالهم ، فيصادروهم ، ويأخذ أموالهم وأملاكهم ، ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ، ويرجو الثواب فيما يفعله ، ولا يول من عرف نعمة هذا ، ويستأن هذا ، وضبيعة هذا وفرس هذا ، ومن قد لقى الناس ولقوه ، وعاملهم وعاملوه ، ويتخيل ، ويحسب حساب نعم الناس ، وعرف وجوه دخلهم وخرجهم . فقال الوزير : صدقت ونصحت ، فىمن تشير ؟ قال : أصلح الموجود جعفر بن المعتضد . قال : ويحك ، هو صبي قال ابن الفرات (المستشار) الا أنه ابن المعتضد ، ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه ، غير محتاج اليها ؟

هكذا بويح للمعتذر بالخلافة ، لانه لا يعرف شيئا ، ولا يستطيع أن يباشر الأمور بنفسه ومن ثم سيظل أسير ارادة وزرائه ، فلا يستغرب أن تتسلط أم الخليفة ، وقهرمانه قصره ، وقد صار لها الحكم فى كل شئون الدولة ، وصارت أعظم المناصب تنال بالرشوة ، وبدل قلق منصب « الوزارة » على هذا الاضطراب العام ، فقد شغله العباس بن الحسن ، ثم ابن الفرات (إبان فتنة ابن المعتز) ثم ابن خاقان ، ثم علي بن عيسى ، ثم ابن الفرات مرة ثانية ، ثم حامد بن العباس ، ثم عبد الله بن محمد (بن خاقان الوزير السابق) ثم أبو العباس الخضيبى ثم ابن مقله ، ثم سليمان بن الحسن ، ثم أبو القاسم الكلوزانى ، ثم الحسين بن القاسم ، ثم الفضل بن حجر ، فهؤلاء اثنا عشر وزيرا فى أربعة وعشرين عاما . تولى بعضهم الوزارة أكثر من مرة ، لم ينلها أكثرهم عن جدارة ، بل بما بذل من رشوة لا بد أن يستردها مضاعفة ومهما يكن من أمر فقد قتل المعتذر بعد حكم طويل ، وبدأت المشاورات بين أصحاب النفوذ الحقيقى من القادة والحجباب ، وهنا ظهرت مسوغات جديدة لاختيار الخليفة ، أجملها ابن الاثير فى عبارات قاطعة قال : « لما

(٧) السمل : القاد العين ابصارها بتقريب مسمار أو حديدة بحمأة .

قتل المقتدر بالله عظم قتله على مؤنس (مؤنس المظفر الخادم من أصحاب النفوذ طوال عصر المقتدر ، وقد شارك في تدبير قتله) وقال : الرأى أن ينصب ولده أبو العباس أحمد في الخلافة ، فانه تربيتي ، وهو صبي عاقل . وفيه دين وكرم ، ووفاء بما يقول ، فاذا جلس في الخلافة سمحت نفس جدته ، والدة المقتدر ، واخوته ، وغللمان أبيه ببذل الأموال ، ولم يتططح في قتل المقتدر عنزان (مادام ابنه قد أخذ مكانه) ، فاعترض عليه أبويعقوب اسحاق بن اسماعيل النوبختي ، وقال : بعد الكد والتعب ، استرحنا من خليفة له أم ، وخالة ، وخدم يدبرونه ، فنعود الى تلك الحال والله لا نرضى الا برجل كامل ، يدبر نفسه ، ويدبرنا .

هكذا اختلت مقاييس اختيار الرجال لأجل المناصب ، واشرت بين قطبين متباعدين : لماذا تأتي برجل كامل مباشر الامور بنفسه ، غير محتاج اليها ؟ - و : والله لا نرضى الا برجل كامل يدبر نفسه ، ويدبرنا ، لقد اختير « القاهر » على هذا الأساس الأخير . ولكنه قتل بعد عام ونصف عام لا تزيد ، لانه لم يكن رجل المنصب ، كما لم يكن رجل جماعة المسلمين ، بل كان رجل المصالح ، ومحاور النفوذ ، واختلاف الظروف ، لا غير .

سيكون « الفرج بعد الشدة » شاهد صدق على عصر المؤامرات ، والاستنزاف الكبير لأهم مصادر القوة في الدولة الاسلامية : الانسان .

(٢) صورة شخصية

ليس من شك في أن كتاب « الفرج بعد الشدة » باستطاعته أن يمنحنا جوانب مهمة من حياة مؤلفه العملية ، وملاحظه النفسية ، ترتيبا على أن الكاتب - أي كاتب - يفيض جانبا من نفسه فيها يكتب ، فضلا عن دلالة الاختيار للموضوع الذي يؤثره ، وبخاصة حين يكون الموضوع انسانيا ، له مساس مباشر بالحياة الشخصية لكثير من كبراء العصر ومشاهيره ، ومع هذا فان كتب التراجم قد عنيت بايراد بعض التفاصيل التي سيكون باستطاعتها أن تجلو أماننا صورة هذا القاضي الأديب ، وأسباب اختياره لموضوع الفرج بعد الشدة دون غيره ، وللتنوخى غير هذا الكتاب ديوان شعر وصف بأنه كبير ، يفوق في حجمه ديوان والده ، وكتاب « نشوار المحاضرة » وقد طبع مؤخرا في أجزاء ثمانية (٨) وكتاب « المستجاد من مغلات الاجواد » ولكن يبقى الكتاب الذي نحن بصدد أكثر اقناعا لدى كتاب التراجم . وأقدم عبارة مأثورة أطلقها الثعالبي - صاحب يتيمة الدسر - وقد عاصر التنوخى ، اذ عاش الثعالبي بين عامي ٣٥٠ و ٤٢٩ هـ ، وفيها قال مفتتحا ترجمته : « هلال ذلك القمر ، وغصن هاتيك الشجر ، والشاهد العدل لمجد أبيه وفضله ، والفرع المثيل لاصله ، والنائب عنه في حياته ، والقائم مقامه بعد وفاته ، وفيه يقول أبو عبد الله بن الحجاج (من الوافر) :

تخيرت الشباب على الشيوخ
بحضرة سيدى القاضي التنوخى

اذا ذكر القضاة وهم شيوخ
ومن لم يرض لم أصفه الا

(٨) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، حققه ونشره عبود الشالحي سنة ١٩٧١ والنشوار هو ما يظهر من كلام حسن ، وهناك مصادر قديمة وحديثة سمته « نشوان المحاضرة » والكتاب أقل تماسكا - من الوجهة الفنية - من الفرج بعد الشدة .

وله كتاب الفرج بعد الشدة ، وناهيك بحسنه ، وامتاع فنه ، وما جرى من الفأل بيمنه ، لا جرم أنه أسير من الأمثال ، وأسرى من الخيال » (٩) . وقد ترددت هذه العبارات فيما كتب عن التنوخي بعد الشعالي وهي تشير بالحاح الى شخصية والده ، وكيف كان الولد صورة أبيه أو مستفيدا من منزلته ، وارثا لمناصبه في الحقيقة . أما أوفى ترجمة له فنجدها عند ياقوت الحموي (١٠) ، وقد أثبت اسمه ، فهو : المحسن - بكسر السين - بن علي ، بن محمد ، بن داود ، ابن الفهم التنوخي ، وكنيته أبو علي ، وقد كان علي هذا قاضيا - فيما بعد - وكان يكنى أبا القاسم ، وهو نفس اسم جده - والد المحسن - وكنيته ، وقد كان قاضيا أيضا وهناك اختلاف محدود في سلسلة نسبه ، فجاء في بعض المصادر « ابن أبي الفهم » بدلا من « ابن الفهم » (١١) ، كما أضاف ابن العماد الحنبلي تفصيلا آخر ، فداود بن ابراهيم بن تميم (١٢) وعنه أخذ محسن الامين - فيما نظن - وأضاف بعدها : القحطاني التنوخي ، وربما كان العكس ، هو الصحيح (١٣)

ومهما يكن من أمر ، فانه بشخصية هذا الوالد : « القاضي أبو القاسم علي التنوخي » يبدأ تاريخ صاحبنا وتتحدد مكانته الاجتماعية ووجهته في التأليف ، فقد كان من أعلام عصره ، مرموق المنزلة ، وقد روعيت هذه المنزلة في اختيار ابنه المحسن لمنصب القضاء وهو لا يزال في شرح شبابه ، بل أسبغت عليه حماية الوزير أبي محمد المهلبى - وزير معز الدولة البويهى - الذى يصفه ابن الاثير بأنه « كان كريما فاضلا ، ذا عقل ومروءة » (١٤) وهذا المشهد الذى اختير فيه المحسن لتولى القضاء جدير بأن يروى ، لما له من معانى التواضع والذكاء والافادة من الفرصة المتاحة . يقول :

« نزل الوزير أبو محمد المهلبى السوس (بلدة بخوزستان) فقصدته للسلام عليه وتجديد العهد بخدمته ، فقال لى : بلغنى أنك شهدت عند ابن سيار قاضى الاهواز ؟ قلت : نعم . قال : ومن ابن سيار حتى تشهد عنده ، وأنت ولدى ، وابن أبى القاسم التنوخي أستاذ ابن سيار ؟ قلت : ألا ان فى الشهادة عنده مع الحدائة جمالا - وكانت سنى يومئذ عشرين سنة - قال : وجب أن تجمىء الى الحضرة لأتقدم الى أبى السائب قاضى القضاة بتقليدك عملا تقبل أنت فيه شهودا . قلت : ما فات ذاك اذا أنعم سيدنا الوزير به ، وسبلى اليه الآن مع قبول الشهادة أقرب . فضحك وقال لمن كان بين يديه : انظروا الى ذكائه كيف اغتنمها ؟ ثم قال لى : اخرج معى الى بغداد . فقبلت يده ودعوت له وسار من السوس الى بغداد ، ووردت الى بغداد فى سنة تسع وأربعين وثلثمائة (١٥) فتقدم الى أبى السائب فى أمرى ، بما دعاه الى أن قلدى عملا بسقى الفرات ، وكنت أأزم الوزير أبا محمد ، وأحضر طعامه ومجالس أنسه (١٦) وهكذا صار المحسن قاضيا وهو لا يكاد يجاوز العشرين عاما ، وصار محسوبا من خاصة الوزير المهلبى ، ولم يقف الامر عند حضور طعامه ومجالس

(٩) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣٤٦ .

(١٠) معجم الادباء ج ١٧ ص ٩٢ .

(١١) تاريخ بغداد ص ١٥٥ - والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٦٨ .

(١٢) شذرات الذهب لى اخبار من ذهب ج ٣ ص ١١٢ .

(١٣) أعيان الشيعة ج ٤٢ ص ٩٤ .

(١٤) الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٥٤٧ .

(١٥) لعل هذا سبب نص ياقوت أن المحسن ولد سنة ٣٢٩ هـ مخالفا لجمع من ترجموا له ، واعتمدوا على روايته هو نفسه بأنه ولد سنة ٣٢٧ هـ .

(١٦) معجم الادباء ج ١٧ ص ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، - وعن مولده راجع ص ٩٢ .

أنسه ، فقد ذكر حادثة تدل على عمق المحبة التي يكنها الوزير له ، والحماية التي يحرص على بسطها عليه ، فقد كان الوزير في مجلس عام ذات يوم ، وكان المحسن عنده ، ثم جاء الحاجب يستأذن لدخول أبي السائب - قاضى القضاة - وهنا استدنى الوزير المحسن ، وتظاهر بأنه يخاطبه في أمر خاص على جانب من السرية ، وقال للمحسن همسا - بينما قاضى القضاة واقف بالباب يرى المشهد ولا يسمع ويتنظر اذن الوزير له بالجلوس - : ليس بيننا سر ، وانما أردت أن يدخل أبو السائب فيراك تسأرنى في مثل هذا المجلس الحافل فلا يشك أنك معى في أمر من أمور الدولة ، فيرهبك ويحشمك ويتوفر عليك ويكرمك فانه لا يجيء الا بالرهبة ، وهو يغيضك بزيادة عداوة كانت لأبيك ، ولا يشتهي أن يكون له خلف مثلك » ويسجل المحسن لنا صدى هذه العلاقة الخاصة بينه وبين الوزير وأثرها على سلوك قاضى القضاة تجاهه ، فيقول « وجئت من غد الى أبي السائب فكاد يحملى على رأسه ، وأخذ يجاذبنى بضروب من المحادثة والمباينة وكان ذلك دهرًا طويلا »

وهناك جانب آخر من شخصية هذا الأب القاضى ، وأشار اليه ابن خلكان صراحة ، وأغفله المحسن ، لما يحرص عليه الابن عادة من اجلال سيرة أبيه ، وتجنب ذكر ما يمس نزاهته ووقاره ، فقد وصف هذا الاب بأنه كان الى فقهه وقضائه : أديبا وشاعرا ظريفا ، وأنه كان من ندماء الوزير المهلبى وسماه ، وتعيين المحسن فى منصب القضاء وهو لا يزال صغير السن ، وارهاب قاضى القضاة من أجله دليل على ما كان بين الوزير والأب ، وعبارة ابن خلكان حاسمة بالنسبة لتقرير بعض الصفات . يقول : « كان الوزير المهلبى وغيره من رؤساء العراق يميلون اليه ، ويتعصبون له ، ويعدون ربحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء وكان فى جملة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى ، ويجتمعون عنده فى الاسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة (١٧) .

سنجد « اطراح الحشمة » والتبسط فى القصف والخلاعة » فى مجالس الرؤساء ماثلة فى حياة المحسن أيضا ، كما سنرى ، مع فقهه وقضائه وجده ، بل سنجد الوصف بالظرف وسرعة الخاطر مما اشتهر به ابنه على ، وكان قاضيا أيضا ، يقول عنه ابن شاکر الكتبي : « وكان ظريفا نبيلًا جيد النادرة ، اجتاز يوما فى بعض الدروب ، فسمع امرأة تقول لأخرى : كم عمر بنتك يا أختي ؟ فقالت : رزقتها يوم صفع القاضى وضرب بالسياط . فرفع رأسه اليها وقال : يا بظراء ، صار صفعى تاريخك ، ما وجدت تاريخا غيره .

... وكان يوما نائما ، فاجتاز واحد غث وأزعجه مما يصيح : شراك النعال شراك النعال ، فقال لغلامه : اجمع كل نعل فى البيت وأعطها لهذا يصلحها ويشتغل بها . ثم نام . وأصلحها الاسكافى واشتغل بها الى آخر النهار ، ومضى لشأنه . فلما كان فى اليوم الثانى فعل كذلك ولم يدعه ينام ، فقال للغلام : ادخله ، فأدخله فقال له : يا ماص بظر أمه ، أمس أصلحت كل نعل عندنا ، واليوم تصيح على بابنا ، هل بلغك أننا نتصافح بالنعال ونقطعها ؟ قفاة ، قفاة . يا سيدى أنتوب ولا أعود أدخل الى هذا الدرب أبدا (١٨) ومع هذا الظرف ، بل هذه « الخلاعة » فى استخدام بعض الألفاظ - التى تمهينا ذكر ما زاد فحشه منها - لا يتردد ابن شاکر فى وصفه بأنه كان شيعيا معتزليا ، وكان ساكنا وقورا »

(١٧) وفيات الأعيان ج ١ ص .

(١٨) نوات الوفيات ج ٣ ص ٦٠ - ٦٢ .

هذان شعاعان، مسلمان على شخصية صاحبنا المحسن التنوخي ، أحدهما من والده أبي القاسم على التنوخي ، والآخر من ابنه أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي ، ولعلها أن يكشف جانباً لم ينص عليه مؤرخو حياة المحسن ، وهو ظرفه وتسامحه ، بل حسه الفني الذي يكاد يخرج به عن تزمّت الفقيه وجد القاضي .

لم يقف تأثير الوالد على ولده عند حدود ما استوجب من الرعاية من خاصة أصدقائه ، كما رأينا من حذب الوزير المهلب علي المحسن ، مع أن هذا الوالد - نديم المهلب - كان قد مات منذ عام ٣٤٢ هـ ، أي قبل أن يتولى ابنه القضاء ، بسبع سنين ، فهناك جانب « الورثة » التي يمكن أن نلمح آثارها في مزاج الابن وتنشئته وميوله ، وحرصه على أن يسير على النمط الذي سارت عليه حياة أبيه ، وهناك جانب ثالث لا يقل أهمية فيما نحن بصدده ، فقد شغل هذا الأب منصب القاضي في أكثر من مكان .

١ - رامهرمز ، وهي مدينة من نواحي خوزستان ، نستنتج هذا من قول المحسن في صدر الخبر رقم (٦٣) : أخبرني أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي ، خليفة أبي علي القضاء بها . . . (١٩) .

٢ - الأهواز ، نستنتج ذلك من وصفه لمحمد بن بكر الخزازي - صاحب ابن دريد - بقوله : « وكان شيخاً من أهل الأدب والحديث ، فقد استوطن الأهواز سنين ، وكان ملازماً لأبي رحمه الله ، يتفقده ويبره (٢٠) . . » .

٣ - الكرخ : وهي من ضواحي بغداد وأكثر أهلها من الشيعة . نستنتج ذلك من قوله في اسناد الخبر رقم (٤٤٩) : وحدثني أبي رضي الله عنه قال ، لما كنت بالكرك ، أتقلد القضاء بها ، وبالمرج وأعمالها ، كان بوابي رجل من أهل الكرخ (٢١) .

٤ - البصرة ، وقد نص عليه ابن خلكان ، ونقله عنه أحمد أمين (٢٢) وليس من شك في أن هذا التنقل بين جهات العراق وفارس كان بمثابة المدد الذي لا ينقطع لذاكرة الصبي بالحوادث المتجددة ، والنماذج البشرية المختلفة ، ومثيراً لتداعيات التاريخ القريب والبعيد ، ولن نعجب إذا ، حين نجد مادة كتابه مستمدة من تاريخ العراق وفارس ، في نسبتها الغالبة ، ومن أخبار مدنها وحكايات شعبيها .

وفضلاً عن ذلك ، فقد كان هذا الأب مصدراً لبعض الأخبار التي رواها ابنه المحسن ، مبتدئاً بما عاشه هذا الأب من تجارب وما شاهد من رجال وحوادث ، أو ناقلاً رواية عن غيره ، كما كان مجلسه يجمع أهم أدباء عصره في البصرة بخاصة ، وفيها سمع المحسن من أبي بكر الصولي ، وهو لم يزل حدثاً (٢٣) .

لقد مات القاضي أبو القاسم علي التنوخي ، وولده المحسن في الخامسة عشرة من عمره ، وإذا فقد قضى في رعاية أبيه أهم سنوات تكوينه الثقافي ، وأفاد إفادة مباشرة من « الندوة » الثقافية التي كان يؤمها مثقفو البصرة في بيت هذا

(١٩) - الفرج بعد الشدة ج ١ ص ١٨٠ .

(٢٠) - الفرج بعد الشدة ج ٤ ص ١٣٣ .

(٢١) - الفرج بعد الشدة ج ٤ ص ٢٣٤ .

(٢٢) - ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢٣) - محمد بن يحيى بن هيد الله ، أبو بكر الصولي ، توفي سنة ٣٣٥ وقد ذكر القاضي التنوخي بأنه سمع منه في البصرة في هذه السنة ، انظر : الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٣١١ وغيرها .

الأب المحدث الشاعر الأديب ، ولقد كانت البصرة ، الى عصر المحسن ، عاصمة ثقافية هامة ، تتوارث الرواية عن بوادي نجد والحجاز مما يليها ، وتعتبر مستقرا لنوادير الاعراب ولهجاتهم ، مما أغنى ثقافة هذه المدينة وجعل منها مدرسة محددة الملامح ، شاخة الأثر ، في الشعر واللغة والنحو ، وغير ذلك من مكونات الثقافة العربية التراثية ، ولم تكن النوادر والأخبار كل ما تعلمه وسمعته المحسن في مجلس أبيه ، فقد ذكرت المصادر أنه سمع الحديث النبوي ورواه ويحدد الخطيب البغدادي بداية ذلك بسنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ، أي أنه سمع الحديث وهو في نحو السابعة من عمره وقد سمع من واهب بن يحيى المازني ، وأبي العباس الأثرم ، ومحمد بن يحيى الصولي والحسن بن محمد بن عثمان النسوي ، وأبي بكر بن داسة ، وأحمد بن عبيد الصفار وطبقتهم ، ونزل بغداد وأقام بها وحدث الى حين وفاته ، وكان سماعه صحيحا (٢٤) . ولا تختلف عبارة ابن خلكان عما قاله البغدادي (٢٥) . أما ابن العماد الحنبلي فان عبارته تشعر بأنه استمر في سماع الأحاديث النبوية حين ترك البصرة الى بغداد ، كما أنه يخالف في أول سماعه فيجعله سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، ولعل هذا أقرب الى القبول ، اذ كان المحسن في التاسعة أو العاشرة من عمره . (٢٦)

لقد تقلب المحسن في وظائف مختلفة وشغل منصب القاضي في أكثر من مكان ، ومما يؤسف له حقا أن المصادر التاريخية القريبة من عصره لم تهتم بأن ترتب هذه الوظائف زمنيا ، مع أهمية ذلك في تحديد أطوار خبراته العملية ، وعلاقة هذه الخبرات بنشاطه التأليفي ، ويمكن اعتبار « نشوار المحاضرة » مصدرا أساسيا للمعرفة بحياته ، من حيث قيام مادته على تدوين ما يدور في المجالس وما يرتبط به من حوادث لم تدون في الكتب ، وقد بذل محقق « النشوار » (٢٧) - عبود الشالجي - جهدا طيبا في تجميع ما يتصل بحياة القاضي التنوخي مباشرة ، وترتيبه في سياق زمني متصل ، أو شبه متصل . لقد استقر به الأمر في بغداد عقب توليه قضاء القصر وبابل بسقى الفرات ، سنة ٣٤٩ هـ ، وأصبح عضوا في مجلس الوزير المهلب . ويستنتج المحقق أن المحسن بقي في بغداد حتى سنة ٣٥٥ هـ ، وأن بعض الأعمال المتصلة بالقضاء قد أسندت اليه أيضا في تلك الفترة ، ثم غاب عن بغداد ما بين عامي ٣٥٥ و ٣٦٠ هـ . ثم عاد اليها ليستأنف ما انقطع من وجاهته الاجتماعية التي احتفظ بها برغم هذا الانقطاع . والدلائل تشير الى أنه كان يتولى قضاء واسط سنة ٣٦٣ هـ ، وبعدها لجأ التنوخي الى البطيحة ، هاربا من ابن بقية ، وزير عز الدولة بختيار ، وبقي بعيدا الى أن وثق صلته بعضد الدولة - ابن عم عز الدولة وأقوى شخصية في عصره - وقد كانت بينهما علاقة خاصة تحتاج قدرا من الاهتمام .

كان عضد الدولة البويه (توفي سنة ٣٧٢ هـ) أديبا وشاعرا ، وحاكما حازما ، وكان بلاطه يحوي نخبة من الشعراء والأدباء معدودة ، وقد قدم ياقوت وصفا لبعض مجالس السمر في حضرة عضد الدولة ، دل على تنوع ثقافة التنوخي في الشعر والرواية والموسيقى ، مما سنجد عليه أكثر من دليل في تحليل مادة كتابه ، وسنقتطف ما يدل على مزاج القاضي ومنزلته وتطور علاقته . فقد كان يحضر مجالس سمره وفيها الغناء والشرب ، ولكنه كان لا يشرب ، وكان يعد قصائد

(٢٤) تاريخ بغداد ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢٥) وليات الاعيان ج ٤ ص ١٦٠ .

(٢٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج ٣ ص ١١٢ .

(٢٧) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ج ١ ص ٢٠ - ٢٤ ، وفي الفرج بعد الشدة ما يشير الى استناده ج ١ ص ١٠٦ ، وأنه كان في الاهواز سنة ٣٥٠ هـ ج ١ ص ١٤٣ .

يمدح بها عضد الدولة في بعض مناسباته الخاصة ، كما كان يراعى منزلة هذا الملك الفارسي اذا ما سمع شيئا من شعره ، حدث أن ذكر أحدهم بيتا من نظم عضد الدولة وهو :

وشرب الكأس من صهيباء صرف يفيض على الشروب يد النضار

يقول القاضي التنوخي : « فقطعت المذاكرة ، وأقبلت أعظم البيت ، وأفخم أمره وأفرط في استحسانه ، والاعتراف بأنني لا أحفظ ما يقاربه في الحسن والجودة فأذكر به » (٢٨) هذا اذا : القاضي التنوخي رجل الحاشية وجليس الملوك ، وليس الفقيه أو القاضي ، أو الناقد الآدمي ، ويتأكد هذا حين نراه يقبل الأرض شكرا حين ينعم عليه عضد الدولة بشيء جزيل ، يستمر هذا النمط من الحياة الى أن تحدث الوحشة ، ثم الفرقة والعقوبة . وقد جرى ذلك على مرحلتين ، فكانت السخطة الأولى بسبب تسرب خبر ألقى يشير الى أن الملك بسبيله الى القبض على الصاحب بن عباد ، وقد أسند هذا التسريب الى القاضي التنوخي ، فجفاه الملك خمسة وأربعين يوما ، يشاركه المجلس دون أن يبادله كلمة أو يرفع اليه وجها ، والقاضي لا يجسر على الانقطاع أو مفاتحة الملك فيما نسب اليه ، الى أن يدافع عن نفسه ، ويعترف على نفسه بالوشاية بمن سبق أن اختلق الخبر وحمله عليه .

وكان القاضي التنوخي إبان قربه من عضد الدولة قد توسط في عقد مصاهرة بين الوزير الفارسي ، المتغلب ، والخليفة الطائع ، إذ تزوج الخليفة من ابنة الوزير ، ولكنه مع حبه لها وشغفه بها ، لم يحاول أن ينجب منها خوفا من تزايد الطامع الفارسية ، وقد فطن عضد الدولة الى معنى هذا الامتناع عن معاشرته ابنته ، فحدث القاضي التنوخي في الأمر ، وحمله رسالة الى الخليفة على لسان والدته الصبية بأنها مستزيدة لاقبال مولانا - الخليفة - عليها وأدناها اياها . « فقد كنت وسيط هذه المصاهرة . فقلت : السمع والطاعة ، وعدت الى داري لألبس ثياب دار الخلافة ، فاتفق أن زلقت ووثقت رجلي » والحق أن القاضي تمارض ، وتصنع حادثة الانزلاق ورض عظام رجله ، لعله تخوف من الدخول في مرحلة خصومة قادمة بين الخليفة المستضعف ووزيره القوي . والمهمة في ذاتها غير مشجعة ، وهي تختلف كثيرا عن الوساطة في عقد مصاهرة . وقد كشف أمر التمارض ، فصدر أمر الملك للقاضي أن يلزم بيته ، وعزل من جميع مناصبه ، وصودرت أمواله ، واستمر ذلك الى وفاة عضد الدولة (٢٩) . هكذا استحكمت الشدة ، التي انتهت الى « فرج » طال انتضاره ، وكان تأليف كتاب « الفرّج بعد الشدة » ، بمثابة نوع من العزاء أو طلب السلوان وتبديد قسوة الانتظار . وهذا يعني أن القاضي التنوخي ألف كتابه وقد جاوز الأربعين من العمر ، وأصبح صاحب تجربة ، ابتلى الحياة وابتلته الحياة ، وسنجد في كتابه هذا يتمتع بقدر عظيم من التسامح ورحابة الصدر ، ينم على حكمة وبعد نظر .

خرجنا لنستسقي بيمين دعائه وقد كاد هذب الغيم أن يبلغ الأرضا
فلما ابتدا يدعمو تقشعت السما فما تم الا والغمام قد انفضا

(٢٨) معجم الادباء ج ١٧ ص ١٠١ .

(٢٩) معجم الادباء ج ١٧ ص ١١٣ ، ١١٤ .

وقال متغزلاً :

أقول لها والحي قد فطنوا بنا ومالي على أيدي المنون براح :
لما ساء لي أن وشحتني سيوفهم وأنك لي دون الشوشاح وشاح

يقول الثعالبي في تقديمه للبيتين الأخيرين : « وأنشدني غيره له ، وأنا مرتاب له لفرط جودته وارتفاعه عن طبقة »^(٣٠) وهي عبارة دالة على منزلة التنوخي في الشعر ، أما موقعه ، أو موقع كتابه بين فنون النثر في التراث العربي ، فهو ما يحتاج الى عناية وتفصيل .

٣ - صورة كتاب :

نعتمد في التعريف بكتاب « الفرج بعد الشدة » على النسخة التي حققها عبود الشالجي ونشرتها دار صادر بيروت ، سنة ١٩٧٨ في خمسة أجزاء ، مجموع صفحاتها ١٩٧٧ صفحة من القطع المتوسط ، نالت المقدمة الضافية التي ألفها المحقق عن حياة التنوخي ومصادر كتابه والمخطوطات التي اعتمد المحقق عليها ، ثم الفهارس المقترعة في آخر الكتاب ، نالت نحو ثلثمائة صفحة ، وما بقي فإنه قسم الى فقرات متتابعة تحت أرقام أضافها المحقق مع عناوين من اختراعه ، تحاول أن تجمل موضوع كل خبر أو قصة ، أو موضع العبرة فيها . ويتفاوت امتداد كل فقرة ما بين بضعة أسطر ، قد تصل الى ثلاثة أو خمسة في حالات قليلة ، وقد تمتد الى عشر صفحات أو أكثر في حالات معدودة ، أما الغالبية العظمى من هذه الفقرات فتمتد ما بين صفحتين الى أربع صفحات . وبذلك انقسم الكتاب الى ٩٢ فقرة متتابعة من الجزء الأول الى آخر الجزء الرابع ، ثم كان الجزء الخامس ، وهو أصغر الأجزاء عدد صفحات ، وقد تضمن آخر أبواب الكتاب ومادته من المختارات الشعرية التي تنضوي - بشكل عام - تحت هدف « الشدة يعقبها فرج » وهذه المختارات عملاً مائة صفحة وتتابع دون ترقيم ، لتستأثر الفهارس ببقية هذا الجزء الأخير من الكتاب .

وقد أشار المحقق الى أول صلته بالكتاب ، ثم اعجابه به وبمؤلفه ، ذلك الاعجاب الذي حفزه على التوفر لتحقيق كتابه « النشوار » ثم « الفرج » وقد بذل في خدمتهما جهداً جديراً بالتقدير والثناء . أما بداية تلك الصلة فترجع الى نسخة مطبوعة نشرتها دار الهلال ، بمصر لم تنل رضا المحقق ، لما فيها - حسب قوله - من اختلال ونقص ، فضلاً عن حذف الأسانيد والتصحيح « وبالرغم من ذلك ، فقد أفدت منها ، اذ وجدت ما قد أثبتت بعض القصص التي سقطت من بقية المخطوطات الأخرى » (٨/١) ونحن لم نطلع على نسخة دار الهلال التي لم يذكر لنا تاريخ نشرها ، وإنما اطلعنا على نسخة أخرى نشرت قبل أن يقوم بتحقيق الكتاب بنحور ربع قرن ، قد أشير في صدرها أنها مأخوذة عن نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية ، وهي نسخة كاملة شاملة ، اذا استثنينا احتمال التحريف أو تصحيف بعض الكلمات ، وهي لم تنسب الى محقق ، وقد نشرت في جزئين مجموع صفحاتها ٥١٨ صفحة ، تابعت على ذات النسق الذي مضت عليه النسخة المحققة ، وليس من المحتمل أن عبود الشالجي لم يطلع عليها فقد قامت بنشرها بالمشاركة : مكتبة الخانجي

بالقاهرة ، ومكتبة المثنى ببغداد ، سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م وللكتاب من الشهرة ، وللناشر من الذبوع ، وللمحقق من الشغف الذي تحدث عنه ، ما يجزم بأن اللقاء مع هذه النسخة المنشورة التي أغفل الحديث عنها ، قد تم . ونعود الى محتوى الكتاب ، من خلال عناوين أبوابه .

قسم القاضي التنوخي مادة كتابه في أربعة عشر بابا :

- الباب الأول : ما أنبأ الله تعالى به في القرآن ، من ذكر الفرج ، بعد البؤس والامتحان .
- الباب الثاني : ما جاء في الآثار ، من ذكر الفرج بعد اللأواء ، وما يتوصل به الى كشف نازل الشدة والبلاء .
- الباب الثالث : من بشر بفرج من نطق قال ، ونجا من محنة بقول أو دعاء أو ابتهاج .
- الباب الرابع : من استعطف غضب السلطان بصادق لفظ ، أو استوقف مكروهه بموقف بيان أو وعظ .
- الباب الخامس : من خرج من حبس أو أسر أو اعتقال ، الى سراح وسلامة وصلاح حال .
- الباب السادس : من فارق شدة الى رخاء ، بعد بشرى منام ، لم يشب صدق تأويله كذب الأحلام .
- الباب السابع : من استنقذ من كرب وضيق خناق ، باحدى حالتي عمد أو اتفاق .
- الباب الثامن : من أشفى علي أن يقتل ، فكان الخلاص اليه من القتل أعجل .
- الباب التاسع : من شارف الموت بحيوان مهلك رآه ، فكفاه الله سبحانه ذلك بلطفه ، ونجاه .
- الباب العاشر : من اشتد بلاؤه بمرض ناله ، فعافاه الله تعالى بأيسر سبب ، وأقاله .
- الباب الحادي عشر : من امتحن من لصوص بسر أو قطع ، فعوض من الارتجاع والخلف بأجل صنع .
- الباب الثاني عشر : من ألجأ خوف الى هرب واستتار ، فأبدل بأمن ، ومستجد نعمة ، ومسار .
- الباب الثالث عشر : من نالته شدة في هواه ، فكشفها الله تعالى عنه ، وملكه من يهواه .
- الباب الرابع عشر : ما اختير من ملح الأشعار في أكثر معاني ما تقدم من الأمثال والأخبار .

بعد قراءة عناوين الأبواب ، ونظام تتبعها ، يمكن أن نكتشف أنها لا تخضع لاعتبار واحد ، ومن ثم فإنها لا تتكامل ، بقدر ما يمكن أن تتداخل . ان الأخبار والقصص والحكايات التي اختيرت لتأخذ مكانها في هذا الكتاب ، تم انتقاؤها على أساس من الشكل الفني : الشدة - الفرج ، وهو أساس سليم ، يعبر عنه بلغة الفن الأدبي بكلمتي : الأزمة - الحل . ومن هنا كان ينبغي أن يكون أساس التقسيم فنيا ، يعتمد على نوع الأزمة ، أو أسلوب الحل ، ولكن يبدو أن جانب « الموعظة » في هذه الأخبار القصصية كان الأكثر وضوحا في ذهن المؤلف للرابطة النفسية النابعة من التجربة الخاصة ، ومن جانب آخر فأننا لا نستطيع أن نحمل التنوخي صفة التقصير ، ولم تكن أمامه تجربة رائدة ، كما لم تكن قضايا المنهج مما يهتم له المؤلفون ، وسرى أنه حتى في إطار هذا التقسيم العام ، في داخل كل باب ، كان التداعي يقوم بالدرء الأساسي في تتابع الأخبار والقصص . قبل أي اعتبار آخر .

ان البابين : الأول والثاني استحقا الصدارة لمادتهما ذات الصلة بالقرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، وقصص الأنبياء السابقين . وقد تسلمت الى بعض هذه القصص أساطير اسرائيلية وغير ذلك دون أن تفقد حقها في الصدارة لمغازها الديني في نظر المؤلف وبصفة عامة فان فقرات هذين البابين ، وان دخلت تحت عنوان الكتاب - فإنها خارج طابعه العام ، فأكثرها أدعية واذكار تقال عند الشدائد ، أثرت عن بعض الأنبياء والصالحين والمكروبين من غير هؤلاء

وأولئك ، وكانت سببا في تبديد هذه الشدائد ، وليس من اليسر اعتبار هذه الأدعية والأذكار قصصا أو أخبارا حتى وإن ذكرت المناسبة في عبارات موجزة ، لا تشكل منها عملا فنيا تصويريا ، وهو الطابع العام لهذا الكتاب ومن جانب آخر فإن وسائل الفرج أو ظروفه في هذه المآثر ذات الطابع الديني كانت تسلكها في أبواب الكتاب الأخرى ، ولم يكن من داع لاستقلالها سوى هذه « القدسية » التي أسبغها المؤلف على هذا النوع من الأخبار .

لقد روعي في توزيع الأبواب سبب الشدة غالبا ، كما روعي أسلوب الخلاص منها في أبواب أخرى وأهمل هذان الاعتباران اكتفاء بمطلق الشدة أحيانا ، سبب الأزمة أو الشدة ، روعي في الأبواب الخامس والتاسع والعاشر والحادي عشر والثالث عشر في حين أن أسلوب الخلاص من الشدة قد روعي في اختيار مادة الأبواب : الثالث والسادس ، فإن التبشير بالفرج من نطق فال ، أو بعد منام ، ليس مما يدخل في علاقة السبب والمسبب . وهو ما روعي في أبواب أخرى هي : الرابع والسابع . وفي حين يراعى مطلق الشدة في الباب الثاني عشر ، وهو ما يعني أنه كان من الممكن توزيع مادته على أبواب سابقة ، فإن الباب الأخير ، بما اقتبس من أشعار يلمس بدرجة أو أخرى جميع أقسام الكتاب .

ومهما يكن من أمر العلاقة المنطقية المنهجية بين أبواب الكتاب فإننا لا نستطيع أن نوجه لوما إلى القاضي التنوخي ، لقد كان « الاستطراد والتذكر بالمناسبة » أسلوبا مقبولا لتأليف الكتب ، وبخاصة تلك التي تعتمد على الرواية والرواة ، فهذا التعويل الشديد على المشافهة والسماع يجعل المادة الكلامية في حالة من الاستقلال والتشابك في الوقت نفسه : الاستقلال بذاتها دون وقوف عند « موضع الشاهد » أو بيت القصيدة أو « العبرة » ، لأن الراوي لا بد أن يؤدي الخبر كما انتهى إليه بكل ملاساته ، ثم يأتي التشابك من خلال مسارب متعددة ، فقد يترسل الراوي نفسه في قصص أخرى لا يستبعد أن تخالف أو تناقض ما سبق أن رواه ، وقد تشبهه في المغزى وتختلف في الشخصيات التي صنعت الخبر ، أو العصر الذي تنتمي إليه . قبل التنوخي بقرن ونصف القرن تقريبا ألف الجاحظ كتابه الشهير « البخلاء » ، وهو محكوم بعنوانه مثل « الفرج بعد الشدة » ومع هذا فإن الجاحظ لم يبذل جهدا في تقسيم مادته حسب العصور أو البيئات أو أنواع السلوك التي يعتنقها البخلاء .

وبصفة عامة ، فإننا يمكن أن نتلمس الاعتبارات التي يرجح أن الكاتب وضعها موضع الاعتبار عن قصد أو مستهديا حسه الفني دون أن يقصد إلى ذلك قصدا .

أول هذه الاعتبارات : التدرج في تنمية الشكل الفني من البساطة إلى التعقيد ، ومن الإيجاز إلى الإطالة والاشباع ، ومن الغيبي الديني ، إلى الواقعي الاجتماعي . يبدأ بالأدعية والأذكار في مواطن الشدة التي تعرض لها الأنبياء ، من آدم إلى محمد عليه السلام ، ويغادر الأنبياء وقصصهم إلى من يلوذ بهم من الأولياء والصالحين . كما يغادر « المعجزة » إلى « الكرامة » ثم يمضي إلى المواجهة بين ذوي السلطان ومن يدور في فلكتهم من الوزراء والعمال أو المواجهة بين واحد من هؤلاء وشخص مغمور رفعت به الحوادث المستجدة إلى برائتهم فنجاه الله بموعظة أو كلمة صدق ، ثم يتدرج إلى قصص اللصوص وقطاع الطرق وحيلهم وما حاق بالناس من شرهم ، وحين يبلغ الباب قبل الأخير ، وقد عقده لقصص المحبين والعشاق فإنه يكون قد بلغ أعلى درجات التركيب الفني جودة ، كما يتمكن من اتخاذ قصة الحب هذه وسيلة إلى

الغوص في حياة المجتمع - بكل طبقاته تقريبا - والغوص الى أعماق جديدة في النفس الانسانية لم يبلغها في قصصه السابقة .

الاعتبار الثاني : استدرار المادة القصصية بطريق التداعي ، وقد أشرنا الى هذا الجانب منذ قليل ، فعلى الرغم من توزيع مادة الكتاب في أبواب ذات عناوين تحاول أن تكون محددة - وهذا ما لم يتحقق - فإن التداعي داخل قصص الباب الواحد قد لعب الدور الأساسي في ترتيب هذه القصص ، للأسباب التي أسلفنا ، ونتيجة لذلك فإن طابع « المسامرة » قد غلب على الكتاب وقد كانت « المسامرة » - التي يفضل القاضي التنوخي أن يدعوها « المذاكرة » مصدرا رئيسيا لامتداده بالقصص في مجلس أبيه ، وقد ترددت هذه العبارة في صدر عدد من قصصه : « حدثني أبي في المذاكرة ، من لفظه وحفظه ، ولم أكتبه في الحال ، وعلق بحفظي ، والمعنى واحد ، ولعل اللفظ يزيد أو ينقص » بل انه ينص على هذه المذاكرة في عنوان كتابه الآخر « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » .

ويمكن أن نحصر أنواع التداعي التي استخدمت في ترتيب القصص في الآتي :

أ - تداع مصدره شخصية « البطل » الذي يدور الخبر من حوله ، مثل ذكره لأبيات دلس بها الشاعر البحري علي « المعتر » في سجنه قبل أن يصير خليفة (١١ / ٢) فتستدعي أبيات البحري الى خاطره أبياتا أخرى قالها لشخص آخر وقع في شدة ، وذلك هو أبو سعيد الثغري الذي سجنه المتوكل وصادر أمواله ، فتألم له البحري في أبيات ، كان وصولها الى أسماع المتوكل سببا في اطلاق الثغري من حبسه ، وتوليته (١٦ / ٢) ثم يقول في الخبر التالي : « ومن محاسن شعر البحري ، الذي يتعلق بهذا الباب ، وان كان تعلقا ضعيفا ، الا أن الشيء بالشيء يذكر ولا سيما اذا قاربه » ، ثم يأتي بأبيات للبحري قالها مهنثا ابراهيم بن المدبر حين فرج الله شدته ، بعد أن سقط في أسر الزنج ، وتمكن من نقب السجن والحرب (١٨ / ٢) ونستطيع أن نقول ان التداعي الذي يرجع الى شخصية البطل لم يستخدم كثيرا ، والقصص والأخبار الخاصة بالرشيد ، والحجاج ، والبرامكة ، والمنصور ، والمأمون ، على كثرتها النسبية ليست متتالية ، وأحيانا ليست متقاربة اذ احتكم فيها الى اعتبارات أخرى .

ب - تداع مصدره شخصية الرواي ، أو الكتاب الذي ينقل عنه ، وبالنسبة لشخصية الراوية فانه نقل كثيرا عن الصولي ، كما تتكرر عنده سلسلة الرواية عن أبي قيراط ولديه (٤٣ / ٢) و (٥١ / ٢) و (٥٢ / ٢) . وقد يحدث أن يعتمد على النقل من مصدر واحد قصصا متتابعة ، وبخاصة حين يكون هذا المصدر محدد الموضوع ، ومن ثم يمكن أن تتجمع قصصه وأخباره في اطار معنى واحد . وقد حدث هذا كثيرا عند النقل عن الجهشيارى (٣٤٦ / ٢) و (٣٥١ / ٢) و (٣٥٥ / ٢) و (٣٥٧ / ٢) وجدير بالذكر أن المصدر واحد ، وهو كتاب الوزراء والكتاب ، والموضوع واحد أيضا ، حسب ما شرط على نفسه في توزيع الأبواب ولكن البطل مختلف في كل قصة ، بل ان الموضوع يختلف كثيرا اذا دققنا في مغزاه وتركيبه ويحدث الأمر نفسه عند النقل عن المدائني (انظر مثلا القصص في الصفحات : ١ / ٣٩٦ - ٣٩٧ / ١ - ٣٩٨ / ١) ولا نستطرد في هذا الجانب الواضح ، أما تداعيات الراوية أو السلسلة من الرواة فانها أقل تأثيرا ، بالاضافة الى أبي قيراط ، يمكن أن نجد قصصا متتابعة من رواية : يحيى بن فهد الأزدي (١٦٦ / ٤) وسعد بن محمد الأزدي ، الشاعر المعروف بالوحيد (٤ / ١٧٧ - ٤ / ١٨٠ - ٤ / ١٨١) وعبد الله بن محمد الصروي ، كما تكررت سلسلة : علي بن أبي الطيب ، عن ابن الجراح ، عن ابن أبي الدنيا ، متقاربة ومتباعدة .

ج - تداع مصدره المغزي الدقيق للحادثة ، أو المعنى اللغوي لها ، من النوع الأول ما حلم به الاسكندر الأكبر ، اذ رأي في منامه كأنه صارع دارا - ملك الفرس - فصصره دارا ، فكر به ذلك وزاد همه ، ولكن عبارة الرؤيا أشارت الى أن الاسكندر هو الذي سيطفر بخصمه وقد قال له بعض فلاسفته معللا : « أبشر أيها الملك بالغلبة والنصر ، فانك تغلب دارا على الأرض : لأنك كنت تليها لما صرعتك (٢ / ٣١٥) ويستدعى هذا رؤيا رآها عبد الله بن الزبير ابان صراعه مع عبد الملك بن مروان ، فصصر عبد الملك ، وسمره في الأرض بأربعة أوتاد . وقد فسر ابن سيرين هذه الرؤيا بانتصار عبد الملك ، للأسباب ذاتها التي أعلنها الفيلسوف اليوناني (٢ / ٣١٦) ويزيد تفصيلا أن الأوتاد الأربعة هم أولاد عبد الملك الأربعة الذين يرثون ملكه من بعده . ويستدعى هذا حلما ثالثا بنفس المعنى وان اختلف الشكل (٢ / ٣١٨) .

أما التداعي اللغوي فنجد ماثلا في حادثة الخلع الثاني للخليفة المقتدر ، يروى فتذكره بخلع الأمين ، مع فارق في الدوافع والنتائج ، يستدعى منه أن يعود الى حادثة الخلع الأول للمقتدر (٣ / ١٩٣ - ٣ / ١٩٨ - ، ٣ / ١٩٩) .

الاعتبار الثالث : الاهتمام بتوثيق المادة المروية ، سواء كانت تاريخا مرويا أبطاله أشخاص معروفون ، او كانت مجرد أخبار عن نكرات من عامة الناس ، أو كانت حكايات وضعت لسبب أو لآخر ، كالوعظ والتعليم ، وظلت واضحة الاختراع والوضع برغم ذلك .

لقد حرص القاضي التنوخي على تسجيل كيفية وصول الخبر أو القصة اليه ، ومن هنا كثرت ترديد كلمات : حدثني ، أخبرني ، حدثنا ، أخبرنا ، اذا ما كانت المشافهة والسماع طريقة التوصيل ، وكلمات : وجدت بخط القاضي أبي جعفر (١ / ٣٣٣) ، وقد ذكر محمد بن داود في كتابه المسمى كتاب الوزراء (٢ / ٢٦٤) ، وما الى ذلك من عبارات تؤكد صلته المباشرة بالمصدر الذي نقل عنه . وسنعود الى هذه النقطة بشيء من التفصيل حين نناقش مصادر المؤلف .

الاعتبار الرابع : أن المؤلف التزم بحدود العنوان الذي اختاره لكتابه ، ومع معرفتنا بتكوينه الثقافي الذي تغلب عليه طبيعة الفقيه ، ونشاطه العمل الذي لا بد أن يكون قد اصطبغ بصبغة القاضي ، فانه لم يحتكم الى فقهه أو قضائه في انتقاء مختاراته من الأخبار والقصص والحكايات الشعبية ، لقد كان يخفي حسا فنيا رجبا ، يهش لروعة المفاجأة ويستجيب لمواطن المفارقة ، ويتجاوب مع الفرح بالحياة ، سواء اتفق هذا مع جد الحياة ، وعدالة السلوك والحكم أو ناقضه ، وربما دلت الأبيات القلائل التي اقتبسناها له على شيء من ذلك ، ومن الواضح أن قبوله منادمة مشاهير عصره ، وبخاصة عضد الدولة ، وقبول أن يكون شاهدا لما في هذه المجالس من مخالفة ما ينبغي التزامه ، حتى وان لم يشارك في الفعل ، يدل على هذا التسامح السلوكي ، ولا بد أنه كان يستجيب بطبعه الى هذه الحياة ، وقد ذكر في « الفرج بعد الشدة » قصة صاحب الشرطة الذي رفض أن يكون نديما للخليفة ، لأن هذا يناقض طبعه وانضباط مهنته ، وبعد جفوة قصيرة ، قبل منه الخليفة هذا التفسير ، بعبارة أخرى : لو أن القاضي التنوخي لا يملك رغبة دنيئة في تذوق مباحج الحياة ومشاهدة مسراتها ، ما استطاع أحد اكراهه على ذلك .

هذه صورة شديدة العمومية للكتاب ، تحتاج الى أن نعود الى تأمل نواحيها بشيء من التفصيل .

(٤) حس الفنان

لم يكن القاضي التنوخي مبتدع عنوان « الفرج بعد الشدة » ، فهو مسبوق اليه ، كما سنرى ، ومع هذا فإن هذا الاختيار لعنوان كتابه ، يبدو وكأنه صادر عن نفسه ، معبر عن رؤيته لنظام الكون ، ونظام الحياة . لقد اجتاز محنة شخصية كانت هي الدافع المباشر لتأليف الكتاب ، ولكننا نعرف أن « نقطة التحريك » التي تدفع كاتباً ما الى الاهتمام بموضوع معين ، لا تعنى بالضرورة أن تظل هذه النقطة أو هذا الحافز الشخصي ، يظل مسيطراً على أفكار المؤلف ، والا لتشابهت الكتب ذات الموضوع الواحد ، أو الحافز الواحد . سيعود الأمر الى حجم ذخيرة المؤلف من المعرفة ، ومدى انفساح عقله وروحه للموافقة أو المخالفة ، ودرايته الفنية بأساليب القول ، وقدرته على استبطان ما هو ظاهر ، والغوص الى الرموز والدلالات . وفي كل هذه الجوانب ودون أن نعلم الى الموازنة التفصيلية بين ما كتب التنوخي وما كتب سابقه في إطار الفرج بعد الشدة ، قدم التنوخي من براهين اتساع الأفق ، والقدرة على الغفران ، وإلحاح على الضعف الانساني ومجانبة التزمّت والعنف ، ما يؤكد امتلاء نفسه بحس الفنان واستنارة بصيرته ، حتى ان ذلك كان يؤدي به أحياناً الى الخروج عما شرط على نفسه في عنوان كتابه ، وإلى مجانبة الجد ، بل مناقضة الهدف الأخلاقي الذي حرص عليه أحياناً ، وأهمله أحياناً ، من زاوية أن « الأخلاق » ليست شرطاً للفن الجميل ، وهذه مقولة لم يتدعها القاضي التنوخي ، وقد عرفت قبل عصره فرددها الجاحظ في كتاباته ، وبخاصة في « المحاسن والأضداد » وافتتح بها محمد بن سلام الجمحي كتابه « طبقات فحول الشعراء » (٣١) ، ثم نص عليها قدامة بن جعفر صراحة (٣٢) وهو يكاد يكون معاصراً للقاضي التنوخي (توفي قدامة سنة ٣٣٧ هـ) فلا نستغرب أن نجد هذا القدر من « التسامح » في الكتاب ، فهو - على أية حال - مسبوق بتسامحه السلوكي ، النابع من احساس الفنان ، ورجل الحاشية معا ، لقد أقتنع القاضي التنوخي بأن وراء كل شدة فرجا « ان الله بحكمته ، أجرى أمور عباده ، وأغذيا نعمته ، منذ خلقهم ، وإلى أن يقبضهم ، على القلب بين شدة ورخاء ... علما منه تعالى بعواقب الأمور ، ومصلحة الكافة والجمهور (١ / ٥٤ ، ٥٥) .

ان الأساس الغيبي القدري ثابت عند المؤلف ، فالفرج من الله سبحانه وهو يسبب الاسباب ولهذا يبدأ كتابه بآيات اليسر الذي يقاوم العسر ، ومن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ثم يثنى بما ابتلى به الأنبياء من محن ، وكيف ذهب الكيد البشري هباء حين أرادت السوء أن تنصر رسلها ومع هذا فإن المشاركة الانسانية في رفع البلاء عن المكروبين من القيم الدينية الثابتة ، فاذا جاء الحديث الشريف بأن : « أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل » (١ / ١١١) فقد نص حديث آخر على أن : « من ستر أخاه المسلم ستره الله يوم القيامة ، ومن نفس عن أخيه كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، وان الله في عون العبد ، ما كان العبد في عون أخيه » (١ / ١٢١) ويعد اقرار هذين المبدأين : أن الفرج من الله ، وأن هذا لا يعنى الانسان من مشاركة الآخرين في التغلب على صعابهم يسجل القاضي التنوخي رسالة الشاعر أبي الفرج البيهقي التي أرسلها اليه ابان محنته حين صرفه عضد الدولة عن جميع

(٣١) طبقات فحول الشعراء - المقدمة ، وانظر : مقدمة في النقد الادبي ص .

(٣٢) في كتابه : نقد الشعر ص ٦٥ .

وظائفه واعتقله في بيته ، وفيها يكشف عن قانون كوني لا فكاك منه ، هو دورة الكون والفساد ، وتلازمهما ، فلكل شيء إذا ما تم نقصان ، لهذا من حقنا أن نغبط عند احتكام الأزمة ، واشتداد الضائقة إذ ليس بعد ذلك الا الفرج « لأن انتهاء الشيء الى حده ، ناقل له عما كان عليه الى ضده ، فتكاد المحنة بهذه القاعدة ، لاقتراثها من الفرج بفسيح الرجاء ، وانتهاء الشدة منها الى مستجد الرخاء ، أن تكون أحق بأسماء النعم » (١ / ١٥٣) .

ثم ينتقل المؤلف الى اضافة أخرى ، يعالج بها مرحلة « التوقع » للشدة ، وهي عادة تسبق مرحلة « الوقوع » فيها ، وهو يرفضها من منطلق فلسفي يعتمد على مبدأ « الاحتمال » فما دام وقوع الشدائد مجرد احتمال ، لا يرتفع الى درجة المستحيل الوقوع ، ولا الى المحتم الوقوع فان نسبة الحدوث تتساوى ونسبة عدم الحدوث ، ومن هنا « لا يغلبن على قلبك ، اذا اغتممت ما تكره دون ما تحب فلعل العاقبة تكون بما تحب ، وتوقى ما تكره ، فتكون كمن يستسلف الغم والخوف (٣٣) .

ثم تكتمل رؤية القاضي التنوخي بربط الفعل البشري بالارادة الالهية فاكتمال هذه الارادة ونفاذها لا يعنى تعطيل الفعل البشري أو عبث السعى عن حل لما يعاني الانسان ، فهناك دائما دور أساسى للفكر الانساني ، والفعل الانساني ، والحيلة الانسانية ، واذا بذل الانسان جهده كله في البحث والمحاولة ، فانه لا بد واجد وسيلة ، فاذا عجزت الوسائل ، فانه لم يعد أمامه الا انتظار الفرج من الله تعالى . (١ / ١٦٣)

هذا - اذا - الاطار العام الذي تحرك فيه معنى الشدة ، وجهد الانسان في البحث عن مخرج ، أو عن « فرج » يقاوم به معاناته ، ولانه أعطى الجهد الانساني دورا أساسيا فان هذا الجهد ، من حيث يحتكم الى فطرته الخاصة ، وتجاربه السابقة وأسلوبه في العمل ومستواه في التفكير ، وطبيعة المجتمع الذي يتحرك بين أقطاره ، يمكن لهذا الجهد أن ينساق الى أعمال وأقوال ، تبتعد - بدرجة أو باخرى - عن مفهوم الفرج الالهى ، الذي ينتظر - عادة - هناك ، في نهاية المطاف ، عندما تعجز كل الوسائل البشرية ، ومن ثم يمكن لهذا الجهد أن يقع في مخالفات دينية واضحة ، وهفوات سلوكية لا خلاف على خطئها ، ومجانبة للعفة والنزاهة والصدق . والجدير بالتأمل حقا أن القاضي التنوخي قد سجل ست عشرة قصة ، أو خبرا من هذا النوع ، دون أن يرفقها بأي تعليق يظهر ما تقوم عليه من تناقض أو مغالفة ، وهنا لم يكن فقيها يبحث في الحلال والحرام ، وما يجوز وما لا يجوز ، ولم يكن قاضيا يعني باصدار الاحكام على كل ما يشاهد من أفعال ، وما يسمع من أقوال ، لقد كان فنانا وحسب . كانت الحاسة الفنية تؤدي واجبها في التقاط الحادثة النادرة ، وتسجيل الحوار المتسم بالذكاء والالمية ، واصطياد الحل المفاجيء غير المتوقع وتحليل المواقف الطريفة ، دون أن يشغل نفسه باصدار الاحكام الاخلاقية على هذا كله ، أو على شيء منه ، وجدير بالذكر أن هذا النوع من القصص والاخبار ينتشر على مساحة الأجزاء الأربعة الأولى ، المخصصة للقصص والأخبار ، وهذا يعنى رسوخ الايمان الفني والاقتناع بالمفهوم العملي للفرج ، هذا المفهوم الذي ينهض على التصور الاجتماعي لمعنى جلاء الهم ، وكشف الغم ، بصرف النظر عن طبيعة هذا الهم ، والأسلوب الذي اتبع في كشفه .

أول ما نصادف من قصص هذا النوع ما نقله عن بعض الكتب : أن رجلين أتى بهما الى بعض الولاة ، وقد ثبت على أحدهما الزندقة ، وعلى الآخر شرب الخمر . فسلم الوالي الرجلين الى بعض أصحابه ، وقال له : اضرب عنق هذا ؛ وأشار الى الزنديق ، وحد هذا وأشار الى الشارب .

وقال : خذهما

فلما ذهب بهما ليخرجا ، قال شارب الخمر للوالي : أيها الأمير ، سلمنى الى غير هذا ليقيم عليّ الحدّ ، فلست آمن أن يغلط فيضرب عنقى ، ويحدّ صاحبي ، والغلط في هذا لا يتلافى .

فضحك منه الأمير وخطى سبيله ، وضرب رقبة الزنديق (١ / ٣٣٨) .

ومثل ذلك ما يروى في خير آخر ، أن رجلا قامت عليه البيعة بالسرقة ، ووقف أمام عبد الملك بن مروان ، ليأمر باقامة الحدّ عليه ، فأمر بقطع يده . فأنشده الرجل بيتين ، يتحسر على يده ، ويبتهل الى عبد الملك أن يعفو عنه ، فكان رد الخليفة : هذا حد من حدود الله تعالى ولا بد من اقامته عليك .

وهنا تكلمت أم المحكوم عليه ، وهي كبيرة السن ، تستعطف أمير المؤمنين لابنها الذي يعولها وانه ابنها الوحيد ، وتسأله أن يهبه لها . ولكن قلب الخليفة لم يلن لرجاء العجوز ، ووصف ابنها بالسوء ؛ وأنه لا بد من اقامة حدود الله عز وجل .

وهنا قالت العجوز : يا أمير المؤمنين ، اجعله من ذنوبك التي تستغفر الله منها ، وهنا أمر عبد الملك باطلاق الفتى والعفو عنه (١ / ٣٧٥) .

في هذين الخبرين يعطل حد شرعى ، في مقابل المفارقة اللاذعة ، والنكتة المحبوكة التي لجأ اليها السكران في الخبر الاول ، ولروعة التعبير وقدرته على تحريك مخاوف الانسان ، وبخاصة من يتصدى للحكم ، ويعرف أنه ليس معصوما عن الخطأ ، ولعله ظلم أو أخطأ من قبل ، وأنه لا بد قد اقترف ذنوبا أعظم من « خطيئة العفو » عن ولد وحيد يعول أمه العجوز ، في الخبر الثاني .

أما أعشى همدان ، وكان من شعراء الكوفة وفقهائها في زمن الحجاج ، فقد غزا مع الجيش الاسلامي بلاد الديلم ، فوقع في أسرهم مدة ، وحبس في بيت المقاتل الذي أسره ، وكان لهذا الديلمي بنت ، رأت الأعشى ، فهوته ، وتسلمت اليه ليلا ، فكان ما كان بين الأسير والفتاة وأعجبها ، فعرضت عليه أن تعاونه على الهرب . على شريطة أن يأخذها معه ، ويصطفئها لنفسه وهكذا هرب أعشى همدان (٢ / ١٢٢) .

أما ابن الموصول ، وهو بزاز (تاجر حرير) من حلب ، فقد حبسه سيف الدولة لضرائب كانت متأخرة عليه ، وكان ابن الموصول حاذقا في تفسير الاحلام ، ومن ثم اخترع لنفسه حلما ، تفسيره أنه لا بد أن يطلق من حبسه هذا اليوم وعلى الفور طلب مقابلة سيف الدولة ، وحكى له رؤياه الملققة ، وفسرها بين يديه بأنه يجب اخراجه من الحبس في نفس اليوم ، فقال له الأمير :

أحسن التأويل ، والأمر على ما ذكرت ، وقد أطلقك ، وسوغتك خراجك في هذه السنة فخرج الرجل يشكره ، ويدعوله ^(٣٤) . (٢ / ٢٢١) .

وفي قصة طويلة نجد مناما آخر ، حلم به الخليفة العباسي المعتمد على الله ومضمونه أنه رأى النبي عليه السلام في المنام ، وأنه أمره بإطلاق سراح رجلين مظلومين في سجنه ، فاستيقظ من غفوته وأمر بإطلاقهما ، وسمع منها أسباب حبسهما ، وعرف أنها مظلومان . لاغرابة في أن يرى انسان ما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في منامه ، ولكن الغرابة أن الخليفة قبل أن يغفو كان جالسا بين ندمائه يسمر ، فحمل عليه النبذ ، فجعل يخفق برأسه ناعسا (٢ / ٢٤١) فكما نرى فانه في حال لا يصبح معها أن يرى رسول الله في منامه . والمثير للتأمل أن القاضي التنوخي يورد القصة ذاتها برواية أخرى ، ويكون هاتف المنام فيها رجلا مجهولا وليس النبي عليه السلام ، وفي هذه الرواية الثانية يوصف خليفة المسلمين بأنه كان كثير الشراب وانه اذا شرب يعربد على جلسائه ، وأنه في الصباح ، حين ذكر امامه اطلاق سراح الرجلين المحبوسين لم يذكر شيئا مما أمر به وهو تحت تأثير الخمر ، والقاضي التنوخي يسجل الروایتين دون ان يشكك في صدق رؤية النبي في الاولى ، أو بعد الاحتمال في الثانية . ان الفرع قد أدرك السجن ، وهذا هو جوهر الموضوع ، هكذا تتعدد المواقف الذي يسرع فيها « الفرع » لمن لا يستحقه كجائزة على سلوك أخلاقي ، أو اعتقاد صالح ، أو صبر جميل ، أو بذل طيب . ان الفرع - فيما تقدم - ثمرة ذكاء يختلق ، أو يلفق أو يمتال ، أو يتوهم ، وهو في هذا كله يصدر عن سلوك نفعي ، وموقف انتهازي ، ومن أحسن الاحوال ، أو هام الغيبوية . ونجد في قصص أخرى ما هو أشد مناقضة لمعنى الفرع مما تقدم ، ففي أسوأ التصورات لا نجد أحدا ممن تقدم قد أنزل الضرر بشخص آخر ، وان حصل لنفسه منفعة عاجلة ، أو أزال عنها خسارة متوقعة . أما النماذج التي سنعرض لها الآن ، فانها تصرخ بالتعجي على برىء ، واختلاس حق ضحية بلا جريرة ، والتعدى على حرمان تستحق أن تصان ، وتصان أعراض أصحابها . فهذا ابن قمي ، مجلد الكتب بالموصل ، يأخذ دفترًا لتجليده لأحد القادة الأشداء ، الذي يسرف في توصية ابن قمي بالحرص على الدفتر ، لكنه يسقط في الماء عند قيامه بالوضوء من النهر ، فيدركه وقد ابتل ، ولا يجد مفرا من أن يجلبده ويحاول ستر ما حدث دون جدوى ، ويعزم على اعطاء الدفتر لحارس الباب ، والانصراف والهرب قبل ادراكه ، لكن حارس الباب يعلمه أن القائد بالداخل ، والافوق أن يقدم له الدفتر بنفسه ، وهكذا أسقط في يده وتوقع شر عقوبة . ولكنه حين أدخل وجد القائد الشرس يجلس في صحن القصر أمام بركة ماء . وأخرج ابن قمي الدفتر من كفه وناول له لأحد الغلمان ، ولكنه سقط من يد الغلام في البركة أمام عيني سيده ، الذي أنزل بالغلام المسكين عقوبة الضرب بالمقارع ، لأنه أفسد دفتره العزيز !! (٣ / ٦٧) فأى فرع ، وأي ظلم ؟

وتتكرر قصة من تسوقه ظروف قاسية الى مكان موحش ، فيجد فيه لصوصا وقتلة ، قد قتلوا نفوسا بريئة ، وسرقوا مالا حراما ، فيغافلهم ويهرب بمسروقاتهم ، ويظهر في مكان آخر وقد صار من الأثرياء ، دون أن يطرف له رمش ، ودون أن يطلق المؤلف في أعقابه عبارة تعجب ، فضلا عن استنكار (٣ / ٦٩ ، ٤ / ٢٥٠) بل أن منتهب قاطع الطريق ، وقد استولى على كل ما خبا يقول بلهجة نستطيع أن نجد نغمة المباهاة في تركيبها : « وفزت بمال عظيم أغنائي عن مقصدي وعدت الى بلدي » .

(٣٤) ومثل ذلك ما يذكره في مكان آخر ، أن أحدهم زور مناما فجاء مطابقا للحقيقة (٣ / ٢٨) .

ولا يختلف عن ذلك كثيرا ما فعله ابن عبدون الانباري الكاتب ، وقد خرج من بغداد لا يجد قوت يومه ، ثم تسوقه الظروف الى مصر ، ابان ثورة أقباطها في عصر المأمون ، فلما جاء جيش الخلافة هرب كثير من الأسر ، ثم منحوا الأمان ، وجنى ابن عبدون من رشايي بذل الأمان « في ليلة واحدة ، مائة ألف دينار حلالا طيبا » (٨٣ / ٣) أما سلامة القس فقد استمعت الى نصيحة ابن أبي عتيق ، وتمكنت من الغاء قرار عثمان بن حيان المرى ، والى المدينة ، بتطهيرها من الغناء والزنا ، فبقى كل شيء على حاله ، وكان الفرج (٨٩ / ٣) وحين نصل الى قصص عشاق العرب فان الفرج سيكون أبدا ماثلا في خداع الزوج ، أو الضمير العام ، وتمكن العاشق من بلوغ مرامه من معشوقته فالأشتر يعشق جيداء ، وهي زوجة ، ويضرب لها موعدا عند الشجيرات ، « ولقيها فقبل بين عينيها » وقررت أن تقضى ليلتها معه وتخدع زوجها عن غيابها ، فترسل بصديق عشيقها وقد ارتدى ثيابها ونام في فراشها الى الصباح ، وجازت الخدعة على الزوج الضحية ونعم الحبيبان بليلة ليس فيها رقيب ، أما الأسدى الذي هوى امرأة من همدان بالكوفة فإنه أثار قلق جيرانها ، فراقبوه ، حتى اذا دخل عندها اقتحموا المكان ليضبطوه متلبسا ، ولكن هيهات ، لقد جاءه الفرج بطريقة غير متوقعة ، كانت المرأة بدينة جدا ، فوضعت حبيها ويبدو أنه كان على العكس منها ضيلا جدا ، خلف ظهرها « فأدخلته بينها وبين القميص ، ولزمها من خلفها » وبهذا لم يعثر عليه .

وتتكرر فعلة الأشتر وجيداء والزوج المخدوع ، مع جميل وبثينة وزوجها ، غير ان الحبيين يلتقيان في خيمة بثينة ، وراحا يتحدثان وهما مضطجعان ، وذهب بهما النوم حتى أصبحا ، ورأهما خادم الزوج الذي ما لبث أن أبلغ سيده بما عاين ، ولكن حيل العشاق لا تغلبها معاينة ولا ملاينة !! .

لقد حاول القاضي التنوخي أن يضع في سياق قصص العشاق ما يوحي الى القارىء بأنها لم تنفض الى ارتكاب محرم ، أو الى الزنا على وجه التحديد ، فالأشتر يقبل بين عيني جيداء ، ثم يقطعان الليل في الحديث والشكوى ، وجميل لا يخلو ببثينة في خباياها ، فمعها أم الجسير صديقتها ، ومادام معها ثالث فليس باستطاعة الشيطان ان يكون رابعهما !! (٤ / ٣٥٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣) هذه محاولات سقيمة ، تريد أن تخفف مما يظهر في هذه القصص من حرية السلوك العاطفي ، وجرأة العشاق - رجالا ونساء - في كل العصور ، وعلى كل المستويات . ومهما حاول القاضي التنوخي أو غيره من عنى بقصص الحب أن يحمل الواقع بشيء من توشية الخيال فان الصورة ستبقى نابضة بصدق ما كان ، لأنه ما يكون ، وما سيكون من صراع الهوى والارادة ، وتعاكس الشرعية والتمرد ، في كل العصور . وسيبقى القاضي التنوخي جديرا بصفة الفنان الصادق ، ذي الحس الملهم حتى وان غمز ذلك في فقهه وقضائه !! ومهما يكن من أمر ، فاننا لم نذكر ذلك لنقدح في نزاهة القاضي التنوخي أو دينه ، والواقع الذي وصفناه مستمد من كتابه ، وهو يحسب له ، لا عليه .

ومن قبل ألف الفقهاء في الحب والعشق بدءا بمحمد بن داود الظاهري ، وهو قريب عهد بالقاضي التنوخي (توفي سنة ٢٩٦هـ ، أي قبل مولد التنوخي بثلاثين عاما) ومن بعده ألف فقهاء لا يقلون شهرة بالعلم والنزاهة عن ابن داود ، مثل ابن حزم ، صاحب « طوق الحمامة » (توفي ٤٥٦هـ) وابن قيم الجوزية ، مؤلف « روضة المحبين ونزهة

(٣٥) عن هذه النزعة الانسانية المتساعفة ، راجع : الحب في التراث العربي .

المشتاقين» (توفي ٧٥١ هـ) وغير هؤلاء من أكابر الفقهاء الذين لم يصرفهم فقههم ، ولا أوقعهم في الحرج ، عن وصف حالات الانسان ، وجموح العواطف وثورة الغرائز ، ان هذه احدى الانجازات العظيمة للحضارة العربية الاسلامية ، أنها اتسعت للبحث في الانسان ، بما هو انسان ، وليس في حدود اطار مفترض ، فلا غرابة في أن يتسع مدلول «الفرج» عند القاضي التنوخي ، ليعبر عن انقشاع نازلة عن مكروب ، مهما كان كربه ، ومهما كانت النازلة ، فهو انسان أولا ، وانسان أخيرا ، وأله ألم انساني يستحق أن نأسى له ، وأن نفرح بزواله ، بصرف النظر عن دواعيه .

(٥) المصادر

تكتسب قضية المصادر التي استمد منها القاضي التنوخي مادته الاخبارية والقصصية أهميتها البالغة من ثلاث جهات :

الأولى تعود الى «التوثيق» فمن الواضح أن الشعر العربي قد نال النصيب الأوفى من اهتمام الرواة واللغويين والنقاد ، وتعلقت بركابه الخطب والوصايا وما أشبه ذلك من الأقوال المأثورة في حكم وأمثال . أمثال القصص ، التي تنوعت مستوياتها واستخداماتها للوعظ والتعليم والمسامرة ، فانها ظلت بعيدة عن اهتمام المشتغلين بالثقافة ، وكانت أهم دعاوهم في تحليل هذه الجفوة أن القصص تروى بالمعنى العام ، ويزيد فيها كل راوية ما يراه مؤثرا على جمهوره ، مفيدا للغرض الذي يتوخاه من قصته ، وحين تنعدم الثقة في موضوعية النص الأدبي ، ويتسرب الشك في نسبته الى صاحبه ، واكتمال صيغته ، فان الموقف النقدي يفقد مبررات الخطوة الأولى نحو الدراسة الفنية ، ومن ثم يكتفي بإشارة هنا ، وكلمة هناك ، عن القصص ، ونادرا ما يشير الى القصص ، فضلا عن الاستعانة بلغتها ، أو تحليلها فنيا .

كما أن حصر هذه المصادر - ما أمكن ذلك - يعتبر كشفا عن الاطار العام الذي تتحرك فيه ثقافة الكاتب ، ومدى ما فيها من تنوع أو انحصار ، وعلاقة ذلك بثقافة العصر ، وتوجهها العام ، وما يحمل هذا التوجه من دلالات على واقع الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية .

أما الجهة الثالثة فهي ما ثلث في نوع الصلة بين هذا الكتاب ، والمصادر التي اعتمد عليها المؤلف في تكوين مادته ، فهل هو تكرار لما سبق قوله ، أو هو تجميع لما قيل في أكثر من مجال أو أنه تطوير لفكرة ، وتنمية لمنهج ، وتعميق لاتجاه قد وجد من قبل ؟

لقد حرص القاضي التنوخي على ذكر المصدر الذي أخذ عنه الخبر أو القصة ، أو حتى تلك الحكايات الشعبية التي يصعب اسناد تأليفها الى شخص معين . لم يهمل ذلك مطلقا .

ويمكن حصر مصادره في نوعين أساسيين : السماع والمشاهدة والنقل عن وثائق مكتوبة في شكل كتب وصحائف معلومة المؤلف أو مجهولة . لقد ظل التلقي المباشر عن طريق السماع والمشاهدة أي الرواية مصدرا أصيلا لتناقل المعرفة طوال قرون ، وكانت الرواية الشفهية أدعى الى الثقة وتجنب الخطأ من الكتابة ذاتها ، ومع أن التأليف الكتابي قد توسع

منذ بداية القرن الثالث الهجري فانه استبقى احدى دعائم المشافهة الاساسية ، وهي ذكر السند ، أو « العنونة » ، عافظا على هذا التقليد الذي بدأ دينيا ، هدفه الحرص على دقة الحديث النبوي . وقد روى القاضي التنوخي عن أربعة أنواع من الرجال : عن أبيه وجلساء أبيه من مشاهير العصر ، وبخاصة في الفترة المبكرة التي قضاهما في البصرة ، وعن بعض من أخذ من كتبهم ، ولكنه عاصرهم ، ولعله رأى أن يختبر بعض ما كتبه على ضوء ما يحدثونه به ، وعن بعض محترفي القصص في عصره وسنرى دلائل تشير الى أن بعضا من هؤلاء كان مختصا برواية نوع معين من القصص أو الحكايات وعن نكرات لم يجددهم ، حتى وإن كانت سلسلة الرواة معلومة النهاية إلا أنها تبدأ من مجهول .

وفما يختص برواية المحسن عن أبيه القاضي أبي القاسم علي التنوخي ، فإن عبارة : « وحدثنني أبي في المذاكرة من لفظه وحفظه » تتكرر مرات ، وقد يتحدث الأب من وحى تجربته الخاصة ، ومن ثم لا مكان للذكر سند ، مثل حكايته لحادثة بطلها ابن بواب كان يعمل عنده ، حين كان يتقلد القضاء في الكرخ (٤ / ٢٣٤) أما حين يروى عن آخرين فانه يذكر السند وربما نقده (١ / ١٨٢) تحديدا لدرجة الثقة فيمن أخذ عنه أبوه ، وقد يذكر أن أباه قد أسند الرواية ، ولكنه نسيها ، فيقول مثلا : « حدثني أبي ، أبو القاسم التنوخي ، باسناد ذهب عن حفظي » (٣ / ٢٣٠) أو يقول : « حدثني أبي رضي الله عنه ، في المذاكرة باسناد لست أقوم عليه ، لاني لم أكتبه في الحال » (٢ / ٦٦) وهذا الإهمال للسند فيما روى عن أبيه متوقع ، لثقة الابن في صدق ما يتلقاه عن أبيه ، وهذا جانب نفسي لا يمكن إهماله ، ولأن هذا الوالد قد مات في فترة مبكرة كان المحسن صبيا لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره حين مات أبوه ، فهذه الأخبار التي رواها عنه ترجع الى مرحلة مبكرة لم يكن المنهج العلمي قد استقر في حركة عقله وشغل تفكيره .

أما جلساء هذا الأب فقد ذكرنا أسماءهم ، ومن أهمهم أبو بكر الصولي ، الذي سيأخذ نقلا عن كتابه الكثير ، ولكنه - في أخبار وقصص أخرى - يستخدم صيغة « وحدثنني » وأخبرني » وأخبرنا » ، بل انه يستخدم عبارات تدل على أن سماعه من الصولي لم يكن ثمرة مصادفة انه موجود بالمجلس ، بل انه يتلقى عنه ، ويستوثق منه ، ويحيزه أن يحدث الآخرين بما سمع ، بل سنفهم من بعض العبارات أن الصولي كان قد انتهى من تأليف كتابه الشهير « كتاب الوزراء » وانه كان يقرأ عليه على سبيل الاجازة ، أي الموافقة على النص بعد مراجعته ، وإن المحسن - الفتى الناشيء - قد حضر عملية المراجعة والاجازة ، فيقول : « قرئ على أبي بكر ... بالبصرة ، وأنا حاضر أسمع ، في كتابه الوزراء ، سنة خمس وثلاثين وثلثمائة » (١ / ٣١١) ويقول : « أخبرني أبو بكر الصولي إجازة ، ونقلته من خطه » (٢ / ١٦) ويقول ، « حدثني . . الصولي فيما أجاز لي روايته عنه » (٤ / ٢٦٨) وهكذا تتعدد وسائل الاتصال ، فيما نقل القاضي التنوخي عن الصولي ، وهناك جلساء آخرون ليسوا على هذه الدرجة من السطوع في كتابه .

أما أبو الفرج الأصبهاني - صاحب الأغاني - فقد ترجع علاقته به الى ما بعد انتقاله الى بغداد ، وعبارات صاحبه تشعر بأنه كان قد ألف كتابه الضخم ، ومع هذا فانه على الرغم من أن القاضي التنوخي قد نقل عن هذا الكتاب . فإن موقفه من صاحبه كموقفه من الصولي وكتابه فيستخدم : أخبرني ، وحدثنني ، وأخبرنا وحدثنا ، ويقول : « أخبرني أبو الفرج الأصبهاني اجازة ، قال » (١ / ٣٢٨) ويقول : « وحدثنني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني ، بهذا الخبر من لفظه وحفظه بخلاف هذا » (١ / ٣٥٣) بل يقول في عبارة دالة « حدثني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني ، رحمه الله تعالى ،

املاء من حفظه ، وكتبته عنه في أصول سماعاتي منه ولم يحضرنى كتابي فأنقله منه ، فأثبتته من حفظي ، وتوخيت ألفاظه بجهدي « (٤/ ٣٧٢) - ويقول في مكان آخر : « وجدت في كتاب الأغاني الكبير ، لأبي الفرج المعروف بالأصبهاني ، الذي أجاز لي روايته ، في جملة أجازة لي . . . » (٤/ ٣٨٣) .

أما ما رواه القاضي التنوخي نقلا عن قصاصين حرفتهم رواية القصص ، ومن ثم تجميعها أو اختراعها لترضي حاجات مستجلة في المجتمع الاسلامي ، فاننا سنجد عليه أكثر من دليل ، والذي نحسب أن نبه اليه ونراه مهما ، دون أن يسوقنا الى مزيد من مشكلات القصة التراثية ، أن القاضي التنوخي لم ينقل شيئا عن أشهر القصاص في تاريخ القصة العربية القديمة ، بدءا بتميم الداري الذي حدث إبان عهد عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمرارا مع : كعب الاحبار ، وهب بن منبه ، وعبيد بن شربة الجرهمي في زمن بني أمية ، وغيرهم ممن أشار اليهم الجاحظ في أكثر من مكان في « البيان والتبيين »

وانما أثر أن يروي عن قصاص سمع منهم مباشرة ، أو هم قريبون جدا من عصره ، وأغلب الظن في تفسير ذلك أن القاضي التنوخي ، وهو فقيه قبل كل شيء ، قد رفض الطابع الأسطوري الغالب على قصص هؤلاء ، وأثر أن يقترب من الواقع ، ومن هنا جاءت قصصه أقرب ما تكون من الأخبار التاريخية ، فاذا غادر الواقع فانه ينتقل الى الحكاية الشعبية ، أو « الحدوتة » ويفضلها على - الطابع الأسطوري ، الذي لن نجد من آثاره الاشدراة قليلة ، عالقة ببعض ما روى من قصص أنبياء بني اسرائيل .

نستطيع هنا أن نشير الى بعض المحدثين ، والطابع العام الذي يغلب على ما حدثوا به ودلالة ذلك على شيوع مجالس القصص والرواية ، واختلاف المجال أو النوع الذي يحدث القاص به ، ومن ثم اختلاف جمهوره .

ان القاضي التنوخي يستخدم عبارة « حدثنا » و « منها ما حدثناه » علي بن أبي الطيب الحسن بن علي بن مطرف الراهمزمي ، وهذا الراوية القاص قد توفي سنة ٣٧٦ هـ عن ثمانين عاما تقريبا ، وقد عرفنا من قبل أن أبا القاسم التنوخي - والد المحسن - كان قد تولى القضاء بمدينة « راهمزم » كما أنها دخلت ضمن المناطق التي تولى مؤلفنا فيها القضاء فيها بعد . ويلاحظ هنا أن السلسلة التي تنتهي بعلي بن أبي الطيب ، يروي فيها - غالبا - عن أحمد بن محمد بن الجراح ، عن أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي (١/ ٧٩) ثم تنفرع بعد هذا التوحد في اتجاهات شتى ، لكن الطابع العام لما جاء عن طريق هؤلاء الثلاثة ينحصر في الوعظ والأخبار التاريخية ، وتحت الوعظ تندرج الأدعية المأثورة ، وبعض الأحاديث النبوية ، وقصص بعض الأنبياء (١/ ٧٩ - ٨٦ - ١٠٩) وقد يجتمع الوعظ والتاريخ في خبر واحد ، كما نجد في قصة جلد الحسن بن الحسن في عصر الوليد بن عبد الملك ، وقد كتب بذلك الى والي المدينة ، فنجاه الله (١/ ١٩٥) وما شاهدته ابراهيم التيمي الزاهد حين كان في حبس الحجاج (١/ ٢٦٠) وقد يوجد الخبر التاريخي متحررا من توجيه الموعظة ، فيكتسب شكل القصة تركيبا وتصويرا ، وهذا نجده في الأجزاء الأخرى التي لم تهتم بالوعظ ، وعلى سبيل المثال ، في (٢/ ١٦٤) قصة وصفية لكيفية تخلص عمر بن هبيرة - وكان واليا على العراق - من سجن خالد بن عبد الله القسري الذي خلفه على الولاية وسجنه ، وقد جاء اتباع عمر ، فاكتروا دارا بجانب الحبس ،

ودارا بجانب سور المدينة - مدينة واسط - وحفر نفقان ، عن طريق النفق الأول خرج عمر من سجنه ، وعن طريق الثاني خرج من المدينة ، ومثل ذلك ما يروي عن استسلام قطن بن معاوية الكلابي للمنصور ، وكان قد خرج مؤيدا لابراهيم بن الحسن في البصرة ، أخى « النفس الزكية » الثائر العلوي بالمدينة (٤/ ٥٦) .

ونستطيع أن نجد هذا الطابع الخاص فيما روى عن سعد بن محمد بن علي الأزدي الشاعر المعروف بالوحيد ، وقد توفي سنة ٣٨٥ ، فهو معاصر للقاضي التنوخي ، وجدير بالملاحظة أن مؤلفنا يستخدم كلمة « حكي » ثلاث مرات فيما رواه عن الوحيد ، و « حدث » مرة واحدة ولعل هذا أن يكون بمثابة اقتراب من مصطلح « الحكاية » التي تختلف عن « الخبر » و « القصة » كما سنرى . وجدير بالملاحظة أيضا أن هذه الحكايات الأربع التي حكاها القاضي التنوخي عن الوحيد ، تتعلق ثلاث منها بحوادث غريبة ، تقوم على الصراع بين الانسان والوحش المفترس ، فهذا رجل شجاع ينزل الأسد ويستنقذ منه شخصا كان على وشك الموت بين برائه (٤/ ١٧٧) وهذا آخر يلقي بنفسه من علو شاهق استنقاذا لثروة ضائعة ، فيسقط على أسد كامن بين البردي ، (٤/ ١٨١) وهذا ثالث يلجأ إلى كهف يجتمى به من القبط فتغلقه عليه أفعى ضارية ، لا يعرف كيف يتخلص منها ، ثم يأتي ابن عرس فيستدعي زميلا له ، ثم يختالان في الهجوم على الأنعى بغتة ، أحدهما عند الرأس والآخر عند الذنب ، فيقتلانه ، ويبدو أن هذا الشاعر المغمور كان مختصا برواية حكايات الحيوان وغرائب ، فان بارحها فالى الغرائب بشكل عام ، فان الحكاية الرابعة التي أخذها عنه القاضي التنوخي عن رجل فرد ، وقع في أسر سبعين من قطاع الطريق ، جردوه من كل ما معه ، لكنه راح يستعطفهم حتى تركوا له برذونه ، ثم راح يستعطف مرة أخرى حتى أعطوه قوسه ونشابه ، لعله أن يدفع بها شرا ، ولكنه استطاع بها أن يقارع السبعين ، وأن يهزمهم ويسترد منهم ما اغتصبوا منه (٤/ ٢٦٤) .

وكما نجد حكايات الحيوان وغرائب الصراع معه عند الشاعر الوحيد ، فاننا نجد القصص التي تهتم بحيل اللصوص وقد أثرها عبيد الله بن محمد الصروي ، وان لم يقف جهده عليها ، لكن الميل الى المفاجأة والاغراب هو القاسم المشترك في كل ما حدث به تقريبا ، فهذا رجل يجد هميانا (حافضة نقوده) بعد أعوام من فقده ، وقد صار فقيرا ، وتعلق حبل نجاته بجوهرة ثمينة أخفاها في مكان سرى من هذا الهميان المفقود ، ويزداد أمر المصادفة غرابة أن يجد بعض أصدقائه هذا الهميان ، ويتفجع بما فيه من مال ، ولا يفطن الى الجوهر (٢/ ٣٦٨) وتتكرر القصة على نحو آخر لا يقل غرابة (٢/ ٣٧٣) وهذا رجل يهرب من قتل محقق عشوائي ، ليقع في مثله ، فينجد مرة ثانية ، وثالثة ، وكأن حياته سلسلة مواقف يتعرض في كل منها للقتل ، ولكن الحقيقة تنصير (٣/ ٦١) وهذا رجل يهرب من الفقر ، في حين تعاني امرأته المخاض ، ثم يعود بعد زمن طويل ، ليجد ابنه شخصية ثرية مشهورة ، وزوجته قابلة قصر الخلافة (٣/ ٣١٤) وهذا كاهن في دير معزول ، يتصدى لمعاونة المسافرين العابرين ثم يقتلهم داخل الدير ويستولي على ممتلكاتهم (٣/ ٣٨٩) وهذا عبد أبى ، يساعده سيده حين يعثر عليه في بلاد بعيدة ، ولكنه لا يسامح سيده ، بل يسعى في هلاكه واغتصاب ماله (٣/ ٣٩٣) وهذا قاطع طريق لا يكتفي بسرقة العابرين ، وانما يصير على قتل رجل وحيد ، وحين يضع السيف على عنقه يظهر أسد يأخذ قاطع الطريق بين فكيه ويمضى (٤/ ٢٤٨) وهذا لص يتمكن من سرقة بضاعة وكان علانية ، ولكن صاحب الدكان الذي كان لصا في حد ذاته يتمكن من استرداد بضاعته (٤/ ٢٥٦) . ان ما يخرج عن هذا الطابع

العام : طابع الفتك والمغامرة والمصادفة لا يمثل نسبة عالية فيما نقل التنوخي عن الصروي . ويحق لنا أن نلتفت الى ما يمكن أن يعتبر « ظاهرة » اختص بها هذا القاص ، فانه غالبا ما يروي عن نفسه دون ذكر سلسلة الرواة ، فكأنه يحكي مشاهداته ، غير أن الشخص الذي يمثل بطل القصة ، يغلب أن يكون منكرا ، غير محدد الاسم ، فنجد مثل هذه المداخل في قصصه : « حدثني عبيد الله بن محمد الصروي ، قال : حدثني أبي : أن رجلا حج . . . » أو « . . . كان يجاورنا ببغداد فتى من أولاد الكتاب » أو : « أن رجلا من أولاد التجار زالت نعمته » أو : « حدثني شيخ كان يخدمني » أو : « حدثني رجل من أهل الجند » أو : « حدثني أكار (فلاح أوزار) بنهر سابس يقال له سارخ » أو : « حدثني بعض اخواني أنه كان ببغداد رجل يطلب التلصص في حديثه » . في كل هذه القصص وغيرها يختفي التوثيق الدقيق الذي يحيط برواية الخبر التاريخي ، حتى وان تشكل بالصياغة القصصية ، ونجد الحكاية الغربية ، ملازمة للبطل المجهول ، أو المصنوع .

هؤلاء أهم القصاص والرواة الذين أخذ عنهم القاضي التنوخي مباشرة ، بطريق السماع والمشاهدة ولا شك أن هناك غيرهم ، مثل محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب ، فينص على لقائه ، والحمل عنه ، « وأجاز لي جميع ما يصح عندي من رواياته » (١ / ٩٠) وعلي بن هشام الكاتب ، المعروف بابن أبي قيراط ، وقد اهتما بالأخبار التاريخية غالبا .

أما المصادر المكتوبة التي نص القاضي التنوخي على أنه نقل عنها فانها كثيرة ، بعضها محدد بالكتاب والمؤلف ، ويذكر أحيانا اسم الكاتب دون الكتاب ، أو العكس ، كما أنه قد يشير الى النقل عن صحائف مكتوبة دون تحديد . لقد اهتم محقق الكتاب - عبود الشالجي بأمر المصادر المكتوبة ، وقمنا من جانبنا بحصر أهم المصادر التي تكرر النقل عنها ، وعدد مرات هذا النقل . أما الطابع العام لهذه الكتب فانه معروف ولا يحتاج الى جهد اضافي .

مع توافر الحافز الذاتي فيما واجه القاضي التنوخي من محنة العزل عن القضاء ، وتحديد اقامته بمنزله ، ومطالبته بسداد أموال جزيلة ، فان حافظا آخر قد توافر له في شكل تجارب سابقة ألقت تحت العنوان ذاته ، أو ما يقاربه . يقول في مقدمة كتابه : « وكنت وقفت في بعض محني على خمس أو ست أوراق ، جمعها أبو الحسن علي بن محمد المدائني ، وسماها « كتاب الفرج بعد الشدة والضيق » ويصف القاضي التنوخي ما في هذه الأوراق بأنه حسن ، ولكنه قليل (١ / ٥٢) والمدائني - وقد توفي سنة ٢٢٥ هـ ، أي قبل مولد المحسن بقرن من الزمان - أديب راوية مؤرخ ، بصري ، سكن المدائن ، وعاش في بغداد ، والأوراق المشار اليها لا تذكر بين مؤلفاته ، وقد نقل القاضي التنوخي أربعة عشر خبرا منسوباً الى المدائني ثمانية منها في الجزء الأول الذي يغلب عليه الطابع الديني ، والتاريخي ، وهو يذكر اسم كتابه ، أو أوراقه ، غالبا ، ويحدث أن يأخذ عن المدائني من أكثر من طريق ، فيقول مثلا : « قال المدائني في كتابه ، وجاء به القاضي أبو الحسين في كتابه عن المدائني بغير اسناد » (١ / ٣٠٤) ومرة أخرى أخذ عن شخص آخر ، أسند ما أخذه الى المدائني (٤ / ٧١) ومرة واحدة يقول : « وجدت في كتاب التميمين للمدائني » (٤ / ٤٢٢) وهذا يعني أن ما نقله القاضي التنوخي عن المدائني قد تضمن كل ما اشتمل عليه كتاب « الفرج بعد الشدة والضيق » وتجاوزه أيضا .

أما كتاب عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا « كتاب الفرج بعد الشدة » فقد وصفه القاضي التنوخي بأنه في نحو عشرين

ورقة ، وأن طابعه العام رواية الأحاديث النبوية ، وأخبار الصحابة والتابعين وما يقارب ذلك من الأدعية والأذكار ، ويشعر المؤلف أن أخبارا من هذا اللون لا تتطابق مع ما يهدف اليه من وضع كتاب بنفس العنوان ، لكنه يتجاوز الغاية التي توخاها ابن أبي الدنيا . وابن أبي الدنيا - على أية حال - قد أفاد بدوره من المدائني ، وهو أقرب عهدا الى عصر المؤلف ، لأنه توفي سنة ٢٨١هـ ، وقد ذكر اسم ابن أبي الدنيا في كتاب التنوخي خمسا وخمسين مرة ، دون أن يقرن الى كتابه المشار اليه ، لقد كان في جميع هذه المرات واحدا في سلسلة الرواة لخير أوقصة أو أبيات من الشعر ، ولاندرى لماذا ترك القاضي التنوخي ذكر كتاب ابن أبي الدنيا في تضعيف كتابه برغم الإشارة اليه في مقدمته .

أما الكتاب الثالث الذي سبق هذا الكتاب الذي نحن بصددده ، الى اسم « الفرج بعد الشدة » فقد ألفه القاضي أبو الحسين عمر بن القاضي محمد بن يوسف القاضي ، رحمه الله ، في مقدار خمسين ورقة ، أودعه أكثر ما رواه المدائني ، وأضاف اليه أخبارا آخر « أكثرها حسن وفيها غير ما هو مماثل عندي لما عزاه » والطريف أن القاضي التنوخي يأخذ علي ابن أبي الدنيا والقاضي حسين ، أنهما لم يشيرا الى أن المدائني قد سبقهما الى التأليف في موضوع كتابيهما ويرى أن عدم معرفتهما بكتاب المدائني تعد أمرا طريفا ، وأن معرفتهما به وتجاهلهما للذكره ترويجا لما كتبنا تعد أطرف . . وقد نقل القاضي التنوخي عن كتاب القاضي أبي الحسين ستا وثلاثين مرة ، انتشرت على مساحة فصول كتابه كلها تقريبا ، وهذا يعني أن القاضي أبا الحسين في كتابه هذا كان الأكثر قربا من تصور القاضي التنوخي لموضوع الفرج بعد الشدة ، سنجد أخبارا وقصصا تعود الى العصر الجاهلي (٢/ ٢٠٦) بل نجد حالة فريدة روى فيها خبرا مصدره وهب بن منبه ، ولكنه ليس راوية لاساطير القدماء ، وإنما هو صاحب الحادثة التي لا تزيد عن رؤيا رآها في أيام عسر (٢/ ٣٣١) أما أكثر ما في الكتاب فيرجع الى عصر الراشدين ، وبني أمية ، ودولة بني العباس ، التي يفوز رجالها بأبكر نصيب ، وبخاصة المأمون والبرامكة ، ثم يأتي دور القصص التي نجد في بعضها طابع الحكاية الشعبية . ويهتم القاضي أبو الحسين اهتماما واضحا بأخبار الولاة وتقلب الزمن بهم من الفقر والضياع الى الثروة والجاه ، أو العكس ، وهو موضوع قد أخذ نصيبا موفورا من كتاب التنوخي كما سنرى .

وهناك كتب أخرى ، أفاد منها القاضي التنوخي ، ونقل عنها أكثر مما فعل مع الكتب السابقة في مقدمتها « الأغاني » للأصفهاني ، الذي تلقى عنه مشافهة أيضا ، وكان يحدث أن يوثق ما سمع بعرضه على ما قرأ ، أو العكس ، فحين يروي خبر ما كان بين عبد الله بن طاهر والحصني ، وكيف أساء الحصني الى القائد العباسي بمعارضة قصيدته ، ومناقضة مفاخرها الفارسية ، يسند الرواية الى أبي الفرج المخزومي ، الشاعر المعروف بالبيغاء ، وهو من أصدقاء القاضي التنوخي (١/ ٣٣٩) ثم يورد رواية ثانية للخبر نفسه ، فيقول : « وقع إلى هذا الخبر بخلاف هذا ، فأخبرني أبو الفرج الأصبهاني ، قال » (١/ ٣٥٠) وبعد أن ينتهي من هذه الرواية يتبعها برواية ثالثة للأصبهاني أيضا ، فيقول (١/ ٣٥٣) : « وحدثنني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني ، بهذا الخبر من لفظه وحفظه بخلاف هذا » فهل تختلف « أخبرني » عن « حدثني » ؟ اختلاف القراءة عن السماع ، وإن انتهى كلاهما الى نقل المعرفة بالشيء ؟ هذا احتمال قد يقويه قوله في صدر خبر آخر : « وجدت في كتاب الأغاني الكبير ، لأبي الفرج المعروف بالأصبهاني ، الذي أجاز لي روايته في جملة ما أجاز له لي . . » (٤/ ٣٩٤) .

لقد نقل القاضي التنوخى من « الأغاني » وروى عن صاحبه تسعا وثلاثين مرة ، ومع التنوع الموضوعى ، والامتداد الزمني الذى تمثله مادة هذا الكتاب الموسوعى الضخم ، نتوقع أن تمتد النقول الى أطراف الكتاب على ضخامته . يفوز الخلفاء العباسيون ورجال دولتهم بأكبر نصيب ، وكذلك المغنون (٨٩/٣ ، و ٣٩٤ / ٤ وغيرهما) وتظهر ملامح العصر الأموى أحيانا ، كما نجد خبرا واحدا عن الاسكندر حين بلغ حدود الصين ، وقرر اخضاعها لسلطانه (٢٤٠ / ٢) ولنا هنا ملاحظة أساسية نثبتها ، فعلى الغم من أن القاضي التنوخى كان يعرف الفارسية ، وعمل طويلا في أوساط فارسية ، ونادم عضد الدولة الفارسى ، وكان الكثير من أخبار الأكاسرة وغيرهم من عظماء الفرس ، بل وأخبار اليونان والهند ، معروفا لدى المثقف العربى في القرن الرابع الهجرى ، فان النسبة العظمى من مادة كتاب القاضي التنوخى تعتمد على المجتمع العربى ، وأخبار رجاله ، بدرجة لا تجعلنا نعطى أية أهمية لما يتجاوز هذا الحد ، ومنه هذا القليل الذى ظهر فيه الاسكندر (ثلاثة أخبار ، أحدها عن الاصبهاني) كما ظهر كسرى أحيانا .

ويأتى « كتاب الوزراء » لمحمد بن عبدوس الجهشياري في مرتبة متقدمة بين المصادر المكتوبة التى اعتمد عليها ، يكاد ينافس « الأغاني » في الأهمية ، وان كان عدد مرات النقل أقل (نقل عنه خسا وثلاثين مرة) ولم يسمع منه مشافهة بالطبع برغم صداقة الجهشياري لأبيه ، لأن الجهشياري توفى سنة ٣٣١هـ ، وكان مؤلفنا لم يتجاوز الرابعة من عمره تقريبا ، وهو فى صدر كل خبر يكاد يكرر عبارة واحدة : « ذكر محمد بن عبدوس فى كتابه « كتاب الوزراء » أو « فى كتاب الوزراء » ماعدا مرة واحدة قال فيها قال محمد بن عبدوس فى كتاب أخبار الوزراء والكتاب (٣٦) (٤١٨ / ٤) والكتاب المذكور محدد العنوان محدد الموضوع . ومن الطبيعى أن يكون النقل عنه محكوما بموضوعه .

ويكاد يلحق بالكتابين السابقين ما كتبه الصولى فى كتاب الوزراء ، وقد نقل عنه سبع عشرة مرة ، وعن « الأوراق » مرة واحدة ، ولكن تأثير الصولى على مؤلفنا يتجاوز ما نقل عن كتابه ، الى ما حدث عنه ، فضلا عن التأثير الشخصى الذى يمكن توقعه . وهذا الكتاب مثل سابقه محكوم بموضوعه ، ومع هذا يمكن أن نلاحظ أنه أكثر توسعا ، بمعنى أنه لم يتوقف عند حدود ما كان يحدث للوزراء ، وانما تجاوزه الى ما يحدث منهم ، ولهذا نجد بعض أخبار الحسين بن الضحاك الشاعر (٣٣١ / ١ ، ٤٨ / ٣) وأخبار الغناء والمغنين (٢٦٨ / ٤) وقد يعارض رواية الصولى برواية الأغاني ، كما يذكر مرات أنه سمع الخبر يقرأ على الصولى نفسه فى مسجد البصرة .

هناك كتب أخرى أقل أهمية نقل عنها القاضي التنوخى ، أحصاها محقق الكتاب (١٠ / ١ ، ١١ - ١٢ ، ١٣) ونوع أخير من الكتب لم يفصح عن اسمه ، لأسباب غير محدودة فيقول مثلا « وجدت فى بعض الكتب غير اسناد » (١٩٤ / ١) أو يقول « قرأت فى كتب الأوائل » (١٩٨ / ١) أو قرئ على أبى العباس الأثرم ، المقرئ البغدادى . . . فى منزله بالبصرة . . وأنا حاضر أسمع (٢٠٠ / ١) فمن أى كتاب كانت هذه القراءة ؟

ومهما يكن من أمر فان هذا النوع من الاخبار والقصص غير المحددة المصدر أو الرواية يبقى قليلا جدا اذا ما قيس الى النصوص الموثقة ، التى تكسب كتاب « الفرج بعد الشدة » ثقة هو جدير بها ، وتعطى الدارس اطمئنانا كبيرا فى الاقبال

(٣٦) ولي مرتون يسميه « أخبار الوزراء لفظ ، وقد أثر محققوه : مصطفى السقا وصاحبه تسميته كتاب الوزراء والكتاب - مطبعة مصطفى البابي الحلبي . ط أول القاهرة .

على نصوصه ودراساتها دراسة فنية دون أن تؤدي به إلى التناقض أو النتائج غير الدقيقة نتيجة للرواية بالمعنى العام دون التقيد بالألفاظ ، وهو ما رميت به النصوص الثرية بوجه عام .

ويمكن أن نقول مطمئنين ، في ختام حديثنا عن المصادر : ان كتاب الفرج بعد الشدة للقاضى التنوخى ، مع أنه مسبوق في موضوعه ، ناقل عن كثير من السابقين ، قد تجاوز كل أولئك شكلا ومضمونا . ونقصد بالشكل الجانب الكمى الذى تفوق به على كل سابقيه ، والجانب المنهجى المتمثل في توزيع مادة الكتاب على فصول متنوعة المعنى ، وان اتفقت في الشكل العام (أزمة يعقبها حل) ، والجانب التركيبى حيث يزاوج بين الروايات للقصة الواحدة ، ويدير بينها حوار مشمرا ، وينميها بطريقة فريدة ، ونقصد بالمضمون أنه تجاوز بالشدة ، أو الأزمة أن تحدث لكاتب أو وزير أو خليفة ، إلى الناس عامة ، وشذاهم فلم يتوقف عند الطبقة العليا من المجتمع ، بل غمر جميع الطبقات ، وربما جميع الأجناس التى كانت تمشى تحت لواء الخلافة العباسية من عرب وفرس وديلم وترك وأكراد وروم ، ولم يتوقف عند المعنى الاخلاقي للفرج ، وانما عنى به انفراج الأزمة ، أو لحظة التنوير في مفهوم القصة القصيرة المعاصرة ، وهذه جميعا اضافات ايجابية ينتمى بها هذا الكتاب الى تراث أمته العربية ، ويضيف اليه .

(٦) المحاور

ان المحور الرئيسى الذى يدور حوله الكتاب هو الأخبار والقصص والحكايات التى تصور مواقف مختلفة في حياة اشخاص تاريخيين ، أو مجهولين أو مخترعين . وهذا المحور الرئيسى يضم في اطاره محاور جزئية ، يمكن أن نختزل مفهوم كل محور في « الموضوع » و « الهدف » أى المضمون ، الذى سيبدو بمثابة طريقة ميسرة للتعريف الموضوعى للكتاب ، على أن نعود اليه على المستوى الصياغى ، أو أسلوب بناء كل نوع . وقد عرضنا من قبل لطريقة المؤلف في تقسيم أبواب كتابه ، ورأينا ما فيها من خلط في أسس التقسيم ، وتداخل بين الأنواع وهذا يعنى أن المحاور التى نجمع مفرداتها الآن ، ونحاول أن نستخلص لها صورة وهدفا سنجدها متفرقة الاجزاء - أو المفردات - على مساحة الكتاب ، وليست مجموعة في باب واحد .

ويمكن أن نحصر هذه المحاور فيما يأتى :

١ - الأخبار والشخصيات التاريخية

٢ - صورة الحياة الاجتماعية

٣ - الحكايات الشعبية

٤ - القصص الوعظية

٥ - قصص وأخبار آل البيت

٦ - القصص التعليمية

وهذا الترتيب يتدرج تنازليا مع الجانب الكمى لكل موضوع ، كما أن التوزيع قام على التغليب فقد يكون الخبر عن

رجل من آل البيت ، ولكنه يصور سلوكا اجتماعيا معينا ، وهنا سيحدث القارئ أين يقع مركز الاهتمام في هذا الخبر .

أولا : - الاخبار والشخصيات التاريخية

من المتوقع أن يفوز الخلفاء ، ومن يدور في فلكهم من الوزراء والكتاب والقادة بأكبر نصيب ، لأن التاريخ المدون يهتم بأخبارهم ، ومع هذا لا نجد ما كتب حول هؤلاء تكرارا لما نجده في كتب التاريخ ، من جانبين : أن القاضى التنوخى في اختيار مادة كتابه ، حين ينتقى من حياة شخصية شهيرة كالحجاج ، أو المأمون مثلا ، فانه يختار «المواقف» التى تدل على طبيعة الشخص ، وليس «الاعمال» التى يسارع المؤرخون الى تدوينها ، ومن هنا تكون اختياراته متوغلة في التفاصيل التى قد لا يلتفت اليها المؤرخ عادة . وانه كثيرا ما يعنى بأشخاص لهم وجود تاريخى ، ولمواقف حياتهم دلالات تاريخية انسانية وحضارية ، ولكنهم لم يبلغوا من الشهرة بحيث يهتم بهم المؤرخون ، ومع هذا لا يمكننا ان نستوعب طبيعة المرحلة وظروفها دون أن نضع هذه المواقف العابرة تحت الضوء .

خلفاء بنى العباس ورجال دولتهم هم الأكثر ظهورا ، ولا يحتاج هذا الى تعليل ، فانهم الأقرب عهدا ، والأطول زمنا ، والأزمات في عصرهم أكثر ، وسنجد القليل عن عصر بنى أمية ، وما دمنا بصدد شدة تنفرج ، ومحنة تنزل وتنشع فان الحجاج بن يوسف الثقفى يحظى وحده بنصف ما كتب عن العصر الاموى والأخبار التى تدور حول الحجاج تصور قسوته ، وجو الارهاب الذى ساد في عصره ، حتى صار الاقبال على العبادة مظنة الاتهام بقول الخوارج وسلوكهم ، يقول أحد المحبوسين شارحا تهمته : « جاء العريف ، فتبرا منى ، وقال : ان هذا كثير الصوم والصلاة ، وأخاف أنه يرى رأي الخوارج » (١ / ٢٦١) وسجن الحجاج كان يسمى الديماس ، ومعناه : الحفرة العميقة لا ينفذ اليها الضوء . هذا هو القول « الجاهز » عن الحجاج ، ولكن أخبارا أخرى تدخل بعض التفاصيل التى تحتفظ نسبيا على هذه الصورة القاسية الجافية . فهذا الشعبى يخرج مع ابن الأشعث على الحجاج وحين تنجل الفتنة يقف أمام الحجاج مقرا بذنبه ، معتذرا ، وهنا يقول لجلسائه : هذا عامر ، ضرب وجوهنا بسيفه وأتانا يعتذر بالباطل ، ردوا عليه عطاءه (١ / ٣٣٤) . وحين يساق اليه أسرى فتنة ابن الأشعث يأمر بقتل طائفة منهم ، وتقدم رجل قبل أن يضرب عنقه فقال : يا حجاج ، والله لئن كنا أسانا في الفعل ، فما أحسنت في العقوبة ، وان كنا لؤمنا في الجنابة ، فما كرمتم في العفو .

فقال : ردوه . فردّ . فقال : أخبرنى كيف قلت ؟ فأعاد الكلام . فقال الحجاج : صدقت والله ، أف لهذه الحيف ، أما كان فيها أحد ينبهنا كما نبهنا هذا ؟ أطلقوا عنه ، وعن باقى الأسرى (٤ / ١٢١) . ويأتى بعد الحجاج عبيد الله بن زياد ، وخالد القسرى ، وهما لا يقلان ضراوة عن الحجاج ، ومع هذا ، ومع ما سنجد للقاضى التنوخى من ميل الى آل أبى طالب لا مجال للشك فيه ، ومع ما هو معروف عن دور ابن زياد في استشهاد الحسن رضى الله تعالى عنه ، ومع أن الكتاب قد سجل خبرا يؤكد هذه القسوة في ابن زياد ، فانه يروى خبرا آخر يظهره في صورة من ينحس عن الله ، ولا يجسر على الاستخفاف بكلامه الشريف ، فها هو رجل من القراء يساق اليه على أنه من الخوارج ، وفي حين

ينكر الرجل التهمة يتوعده عبيد الله بالانتقام ، ويأمر بسجنه ، فيتمتم الرجل بكلمات غير مبيّنة ، فاغتاظ ابن زياد ، وأمره بالجهر بما همس به ، فاذا هما بيتان من الشعر :

عسى فرج يأتي به الله انه له كل يوم في خليقته أمر
إذا اشتد عسر فارج يسر فانه قضى الله أن العسر يتبعه يسر

فسكت ابن زياد ساعة ، ثم قال : قد أذاك الفرّج . خلوا سبيله (٢٩٧ / ١) يمكن أن نجد مثل هذه المواقف المذكورة لمعاوية ، وعبد الملك ، وهشام ، والوليد بن يزيد . لا نجد هذا الشر المطلق في نفوسهم بغير عقاب ، انهم بشر ، يهتزون للكلمة الطيبة ، ويأسرهم المعروف ويقصدون الأعراف العربية ، حتى يعفو أحدهم عن الد أعدائه حين يكتشف وجوده على مائدته وقد أكل من طعامه .

أما خلفاء بني العباس فان الحديث حولهم أكثر تنوعا ، فأكثرهم قد اعتقل وزيره أو قتله ، وهذا وحده معين لا ينضب للشدائد ، كما انهم - هم أنفسهم - عانوا شدائد وأهوالا حين تسلط الأتراك ثم الدليم على الخلافة ، فهم بين مقتول ومخلوع ، ومسلول ومن ليس له من الأمر شيء ، ومع ذلك فانهم اذا ما قدروا أنزلوا البلاء حتى بأولئك الذين أوصلوهم الى الخلافة ، وأبدوا ملكهم . ان هذه الأخبار والقصص المدونة أشهر من أن نتوقف عندها ، وسنكتفى بالإشارة الى ما تدل عليه من قلق نظام الحكم والفساد الإداري والمالي ، أما الآن فتتوقف الى ما يمكن أن يعتبر « إضافة » لم يهتم بها المؤرخون .

من ذلك هذه القصة ، التي جرت في عهد المعتضد لأحد رجاله ومنها أن الخليفة كان له جهاز استخبارات خاص ، يرفع تقاريره اليه هو شخصيا وأن هذا الجهاز كان يراقب كبار رجال الدولة - وليس أعداءها - وأن العاملين فيه كانوا يتقنون من لا يتوقع أحد منهم هذه المهمة وأنهم كانوا يحتالون بكل وسيلة ممكنة للحصول على الأسرار . وربما دل الخبر - القصة - على أن الوزير كان له جهازه المضاد . فقد كان للقاسم بن عبيد الله - وزير المعتضد - سنة ٢٨٨ هـ - حياة خاصة عابثة ، يشرب فيها ويلعب مع جواريه بغير تحرج ، غير أنه كان يخفي ذلك كله عن الخليفة حتى لا يستنقصه ، ويتهمه بالتشاغل عن الأعمال . لكن الخليفة ألقى في طريقه جملة تدل على معرفته بما يجري في الخفاء . فخرج الوزير وقد كاد أن يتلف غما . اذ كيف بلغه السر ، وهل يدل هذا على معرفته بباقي الأسرار كالهبات والرشاوى ؟ « وكان له في داره صاحب خبر جلد يرفع اليه الأمور ، فأحضره وعرفه ما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : ابحث لي عنم أخرج هذا الخبر ، فان فعلت ، زدت في رزقك وأجزتك بكذا وكذا ، وان لم تخرجه نفيتك الى عمان . وحلف له على الأمرين » وهكذا وقف رجل الاستخبارات في مواجهة رجل الاستخبارات الآخر ، واستطاع أن يكشفه في ثياب المكدين (الشحاذين) يتظاهر بأنه عجوز ، ويحملة بثياب تخفيه الى دار القاسم الذي يستجويه سرا ، ويأبى الا أن يعرف حقيقته « أو لا ترى ضوء الدنيا » فيضطر الى الاعتراف بأنه فلان الهاشمي ، وأنه يتجسس للمعتضد . فيحبسه ، ويتغافل عنه ، الى أن يطلب الخليفة منه بنفسه اطلاق خبره الخاص ، الذي كشف أمره (٨٥ / ٢) . ونعرف من قصة أخرى أن الادارة السياسية في العهد العباسي عرفت منصب من يسمى في زماننا « وزيرا بلا وزارة » أو « وزير المتابعة » وكان في

عمله يتبع الوزير - فهو بمثابة مساعد له - وليس الخليفة ، فقد كان أبو جعفر بن أحمد حاجبا لابي محمد المهلبى قبل تولي الوزارة ، فلما صار المهلبى وزيرا « كان يصرفه في الاستحثاث على العمال ، وفي الأعمال التي يتصرف فيها العمال الصغار » ونفهم من سياق القصة أن وزير المتابعة ينتدب لأداء مهمة عاجلة وأنه « قائم بحضرة الوزير » لمثل هذا الشأن . (١٣٩ / ٤)

ونعرف أيضا أن المأمون بعد أن تغلب على أخيه بسيف الخرسانية ، أراد أن يكافئهم بتولييتهم المناصب ، والأعمال الادارية والمالية التي يمكن أن تعتبر بمثابة تعويض ، ولأنهم أهل ثقته وقد أدى هذا الى تعطيل الموظفين القدامى واضطراب معيشتهم ، ومن هذه القصة (٣٥٥ / ٢) نجد شيخا خرسانيا مغفلا ، أميا ، يقبل على أكبر الكتاب سنا ، ويطلب منه أن يختار له عملا مناسباً ليتولاه كما أمر أمير المؤمنين . . ويسخر الكاتب المتمرس من هذا الطلب الساذج من رجل لا يعرف ماذا ينبغي عليه أن يعمل ، فيقترح عليه تولي وظيفة لا وجود لها . فقال : لا أعرف لك عملا أولى بك من بزندات البحر ، وصدقات الوحش أى الجسور التي تصد ماء البحر عن الشاطئ وأوقاف الوحوش ، فقال له : اكتبه لى ، فكتبه ، ورفع طلب الوظيفة الى الخليفة الذي غضب للسخرية من زعماء أنصاره وشيعته ، وأحضر الكاتب ، وقال له : يا جاهل . تفرغت لأصحابي ؟ ولكن الكاتب يرد بأمانة على المأمون ، مفندا خطر الاعتماد على « أهل الثقة » - وإهمال « أهل الخبرة » ومقترحا الحل الذي يرضى سياسة الدولة ، ويحفظ مصالحها في نفس الوقت ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أصحابنا هؤلاء ثقات يصلحون لحفظ ما يصل الى أيديهم من الخزائن والأموال ، وأما شروط الخراج ، وحكمه وما يجب تعجيل استخراجه وما يجب تأخيريه ، وما يجب اطلاقه ، وما يجب منعه ، وما يجب انفاقه ، وما يجب الاحتساب به ، فلا يعرفونه ، وتقليدهم يعود بذهاب الارتفاع ، (أى تضطرب به ميزانية الدولة ولا تصل الى مانحصله الآن) فان كنت يا أمير المؤمنين لا تثق بنا ، فضم الى كل واحد منهم رجلا منا ، فيكون الشيعى يحفظ المال ، ونحن نجمعه .

فاستطاب المأمون رأيه وكلامه ، وأمر بتقليد عمال السواد وكتابه ، وأن يضم الى كل واحد منهم ، واحدا من الشيعة .

اننا لم نرد - في مستوى الخلفاء - أن نقف عند صور ترفهم ، وصراع أولياء عهدهم ، وخفايا ما يجرى ليلة موت أحدهم ، (أنظر مثلا ما يروى عن كيفية موت الهادى ١٩ / ٣) وليلة أغمى على الرشيد بسبب التخمّة حتى ظن أنه مات ٢١٩ / ٤ ، وليلة مات فعلا ٣٦٠ / ٣) فهذا مما يمكن تحصيله من كتب التاريخ : أما التفاصيل الصغيرة فهي ما نعتني به هنا . نذكر مثلا أن الرشيد عرف أن العتّابى الشاعر يقول بالاعتزال ، فتهدده حتى حمله على الحرب ، ولكن بعض عبيده وضع شيئا من خطبه ورسائله في طريق الرشيد ، فأعجب به ، وعفا عنه ، واستقدمه ليعلم الأمين والمأمون « ويضع لهما خطبا » (٢٧٠ / ٤) ونعرف من أخبار أخرى أن كبار أدباء العصر كانوا يضعون الخطب لولى العهد ، الذي يحفظها ثم يلقها من الذاكرة يوم الجمعة ، حين تعلن بيعته لولاية العهد .

ومن الأمور الطريفة ما يطلعنا عليه أكثر من خبر ، أنه حين كان يتم القبض على احدى الشخصيات العظيمة ، ذات

الجرم العام ، كانت هذه الشخصيات تقدم للمساءلة فيما جنت فيما يشبه المؤتمر العام ، أو المحاكمة العلنية ، وكان هذا المجلس يعقد برئاسة شخصية بارزة ، الخليفة أو أحد قواده ، وكان الحاضرون يشاركون في توجيه الحكم على المتهم ، كما أن شخصا يختص بأمور الدعاية للخليفة كان يقف خطيباً عند افتتاح الجلسة ، يسهب في إبراز مآثر العهد وفضائل الخليفة ووجوب طاعته ، والخبران عن هذا التقليد يرجعان الى عصر المأمون ، ونرجح أنه لم يتدعها ، وفي اختبار الخلفاء ما يدل - ولو بصورة مصغرة - على وجود مثل هذه المحاكمات العلنية ، ذات الطابع السياسي ، يحضرها أعضاء الأسرة الحاكمة ، وكبراء الدولة ، لقد قيل أن إبراهيم ابن المهدي قبض عليه وهو يحاول الهرب في ثياب امرأة ، وأن المأمون طلب مثوله على الحال التي أخذ عليها « ثم جلس مجلساً عاماً ، وقام خطيب بحضرة المأمون يخطب بفضله ، وما رزقه الله ، جلّت عظمته ، من الظفر بإبراهيم بزيه . . (٣ / ٣٣٤) » وحين قتل الأمين واضطربت أوضاع الخلافة انتهز أبو السرايا الفرصة ، وخرج بالطالبيين في البصرة غير أن الحسن بن سهل ، قائد جيش المأمون ، تمكن من دخول البصرة ، وهرب الطالبيون وقبض على أحد زعمائهم : زيد بن موسى بن جعفر الصادق ، فما كان من الحسن بن سهل إلا أن جلس مجلساً عاماً من أجله ، ودعا به ، فأنبه ، وويخه ، وقال : قتل الناس وسفكت دماء المسلمين ، وفعلت ، وفعلت . ثم أقبل على من حضره من الناس والهاشميين وغيرهم ، وقال : ما ترون فيه ؟ فأمسكوا جميعاً ، وانبري له قثم بن جعفر بن سليمان ، فقال : أرى أيها الأمير أن تضرب عنقه ، ودمه في عنقي « (١١٣ / ٤) » وهكذا قدم زيد للقتل ، ولكن رجلاً من أصحاب المناصب في عهد الرشيد (قائد البحرية) يتدخل ، ويمنع القتل ، لأن المأمون لم يأمر به صراحة وهو هاشمي علوي من أبناء عمومته ! !

وهكذا نكتشف أن المحاكمات السياسية ، ونظام الادعاء ، ونظام الدفاع ، وربما الأخذ بنظام المحلفين - أو القضاة الشعبيين - كان معروفاً ، ويلجأ اليه في توجيه التهمة للشخصيات ذات المنزلة الاجتماعية والسياسية .

وحين نغادر دائرة الخلفاء الى دائرة الوزراء سنجد صور الصراع بين العرب والفرس ، منذ تأسيس الخلافة العباسية ، وعبر كل العهود ، وسنجد وسائل تحييد الانصار ، ودس العملاء وتجميع المعارضين ، والوشاية ، واصطناع التهم ، وإثارة الظنون وتوجيهها ، وتوزيع مناصب الدولة ، وجزء من ثروتها على الممالئين والأقارب . . كل هذا مما استشرى وكأنه وباء في الجهاز الإداري منذ تأسيس الخلافة ، وأخذ مداه في عصور الضعف ، في أعقاب عصر المتوكل الى أن خرج الأمر برمته من أيدي الخلفاء .

ليس بمستغرب أن نجد ولي العهد يكون لنفسه بطانة تناصره حتى على أبيه الخليفة وتتعجل انتقال السلطة اليه ، ويحدث أن يقف وزير الدولة في صف الخليفة ، ومن ثم يتظره سوء المصير حين تنتقل السلطة الى ولي العهد ، فهذا الخليفة المهدي يختار إبراهيم الحراني كاتباً لابنه موسى الهادي في منطلقه الى جرجان ، ثم يبلغه عن هذا الكاتب ما لا يطمئنه فيأمر ابنه بارجاعه اليه ، ولكن موسى يتهرب من انفاذ الأمر حتى « كتب اليه المهدي : ان لم تحمله خلعتك من العهد ، واسقطت منزلتك » ، (٣ / ٣٢٦) فيذعن مضطراً ويرسل الحراني ، ولكن المهدي يموت يوم وصوله في ظروف غامضة ، (قيل بطعام مسموم ، وقيل سقط من فوق فرسه) ليصبح الحراني وزيراً للخليفة الجديد ، وينحى

الربيع عن الوزارة ، وفي مرة أخرى لا ينحى بل يقتل ، فقد كان المعتضد يعتقد أن الوزير اسماعيل بن جبل هو السبب في سوء رأي أبيه الخليفة الموفق فيه ، وأنه الذي أغراه بحبسه حتى صار يخشى أن يقتل ، ومع أن الوزير أقسم وترضى وتنصل ، وهو لا يزال وزيرا ، فان ولي العهد لم يمهله حين أفضت اليه الخلافة ، (١ / ١٨٢) وهذا المتوكل يستدعي اسحاق المصعبي - صاحب الشرطة في بغداد ابان عهود المأمون والمعتصم والوائق والمتوكل - ويسلمه عبيد الله بن سليمان بن وهب ، ويقول له : هذا عدوي فافصل لحمه عن عظمه ، هذا كان يلقاني أيام المعتصم فلا يبدأني بالسلام ، فأبدأه به لحاجتي اليه ، فيرد على كما يرد المولى على عبده ، وكل مادبر ايتاخ (القائد التركي) فعن رأيه . (١ / ٢٠٦) .

لا يمكننا الاستطرد في مثل هذه الحوادث الدامية ، ويكفي أن نشير الى وزير مثل ابن الفرات ، الذي أخذ من الوزارة الى السجن والعذاب ، ومن السجن الى الوزارة ثم من الوزارة الى السجن والعذاب مرة أخرى ، وفيها قتل ، (٢ / ٤٣) .

وقد كانت أقدار الكتاب والعمال من الولاة ، وأصحاب الخراج مرتبطة بمصائر الخلفاء والوزراء الذين يستخدمونهم ، فلا عجب أن تكثر نكباتهم ومصادراتهم وأن يتفنتوا في اختراع وسائل الاختفاء ، وأن يتقنوا تهريب الثروات ، وأن يستنزفوا أموال الناس حين تكون في أيديهم السلطة تحسبا ليوم يعزلون فيه ، ويطالبون بمبالغ خيالية يعرفون أنه ما من الوفاء بها بد ، ولا بد أن يبقى لهم شيء كثير بعدها . ولأن هذه الفترة من العصر العباسي - ونعني القرنين الثالث والرابع - فترة اضطراب سياسي وفساد اداري شنيع ، نجد الأخلاق العامة تتبعها : مضطربة فاسدة ، يصدر قرار الخليفة بسجن وزيره وتعذيبه فيسجن ويعذب باشراف كبار رجال الدولة ، لكنهم يتوددون الى الوزير السجين سرا ، ويعتذرون اليه تحسبا لاحتمال عودته الى الوزارة (١ / ٢٣٣) ويقبض الوزير محمد بن عبد الملك الزيات على سلفه الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب ، ويهينه ويعذبه ، وفي خدمته أخوه الحسن بن وهب ، فلا يجسر على أن يتشفع لأخيه عند الوزير ، ولا أن يخفف عنه البلاء (٢ / ٩٢) ويسلم أبودلف العجلي - القائد البطل العربي - للأفشين بأمر المعتصم يفعل به ما يشاء ، ويتصدى القاضي أحمد أبي داود ، ويحتال في ذلك بطرق غير مأمونة ، فينقذه ، ويستهدف لعداوة الأفشين (٢ / ٦٦) لهذا الخطر الماحق صارت الثروة هدفا يسعى اليه العمال ، وأصبح بذل الرشوة أو قبولها أمرا عاديا للحصول على الحماية أو اسباغها على من يطلبها (٣ / ٢٥) والمتاجرة بأموال الدولة عملا مباحا (٢ / ٧٦) ، ومن أقوى الأخبار دلالة على الفساد الاداري والمالي ما ذكر من أن بعض العمال تقلد الأهواز وأراد أن يبدأ عهده بتطهير جهاز الحكومة ، ومنع الرشوة ، والزام كل موظف بموقعه لا يتخطاه فأحس كبراء المدينة بالخطر الذي يتهدد مكاسبهم وتسلطهم بمنع الرشوة عن الموظفين فاختر الكبراء واحدا منهم يكلم الوالي الجديد . يقول : « فجئته ، وخلوت به ، وبذلت له مرفقا جليلا (رشوة ضخمة) فلم يقبله ، ودخلت عليه بالكلام من غير وجه ، فما لان ، ولا أجاب . فلما يشئت منه ، وكدت أن أقوم عنه ، قلت له : يا هذا الرجل ، أنت مقيم من هذا الأمر على خطأ شديد ، لأنك تظلمنا وتزيل رسومنا ، من حيث لا يحمدك السلطان ، ولا تنتفع أنت أيضا بذلك ، ومع هذا فأخبرني : هل تأمن أن تكون قد صرفت (طردت من الوظيفة) وكتاب صرفك في الطريق ، يرد عليك بعد يومين أو ثلاثة » ومادام هذا

الاحتمال واردا ، والوالي لا يطمئن في موقعه الا أياما ، فلماذا تُضَيِّعُ فرصة تعويض ما يحتمل حدوثه ؟ وبالفعل اهتز ثبات الوالي ، وقبل المرفق (الرشوة) ولم تمض أيام حتى جاء خطاب صرفه عن الوظيفة ، فراح يشكر الوسيط القديم على نصيحته ، وهو لا يشك في أن لهذا الوسيط عيونا في بغداد تكاتبه بما سيحدث ، وأنه كان عارفا بما سيكون من انهاء خدمته بهذه السرعة (٣٤/٣) .

ثانيا : صور الحياة الاجتماعية :

لم نرد في هذه الفقرة أن نقدم وصفا للحياة الاجتماعية ، أو بعض جوانبها ، كما أننا لم نحاول في الفقرة السابقة أن نحصي أو نعرض الأخبار والشخصيات التاريخية التي احتفل بها الكتاب . لقد أردنا أن نشير الى أهمية هذا المجال ، وأن نضع تحت نظر القارئ نماذج مما يمكن أن يعتبر اضافة في هذا الجانب ، لأن كتب التاريخ لم تحفل به ، لسبب أو لآخر ، وفي صور الحياة الاجتماعية « لن نتخلى عن هذا القصد ، ولن نتوسع فيه توسعا هناك وبشكل عام فان القاضي التنوخي لم يعتمد الى كتابة أو جمع قصص اجتماعية ، بالمعنى الذي يقصد الآن من استخدام هذا المصطلح أي تصوير العادات والتقاليد وأنماط السلوك ، وتسليط الضوء على بعض المشكلات ذات الطابع العام ، والتي تهم الطبقات الدنيا في المحل الأول ، فلسنا نظن أن هذا المعنى الاجتماعي ، أو ذاك المغزى الطبقي كان واضحا عند كاتب في القرن الرابع الهجري بمثل وضوحه الآن ، أو بما يقارب وضوحه الآن . ومع هذا فان القاضي التنوخي قد جمع قصصا عن اللصوص ، وعن العشاق ، يمكن أن تعتبر في صميم القصة الاجتماعية ، غير أن ما أردناه « بصور الحياة » يتجاوز الى ما يصح اقتناصه في سياق أية قصة ، أو أي خبر .

ان علاقة التفاعل الجدلي بين التركيب الاجتماعي في مفرداته الطبقة لن يسمح بعزل أوضاع أخرى ، انها لا بد أن تكون سببا ونتيجة في الوقت نفسه ، وقد رأينا كم كانت أوضاع الخلافة متردية ، وكان المنصب ألعوبة ، وكانت النساء من أمهات الخلفاء وزوجاتهم وجوارهم متحكمات ، حتى كان بعضهن يقمن في بيوتهن - ولا بد أنها قلاع أو تشبه القلاع - سجوننا خاصة ، ويمكن لاحداهن أن تحكم على موظف عندها بالقتل ، دون أن يمر بأي مرحلة من مراحل التقاضي (١٠٨/٢) و (١١٢/٢) ومن الطبيعي أن يؤثر هذا الخلل الأمني الاجتماعي في الطبقة المتعاملة مع طبقة القمة ، فنجد الولاة والعمال يجذون في جمع الثروات ويتفننون في حماية أنفسهم . كان أبو جعفر بن شيرزاد الكاتب يسكن دارا هي قلعة بالفعل وكان لها أربعة عشر بابا ، يفضي بعضها الى جهات وأزقة لا يعرف عنها أحد شيئا . وكان يملك من الغلمان المسلحين المستعدين لافتدائه ما استطاع به أن يعطل قرار الوزير ، ويرفض مغادرة بيته ، ويتحدى السلطة الرسمية حتى تمكن من الاختفاء خارج بيته الى أن أتاه الفرج (٢٨/٤) ، كما أنهم كانوا اذا هُذِّد أحدهم في حياته وقُدِّم للقتل ، هتف : وأين المصادرات ؟ أين أنتم عن أموالي أفتدي بها نفسي ؟ أما اذا أحيط به من أجل الاستيلاء على ثروته ، التي لا بد أن تكون تضخمت بشكل لا يسهل احتمالها راح ينكر ثروته ، التي تفنن في اخفاء معالمها . ويصمد لعمليات التعذيب على عنفها ، ويساوم ليصالح على بعض المطلوب منه ، ويدعي أنه تسلفه من أصدقائه وكرماء عصره لينقذ نفسه ، وهذا رجل ذو خبرة ، يرشد أحدهم الى وسيلة يقنع بها الوزير أنه لا يملك المال الذي يطالب به . قال :

تكتب رقعة الى رجل من معامليك تعرف شحة وضيق نفسه ، تلتمس منه لعيالك الف درهم يقرضك اياها وتلتمس منه أن يجيبك على ظهر رقعتك ، لترجع اليك فانه لشحه ، يردك بعذر ، وتحفظ بالرقعة ، فاذا طالبك الوزير اخرجتها له على غير مواطاة ، وقلت له : قد أفضت حالي الى هذا (١١٥/٢) .

وجدير بالذكر هنا أن الخلفاء كانوا - عادة - على علم بالثروات المخبأة ، ولم يكونوا يعترضون عليها أو يمدون اليها أيديهم ، الا اذا رأوا أنها صارت من الضخامة بحيث تهدد جانباً من سلطانتهم ، أو أن يواجه الخليفة أزمة سياسية يحتاج حلها الى المال بشكل غير عادي ، ولا تسعفه الخزنة العامة ، وتشح نفسه عن اخراج المطلوب من ماله الخاص ، فحينئذ يلجأ الى المصادرة والاستصفاء ، وهو سلاح مشرع في أي وقت ، وله مسوغاته الجاهزة . يدل خبر عن الرشيد أنه رضي عن فرج الرخجى ، وأعاد عاملاً على الأهواز حين اعترف أمامه بمقدار ثروته الحقيقية ، ومصادر حصوله عليها في مرحلة عمله السابقة وعرض هذه الثروة الضخمة على الرشيد ليأخذها . ودلّ على مكانها ، فقال الرشيد ، بارك الله لك في مالك ، ارجع الى عملك (٣٦٨/١) وخبر آخر عن المأمون ، أنه دعا يوماً بابي عباد ، وأمره أن يأتي عمرو بن مسعدة ، ويدوّن معه ورقة بكل ما يملك بالتفصيل ، ويرقعان عليها معا ، ويحتفظ بها أبو عباد ، وتكون المفاجأة التي لم يفهم سرها أبو عباد أن عمرو بن مسعدة لديه أمر من المأمون أن يفعل الشيء نفسه مع أبي عباد . ويوضح ابن مسعدة اللغز ، فيقول : ان صاحبنا - يعني المأمون - ليس ببخيل ، ولكنه رجل يكره أن يطوي معروفه ، وانما أراد أن يعلمنا أنه قد علم بما صار اليه ، فأمسك عنه على علم (٤٤/٣) وقد أوضح المأمون - فيما بعد - قصده ، فهو لم يستكثر على رجال دولته ما جمعوا من ثروة ، ولكنه أراد أن يزيل عنهم غمّ المساترة ، وثقل المراقبة !! أما هذه الثروة التي سامح فيها المأمون رجله فقد كانت أربعين ألف ألف درهم لابن مسعدة ، وسبعة وعشرين ألف ألف لآبي عباد !! هذه صورة الطبقة العليا في المجتمع ، تتحرك بين قطبين متباعدين ، يمثل الثراء والسلطة جانب ، والمصادرة والسجن جانب آخر ، وبين هذا وذاك حياة متوترة بالتترف وانتهاب اللذات ، وانتهاز الفرص وتوقع المداهمة وزوال السلطان ، ولكنها تمارس جيروت التحكم والعسف ، لعل هذا يؤخر في نزول المحنة القادمة لا ريب . هذا الوضع العام ، بما يشيع من جو نفسي كان له أثره - لا ريب - على النظام الاجتماعي . لقد عرف هذا العصر انتفاضات كبرى ، كثورة الزنج في منطقة البصرة . وثورة القرامطة وقد بلغ بهم الحال أن نزعوا الحجر الأسود من الكعبة ، وطرّدوا الحجاج ، ووصلوا بجيوشهم الى بغداد العاصمة التاريخية ، وان مناقشة هذه الحركات الانفصالية بمعزل عن غياب العدل الاجتماعي ، واضطراب النظام المالي للدولة الاسلامية ، واعتماد الخلفاء على الجنود المرتزقة من ترك وديلم في حماية دولتهم ، يؤدي الى نتائج قاسرة ، وهذه القصص الكثيرة التي تنتشر في الكتاب . يمكن أن نجد فيها ملامح التداخل بين هذه الظواهرات جميعا ، وكيف كان كل منها يرتبط عضويًا بالآخر .

لقد قدم القاضي التنوخي صوراً نادرة لحيل اللصوص ، ونماذج لسلوكهم وتقاليدهم مهنتهم سنجد للصمصام نقياً ، يعرف شخصية السارق من أسلوب سرقة ، والمنطقة التي وقعت بها السرقة وهو يمارس مهام رئيس الطائفة حتى وهو في السجن ، فيتشفع في ردّ مال مسروق (٢٥١/٤) ونجد قاطع طريق يستبيح مال التجار وينهبه معتمداً على فتوى فقهية ، مؤداها أن المال الذي لا تخرج زكاته يَفقد حرمة ، فيأتي بالتجار الذين أخذ تجارتهم ويسألهم كيف يؤدون

زكاتها ؟ بأية نسبة ؟ ومتى ؟ وهل تخرج زكاة الديون ، والمخدرات الذهبية ، الخ ، ويكشف أمامنا عجزهم وتخطيطهم بما يدل على أن حق الله في هذا المال لم يصل الى مستحقيه ، ومن ثم لا حرمة له (٢٣١/٤) وتتعرف على « ابن حمدي » اللص البغدادي المشهور بالفتوة والظرف ، وكان لا يذهب أصحاب البضائع القليلة . وسنجد أبلغ بيان عن محركات اللصوصية يقولها ابن حمدي هذا ، الذي يجيد في قطعه للطريق عملا أقل قسوة وضررا مما يفعل الوزراء والولاة في الناس ، يقول لواحد من سلبهم أموالهم « الله بيننا وبين هذا السلطان الذي أخرجنا الى هذا ، فانه قد أسقط أرزاقنا ، وأخرجنا الى هذا الفعل ، ولسنا فيما نفعله نرتكب أمرا أعظم مما يرتكبه السلطان . وانت تعلم أن ابن شيرزاد ببغداد يصادر الناس ويفقرهم ، حتى أنه يأخذ الموسر المكث ، فلا يخرج من حبه . الا وهو لا يهتدي الى شيء غير الصدقة ، وكذلك يفعل البريدي بواسط والبصرة ، والدليم بالأهواز . وقد علمت أنهم يأخذون أصول الضياع ، والدور ، والعقار ، ويتجاوزون ذلك الى الحرم والأولاد ، فاحسب أننا مثل هؤلاء ، وأن واحدا منهم صادرك .

فقلت : أعزك الله . ظلم الظلمة لا يكون حجة ، والقبيح لا يكون سنة ، واذا وقفت أنا وانت بين يدي الله عز وجل ، أترضى أن يكون هذا جوابك له ؟

فأطرق مليا ، ولم أشك في أنه يقتلني ، ثم رفع رأسه ، فقال : كم أخذ منك ؟ فصدقته . فقال : أحضروه . فاحضر ، فكان كما ذكرت ، فأعطاني نصفه « (٢٣٩/٤) . هكذا يبدو قاطع الطريق صدى لأخلاقيات العصر وسياسته ، ويبدو - في نظر نفسه - أكثر رفقا وإنسانية وأرفع خلقا من الوزراء والولاة فيما ينزلونه بشعوبهم ، فهو لا يستأصل رأس المال في الضياع والعقار ، ولا يتطلع الى الحرم والأولاد ، انه يكتفي بنهب المال المنقول ، وقد رضي هذه المرة بالقسمة مناصفة .

وبصفة عامة فان قطاع الطريق واللصوص كان لهم نفوذ شبه معترف به في المناطق التي يسيطرون عليها ، وكان منسر بعضهم يبلغ مائة نفس ، بأسلحتهم وعدتهم « كالعسكر العظيم » ، ويلفتنا أن القاضي التنوخي يصور الجوانب الانسانية والدوافع النفسية لدى هذه الطائفة الخارجة على النظام - ان كان ثمة نظام ، ولم يصورهم في حالة منفردة أو قاسية الا نادرا - وقد كان بعضهم لا يعبا بسلطة الدولة ويقطع طريق النهر على قافلة بحرية تحمل رسالة من الخليفة ولكن الغالب أنهم كانوا يتجنبون الصدام مع السلطة ، التي كانت تتغافل عنهم في حدود ، وقد تقبل مصالحة بعضهم ومقاسمته مكاسبه ، بشرط أن يتوب ، كما قد تعجب بشهامة بعضهم وفروسيته فلا تسرع الى معاقبته . واذا جاوزنا القصص التي عقدت لقطاع الطريق والمتلصصة ، فاننا سنجد علامات غياب الأمن ، وتعرض القوافل والأفراد للسلب تكاد تكون جزءا من تركيب القصة ، وملامح المجتمع في تلك الفترة المضطربة .

وفي الجزء الرابع بصفة خاصة ، في باب : « من نالته شدة في هواه ، فكشفها الله عنه وملكه من يهواه » سنجد بعض قصص المحيين العذريين في نمطها التقليدي الذي نجده في كتاب « الأغاني » ولكن الأكثر أهمية أننا سنجد عددا من القصص المحبوكة فنيا ، يقوم بدور العاشق والمعشوق فيها السيد وجاريتته غالبا ، أو شاب حر وجارية يملكها بعض

السادة من عليّة القوم أو الجيران ، في أحيان أخرى ، وهذا النوع من القصص يضع أماننا نوعاً من العلاقات الاجتماعية أهملته الدراسات التراثية على تنوعها . هناك بعض الكتب التي اهتمت بأخبار القيان (الجوّاري المغنيات) أو الجوّاري بصفة عامة ، ولكنها اهتمت غالباً بأخبارهن في مجال الغناء أو اللهو والعبث ، أو النفوذ السياسي على سادتهن ، ونادراً ما نجد اهتماماً بالحياة العاطفية لأولئك الجوّاري ، وكأننا نفترض - أو افترض القدماء - أنها مادامت مملوكة فلا بد أن تكون مدعنة لسيدها ، خاضعة لرغباته ، وهذا التصور سيبدأ من افتراض خاطيء ، فأول شرائط الحب أنه يقوم على اعتراف عميق بحرية الطرف الآخر وحقه في أن يمنح أو يمنح عن طواعية ورغبة حقيقية ، وهذا بدوره اعتراف بالمساواة بين العاشق والمعشوق ، وليس مصادفة أن أقوى قصص الحب العذري اتخذت من البادية مهاداً لها وموطناً ، حيث تستقر أسس المساواة بين أفراد القبيلة ، وبين القبائل المتناظرة تتكرر في هذه القصص « لازمة » السيد الذي لا يبقى له من الدنيا غير جاريته المحبوبة قد تقترح عليه أن يبيعها ليعيش بثمرتها ، وقد تعزبه بأنها ستصادف سادة أغنياء يتمكنون من اطعامها وكسوتها ، وقد يأتي الاقتراح من جانب السيد ، لنفس الدوافع ، ولكنه في كل مرة يضعف في اللحظة الحاسمة ، ويرفض البيع برغم الثمن الجزيل المعروض فيها ، ولا يكتفي بالاحتفاظ بها في ملكه ، بل يعلن أمام الشهود أنه أعتقها ، وجعل عتقها صداقتها ، ويطلب منهم أن يزوجوها له .

هذا النوع من القصص يدل على المنزلة الاجتماعية التي حظيت بها الجوّاري في العصر العباسي وهو عصر عرف الخلفاء من أبناء الجوّاري ، لم يشغل مكان الخليفة في هذا العصر على طوله من أبناء الخرائر غير السفاح - مؤسس الدولة ، والأمين ابن زبيدة . وقد كانت الجارية فارسية أو رومية ، مثقفة بأرقى ما يحتاج التعامل الحضاري في ذلك الحين . وبذلك كانت صاحبة الخطوة الفعلية ، حتى على الجزيرة العربية ، التي تكتفي بمظهر السيادة ولم يكن السيد الرجل يتردد في أن يخضع لجاريته ، بل يتدلل ، ويسترضيها قائلاً : ياستي ويسألها أن تصفح عنه ، ويرضى بأن تشاركه عيشه الفقير ، على أن يبيعها ويعيش ثرياً محروماً منها ، وسنجد عندها الوفاء لهذا السيد العاشق ، فلم يحدث أن جارية فضلت أن تباع للأثرياء ، على أن تبقى زوجة لسيدها الفقير ، بل انها تعاونه على اجتياز محنته ، بما تجيد من فن .

لا نريد أن نتوسع أكثر من ذلك ، حتى لا يخرج هذا الفصل عن الحجم الذي ارتضيناه ونكتفي بمجرد الإشارة الى أوجه أخرى تظهر فيها صور المجتمع العربي في القرن الرابع بتفاصيل أدق وأصدق مما صور المؤرخون في غيبة الرصد الاجتماعي للسلوك العام ، وأنماط المعيشة ، وألوان التغير .

أ : العادات والتقاليد مثل كتابة الأحجية بقصد التأثير لاستجلاب الرضا أو تجنب السخط (٢٢٤/١) وتحصين الأطفال بوضع رغيف تحت وسادة الطفل والتصدق به صباح كل يوم (٢٩٢/٢) وتعليق رقع فيها شكاوي ومظالم في محراب المسجد ، أو في قبور أئمة أهل البيت (٢٣٩/١) .

ب : نظام الشرطة ، وسنجد للنظام الأمني مصطلحات وتحركات طريفة : فهناك الشرطة والعسس ، والطواف أو الطائف (١٠٧/٤) وقد كانت بغداد مقسمة الى أربعة أقسام أمنية ، ولكل قسم مسئول ، يعاونه جهاز ينتشر على مساحة الربع ، ويرفع اليه تقارير ، تتجمع في تقرير واحد ، يقدم يومياً الى صاحب الشرطة .

جـ : وهناك السجون وأنواع العقوبات وكانت درجات ، تتدرج شدة واذلالا ، فالمطبق كان كالحفرة ، وكانت كل زنزانة تتسع لسجين واحد وهو جالس ، وفي ديماس الحجاج كان المسجونون جميعا في سلسلة واحدة ، وإلى جانب السجن الحفرة ، وجد السجن المكشوف للسماء ، يحده سور عال ، ولا يقي المساجين أي شيء في الصيف أو في الشتاء ، وكان يحدث أن يسلم الكبراء إلى نظائهم يسجنونهم في بيوتهم ، فهذا نوع من تحديد الإقامة ، أو السجن السياسي ولكنه لم يكن يخلو من عذاب .

وتتدرج العقوبات من الصفع ، إلى التجريد والجلد ، وقد قتل الخليفة ابن المعتز باعتصار خصيتيه حتى الموت .

د : الرسوم : وتراعى فيها منزلة صاحب السلطان ، فالخليفة تقبل رجله ، ويده ، ويقبل العمال البساط بين يديه ، وقد يحظى الوزير أو الكاتب بشيء يشبه هذا ، وكان للخليفة كما للوزير يوم عام يجلس فيه لاستقبال العامة من أصحاب الحاجات ، ويجلس من حوله أركان دولته : الوزير والكاتب وقاضي القضاة ، كل على درجته . وفي الأيام الأخرى لا يدخل عليه إلا بأذن سابق .

هـ : أسلوب الحفاوة : وتكرر في القصص والأخبار طريقة الاحتفاء بعزيز قادم بعد غياب ، أو إكرام غريب وافد . كان الأمر عادة يبدأ بادخاله الحمام ، وتقديم الطعام ، ومؤانسته ، ثم سؤاله عن حاجته وكانت المدن محاطة بأسوار ذات أبواب تغلق عقب الغروب ، فإذا وفد إلى المدينة أحد بعد إغلاق الأبواب لم يسمح له بالدخول ، ونجد دائما قريبا من باب المدينة - خارج السور - مسجداً يقضي به الغرباء ليلتهم حتى يفتح الباب مع الصباح ، ومثل هذا المسجد كان بينه الكبراء قرب بيوتهم ويؤمنون أتباعهم في صلاة الجماعة كل يوم . وكان من عادة رجل العلية أن ينهي صلاته بوقار ، ويتمهل قليلا ليتم دعاءه وتسبيحه ، ثم ينظر خلفه يستعرض وجوه المصلين ، ومن ثم يكتشف الرجوه الغربية ، ويعرف أنهم وفدوا لحاجة فيصحبهم - بين رجاله - إلى جناحه الخاص ، ليسأل كلا منهم عن مطلبه ، ويحسن إلى من جاء منهم يطلب الاحسان .

ثالثا : المحاور الأخرى :

وقد تضمن الكتاب عددا كبيرا من الحكايات الشعبية ، لا تستند إلى خبر تاريخي ، ولا تحرص على الاقتراب من الواقع الاجتماعي ، إن هدف الحكاية الشعبية هو الترفيه ، تسلية المستمع أو القارئ بآثارة دهشته ومخاوفه وإيمانه القدري بأن ما يريد الله يكون مهما كانت رغبة الإنسان . في هذه الحكايات تلعب المفاجآت دورا مهما ولكنه يصنع العبرة في النهاية ، وهنا تلتقي الحكاية الشعبية مع القصة الوعظية التي تهدف إلى غاية أخلاقية ، وإن لم تحرص على التسلية فانها لاتعاب كثيرا بالواقع والمنطق ، لانها تساق أصلا في نطاق المعجزة . ولأن القصص من أجل الوعظ كان بداية طريق القصة الإسلامية التراثية ، فإن أخبار بني إسرائيل والعرب البائدة ، وجوانب من عصر صدر الإسلام ، تظهر في هذا المجال تأتي مطلقة أحيانا ، وأحيانا منسوبة إلى نبي ، فهذا نبي أو صديق ذبح عجلا بين يدي أمه فخبيل ، ومسح

عن فرخ أمام أمه فثاب عقله . (١٤٩/١) أما النبي دانيال فقد ألقى الى أسود جائعة فذلت له حتى وضع رجله على رؤوسها (٧٩/١) وحكاية جحا المشهورة الساخرة ، عن حمارة الذي قطع ذيله ، وامراته التي اسقط حملها ، تروي عن سدوم ، وأن الله أهلكهم بها (٩٦/٣) أما قصص الوعظ القريبة الى عصر المؤلف فانها لا تختلف عن الحكاية الشعبية الا في غايتها الأخلاقية القدورية . وأكثرها يقوم على مصادفة ، فهذا رجل يقسم ألا يأكل لحم فيل ، فيكون ذلك سبب نجاته وثروته (١٩١/٢) وآخر يحمل الأسد الى عربنه ليأكله ، فيجد هناك الثروة وفرصة النجاة (١٣٩/٤) وهذا أسد يقطع الطريق على دائن ومدين ، وكان الدائن قاسيا متشددا ، فأكل الدائن وسلم المدين (١٥٤/٤) الخ .

وتشغل قصص وأخبار آل البيت حيزا مهما ، وتتسلل في طوايا قصص أخرى كثيرة وقد ترجم صاحب « أعيان الشيعة » لابن القاضي التنوخي ولأبيه على أنهما من الشيعة . أما القاضي أبو علي المحسن ، كاتبنا ، فقد ذكرت مصادر أخرى أنه معتزلي ، حنفي المذهب ، وليس ما يمنع من تعاطفه وتعلقه بآل البيت مع اعتزاله وحنفيته . فالأسد لا يأكل أبناء علي وسلالته (١٧٠/٤) وشخصية الامام علي تتراءى في المنام للظالمين والذين يوشكون على الوقوع في الخطأ ، فتظهر لهم وجه الصواب أو تردعهم ، ولا يقوم معها بهذا العمل غير الرسول عليه السلام ، وقد يظهر النبي في المنام ليوصي بأحد العلويين (٢٨٠/٢) بل أن المعتضد لم يعرض في خلافته للعلويين ، وتفسير ذلك أنه حين كان سجيناً رأى عليا في المنام ، فبشره بالخلافة ، وهو الذي لقبه المعتضد (٢٠٩/٢) ولا يظهر بعد الرسول وعلي في المنام غير الحسين وفاطمة (٢٩١/٢) وتترأى عبر قصص كثيرة المنزلة السامية التي يشغلها آل علي في قلوب جمهور المسلمين ، فزيارة الحائر (قبر الحسين في كربلاء) لها موسم ينطلق الناس فيه أفواجا ، وجرايتهم في أموال أتباعهم ثابتة كالفرض ، أو هي فرض ، على أن أخلاقهم ونبلهم وترفعهم عن شهوة الانتقام من خصومهم وتنزيه ألسنتهم عن هجر القول ، وحرص عامة المسلمين وخاصتهم على سماعهم ، والتقاط أدعيتهم ونصائحهم ، مما نجد عليه أدلة كثيرة لانتشاره في أثناء القصص .

أما القصص التعليمية ، فانها تكون عادة واضحة التلفيق ، وهي لا تعباً بغير ما وضعت له ، وهو تفسير مناسبة أبيات ، أو شرح حكمة ، أو خطبة . . . الخ . وتضحى القصة التعليمية بالجوانب الفنية الا نادرا ، وسنجد قصصا لشرح مسائل فقهية ، عن زكاة المال ، وحرمة عروض التجارة ، وحق ابن الرقيق في وراثته أمه الحرة (٧٤/٣) وقصصا لشرح أبيات (١٠٢/١) و (٢٨١/١) و (٣٩٦/٢) وغيرها . ومن هذا النوع نجد قصة واحدة طريفة ، سنتوقف عندها في الفقرة التالية وهي قصة « حائك الكلام » .

هذه - باختصار - مجالات الاهتمام الأساسية التي تحرك بين أقطارها القاضي التنوخي ، وهناك محاور غيرها ، كالقصص التي هدفت الى تصوير أساليب علاج الأمراض المختلفة ، والقصص التي صورت الأثر السيء لحياة الجنود المرتزقة - الترك بخاصة - في بغداد وما أنزلوه بأهلها من مظالم واعتداء على الحرمات ، ولن يكون هذا التعريف مغنيا عن قراءة مفصلة تكون أكثر وفاء للدلالة على آفاق المعرفة ، وأنواع الخبرات ، التي استمد منها القاضي التنوخي ، مادة كتابه « الفرج بعد الشدة » .

٧ - البناء الفني للقصة :

باستثناء الأدعية ، وبعض أمثلة الوعظ ، والاقتباسات الشعرية ، تشغل حوادث التاريخ وشخصياته - على اختلاف في أهمية الخبر أو منزلة الشخصية التاريخية - الحيز الأكبر من الكتاب ، بل تكاد تكون طابعه العام ، وهذا واضح في ترتيب المصادر التي اعتمد عليها الكاتب ، ونقل عنها ، وتليها حوادث وشخصيات ليست من التاريخ ، أو لا تحتسب عادة على التاريخ ، لأنها معاصرة لحياة المؤلف ، أو قريبة جدا من عصره ، أو لأنها لم تشغل في حياتها مكانا مهما يرقى بها الى مستوى الحدث التاريخي أو الشخصية التاريخية ، ثم تليها أخيرا حوادث وشخصيات مخترعة ، واضحة الوضع ، وهذا التقسيم « الموضوعي » ليس هو التقسيم الفني ، الذي يحتكم عادة الى الصياغة ، ولهذا فأننا استخدمنا من قبل مصطلحات : الخبر ، والقصة والحكاية . وهذا التقسيم الفني لا يتوكل على الصلة بالتاريخ ، أو الواقع ، وإنما يعتمد على التشكيل الفني للمادة .

نذكر هنا أن القصة تروي خبرا ، ولكن - كما يقول رشاد رشدي - لا يمكن أن نعتبر كل خبر أو مجموعة من الأخبار قصة . فلأجل أن يصبح الخبر قصة يجب أن تتوفر فيه خصائص معينة أولا أن يكون له أثر كلي ، وأن يكون للخبر بداية ووسط ونهاية ، أي أنه يصور ما يسمى بالحدث ، ينتهي الى لحظة كشف ، أو ختام يمنح الحادثة مغزاها ، يسمى : لحظة التنوير^(٣٧) كما نذكر النموذج المبسط الذي أوضح به القاص الناقد فورستر أهم خصائص البناء الفني ، وهو « الحبكة » فيرى أن « الحكاية » مجموعة من الحوادث مرتبة ترتيبا زمنيا ، أما الحبكة « فهي سلسلة من الحوادث يقع التأكيد فيها على الأسباب والنتائج ، فإذا قلنا : « مات الملك ثم ماتت الملكة بعد ذلك » فهذه حكاية ، أما : « مات الملك ، بعدئذ ماتت الملكة حزنا » فهذه حبكة وقد احتفظنا بالترتيب الزمني ، ولكن الاحساس بالأسباب والنتائج يفوقه . أما « ماتت الملكة ولم يعرف أحد سبب موتها حتى اكتشف أنها ماتت حزنا على وفاة الملك » فهذه حبكة بها سر غامض^(٣٨) .

وينبغي أن ننبه هنا الى الفرق بين استعمالين للحكاية ، فهي في البناء القصصي تعني التتابع الزمني للحوادث الجزئية ، وكأنها جواب عن سؤال يتكرر : فما الذي حدث بعد ذلك ؟ ولكن حين توصف بها حادثة بأكملها ، فيقال انها تنتمي الى جنس الحكاية ، أو الحكاية الشعبية . ولا شك أن الوصف بالشعبية أضيف لفني وقوع الالتباس ، فانها تعني الأشكال القصصية حين تبتعد عن الطابع الانساني ، والسلوكيات الاجتماعية ، وتتعلق بالجوانب الخرافية لأهداف وعظمية وتعليمية تهذيبية ، ولترضى نزوع الخيال الى المغامرة والبطولة ، وغالبا ما يكون التماسك بين أجواء الحكاية غير متقن ، لاعتماده على المصادفة ، كما أن « الحكاية » لا تركز على العنصر الانساني انها تتحرك في عوالم الحيوان ، والجان ، وتصور فعل الخوارق والسحر ، وما يقترب من هذه الاجواء ، بعكس القصة .

(٣٧) لن القصة القصيرة ص ١٥ - ٢٠ .

(٣٨) أركان القصة ص ١٠٥ .

لعله قد وضح الآن كيف يمكن أن يظل الخبر التاريخي مجرد خبر ، وكيف يمكن أن يغادر التاريخ الى الفن اذا ما تشكل وفق أصول الفن القصصي ، بل كيف يمكن أن يبارح الخبر التاريخي دائرة القصة ، الى دائرة الحكاية الشعبية ، اذا ما أسرف الخيال في تصويره ، وأضفى عليه من المبالغة وخاض به من العوالم ، وعلق عليه من الأعمال البطولية ، ما يخرج به عن السوية الانسانية .

وهذا هو المقياس الذي احتكنا اليه .

لن نعرض للخبر التاريخي ، فهو خارج دائرة الصناعة الفنية ، ولكننا سنتوقف طويلا عند القصة والحكاية الشعبية ففيهما تظهر موهبة الكاتب .

وقبل أن نحاول اكتشاف مجموعة الأسس الفنية التي آثرها الكاتب فيما أورد من قصص ، سنسلم مبدئيا بأنه ليس مؤلف هذه القصص . كيف وهو يذكر مصدرها وسلسلة روايتها قبل نصها ؟ لنقل اذا : انه اختار قصصه وفق هذه الأسس الفنية ، أولنقل : ان هذه الأسس تنتمي الى القصة التراثية في الأدب العربي بعامه . ومن جانبنا - فإننا وإن كنا لا نستطيع أن نطرح من معارفنا المصطلحات النقدية الخاصة بفن القصة القصيرة ، وهي شكل معاصر - ينبغي أن نضع في الاعتبار استقلال القصة القديمة بأصولها الخاصة . ان « الحكمة » هي أهم عناصر البناء القصصي ، ونحن - على أية حال - نتجاوز بها ما حددها به فورستر ، وهو التركيز على الأسباب والنتائج ، الى قضية أدق ، وهي : كيف تعاونت جزئيات العمل ، أو مراحلها ، لتصنع في النهاية شيئا واحدا لا يسهل تحويله الى أشلاء ؟ وهنا تختلف مستويات القصص التراثية ، كما تختلف مستويات الكتاب في خبرتهم ، وقدرتهم على اثارة التشويق دون مغادرة الخط الأساسي في القصة .

ويمكن أن نرصد ثلاثة أنواع من الحكمة : التقليدية ، والقصة داخل القصة ، والقصص المتحاورة + الحكمة التقليدية وضح معناها في التعريف ، وهي الأكثر انتشارا ، واتقانها يحتاج الى قوة الملاحظة ، والتركيز ، ونجد عليها أمثلة كثيرة نكتفي بإشارة الى واحد منها ، وهي من قصص اللصوص (٢٥٦/٤) فقد نفذ أحد اللصوص عملية سرقة لمحل بزاز (تاجر أقمشة حريرية) معتمدا على ذكائه وثبات أعصابه ، فقد جاء الى الدكان وقد تزيا بزى صاحبه ، ومعه شمعة ومفتاح ، وصاح بالشرطي الذي يحرس الدكاكين أن يشعل الشمعة ويحملها حتى يتمكن من فتح الدكان ، لأن له فيه شغل ، وهكذا تحت سمع الحارس وبصره جلس اللص وسط البضائع يكتب ويحسب ، ثم نادى الحارس من جديد أن يطلب له حمالا ، فذهب فأحضر الحمال . الذي حمل أربع رزم ثمينة ومضى مع اللص الذي لم ينس أن يفتح الحارس بدرهمين . واستيقظ سوق بغداد ، وجاء التاجر صاحب الدكان ليفتح الأبواب ، فأقبل عليه الحارس يشكره على ما أكرمه به ليلة أمس ، فاستراب الرجل ، ثم تأكد حين فتح الباب ، ووجد أثر الشمعة ، ومكان الرزم المسروقة ، وهنا - دون ضجيج - استدعى الحارس وسأله : من الذي حمل معي الرزم البارحة ؟ فلما عرف أنه حمال ، طلب منه احضاره هو بنفسه ، فأحضره الحارس ، فاعتذر التاجر للحمال بأنه كان البارحة متنبذا (شارب نبيذ) ولم يدرك أين ذهب بالرزم . فأخبره الحمال أنه ذهب معه الى شاطئ النهر ، وأنزل بالرزم معه في زورق ملاح معين . فذهب التاجر الى

الملاح وسأله : أين حملتي أمس مع أقمشتي ؟ فحدد له المكان ، كما حدد له الحمال الذي ساعده في مغادرة الزورق ومضى معه . فدعا بالحمال ولأطفه ، وأعطاه شيئا ، وسأله عن الموضع الذي انتهى إليه ، فدلّه على غرفة خارج البلد ، مشرفة على الصحراء ، على بابها قفل ، ما لبث أن كسره التاجر ، فوجد رزمه الأربع كما هي ، ووجد قريبا منها مئذرا ، لفها فيه ، وحملها الحمال ، وانصرفا ، حين خرج من الغرفة استقبله اللص ، وفهم الأمر ، فاتبه إلى الشط ، ونزل التاجر والحمال إلى السفينة ، فدعا الحمال من يحط عنه ، فتقدم اللص يساعده كأنه متطوع ، وأنزل الرزم إلى السفينة ثم وضع المئذرا على كتفه ، وقال للتاجر : يا أخي ، أستودعك الله ، فقد استرجعت رزمك ، فدع كسائي .

هذه قصة تبدو عادية ، من السهل تأليف مثلها ، ومع هذا فقد روعيت فيها أصول صناعة القصة ، وركبت تركيبا جيدا . فقد كان التاجر « يطلب التلصص في حدائته ثم تاب وصار بزازا » وهذا يفسر سيطرته على أعصابه حين فوجئ بالسرقه ، ويفسر قدرته على تصور ما حدث ، والطريقة المثل لتتبع الخيط ، حتى يقوده إلى مكان المسروقات ، وهذا يفسر نداء اللص له في آخر القصة « يا أخي » فقد أدرك هو أيضا أن هذا الدهاء ليس دهاء التجار ، الذين تتجلى مواهبهم في اقناع المشتري ، وإنما هو دهاء مجرب يعتمد على الحيلة ، وشخصية اللص مبنية بناء سليما من الناحية السيكلوجية ، فهو يعرف أن من دأب الحارس في الاسواق أن يسأل المتردد المتلفت ، وينصرف عن الواصلات التلقائي ، وقد سأل الحارس ، قبل أن يسأله ليشغله بالجواب ، ولم يكتف بسؤاله ، بل صاح به ، وطلب معونته في فتح الدكان ، وهكذا نفى عن خاطره تماما أنه ليس صاحب الدكان . ويمثل هذه الثقة عمل الآخر أيضا ، فلم يفجأ أي واحد ممن عاونوا اللص أن سرقة قد حدثت وأنه قد ساعد اللص في اتمامها ، ولعل هذا لحدث لأنكر الجميع أنهم شاهدوا أحدا أو عرفوا شيئا ، بدءا من الحارس ، الذي لا بد أن يدرك تهمة المواطأة أو الإهمال عن نفسه ، وقد استعمل التاجر لغة الرفق والحيلة مع الحارس ، والحمال ، والملاح ولكنه مع الحمال الأخير جاوز الملاحظة إلى الرشوة « أعطاه شيئا » فهذا الحمال الأخير هو عقدة الموقف . لقد انتهت كل الخيوط عنده ، وفي استطاعته أن يفسد كل المراحل السابقة لو أنكر أو ضلل ، وأيضا فإنه إذا كان للسابقين عذر في عدم معرفتهم بأن الرجل لص ، فإن هذا الأخير كان ينبغي أن يعرف ، ويغلب على الظن أنه يعرف ، فليس من اليسير إيجاد مبرر مقبول لوضع رزم الحرير في غرفة خارج المدينة ، قريبة من الصحراء . من هنا كان المال بمثابة اغراء و « تطمين » ومصالحة ، على إفشاء سر الخطوة الأخيرة .

أما القصة داخل القصة فقد تكرر استخدامها ، وهي تحتاج إلى مهارة في الربط بين القصتين بحيث لا يبدو الانتقال مفتعلا ، أو لا مسوغ له ، فضلا عن ضرورة توحيد المعنى العام ، والمغزى ، لأن القصة الثانية هي بمثابة جواب عن السؤال المطروح في القصة الأولى ، وقد وفقت بعض المحاولات ، كما أخفقت محاولات أخرى . من التجارب المفككة التي افتقدت الرابط العضوي بين القصتين قصة عمر بن أبي ربيعة والجعدي والفتاة الفارسية المتخفية في ملابس الرجال (٤٠٢/٤) وقصة زينب بنت سليمان الهاشمي ، مع شاب علق إحدى جواربها ، وجاء يستوهبها فوصفتها بالحمق وراحت تقص عليه قصة أخرى ، بطلتها مزنة امرأة مروان بن محمد ، وقد ذهبت أيام عزها ، وجاءت تستجدي الخيزران فأهانتها ثم تراجعت فأكرمتها . القصة الأولى مجرد مدخل ، ولا رابط بين القصتين إلا كرم زينب وحكمة تصرفها (٧٥/٤) .

يمكن أن نجد نموذجاً مقبولاً في قصة محمد بن زيد العلوي ، صاحب طبرستان ، وكان من عادته أن يفرق ما يبقى في بيت المال ، آخر كل عام ، بحيث يأتي خراج السنة الجديدة وليس في بيت المال شيء . وكان يوزع على قبائل قريش ، والأنصار ، والفقهاء ، ثم عامة الناس . وحدث أنه كان يفرق المال ، فلما انتهى من بني هاشم ، دعا بسائر بني عبد مناف فقام شباب وانتسب ، فاذا به من أحفاد يزيد بن معاوية وقد قتل الحسين رضي الله عنه في خلافته . « فنظر إليه العلويون نظراً شديداً ، فصاح بهم محمد وقال : كفوا عافاكم الله ، كأنكم تظنون أن في قتل هذا دركاً أو ثأراً بالحسين . . . والله ، لا يعرض له أحد إلا أقدمته به ، واسمعوا حديثاً أحدثكم به ، يكون قدوة لكم فيما تستأنفون من أموركم » .

وهكذا تبدأ القصة الثانية ، وتستمر في إطار الأولى ، ولتأكيد الغاية منها ، وقد جرت في زمان آخر ، لشخصيات أخرى ، لكنها لم تنفصل عن الجوّ الذي رسمته القصة الأولى : فقد كان المنصور في مكة ، وعرف أن محمد بن هشام بن عبد الملك فيها ، فدعا إلى صلاة جامعة في الحرم ، ليتمكن الحراس من اكتشافه والقبض عليه ، وعرف الفتى الأموي أنه مقتول لا محالة ، ولم ينقذه بتضليل الحراس إلا محمد بن زيد بن علي بن الحسين ، رضي الله عنه ، إذ طرح رداءه على رأسه ووجهه ، وأخذ يجره على أنه جمال من الكوفة خدعه فيها حمل له ، حتى أخرجه من بين الحرس ، ولم يقبل منه هدية عرفان وقال : « يا ابن عم ، أنا أهل بيت ، لا نقبل على المعروف مكافأة » (٣٣٤ / ٢) فهذا هو الوجه الآخر للقصة الأولى : ولا ننزل عقوبة بغير مستحقها ، وهو مغزى مستفاد من القصتين كل على حدة .

إن ضعف الرابطة هو الغالب على هذا النوع من القصص ، ونعني الذي يقوم على الاستطراد من قصة إلى أخرى . وقد يعاب هذا من منظور عصري ، ولكنه كان طريقة عربية راسخة ، يمكن أن نزع أن هذا الكتاب - وما يشبهه - كان بداية لها توسعت في الحكايات الشعبية ، التي بلغت قممها في « ألف ليلة وليلة » وهذه الطريقة تقوم على التوازي بين الاستقلال والادماج ، فالقصتان يمكن أن تقرأ كل منهما على أنها مستقلة ، وتؤدي وظيفتها الخلقية أو التعليمية ، أو الترفيهية بنوع من الاكتفاء ، ولكنها لا تنبت تماماً عن القصة التي استدرجنا إليها ، فالربط بين القصتين ، واكتشاف تكاملهما ، وليس اندماجهما تماماً ، أمر ممكن ، وهذه الطريقة وجدت أقصى امتداد لها في « ألف ليلة » التي يمكن اعتبارها حكاية واحدة ممتدة ، واعتبارها حكايات متعددة .

أما القصص المتجاورة فهو مصطلح وضعناه لندل به على القصة الواحدة حين تروى من طرق متعددة ، وهذا يحدث كثيراً في كتاب « الفرج بعد الشدة » وقد يحدث أحياناً ليست قليلة أن تكون الرواية الثانية أكثر توسعاً في وصف الحدث من الرواية الأولى ، وتكون الثالثة أكثر توسعاً من الثانية ، وكأن مؤلف الكتاب قد أراد شيئاً من وضع الروايات الثلاث على هذا الترتيب ، فمن المسلم أن القصة وصلته بأكثر من رواية ، وكان يمكن أن يصفها بأي ترتيب أو بلا ترتيب ، ولكن يلاحظ أن خطأ ينمو ، وأن التفاصيل تزيد وأن الغموض ينجلي ، مع التقدم إلى الرواية الثانية ، فالثالثة ، وكأن القاضي التنوخي يضع الروايات المختلفة في علاقة جدلية ، نرى من خلالها « الحادثة » وهي تتكون ، بمشاركة الرواة وصناعتهم ، أو بالكشف عما كان خافياً من أسرارها ، أو بتحديد وجهات النظر المختلفة حول حقيقة موضوعية

واحدة ، على النحو الذي نجده في بعض المحاولات القصصية المعاصرة ومن أشهرها «ميرامار» لنجيب محفوظ ، وقد رويت حوادثها من خلال أبطالها جميعا ، يرويها كل شخص كما تراءت له ، من خلال مشاركته ، وفي حدود اطلاعه وتفسيره .

نشير الى محاولة ناضجة في هذا المجال ، تجري القصة بين كاتب ووزير ، الكاتب هو سليمان بن وهب ، والوزير هو محمد بن عبد الملك الزيات ، وتستمر ليكتمل معناها بين ولديهما عبيد الله بن سليمان ، الذي صار وزيرا ، وعمر بن محمد الذي صار من أتباع عبيد الله . تبدأ القصة من نهايتها أو قرب نهايتها ، وقد أقبل عمير يطلب أن يعينه عبيد الله بمنحه وظيفة أو معونة ، فيفعل ، ويصرفه ثم يبدأ في قص ما كان من صراع بين والديهما : سليمان ، ومحمد بن عبد الملك ، وقد صور هذا الصراع في ثلاث روايات متعاقبة .

حددت الرواية الأولى زمن الصراع ، في أيام الواصل ، وسببه بطريقة اجمالية ، فقد كان سليمان مغضوبا عليه ، فحمل الى ابن الزيات ليحاسبه ، ويشرف على حبسه ، ولم يترقب ابن الزيات بسليمان على الرغم من أنه كان يستخدم أخاه الحسن بن وهب كاتبا له ، وفي لحظة المواجهة يأتي أحد الخدم حاملا الطفل عمر ومظاهر الترف بادية عليه ، فلما رآه سليمان بكى ، فأبى ابن الزيات إلا أن يعرف سبب بكائه ، ولكن سليمان لزم الصمت ، فلما ألح الوزير مصمما على معرفة سر البكاء ، تدخل أخو سليمان ، الحسن ، وراح يرقق قلب الوزير قائلا : ان سليمان له ولد في مثل سن عمر ، وقد تذكره حين رأى ولدك ، فبكى . وهنا سخر الوزير من أن يكون لسليمان ابن مثل ابنه ، أو أن يتطلع الى أن يكون ابنه وزيرا . لقد تألم سليمان بشدة من قسوة ابن الزيات ، وثقته المتطرفة التي تصدر القدر ، وتغفل عن ارادة الله . وهنا اضرع سليمان الى الله أن يصير ابنه عبيد الله وزيرا وأن يتقدم اليه عمر متظلما . وقد كان . وقد أكرمه عبيد الله وفاء للذكرى ، وأمنيته التي تحققت .

تبدأ الرواية الثانية من حيث بدأت الأولى أيضا ، أي من النهاية ، فعمر يتقدم الى عبيد الله وهو وزير ، يطلب عونه ، فأكرمه ، وصرفه ، ثم راح يقص ما كان بين والديهما من صراع . في هذه الرواية يصف سليمان أيام المواجهة بأنه كان « منكوبا » وأنه كان « في يد محمد بن عبد الملك الزيات » وأنه كان يحضره كل يوم ، « بغير سبب » ولا مطالبة ، « الا ليكيدي » و « أنا في قيودي » و « وعلى جبة صوف » لا بد أن يلفتنا هذا التأكيد لغطرسة ابن الزيات ، وغرامه بالتشفي ، واذلال سليمان ، حتى أن الوزير كان يجعل الحسن بن وهب ، يحضر هذا الموقف الضنك الذي يلاقى فيه أخوه الهوان . وحدث في إحدى المواجهات أن حمل الطفل عمر الى مجلس أبيه ، وأخذ الجلوس يدعو له ، ويشبون لتقبيله ، فيما عدا سليمان ، الذي كان في شغل بما ينزل به من عذاب ، وأراد ابن الزيات أن يزيد في عذابه النفسي ، فسأله لماذا لا يدعو لولده ويقبله مثل سائر الجالسين ، فلما اعتذر بما يعاني ، قال ابن الزيات . « لا ، ولكنك لم تطلق ذلك ، عداوة لأبيه وله ، وكأني بك ، وقد ذكرت عبيد الله ، وأملت فيه الآمال ، والله ، لا رأيت شيئا مما تؤمله فيه » وكان هذا البغي المسرف كان بمثابة بشرى أن يخلف ظن الظالم . وبالفعل لم تمض مدة ، حتى غضب المتوكل على وزيره ابن الزيات ، وأسند محاسبته الى سليمان ، فدخل دار خصمه ليحصي متاعه ، وهنا رأى الطفل عمر في حال

أخرى وقد دالت دولة أبيه ، كان يبكي لأن أشياءه الخاصة قد صودرت أيضا ، فرق له سليمان ، وأعاد إليه ما يملك ، وأوصى ابنه به إذا ما أوقفه القدر بين يديه .

لقد أضافت الرواية الثانية هذه تفصيلا في وصف المشاعر ، ووسائل التعذيب النفسي كما أضافت مشهدا بكى فيه الطفل المدلل ، حين اختلف الحال ، كما أشارت باجمال الى ان عبيد الله قد استخدم عمر في بعض أعماله الخاصة .

ثم تأتي الرواية الثالثة والأخيرة ، فتبدأ من النهاية أيضا ، ولكنها لا تكتفي بأن تقول أن عمر أقبل متظلمًا يطلب العون من عبيد الله ، وإنما تنكره وتصفه وصفا قاسيا ، ويقول الراوي : « كنا بحضرة عبيد الله بن سليمان ، أول وزارته للمعتضد ، وقد حضر رجل رث الهيئة بشياب غلاظ ، فعرض عليه رقعة ، وكان جالسا للمظالم ، فقرأها قراءة متأمل لها ، مفكرا ، متعجبا ، ثم قال : نعم وكرامة ثلاث مرات - أفعل ما قال أبي ، لا ما قال أبوك ، وكرر هذا القول ثلاث مرات » هذه البداية هي التي تناسب الصياغة القصصية . لاحظ حالة التضاد بين موقفين : وزير في أبهة السلطة يجلس للمظالم ، ويوصف مجلسه بأنه « حضرة » ، وانسان نكرة ، لم نعرف هويته أو طوبته ، يتقدم شاكيا يلتمس الانصاف ، وحاله من البؤس والخشونة بمكان ، وهنا لا يكتفي الوزير بإصدار أوامره بانصافه ، بل يعلق على الظلامة ، ويظهر أن له موقفا من هذا المتظلم ، وهو موقف له جذور ضاربة في الزمن ترجع الى عصر أب كل منها . . . وهذا الغموض يثير التشويق ويحركه ويجعل القارئ يتلهف الى اكتشاف الصفحة المطوية من الصراع بين الأبوين ، وعلاقة هذا الصراع بالموقف الحالي ، وقد تبادل الولدان موقعيهما .

وتضيف هذه الرواية الثالثة تفصيلا محتاجه القصة أحيانا ، ولا نشعر بأهميته أحيانا أخرى لكنه يبقى في صالح أضافه جو الواقعية ، وتوثيق القصة وكأنها تاريخ ، فنعرف أن سليمان كان كاتبًا لايتاخ - القائد التركي - وأنه صوّد على أربعمئة ألف دينار ، وأنه استطاع أن يؤدي أكثر من نصفها وعجز عن الباقي ، فحبس ، وأمين بفعل ابن الزيات . ثم تأتي لحظة المواجهة ، ويضطر ابن الزيات أن يغادر المجلس قليلا ، وهنا ينبي الحسن ابن وهب ، الى أخيه همسا ، أنه ولد له غلام ، ويطلب منه أن يسميه ويكنيه ، فترتفع معنويات هذا الأب السجين المرتهن بمال لا يستطيع أدائه ، وحين يعود ابن الزيات ، ويلاحظ وجه سليمان وقد ذهب عنه شعور الذل ، وارتفعت مقدرته الروحية لهذا الغلام الذي بشر به ، يلح عليه أن يعرف سر هذا التبدل ، فيصمت سليمان ويتكلم أخوه الحسن ، فيعلن ابن الزيات أنه حين قام من المجلس تلقى بشرى مولد غلام له أيضا . وهنا يقوم سليمان ويقبل يدي ابن الزيات ورجليه ويتوسل بالغلام الوليد ، الذي رأى النور مع ابنه في نفس اليوم ، راجيا أن يرحمه الوزير ، معلنا عن أمله أن يكون ابنه كاتبا عند ابن الوزير في المستقبل . ولكن ابن الزيات الذي جبلت نفسه على الشك والقسوة ، يخمن أن هذه ليست أمنية حقيقية يضمها سليمان للطفلين اللذين ولدا في يوم واحد ، وأنه - في رأي ابن الزيات - يضم العكس ، أن يكون ابنه وزيرا ، وأن يقبل عليه الآخر متظلمًا ، ثم يبلغ به أقصى درجات العمى والاطمئنان الى الزمن ، فيقول : انني استحلّك بالله ، اذا صار ابنك وزيرا ، وجاءه ابني يطلب احسانه ، أن توصي ابنك الا يحسن اليه .

ولكن سليمان أوصى ابنه أن يحسن اليه ، وقد عمل الولد بوصية أبيه حين صار وزيرا ، وهذا سر عبارته : نعم

وكرامة ، أفعل ما قال أبي ، لا ما قال أبوك . وتضيف هذه الرواية الثالثة أن عبيد الله استخدم عمر كاتباً عنده ، وقلده ديوان البريد والخرايط ، وأن عمر كان إذا كتب لعبيد الله يصدر رسالته بعبارة : عبد الوزير وخادمه ، وأن عبيد الله أراد أن يتكرم عليه ، فمنعه ، من كتابة ذلك ، وعدل الصيغة الى : خادم الوزير (٢ / ٩٢) .

هذه القصة في رواياتها الثلاث نموذج للنوع الثالث من أنواع الحكمة ، نجد لها أشباها ، مع التفاوت في درجة التماسك ، أو تدرج الأسلوب نحو التفصيل وتصعيد الحوادث وتنمية الخط الاساسي (انظر مثلاً : ٧٢/٢ - ٢٢٣/٢ - ٢٨٢/٢) .

وفي نهاية الحديث عن أنواع الحكمة ، نذكر بأن طريقة التقديم ظلت واحدة في مظهرها الخارجي فما دامت القصص جميعاً تبدأ بسلسلة من الرواة ، في أولها من رأي موضوع القصة أو شارك فيه ، أو سمع به ، فان القصص ستظل بهذه البداية ، ومع هذا فانه لم يكن من الضروري أن يكون الراوية هو نفسه البطل ، انه مجرد مشارك ، أو مشاهد ، أو ناقل أحياناً ، ولهذا استعمل ضمير المتكلم ، كما استعمل ضمير الغائب ، بل قامت بعض القصص على ما يمكن أن يكون مشهداً حوارياً ، لا يقوم فيه الوصف أو السرد بدور ذي بال .

وما دامت هذه القصص جميعاً - الفنية منها والشعبية - قد انتخبت على أساس فني ، أجمله الكاتب في عنوان كتابه : شدة يعقبا فرج ، ويحملها النقد منذ العصر الكلاسيكي في أزمة يعقبا حل ، فان « التحول » يقوم بدور أساسي في كل هذه القصص ، لأن التحول يعني اختلاف مصير البطل ، الى الضد تماماً ، فيصير سعيداً بعد شقاء أو شقياً بعد سعادة . . وهذا النوع الأخير تحدث عنه أرسطو بالنسبة للبطل التراجيدي ، وربط به نظريته في الفن الشعري من حيث الغاية والهدف ، وهو « التطهير » ، ولكن كاتبنا العربي اختار قصصه على أساس الانتقال من الشقاء الى السعادة ، لأنه لم يفكر بالطريقة التي فكر بها أرسطو ، وهي ممارسة الاحساس بالالم ، باستثارة مشاعر الخوف والرحمة ، بغية التخلص من القدر الزائد المفسد للنفس من هاتين العاطفتين أو تطهير هاتين العاطفتين مما علق بهما من خبث ، « فان هذا لا يزال مثار جدل » (٣٩) وانما فكر القاضي التنوخي من زاوية أخرى هي أقرب الى الطبيعة الشرقية ، والاسلامية ، وهي زاوية الايمان القدري ، وعدالة السماء ، وفي هذا يختلف أبطاله عن طبائع البطل التراجيدي - بالمعنى الكلاسيكي لأنهم لم يشعروا بالتعارض مع ارادة الله ، ولم يسعوا الى مقاومتها ، وانما كانوا بعكس ذلك ، يقومون بأدوارهم الانسانية ، ويسعون في الدنيا بقوانين هذه الدنيا وأعرافها ، التي قد يكون فيها أحياناً ما يضاد الخير والعدل والبراءة ، ومع هذا فان هؤلاء الأبطال يحتفظون بهذا الايمان القدري في مكان خفي لا يؤثر في تصرفاتهم اليومية ، أولايكاد يؤثر ، لكنهم يستخرجونه بحركة بارعة ، ويختمون به اذا ما نزلت بهم محنة ، ولأن الايمان القدري يعمر نفوس العامة ، كما يستقر في نفوس الخاصة ابان تعرضهم للمصائب ، بعكس التمرد على القدر ، الذي لا يجاهر به الا الأقوياء ، فان أبطال قصص القاضي التنوخي انتموا الى جميع الطبقات الاجتماعية ، وليسوا من علية القوم دائماً ، وأن غلب على بعضهم ذلك ، وبهذا تحقق الشرط التراجيدي في مجابهة المحن ، وتحلف الشرط الآخر . وهو أن تكون الشخصية بطولية مرموقة ، تهوى من مقامها العالي .

(٣٩) الكوميديا والتراجيديا ص ٢١٣ .

لقد تحدث أرسطو أيضا عن « التعرف » وهو يعني اكتشاف السر المجهول الذي يتم به الفعل الدرامي ، ويتحول على أثره مصير البطل ، ولهذا اشاد بالاعمال الفنية التي اقترن فيها التحول بالتعرف ، أو يمكن أن نعدل هذه العبارة الى أن المعرفة هي التي أدت الى تغيير المصائر .

حين نقوم بمراجعة قصص التنوخي في ضوء هذه القاعدة (ولسنا نجد حرجا في ذلك فالقصة التراثية أقرب ما تكون الى القصة القصيرة المعاصرة ، التي أخذت من المسرحية الكلاسيكية وحدة الحدث ، وربما الوحدات الثلاث ، فضلا عن التركيز ، ولحظة التنوير التي تعتبر بديلا للتعرف والتحول) سنجد التحول جزءا من بناء القصة - للأسباب التي قدمنا - ولكنه أحيانا ، بل ربما غالبا لا يقترن بتعرف ، أو لا يوجد في القصة تعرف بالمرة ، ولعل هذا أن يكون تأكيدا لعمق الايمان القدري ، وقديما عبر شاعر شعبي عن هذا المعنى الذي لا يجد أهمية للأسباب ، ما دامت الثمرة قد تحققت :

ملك الملوك اذا وهب لا تسألن عن السبب

ولاشك أن القفز الى النتيجة ، وتجهيل الأسباب أو تجاهلها ، يقلل من منطقية العمل الفني ، ومن ثم مشابهته لواقع الحياة ، ودرجة اقناعه ، هناك قصص جيدة ، اقترن فيها التحول ، بالتعرف ، فوصلت الى ختامها بتدرج مريح ، مثل قصة صاحب الشرطة اسحاق المصعبي (٥/٤) وقد عزم على قتل بناته ، فأخذن في البكاء دون أن يملكن مراجعته ، ونعرف السبب حين يبعث الى أحد أصدقائه - هو أقرب الى التابع - ليفضى له برغته في قتل نسائه ، وسبب هذه الرغبة ، أما السبب فقد كان ما ثلا في التقارير الامنية التي رفعت اليه في هذا اليوم . لقد داهمت شرطة بغداد بعض البيوت المشبوهة ، ذات السمعة السيئة ، فوجدت بداخلها ، نساء كن بنات وزوجات لكبراء في الدولة ، مضى زمانهم ، ومن هنا فكر قائد الشرطة في أن مستقبل بناته وزوجته لن يكون خيرا من أولئك ، وبعد حين يزول سلطانه ، ويموت ، لتضبط بناته في بيوت مشبوهة ، لقد أصبح مقتنعا أن هذا الاحتمال واقع في المستقبل لا محالة ، فانه - المصعبي - ليس خيرا ولا أهم من آباء وأزواج أولئك النسوة لقد وصل الفرج عن طريق هذا الصديق الذي استدعى لمجرد الافضاء بالحزن اليه ، ومن حقنا أن نفسر هذا الاستدعاء ذاته بأن المصعبي لم يكن مقتنعا بأن ذبح نساء أسرته هو الحل الامثل لصباتهن من معرة ستحدث في مستقبل مغيب ، ولهذا أراد أن بنفس عن كربه بالافضاء الى صديق مأمون أولا ، وأن يفكر معه بصوت عال ثانيا ، عله يجد تفسيراً آخر لانحراف نسوة كبراء العصر السابق يبعد عن أسرته شبح الموت . وبالفعل ، يعلل هذا الصديق ما حدث من انحراف بأن آباء هاته الفتيات المنحرفات لم يحفظوهن بالازواج ، كانوا يتكبرون على الناس ابان سطوتهم ، فتركوا بناتهم دون زواج ، والرجل هو الذي يحفظ المرأة ، ومن ثم فان الخطوة المطلوبة ليست أن يذبح قائد الشرطة بناته ، بل أن يزوجهن . وقد كان .

هناك أشباه لهذه القصة المحبوبة ، التي لانتحفظ في ابداء الاعجاب بها ، هدفا وصياغة ، ولكن حين يتخلف التعرف ، وبخاصة في القصص الوعظية التي يأتي الفرج فيها ، أو التحول عقب دعاء أو دون أسباب معروفة ، فان جزءا من أسباب الاعجاب يظل يعاني من ثغرة ، وفي قصة سابقة قامت على تحول في مصائر الأبوين ، أنتج تحولا في

مصائر ومواقف الولدين : عبيد الله وعمر لم نعرف الى الآن ، لماذا خرج سليمان بن وهب من سجن الوراق ، وكيف صار ابنه وزيرا في عصر المعتضد ، ولماذا سيق ابن الزيات الى السجن وأسندت محاسبته - أو مناظرته حسب التعبير القديم - الى سليمان بالذات ؟ وكيف طاح حظ ولده بعد نكبته ، مع انتشار النكبات واسترداد المواقع مرة أخرى بل مرات ، في تلك العصور ، ان تلك التعليقات كلها لا بد أن تكون موجودة في الموسوعات التاريخية ، أو في قصص وأخبار أخرى ، لكن هذه القصة ، كبناء في قائم بذاته تفتقد هذا المبرر الضروري . ولقد الهاها عن رعايته ، رغبتها في اقرار العظة ، وهي أن الله غالب على أمره ، وقد شق هذا الهدف طريقه بسرعة خاطفة ، مستبعدا أية تفصيلات ، ولم يراوي القصة أنها ضرورية لاقرار هذه الغاية القدرية .

وإذا كنا نلاحظ أن قصص « الفرج بعد الشدة » تميل الى وحدة الحدث دائما ، ولم تخرج عن ذلك الا في حالات نادرة (انظر مثلا قصة البرامكة مع ابن أبي خالد ، وقد استمرت زمنا وأحداثا من عهد الهادي الى عهد المأمون (٢٤٣/٣)) فانها لم تهمل عناصر التشويق ، التي تخرض القارئ على طلب المزيد ، لمعرفة الى أية غاية انتهت الأمور ، يعتبر بدء القصة من نهايتها عاملا من عوامل التشويق وهو أرقى فنيا من صياغتها وفق التتابع الزمني ، وكذلك خلق أزمات أو صدمات سببها خطأ التوقع ، أو سوء التصرف ، وقد حدث أكثر من مرة أن يواجه شخص مشهور - كان له نفوذ وثروة - الافلاس والتعطل ، وقد يصل الى بيع منديله ليحصل على علف للدابة ، فيغالب كبريائه ويذهب مستنجدا بصاحب ثروة وجاه ومنصب ، ويبسط حاله المتردية بين يديه ، ولكن الآخر لا يعقب بكلمة واحدة ، مما يدفع بالمستنجد الى الندم والألم ، فانه لم يفعل أكثر من أن كشف ستره ، وأشمت خصمه ، وتصاغر أمام من لا يقدرهم ، ويعود الى بيته حزينا أسفا ، وقد تلومه امرأته على ما فعل وتذكره بأنها توقعته هذه النهاية ، وأن الصبر كان بهم أجدر ، ويحتمل الرجل اللوم الذي يستحقه ، ولكن لا يمضي طويل وقت حتى يجد ثروة هائلة تطرق بابيه ، في صورة مال نقدي ، أو جمال محملة بكل شيء ، يقودها عبيد هم جزء من المعونة أيضا ، ومع هذا كله كلمات اعتذار عن الصمت وتفسيره فقد كان الوضع لا يعالج بالكلام . ولا بد من العمل (انظر مثلا القصص في : ٢٤٣/٣ - ١٤/٤ - ٢٣/٤) .

وإذا كان اخلاف التوقع ، بلجوء الانسان الى طلب المعونة من خصمه ، ثم نكول هذا الخصم عن المساعدة ، ثم اخلاف التوقع مرة أخرى بأن تكون المعونة سخية جدا ، يمثل عامل تشويق فان المصادفة تمثل عنصرا آخر من عناصر التشويق ، وإذا كان الفن القصصي الحديث ينفر من المصادفة فانه يلغونها وان كان لا يمنحها الأهمية القصوى في تنمية الحبكة أو ببلوغ الحل ، ويمكن أن نقول ان المصادفة من العناصر الأساسية في الحكايات الشعبية ، ووجودها فيها لدينا من قصص هو بمثابة تسلسل للملامح الحكاية الشعبية في القصة الفنية ، ولا نتردد في أن نقرر ان الطابع العام للكتاب شعبي ، وان لم يتم في جملة الى الحكايات الشعبية ، هناك مصادفات اختيرت بذكاء . وقام عليها البناء الفني بأكمله ، ولم نشعر بأنها مصنوعة أو زائفة ، مثل هذه القصة (٣٦٢/١) المحبوبة المثيرة ، ذات الألوان والاثارات . لقد كان لجعفر البرمكي فتوة وظرف وأدب ، وكان يحسن الغناء ويضرب بالطل ، وهو يمارس حرته في خفية ، في يوم يغلق فيه بيته ، فلا يجالس الا خاصة أصحابه ، في هذا اليوم بدأ برنامجا فلبس الحرير وتعطر وشرب وأكل ، وشاركه جميع أصحابه في كل ما فعل وكان قد أمر حاجبه وبخده بالآذانوا لأحد بالدخول ، حتى وان كان رسول أمير المؤمنين « فأعلمه أني

مشغول . غير أنه ترك الاذن مفتوحاً لواحد من ندمائه تصادف أن تأخر ، وكان اسمه عبد الملك وبينما كان جعفر وندماؤه في لعبهم وصخبهم ، اذ رفع الستر ، فاذا عبد الملك بن صالح الهاشمي قد أقبل ، وغلظ الحاجب وكان عبد الملك هذا من جلاله القدر والتكشف ، على حالة معروفة حتى أنه كان يمتنع من مناداة الخليفة ، على اجتهداد من الخليفة أن يشرب معه قدحا واحدا ، فلم يفعل ، ترفعا . .

كيف تطور المشهد المثير؟

لقد تجمد القوم وسكنوا كأنما أصيبوا جميعا بسكتة قلبية مفاجئة ، ولم يدر جعفر ماذا يفعل ، وقد انكشف هذا القدر المهيمن من حياته الخاصة ، أمام رجل متمزمت متحرج ، وهو من أقارب الخليفة أيضا وطال الصمت ، ولكن الحركة جاءت من حيث لا تتوقع ، لقد تقدم عبد الملك الهاشمي ، ونزع قلنسوته وجلس بين القوم ، وتصرف كصديق قاتلا : أطعمونا شيئا ، وأمر جعفر بالطعام ولا يدري كيف تكون الخطوة التالية ، ولكن الرجل لم يتحرك حتى شارك في كل ما يفعل جعفر وندماؤه ، شرب رطلا وليس ثوبا حريريا معدا لهذه المجالس ، وتعطر « ثم دعا برطل ورطل (من النبيذ بالطبع) حتى شرب ثلاثة أرطال ، ثم اندفع يغنينا ، فكان - والله - أحسننا غناء » .

لقد انبهر جعفر بحجم المجاملة التي لقيها من عبد الملك ، وجديره أن ينهر ، وكان رد الفعل عنده عجبيا ، فقد صمم على أن يعرف سبب قدوم الرجل الى بيته ، وحاول عبد الملك أن يتجنب ذلك ، ليبقى اللقاء خالصا لوجه المتعة والطرب ، ولكن جعفر ألح ، حتى ذكر الرجل أنه مدين بمبالغ هائلة ، وأنه يرغب في أن يرضى عنه أمير المؤمنين ، وأن يعلى من شأن ابنه وجعفر لا يعد بمخاطبة الرشيد فيما يشكو منه عبد الملك ، بل يقرر أن الدين قد قضى ، وأن أمير المؤمنين قد رضي عنه ، وأنه - أي الخليفة - قد ولي ابنه مصر ، وزوجه ابنته الغالية ، ومهرها عنه ألفي ألف درهم ، لقد ظن سائر الندماء أن جعفر قد سكر ، وأنه يهذي ، ولا شك أن هذه الوعود المبذولة في صورة قرارات أمضيت ، يثير الخوف على جعفر ، الذي ضمن الرضا ، وسداد الدين ، وتولية حاكم جديد ، ثم زوج ابنة الخليفة وحدد مهرها .

لقد واجه جعفر شدة ، جاء فرجها حين شارك عبد الملك في اللهو وطلب الشراب ، وكان عبد الملك في شدة ، صورتها مطالبة من الخليفة ، فجاء فرجها في وعود جعفر ، ولكن : كيف الخروج من هذه الشدة ، وحلها بيد الرشيد دون غيره ؟

لقد تولى أحد الندماء رواية الجزء الماضي من القصة ، أما الفرج الأخير فيتولى روايته جعفر بنفسه ، وهذه المغامرة ، وإن تكن من وسائل التشويق ، والتفنن في تشكيل طريقة التقديم ، فإنها ضرورية ، لأن حل المشكلة لن يكون إلا في لقاء بين جعفر والرشيد ، على انفراد . وهذا ما حدث . فقد بكر جعفر الى قصر الخليفة فحكى له ما حدث لم ينقصه حرفا ، وقد أعجب الرشيد بسلوك عبد الملك حين تخلى عن تزمته ، ورأى أن يزيل الحرج والوحشة عن القوم ولا يفسد عليهم خلوتهم ، فرضي عنه ، ثم قضى دينه ، ثم زوج ابنه ، وولاه ، على نحو ما قرر جعفر .

مع أهمية المصادفة في القصة السابقة ، لأن كل ما جاء بعدها مترتب عليها ، فإننا لم نشعر بأنها ملفقة ، ولا أن المشهد مفتعل ، ولا أن الخاتمة مصنوعة ، انها قصة سلوكية محبوكة ، ومعبرة عن قوة اقتناع الرأي العام بحميمية العلاقة بين جعفر والرشيد ، وحجم دالته عليه .

أما النوع الآخر من المصادفات ، كأن يسقط طفل رضيع من أعلى الجبل الى الماء ، فينقض عقاب ويلتقطه من مجرى النهر قبل الغرق ويطير به ، ثم يهبط ، ويتمكن الناس من انقاذ الطفل ، وأن يخطف أسد رجلا ، ثم يحمله في فمه كما تحمل النسور أولادها في فمها ، ليأكله في عرينه ، ثم يموت الأسد في صراع لينجو الرجل ، ويجد بقايا هياكل ورمم في العرين ، يجد بينها حافظة نقود أبيه ، الذي كان الأسد قد افترسه في عام سابق ، وأن يحكم على بعض المذنبين بالموت ، ويقدمون للسيف واحدا وراء الآخر ، ثم يطلب أحدهم أن يأكل رأس خروف قبل قتله فيجابه طلبه ، وفي حين هو يأكل ، يحدث شغب عام واضطراب في المدينة ، ويفر الجنود الذين كانوا ينفذون أحكام القتل ، وينجو الفتى بسبب طلبه الغريب وحرصه على تناول الطعام الخ ، فهذا كله ينتمي الى الحكايات الشعبية التي تجعل الاغراب والاثارة ، والحرص على تصوير المفارقات وما ينتج عنها من عجائب ، هدفا في ذاته أحيانا ، ووسيلة الى تأكيد مبدأ « سيطرة القدر » في أحيان أخرى .

وأخيرا فانه لا بد أن تستوقفنا لغة هذه القصص ، مادنا بصدد الحديث عن البناء الفني ، فالقصة ، مثل أي عمل أدبي آخر ، هي في النهاية تركيب لغوي ، وقد كانت قضية اللغة من العوامل التي دفعت الدارسين والرواة قديما عن العناية بما أثر عن أجدادنا من قصص ، فقد لاحظوا - بشكل عام - أن لغة بعض القصص لا تصور العصر - في واقعه اللغوي كما ينعكس في لغة الشعر المعاصر لتلك القصص ، فالقصص المنسوبة الى العصر الجاهلي ، لا نجد فيها لغة العصر الجاهلي التي نجدها في شعر شعرائه من امرئ القيس الى الأعشى ، أعني : من أقدم شعرائه الكبار الى آخر الجاهليين ممن لامس الاسلام ، ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن القصص العدرية التي حملت البنا من العصر الأموي ، وقد استنتج هؤلاء أن هذه القصص رويت بالمعنى الاجمالي ، وأن صياغتها اللغوية من صنع راويها وليست من صنع الأشخاص الذين تزعم أنها تصور جانبنا من حياتهم وتفكيرهم ، ولغتهم .

ان ملاحظة وجود فروق - وليس فرقا واحدا - بين لغة القصص ولغة الشعر المعاصر لتلك القصص ملاحظة صحيحة ، ولكن الحكم بوضع القصص انتحالا من الأساس ، أو أنها رويت بالمعنى ، فيه تعجل ومغالطة . لن نستند الى سلاسل الرواة ، ومقارنة أكثر من رواية للخبر أو القصة الواحدة ، وما يدل عليه من دقة وحرص على التوثيق ، فهذا قد ناقشناه من قبل ، ونحن نرى - على أية حال - أن تسجيل أسماء الرواة جيلا بعد جيل لا يعتبر دليلا قاطعا بنفي التحريف أو التزويد أو الاختلاق ، وقد لاحظ القدماء ذلك وقرروه : اننا سنحيل على واقع نعيشه ، وقد قرأنا قصص المنفلوطي أوائل هذا القرن ، وأشعار شوقي وحافظ ومطران ، فهل نجد تشابها بين لغة الفريقين ، برغم أنها يعيشان في بلد واحد ، وثقافتها متقاربة ، ويخاطبان نفس الجمهور ويلتقيان ويقرأ كل منهما ما كتب الآخر ؟ أو هل تشابه لغة أي شاعر من ذكرنا مع لغة محمود تيمور أو العقاد - في كتاباته النثرية ؟ وهل نجد أي تشابه بين أشعار صلاح عبد الصبور وروايات نجيب محفوظ ، مع أن الشاعر والروائي تخرج كلاهما في كلية الآداب ، ولمع نجمه أوائل الخمسينات ، وتطلع الى التجديد ؟ ان الفرق هنا ، كما يرجع بين شخص وآخر ، لأسباب من الوراثة والقوة الفنية ، والعقيدة الفكرية والدينية الخ ، يرجع الى فرق أساسي هو اختلاف لغة الشعر عن لغة القصة ، وليس لغة النثر بشكل عام ، وهذا الفرق موجود في كل العصور ، في كل الآداب ، لأن لغة الشعر لغة استثنائية ، تقوم على التكنيف والتركيب والاضمار والتخييل ، وتلجأ من أجل هذا الى الاستعارة وغيرها من وسائل التصوير المجازي وغير المجازي وتوظف

الايقاع وتقدم وتؤخر في نظام الجملة بحيث يتشكل المعنى في صورة موسقة قادرة على النفاذ الى مكامن الشعور في النفس الانسانية ، وليست هذه وسائل الكاتب القصصي لأنه لا يتوجه الى هذه الغاية . انه يحاول الاقتراب من الواقع ، يحاكيه ، ويصور جوانبه ، ويلجأ الى التبسيط في جوانب ، والتركيب في أخرى ، ويهدف الى محاورة الخبرة الحياتية للقارئ ، ومن ثم يظل في حالة من الحضور الذهني ، عينه على القصة ، وعينه الثانية على الواقع ، وليس هكذا الشاعر في لحظة ابداعه .

وهناك مغالطة أخرى قائمة على تصور مبالغ فيه ، هو أن القدماء كانوا يتكلمون لغة الشعر أو في حدود معجمها ، فهذا غير ممكن ، لأن لغة الشعر لا تصلح أن تكون لغة حديث يومي ، ولأن معجمها يظل خاصا بالمستوى الشعري رؤية وفكرا وعاطفة ، وان الاعتزاز العربي بالشعر ، والقول بنقاء العرق ، واسباغ المواهب الفطرية على هذا النقاء وجعلها صادرة عنه بالطبيعة ، هو الذي سول للقدماء من الباحثين في اللغة أن يزعموا أن العربي لا يلحن ، وأنه يتكلم بالتركيب الفصيحة وحدها ، ولا يترخص فيها ، وهذا منافر لطبيعة المجتمعات ، وطبيعة اللغات معا ، فهذه مبادئ مقررّة ، حتى وان اختلفت درجة الافتراق أو ألوان الترخص ، تبعا لطبيعة المجتمع في مرقعه ونشاطه العملي ، ونظام طبقاته ، ودرجة ثقافته .

ان لغة السرد في « الفرج بعد الشدة » تتفاوت أحيانا ، لكن الفرق الحاسم بين لغة قصة ولغة قصة أخرى يبدو اذا ما وزعنا القصص على أساس تاريخي ، سنجد أخبارا جاهلية وقصصا ، وكذلك أخبارا وقصصا تنتمي الى العصر الاسلامي ، أو العباسي ، على مراحل ، وسنجد التماسك والابحاز ، واستخدام بعض الكلمات أو التعابير الجزلة قليلة الانتشار لكنها لا تبلغ حد الندرة أو الاستغلاق - مما يميز القصص القديمة - ويصل الأمر الى العامة واستعارة الألفاظ من الفارسية في قصص العصر العباسي .

لقد قمنا بما يوشك أن يكون حصرا للمفردات العامة أو المستعارة من لغة غير عربية ، ودون أن نثقل كاهل هذه الصفحات بالقوائم والأرقام ، نشير الى بعضها ، مثل : وجاء بدانيال فألقاه عليها - فاذا الرسل يطلبوني - ايش تعمل ها هنا - عيلتي - ستي (وقد تكررت كثيرا ينادي بها الخادم سيدته ، وينادي بها السيد جاريته المدللة ، مع وجود لفظ : سيدتي ، التي تختص بها سيدات الطبقة العليا ، مثل أم الخليفة أو من تقارب منزلتها) - أتذكر أيامنا الأولى ؟ وتحبني برأسه - فوطه - يبرقون : بمعنى يضربون في البوق - زليه : بمعنى بساط - ها أنذا أجبي : أي سأحضر - هاتم شخصا أوله مصر : أي أحضروا - فراشة : وهي التي تقوم بالخدمة - نيموه - ضرب درابزين السرير - أتصدق : وتعني هنا أطلب الصدقة وليس أبذل الصدقة - ساري : بمعنى نخب ، أو نشرب على شرف فلان - فش القفل - مزين : أي حلاق - بطلت من الكتاب : أي انقطعت عن الدراسة .

وهناك آثار لهجية محدودة ، نبه القاضي التنوخي الى بعضها ، مثل قول أحدهم : كن على الظلامة ، يكررها دفعات ، ويكسر الميم بلسان أهل الكوفة . (٢٣/١) كما يلجأ الى المصطلحات المهنية ، والكنائيات الشائعة لتجنب ما يتخرج من ذكره ، فيعبر أحد المغنين عن ضياعه وفقره بأنه صار « أفلس من طنبور مقطع الأوتار » (٣٦٥/٢) أو يسأل أحدهم هل يوجد نبيذ ، فيقول لآخر : « عندك شيء من ذلك الفن ؟ » (٢٢٠/٣)

هذه التعبيرات وأمثالها أكدت المنزغ الشعبي لقصص الكتاب بعامة ، فهي ليست وفقا على الحكايات الشعبية . وبعضها نطق به خلفاء على قدر عال من الثقافة وعبرة هاتم شخصا أوله مصر ، قالها المأمون في إحدى القصص ، وليس ما يمنع أن يتكلم المأمون لغة عصره ، فيقول « هاتم » غير أن الوظيفة الفنية لهذا اللجوء الى العامية تتجاوز الواقع الحرفي ، الى الواقع الفني فلغة القصص في هذا الكتاب لغة مألوفة ، قريبة ، نادرا ما نجد فيها شيئا من الحزونة أو الصعوبة ، ونعود فنذكر أن المفردات العامية التي أحصينا ، ومثلنا لها ، تنتمي جميعا الى قصص تتعلق بالعصر العباسي ، وغالبا ما تكون شخصياتها من عامة الناس ، وإن لم يكن دائما .

ويدخل في البناء اللغوي للقصة استخدام الحوار ، وما من قصة في الكتاب الا وقد أخذ الحوار فيها جانبا ، وقد وظف الحوار توظيفا فنيا راقيا ، لم يكن مجرد عبارات متبادلة تفضي الى الكشف عن معلومات كان السرد يستطيع الوفاء بها ، ان الحوار يكشف أصلا عن طوايا المتحاورين ، وخفايا نفوسهم ، ويعبر في لغته وتركيبه ، وعلاقة العبارات المتبادلة بين المتحاورين على المستوى العقلي وطاقة الذكاء التي يملكها كل منهما . اننا نجد قصصا أعظم ما فيها هو ما انطوت عليه من حوار حيث تتجلى الموهبة الحقيقية للعقل العربي ، في سرعة استجابته ، وتلقائيته ، وقدرته على اصابة الرمي في كلمات قليلة ، وافحام المكابر أو المخالف ، من خلال الصدمة ، أو سقطة اللسان ، أو الاستدراج الى حديث بعيد عن الموضوع .

كان أحد الكبراء معجبا بمقدرته الحكائية ، ويسرف في قوله لمحدثه « أفهمت ؟ » فكان هذا مفتاح الفرج حين طلب بعض عماله لمحاسبتهم ، فقد فطن أحدهم الى هذه « اللازمة » في كلام الوزير : « فكان يقول : لا . لم أفهم : فيستطرد الوزير ويفيض ويزيد الى أن انتهى وقت المحاسبة ، وتم تأجيل القرار الى وقت آخر . ويقف عمر بن فرج الرخجي أمام المعتصم ، وقد اعتقله ودعا بالسيف ووجه اليه تهمة مهلكة ، وعمر يرد على الخليفة ويعبث بالبساط الذي كان تحت المعتصم . وكأنه يلمسه ليختبر مادته وصناعته ، ويستفز الأمر المعتصم فينهره .

« وقال : يا ابن الفاعلة ، ما شغللك ما أنت فيه عن لمس البساط ، كأنك غير مكترث بما أريده بك ؟ فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكن العبد يعني من أمر سيده بكل شيء ، على جميع الأحوال ، فاني استخشنت هذا البساط ، وليس هو من بسط الخلافة ، فقال له : ويلك هذا البساط ذكر محمد بن عبد الملك أنه قام علينا بخمسين ألف درهم . فقال : يا سيدي عندي خير منه قيمته سبعمائة دينار » (١٧/٤) وينتهي الحوار لتظهر ثمرته ، قال أحمد بن أبي داود شاهد القصة وراويها : « فذهب والله عن المعتصم ذلك الفور الذي كان به ، وسكن غضبه ، وقال : وجه الساعة من يحضره . فجاء ببساط قد قام عليه - فيما أظن - بأكثر من خمسة آلاف دينار ، واستحسنه المعتصم ، واستلانه ، وقال هذا - والله - أحسن من بساطنا . وأرخص وقد أخذناه منك بما قام عليك .

والله ما برح ذلك اليوم ، حتى ناداه ، وخلع عليه .

وهكذا افتلدى الرخجي حياته بثمرن بخس ، واستعاد نفوذه القديم وزاد عليه ، بلمسة الذكاء السيكولوجي التي

أجاب بها معللا - حركة يده العابثة ببساط الخليفة : وفي قصص كثيرة تتجلى قوة الشخصية ، وبراعة التخلص في الحوار بصفة خاصة ، حيث تتقادح الأفكار ، وتكون مباراة الذكاء معلنة أمام الأَشْهاد . من ذلك أن الفضل بن سهل وزير المأمون ، زعم أن عبد الله بن مالك الخزاعي أذاع أن الرشيد كان يدخل بيوت القيان ، وكذب الفضل ذلك وألصق بالخزاعي ما ادعاه على الخليفة السابق . فهو الذي يتردد على بيوت القيان والمواخير أيضا . كان ذلك في مجلس عام . وبعد أن انتهى الفضل من حديثه أقبل على ثمامة بن أشرس ، وقال : « وإن أبا معن - أي ثمامة - ليعلم ذلك ، ويعرف صحة ما أقول » وتكررت مهاجمة الفضل وتوجيه التهم المخلة بالشرف إلى عبد الله بن مالك الخزاعي ، وفي كل مرة يلتفت إلى ثمامة ينتظر أن يؤيد كلامه ، لكنه في كل مرة يلتزم الصمت . انتهى المجلس العام ، وأرسل الفضل عقابا إلى ثمامة عن هذا النكول عن تأييده أمام الناس ، وأعراضه عن موافقته . فقال ثمامة لمعاتبه : « أنا والله بالموجدة عليه - أعزه الله - أحق ، لأنه قام في ذلك الجمع ، وقد حضر كل شريف ومشروف ، فلم يستشهد بي في خطبته ، وما أجراه في كلامه ، إلا في موضع ريبة ، أو ذكر نبوة ، ودار مقين ومغنية وما أقدر أن أشهد إلا أن أكون مع القوم ثالثا » فوافق الرسول المعاتب على هذا التفسير المنطقي ، بل وافق عليه الفضل بن سهل ، واعتذر لثمامة ، ولكن الطريف حقا أن دافع ثمامة حين لزم الصمت كان « عصبية لابن مالك » فلم يقبل الطعن فيه من فارسي ، وهذا سبب لا يمكن اعلانه ، فأسعفه ذكاؤه بهذا الاحتجاج المقبول . (٣٦٩/١) .

هناك مواقف أخرى قام الحوار فيها بوظيفته كأحسن ما يكون (أنظر مثلا ٣٦٤/٢) في تنمية الحدث ، والتعبير عن طبيعة الشخصية ، وتجسيد الصراع في إطار الموقف .

هناك قضايا أخرى يمكن طرحها في إطار البناء الفني ، مثل : الشخصية ، والصراع ، والامتداد الزماني والمكاني ، ولم نهمل هذه العناصر استهانة بقيمتها في الصناعة الفنية ، ولكن لأننا أشرنا - في فصول سابقة - إلى ما يخصها ، وما يمكن على ضوءه تصور كيف تشكلت المادة الفنية بهذه العناصر المختلفة ، في بناء ، لا نزع أن حقق جمالية القصة القصيرة ، بمفهوما الحديث ، لكنه ينبع من ادراك بالتكامل ، ووعي بوظيفة اللغة الفنية ، والأسلوب التصويري ، وهذه اضافة تستحق ما نبذل من جهد في إبرازها .

٨ - رؤية ختامية

إذا لم يكن كتاب « الفرج بعد الشدة » رائدا في مجاله ، وهو تجميع الأخبار والقصص والحكايات الشعبية ، تحت عنوان واحد وتبويبها ، فإنه رائد في الاحتكام إلى الشكل الفني ، ومراحله التقليدية ، العرض ، الازمة ، الحل ، أو لحظة التنوير ، لقد سبق الجاحظ فجمع نوادر البخل وأقاصيصهم وطرائف سلوكهم ، ولكن الجاحظ جمع مادته في إطار المضمون أو المعنى المجرد ، وهو البخل ، ولم يلتفت إلى الشكل ، كما أنه لم يقسم مادة كتابه وفق أي تصور ، بل قاده الاستطراد من البداية إلى النهاية وهنا يتفوق القاضي التنوخي .

وإذا كان الكتاب قد وجد دافعه الأول في ظروف نفسية عاناها المؤلف ، فإنه لم يكن صدى لهذا الظرف المؤقت ، لقد اتسعت المادة جدا ، فعبرت بحق عن حرية الثقافة العربية ، ومرونتها وقدرتها على الاتساع لكافة التجارب ، والكتاب صورة لثقافة القرن الرابع الهجري ، بما فيها من امتزاج بين المادي والروحي ، وعمق حضاري يدفع الى التسامح ، والبعد عن الجفاف والتزمت ، وتفضيل التلقائية على التصنع والتنطع . كما عبر الكتاب عن الايمان العميق بالقدر ، وهو ايمان ينبع من يقين بأن الحياة ليست عبثا ، وان للكون قوانين تنظمه ، وهي قوانين عادلة ، قد تهتز تحت ظرف طارئ ، ولكنها لا تميل ولا تحيف .

لقد جرى عرف الدارسين أن يخصصوا فقرة عن الأثر الذي تركه الكتاب المعنى في دراسات لاحقة . وهذا أمر مشروع بل مطلوب ، ولكنه في مجال الأخبار والقصص سيكون قليل الجدوى ، ذلك لأن القصص الشري لم يشكل قطاعا مهما في تكوين الثقافة العربية ، في نظر التقليديين . إن عملا مهما مثل « رسالة الغفران » لم يلفت أنظار القدماء وحظي سقط الزند واللزوميات بالشهرة والشروح ، وانتظرت رسالة الغفران الى عصرنا الحديث لكي يرد لها اعتبارها . وقد لقيت « المقامات » اهمالا أشد ، وكان وقوعها في الماحكات اللفظية ، وإغراقها في السجع ، نتيجة لامهالها من النقاد ، وعدم تسليط الضوء على الجوانب الايجابية فيها .

ان قصص « الفرج بعد الشدة » أسبق زمنا ، وأكثر نضجا من المقامات . فقد توفي بديع الزمان الهمداني سنة ٣٩٨ هـ ، أي بعد التنوخي بأربعة عشر عاما ، وقصص القاضي التنوخي وان لم تكن من تأليفه ، ولا تناظر بالمقامات التي ألفها الهمداني - أكثر نضجا في مراميها الاجتماعية ووسائل صياغتها الفنية ، ولغتها . وإذا كانت المقامات قد اهتمت بانسان الطبقة الدنيا ، فان هذه الطبقة - بمراتبها ، وأنشطتها المشروعة وغير المشروعة - موجودة بوضوح في الكتاب .

نستطيع أن نجد آثارا لكتاب « الفرج بعد الشدة » في بعض الكتب القديمة اللاحقة التي تيسر لنا الاطلاع عليها ، ومع هذا فإننا لا نستطيع أن نجزم بأنه المصدر الأساسي لهذا التأثير ، حيث كانت هذه القصص - في مجموعها - مفرقة في مصادر أخرى .

وعلى سبيل المثال ، نجد قصصا في « الفرج بعد الشدة » تتعلق بمعاناة أمراض مزمنة ، أو غريبة الأعراض ، يغفل الأطباء في الاهتمام الى علاجها ، ثم يعالجها طبيب بشيء غير متوقع ، فأحدهم أطعم المريض لحم جرو صغير ، والآخر أوجع الميت ضربا حتى تحرك من جديد ، وظهرت عليه علامات الحياة ، وأسرف مريض مزمن في وجبة جراد ، فكانت سبب شفائه . هذه الأخبار القصصية نجدها كوقائع ، وليس في شكلها القصصي ، في كتاب « طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة ، المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ، لكن : هل نستطيع أن نجزم أن كتاب القاضي التنوخي هو مصدر هذه الأقوال ، وليس كتابات أطباء العرب ؟

يمكن أن تكون المقارنة طريفة حقا ، وتؤدي الى نتائج ايجابية في اكتشاف جهد الصياغة الفنية ، فاقراً مثلاً ما نسب

الى القطيعي الطبيب ، الذي ضرب « الميت » بالمقارع (٢٠٨ / ٤) وهو ما يؤدي الى الصدمة العصبية التي تستخدم لها دفعة الكهرباء في زماننا ، وضعه بازاء ما نسب الى ثابت بن قره الخرائي حين عالج بالضرب ، (طبقات الأطباء ص ٢٩٦) واقرأ ما ذكره التنوخي عن مريض بالاستسقاء شفته أكلة جراد (٢١٠ / ٤) وما ذكره صاحب (طبقات الأطباء ص ٢٤٥) - أما قصص العشاق فانها موجودة بكل تفاصيلها في كتاب « مصارع العشاق » للسراج المتوفي سنة ٥٠٠ هـ ، وكتاب « أخبار العشاق » لداود الأنطاكي المتوفي سنة ١٠٠٨ هـ ، ونعود فنذكر بأن هذه القصص موجودة أيضا قبل كتاب التنوخي ، وهذا ما يجعلنا ننظر الى مجمل التأليف في هذا الحقل من زاوية أنه مجموعة من النصوص ، تحيط بها مجموعة من التقاليد والأعراف ، تنتقل من كتاب الى آخر ، ولا يلغى هذا شخصية أي كاتب ، أو جهده الخاص ، وذوقه في الاختيار والتبويب ، والصياغة أحيانا . ولعل هذا قد وضح في مراحل هذه الدراسة .

المصادر والمراجع

- (١) أحمد أمين : ظهر الاسلام : دار الكتاب العربي - لبنان ١٩٦٩ م
- (٢) ابن الاثير و حلى بن أبي الكرم الشيباني : الكامل في التاريخ . دار صادر . بيروت ١٩٧٩ .
- (٣) ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم السعدي) : عيون الأئمة في طبقات الأطباء - تحقيق نزار رضا . مكتبة دار الحياة . بيروت ١٩٦٥ .
- (٤) ابن تفرري برقي (جمال الدين يوسف) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - مصور عن طبعة دار الكتب المصرية .
- (٥) التنوخي : (القاضي أبو علي الحسن بن علي) : كتاب الفرج بعد الشدة : مكتبة الخاتمي بالقاهرة : كتاب الفرج بعد الشدة - تحقيق عبيد الشالحي - دار صادر . بيروت ١٩٧٨ .
- (٦) النعماني (عبد الملك بن محمد) : يتيمة الدهر - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مكتبة السعادة بمصر ١٣٧٧ هـ .
- (٧) الجهشياردي (محمد بن هيدوس) : كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق السقا وآخرين : مصطفى البابي الحلبي . القاهرة ١٩٣٨ .
- (٨) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : دار الكتاب العربي . بيروت .
- (٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان - تحقيق احسان عباس - دار صادر بيروت .
- (١٠) داود الانطاكي : تزيين الأسواق في أخبار العشاق - دار حمد ومحو . بيروت ١٩٧٢ .
- (١١) رشاد رشدي : فن القصة القصيرة - دار العودة . بيروت ١٩٧٥ .
- (١٢) الزركلي (خير الدين) دار العلم للملايين . بيروت ١٩٧٩ .
- (١٣) السراج (جعفر بن أحمد القاري) : مصارع العشاق . دار صادر . بيروت .
- (١٤) طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة - دار الكتب الحديثة . القاهرة ١٩٦٨ .
- (١٥) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب .
- (١٦) فاروق خموشيد : في الرواية العربية : الدار المصرية للطباعة والنشر .
- (١٧) فورستر (أ - م) أركان القصة - ترجمة كمال عياد . دار الكونك . القاهرة ١٩٦٠ .
- (١٨) ليتس . ك : الكوميديا والتراجيديا . سلسلة عالم المعرفة . الكويت ١٩٧٩ .
- (١٩) متر (آدم) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - تمريب أبو ريعة ، دار الكتاب العربي . بيروت ١٩٦٧ .
- (٢٠) محسن الأمين (السيد) : أعيان الشيعة . مطبعة الانصاف . بيروت ١٩٥٨ .
- (٢١) محمد حسن عبد الله : الحب في التراث العربي - سلسلة عالم المعرفة . الكويت ١٩٨٠ .
- (٢٢) - محمد الحصري بك (الشيخ) : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ١٩٥٣ .
- (٢٣) ياقوت (الحموي) : معجم الأدباء - دار المشرق - بيروت - بدون تاريخ .



هذه ترجمة المقال التالي :

هذا المقال الذي ننقله الى قراء العربية للمرة الأولى ، يشتمل على مقدمة بقلم الاستاذ خسرو مصطفى وفصول خمسة ، اولها تمهيدي وآخرها ختامي . وفيما بينها ثلاثة فصول خصصها المؤلف للنويري وكتابه ، والنويري كمؤرخ ، وحملة القبارصة على الاسكندرية ، على التوالي .

وقد اشار الدكتور عطية في الفصل الأول التمهيدي الى اسباب اهتمامه بكتاب الامام للنويري الذي تضمن ضمن ما تضمنه حملة القبارصة على الاسكندرية . كذلك اشار الى النسختين الخطيتين للامام المعروفتين وقتها ، وهما نسخة كل من برلين والقاهرة ، ومراحل العمل فيهما الى ان تبين وجود نسخة ثالثة كاملة في بانكي بور بالهند ، وما استتبع ذلك من قيامه بنشر وتحقيق الموسوعة كاملة بلغتها الاصلية العربية ، في ضوء هذه النسخ الخطية الثلاث . وقد ظهرت في سبعة اجزاء في السلسلة الجذبة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد بالهند^(١) .

وفي الفصل الثاني وعنوانه « المؤلف وكتابه » عرفنا الاستاذ عطية بالنويري الاسكندراني وسبب تسميته بالاسكندراني التي ترجع الى اقامته الطويلة بالاسكندرية التي عشقها . كما حلل شخصيته ، وأشار الى من تسموا بنفس الاسم من معاصريه من المؤرخين ، كما حقق نسبة كتاب الامام اليه واكدها ، ووضح الفترة الزمنية التي شغلها في جمع مادة الكتاب واعداده . كما اشار الى مهنة النويري كناسخ للمخطوطات ، واهميتها في اتساع دائرة معارفه ومعلوماته من ناحية ، وفي تلك المادة الغزيرة الاصلية التي اختزنها وافاد منها في الوقت

كتاب الامام للنويري الاسكندراني دراسة نقدية تحليلية *

عزيز سوزيال عطية

استاذ شرف بمركز الشرق الاوسط
جامعة يوتا - الولايات المتحدة الامريكية

* ترجمة الدكتور جوزيف نسيم يوسف - استاذ تاريخ العصور الوسطى كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

(١) النويري الاسكندراني : كتاب الامام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور القضائية في وقعة الاسكندرية - نشر وتحقيق الدكتور عزيز سوزيال عطية - ٧ ج - اهد (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن) ١٩٦٨ - ١٩٧٦ م / ١٣٨٨ - ١٣٩٦ هـ .

المناسب من ناحية اخرى . وذكر كيف تبلور كل هذا في كتاب الامام . فعل الرغم من انه وضعه اساسا بهدف تسجيل كارثة هجوم القبارصة على الاسكندرية ، الا انه تضمن بين ثنايا سرده لأحداث الحملة الصليبية معلومات ومعارف متنوعة متعددة متشعبة تطرق فيها تقريبا الى كل المجالات والميادين . وقد اضفى هذا على الكتاب اهمية مضاعفة ، وان جعل التعامل معه في نفس الوقت امرا صعبا للغاية ، بسبب عدم ترتيب المؤلف لهذا القدر الهائل من المادة البالغة الاهمية . وقد عالج الدكتور عطية هذه الناحية في الجزء السابع الاخير من الكتاب والمعنون « فهرس كتاب الامام » ، والذي تضمن اربعة عشر فهرسا مصنفة تصنيفا موضوعيا ، ومرتبة ترتيبا ابجديا . فهناك ، مثلا ، فهرس للاعلام ، وآخر خاص بالاماكن والبقاع ، وثالث للامم والقبائل والاجناس ، ورابع خاص بالاسكندرية ومبانيها وشوارعها ، وخامس يتعلق بالسفن ، وسادس بالمصطلحات الحربية . الى جانب فهرس تتعلق بالنواحي الادبية ، والجغرافية ، والفلكية ، وعلمي الحيوان والنبات . ولاشك ان هذه الفهارس سوف تتيح للباحثين المتخصصين الافادة الكاملة من كتاب الامام ، واستخراج الدرر التي يشتمل عليها بسهولة ودون عناء .

لقد اضاف الاستاذ عطية الجديد الى ما كنا نعرفه من قبل عن النوري وكتابه ، عدل وصحح بعض الآراء والافكار التي كانت سائدة من قبل ، والتي وردت في كتب المؤرخين الحديثين المعنيين مثل كارل بروكلمان C. Brockelmann والوارد Ahlwardt وشارل ريو Ch. Rieu . ونخص بالذكر جهوده في تحقيق اسم النوري ، وشخصيته ، وتاريخ وفاته ، وتقدير اهمية كتابه ، والمآخذ عليه ، واسلوبه ، وهذه وغيرها من القضايا اما تصنيف جديدا او تغيير رأيا كان سائدا .

وفي الفصل الثالث وعنوانه « النوري كمؤرخ » ، حدد الاستاذ عطية دور النوري الاسكندراني في الاسهام التاريخي ومكانته بين كل من معاصريه من ناحية والسابقين عليه واللاحقين له من ناحية اخرى . وطرح عدة تساؤلات هامة لها دلالتها هل يعتبر النوري مؤرخا بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح ؟ واذا كان الامر كذلك ، هل هو مؤرخ محترف ؟ واذا لم يكن ، هل يجوز ان نعتبره مؤرخا ؟ هل يمكن ان نضعه في مصاف معاصريه مثل العمري وسميه النوري الكندي ؟ او حتى المتأخرين عنه زمنيا امثال الذهبي ، والصفدي ، وابن الفرات ، وابن خلدون ، ومن جاء بعدهم ؟ ثم ما هي مصادر معلوماته الوفيرة التي ضمنها كتابه ؟ والى اي حد يمكن الوثوق بها ؟ وبكلمة مختصرة ، ما وزن النوري كمؤرخ ، وما هي مكانته بين غيره من مؤرخي العصر الاسلامي الوسيط ، في ضوء التراث الذي خلفه لنا ؟

تساؤلات عديدة طرحها الاستاذ عطية على بساط البحث ، واجاب عنها اجابات صريحة محددة واضحة ، وقد خلاص من ذلك انه ثمة عدة ركائز اساسية تحدد مكانة النوري في مجال الدراسات التاريخية ، وتكشف عن قيمة كتاب الامام . فهو ، اولا ، اديب وشاعر مرهف الحس . . . يمتاز بروحه المرحية . ثم انه ، ثانيا ، عاش في الاسكندرية معظم سني عمره ، وعشقها ، واصبح حبه لها يجري في دماائه . وهو ثالثا ، بحكم مهنته كناسخ للمخطوطات التي تناولت شتى افرع العلم والمعرفة ، قد قام بنسخ الآلاف منها واستوعب مافيها من معلومات غزيرة في كمها فريدة في نوعيتها . واخيرا فان النوري كان شاهدا عيانا لفاجعة الهجوم القبرصي على الاسكندرية ، وشاهد بعينه آثار الدمار الذي حل بالمدينة فور نزول الصليبيين الى الشاطيء . ثم تركها مذعورا الى قريته النورية ، وعاد ثانية اليها بعد رحيل القبارصة عنها ليرى آثار المحن التي نزلت بها ، واعمال السلب والنهب التي اصابتها . وقد اثارته فيه الفاجعة كوامن النفس ،

وحركت بداخله حبه الطويل القديم للاسكندرية ، وامتزجت بهذا وذاك تلك المعلومات الغنية التي اختزنها كناسخ للمخطوطات ، والتي تتميز بالتنوع والتشعب والتداخل ، وتتناول العديد من الموضوعات . وقد تبلور كل هذا في كتاب الامام ، تلك الموسوعة العالمية الهائلة الفريدة في نوعها وبابها . وكان خطها الاساسي هو حملة القبارصة الصليبية على الاسكندرية ، وقد نسج حوله كل ما اختزنه واكتسبه من معارف ومعلومات لا اول لها ولا آخر وعلى هذا فمحمور الكتاب هو الحملة . وحول هذا الموضوع الرئيسي وبين ثناياه امدنا بمعلومات وتفاصيل هامة عن امبراطوريات الفرس واليونان والرومان والبيزنطيين والعرب قبل الاسلام . ووجه اهتماما خاصا الى الفتوحات الاسلامية ، والى الدول الاسلامية في العصر الوسيط . فتحدث عن الخلفاء الراشدين ، والامويين ، والعباسيين ، والبطولونيين ، والاششيديين ، والمغاربة ، والفاطميين . كما اشار بالتفصيل الى شخصيات عصره من الماليك في مصر . وزودنا ، احيانا ، بمعلومات جديدة غير معروفة في المصادر التاريخية التقليدية . وبحكم تنوع مادته وتداخلها في بعضها ، تطرق الى الحديث في العديد من الموضوعات مثل الحروب الاسلامية في العصر الوسيط ، وفن الحرب والقتال عند المسلمين ، وطبوغرافية الاسكندرية وجغرافيتها ومبانيها ومنشأتها وكل ما يتعلق بها ، الى جانب النواحي الادبية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . ولذلك جاءت موسوعته حاوية لنقاط عديدة شتى تجعلها اشبه بدائرة معارف يمكن ان يفيد منها الباحثون المتخصصون في شتى افرع المعرفة الانسانية . ولكن يجب الانسى بعد هذا كله ان النويري السكندري يعتبر حجة فيما يتعلق بحملة القبارصة على الاسكندرية .

اما الفصل الرابع وعنوانه « الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ » ، فقد خصصه الدكتور عطية لتاريخ تلك الحملة من واقع كتاب الامام للنويري . وسيادته يعتبر حجة رائدة في هذا الميدان الذي كرس له وقته وجهده . وكانت الثمرة اثناء مكتبة تاريخ الحروب الصليبية بالعديد من بحوثه ومؤلفاته التي لها وزنها وشهرتها العالمية .

وقد سبق ان تناول تاريخ حملة القبارصة على الاسكندرية في كتابه الضخم « الحروب الصليبية في اخريات العصور الوسطى »^(٢) ، والذي توصل فيه الى نظرية جديدة اصبح معترفا بها في مجال الدراسات التاريخية ومفادها ان الحروب الصليبية التي تعرض لها العالم الاسلامي ، في مشرقه ومغرب ، لم تنته حسبا هو معروف في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي (اواخر القرن السابع الهجري) عندما تمكن السلطان الملوكي الاشرف خليل من اجلاء الصليبيين عن عكا آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامي سنة ١٢٩١م / ٦٩٠هـ ، وانما استمرت خلال القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري) فيما عرف باسم « الحروب الصليبية المتأخرة » ، حينما تعرض العالم الاسلامي لحمات صليبية كبيرة لا تقل ضراوة عن الحملات المبكرة ، وتتفق معها في مفهومها وخصائصها وطبيعتها وهدفها . نذكر منها ، على سبيل المثال ، حملة القبارصة على الاسكندرية موضوع هذا الفصل ، وحملة لويس الثاني دوق بوربون على المهدية سنة ١٣٩٠م / ٧٩٢هـ ، وحملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦م / ٧٩٨هـ التي قامت بها اورويا بأسرها لاخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول الى بيت المقدس في قلب امبراطورية الماليك ايضا^(٣) .

Cf. Atiya, A.S., the Crusade in the Later Middle Ages, London (Methuen & Co.), 1938, pp. 345 — 378.

(٢)

(٣) للدكتور هزيم سوريال عطية مؤلف من تلك الحملة هو :

Atiya, A.S., The Crusade of Nicopolis, London, 1934.

وهنا لا يعيد الاستاذ عطية ما سبق ان ذكره عن الهجوم القبرصي على الاسكندرية ، في كتابه سالف الذكر ، وانما يحلل تحليلا دقيقا رائعا روايات النويري عن تلك الفاجعة ، وقيمتها التاريخية فيما يتعلق بالجديد الذي اضافته الى معلوماتنا عنها ، والتفاصيل التي زودنا بها ولم ترد في المصادر الغربية المعاصرة له مثل كتاب كل من جويوم دي ماشو Guillaume de Machaut وليونتيوس ماخايراس Leontions Makhairas^(٤) .

والجديد في هذا الفصل ، ايضا ، ان الاستاذ عطية قام بتنسيق روايات النويري الخاصة بتلك الحملة والمبعثرة والمشتتة على امتداد الكتاب بين غيرها من المعلومات التي لا تربطها بها اي رابطة ، مع ترتيبها ترتيبا زمنيا مسلسلا ، بحيث تبدو وحدة واحدة متكاملة ، تسجل تاريخ الهجوم من بدايته الى نهايته لحظة بلحظة .

واذا استعرضنا مشاهد الحملة باختصار ، نجد انها تبدأ بتحذيرات وجهها بعض المسلمين الانقياء في العالم الاسلامي الى اولى الامر في مصر من المماليك بما سوف يحل بمدينة الاسكندرية ، وكان ذلك قبل الحملة ببضع سنوات . وهنا تنداخل الحقائق والاساطير حينما يروي النويري بعض النامات التي تراءت لعدد من الناس بهذا الخصوص . ويعد ذلك يحلل صاحب الالمام تحليلا دقيقا الاسباب التي ادت الى الكارثة ، ويحدها بسبعة ما بين مباشرة وغير مباشرة ، ورئيسية وثانوية ، وداخلية وخارجية ، مبينا كيف انها مجتمعة متكاثفة هيأت الجو لها . ثم يتحدث عن استعدادات الجانيين المصري والقبرصي ، ويشير الى نظام التجسس والاستطلاع لدى كل منهما وأثره . وهنا يحلل الموقف تحليلا دقيقا ، مع ذكر امكانيات النجاح او الفشل فيما يتعلق بقدرة المماليك في مصر على صد هذا الهجوم المرتقب .

وابتداء من هذه النقطة يزودنا النويري بصورة حية نابضة عن الهجوم كشاهد عيان له ، منذ نزول الفرنج الى الشاطئ ، وتسلفهم للاسوار ، وفرار الجماهير المذعورة ، وحالة اليأس التي استولت على الجميع . ثم فراره هو مع الفارين ، وعودته ثانية الى المدينة بعد انسحاب الفرنج منها ليسرد ، مرة اخرى ، ما رآه من الخراب والدمار اللذين حلا بها . اما فيما يتعلق بالفترة الواقعة بين تركه المدينة وعودته اليها ، فقد جمع معلوماته عنها من شهود عيان آخرين بقوا داخل اسوارها وقصوا عليه ما حدث بكل دقائقه وتفصيله .

وكانت الحصيلة ان النويري - بعد جمع الدكتور عطية لهذا الشتات من المعلومات وتنسيقه وترتيبه - امدنا بصورة متكاملة نابضة بالحركة والحياة عن تاريخ هذه الحملة ، والكوارث التي حلت بالشعر السكندري على ايدي الغزاة ، وهي صورة تزود الباحث المتخصص بأتم وأوفى وادق تسجيل لهذا الهجوم الوحشي المدمر الذي دام ثمانية ايام منذ لحظة نزول الفرنج الى الشاطئ وحتى مغادرتهم المدينة وهي في حالة يرثى لها . وهنا نجد انفسنا امام مشاهد وامثلة متباينة مشيرة للدهشة والعجب . امثلة نادرة للشجاعة الفردية اليايسة المستميتة لبعض اهالي المدينة ، الى جانب نماذج من الغدر والخيانة والجبن التي اتسم بها بعض المسئولين من المماليك ، الى جانب اعمال القسوة والوحشية التي تفوق حد الوصف والتي مارسها الغزاة ضد الاهالي ، دون شفقة اورحة او هوادة ، ودون تفرقة او تمييز للسن او الجنس ، بل ودون تفرقة

Cf. Makhairas, L., Recital concerning the Sweet Land of Cyprus entitled Chronicle, 2Vols., Greek text with English trans. and notes by R.M. Dawkins, Oxford, 1932.

او تمييز بين الاهالي من مسلمين ومسيحيين ويهود . هذا ، الى جانب اعمال السلب والنهب التي ارتكبها الفرنج ، والاسلاب التي وضعوا ايديهم عليها وحملوها معهم في سفنهم ، والخرائق التي اشعلوها في منشآت المدينة ومبانيها حتى اضمحت خرابا . ويزودنا النويري ، ايضا ، بصور عديدة تكشف عن تداخل المصالح الاقتصادية في المسائل السياسية ، وذلك فيما يتعلق بموقف الجاليات الايطالية التجارية ، وبخاصة البنادقة ، الذين رأوا في هذا الهجوم اضرارا بهم وبمصالحهم ، فوقفوا منه موقف المعارضة والعداء ارضاء للسلطات المملوكية من ناحية ، وحفاظا على امتيازاتهم ومكاسبهم في مصر من ناحية اخرى .

صور ومشاهد عديدة تترى وتتابع ، سجلها النويري باسهاب وتفصيل كبيرين . ومنها نعرف ان مدينة الاسكندرية اضحت بعد مغادرة الفرنج لها مقبرا مفتوحا ، بينما جثث الضحايا تملأ شوارعها وازقتها ولا تجد من يقوم بدفنها . وقد ترك هذا جراحا عميقة في مصر لم تندمل ، رغم محاولات السلطات القبرصية اعادة السلام بين البلدين وتناسي الماضي المزعج . وكان طبيعيا ان تندهور العلاقات بين مصر وقبرص بقية حكم بطرس الأول لوزجنان قائد الحملة المشنومة ، وفي عهد خلفيه بطرس الثاني وجانوس الثاني . واثناء حكم الاخير ، انتقلت مصر تماما لما حل بعاصمتها الثانية ، عندما وجهت ثلاث حملات كبيرة ضد قبرص خلال اعوام ١٤٢٤ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ على التوالي . وفي الحملة الثالثة الحقت بتلك الجزيرة ضربة قاضية ، وانزلت بها هزيمة ساحقة ، واخذت معها الى القاهرة ملكها جانوس وكبار رجال حاشيته اسرى مكبلين بالاغلال .

وهكذا كان الثمن الذي دفعته قبرص غالبا ، وكانت الضربة التي الحقها سلطنة المماليك في مصر بالجزيرة قاضية ، تكشف بما لا يدع مجالا للشك ان كفة الميزان في الصراع الطويل المرير بين الصليبيين والمسلمين كانت قد رجحت وبشكل نهائي وحاسم لمصلحتها ، واصبح مركز الثقل يميل بقوة الى جانبها . وكل هذا يتصل بموازين القوى ومراكز الثقل في الصراع بين شقي العالم وقتها ، ويرتبط ايضا بالافعال وردود الافعال ، وبالاسباب والمسببات التي ادت الى ذلك الصراع والتناحير والخواتيم التي ترتبت عليه^(٥) .

وخلاصة ماسبق انه اذا اردنا ان نؤرخ لحملة القبارصة على الاسكندرية ، لا يمكن بحال ان نتجاهل او ان نتغاضى عما سجله النويري السكندري عنها في كتابه الامام . وان هذا التجاهل او التغاضي يجعل دراستنا عن تلك الحملة ناقصة مبتورة غير مستوفاة .

وفي الفصل الخامس الختامي والاخير ، قدم الدكتور عطية تقييا دقيقا لهذا التراث الهائل المتنوع الذي خلفه لنا النويري ، والذي اثرى به الدراسات الانسانية في مختلف الميادين والمجالات ، وفي شتى نواحي العلم والمعرفة . ولا ريب ان فهارس الدكتور عطية الموضوعية المصنفة التي يشتمل عليها الجزء السابع والاخير من كتاب الامام ، سوف تلقى الضوء على هذا التراث وتعين الباحث المتخصص على الاعتراف منه .

(٥) اشرت الى ذلك بالتفصيل في مقالي بالانجليزية :

Youssef, J.N., "Arab Awakening during the Crusades," Bulletin of the Alexandria Faculty of Arts, Vol. XXIII, 1969, Alexandria, 1971, pp. 11 — 26.

ويعد ، فقد اقتضى نقل مقال الدكتور عزيز سوريال عطية الى اللغة العربية ، الرجوع الى كتاب الامام بأجزائه السبعة لتحقيق اسماء الاعلام والاماكن والمصطلحات كما ذكرها النويري . كذلك اقتضى ترجمة النص ترجمة دقيقة تتمشى مع روح اللغة العربية ، اضافة القليل جدا من العبارات الموجزة الى المتن بقصد الايضاح او التعريف بالنسبة للقارئ العربي . وتمييزا لها عن الاصل الانجليزي ، فقد وضعنا كل اضافة منها بين حاصرتين . كذلك زدنا الترجمة العربية ببعض التعليقات في الهوامش السفلية رأينا ان طبيعة الموضوع تستلزم تزويده بها . وقد اضعنا كلمة « المترجم » بعد كل حاشية منها تمييزا لها عن حواشي المؤلف ، وتحقيقا للفائدة المرجوة من تعريب هذا البحث القيم العظيم .

مقدمة الاصل الانجليزي

للسيد

خسرو مصطفى

مدير مركز الشرق الأوسط بجامعة يوتا

تولى عزيز سوريال عطية ، مؤسس الشرق الاوسط ومكتبته الرائعة بجامعة يوتا ، نشر مخطوطة « كتاب الامام » في سبعة اجزاء ، والتي وضعها احد مصنفى الموسوعات المصريين من الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] ، وهو محمد بن قاسم بن محمد النويري المالكي الاسكندراني . ويتضمن هذا العمل قدرا غير عادي من المعلومات في موضوعات شتى متنوعة . وقد خصص جانبا كبيرا منه لروايات اصيلة ، تتعلق بنهب القبازصة لمدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥م [٧٦٧هـ] .

ووفقا لقول الناشر فان النويري « قد انجم النص بالمعلومات والتفاصيل ، متقلا من موضوع الى آخر دون تمييز » . ورغمنا عن افتقار النص الى التنسيق ، فانه يصعب تقدير قيمة المخطوط كمصدر للمعلومات (التي تلقى ضوءا) على فصل من فصول التاريخ الطويل للحركة الصليبية . ويعتبر الدكتور عطية عالميا حجة في هذا الميدان ، اذ كتب فيه بغزارة . واصبح النص الكامل لكاتب النويري ، بفضل الجهود التي كرسها في هذا السبيل ، في تناول طلاب العلم بعد طبعه ونشره في ستة مجلدات . اما المجلد السابع الذي اعده الدكتور عطية فسوف يسهل الى اقصى حد عملية البحث بالنسبة لأي دارس . اذ يزوده بعدد كبير من الفهارس التي تتضمن مختلف الموضوعات ، كاسماء الاماكن ، والاعلام ، والقبائل ، وادوات الحرب ، والحيوانات ، والسفن ، والفلك ، والقوافي ، وما الى ذلك . وسوف تنير هذه الفهارس الطريق امام الباحث في خضم « المعلومات المشوشة التي يعوزها التنسيق والترتيب » والتي زدنا بها النويري حسب قول (عزيز سوريال عطية) . وربما كان هذا هو اعظم ما قدمه فيما يتعلق بعملية نشر الكتاب .

ويرجع اهتمام الدكتور عطية بـ « كتاب الامام » للنويري الى ما يزيد عن اربعين عاما مضت ، عندما عمل مع المغفور له الاستاذ اتين كومب Etienne Combe ، الذي كان في ذلك الوقت ينشر نصا يعتمد على مخطوطتي برلين والقاهرة . ويعد وفاة كومب عام ١٩٦٢ ، تابع الدكتور عطية المشروع بمفرده ، مضيفا الى مصادره مخطوطة بانكي بور ، وهي اوفى من المخطوطتين الاخرين . وكانت الخطة الاصلية تهدف الى نشر طبعة مختصرة (للكتاب) . ولحسن

الحظ ، قرر الدكتور عطية بعد تفكير طويل خلاف ذلك ، وكانت النتيجة صدور النص الكامل مطبوعاً بلغته الأصلية وهي العربية . ولا شك انه ستظهر له ترجمة باللغة الانجليزية في الوقت المناسب .

ولقد تحمل الدكتور عطية توضيحية شخصية هائلة في سبيل نشر الكتاب . واذا راعينا العناية الفائقة التي بذلها في العمل في المشروع قرابة نصف قرن ، الى جانب الوقت الذي اضطر لقضائه في حيدر أباد (الدكن) للإشراف على نشر كل جزء من اجزائه ، لنذكرنا تعليق احد الباحثين كان يعمل مساعداً للمغفور له ادواردج . براون . Edward G Browne بجامعة كامبريدج . لقد شكنا من ان براون كان قد اوفده ذات مرة في اربع رحلات مختلفة الى باريس للتأكد من صحة تهجئة كلمة واحدة في اربع نسخ خطية ، كانت قد استرعت انتباه براون الواحدة تلو الاخرى . ولسوء الحظ فان هذا النوع من العلم في طريقه الى الزوال ، لاننا نعيش اليوم في عصر السرعة والدراسة المتعجلة ، وفي عصر يحمل التفاصيل التي هي بمثابة العلامات الدامغة للصناعات الدقيقة .

وسوف يتيح هذا المقال للقارئ الذي يتكلم الانجليزية الفرصة للتعرف على مادة « كتاب الألام » للنويري ، وبخاصة وصفه الدقيق المفصل للاحداث المفجعة التي صاحبت حملة عام ١٣٦٥ م الصليبية . وان مركز الشرق الاوسط ليفخر بأن يضم الى سلسلة بحوثه ومقالاته ، ملخص الدكتور عطية الوافي لهذه الموسوعة .

الفصل الأول

تمهيد

ترجع معرفتي بـ « كتاب الألام » للنويري الاسكندراني الى عام ١٩٣٦ م ، وكان ذلك اثناء اعدادي لدراسة مستفيضة لتاريخ « الحروب الصليبية في اخريات العصور الوسطى »^(٦) . وباستعراض الحملات الصليبية في شرق البحر المتوسط ، أصبح لزاماً تخصيص مساحة كبيرة وتوجيه اهتمام بالغ الى كارثة نهب القبارصة وحلفائهم من غرب اوربا لمدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥ م . فقد حظيت تلك المغامرة الصليبية بقدر كبير من الدراسة والتمحيص من جانب طلاب العلم الاوروبيين غير المستشرقين ، من واقع المصادر والاصول الغربية ، وبخاصة قصيدة جويوم دي ماشو Guillaume de Machaut الشهيرة تحت عنوان « غزو الاسكندرية » La Prise d'Alexandrie^(٧) . وكان دي ماشو بالفعل احد المشتركين في هذا الحادث المؤسف . وعلى هذا فقد كتب كشاهد عيان ، ولو ان روايته كانت بطبيعة الحال من الزاوية المسيحية [الغربية] ولهذا السبب بدا لي [رأي دي ماشو] رأياً من وجهة نظر واحدة يشوبه بالضرورة الخطأ ، ما لم نعثر على الرأي الآخر من الجانب الاسلامي . ولما كان دي ماشو قد كتب من الخارج ، فانه من المستحسن من الوجهة التاريخية البحث عن مواطن كتب من الداخل حتى يتسنى تقديم قصة حية نابضة للصدام

(٦) ظهرت الطبعة الاولى في لندن ، طبع (Methuen & Co) عام ١٩٣٨ ، وصدرت الطبعة الثانية في نيويورك وتولت نشرها (Kraus Reprints) عام ١٩٦٣ .

(٧) العنوان الكامل للكتاب هو :

La Prise d'Alexandrie ou chronique du roi pierre Ier de Lusignan, ed. Mas — Latrie) Geneva : Societe de l'Orient Latin, 1877.

* اي من خارج مصر (المترجم) .

بين الشرق والغرب [بعامه] وبين قبرص ومصر على وجه الخصوص . وقد عثرنا على بغيتنا في الكتاب الهائل الذي ألفه النويري الاسكندراني ، وقد حفزه على تأليفه رد الفعل الذي تملكه من مسلك الغزاة في مدينته الزاهرة الاسكندرية .

وعندما رحلت من لندن الى جامعة بون بالمانيا خلال عام ١٩٣٦ ، تمكنت من الانتفاع بمخطوطة برلين لـ « كتاب الامام » لتقييم احداث عام ١٣٦٥م تقييما متوازنا . وقد تبلورت حصيلة بحوثي المستفيضة في العديد من المصادر الشرقية والغربية على السواء ، في سردي لتاريخ الحروب الصليبية المتأخرة الذي رأى النور [في شكل كتاب مطبوع] عام ١٩٣٨ . وقادني هذا على الفور الى اتصال مباشر بباحث آخر كان يعمل في « كتاب الامام » لهدف آخر الا وهو دراسة الآثار الاسلامية في الاسكندرية في العصور الوسطى . وكان هذا الباحث هو المغفور له اتيان كومب Etienne Combe ، وهو مستشرق سويسري كان يقيم في الاسكندرية . وكان قد قدم اصلا الى مصر ليعمل مثقفا لفاروق الصغير الذي كان آنذاك اميرا متوجا على عرش مصر . وعندما اعتزل كومب تلك الوظيفة ، عين مديرا للمكتبة العامة لمدينة الاسكندرية* . وعندما التقيت به الفيته وقد ركز « جهوده » لبضع سنوات على الطابع الاسلامي لتاريخ وآثار تلك المدينة ذات العمر المديد . وقد دفعه هذا بالضرورة الى الخوض في المصادر الاسلامية التي ترجع الى تلك الفترة من الزمن ، ومن ابرزها كتاب النويري . ومن الواضح ان طابع ذلك النص الزاخر بالمعلومات المتشعبة في العديد من المجالات ، قد حصر جهود كومب في اعداد اقتباسات مناسبة [من الكتاب] فحسب مصحوبة بترجمة فرنسية لها في مجلد واحد .

ثم ما لبث ان توقف الامر عند هذا الحد عندما اصبح كومب بعد ذلك مديرا للمعهد السويسري للآثار بالقاهرة . فقررنا حينئذ تنسيق جهودنا على امل نشر تلك المادة في مشروع مشترك يحمل اسمنا . وبالفعل انهت الجزء الخاص بي من هذا الكتاب ، وسلمت النص لشريكي لمراجعة الترجمة الفرنسية غير المصقولة قبل النشر . ثم استدعيت جامعة متشيغان بان آربور عام ١٩٥٥ لشغل وظيفة استاذ زائر للدراسات الاسلامية باكاديمية العصور الوسطى التي انشئت حديثا ، وذلك لمدة عام جامعي . وما لبث ان تبعت هذه الدعوة دعوات اخرى من جامعات كولومبيا وبرنستون وانديانا ومعهد الدراسات المتطورة وشغلني عملي هذا لبضع سنوات في مجال الدراسات العليا الامريكية . وفي تلك الاثناء توفي الاستاذ كومب في ٩ يوليو عام ١٩٦٢ عن ٨٢ عاما ، تاركا كل مادة مشروعنا المشترك في المعهد السويسري . فلجأت على الفور الى السفارة السويسرية في القاهرة لاستعادة تلك المادة من مخلفات كومب . وقد امكنا الحصول على كل المخطوطات والصور الفوتوغرافية والمتعلقات الاخرى الخاصة بالكتاب ، وذلك بفضل وحسن تدبير الادارات التابعة للملحق الثقافي السويسري وقتها ، المغفور له الدكتور روبرت ران Dr. Robert Rahn . كما وافقت السيدة زوجة كومب على الفور على انقاذ هذه المادة .

وتضمنت المادة ايضا ، بالاضافة الى النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة للمقتطفات المذيلة بالشروح والتعليقات

* كانت تعرف آنذاك باسم مكتبة بلدية الاسكندرية (المترجم) .

ومسودة الترجمة الفرنسية التي أعدها كومب بقلمه البار ، صورا فوتوغرافية لنص برلين^(٨) ، والنسخة الناقصة لمخطوطة القاهرة^(٩) وتعتبر المخطوطتان مكملتين لبعضهما . ويبدو انهما فعلا عن نفس النسخة الاصلية المصورة المفقودة . ثم نأى الى علمنا في تاريخ لاحق وجود النسخة الوحيدة الكاملة للنص في الهند^(١٠) . وقد نسبت هذه المخطوطة عن طريق الخطأ الى ابي عبدالله محمد بن عمر زين الدين الواقدي . كما توجد مخطوطة رابعة في المتحف البريطاني^(١١) ، ولكنها ليست سوى نبذة مقتضبة مبتورة مبنية بكل تأكيد على الاصل الهندي وتحمل اسم النويري . اما فيما يتعلق بعملية النشر والتحرير والمقابلة [بين مختلف النسخ] ، فان تلك التي يمكن الافادة منها هي مخطوطات برلين والقاهرة وبانكي بور ومع ذلك فان كل هذه المخطوطات توجد بها فجوات واجزاء مختصرة ، امكن ملؤها وتقويمها عن طريق المقارنة بين مختلف النصوص . وفي رأينا انه من المناسب اتخاذ مخطوطتي القاهرة وبرلين اساسا لنصها النهائي ، طالما انهما نسختان عن النسخة الاصلية للمؤلف . كما ساعدت النسخة الهندية غير المنشورة على ايضاح بعض الاجزاء الغامضة وسد العديد من الثغرات الموجودة في المخطوطات الأخرى .

واثناء انغماسي في مراجعة مشروع كومب - عطية توطئة لنشره ، تلقيت دعوة رسمية من المغفور له الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، للقيام بنشر النص بأكمله لحساب مؤسسته . كجزء من سلسلتها الشهيرة عن التراث العربي . وفي الحقيقة نظرا لأهمية الكتاب ووجود نسخته الوحيدة الكاملة في بانكي بور ، فقد نجح المسؤولون في الدائرة في اقناع الحكومة الهندية لتمويل المشروع والتكفل بنشره في [السلسلة الجديدة من مطبوعات] دائرة المعارف العثمانية . وكان اعداد النص قائما على قدم وساق في الدائرة عام ١٩٣٨^(١٢) ، ومبني على المخطوطة الهندية التي اتضح انها ناقصة وغير وافية بالغرض^(١٣) .

وبدا واضحا ان المقصود من دعوة الدكتور عبد المعيد خان هو نشر النص كاملا دون حذف او الاكتفاء بانتقاء اجزاء منه . ولذلك بدأ مشروع كومب - عطية الاصلية يأخذ اتجاهها مغايرا . ولأسباب عديدة رحبنا في نفس الوقت

(٨) تتألف مخطوطة برلين من قسمين في مجلد واحد تحت رقم ٣٥٩ Wetzstein (ص ١ - ١٣٩) ورقم ٣٦٠ (ص ١٤٠ - ٢٧٠) . انظر : Ahlwardt, Verzeichniss der Arabischen Hand — schriften der Koniqliehen Bibliothek zu Berlin, 10 vols . (Berlin, 1887 — 99 , IX , 304 — 6 .

هذا ، ولا تتضمن صفحة العنوان الاولى للمخطوطة اسم المؤلف . ولذلك ينبغي الوارد الى مجهول . ويأخذ هذا الرأي بروكلمان في مؤلفه : C . Brockelmann , Geschichte der Arabischen Literatur , 2 Vols . (Berlin , 1898 — 1902 , II , 35 — 36 .

ولو انه صحيح ذلك ليا بعد في الملحق الثاني ، ص ٣٤ .

(٩) دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٤ - ٤٩ تاريخ .

(١٠) بانكي بور ، الجزء ١٥ ، ١٠٦٦ .

(١١) Ch . Rieu , Supplement to the Catalogue of the Arabic Manuscripts in the british Museum London , 1894 (No . 606 , Fol . 50/70 .

(١٢) كانت مسألة اعداد نص بانكي بور ، في الواقع ، موضع اعتبار في حيدر آباد في عام ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م ، كما ذكر بروكلمان في الملحق الثاني ، ص ٣٤ .

(١٣) يتضح هذا من النسخة طبق الاصل التي بعثت بها الى الدائرة عن طريق الدكتور عبد المعيد خان .

باقترح نشر الكتاب كله دون اختصار . اولا لأن مبدأ نشر التراث القديم غير منقوص قد أصبح لفترة طويلة مقبولا كنموذج مثالي لما يجب ان تكون عليه عملية النشر ، وبصفة خاصة عندما يطبع المخطوط لأول مرة . وثانيا ، ان وضع الترجمة الفرنسية على الرف والتركيز على النص العربي ، اطلق يدي المحرر تلقائيا من القيد الذي كان يحصر جهوده في جزء خاص او اكثر من الكتاب . لذلك فان مشروع كومب - عطية القديم الخاص باستبعاد جميع الاجزاء التي لا علاقة لها بالاسكندرية وتاريخها وآثارها ، كان لا بد من مراجعته مراجعة تامة مع اثبات جميع الاجزاء المحذوفة . ولم يكن هذا عملا سهلا ، وان كان باعثا على الرضاء التام . وهكذا ظهر النص بأكمله في الأجزاء الستة الأولى . ونظرا للطابع الذي يتميز به هذا الكتاب المتنوع المعلومات ، والذي يعوزه التخطيط الواضح المفصل ، فقد أصبح لزاما تخصيص مجلد سابع وأخير للفهارس العديدة التي قد تساعد القارئ على تحديد مكان معلومة ما ورد ذكرها وسط خضم النقاط المختلفة او بين ثنايا حشو النص المسهب .

وربما كان الجزء الوحيد الذي اغرانا بالحذف [من الكتاب] هو البذات التي غمس الانبياء^(١٤) في مواضع منه ، او تلك التي تدخل في مناقشة صريحة حول الجنس في مواضع اخرى ، ومع ذلك ، فقد تقرر في النهاية ، بعد تقديم الاعتذار ، تضمين الكتاب حتى هذه الاجزاء دون المساس بها وذلك لأسباب عدة . اولا ، لأنها تمثل مظهرا من مظاهر ادب العصر الذي لم يرفضه او يتعفف عنه العقل العربي في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] باعتباره امرا مشينا . وبعبارة اخرى ، يجب ان ينظر الى كل ما اورده النويري في هذا المجال كتعبير عادي لاختلاقيات العصر . ثم ان التفاصيل التي كشف النقاب عنها صراحة في هذا الخصوص ، انما تصلح اساسا من اسس دراسة فيسيولوجية الجنس . وفي الحقيقة ، تأرجحت شخصية النويري التي تميزت بروحه المرحية بين الزهد الزائد عن الحد وبين الفجور المبتذل . وفيما بين هذين الطرفين [المتناقضين] كتب تقريبا بحرية في كل موضوع يمكن تصويره ومألوف لمعاصريه ، مما جعل كتابه موسوعة عالمية للعصر [الذي عاش فيه] . وبالرغم من الخلط والارتباك الناتجين عن خروجه عن جوهر الموضوع ، الا ان المادة التي جمعها تضم كثيرا من الدرر الغالية الكامنة في ثنايا نصه المسهب ورواياته غير المترابطة . ونأمل ان تقدم الصفحات التالية للقراء تحليلا منسقا لهذا النص العظيم ، وبهيء السبل اللازمة لتحديد مكان اي موضوع هام ومحدد عن طريق الفهارس [التي اعدناها لهذا الغرض] .

الفصل الثاني

المؤلف وكتابه

الاسم الكامل لمؤلف « كتاب الامام » هو محمد بن قاسم بن محمد النويري^(١٥) المالكي الاسكندراني . والاسم غير مدون على صفحة العنوان في كل من مخطوطة برلين ومخطوطة القاهرة ، الامر الذي ضلل Ahlwardt حتى

(١٤) محمد بن قاسم النويري الاسكندراني : كتاب الامام - نشر عزيز سوريال عطية في سبعة اجزاء (حيدر آباد : دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٨ - ١٩٧٦) . وسوف يرد ذكره فيما بعد تحت اسم « الامام » . انظر بصفة خاصة ج ٦ ص ٢٧٩ وما يليها وص ٢٩٠ وما يليها .

(١٥) التهجئة الواردة هنا هي التي حددتها دائرة المعارف العثمانية .

انه نسب مخطوطة برلين لشخص مجهول . وتبعه في ذلك بروكلمان Brockelmann في النسخة الاصلية لكتابه المعنون ' تاريخ الادب العربي ' ، ولو انه صحح الخطأ بعد ذلك في ملاحقه^(١٦) . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى نجد ان مخطوطة بانكي بور تذكر المؤلف تحت اسم ابو عبد الله محمد بن عمر زين الدين بن الواقدي . وهذا بالطبع غير صحيح ، وغير معروف مصدر هذا الخطأ الذي يظهر مرة اخرى في مخطوطة المتحف البريطاني الموجزة . ومع ذلك ، يظهر اسم المؤلف ونسبة الكتاب اليه في شعره في عدة مناسبات بين ثانيا النص ذاته^(١٧) ، وبذا لا يترك لنا مجالاً للشك في شخصيته . وعلينا ، في ذات الوقت ، ان نتذكر ان « كتاب الامام » لم يكن مجهولاً لدى عدد كبير من المؤرخين القدامى ، ومن بينهم ابن حجر العسقلاني^(١٨) (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) والسخاوي^(١٩) (ت ٩٠٢ / ١٤٩٦ م) . وللخير بعض الكلمات التي ينتقد فيها عملية تأليف الكتاب واسلوبه . وتتضمن مصنفات السير والتراجم المتأخرة [زمنياً عن عصر النويري] مثل [معجم] حاجي خليفة^(٢٠) وكتاب عمر رضا كحالة^(٢١) ، اسم « كتاب الامام » بين قوائمها كاملاً مع اسم مؤلفه .

وان وصف النويري لنفسه كسكندري (الاسكندراني) يعزي الى اقامته الطويلة في تلك المدينة . وهذا يساعد على تمييزه عن الآخرين الذين يحملون نفس اللقب . ومن اشهرهم احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) وهو المؤلف الذائع الصيت لكتاب ' نهاية الارب ' ،^(٢٢) ووجيه الدين عبد الرحمن^(٢٣) الذي توفي عام ٧١٦ هـ / ١٣١٩ م * وهو يقاتل في صفوف الجيوش الايوبية ضد الفرنجة ، وربما كان ذلك في دمياط . ومن الواضح ان الثلاثة قدموا اصلاً من قرية النيرة من اعمال مديرية البوصيرية - محافظة بني سويف الآن - في مصر الوسطى .

ووفقاً لروايات محمد بن قاسم نعرف انه قدم الى الاسكندرية في شهر ذي الحجة ٧٣٧ هـ / يوليو ١٣٣٧ م^(٢٤) بهدف زيارة المزارات الاسلامية المقدسة واضرحة مشايخها الابرار . وعندما احس بما تتمتع به المدينة من جمال ، ووجد ان المعيشة فيها مستساغة الى حد بعيد ، قرر الإقامة فيها . ثم تزوج فيها بعد من اهلها الذين اعجب بهم ، وبذلك كون عائلة داخل اسوارها الى ان تركها مع سيل المهاجرين عن طريق البوابة البرية هرباً من الغزاة الفرنجة اثناء الايام العشرة .

(١٦) انظر الفصل الاول ، حاشية رقم ٣ .

(١٧) الامام ج ٢ ، ص ٢١٩ ، ج ٣ ص ٨٠ ، ج ٤ ص ٤٤ و ٤٥ ، ج ٥ ص ٢٩٧ . ويشير النويري في الجزء الثاني من ٥٢ الى قريته الاصلية النيرة التي عاد اليها بعد هروبه من الاسكندرية سنة ١٣٦٥ .

(١٨) الدور الكامنة في اعيان المائة الثامنة (القاهرة ١٩٦٦) ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .

(١٩) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ، ص ١٢٢ .

(٢٠) كشف الظنون (اسطنبول ١٩٤١ - ١٩٤٥) ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

(٢١) معجم المؤلفين (دمشق ١٩٥٩ - ١٩٦١) ، ج ١١ ، ص ١٤٧ .

(٢٢) نهاية الارب في فنون الادب ، وهو موسوعة ادبية ضخمة صنفها شهاب الدين بن عبد الوهاب البكري الكندي الشافعي المعروف بالنويري . والموسوعة تقع في عشرين مجلداً (طبع القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧٥) .

(٢٣) الامام ، ج ٥ ، ص ٩٠ - ٩٢ . هذا ، وقد اورد المؤلف اسطورة مفادها انه بعد وفاة وحيه الدين استجاب لنداء مهين من قبل احد الفرنجة في ساحة القتال ، ومن ثم فان الفرنجي الذي احترته الدهشة صبر جثمان الشيخ وحمله معه الى حكا حيث يرقد الفرنجي في مدفن الشيخ بعد اعتناقه للإسلام .

* التاريخ في الاصل الانجليزي ١٢١٩ م ، ولعله خطأ مطبعي ، وصحته ١٣١٩ م (المترجم) .

(٢٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

الاخيرة من شهر محرم ٧٦٧ هـ / اكتوبر ١٣٦٥ م ، وكان النويري قد اتم في هذا التاريخ قرابة ثلاثين عاما امضاها في هذه المدينة التي عاد اليها بعد ذلك .

وعند عودته الى الاسكندرية ، بعد انسحاب القبارصة المشين منها ، ومشاهدته الكوارث التي حلت بها اثناء احتلالهم القصير لها ، والتي اثار الرعب والهلع في نفسه ، قرر ان يؤلف كتابا عن تلك الاحداث الحقيرة . وبدأ بالفعل في جمع نصه في جمادى الثاني ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦ م ، واتمه في ذي الحجة ٧٧٥ هـ / مايو ١٣٧٤ م (٢٥) . ويمكن القول ، بناء على ذلك ، انه امضى نحو ثمان سنوات للفراغ من اعداد كتابه .

ومن الصعب تحديد تاريخ وفاة النويري تحديدا دقيقا . ولكن طالما انه عاش حتى اتم كتابه في السنة سالفه الذكر ، فلا بد اذن انه توفي بعد عام ١٣٧٤ م . ويحتمل انه كان على قيد الحياة في عام ١٣٧٥ أو ١٣٧٦ م . فهو يروى في ثنايا كتابه حادثة ضياع صقلية من ايدي المسلمين ووقوعها في قبضة النورمان الذين وصفهم بالفرنجة عام ٧٧٧ هـ (يونيو ١٣٧٥ - مايو ١٣٧٦ م) (٢٦) .

ويتحدث النويري عن مهنته كناسخ للمخطوطات لتجار الاسكندرية المسلمين الاثرياء ، وذلك اثناء اقامته الطويلة في تلك المدينة التي ناهزت اربعة عقود . ومن المؤكد انه نسخ عددا هائلا من المخطوطات طوال تلك السنين . ويحصر الكتب التي كان على معرفة بها ، والتي جمعنا عناوينها في فهرس خاص (٢٧) ، يتضح ان مكتبته قد زخرت بمجموعة لا بأس بها من المؤلفات الهامة لقدامى الاساتذة في مجالات عديدة في الدراسات الاسلامية . وبذا يمكن ان نستنتج انه استطاع كناسخ ان ينقذ ويستظهر اجزاء عديدة هامة من المادة التي قام بنسخها ، واستخدمها في تأليف كتابه الخاص الذي قدر ان يكون « كتاب الالمام » . ويدل عنوان الكتاب على تلك الحقيقة ، فكلمة « الالمام » تعني تنفا وشذرات [من مختلف مصادر المعرفة] ، وهي واضحة من بناء الكتاب . ويفسر هذا ، ايضا ، احدى سمات الكتاب المثيرة للحيرة . اذ يبدو انه كان يهدف الى حشد تلك الشذرات المتراكمة فوق بعضها في النص دون خطة واضحة ، مما جعل اسلوبه غير مترابط الى حد ما في بعض الاحيان . وليس من المستغرب لناسخ امضى حياته في نسخ امهات الكتب المعنية بالدراسات الاسلامية ان يجمع قدرا هائلا من المادة التي تتميز بأهميتها البالغة من اصول معروفة او مفقودة ومجهولة بالنسبة لنا . فعلينا ، اذن ، ان نعتبر كتاب النويري بمثابة خزانة ، وربما كانت خزانة غير مرتبة لكنز ثمين متراكم حول واقعة رئيسية ، الا وهي واقعة نهب الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م .

وفي الحقيقة ، لا يعتبر افتقاد النويري لمسألة تنسيق مادته هو العيب الوحيد في كتابه . فيكاد يكون من المستحيل بالنسبة لرجل حصل على مثل هذا العلم الغزير والاطلاع الواسع ، ان نجد تفسيراً لخواص وملسات معينة في اسلوبه . اذ يفحونه الجهل ببعض القواعد التي تعتبر من ابسط قواعد النحو العربي . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ليس من

(٢٥) حل صفحة عنوان الجزء الاول تبدو السنة ١٣٧٢ ، وهو خطأ مطبعي وقع سهوا في الاجزاء الاخرى . وعلى اية حال ، فان هذا لا يغير من تاريخ وفاة النويري الذي وقع بعد كلا العامين .

(٢٦) الالمام ، ج ٣ ، ص ١٠٢ .

(٢٧) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ١٢ .

الانصاف ان ننسب هنات الكتاب اليه كأمر محقق ، طالما انه لا توجد تحت ايدينا نسخة المؤلف الاصلية . وعلى هذا ، فمن المحتمل ان يكون الذين نقلوا عن نسخته الخطية الاصلية هم المخطوئون . ولكن ، لماذا تظهر في جميع المخطوطات التي تحت ايدينا نفس التراكيب النحوية المخالفة لابسطة القواعد ؟ واما بالنسبة للاخطاء النحوية واللغوية الفاضحة والتعابير العامة لاحداث الحياة اليومية في مصر [الواردة في كتابه] ، فاننا نرى من المناسب اجراء حد اذن من التصحيح والتهذيب للذين لا بد منها في اسلوب الكاتب مما يجعل النص صالحا للنشر في سلسلة من سلاسل التراث العظيم . ومن الصعوبة بمكان ان يوفق الفرد بين مثل هذه المتناقضات في انجازات النوري الشعرية . فقد كان شاعرا قديرا . وان قصائده المتناثرة في الاجزاء الاخيرة [من الكتاب] لدليل كاف على سيطرته على علم العروض العربي ، وعلى مهارته الادبية في تناول موضوعاته . ويمكن اعتبار قصائده بمثابة وثائق تاريخية ، طالما انها تعالج الاحداث الخاصة بالقرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] والشخصيات المرموقة المعاصرة له .

وترجع قيمة « كتاب الالم » كمصدر ثقة الى مصادره [التي اعتمد عليها] من جهة ، وإلى ملاحظات النوري نفسه كشاهد عيان [لاحداث ذلك الزمان] من جهة اخرى . ففي المقام الاول ، جمع مادة وفيرة استقاها من مؤلفات اصلية واقدم زمينا من كتابه . ومع ذلك ، بوسعنا ان نعتبر طريقة عرضه طريقة لا بأس بها . فهو بكل بساطة حشامدته في صلب النص ، متنقلا من موضوع الى آخر دون تفرقة او تمييز . ومع ذلك فمن الخطأ الجسيم ان نلفظ كتابه على هذا الاساس ، لانه وسط متاهات رواياته غير المترابطة لحد ما والمكتوبة باسلوب سجي متكلف ، يستطيع الفرد ان يعثر على تفاصيل غير عادية تتميز بأهميتها القصوى مبعثرة بطريقة عشوائية هنا وهناك [في ثنايا النص] . وقد حاولنا علاج فوضى المؤلف وشططه الذي لا مبرر له ، بجمع مادة هذا النص الضخم للموضوع في اربعة عشر فهرسا تضمنها الجزء السابع والاخير [من الكتاب] . وفي رأينا ان هذه الفهارس قد تعين القارئ على تحديد مكان المعلومة التي يبحث عنها دون الخوض في [متاهات] النص المربك بأكمله .

وفي المقام الثاني ، شب النوري ليكون مواطنا صميما من مواطني الاسكندرية . واصبح على دراية تامة بمنشآتها وأزقتها وحواريها وأسوارها وأبراجها وفنادقها (أي نزلها) وبواباتها وشواطئها والشخصيات المعروفة من أهلها . كما كان شاهد عيان للاحداث التي كانت المدينة مسرحا لها . امام ما يشاهده ، فقد سجله عن روايات بلغته بطريق مباشر ، او عن مصادر اصلية . وانعكست هذه الامور في التفاصيل الدقيقة التي زودنا بها والتي تتميز بطابعها الفريد فيما يتعلق ببطوغرافية الاسكندرية وآثارها في العصور الوسطى . ورأينا انه من المناسب جمع كافة الاشارات الخاصة بالمدينة في فهرس خاص على شكل جدول (٢٨) يبين انه مصدر ثقتنا عن الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] .

ثالثا ، خصص المؤلف الجانِب الأكبر من كتابه لأوفى معلومات معروفة [لدينا] باللغة العربية عن حملة القبارصة [على الاسكندرية] عام ١٣٦٥ م . وهو في ذلك يعتبر شاهد عيان من جهة ، ومن جهة أخرى مراسل أبناء خرج لجمع

كل المعلومات من شهود عيان آخرين ، وهي التي تتناول التفاصيل الخاصة بالأحداث التي لم يشترك فيها شخصيا . ثم هو يقدم لنا أسماء مسئولة لأشخاص جمع منهم قصصه ورواياته ليؤكد صدق اقواله .

رابعا ، لقد ظلّ النويري ، باعتباره مواطنا يعيش في ميناء من أهم موانئ حوض البحر المتوسط ، لعشرات السنين يشاهد باستمرار مختلف السفن التي ارتادت مياهه . وهنا نجد سجله المفصل عن السفن ، وأوصافها الخاصة ، واستخداماتها ، وبنائها ، ومحولتها ، ومسمياتها الفنية ، سجلا مذهلا حقا ليس له مثيل في مصادر العصور الوسطى العربية . وقد افردنا فهرسا خاصا^(٢٩) لهذا الجانب من الكتاب الذي سيثبت عند القاء نظرة خاطفة عليه ضخامة الجهد الذي بذله [النويري] في مجال نادر يتعلق بعلم الملاحة العربي والسفن العابرة في كل من البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي ، وأحواض أنهار العالم القديم العظيمة . ويعتبر كتابه مصدرا هاما للغاية في هذه الناحية ، حتى ان القاموس الوحيد للملاحة العربية الذي جمعه كندرممان Kindermann^(٣٠) يكاد يركز كلية على المعلومات الواردة في « كتاب الالمام » .

خامسا ، يزخر الكتاب بمسائل محددة واضحة تتعلق بالعلوم الجغرافية . كما افرد المؤلف قسما شيقا يتعلق بالمعلومات الفلكية . هذا ، فضلا عن أن جانبيا كبيرا من محتوياته خاص بالعديد من المدن والأنهار والجزر والبلدان في عالم العصور الوسطى . وتتميز بعض روايات المؤلف بقيمتها النادرة بالنسبة لكل من العالم الجغرافي والعالم الفلكي . فالنويري على سبيل المثال ، كان على دراية بكروية الارض قبل كوبر نيكوس Gopernicus وجاليليو Galileo بسوقت طويل ، حينما كان العالم الغربي يعتقد من وجهة نظر الكنيسة [اللاتينية] أن الأرض مسطحة يحيط بها محيط من الظلمات عامر بالعرب والأخطار والتنانين الضخمة . وما يثير الالهام أن نقرأ أحيانا بين ثنايا المعلومات التي يحتوى عليها النص ، اقتباسات تتناول خصائص بعض المدن والبلدان الكبيرة في أوروبا في العصور الوسطى ، مثل الكاتدرائيات والمنشآت الأسطورية في بعض العواصم والتي لا تزال بحاجة الى شرح الشراح وتفسير المفسرين الحديثين^(٣١) . وان المرمز لتعثره الدهشة عند قراءة الفصول المتعلقة بمجموعات النباتات والحيوانات . ومع أنها قد تبدو مقتضبة ، الا أن رواياته في هذا الصدد يمكن أن تكون ذات فائدة لطلبة كل من علم النبات وعلم الحيوان . كما أنها تفيد مؤرخي التجارة المتعلقة باحتياجات الشرق وحاصلاته . فبالإضافة الى تجارة الفلفل والتوابل الواردة من الهند ، يعدد النويري النباتات الجذرية والحاصلات وأشجار الفاكهة والأخشاب الثمينة وغيرها من المواد التي لها أهميتها في عمليات تبادل الصادرات والواردات وعقد الصفقات التجارية في العصور الوسطى^(٣٢) .

سادسا ، يلاحظ اثناء سرد النويري للمعارك والعمليات الحربية التي تتعلق بالفتح العربي والواردة في الحوليات المبكرة ، وكذلك ما يرتبط بالحروب التالية المتقطعة التي نشبت بين المسلمين في الشرق الاوسط وبين المسيحيين في الغرب . أن المؤلف أمد القارئ بقدر هائل من الحقائق والمعلومات الخاصة بفن الحرب والقتال لدى المسلمين في تلك

(٢٩) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس السابع .

(٣٠) H.Kinder,annm Schiff in Arabischen Unter suchung uber Vorkommen und Bedeutang der Termini) Zivickau I (٣٠)

(. Sa.1934

(٣١) الالمام ، ج ٧ ، الفهرسان الثاني والحادي عشر .

(٣٢) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرسان التاسع والعاشر .

العصور . ونجد بين محتويات الكتاب معلومات عن معدات الحرب العربية ، والخطط التكتيكية للقتال ، والاستراتيجية ، وعمليات الحصار وآلاتها ، والاساطيل ، والمعارك البحرية . وحاجة المؤرخين [المعنيين بفن الحرب والقتال] ماسة لهذه المعلومات النادرة الى حد ما ، للاسهام في توضيح الجوانب الغامضة التي اكتنفت فن الحرب عند العرب في العصور الوسطى . وهنا نجد أن لدينا فيضاً من المعلومات الجديدة نسبياً التي تثري معرفتنا الضئيلة في هذا الموضوع بالذات ، وقد قمنا بمحاولة لتحديد وتفسير المصطلحات التي استخدمها النويري في هذا المجال ، ولم يحالفنا التوفيق في عدد منها . وعلى ذلك فأننا نسجل المصطلحات كما وجدت في المخطوطات الاصلية ، تاركين عملية تفسير المسائل التي لا تزال بدون حل للمؤرخين العسكريين مستقبلاً^(٣٣) .

ثامناً ، علينا أن نتذكر أن النويري يعتبر انساناً بحكم مهنته اذ تبدو نواحي اهتماماته بجلاء في استخدامه المتواصل للشعر وفي دراساته الادبية^(٣٤) . وكان النويري نفسه ، حسبنا ذكرنا من قبل ، شاعراً من نوع معين . وان استخدامه للشعر الاصيل القديم الذي يرجع الى العصر الذهبي للأدب العربي ، قد وصل بينه وبين سرد شعر عصره المنشور الدينوي . وبناء على ذلك ، يمكن القول أن هذا القدر الهائل من المقطعات الشعرية المتنوعة في « كتاب الامام » قد استمد ابتداءً بالمعلقات - وهي ملاحم الشعر الجاهلي الخالدة - ، ومن مشاهير الفترة الاسلامية المبكرة امثال ابي نواس والفرزدق ، وحتى تلك الاسماء المجهولة نسبياً امثال التكريتي وابن ابي حجلة وابي الفضل قاسم القصار وابي العباس المرسى ، وحتى النويري نفسه الذي كان من بين شعراء أواخر العصور الوسطى . وكان المؤلف في بعض الحالات يقتبس دواوين بأكملها أو مجموعات من القصائد والأشعار . وآية ذلك ربما يكون شعر مجنون ليل^(٣٥) ، حيث جمع النويري قصائد كافية للاسهام في اعادة نظم ديوانه باضافة أشعار أخرى اليه لم يحالفنا التوفيق في تحديد مكانها في الطبقات الأقدم التي لا تزال موجودة للشاعر الغنائي الشهير . وتمشيا مع الروح الدينية التي يتميز بها النويري نجده يقتبس في نفس الوقت اقتباساً مكثفاً من الشعر الديني ، مثل القصيدة العظيمة التائية « للشاعر ابن الفارض^(٣٦) . فقد جمع فعلاً كل المراثي التي نظمها شعراء عصره يتباكون فيها على سقوط ونهب مدينة الاسكندرية الغنية الباهرة ، وبخاصة القصيدة التي نظمها ابن ابي حجلة والتي سنوجه لها عناية خاصة في الفصل التالي . ومع أنه اقتبس بعض الرجز^(٣٧) الى جانب الألغاز والأحاجي الشعرية لمجرد التسلية ، الا أنه أدى ذلك بطريقة سطحية عابرة دون امعان أو تدقيق ، وهي لا تتطلب معالجة فاحصة . أما شعره الشخصي فهو ، أساساً ، خاص بمدح الشخصيات التاريخية أو التباكي على المصير الرهيب لمدينته العظيمة^(٣٨) .

(٣٣) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٨ .

(٣٤) يصعب ان نجد فصلاً في مختلف اجزاء الكتاب لا يتضمن اقتباسات شعرية ترجع الى الفترة المبكرة . انظر الفهرس رقم ١٤ في الجزء السابع من الشعر والشعراء .

(٣٥) يدهي قيس بن معاذ . انظر الامام ، ج ٦ ، ص ٣٣٩ . ووردت أشعاره في ج ١ ص ١٩٠ و ١٩٢ و ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٩ و ٢٠٠ ، ج ٦ ص ٢٣٢ و ٢٣٩ وما يليها و ٣٦١ وما يليها .

(٣٦) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٦٣ و ٨٢ و ٨٨ و ١٤٥ و ١٩٨ و ٢٢٣ و ج ٢ صفحة ١٨٩ وما يليها و ١٩٥ وما يليها و ج ٣ ، ص ١٤٠ - ١٤١ و ١٧٢ و ٢٣٢ و ج ٤ ، ص ٢٢٩ و ٢٣٨ وما يليها و ج ٥ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ و ج ٦ ، ص ٣٦٦ وما يليها .

(٣٧) شعر شعبي مفعولي الوزن . نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ و ٣٢٩ .

(٣٨) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ١٤ .

تاسعا ، يحتل النويري مكانته كروائي أو قصاص . ويمكن تصنيف قصصه الى نوعين : أحدهما يشتمل على قائمة طويلة من الحكايات القصيرة ، وهي عبارة عن أحداث كان يسردها أهالي الاسكندرية الذين بقوا داخل أسوارها* تتضمن ما قاسوه على أيدي الفرنجة الغزاة (٣٩) . هذا ، وتوجد في الحقيقة حكايات أو روايات تاريخية عن أحداث ووقائع معينة أثناء غزو الاسكندرية . ويعتبر الفصل التالي الخاص بتاريخ الحملة الصليبية هو المكان المناسب لتحليل تلك الوقائع والأحداث . (هذا عن النوع الأول من قصصه) ، أما النوع الثاني فهو يتضمن قصصا أطول هي من وحي خيال النويري . وهي تتناول قصصا خيالية تتعلق بملوك وممالك وجن وشياطين (٤٠) ومعارك بأسلة مع الأسود المفترسة والأرواح الخفية والظواهر الخارقة للطبيعة ، وكل ما يتعلق بالسحر والمعجزات . ويمكن هنا أن نلمس مدى تأثير قصص « ألف ليلة وليلة » التي كان (النويري) على معرفة بأصولها ، ولو أن هذا لا يظهر في قائمة كتبه لسبب جلي هو أن هذا العصر هو العصر الذي بدأ فيه فن القصص الخيالي الخالد يأخذ شكله النهائي . ومن الصعوبة بمكان حقا تتبع مصادره في هذا المجال بالذات ، تاركين الأمر لمجرد الحدس والتخمين . فمن أعجب قصصه قصة سردها بأسهاب في مطلع « كتاب الامام » ، وهي أفضل مما جاء في نهاية الكتاب الذي خصصه للقصص الخيالي البحث . وهذه القصة تدور حول فيلسوف معين يدعى سكندس Secundus (٤١) هو ووالدته . وهي القصة الوحيدة التي ترجع الى أصل أغريقي ، وهي تنفق الى حد بعيد مع المأساة الاغريقية الشهيرة « الملك أوديب » . Oedipus Rex وعلى العموم ، يبدو أن النويري كقصصي هدفه الكتابة من أجل المتعة والتسلية ، قد قام بهذه المهمة بفصاحة وبلاغة (٤٢) .

وقد يكون من غير المناسب أن نختم هذا العرض دون أن نسجل صفات النويري البارزة على امتداد كتابه بأكمله . فهو مسلم شديد التقوى والتدين ، ويجعله إيمانه الشديد اقرب الى التزمّت . فاقبাসاته من القرآن الكريم واستخدامه للحديث النبوية ظاهر في كل فصل من فصول كتابه . حقيقة أنه أخذ أيضا عن الكتب المقدسة الأخرى ، وتزخر كتاباته بأسماء الأنبياء خارج دولة الاسلام ، ولكنه كان يسترشد في كل أحكامه ورواياته بآيات من القرآن الكريم وما جاء في الحديث الشريف . ولو أنه من الصعب قبول صحة كل ما سجله من أقوال عن الرسول (ص) . ومع ذلك ، فانه من الأهمية بمكان ، في ذات الوقت ، دراسة كل ما نسب زورا وبهتانا الى الرسول ومعرفة مصدر نسبتها اليه . فقد أصبحت هذه مع اقتباساته القرآنية واحالاته الى الكتب الأخرى المنزلة ، جديرة بفهرس خاص (٤٣) .

ومع ذلك ، علينا أن نتذكر أن النويري بدأ كتابه كسجل للكوارث والبلايا التي دمرت تقريبا المدينة العظيمة التي كان قد ولع بها . ولذا لا نستطيع التغاضي ، بداءه ، عن علوقه كمؤرخ لتلك الأحداث بالذات . وسنكرس الفصول التالية لدراسة تحليلية لـ « كتاب الامام » كمصدر عام لموضوعاته المختارة في التاريخ الاسلامي ، ثم بعد ذلك

* اي لم يفاقدوها أثناء حملة القبارصة عليها (المترجم) .

(٣٩) نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٧٩ وما يليها .

(٤٠) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٣١٨ وما يليها .

(٤١) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥٨ وما يليها .

(٤٢) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٣ (فهرس الموضوعات) .

(٤٣) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٥ .

كسجل لتلك الأحداث الخاصة بمدينة الاسكندرية مع التركيز على حملة عام ١٣٦٥ م المشنومة ، وذلك من وجهة النظر المصرية .

الفصل الثالث

النويري كمؤرخ

من الخطأ تعريف النويري بالمؤرخ المحترف أو باعتباره واحدا من كتاب الحوليات ، أو محلي الأحداث في عصره في القرن الرابع عشر الميلادي القرن الثامن الهجري . ومن الخطأ الجسيم ، في ذات الوقت تجاهله كلية في مجال التاريخ . فقد أسهم بالفعل اسهاما عظيما في تحليل عدد من أحداث عصره ، وبصفة خاصة موضوع سلب القبارصة للاسكندرية ، حيث أمدنا بتفاصيل فريدة في نوعها . وعلى أية حال ، اذا خرجنا عن هذه الدائرة ، يتضح أنه كتب في تمجيد الاسلام والامبراطورية الاسلامية عبر العصور . وجدير بالملاحظة أنه سمح لنفسه أثناء جولاته واستطراداته بالخوض في الحديث عن العديد من الامبراطوريات الأخرى التي ترجع الى العصرين القديم والوسيط . وعلى العموم ، فان اسلوبه في عرض الحقائق هو أسلوب من يكتب لتسلية قرائه . اذ تناول الأحداث بأسلوب اشبه بأسلوب الرواة الذي يركز على الناحية الدرامية والاسطورية أكثر من التركيز على الناحية الواقعية . ومن الصعب تتبع أصول المصادر التي استقى منها معلوماته بحرية مطلقة . ولكن من المؤكد أنه اعتمد الى حد بعيد على الكتابات الأدبية العربية المتقدمة ، والتي كانت لا تزال موجودة في عصره ، ثم أصبحت الآن في حكم المفقودة .

اما عن كتاب الموسوعات الآخرين في عصره - ويحتمل ان يكون (صاحب الامام) على معرفة بمؤلفاتهم - فمن بينهم من يحمل نفس الاسم^(٤٤) ، وهناك أيضا العمري^(٤٥) العظيم الذي توفي عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م . ومن الصعوبة بمكان أن نضع مؤرخنا النويري في نفس مرتبة أي منها . وليس باستطاعتنا ، كذلك ، أن نضعه في مرتبة المؤرخين الآخرين المعاصرين له تقريبا ، أمثال الذهبي^(٤٦) ، والصفدي^(٤٧) ، وابن الفرات^(٤٨) ، وابن خلدون^(٤٩) ، وكثير غيرهم ممن خلفوا كتباً ومؤلفات تعتبر أفضل من كتابه ، كما أنها نشرت قبل « كتاب الامام » بفترة

(٤٤) شهاب الدين احمد [بن عبد الوهاب بن محمد] صاحب كتاب « نهاية الارب » وقد توفي سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م . انظر الفصل الثاني ، حاشية رقم ٨ .
(٤٥) اسمه بالكامل هو شهاب الدين ابو العباس احمد بن يحيى بن فضل الله العمري القرشي الشافعي ، توفي سنة ظهور الوباء الاسود ، خلفا للعمل العظيم المعنون « مسالك الابصار في عمالك الامصار » ، الجزء الاول ، نشر احمد زكي باشا (القاهرة ١٩٢٤) . وثمة أجزاء منه تتعلق باليمن تولى نشرها ايم فؤاد سيد (القاهرة ١٩٧٤) . وبه قسم من المغول مصحوب بترجمة باللغة الألمانية بقلم كلاوس ليخ Klawns lech (طبع فيزيادون Wiesbaden سنة ١٩٦٨) .
(٤٦) شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان قايماز بن عبد الله الذهبي التركماني الفارقي الشافعي ت ٧٤٨ هـ ١٣٤٨ م له عدة مؤلفات في التاريخ الاسلامي .
(٤٧) تحليل بن ابيك بن عبد الله ابو الصفا (ت ٧٤٦ هـ / ١٣٦٣) .
(٤٨) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) . وقد نشر قسطنطين زريق جاتيا من تاريخه (طبع بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٣٩) . وحسن الشماخ (طبع البصرة ، ١٩٦٧ - ١٩٧٠) .
(٤٩) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) .

طويلة . كذلك يجب أن نأخذ في الاعتبار أن النويري كان على معرفة بمؤلفات الكتاب السابقين . ثم أن معظم الذين جاءوا بعده أمثال ابن حجر^(٥٠) ، والسخاوي^(٥١) ، كانوا في نفس الوقت على علم بكتابه ، ولو أن الأخير انتقده نقدا لاذعا .

وعلى أية حال ، يقف النويري باعتباره حجة له ثقله في حقل التاريخ على أساسين على أقل تقدير . فإن ما سجله عن أحداث حملة القبارصة المشنومة على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م [٧٦٧ هـ] واحتلالهم القصير لها - حسبنا ذكرنا من قبل - هو في المقام الأول أوفى الروايات الاسلامية الموجودة . وبسبب الأهمية البالغة التي تتمتع بها رواياته ، من ناحيتي الكم والكيف ، سوف نخصص الفصل التالي لدراسة تحليلية لمحتوياتها . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يعد كتاب النويري تكملة فريدة في نوعها للدراسات الطبوغرافية الهائلة (أي الخطط) التي دونها أقدر استاذين في أخريات العصور الوسطى وهما المقرئزي^(٥٢) والسيوطي^(٥٣) . وقد ركزا اهتمامهما على مدينة القاهرة ، بينما اختص النويري بمدينة الاسكندرية . وفي هذا الخصوص ، سد الأخير فجوة في المعلومات التي أمكن الحصول عليها عن المدينة الثانية العظيمة في مصر في العصور الوسطى . ومع أنه لم يعد للكتابة المنسقة عن خطط الاسكندرية بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح ، الا أنه في الواقع أنجز مهمته تلك دون أو يوليه العناية الواجبة ، وذلك عند استعراضه للأحداث المرتبطة بتاريخ المدينة في القرن الرابع عشر . ولقد مكنته معرفته بجميع التفاصيل الطبوغرافية المتعلقة بالمدينة التي أتخذها موطناً له ، من أن يضمن دراسته معظم المعلومات والتفاصيل ، أيا كانت ، عن بناء وتكوين مدينة الاسكندرية ، بما يعود بالفائدة على علماء الآثار المسلمين وعلى المشتغلين في التاريخ الوسيط المتخصصين في دراسة هذه المنطقة . وفي حكم المستحيل ان نلم الماما تاما في مجرد مقال بكل العصور التاريخية والامبراطوريات التي تعرض لها النويري . وكل ما نستطيع حقا أن نفعله ، في نطاق محاولتنا هذه ، هو تصنيف مادته وتقديمها للقارئ مزودة ببعض التوجيهات عن الخصائص الأساسية لنصوصه الضخمة والمتشابكة الى حد ما . وجددير بالملاحظة أنه كان يقطع تسلسل رواياته التاريخية ، بصفة عامة ، العديد من النكات والناوادر التي لها علاقة سطحية بالموضوع أو التي لا تمت للموضوع بصلة . وثمة اقتباسات شعرية على امتداد الموسوعة تكشف عن اهتمام المؤلف الخاص بهذه الناحية الجذابة المشوقة ، وان كانت في غير موضعها الطبيعي .

وفيما يتعلق بالتاريخ القديم ، ففضلا عن موضوع التراث الجاهلي في شبه جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام وهو الشيء الذي يتكرر على امتداد كتاب النويري ، فإنه يبدأ بالحديث عن الامبراطورية الفارسية^(٥٤) . وهو يوجه عناية خاصة الى كسرى أنوشروان وابنه هرمز نظرا لتقارب عهديهما من تاريخ ميلاد النبي محمد (ص) . ويتحدث بفصاحة

(٥٠) شهاب الدين بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) . انظر كتابه « الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة » ، ج ٤ ، (حيدرآباد ١٩٢٩) ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .

(٥١) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) . انظر كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » ، (القاهرة ١٣٤٩) ، ص ١٢٢ .

(٥٢) تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٤٢ م) . وعنوان مؤلفه الذي يقع في اربعة اجزاء (طبع القاهرة ١٩٠٦ - ١٩٠٨) هو « كتاب المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » .

(٥٣) ابو الفضل عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي الشافعي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) . وعنوان خطته هو « حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة » ، ج ٢ . واحداث طبعته تولاها محمد ابو الفضل ابراهيم (طبع القاهرة ١٩٦٧ - ١٩٦٨) .

(٥٤) الاطلام ، ج ١ ، ص ٥١ و ٥٣ وما يليها .

عن الفتح العربي لامبراطورية الفرس الساسان . ولكنه يقلب في الجزء الأخير من كتابه^(٥٥) التسلسل الزمني للوقائع والأحداث بالعودة الى قصة الصراع بين دارا والاسكندر الأكبر .

ويخصص النويري ، بعد حديثه عن الامبراطورية الفارسية ، بضع صفحات عن الرومان مبتدئا بالحديث عن أغسطس^(٥٦) ، ويزودنا بسرد مشوش عن حروبه مع أنطونيوس وقلابطرة كليوباترا . وطبقا للمسميات العربية ينتقل الى طباريوس « طبريوس » وقلودس « كلوديوس » ثم بشبانس « فنسبسيان » وطيطيس « طيطس » ثم طريان « تراجان » ودقيانوس « دقلديانوس » . ثم يتعرض أثناء حديثه لمولد المسيح ومعجزاته ، كما يشير الى استشهاد القديس بطرس والقديس بولس وتشتت اليهود من أورشليم بين الأمم .

ويشير النويري باقتضاب الى الاباطرة البيزنطيين^(٥٧) ابتداء بقسطنطين الكبير حتى ثيداسيس [ثيودوسيوس] وهرقل . وفي حديث موجز مشوش الى حد ما يستأنف كلامه عن الحروب البيزنطية مع الخلافة الاسلامية^(٥٨) . وثمة اشارات عارضة عن احداث هامة في التاريخ البيزنطي مبعثرة في مواضع متفرقة في الاجزاء الاخرى [من الكتاب] ، وبصفة خاصة عندما خصص المؤلف حيزا ملحوظا للفتح العربي لبعض المقاطعات البيزنطية في غرب آسيا وشمال افريقية .

وفي موضع آخر من الكتاب ، يعود النويري للحديث مرة اخرى عن قصص وحكايات ترجع الى عهود قديمة عن ملوك في العصور السحيقة الغابرة . ويتحدث بأسهاب عن الملوك الكفار الجبابرة من ذرية آدم^(٥٩) ، ثم يخصص بعد ذلك فصلا مطولا عن تاريخ مصر القديم وآثارها^(٦٠) . وهنا يتحدث النويري عن الاهرامات والمعابد والتوابيت الحجرية والمقابر وعلم التنجيم والسحر وبعض الحفريات . ونجد في النص اساءة ملوك مصر الذين يصعب التعرف على شخصياتهم^(٦١) . ومن الواضح انه اعتمد على احد المصادر العربية المغمورة كتبه شخص يدعى الوصيفي^(٦٢) . ثم يسرد محاولة الخليفة العباسي المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) حفر مدخل للهرم الاكبر بالجيزة اثناء زيارته لمصر بهدف اخذ ثورات القبط في الدلتا . ولا تزال هذه الفتحة التي نحتها المأمون في جانب الهرم تستخدم فعلا كمدخله الوحيد حتى يومنا هذا .

وكان الهدف الاساسي لهذا الخليفة ومن تبعه من خلفاء هو البحث عن كنوز الذهب المخبأة بداخله . ونجد مثلا آخر بهذا الخصوص في عهد الخليفة جعفر المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) الذي تابع واليه في مصر المسمى ابن المدير هذه الحفائر في مكان آخر .

(٥٥) نفس المرجع ج ٥ ص ٤٣ وما يليها .

(٥٦) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٣ وما يليها .

(٥٧) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٧ وما يليها .

(٥٨) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٥٧ وما يليها .

(٥٩) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٧٧ وما يليها .

(٦٠) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٨٤ وما يليها .

(٦١) انظر على سبيل المثال ، نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ وما يليها .

(٦٢) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٩٠ .

ثم تولت الدولة بعد ذلك ، في عهد كل من الطولونيين (٨٦٨ - ٩٠٥ م) والახشيديين (٩٣٥ - ٩٦٩ م) ، أعمال الحفر المنظم ، وعثرت على كنوز طائلة وإن كان معظمها عبارة عن تماثيل وتوابيت حجرية وموميات . وبالرغم مما اشتمل عليه هذا القسم من الكتاب من محتويات متنوعة غير مألوفة ، إلا أنه يقدم لعلماء الآثار المصرية معلومات قيمة لما وصلت اليه الدراسات الاثرية في العصور الوسطى .

إن الاحداث التاريخية المختلفة المتباينة التي حاول النويري تغطيتها دون خطة محددة ، لهى شديدة الوفرة والتنوع والتشعب والتداخل ، حتى أصبح من الصعوبة بمكان تقدير جهده فيها دون استخدام فهرسنا الشاملة . فهي ، أولا ، تدور حول الاحداث المشتومة لمدينة الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] . اذ انبى لجميع النواحي ، مع التركيز على مسألة واحدة ألا وهي الانتصارات التي حققتها حركة الفتوحات المبكرة وانتشار الاسلام في عالم مرهق منقسم على نفسه ، وقد تمزق بين المسيحية الغربية وثيوقراطية دولة الساسان الشرقية . وكثيرا ما يروى القصص والنوادر التي يمكن ان تكون ذات فائدة في القاء الضوء على التاريخ الاجتماعي لتلك الفترات الغامضة . ومع انه كان يستهدف المتعة والتسلية ، إلا أنه حشد دون قصد قدرا هائلا من المعلومات عن الاسلام في تلك الفترة المبكرة .

ويستعرض « كتاب الالماء » ايضا ، اسماء العديد من الصحابة بما يطابق ما جاء في معظم الحوليات المعروفة الاخرى . وبالإضافة الى ذلك ، فإن المؤلف يعيد صقل هذه المعلومات بعد تضمينها تفاصيل شخصية شيقة اغفلتها كتب الحوليات والسير والتراجم والوفيات الهامة . وينطبق هذا الحكم العام تماما على الخلفاء الراشدين (٦٣) ، والامويين (٦٤) ، والعباسيين (٦٥) . وكان النويري في بعض الاحيان يجيد عن طريقه ليعدد نقاطا معينة ذات طابع خاص ، والتي لا بد وأن يكون قد جمعها من مصادر متنوعة معروفة أو مجهولة أو مفقودة .

وثمة مثال آخر غير عادي هو حصره لألقاب الخلفاء ، الى جانب مظهرهم الشخصي والسمات التي تتميز بها شخصية كل واحد منهم (٦٦) .

ويتضح اهتمام النويري بتاريخ وطنه مصر بالذات فيما سجله عن كل دولها وما لكها الاسلامية (٦٧) . فهو يتحدثنا عن الحكم السني في عهد الأسرتين الطولونية والახشيدية تحت السيادة الاسمية للخلافة العباسية في بغداد (٦٨) . قبل انتقال السلطة الى الخلافة الفاطمية الشيعية بعد غزو القائد جوهر الصقلي مصر (وهو المواطن الصقلي الذي يدعوه

(٦٣) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٣٣ وما يليها وج ٥ ، ص ٣٤٥ وما يليها .

(٦٤) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٥٦ وما يليها و ٢٩٦ وما يليها وج ٥ ص ٣٤٨ .

(٦٥) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣١٣ وما يليها و ٣٤٩ وما يليها .

(٦٦) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ وما يليها .

(٦٧) يتضح اهتمام النويري بتاريخ مصر في اطار علم السياسة الاسلامية في الجزء الثالث من الكتاب ، حيث جمع ما ورد عن مصر في القرآن الكريم (ص ٢٧٤ - ٢٧٨) ، وحصر الرسل والأنبياء والصحابة ورجال العلم من المسلمين وكذلك الشيوخ والأبرار ومشاهير الأدباء الذين دخلوا مصر (ص ٢٨٠ وما يليها و ٢٨٨ وما يليها) .

(٦٨) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٦ وما يليها . هذا ، وقد وردت الإشارة الى أحداث هامة معينة في مواضع أخرى من الكتاب ، مثل قصة أحمد بن طولون والقاضي بكار بن قتيبة (ج ٣ ، ص ٢٨٨ وما يليها) .

النويري بالرومي) عام ٩٦٩ م . وقد أعد ملخصا عن حياة الخلفاء في ظل النظام الجديد حتى نهاية حكمهم في عام ١١٦٩ م عندما قبضت الدولة الأيوبية على زمام الحكم تحت زعامة السلطنة السنية لصالح الدين^(٦٩) .

وان اهتمام « كتاب الألام » بموضوع الفتح العربي لمصر يفوق اهتمامه بكل تلك الاسر الحاكمة (المشار اليها) . ويفرد له المؤلف حيزا كبيرا . ومن الواضح أنه اعتمد الى حد بعيد على مؤلفات الواقدي^(٧٠) الذي تخصص في سرد مغازي الرسول وفتوحات الخلفاء الراشدين . ومع ذلك ، فقد حصر النويري معظم رواياته في فتح دلتا النيل ، اكثر من اهتمامه بالتفاصيل المتعلقة باستيلاء عمرو (بن العاص) على حصن بابليون (٦٤٠ م) الذي أشار اليه بايجاز في بداية الكتاب .^(٧١) فقد استولى العرب المسلمون عنوة وهم في طريقهم الى الاسكندرية على مدينة ترنوط القبطية ، وذلك بمعاونة امرأة ما كانت تعمل في قصر الحاكم تدعي ريني . وهي أخت مارية القبطية التي كان المقوقس صاحب مصر (من قبل بيزنطة) قد أهداها للنبي محمد ، وأصبحت إحدى زوجاته . وكانت ريني ترغب في عدم ترك اختها ، وكانت تلك هي فرصتها عندما وعداها بذلك القائد المسلم خالد بن الوليد مقابل خدماتها في سبيل الاستيلاء على المدينة . وهكذا فتح هذا النصر الطريق الى الاسكندرية امام العرب الذين واجهوا اول كتائب للعدو وأبادوها عند دير الزجاج (الهانطون اليونانية)^(٧٢) الذي يقع على مسافة نحو تسعة أميال جنوبي العاصمة (الاسكندرية) . وكان برفقة الكتيبة البيزنطية مجموعة من الرهائن العرب الذين قبض عليهم البيزنطيون أثناء غارة على طبرية والساحل السوري . وما لبث ان تولى حكم الاسكندرية رسطوليس الذي ذبح أباه المقوقس بسبب استسلامه لعمرو ، واعتقد أن باستطاعته استخدام أولئك الأسرى كرهائن في المفاوضات الاخيرة مع العرب ولكن هؤلاء حصلوا على حريتهم في مدينة الهانطون ، ولم يكن أمام رسطوليس سوى خوض غمار الحرب لانقاذ المدينة وقد انعقدت آماله على وصول الامدادات من سيرنيكا . ولكن تبين ان هذه التعزيزات كانت بطيئة الحركة سريعة الارتباك لدرجة لم يكن يوسعها الانضمام الى البيزنطيين اخوتها في الدين دفاعا عن الاسكندرية . ويروي النويري قصة افتتاح ثغرة في تلك الاثناء في الاسوار الحصينة بمعجزة عند صلاة شرحبيل^(٧٣) ، وهو كاتب رسول الله ومن صحابته وفي تلك اللحظة انسحب رسطوليس ورجاله الى اعالي البحار ، بينما لاذت الجيوش القادمة من سيرنيكا بالفرار عائدة الى ديارها عند سماعها خبر دخول العرب العاصمة تحت قيادة خالد (بن الوليد) .

وبعد الاستيلاء على المدينة ، فرض المسلمون ضريبة جماعية على المواطنين قدرها مائة الف دينار . وفي تلك الاثناء عرضوا على المواطنين اما اعتناق الاسلام اودفع الجزية بواقع اربعة دنانير للفرد الواحد . وكلف احد الاقباط ويدعي اشعيا بن شامس^(٧٤) بجمع المبالغ تحت رقابة رفيق عربي يدعي قيس بن سعد . ويختتم النويري قصته بمأساة

(٦٩) وردت الإشارة باختصار الى الدولة الأيوبية في الجزء الرابع من الكتاب ، ص ٤٩ - ٥٠ ، وتجد معلومات أولي في نفس الجزء عن صلاح الدين والدولة الأيوبية . أنظر ص ٦٢ - ٧٤ .

(٧٠) أبو عبيد الله محمد بن عمر الواقدي ، الموزع المعروف للفتوحات العربية المبكرة . وقد عاش فيها بين القرنين الثامن والتاسع للميلاد [القرنان الثاني والثالث الهجريان] .

نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

(٧١) الألام ، ج ٢ ، ص ٣٠ وما يليها .

(٧٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٧٣) شرحبيل بن حسنة . نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

(٧٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

مواطن ثري يدعي تولين^(٧٥) اشتهر بالبخل ، وأراد التهرب من دفع نصيبه بالتظاهر بالفقر . فلعبه قيس قائلاً : « فوالله ! ماضى يومهم ذلك حتى جاء الخبر أن أغنامه هلكت جميعاً ، وبساتينه قد يبست ودياره وأملكه قد تهدمت ، وأمواله قد مضت »^(٧٦)

ثم مالبت أن توافدت الوفود من المدن الأخرى في مصر السفلى لإعلان خضوعها للمتصرين بمحض رغبتها ، ملتزمة الأمان . وكانت رشيد وفوة والمحلة وكل مديرية البحيرة^(٧٧) ممثلة في تلك الوفود . وانحسرت المقاومة المتبقية فقط في ميناء دمياط البحري الهام عند فم فرع النيل الشرقي . وكان يحكم هذه المنطقة الهاموك خال المقوقس المتوفي . فأرسل خالد فصيلة مكونة من أربعين فارساً بقيادة المقداد بن الأسود للتفاوض في أمر استسلام المدينة . ولكن ترك رفض النصيحة بالاستسلام التي كان قد أسداها له وزيره الدارجان^(٧٨) الذي أعده . وبذلك أثار حتى ابن الدارجان الذي تأمر عن طريق المخادعة بالسماح للعرب بدخول المدينة عبر فتحة في السور . ويمكن تلخيص مشاهد الأحداث التالية في تلك الأعمال الاستطلاعية البسيطة بين جماعة الهاموك والمسلمين ، والتي تتضمن اعتناق عائلة الدارجان القوية الاسلام . وفي المرحلة التالية من الصراع سقط أحب أبناء الهاموك اليه ويدعي شطا^(٧٩) من فوق ظهر جواده وفقد الوعي . وعندما ثاب الى رشده روى رؤيا تراءت له من السماء شاهد فيها جنود العرب في زي اخضر تحت قباب عجيبة ومعهم فتاة جميلة تدعوه الى الاسلام . وبذلك عبر الى الجانب الاسلامي ، ثم مالبت أن هذا الوالد المؤمن حذو ابنه المؤمن . وهكذا اعتنقت دمياط الاسلام .

ثم أعقب ذلك بقصة أخرى روائية تدور حول مدينة تنيس^(٨٠) عاصمة مصر القديمة والتي كان يحكمها عربي نصراني يدعي أبا ثور من قبيلة بني غسان الذين تحصنوا في خنادق على جزر بحيرة المنزلة . فقرر المعتنقون للدين الجديد في دمياط ارسال وفد تبشيري لدعوة ابي ثور واتباعه للدخول في دين جيرانهم وهو الاسلام . وتطوع شطا بن الهاموك بالقيام بهذه المخاطرة ، ورافقه يزيد بن عامر ، ذلك العربي المقيم في دمياط وأحد رفاق الرسول . وانتهت هذه المهمة بالفشل بالرغم من المعجزات التي قام بها المبشرون المسلمون والتي عددها النويري (في كتابه) . وعندما فشلت الدعوة السلمية ، أصبح لزاماً استخدام القوة لارغام ابي ثور على دخول الاسلام . وأثناء العمليات الحربية التي تلت ذلك ، ظهرت لشطا رؤيا تتعلق بالفردوس الاسلامي الذي يصفه النويري وصفاً حياً . ولكن في النهاية ، قام ابو ثور بذبح شطا وطارد الهاموك وحلفاءه حتى بوابات مدينة دمياط ، حيث بدأت تلوح في الافق التعزيزات العربية التي تستهدف ازعاج المنتصر واحباط جهوده . فأنزلت الهزيمة بأبي ثور واقتيد اسيراً ثم اطلق سراحه بعد اعتناقه الاسلام . وبذلك تم فتح الدلتا في العام السادس والعشرين بعد الهجرة ، اي في عام ٦٤٧ ميلادية . ومن الاهمية بمكان ان نعرف ان شطا

(٧٥) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

(٧٦) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٧٧) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

(٧٨) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

(٧٩) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

(٨٠) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٥ وما يليها .

دفن في نفس الموقع الذي سقط فيه ، واعتبرت مقبرته من اقدس الاضرحة في الاسلام . واستمر الحجاج الاتقياء من جميع الجهات يتوافدون عليه حتى وقت تأليف « كتاب الامام »^(٨١) .

وان الاهتمام بتلك القصص التاريخية يتعدى ما وراء المعارك والانتصارات . فيزودنا المؤلف في ثانيا اقواله بالكثير من التفاصيل الطبوغرافية لبلاده . فثمة وصف نادر لاسوار وحصون دمياط واستحكاماتها وبواباتها العديدة المنيعة ، الى جانب التفاصيل المتعلقة بعرش ابي ثور والايقونات المسيحية المحيطة به .

وجدير بالملاحظة ان النويري كان يتنقل في سرده للاحداث برفق وهذوء ، باحثا عن الفرص التي يتحدث فيها عن انتصارات الاسلام . ولو انه ، كان من آن لآخر ، يشذ عن تلك القاعدة بذكر نكسات اليمه احاقت بالاسلام . وربما كان اشد الفصول ايلاما في هذا الصدد هو غارات القرامطة على الحجاز وسقوط مكة المدينة المقدسة في قبضة ابي طاهر صاحب البحرين^(٨٢) عام ٣٠٧هـ / ٩١٩م . وليس هناك مثل للاهوال التي صاحبت تلك الغزوة في الحوليات الاسلامية . فقد ذبح الحجاج والمواطنون دون تمييز ، والقي بجثثهم في بثر زمزم المقدسة حتى امتلأت الى آخرها بالموتى وأجساد أولئك الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الاخيرة . ويقدر عدد الشهداء بثلاثين الفا ، بخلاف النساء والاطفال الذين اقتيدوا كرقيق وقد أعمل السلب والنهب في الكعبة ، وقلع الحجر الاسود من مكانه ، ونقل بعيدا لفترة اثنتين وعشرين سنة . وبذلك ترك الخوارج أظھر منطقة في الاسلام في حالة فوضى دامية ، لمدة ستة ايام .

وكانت الحادثة الأخرى التي طاولت مابلغه خطر انتهاك القرامطة لحرمة المقدسات هي غزو التتر لبغداد عام ١٢٥٨م^(٨٣) تحت قيادة هلاكو خان (هولاكو خان) . وقد وقع المستعصم بالله أخر خلفاء بني العباس تحت حوافر خيول التتار حتى تمزقت اربا ، ولم يكن من السهل تجميع اشلائها . كما صودرت كنوزه وقتل اولاده الثلاثة مع ثمانمائة من أقاربه . وحمل الف من العذارى بعيدا عن قصره . واستمر هولاكو في اعمال الذبح في الاهالي لمدة اربعة عشر يوما بمعدل ٥٠,٠٠٠ فرد في اليوم الواحد ، وبذلك اصبح مجموع القتلى في النهاية ٧٠٠,٠٠٠ ملأت جثثهم الشوارع برائحتها الكريهة ، وتفشي وباء الطاعون في المدينة بل تعدى انتشاره حدودها .

وفي مواجهة هذه المآسي الفظيعة التي كانت تقف على قدم المساواة مع سلب الاسكندرية عام ١٣٦٥م ، جد النويري في البحث عن انتصارات اسلامية تكون بمثابة رد فعل لتلك الهزائم المنكرة بهدف رفع الروح المعنوية لدى المسلمين . ويزخر كتابه باشارات الى الانتصارات الاولى في صدر الاسلام في منطقة الهلال الخصيب ضد الدولة البيزنطية وامبراطورية الفرس الساسان وهكذا تناول بالمديح والثناء فتح العرب لمصر والتقدم في شمال افريقية كما أسلفنا . فهو يجدد دفاع المسلمين البطولي ضد استعادة المسيحيين لأراضيهم في شبه الجزيرة الايبيرية ، مع ان الحرب (بين الطرفين) بدأت بداية سيئة لحد ما بالنسبة للسلطان ابي الحسن المريني^(٨٤) ، الذي هزم هزيمة منكرة خارج مدينة

(٨١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩١ .

(٨٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٢ وما يليها .

(٨٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ وما يليها .

(٨٤) اسمه بالكامل حسب ورد في الوثائق هو « أبو الحسن بن علي يعقوب بن العباس المريني » . انظر نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٩٥ . وفيما يتعلق بالحرب كلها ، انظر ج ٣ ، ص ١٨٣ وما يليها .

طريف (بالاندلس) ويحتمل أن تكون هذه هي معركة ريوسا لادو Rio Salado عام ١٣٤٠ م التي لم يرد ذكرها (في الكتاب) عن عمد ، وكان المنتصر في ذلك اليوم هو الفونس ملك النصارى^(٨٥) المعروف باسم الفونسو الرابع (١٣٢٥ - ١٣٥٧ م) بطل البرتغال الشجاع . وكان الملك البرتغالي متحالفا مع قشتالة التي حارب ملكها الفونسو الحادي عشر صراحة الى جانبه والذي يحمل نفس الاسم ومع ذلك سرعان ما انتقم السلطان ابن الأحمر^(٨٦) لهذه الهزيمة ، فاخترق بلاد الاندلس واستولى على الجيسيراس Algeciras^(٨٧) والجهات المحيطة بها عام ٧٦٨هـ / ١٣٦٦ م ، اي بعد مرور سنة واحدة على كارثة الاسكندرية . وبذلك عاد المسلمون الذين بقي بهم خارج شبه الجزيرة للاستقرار مع ابي الحسن مرة اخرى في ملكهم القديم بعد ذبح المسيحيين . واذا اخذنا بما قاله ابن الأحمر وروايات النويري ، لوجدنا ان فتوحات السلطان امتدت ، فيما بعد ، الى مدن جيان^(٨٨) Jaen (جنوب الاندلس) وابده^(٨٩) (شمال شرقي جيان) واطريه^(٩٠) Utrera (جنوب الاندلس) ، والى قرى وقلاع أخرى بلغ مجموعها ثمانية وأربعين^(٩١) وهذه المناسبة يقتبس النويري دليلا من الوثائق يتضمن خطابين^(٩٢) متبادلين بين ابي الحسن المويني وعدوه الفونس (الفونسو) ، كما يتضمن رسالة^(٩٣) تحوي المزيد من التفاصيل موجّهة من ابن الأحمر الى سلطان فاس المريني في شمال افريقية ، يبلغه فيها بانتصاراته على القند^(٩٤) ملك النصارى .

وان ماسبق ذكره من روايات يمكن اعتباره بمثابة أمثلة توضيحية تتعلق باهتمام النويري بالحروب الاسلامية عبر العصور الوسطى . ويزخر « كتاب الامام » بإشارات الى معارك أخرى ، مابين صغيرة وكبيرة ، ومعروفة وغير معروفة ، والتي ربما يكون سردها أمرا عملا عديم الفائدة . ومع ذلك ثمة أمر واحد يبرر بوضوح في خضم التكرار في هذا الموضوع ، الا وهو المادة الوفيرة التي حشدها المؤلف اثناء حديثه عن أدوات الحرب والقتال عند المسلمين ، وقد رأينا أنه جدير بفهرس خاص به^(٩٥) . هذا ، بالإضافة الى تكتيكات واستراتيجية المقاتلين المسلمين وأن هذا العرض الموجز للكتاب يتميز بقيمته التي يصعب تقديرها بالنسبة للطلاب الذي يدرس الفنون الحربية الاسلامية . في العصور الوسطى^(٩٦) .

(٨٥) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٨٦ وحاشية رقم ٥ .

(٨٦) الاسم بالكامل هو : أبو عبدالله محمد بن يوسف الملقب ابن الأحمر . أنظر نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٣١٨ . أنظر أيضا ج ٥ ، ص ٣١٧ ح ٥ حيث عرف باسم محمد الخامس الغني بالله سلطان غرناطة .

(٨٧) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٩٨ وما يليها .

(٨٨) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣١٩ وحاشية رقم ٥ .

(٨٩) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٢٥ وحاشية رقم ١ .

(٩٠) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ وحاشية رقم ١ .

(٩١) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٣١ . هذا ، وغير معروف معظم تلك القلاع .

(٩٢) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٩٣ - ١٩٧ . وليس يوسمنا تتبع أصول تلك الخطابات في المصادر المنشورة .

(٩٣) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣١٨ وما يليها . هذا ، والوثيقة مكتوبة بأسلوب غريب لم يتسن تتبعه في المصادر المنشورة . وليس معروفا من أين حصل النويري على تلك الخطابات .

(٩٤) أي « الكونت ملك المسيحيين » . ولقب « قند » مشتق من الكلمة الاسبانية Conde والفرنسية Comte . وربما يكون هذا الشخص هو أحد أشراف مملكة قشتالة في عصر بطرس الراهب (١٣٥٠ - ١٣٦٩ م) . أنظر ج ٥ ، ص ٣١٧ - ٣١٨ وحاشية رقم ٦ .

(٩٥) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٨ .

(٩٦) عند عقد المقارنة بين ما خلفه النويري وبين الدراسات المتعلقة بفن الحرب والقتال في الغرب ، ليس هناك ما هو أفضل من تأليف شارل اومان Charles Oman وج . كيهلر G.Khler وم . دلبريك M.Delpruce وف . لوت F.Lot .

وتبدو قدرة النويري الحقيقية « كمؤرخ »^(٩٧) بوضوح أكثر في المواضيع التي يناقش فيها أحداث وشخصيات عصره كشاهد عيان أولا وقبل أي شيء آخر . هذا ، وبدون التعمق والاسهاب في موضوع الاسكندرية الذي أرجأناه للفصل التالي ، فاننا يجب أن نعتبر تناوله (لدولة) الممالك البحرية^(٩٨) اعتبارا من سلطنة الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٦٧ م) تقريبا وحتى حكم السلطان المعاصر للنويري نفسه وهو الاشرف شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٦ م) ، بمثابة إضافة مفيدة الى مؤلفات المقرئ^(٩٩) العظيمة والى مدرسته ، ولو أن ما أورده في هذا الخصوص مختصر نسبيا . ويزيد من قيمة تلك التفاصيل الدقيقة والفترات التاريخية المحددة التي يرويها النويري ، أنها لا تظهر في كتب الحوليات المعروفة . وهو فوق هذا وذاك ، يقدم لنا سجلا غنيا بكل الاعمال التي قام بها أمراء الممالك^(١٠٠) في عصره ، ومكانتهم في الادارة سواء كانت اقليمية أو مركزية . وأن وصفه لموكب السلطان شعبان في الاسكندرية^(١٠١) ، الذي رآه كشاهد عيان ، هو قطعة فنية حية تذكرنا بالعظمة الاسطورية للمواكب والاحتمالات البطلمية في نفس المدينة قبل عصره بنحو سبعة عشر قرنا من الزمان .

ولم يدعم النويري أقواله ، في كثير من الأحيان ، بالوثائق الأصلية . وكانت المقتطفات الشعرية هي الأمر المفضل عنده ، متمشيا في ذلك مع ميوله الأدبية . ورغم ذلك ، نجده في احدى المناسبات يقتبس وثيقة أصلية بأكملها ، وهي تعتبر من اهم الفرمانات او المراسيم الرسمية^(١٠٢) لمصر المملوكية . وقد اشار كبار كتاب الحوليات في اخريات العصور الوسطى الى هذا المرسوم بإيجاز^(١٠٣) . ولكننا لم نعر عليه كاملا الا في « كتاب الألام » . وكان النويري يستهدف من هذا المرسوم وتاريخه سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥ م ، توضيح ولاية السلطان الناصر بن محمد الثالثة (١٣٠٩ - ١٣٤٠ م) الجديرة بالاهتمام . وهو يتميز بطابع دستوري شامل له اهميته القصوى ، لانه يعالج تقريبا كل ناحية من نواحي الاقتصاد والمجتمع المصري . وقد صدر المرسوم بعد اجراء مسح عام للبلاد ، وبعد تقرير نظام جديد وعادل للضريبة على الارض في سجل يعرف باسم « الروك الناصري » .^(١٠٤) ومع ان نص المرسوم كما هو موجود في النسخ الخطية توجد به فجوات مفقودة ، الا ان الوثيقة في معظمها على حالتها الاصلية ، وتقدم قائمة تحليلية مفصلة ونادرة للمشاكل الوطنية التي سعى السلطان الى حلها .

فبعد المقدمة او الافتتاحية التي يجدها فيها كتاب البراءة او المرسوم سلطنة الناصر ، يذكر الدوافع الخيرة التي

(٩٧) تعني علامات التنصيص تحفظات حول وصف النويري كمؤرخ .

(٩٨) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٨٦ وما يليها و ٢١٢ وما يليها و ج ٤ ، ص ٧٥ وما يليها و ج ٥ ص ٢٣٥ وما يليها و ٢٥٤ وما يليها و ٣٨١ - ٣٨٠ و ج ٦ ص ١ وما يليها و ١٦ وما يليها .

(٩٩) أهم مؤلفاته هو كتاب السلوك في أربعة أجزاء تشتمل على عدة أقسام ، نشره محمد مصطفى زيادة واثمة سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٧٣) .

(١٠٠) الألام ، ج ٧ ، فهرس رقم ١ . أنظر أيضا الحاشية التالية .

(١٠١) نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ، ج ٦ ، ص ٤٠١ .

(١٠٢) نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٤٦ - ١٥٤ .

(١٠٣) أنظر على سبيل المثال ، السلوك للمقرئ ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٥٠ - ١٥٢ ، أبو المحاسن بن تغري بردي ، التجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٤٢) ، ج ٩ ، ص ٤٩ .

٥٠ - ابن ابيك الداوداري : كنز الدرر (القاهرة ١٩٦٠) ، ص ٢٨٦ .

(١٠٤) وكان هذا هو آخر مسح عام للأراضي بهدف ربط الضرائب على أساس عادل . وقد خصص المقرئ لهذه المسألة جانباً من مخطوطه (طبعة القاهرة في أربعة أجزاء ، ١٣٢٤ هـ) ، ج ١ ، ص ١٤١ - ١٤٧ . وجاء قبله روك صلاح الدين الذي جمعه ابن عماتي (كتاب قوانين الدواوين ، نشر هزير سوربال عطية ، القاهرة ١٩٤٣) .

دفعتم السلطان الى منحه لرعاياه ، بهدف ازالة مساوئ تشريع سابق ، ومؤكدا لهم أمنهم وأمانهم . وكل مانستطيع أن نفعله هنا لبيان قيمة تلك الوثيقة هو جدولة المواد التي اشتملت عليها جدولة تحليلية .

١ - اسقاط الرسوم المفروضة سابقا على الغلال الواردة الى سواحل القاهرة واعمالها ، ويمنع تكرار ازدواج ضريبة الدرهم الفرد عند تفريغ الغلة وبيعها .

٢ - ابطال نصف ضريبة السمسة التي يؤديها جميع السماسرة والمنادين .

٣ - ابطال المقدمين ومقرراتهم وما يضمن الى ذلك من الاعلاف التي يطالبون بتقديمها لبغالهم ودوابهم .

٤ - ابطال رسل الدولة والمتريدين على البلاد ، مع ضمان الأمن للرعايا .

٥ - نواب الامراء الذين يقرونهم ببلادهم هم نواب عن مجلس الحرب ، ويجب على السوالى الذي يتمتع بكافة الصلاحيات التصدي لازالة التعدي على حقوق الافراد .

٦ - المفسدون الهاربون والقتلة ومرتكبو الجرائم الذين يهربون الى بلد غير بلادهم يجب أن يلقى ولاية تلك الناحية ومشايخها وخفراؤها القبض عليهم ، واعادتهم الى بلادهم الاصلية او تسليمهم الى والى الحرب في تلك الناحية . ويجب الا يمكن هؤلاء المفسدون والمعتدون من اقامتهم يوما واحدا او ساعة واحدة . ولأرباب الدولة سلطة استخدام « سيوفنا » ضدهم بالتوسيط والشنق والتسمير على نخيل تلك البلدة .

٧ - الفلاحون المنتجعون من بلدة الى اخرى بسبب القحط ، والذين يابوهم الاهالي يستطيعون البقاء في تلك البلدة حتى موسم الحصاد ، ثم يرجعون الى بلادهم الأصلية .

٨ - لا يمكن احد من الولادة ولانوابهم ولا المتحدثين عنهم ولا الكتبة ولا الجبابة من جباية رسم استثنائي مياومة او مشاهرة ، ومحظور عليهم أيضا تناول جامكية اكثر من الدرهم الفرد .

٩ - ابطال حقوق السجون ومقرراتها وضمانها ، ومنع التعرض لأخذ الدرهم الفرد منها .

١٠ - لا تجبي أي مبالغ عن الجسور والترع والقنوات ، ولا تفرض اي رسوم على تسليف الادوات الزراعية ، او على القش والابقار والخولة والمهندسين . وعلى كل بلد ان يلتزم مقطوعا بعمل مايجب عمله من غير رجوع الى العوائد القديمة .

١١ - ابطال طرح الفراريج على البلاد ، أو أي شيء آخر (١٠٥) .

١٢ - ابطال مقرر الفرسان ومقرر الخيل الذي كان يستأدي وقت حركات الجيوش .

(١٠٥) يبدو أن هذه الأشياء كانت تمنع عينا بدلا من الدفع النقدي للفرائب .

١٣ - لا يؤخذ مقرر ملاهي لمن يعمل فرحا ومن أعرس او كتب كتابه او كان عنده ختان . . ولا يطلب الا من كان عنده احد من الغواني والملاهي .

١٤ - المساحة بثمان العبي التي كانت تقررت على عامة الناس .

١٥ - ابطال المقرر من التبن والقش لمعاصر الأقصاب لمدة عام ، ويسمح بشراء التبن بثمانه ورضى أصحابه .

١٦ - ابطال حماية المراكب النهرية ، وان لا يعود أحد من الأمراء وأرباب الجهات يحمي مركبا ولا يستأدي من الحماية حقا (وهذا يعني توفير الحماية بدون أجر) . ولا يتعرض أحد الى المراكب بغير حق يشهد به الديوان .

١٧ - لا يطالب الحي عن الميت ، ولا المقيم عن النازح ، ولا الحاضر عن الغائب ، مالم يكن ضامنا او كفيل او ملتزما .

١٨ - المساحة بما انساق للامراء والمقطعين من البواقي في بلادهم من الخراج والضمان والى آخر مغل سنة ٧١٤هـ .

١٩ - اعفاء جماعة الفلاحين من ضيافة القدوم عند انتقالات الاقطاعات في سنة الروك .

٢٠ - ابطال عداد النحل حسب ما يشهد به الديوان .

٢١ - ابطال زكاة الرحالة المسلمين بالديار المصرية بالوجهين القبلي والبحري . كما ينسحب هذا الامر على اليهود والنصارى ، الا على حكم التصقيع .

٢٢ - ابطال جميع البدول من الولاة والنظار والمستوفين وارباب الوظائف جميعا اعتبارا من استقبال شهر صفر سنة ٧١٦هـ . *

وتنص الخاتمة على حتمية تنفيذ بنود هذا المرسوم في القاهرة وجميع الاقاليم بدون استثناء وبدون ارضاء مدينة على حساب الاخرى . وتنص ايضا على ان جميع الولاة والامراء والحكام ورؤساء العمال ونظار الخاصة ومحصيل الضرائب وجميع سلطات الدولة ملزمون بتنفيذ نصوص هذا الفرمان حرفيا دون تفسير او تبديل . ويحمل الفرمان في بدايته توقيع السلطان بما يتفق والتقاليد الدبلوماسية المتبعة في العصور الوسطى . وينتهي بتاريخ اصداره في ١٨ من ذي الحجة عام ٧١٦هـ / ١٣١٦م .

ويحتمل ان يكون هذا المرسوم هو اكثر المراسيم المتعلقة بالخرابات في مصر ابان العصور الوسطى اثارا للدهشة . وهو اشبه مايكون بوثيقة « العهد الاعظم » Magna Carta ، مع فارق وهو ان السلطان منحه عن طيب خاطر ولم ينتزع قسرا من الملك . وبذلك يبدو ان (الميثاق المذكور) كبح جماح الادارة المركزية والحكومة المحلية واستبدادهم بعامه الشعب . وقد شاهدت الولاية الثالثة للسلطان الناصر محمد تغييرات عظيمة في اقتصاد مصر ، ولا بد انها هيأت

* رأينا الالتزام ، قدر الاستطاعة ، بنص المرسوم وحرفيته كما ورد في الامام (المترجم) .

(فرص) العدالة الاجتماعية للرجل العادي . ومع ذلك فمن المشكوك فيه ان كانت روح هذا الميثاق قد احتفظ بها خلفاء الناصر . ويمكن التثبت من ذلك مما كتبه مؤرخو مصر في اواخر العصور الوسطى ، ومن بينهم النويري الذي ندين له بمعرفتنا بكافة مواد هذه الوثيقة الدستورية العظيمة .

الفصل الرابع

الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م / ٧٦٧ هـ

ليس في نيتنا هنا ان نسرد من جديد القصة الكاملة للحملة الصليبية على الاسكندرية فقد سبق ان تناولناها ، اعتمادا على مختلف المصادر من شرقية وغربية ، في دراستنا المستفيضة بعنوان « الحروب الصليبية في اواخر العصور الوسطى »^(١٠٦) . وهدفنا هنا تحليل ذلك القدر الهائل من المعلومات الذي سجله النويري كشاهد عيان ، او ذلك الذي جمعه بنفسه نقلا عن الروايات التي سمعها من شهود العيان الآخرين . ومعروف ان الحقائق التي قدمها المؤلف توجد مبعثرة متناثرة على امتداد كتابه ، وقد تقطعت اوصالها بسبب كتابته في مجالات عديدة ليس هناك اى رابطة تجمع بينها . لذلك ، فان رواياته تحتاج الى جهد لتنسيقها ، وهو ما نأمل تحقيقه في هذا الفصل .

ان هذا الكتاب المطول ، كما يدل عنوانه ، بدأ اساسا بهدف تدوين الاحداث المشثومة « التي قدر » ان تحل بمدينة الاسكندرية . ومع ان المصنفات التاريخية العربية الاخرى التي ترجع الى اواخر العصور الوسطى ، قد افسحت مكانا مناسباً لتلك الاحداث ، الا ان أيا منها لا يستطيع مباراة « كتاب الالمام » فيما يتعلق بحجم المعلومات التي قدمها خاصة بتفاصيل القصة .

وسيطل النويري هو مصدرنا الرئيسى الموثوق به في هذا الموضوع من وجهة النظر المصرية .

ووفقا لرواية المؤلف ، فإن قصة كارثة الاسكندرية تبدأ بمجموعة من التحذيرات التي وجهها عدد من الشيوخ الابرار في أرجاء مختلفة من العالم الاسلامي^(١٠٧) . ويرجع تاريخ تصريحاتهم التي تنبأوا بها الى السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر الميلادي [او اخر القرن السابع الهجري] في بلاد ما بين النهرين ، والتي سجلها شخص يدعى الباجري^(١٠٨) في ملحمة التي نظمها عن الحروب الصليبية ضد كل من سورية والاسكندرية . وقبل سقوط المدينة بوقت قصير يروى النويري اربعة منامات عن الكوارث الفادحة المنتظرة التي سوف تحل بها . وهى عبارة عن منامات

(١٠٦) الكتاب طبع لندن (Methuen & Co. Ltd.) سنة ١٩٣٨ . وفي قائمة بالمصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع ، ص ٣٤٥-٣٧٨ والحواشي . وعلى ذلك ليس لمة ما يدعو الى اجمالها هنا .

(١٠٧) Et. Combe, "Les presages annonçant la Croisade de Pierre de Lusignan et la cause de cette attaque," Bulletin de la Société Royale d'Archeologie d'Alexandrie, année 1948, No. 37.

(١٠٨) الالمام ، ج ١ ، ص ١٠٦ وما يليها . وقد اقيس النويري تسعة عشر بيتا من تلك الملحمة الشعرية القديمة والتي كان ابن خلدون على معرفة بها . وورد الباجر بقي تحت اسم بجرقي وبجرقة ، ولعله خطأ مطبعي . انظر كتاب العبر (طبعة بيروت ، سنة ١٩٦١) ، ج ١ ، ص ٦٠٥ ، ٦٠٨ . انظر أيضا المغربي : السلوك (القاهرة ١٩٤١) ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٦٧ ح ٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٤٢) ، ج ٩ ، ص ٢٦٢ . ويظهر اسم الباجر بقي أيضا في مؤلفي ابن كثير وابن شاعر . انظر الالمام ، ج ١ ، ص ١٠٧ ح ١ والباجر بقي من مواطني قرية بجرقة ، وهي تقع بين البعاع ونصيين ليا بين النهرين ، وذلك ولقنا لمجم البلدان لياقوت ، ج ١ ، ص ١١٥ . انظر الالمام ج ١ ، ص ١٠٦-١٠٧ ج ١ .

تراءت لأربعة من مواطني^(١٠٩) الاسكندرية ، بالاضافة الى منام خامس يذكر ان مصدره دمشق^(١١٠) ومنذ البداية يستبق المؤلف الاحداث قائلا ان سقوط مدينته العظيمة لا يعزى الى بسالة غزاتها ، ولكنه كان فقط قدرا محتوما انزله الله كعقاب لخطايا سكانها وآثامهم ومع ذلك فهو لا يجد من الكلمات مايكفي ليسب غازيا بطرس الاول لوزجنان الذي يصفه بانه كلب لعين ولص^(١١١) وجبان ، ركن الى الفرار بما سلبه خوفا من مواجهة امدادات السلطان التي كانت في طريقها الى المدينة . ويقرر ان بطرس كان يحتل ادنى المراتب بين الملوك المسيحيين ، وان مكانه بينهم « كراعي قرودة في جزيرة »^(١١٢) .

وحيث ان ارادة الله بترك المدينة للفرنجة كانت امرا لامرد له ولا سبيل الى مقاومته ، الا ان بعض الظروف هي التي مهدت الطريق لتنفيذه وتحقيقه . وهنا يشرع النويري في ذكر سبعة أسباب أدت الى الكارثة ، يمكن ترتيبها زمنيا كالآتي^(١١٣) :

السبب الاول : في عام ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م اصدر السلطان صالح بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون (٧٥٢ - ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤ م) مرسوما بطرد جميع المسيحيين الأقباط من دواوين الحكومة مالم يرتدوا عن دينهم ويعتنقوا الاسلام . وزاد الطين بلة ، انه نص في نفس المرسوم ان يكون لجميع الرعايا المسيحيين زي خاص مميز . كما حتم عليهم ركوب الحمير فقط بدلا من الجياد . وان تطبيق هذه الاجراءات المهينة في كل من القاهرة والاسكندرية ، شجع عوام المسلمين أن يبدؤوا حركة اضطهاد ضد جميع المسيحيين ، سواء اكانوا من اهل البلد او من الاجانب الذين يقيمون في كلتا العاصمتين . وبذلك اضطر التجار المسيحيون الاجانب الى جمع بضائعهم وحزم امتعتهم والعودة الى بلاد الروم . وقد أثار هذا الاجراء غضب الملك القبرصي الذي بدأ نتيجة لذلك رحلته الى الغرب بحثا عن مجندين للهجوم على الاسكندرية^(١١٤)

السبب الثاني : يقال ان بطرس الاول لوزجنان عند اعتلائه العرش (١٣٥٩ - ١٣٦٩ م) ، طلب من السلطان الناصر حسن اثناء ولايته الثانية (٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ - ١٣٦١ م) السماح له بزيارة صور لتدعيم تنصيبه بالجلوس على عمود معين في تلك المدينة طبقا للتقاليد القبرصية المتبعة . ولكن السلطان رفض طلبه باحتقار . وعلى هذا ، فان بطرس الذي أثار غضبه هذا الموقف ، قام بغزو الاسكندرية انتقاما لكرامته^(١١٥)

السبب الثالث : في شوال ٧٥٥ هـ (اكتوبر - نوفمبر ١٣٥٤ م) رست سفينة محملة بقراصنة الفرنجة في ميناء الاسكندرية ، وسببت مضايقات للبحرية الاسلامية مما جعل نائب السلطان بالمدينة يرسل القناصل المسيحيين الى

(١٠٩) الامام ، ج ١ ، ص ١٠١ وما يليها . وهؤلاء هم أبو عبد الله محمد بن صالح التاجر المصري ، وأبو عبد الله محمد المؤدب ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد التاجر الرحالة ، وعلى بن راشد الحجازي المقيم الاسكندرية .

(١١٠) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ هو ريحاني الجيش الذي توجه الى القاهرة بعد المنام الذي تراءى له وهو تائم بدمشق ودخل الاسكندرية بعد الغزوة . وهناك اختلط بالفرنجة الذين كان يقن لقتهم ، وتمكن من الوصول الى بطانة الملك بطرس وسرق مهمازه الذهبي وباعه فيها بعد مبلغ ثلاثمائة دينار .

(١١١) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢ - ٣ .

(١١٢) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(١١٣) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٢ - ١١٠ .

(١١٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩٢ وما يليها .

(١١٥) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩٦ - ٩٧ .

المعتدين للتأكد من نواياهم واغراضهم . فقالوا انهم يحتاجون الى مؤن ومياه عذبة بادر النائب بارسالها اليهم . ثم تنكروا بعد ذلك لقواعد كرم الضيافة بسلب سفينة سورية راسية في مياه الاسكندرية وابتعدوا عن الميناء . وقد وصلت أخبار هذه القصة الى بطرس الذى أدرك أن مدينة الاسكندرية خالية من الحراسات . وعلى ذلك قرر الاستيلاء عليها عنوة^(١١٦)

السبب الرابع : شن بعض القراصنة المسيحيين غارة بالقرب من رشيد انتهت بأسر عدد من المسلمين وفرار المغيرين . وكانت هذه الغارة دليلا آخر شجع بطرس كثيرا على مهاجمة الاسكندرية^(١١٧)

السبب الخامس : فى ٢٧ شعبان ٧٦٤ هـ (١١ يونيو ١٣٦٣ م) رست ثلاث سفن تحمل مائة من الجنود المسلحين عند شاطئ أبى قبر من ضواحي الاسكندرية . وقبضوا على ستة وستين رجلا وامراة وطفلا من المسلمين ، ثم فروا بهم الى صيدا حيث اطلق سراحهم بعد ان اقتداهم المسلمون . وقد عززت هذه الحادثة ، مرة أخرى ، موقف الحاكم القبرصى بالنسبة لمشروعه ضد الاسكندرية^(١١٨) .

السبب السادس : اعقب تلك الغارة الفاشلة التى قامت بها ست سفن على أبى قبر نفسها ، غارة أخرى على مدينة رشيد الأهلة بالسكان . وبعد رسو السفن ، تصدت لها وسائل الدفاع الاسلامى ، وفقد القراصنة ثمانين رجلا من رجالهم فى هذا الصدام . فكان لابد من الانتقام لهذه الهزيمة ، وكانت فرصتهم تتمثل فى غزو الاسكندرية^(١١٩) .

السبب السابع : كان من نتيجة المذبحة التى راح ضحيتها البنادقة المقيمون فى الاسكندرية على ايدى العوام ، ان توثقت صلة البندقية بقبرص ضد مصر . ووضعت البندقية اسطولها تحت تصرف بطرس الاول فى مشروعه المزمع القيام به ضد الاسكندرية . وفى نفس الوقت القى البابا فى روما بثقله الى جانب قبرص ، لجمع الامدادات من الدول الأوروبية والامراء الاوروبيين الذين شاركوا فى غزو الاسكندرية^(١٢٠) .

ومن خلال عرض النويرى للأسباب وانعكاساتها ، يبدو ان كلا من الجانبين كان لديه نظام للتجسس والاستطلاع ، وان كلا منهما كان يتابع الموقف فى كل من قبرص والاسكندرية . وقيل ان نائب السلطنة^(١٢١) بالمدينة كان قد تلقى تحذيرا من عملائه عن الاستعدادات القائمة فى قبرص . ولكن كل ما استطاع القيام به هو توعية سور المدينة من جهة الباب الاخضر الذى يواجه الميناء الغربى . كما نبه يلبغا الخاسكى مقدم جيوش المماليك فى القاهرة ، ملتصقا ارسال العون والامدادات . ولكن توسلاته لم تجد أذنا صاغية من قبل الادارة المركزية . ثم ان السلطات فى القاهرة لم تكن تتوقع احتمال هجوم خطير تشنه قبرص [على الاسكندرية] . وساد الاعتقاد ان بطرس ليست لديه القوة او الشجاعة لتولى حتى اقل العمليات الحربية ضد ممالك مصر . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان الملك القبرصى على دراية تامة بضعف دفاعات المدينة عن طريق اولئك الذين أخبروه بذلك شخصيا . ويصف المؤلف تلك الدفاعات

(١١٦) نفس المرجع ج ٢ ص ٩٧ وما يليها .

(١١٧) نفس المرجع ج ٢ ص ١٠٣ وما يليها

(١١٨) نفس المرجع ج ٢ ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(١١٩) نفس المرجع ج ٢ ص ١٠٧ - ١٠٩ .

(١٢٠) نفس المرجع ج ٢ ص ١٠٩ وما يليها .

(١٢١) هو وقتذاك زين الدين خالد ، وهو امير غير معروف على ما يبدو . انظر نفس المرجع ج ٢ ص ١١١ .

بأنها كانت تتكون اساسا من مجموعة صغيرة من الجند تبختر خارج أسوار المدينة بسيوفها المرصعة بالجواهر ، وعمائمها الخيرية الجذابة وثيابها المعطرة ، ولكن كانت تنقصهم روح القتال الحقيقية^(١٢٢) . وحدث أيضا أن نائب السلطان كان متغيبا عن المدينة ، فقد كان حاكمها خليل صلاح الدين بن عرام غائبا عنها بمكة بسبب الحج في ذلك الوقت . وقد بعثت القاهرة بأمير غير متمرس يدعى جنغرا ليحل محله^(١٢٣) . وفي زحمة تلك الظروف حددت ساعة الصفر ، عندما يصل فيضان النيل الى اعلا منسوب له ، وتفصل الدلتاين الاسكندرانية والقاهرة بعد ان تكون قد غمرتها المياه ، بحيث تصبح عملية نقل القوات من الجنوب امرا صعبا متعذرا . وبعبارة أخرى ، فقد كان الموقف كله مهيأ للغزوة المزمع القيام بها ، مع احتمالات قوية للنجاح .

ومن هذه النقطة فصاعدا ، يبدو ان ما كتبه النويري عن تاريخ الحملة الصليبية ينقسم الى شقين . ففي المقام الاول ، يتميز وصفه كشاهد عيان لما رآه خارج الاسوار وعلى الشاطئ عند مرأى الاسطول المسيحي ، وخطاب اللوم الذي تبع انزال القوات المعادية ، بالوضوح . وكان النويري هناك ، أيضا ، بين موجات الفارين بعد دخول الاعداء المدينة . وقد ترك لنا وصفا حيا لوضع يائس مضطرب . ثم نجده بعد ذلك يختفى مع الجماهير . اما الشق الثاني الذي اسهم به [في تسجيل تاريخ الحملة المذكورة] ، فيبدأ بتقرير آخر عن مصير الفارين المشنوم فيها وراء بوابات المدينة . وبعد ذلك يستأنف وصفه للمشاهد التي رآها عند دخوله المدينة بعد انسحاب المسيحيين منها . أما فيما يتعلق بما حدث بين لحظتي اختفائه من المدينة وظهوره فيها ثانية ، فقد جمع معلوماته عنه من شهود عيان آخرين كانوا قد آثروا البقاء داخل أسوارها ، وبذلك أصبحت الصورة [التي زدنا بها] عن المذبحة واعمال التدمير كاملة غير منقوصة .

ولنتابع بشيء من التفصيل تلك الروايات الممتعة التي تنبض بالحياة فقد اعتقد أهل الاسكندرانية في بادئ الأمر ، أن الاسطول القادم عبارة عن مجموعة من السفن التجارية الوافدة من البندقية بهدف شراء الفلفل والتوابل كالمعتاد . ولذلك اسرعوا الى الشاطئ ليشاهدوا رسوها ، بينما اختلط الباعة المتجولون وبائعو الطعام مع الجماهير ، يبيعون سلعهم وبضائعهم ، وكانت المساومات لتخفيض الاسعار وفقا للطريقة الشرقية تدوى في كل مكان . ولم يكتثر الناس بالكوارث الوشيكة الوقوع ، حتى بدأ المسيحيون المسلحون تسليحا كاملا ينزلون بسيوفهم المسلولة التي استخدموها ضد الجماهير المتفرجة العزل من السلاح . وفي هذه اللحظة أسرعوا يهرولون في اتجاه البوابات طلبا للأمان وراء أسوار المدينة . وزاد الطين بلة والحالة سوءا ، ظهور فصائل الفرسان القليلة العدد ومعها القوات المحلية في محاولة لصد الهجوم . وكانت حالة الاضطراب تفوق حد الوصف . اذ ترك التجار من أهل المدينة بضائعهم تداس بالأقدام وتسحقها حوافر الخيل فوق الرمال .

وكان النائب الجديد [للمدينة جنغرا] ممزقا بين رأيين ثار حولها الجدل والنقاش فيما يتعلق بمشكلة الدفاع . وأحد الرأيين تقدم به تاجر مغربي نصح بأن يصدر النائب أوامره الى الجند والعوام بالانسحاب من الشاطئ والقتال من

(١٢٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(١٢٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٣٠ وما يليها .

(١٢٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

داخل حصون المدينة واستحكاماتها . اما رأى الآخر فقد وصم ذلك المسلك بالجبن ، واصر على مواجهة العدو مباشرة بالحيلولة بينه وبين النزول الى الشاطئ . وانصار هذه النصيحة هم سكان الأريطة في الجبانات المقامة خارج اسوار المدينة الذين لم يكونوا - في الحقيقة - راغبين في التخلي عن احيائهم للعدو . وانحاز جنغرا الذي كانت تعوزه الخبرة إلى رأى الفريق الثانى ، ودفع الثمن غاليا لقراره الذى جانبته الحكمة .

ومن ثم ، أبيدت كتبية مغربية في محاولة متهورة لاشعال النيران في خطاف تابع للمسيحيين على مقربة من الساحل . ثم منيت فرقة من الفرسان العرب بالهزيمة . وعندما وخزت سهام المسيحيين الجياد ، جمحت خائفة وسط الجماهير الهاربة ، الامر الذى زاد من شدة الدمار والحراب . اما جنغرا نفسه فقد جرح في القتال الذى نشب بعد ذلك ، واضطر الى التراجع مع الآخرين فارا نحو الباب الأخضر الذى يعرف ايضا باسم باب البحر طلبا للأمان خلف الأسوار .

ولنستشهد بأمثلة عن تلك الشجاعة الياثسة . اذ انبرى جزاريدي محمد الشريف ، بشراسة ، بساطور المجزرة الذى يتميز بصله الحاد ، وأخذ يعمل القتل في الأعداء حتى سقط هو نفسه صريعا . كذلك اخترق فقيه يدعى محمد بن الطفال الصفوف المسيحية بسيف مسلول في محاولة لاعمال القتل فيهم ، ثم وقع شهيدا^(١٢٥) . وفي جزيرة فاروس دافع حرس رباط [الشيخ محمد] ابن سلام^(١٢٦) عن مبناهم الفخم ضد الفرسان المسلحين تسليحا تاما . وقد تمكنوا من صدهم من فوق سطح المبنى ولكنهم ذبحوا أخيرا وقيل أن دماءهم سالت في جداول خلال المزارب (الميازيب) ، أما أولئك الذين شاهدوا بقايا المذبحة بعد انسحاب المسيحيين ، فقد صعقوا عند رؤية كتل الدم المتجمدة التى سدت تلك المزارب . كما أن جثث الشهداء المذبوحين ظلت على السطح حتى حللتها شمس مصر . ثم جمعت معا ودفنت في حفرة واحدة خارج الرباط الذى تعرض للسلب والنهب^(١٢٧) .

اما الصورة التالية فهي تبين عملية تسلق الصليبيين للأسوار ودخولهم المدينة . وقد تناولها الكاتب بشكل مفصل واضح . ففى البداية بدت المدينة منيعة لاترام بأسوارها العالية المزودة وأبراجها الحصينة . وفشلت محاولات حرق الباب الأخضر المنيع ، لأن المهاجمين لم يستطيعوا الاقتراب منه بنيرانهم . فكانت سهام المدافعين السريعة تصدهم بشكل منتظم اعلا منطقة السور . وفجأة اكتشف العدو جانبا من السور خاليا من الدفاع بالقرب من الميناء الشرقى . ويمدنا النويرى بتفسير لهذه الثغرة في الدفاع . ذلك ان رماة السهام الذين تركزوا عند الباب الأخضر حيل بينهم وبين الوصول الى هذا القسم من السور فوق باب البحر وياب الديوان الذى يطل على الميناء الشرقى بالقرب من برج ضرغام الفريز . وزيادة على ذلك ، فان الوصول الى ذلك الجزء من السور من داخل المدينة ، كان ممكنا فقط من خلال باب الديوان حيث كانت جميع انواع البضائع مكدسة في انتظار تفريغها . وبذلك كانت منطقة الديوان مغلقة من الداخل للمحافظة على محتوياتها . وبناء على ذلك ، فان السور فوق البوابات المذكورة اصبح منيعا من الداخل . وقيل ان اغلاق باب الديوان في وجه الدفاع كان عملا من اعمال خيانة شمس الدين بن غراب الذى اتهم فيما بعد بان الملك بطرس

(١٢٥) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(١٢٦) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . راجع هذا المبنى ثري من مواطني المدينة يدعى محمد بن سلام . وقد دمر الصليبيون بابه وشبابيكه المصنوعة من النحاس المشغول ، كما أشعلوا النيران في سقفه المزخرف . وقد استأضها نفس الرجل في ٧١١ هـ / ١٣٦٩ م ، ولكنه أتى سقف ديوانه بالحجارة حتى لا يتأثر بالنار .

(١٢٧) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

[لوسنيان] قد رشاه وعاملا آخر من عمال الممالك يدعى شمس الدين بن ابي عذبية . وحاول الاثنان تبرير فعلتهما بحجة ان فتحة البوابات الداخلية سوف تمكن الاجانب المقيمين [في الاسكندرية] من نقل البضائع المستحقة الرسوم من الديوان ، وبذلك يسلبون الخزانة من حصيلة الجمارك غير المدفوعة . ويقال ان شمس الدين بن غراب قد دفع حياته فيها بعد ثمننا لهذه الفعلة . فقد تم اعدامه بطريقة وحشية بتوسيطه وعلق قطعتين على الباب [باب رشيد] .

وعلى أية حال ، فان اكتشاف السور الخالي من الدفاع ، قد أعطى الصليبيين فرصتهم الذهبية . وفي غمرة الفرح بدأوا في اعداد السلام المفصلة التي تسلقوا عليها السور بأمان ، بينما أشعل الآخرون النار في باب الديوان . وفي ذهول حملق الناس الذين كانوا على الجانب الآخر من قلعة ضرغام ، وقد استبد بهم اليأس والعجز ، وأدركوا ان اليوم قد انتهى [في غير صالحهم] . وهبط المسيحيون الى داخل الديوان ، وفتحوا بابه المحترق على مصراعيه ، وتدقق المهاجمون داخل المدينة .

وكان الدمار الذي اصاب الجانب الاسلامي مخيفاً ورهيباً . فقد فر المواطنون نحو البوابات البرية في محاولة للهرب طلباً للأمان . وقد اعطى النويري وصفا حيا لهذا المشهد ، لانه هو نفسه كان من بين الجماهير الهاربة . وبلغ من شدة الزحام بسبب كثافة الجموع المتدفقة عند البوابات البرية ان عددا من الناس آثروا الهبوط الأسرع من الأسوار بواسطة الحبال . فسقط عدد كبير منهم على الارض مابين قتيل وعاجز . وقد حشا احد التجار كل ثروته التي تبلغ ستة آلاف دينار من الذهب في كيس نقود ، ثم انضم الى الجموع المتراخمة عبر باب رشيد . واثناء صراعه من اجل الحياة سقط منه الكيس ، ولم يستطع الانحناء لاستعادته بسبب الضغط الهائل للكتل البشرية التي تطلب النجاة . وحاولت حشود الفارين التي تمكنت من الهرب الالتجاء الى القرى المجاورة مثل البسلقون والكريون بمديرية البحيرة . ولكن معظمهم تعرض لرعب آخر جديد في الحقول المكشوفة . اذ سلبهم مامعهم البدو وقطاع الطرق من القبائل العربية التي تقطن الصحراء الغربية دون رحمة او هوادة .

وعند هذه الواقعة يختفى النويري من مسرح الصراع والمذبحة داخل المدينة . ويحتمل ان يكون قد عاد الى النورية قريته الاصلية في مصر الوسطى لقضاء فترة من الراحة ثم اثناءها طرد الصليبيين الى البحر عندما عاد هو ثانية الى الاسكندرية . ولا نعرف على وجه التحديد تاريخ عودته ليوافقه مصير المدينة المفجع ، لكنه لم يستطع ان يمكث بعيدا عنها لفترة طويلة . وعند وصوله بدأ يجمع المعلومات من أولئك الذين بقوا في المدينة ، وظلوا على قيد الحياة بمعجزة بعد الاحتلال المسيحي لها . وان رواياته النابضة بالحياة عن أحداث تلك الايام القليلة تفوق كل وصف وتقدير .

وقد يكون من العبث ان نعدد قائمة مستوفاة تتضمن بيانا بجميع التحف الفنية التي أخذها الصليبيون من المدينة ، او ان نحصى المخازن والنزل التي نهبت ، او ان نعدد المدارس والقصور والمساجد التي احترقت ودمرت . وبالرغم من ذلك ، يمدنا النويري بمجموعة من القصص والروايات التاريخية التي يجب أن نلخصها هنا لتقدير فداحة تلك الكارثة الفظيعة التي حلت بالاسكندرية . وان كل ما يمكن الغزاة من وضع أيديهم عليه من ذهب وفضة ، وكل ما خف حمله وغلا ثمنه من المعادن الثمينة والتحاس ، وكذلك كل بالات الحرير والأشياء الثمينة كالسجاجيد والأقمشة الغالية والكثير من التوابل والفلفل والحاصلات الهندية - كل هذا أخذه الصليبيون الى أسطولهم . واستخدمت الجمال والخيول والبغال والحمير الموجودة في المدينة في نقل تلك الغنائم الهائلة . كما سخر الرجال والنساء لينضموا هم أيضا الى تلك الدواب في عملية النقل . وعندما تمت السخرة ، صدر الأمر بدخولهم في جوف السفن لنقلهم عبر البحر

كأسرى وعبيد المستقبل . وفيما يتعلق بالحيوانات ، فبمجرد انتهاء مهمتها لم يعد لها ادنى فائدة بالنسبة لهم ، لأن السفن كانت قد بلغت اقصى حمولتها ، طعنوا المحاربون المتدينون بسيوفهم وحراهم كما كسروا عظام ارجلها الرفيعة بمنتهى البساطة لشل حركتها . ثم تركوها اما ميتة او في طريقها للموت في الشمس الحارقة فوق الشاطئ الرملي ، حتى جاء المسلمون فأحرقوا جيفها بعد استعادة المدينة . كما اشعل الصليبيون النيران في المصانع والمخازن ومكاتب الادارة وجميع المباني .

وثمة شاهد عيان كان يراقب الجند وهم في مجموعات من فجوة في غنبا سرى ، تحدث الى النويرى عن الأسلوب الذى اتبعوه في اشعال الحرائق . فقد غطوا البوابات المغلقة بمادة سوداء لطخت بدهان احمر ، ومن الصعب التثبت ان كانت تتكون من القطران (القار) والكبريت . وعلى اية حال ، فالامر الهام هو انه عندما مس اللهب هذه الابواب ، اشتعلت على الفور وانهارت تاركة البناء مفتوحا على مصراعيه تحت رحمة العدو . كما قيل لنا ان عصابات اخرى من المسيحيين حملت أيضا معها حلقات غمست في الزيت والقار والزفت والنفط . ثم ثبتت على اطراف السهام واشعلت واطلقت الى اعلا نحو أسقف المباني الخشبية لتبدأ حرائق اخرى ، بهدف التأكد من اتلاف المكان بصفة نهائية . وكانت بعض المباني آية في الفن ، سواء المنقوشة باليد او المدهونة بالطلاء .

هذا ، ولم يميز الصليبيون بين المنشآت الخاصة بالتجار المسلمين وتلك التي كانت من أملاك المسيحيين . ومن بين الفنادق والنزل التي دمروها ، عدد النويرى تلك التي تخص القطلانيين والجنوية وأهالى مرسيليا . كما جردت المساجد والأضرحة من كل عمل فنى يمكن نقله . كذلك هشموا جميع قناديلها الزجاجية المطعمة بالجواهر والاحجار الكريمة ، لانه لم يكن من السهل نقلها . اما البيوت الخاصة ، فقد قامت بالتنقيب فيها بشكل منتظم مجموعات أصغر من تلك العصابات من رماة السهام . فكانوا يطلبون من سكانها الموجودين فيها كل نفائسهم حتى لا يتعرضوا للموت . وفى هذا لم ينبج مسلم أو مسيحي قبطى من أهل البلد . ويستشهد النويرى بحادثة خاصة لسيدة قبطية كسيحة ابنة قس يدعى جرجس بن فضائل ، كان قيما على كنيسة قبطية بجوار منزلها . فلم تستطع حتى علامة الصليب [التي رسمتها لهم] أن تعفيها من مضايقة أفراد احدى هذه العصابات الذين طلبوا اليها ان تسلمهم كل ذهبها وفضتها . ومع ذلك فقد حاولت انقاذ الكنيسة من الحريق الذى أشعلوه بتسليمهم الأوانى الفضية للأسرار المقدسة مع كل مدخراتها الذهبية .

ويخبرنا النويرى ، أيضا ، أن سبعين سفينة [من السفن الصليبية] قد حملت اكثر من طاقتها من الغنائم ، لدرجة ان الفرنج اضطروا الى القاء جزء من حمولتها في البحر المتوسط بالقرب من شاطئ ابى قير شرقى الاسكندرية لتفادى غرقها أو تقدمها البطىء الذى قد يعرضهم للمطاردين . كما يقول النويرى انه رأى صهاريج الزيت والشهد والزبد الخالص محطمة في الشوارع لأن الصليبيين لم يستطيعوا حملها معهم . كما أنهم تركوا كميات هائلة من التوابل والفلفل التي كانوا قد سحبوها الى الشاطئ بسبب ضخامة حجمها .

وربما كان المبنى الوحيد الذى لوحظ بقاؤه سالما هو الترسانة التي احتوت مخازن الذخيرة وبها ستون ألف سهم ، وكميات هائلة من القسى ، والسيوف ، والحرايب ، والحلل الحربية ، والدروع ، وأجهزة المدفعية والمواد الملتهبة وجميع المعدات الحربية وآلات الحصار وحدثت معجزة نجاتها من النهب والتدمير التامين بمحض الصدفة . فقد وقفت مجموعة من الرجال المسلحين عند بابها العظيم للتشاور . ولكن عندما اعتقدوا من مظهره انه قد يكون أحد أبواب المدينة بسبب حجمه الضخم اكثر من المعتاد وقربه من اسوار المدينة ، قرروا تركه ، ورحلوا عنه دون ان يمسه بسوء . ولكن جميع

المبانى الاخرى الخاصة بمصالح الدولة ، بما فيها الديوان ، قد تركت حطاما خاوية محترقة . ومع ذلك ، فمما يدعو الى العجب أن عصابات اخرى [من الفرنج] أشعلت النيران في عدد من الأبواب البرية ومن بينها باب سدره ، وهو خطأ تكتيكي ، اذ زاد من فرص دخول قوات السلطان الى المدينة والقادمة اليها من الجنوب . وربما ظنوا ، عن سخف وغباء ، أنه بدون الأبواب تصبح المدينة مفتوحة أمامهم عندما يقومون بهجوم جديد . وكان هذا ، بطبيعة الحال ، أملا ذهب أدراج الرياح ، لأن المصريين أعادوا ترميم الأبواب بسرعة . وبعد أن زادت يقظتهم وقوى حرصهم ، لم يجرؤ المسيحيون اطلاقا على معاودة الكرة .

وعندما دخل جيش السلطان شعبان تلك المدينة ثانية ، اصاب زعماء الهلع لما رأوه . فقد كانت جثث المذبوحين والمشوهين من الرجال والنساء والاطفال مبعثرة في الشوارع دون اعتبار للجنس . كما دمرت أحياء بأكملها . ولم يبق أى مبنى هام ، دون أن يمس سوى الترسانة الحربية على ما يبدو . فبدت المدينة قبرا مفتوحا ، وتعثر الناس فوق جثث الضحايا من المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء . وقد يصيب الدوار العقل عندما يدرك ان مثل هذا الدمار الفظيع وتلك المذبحة الجماعية يمكن أن تتم اثناء احتلال دام ثمانية أيام . ولم تكن الاسكندرانية قد تعرضت خلال عمرها الطويل لمثل تلك الكوارث والبلايا التي لم تفق منها حتى العصر الحديث .

وعندما النويري ببعض التفاصيل الشيقة للمفاوضات التي دارت بين السلطات الاسلامية بعد استعادة المدينة وبين الملك بطرس المنسحب علي سفنه ، وذلك قبل إبحاره . وقد اختير لتلك المهمة احد اليهود المقيمين بالاسكندرانية وكان يتقن الحديث بلغة الفرنجة . وكان المصريون الفارون قبل ذلك قد ساقوا معهم جميع التجار المسيحيين في المدينة الي دمهور عاصمة مديرية البحيرة . لذا ، تقدموا بعرض يقوم علي تبادل المسيحيين بأسري المسلمين علي السفن القبرصية . ولكن هذا العرض لم يأت بنتيجة ، وقرر الجيش المسيحي أن يبحر بسرعة بأسلابه ومغانمه طلبا للأمان في عرض البحر .

وبعد عودة الملك بطرس الي قبرص ، وقد داعبه الأمل في أن سورة غضب السلطان [المملوكي] قد هدأت ، سعي الي مفاوضات لإعادة السلام الي مصر . ولكن الجراح التي اصببت بها البلد كانت عميقة ، لدرجة أنه لم يكن من السهل نسيانها أو التغاضي عنها بمثل هذه السرعة . وقد قوبلت المصالحة الملكية الجديدة بالرفض التام من قبل القاهرة . ولذلك لجأ بطرس الي اتخاذ اجراء عنيف لحد ما بأمل إجبار السلطان علي الصلح . اذ جهز أسطولا صغيرا أغار به أكثر من مرة علي طرابلس علي الساحل الشامي ، في نوفمبر ١٣٦٦ ويناير ١٣٦٧ م ، ثم مرة ثالثة في سبتمبر من نفس العام ، ولكن دون جدوي . ويقدر النويري الاسطول القبرصي في آخر تلك الغارات الحربية بمائة وخمسين سفينة ، متضمنة بعض الشواني وناقلات الجند . ووجد المهاجمون ان الاهالي ثابتون وعلي استعداد لملاقاتهم . لذا ، بعد انزال قواتهم ، قرر القبارصة العودة بسرعة الي سفنهم للبحث عن أراض مكشوفة يهاجمونها ، حيث يمكنهم مفاجأة مسلمين آخرين . وهكذا نجحوا في نهب طرسوس وتدمير اكوام متراكمة من المواد التي كانت قد اعدت لبناء الشواني للسلطان . فأشعلوا النيران في كميات هائلة من الاخشاب والقار وحبال المراكب ، ينما تخلصوا من المواد غير القابلة للاشتعال كالحديد والمسامير بإلقائها في البحر . ثم توجهوا بعد ذلك نحو ميناء اللاذقية ، ولكنهم ، مرة اخري ، وجدوا الاهالي على البر علي استعداد لملاقاتهم . وقد حالت الرياح والامواج الشديدة ، وكذلك استحكامات المدينة المنيعه ، بينهم وبين انزال قوات اضافية . وظلت حالة التوتر المستمر قائمة طوال حكم بطرس الاول وحتى مقتله علي يد نبلائه الثائرين عليه عام ١٣٦٩ م .

وعلي أية حال ، لم يتحسن الموقف المتدهور بين مصر وقبرص باختفاء الملك العجوز الذي يعتبر الوغد الحقيقي وراء مأساة الاسكندرية . ففي خلال حكم خلفه بطرس الثاني (١٣٦٩ - ١٣٨٢ م) كانت غارات القرصنة ، سواء الموجهة ضد الشواطئ المملوكية او ضد السفن الاسلامية في عرض البحر تقابل بغارات مماثلة من جانب مصر علي شواطئ قبرص الجنوبية . وفي ظل هذه الظروف المضطربة توقفت التجارة مع القومونات الاوروية . وكان على كل من جنوة والبندقية التوسط لاعادة السلام واستئناف تجارتهم مع مصر التي تعود عليهما بالمكاسب والارباح . وان قصة ايفاد مبعوثين من قبلهما الي القاهرة لتحقيق سلام مهتز ، قد رواها المؤلف بشيء من التفصيل . ويدوي واقع الامر ، ان السلطان كان يشجع تلك المحادثات غير الحاسمة لكسب الوقت حتي يتمكن من استكمال بناء اسطول قوي يسمح بغزو تلك المملكة الجزرية [اي قبرص] أخذا بالثار . والظاهر أن النويري لم يعيش حتى يرى تحقيق هذا الحلم . اذ تحقق ، فعلا ، غزو قبرص في عهد السلطان [الاشرف] برسباي (١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) من دولة المماليك الجديدة البرجية في حملة مدمرة مضادة . لقد جهز برسباي ثلاث حملات ناجحة ضد قبرص في اعوام ١٤٢٤ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ م . علي التوالي . وأثناء الحملة الثالثة نشبت معركة خيروكيتيا في السهول الجنوبية من الجزيرة . وكان النصر الذي حققه المصريون في ساحة القتال ساحقا . اذ أسروا ملك قبرص الضعيف المدعو جانوس الثاني Ganus II وارستقراطيته ، وحملوهم معهم مكبلين بالأغلال الي القاهرة . وبهذه الطريقة دفع جانوس الثاني الثمن باهظا عقابا للفعل الشنعاء التي ارتكبتها بطرس الاول ضد الاسكندرية .

وان تطور الاحداث بعد ذلك انما يتعلق بفصل تال بعد انتهاء حياة النويري وكتابه . لذا يجب متابعتة من حوليات تاريخية متأخرة ، نذكر من بينها كتاب السلوك للمقرئزي ، وهو اعظم المؤرخين المصريين في القرن الخامس عشر الميلادي [القرن التاسع الهجري] .

الفصل الخامس

خاتمة

تقييم التراث الذي خلفه النويري

لفترة طويلة ترجع بنا الي أواخر العصور الوسطي ، لم يتمكن قراء كتاب الامام « للنويري من تقدير قيمة ما خلفه لعالم الادب . ويعتبر كتابه ، حسبنا أسلفنا ، بمثابة فيح عطر من المعلومات غير المنسقة أكثر منه مقالة منظمة تعالج مجموعة محددة متصلة من الموضوعات . ولما كانت حرفة النويري هي نسخ المخطوطات ، فلا بد أنه قد اطلع علي مؤلفات اصلية يصعب حصرها تتناول العديد من الموضوعات . ويمكن فقط القول أنه أثناء قيام النويري بنسخ المخطوطات للتجار السكندريين الأثرياء قد ألهمت خياله أفكار وأجزاء معينة من تلك الاعمال . فعمل علي اكتناز مقتطفات منها ليستخدمها كلها واتته الفرصة . وقد حانت تلك الفرصة مع أخطر حادثة في حياته ، الا وهي الحملة الصليبية المشثومة علي الاسكندرية عام ١٣٦٥ م . ولا بد أن تلك الحادثة المشثومة قد أثارته لدرجة أنه قرر أن يبدأ « كتاب الامام » كسجل لكل ما شاهده وما سمعه عنها . ولهذا السبب بدأ ينسج نصه حول هذه الواقعة بالذات .

ولم يتناول الموضوع بطريقة مباشرة أو مستقيمة . بل كان علي هيئة تعليق علي مرثاة حول مصير الاسكندرية كتبها شاعر معاصر غير معروف يدعي ابن ابي حجلة . لذا نجد تفاصيل تلك الحملة الصليبية مطمورة في ثنايا ذلك التعليق . وما زاد الطين بلة ، أنه قرر استخدام حصيلة المقتطفات الهائلة التي استقاها من مخطوطاته بطريقة عشوائية أثناء سرد

رواياته ، متنفلا من موضوع الى اخر ليس له اي علاقة بالفكرة الاصلية سوي كلمة عابرة او فكرة سطحية لا تمت للامر الذي يعرضه بأية صلة حقيقية . ونتيجة لذلك ، نجده ينتقل الهويني من التاريخ الى الاسطورة ومن التقاليد الاسلامية الى الفحشاء والكلمات البديئة ومن الشعر الفصيح الى القصص الخرافية ، ومن الحكمة الزاهدة والعقائد المقدسة الى الطب الشعبي وحياة النبات والحيوان ، ومن علوم الفلك والجغرافية الى مهنة ركوب البحر والى المعلومات المتعلقة بالآثار ، أوحى الامور التافهة كالأحاجي والألغاز المسلية والأشكال الشعرية الجديدة للرجز والنثر الذي يتميز بالصنعة . ولقد كان كل هذا الشتات المختلط المتداخل ، هو الذي حال بين القراء الجادين وبين الخوض في أعماق هذا النص الهائل دون تخطيط واضح أو تنظيم موضوعي . وربما يفسر هذا ، في الحقيقة ، موقف الباحثين الذي يتسم بعدم الاهتمام بهذا الكتاب الذي لم يعن أحد بنشره أو دراسته دراسة واعية حتي ظهور طبعتنا الحالية .

وعلى اية حال ، نظرا لاهتمامنا بالدراسات التي تتعلق بالحروب الصليبية في القرن الرابع عشر ، لم نجد مفرا من القيام بعملية تفحص هذا المخطوط الصعب تفحصا يمتاز بالصبر والدقة . هذا ، ويعرف النوري [نفسه كتابه] « الألام » تعريفا له مغزاه ، مبينا انه يشتمل على « لمحات » ومن هنا بدأنا نكتشف هذا التراث غير المعروف الذي خلفه النوري ، والذي تناول الكثير من مجالات المعرفة التي قد تكون في بعض الاحيان فريدة في طابعها ونوعها وليس من المعقول ، في الواقع ، نشر أجزاء منفصلة من ذلك الكتاب الموسوعي بشكل مستقل قائم بذاته ، والتي قد ضمنها نبذا ومقالات تعالج العديد من الامور المستمدة منه . وإن نظرة سريعة على المجلد السابع بفهارسه الكبرى الأربعة عشر ، تكشف عن خصوبة وثراء المعارف والمعلومات التي تضمنها هذا النص الضخم .

وليس من شك في أن المؤلف قد جمع أعظم مادة أصلية تتميز بقيمتها عن الحملة الصليبية علي الاسكندرية من وجهة النظر المصرية . ومع ذلك ، أمدنا أثناء محاولته القيام بهذا العمل بالكثير من التفاصيل عن بناء وطوبوغرافية وآثار الاسكندرية في العصور الوسطى (١٢٨) وهنا نجد وصفا للمباني والمنشآت الهامة التي تمتاز ببهائها وفنها المعماري الرائع ، قدمه رجل كان قد عاش فيها وعلي معرفة بكل شيء عنها . وكشاهد عيان أيضا ، كان علي معرفة بمينائي المدينة الاينوستوس Eunostos والباب الكبير Portus Magnus الذي يرجع الي عصر البطالة . وعلي هذا كان بوسعه اثراء [المكتبة العربية] بما كتبه عن علم البحار ، وإن يزود القاريء بأتم مجموعة من المصطلحات العربية الخاصة بمهنة ركوب البحر التي عرف بوجودها في تلك اللغة . إذ استعرض ووصف جميع انواع السفن التي تمخر عباب كل من البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي والانهار العظيمة القديمة من النيل الي دجلة والفرات (١٢٩) .

وهنا تعرض ايضا للعلوم الجغرافية التي أسهم فيها اسهاما شخصيا . وما يدعو الي الدهشة معرفته بكروية الارض ، تلك المعرفة التي لا بد ان يكون قد ورثها عن الجغرافيين العرب السابقين قبل ان تظهر هذه الفكرة في اوروا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي [أواخر القرن التاسع الهجري] . وما يدعو الي الاعجاب ، ايضا ، وصفه لعواصم اوروا ، وحصره للقلع الاسبانية ، وذكره للجزر والانهار والجبال والبراكين وغيرها من العلامات الجغرافية المميزة (١٣٠) .

(١٢٨) انظر الألام ، ج ٧ ، الفهرس السادس .

(١٢٩) نفس المرجع ، الفهرس السابع .

(١٣٠) نفس المرجع ، الفهرسان الأول والثاني .

وبين ثنايا رواياته عن المعارك الإسلامية المبكرة والمتأخرة ، حفظ لنا الكثير من المعلومات الأساسية التي سوف تعين الباحث علي توضيح الغموض الذي يشوب تاريخ فن الحرب والقتال الإسلامي^(١٣١) وقد اعددنا له ولكل الموضوعات سالفة الذكر ، فهارس خاصة نستطيع من خلالها تقدير قيمة ما خلفه النويري من معلومات لم تكن معروفة من قبل . ووجدنا انه من الضروري تعريف وتوضيح مصطلحاته ، مع تحديد الاماكن او التعريف بها في الهوامش السفلية . وقد نجحنا الي حد ما ، ولم يحالفنا التوفيق في بعض الاحيان في ايجاد حلول للمشاكل [التي واجهتنا] والتي نترك بعضها للباحثين المتخصصين في المستقبل .

اما في مجال الفقه والشريعة الإسلامية ، فلم يضيف النويري سوى القليل وحيانا لا يضيف شيئا الي ادب الفقه القائم العظيم . وربما كانت المسألة الوحيدة الجديرة بالذكر هنا هي اقتباسه لكثير من الاحاديث التي يبدو انها غير صحيحة بالرغم من ادعائه صحة نسبتها^(١٣٢) ويحتاج هذا الموضوع لمزيد من البحث في المستقبل .

كذلك أبدى النويري في عالم الادب اهتماما كبيرا باقتباس القصص القديمة ، والشعر القديم المعروف ولكن اسهامه الحقيقي يكمن في اقتباسه من شعر عصره بالذات . ومع ذلك ، فان هذه الناحية التي ادلى فيها بدلوه تفشل في ان تعكس روعة العصر الذهبي للادب العربي . وبالرغم من كل ذلك ، فهي تزودنا بنماذج لها وزنها تمثل خير تمثيل تأليف القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] . وجانب كبير من هذا الشعر يصور حادثة معاصرة او يمتدح شخصية معروفة او يرثي حادثة اليمه مثل الحملة الصليبية علي الاسكندرية . ويعتبر النويري نفسه في الحقيقة شاعرا له مكانته . وتظهر قصائده في [ثنايا] عدة مجلدات [من الامام] . وهي ليست رائعة في طابعها ، ولكنها قد تساعد كوثائق تاريخية فيما يتعلق بأحداث عصره^(١٣٣) .

ويستخدم النويري الاسلوب الايقاعي الموزون . ولذلك تبدو الصنعة والتكلف بوضوح في محاولة المؤلف ايجاد القافية المطلوبة بأي وسيلة . وكثيرا ما تصبح هذه المسألة عقبة لا تستحق الاطراء . وان التناقض العجيب في اسلوبه يبدو في استخدامه العبارات الدارجة وانحرافه عن ايسر قواعد النحو والصرف ، مما يصعب معه الموازنة بينها وبين سعة اطلاعه في مجال الادب .

فهل من الجائز ان يكون نساخ « كتاب الامام » هم المرتكبين الحقيقيين لهذا الخطأ ، فشوهوا بذلك المخطوط الاصيل الذي يتضمن النص بخط المؤلف ؟ وسوف يظل هذا التساؤل قائما لأنه من الصعوبة بمكان أن نجد له جوابا شافيا .

وليس بوسعنا اخفاء دهشتنا بالنسبة للموضوعات المختلفة المتنوعة التي جمعها النويري بمحض الصدفة وبخطوط متواضع . ومع ذلك ، فان ثمرات جهوده الشاقة عبارة عن خليط غير مترابط من المعلومات التي جمعها بحكم خبرته كشاهد عيان [لأحداث ذلك الزمان] . وبالرغم من كل المآخذ التي تؤخذ على كتابه ونواحي القصور فيه فقد تمتع النويري بكافة الصفات التي تؤهله ليكون أحد مصنفى الموسوعات السكندريين في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] .

(١٣١) نفس المرجع ، الفهرس الثامن .

(١٣٢) نفس المرجع ، الفهرس الخامس .

(١٣٣) نفس المرجع ، الفهرس الرابع .

يحتل عصر سلاطين المماليك - وهو العصر الذي يمتد من منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) حتى اوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر للميلاد) أي قرابة قرنين ونصف من الزمان ، يحتل أهمية خاصة على الصعيدين العالمي والمحلي ، نظرا لما واكب ذلك العصر من أحداث مثيرة ، وتيارات قوية بارزة في مختلف الأنشطة الحربية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، مما جعل دولة سلاطين المماليك - وعاصمتها القاهرة - قبلة انظار المعاصرين من الاصدقاء والاعداء جميعا : الاصدقاء ينشدون مساعدتها ويأملون في عونها ، والاعداء يرجون مسالتها ويتجنبون غضبتها ، ويتقون بطشها ، ومن يتتبع تاريخ دولة سلاطين المماليك بوعي وإدراك يلمس حقيقة لها مغزاها ، هي أنه لا يكاد يمر عام إلا وتشهد القاهرة وصول سفارة او أكثر ، بعضها من مختلف انحاء العالم الاسلامي في المشرق والمغرب ، يطلب اصحابها اعترافا من الخلافة العباسية بالقاهرة يضيفي عليهم صبغة الشرعية ، أو يشكو لسلطان المماليك بعض الجيران والاعداء طالبا تأييده المعنوي والحربي ، والبعض الآخر من الدول والقوي التجارية في غرب وحوض البحر المتوسط ، تطلب بعض التسهيلات لرعاياها وتجارها ، أو تنشئ عقد اتفاقية تجارية تحقق لهم قدرا من الضمانات والامتيازات في اراضي سلطنة المماليك .

وهكذا غدت القاهرة مركز ثقل السياسة العالمية في عصر سلاطين المماليك ، ومحور العلاقات بين العالمين الاسلامي وغير الاسلامي ، وعاصمة المال التي تتحدد فيها اسعار العملات والسلع والغلات ذات القيمة العالمية ، سواء كانت من حاصلات الشرق او انتاج الغرب . ولاشك في ان الانتصارات الكبرى التي حققها سلاطين المماليك في صدر دولتهم ، سواء على كتلة تنار فارس والعراق او على الصليبيين في الشام ،

أضواء مصرية على المؤرخ أحمد بن علي المقرئ وكتاباته

سعيد عاشور

اضفت هالة من المجد على هذه الدولة ، بحيث غدت في نظر المسلمين جميعا تمثل بقية من مجد الاسلام . وبخاصة ان هذا النشاط الخارجي الواسع النطاق - على الصعيدين الحربي والسياسي - لم يكن الا مظهرا واحدا من مظاهر نهضة شاملة متعددة الجوانب ، اخترنا ان نطلق عليها اسم النهضة الثانية - ولانقول الاخيرة - في الاسلام .

ويعتينا من أمر هذه النهضة التي لم تترك جانبا من جوانب النشاط الحضاري الا طريقته واسهمت فيه بسهم وافر ، ان كل من تعرضوا لها من الباحثين حتى الآن عللوا لها تعليلا مبتورا ، في ضوء النشاط الاقتصادي الذي اتصف به عصر سلاطين المماليك ، وما حققه اولئك السلاطين من ثروات طائلة نتيجة لاحتكارهم بعض الحاصلات الاساسية في التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبخاصة تجارة التوابل والفلفل ، وما ترتب على هذا النشاط من توافر عنصر المال الذي مكن المماليك من اقامة المنشآت والمؤسسات والمشاريع الضخمة ، وتشجيع العلماء والادباء والفنانين .

هذا هو الرأي السائد في كتابات جبهة الباحثين المحدثين . ونحن مع اعترافنا بأن الانتعاش الاقتصادي دعامة اساسية لأي نهضة حضارية ، الا انه من الالهية بمكان ان ندرك ان المال ليس الدعامة الوحيدة في بناء الحضارات ، وانما لابد ايضا من توافر الجذور أعني البيئة الحضارية والانسان المنتج . ونقصد بالبيئة الارض الطيبة ذات الامكانيات الحضارية الراسخة ، وذات المناخ المناسب الذي يساعد على الانتاج ، والموقع الوسط الذي يجعل منها بابا مفتوحا على التيارات الحضارية والسياسية في العالم الخارجي . اما الانسان فنعني به العنصر البشري البناء الذي لديه الاستعداد ولديه القدرة - ليس على الانتاج فحسب - بل ايضا على الابداع . وهذا كله ما توافر لدولة سلاطين المماليك عند مولدها على ارض مصر في منتصف القرن السابع للهجرة ، الثالث عشر للميلاد .

على انه من الالهية بمكان ان نلاحظ ان العالم الاسلامي - رغم تفتته سياسيا في ذلك الدور الاخير من العصور الوسطى - الا انه ظل في نظر المسلمين المعاصرين يمثل عالما واحدا فسيحا ، ينتقل المسلم بين أرجائه من مصر الى آخر ، وهو اينما حل انما يقيم في ديار الاسلام ويستظل بمظلته . وهكذا فان النهضة الكبرى التي تزعمتها مصر في عصر سلاطين المماليك أسهم في بنائها مجموعة ضخمة من أبناء مصر وغير أبناء مصر من الوافدين عليها من شتى انحاء العالم الاسلامي ، مشرقه ومغربه . فالى جانب القلقشندي والاسنوي والنويري والسخاوي وغيرهم من أبناء مصر الذين ينسبون الى مدنها وقراها ، نسمع - من جملة من نسمع عنهم من اعلام هذه النهضة - عن ابن خلدون وابن حبيب ، وغيرهما من الاعلام الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر من المغرب والشرق . ويحكى ابن حجر العسقلاني عن بعض علماء الشام ، وغير الشام من بلاد الاسلام ، انهم قالوا عن بلادهم في ذلك العصر « هذا بلد ضيق عن علمي وهجروها الى مصر^(١) » . وهناك فريق ثالث من العلماء ولدوا على ارض مصر ، وكان أجدادهم أو آبائهم قد نزحوا الى مصر في مرحلة سابقة ، فنشأ هذا الفريق غير مصريين من ناحية الاصول والجلود ، مصريين من ناحية المولد والنشأة . ومن هؤلاء الحافظ شهاب الدين احمد بن علي بن حجر العسقلاني ، الذي يصف نفسه بأنه « العسقلاني الاصل ، المصري المولد - القاهري الدار » ومن هذا الفريق ايضا شيخ المؤرخين المصريين « في القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد - تقي الدين احمد بن علي المقرئ » .

(١) ابن حجر العسقلاني : رقع الاصر عن نقباء مصر ، ورقة ١٦٨ .

ومن المتعارف عليه في المصادر المعاصرة أن أسرة المقرئى بعلبكية الأصل ، تنسب الى حارة المقارزة ، إحدى الحارات القديمة في مدينة بعلبك . وقد نزع والده على الى مصر ، وسكن القاهرة ، حيث أنجب ابنه أحمد . وذكر ابن حجر انه رأى بخط المقرئى مايدل على أن ولادته كانت في سنة ست وستين وسبعمائة هـ (١٣٦٤ - ١٣٦٥ م). وكان أن نشأ أحمد بن علي المقرئى نشأة طيبة ، في بيئة حضارية لها طابعها الذي يختلف كثيرا عن البيئة التي عاش فيها أجداده ، فإذا كان أجداده قد عاشوا في بعلبك ، تلك البلدة الراسخة فوق جبال الشام ، فإن شهرة بعلبك في تلك العصور لم تتجاوز الدور الذي لعبته في الصراع بين حكام المسلمين بعضهم وبعض من ناحية ، او بينهم وبين الصليبيين من ناحية أخرى . وربما كان لها دور في حوادث زحف التتار على بلاد الشام من ناحية ثالثة . وبالتالي فإن بعلبك - بحكم موقعها - كانت في كثير من ادوار تاريخها ميدانا للصراع بين القوى المتنافسة ، أو معبرا للتجارة ، وربما مأوى لبعض الفرق الدينية ، التي تشكل اقلية متناثرة في بلاد الشام . ولكنها في جميع الحالات لم تكن مركزا لحركة علمية مزدهرة ، ولم نسمع عن أحد شيوخ العلم انه نزع اليها واستقر فيها ، هذا كله بالإضافة الى جوها الشديد البرودة بسبب ارتفاعها ، مما جعل منها مكانا غير مغر بالتزوح اليه والاقامة فيه .

اما المؤرخ أحمد بن علي المقرئى فيعتز ويفخر بانه ولد بين جنبات القاهرة ، وفي حي من أكثر أحيائها صخباً وامتلاء بالحياة والنشاط الاجتماعي والاقتصادي المتنوع . وقد ذكر المقرئى عن سوق حارة برجوان التي ولد ونشأ فيها - انه « اعظم اسواق القاهرة » ، ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة » (٢) وكانت القاهرة - كما سبق أن اشرنا - مقصد كل معسر او طموح ، وصفها الرحالة المعاصر ابن بطوطة بانها « ام البلاد المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية في الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر (٣) » ، ولذا نرجح أن عليا المقرئى - والد المؤرخ تقى الدين أحمد - انما نزع من بعلبك الى القاهرة يلتمس سعة العيش ، وانه عندما استقر فيها كان يعاني ضيق ذات اليد ، بدليل ان جد تقى الدين أحمد لاه - وهو ابن الصايغ الحنفى - هو الذي كفل تعليمه واشرف على تنشئته ، وفق مذهبه ، وهو المذهب الحنفى (٤)

وهكذا نشأ أحمد بن علي المقرئى نشأة دينية علمية ، واتاحت له ظروفه ان يرضى طموحه العلمى فتلمذ على مجموعة من كبار علماء وشيوخ عصره الذين عجت بهم القاهرة . هذا الى انه في تنقلاته خارج القاهرة ومصر ، التقى بكثير من العلماء . يترجم السخاوى لأحمد بن علي المقرئى ، فيقول عنه انه نشأ بالقاهرة نشأة حسنة ، فحفظ القرآن وسمع جده لأمه الشمس بن الصايغ الحنفى ، والبرهان الأمدى ، والعز بن الكويك ، والنجم بن رزين ، والشمس بن الخشاب ، والتنوخي ، وابن ابى الشيخة ، وابن ابى المجد ، والبلقينى ، والعراقى ، - والهيتمى ، والفرسيسى ، وغيرهم . وقيل انه سمع المسلسل على العماد بن كثير .

(٢) المقرئى : المواظ والاعتبار (ج ٢ ص ٩٥ ، بولاق .)

(٣) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٦٧ (طبعة باريس ١٨٨٠)

(٤) السخاوى : الفوائد اللامع ، ج ٢ ص ٢١ ترجمة ٦٦

ثم ان المقرئى ادى فريضة الحج ، فسمع بمكة من النشاورى والاميوطى ، والشمس بن سكر ، وابى الفضل النويرى القاضى ، وسعد الدين الاسفراينى ، وابى العباس بن عبد المعطى . . . وجماعة « واجازله الأسنوى والأذرعى ، وأبو البقاء السبكى ، وعلى بن يوسف الزرندى ، وآخرون . ومن الشام الحافظ ابو بكر وابو العباس بن العز ، وناصر الدين محمد بن محمد بن داود وطائفة . . » (٥)

وعندما توفى والده فى سنة ست وثمانين وسبعمائة هـ - وكان احمد عندئذ قد جاوز العشرين من عمره - تحول شافعيًا واستقر منذ ذلك الوقت على مذهب الشافعية . وكانت ظاهرة التحول من مذهب الى آخر منتشرة بين المعاصرين ، ولها اهميتها وخطورتها فى حياة الفرد - وبخاصة اذا كان من المشتغلين بالعلم او المتولين وظائف الدولة - ، لانه معنى اعتناق مذهب معين هو ان ينكب على دراسة اصول هذا المذهب ، ويركز فى تحصيله على استقاء العلم من شيوخه . هذا الى ان كثيرا من الوظائف ذات الصبغة الدينية كالقضاء والحسبة والنظر فى المؤسسات الدينية والخيرية ، كان يشترط فيمن يليها ان يكون من اتباع مذهب معين ، يحدده العرف ، او حجة الوقف المحبوس على ذلك المرفق او تلك المؤسسة .

وهنا الواقع ان المقرئى لم يعش فى المرحلة الاولى من حياته بعيدا عن جو الوظائف العامة وكان اول ماولى من هذه الوظائف وظيفة موقع - اى كاتب - بديوان الانشاء بالقلعة ، وهى وظيفة لها اهميتها فى ذلك العصر لانه لايلها الا من يتمتع بمواصفات معينة ومستوى راق من العلم والاسلوب (٦) . ثم عين المقرئى بعد ذلك نائبا من نواب الحكم - اى قاضيا - عند قاضى القضاة الشافعى . وبعد ذلك تولى الخطابة بجامع عمرو ، ثم بمدرسة السلطان حسن فاما ما لجامع الحاكم مع نظر هذا الجامع ، ثم مدرسا للحديث بالمدرسة المؤيدية . ويبدو ان المقرئى حظى بمكانة خاصة عند السلطان الظاهر برقوق وابنه السلطان فرج بن برقوق ، فعينه السلطان برقوق فى وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى سنة احدى وثمانمائة هـ ، فتولاها وتنحى عنها اكثر من مرة . وفى تلك الاثناء تزوج المقرئى وانجب ابنته التى ماتت بالطاعون الذى اجتاح مصر سنة ٨٠٦ هـ -

وقد دخل المقرئى دمشق مع الناصر فرج بن برقوق فى سنة عشر وثمانمائة ، وعاد معه الى مصر . وعرض عليه قضاؤها عدة مرات فأبى . ويبدو انه تردد على دمشق بعد ذلك اكثر من مرة فتولى فيها نظر وقف القلانسى والبيمارستان النورى الذى كان من شروط وقفه ان يتولى نظره قاضى دمشق الشافعى ، ولذا عينه السلطان فرج بن برقوق نائبا للحكم بدمشق ، اى قاضيا بها . وفى دمشق تولى المقرئى ايضا تدريس الحديث بالمدرستين الاشرفية والاقبالية . ولكنه لم يلبث ان ضاق ذرعا بالمناصب ، وغلبت عليه طبيعته الهادئة ، فأثر التفرغ للاشتغال بالعلم ولذا هجر دمشق بعد ان أقام بها نحو (من عشر سنوات ، وعاد الى مصر ، حيث « أقام ببلده (القاهرة) عاكفا على الاشتغال بالتاريخ ، حتى اشتهر به ذكره وبعد فيه صيته » (٧) - وحسب المقرئى فى حياته الوظيفية ان يقول فيه السخاوى - وهو الذى يكاد لم يسلم احد من قلمه ولسانه - « وحدث سيرته فى مباشراته » (٨) وفى هذه المرة لم يترك المقرئى القاهرة الا

(٥) المصدر السابق .

(٦) المقرئى : المواظ والاحتياج ٢ ص ٢٢٥ (بولاق)

(٧) السخاوى : الغرر اللامع ، ج ٢ ترجمة ٦٦

(٨) المصدر السابق

لفترة محدودة - تقارب خمس سنوات - اتجه فيها الى مكة حيث ادى فريضة الحج ، مع اشتغاله بالتدريس والتأليف في تلك الاثناء .

وقد استهل المقرئ نشاطه في التأليف بالشروع في وضع موسوعة كبرى اسمها « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهي الموسوعة التي نسبت إليه وعرفت باسم خطط المقرئ وقد بدأ المقرئ في كتابة خطته حوالى سنة ٨٢٠ هـ ، واستمر في كتابتها حتى قبل وفاته بعامين أى حتى سنة ٨٤٣ هـ . وفي تلك الاثناء لم يكن المقرئ منقطعا انقطاعا تاما لتأليف هذا الكتاب وإنما دون كتباً أخرى عديدة ، منها الكبير ومنها الصغير ، كما سنذكر فيما بعد . ونرى أن طول المدة التي استغرقها تأليف كتاب « المواعظ والاعتبار » يرجع الى ان هذا الكتاب ليس من كتب التاريخ العادية التي تقتصر على سرد الحوادث وأحداث السنين سنة بعد أخرى ، وإنما هو بمثابة موسوعة عمرانية جغرافية ، تاريخية اقتصادية اجتماعية سياسية فنية . . بكل معاني الكلمة . تناول فيه المقرئ بلاد مصر ، فعالج مدنها وآثارها ومعالمها الرئيسية ، واصفاً كلا منها وصفاً دقيقاً متبعاً تاريخ كل أثر من العصور القديمة - الوثنية او القبطية الى العصور الاسلامية ، حتى ايامه . وإذا كان قد توسع في وصف بعض مدن الوجهين البحرى والقبلى - وبخاصة مدينة الاسكندرية التي كانت قبل الفتح الاسلامى عاصمة مصر ، وظلت على ايام المقرئ اكبر ثغورها على البحر المتوسط ، فان خطورة هذه الموسوعة تتضح عندما ينتقل المقرئ الى الكلام عن القاهرة الكبرى - اى القاهرة المعزية وما يرتبط بها من فسطاط وعسكر وقطائع - ليدرسها دراسة مسهبة مستفيضة ، جعلت من خطته مصدراً له اهميته البالغة بين مصادر تاريخ مصر في العصور الوسطى ، وبخاصة في عصر سلاطين المماليك ، عصر الزعامة السياسية والحضارية . (٩)

على اننا لانستطيع أن نتعرض لكتاب المواعظ والاعتبار للمقرئ دون أن نشير الى مسألة هامة لها اهميتها ، ماتزال تشغل فكر الباحثين واستنفدت الكثير من جهود المؤرخين المشتغلين بتاريخ تلك الحقبة والمهتمين بالمقرئ ومكتبته التاريخية . أما هذه المسألة فهي ماوجه الى المقرئ من اتهام بأنه نقل كتابه « المواعظ » عن كتاب صنفه الاوحدى وظفر المقرئ بمسودته ، فنسب الكتاب الى نفسه (١٠) . والاوحدى هذا هو المقرئ الشافعى الاديب المؤرخ - أحمد بن عبد الله بن الحسن بن طوغان بن عبد الشهاب الاوحدى المتوفى سنة ٨١١ هـ . ترجم له السخاوى فقال عنه . . . اعترف بالتاريخ ، وكان لهجاً به . وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وافاد واجاد ، ويبيض بعضها ، فبيضا المقرئ ونسبها لنفسه مع زيادات » (١١)

وإذا كان السخاوى قد ساق هذا الاتهام دون سند في ترجمته للاوحدى ، فانه ذكر في موضع آخر من مؤلفاته انه استقى هذا الاتهام من شيخه ابن حجر العسقلاني . يقول السخاوى « وكذا جمع خططها المقرئ وهو مفيد . قال لنا

(٩) طبع كتاب المواعظ للمقرئ طبعين ، الأول - وهي المفضلة - طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ في مجلدين كبيرين . والطبعة الثانية هي الطبعة الأهلية في أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٠٧ م)

(١٠) تعرض هذه المسألة من المستشرقين كل من كاترمير ، وبروكلمان ، وجست ، وجاستون فيث . ومن المؤرخين العرب المحدثين كل من استاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة (المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى ص ١٠ وما بعدها - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٥٤) والاستاذ الجليل محمد عبد الله عنان (دراسات عن المقرئ - مجموع أبحاث صدرت ضمن سلسلة المكتبة العربية عن وزارة الثقافة بجمهورية مصر العربية ، بالتعاون مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٧١) (١١) السخاوى : الضوء الالامع ج ١ ص ٣٥٨

شيخنا (ابن حجر) انه ظفر به مسودة لجاره الشهاب احمد بن عبد الله ابن الحسن الاوحدى - بل كان بيض بعضه - فاخذها وزاد عليها زيادات ونسبها الى نفسه (١٢)

وهذه القضية الخطيرة - التي وقف امامها معظم الباحثين وقفة تردد - والتي قال فيها المستشرق كاترمير « يحسن ان نغض النظر عن هذه القضية ، ونتجنب الادلاء فيها برأى قاطع » (١٣) نعتقد انه قد آن الاوان لتصدر فيها حكما فاصلا بجرأة وأمانة ، لان مثل هذه الامور لا ينبغي أن تترك معلقة . وليس اخطر في مثل هذه القضايا التاريخية من اصدار الاحكام العشوائية التي لا سند لها الا العاطفة ، ولذا نعهد لحكمنا بابرار الحيشيات الآتية :

اولا : الادانة لانتكون على اساس اتهام أتى في صورة كلمات عابرة اطلقها رجل في حق زميل له في المهنة ، مع ماكان معروفا بين المشتغلين بالمهنة الواحدة - ومن جملتهم العلماء - من تحاسد . لو كان أحد الثقات من المعاصرين قد شارك السخاوي فيما وجهه الى المقرئ من اتهام ، لصار لزاما علينا أن نأخذ هذا الاتهام بعين الجدية . أما وقد انفرد به السخاوي وحده - وهو الكاتب السباب المولع بتجريح الرجال ، والذي يكاد لم ينج أحد - حتى ابن خلدون - من رشاش قلمه ، فان الامر في نظرنا يحتاج الى وقفة طويلة للتدبر والتمحيص . كيف نأخذ بشهادة رجل واحد قال فيه معاصره السيوطي : « ماترون في رجل الف تاريخا جمع فيه اكابر واعيانا ، ونصب لأكل لحومهم خوانا ، ملأه بذكر المساوي وثلب الأعراض . وفوق فيه سهاما على قدر أعراضه - والأعراض هي الأغراض - جعل لحم المسلمين جملة طعامه وادامه ، واستغرق في اكلها أوقات فطره وصيامه . . (١٤) أما ابن اياس - المؤرخ الهادي المتزن - فقد اشار الى السخاوي وكتابه « الضوء اللامع » فقال « الف تاريخا فيه الكثير من المساوي في حق الناس » (١٥)

إذا كان هذا هو حكم المعاصرين على السخاوي ، ونظرتهم الى كتاباته واحكامه ، فهل تؤخذ شهادته في حق عالم جليل مثل المقرئ على محمل الجدية ، دون سند او دليل او قرينة ؟؟

ثانيا : والغريب ان السخاوي الذي انفرد بتوجيه هذا الاتهام الى المقرئ هو نفسه الذي يقول عن المقرئ - في ترجمته له - انه نشأ نشأة حسنة وانه « شارك في الفضائل » وانه « حدث سيرته في مباشراته » وانه « كان كثير الاستحضار للوقائع القديمة » وانه اتصف « بحسن الخلق وكرم العهد وكثرة التواضع وعلو الهمة لمن يقصده ، والمحبة في المذاكرة والمداومة على التهجد والأوراد ، وحسن الصلاة ، ومزيد الطمأنينة فيها ، والملازمة لسنته . . » ؟؟ فكيف تتوافر هذه الصفات كلها لشخص متهم بسرقة مال الغير ونسبته الى نفسه

حقيقة ان هذا الاطراء من جانب السخاوي لم يأت خالصا نقيًا ، وانما مشوبا ببعض الغمز واللمز ، كأن يقول فيه « وكان حسن المذاكرة بالتاريخ لكنه قليل المعرفة بالمتقدمين ، ولذلك يكثر له فيهم وقوع التحريف والسقط ، وربما

(١٢) السخاوي : الاعلان بالتاريخ لمن ذم أهل التواريخ - ص ١٢

(١٣) Quatremere : Mamlouks, I, P x 111 و I, P x 111

(١٤) السيوطي : الكاوي على السخاوي (مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٥١٠ أدب)

(١٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٢ (طبعة بولاق ١٨٨٦ م)

صحف في المتون « أو كأن يقول فيه « كان كثير الاستحضار للوقائع القديمة في الجاهلية وغيرها ، أما الوقائع الإسلامية ، ومعرفة الرجال واسمائهم والجرح والتعديل والمراتب والسير وغير ذلك من أسرار التاريخ ومحاسنه فغير ماهو فيه » وهكذا فان طبيعة السخاوي في تجريح الرجال تغلب عليه ، فلا يستطيع ان يمتدح انسانا دون ان يذمه ولا ان يثني على عالم دون ان ينتقص من قدره .

فاذا اراد السخاوي ان يتصيف هفوة في كتابات المقرئ ، فانه يقول : « وربما صحف في المتون . وبما رأيته بخطه في ذلك (ابن البدر) وهو بفتح الموحدة والبدال المهملة فضبطه بخطه بالبدل . و (علي بن منصور الكرجي شيخ السلفي) وهو بالجيم فضبطه بالخاء المعجمة . وكثيرا ما يجعل (عبد الله) عبيد الله ، وعكسه . بل وبلغني أنه جعل (أباطاهر بن حمش) - راوى الحديث المسلسل بالاولية - حين حدث به - بالخاء المعجمة بدل المهملة »

وهكذا نسي السخاوي - أو تناسى أن المؤلف عندما ينهك في الكتابة كثيرا ما يهتم بتسجيل الافكار والمعلومات ، قبل أن تتطاير أكثر مما يهتم برسم الحروف ، كما نسي أن لكل مؤلف مصادره التي يرجع اليها وهذه المصادر لا تسلم غالبا من تحريف الناسخين . ولاندري كيف يتفق هذا النقد مع قول السخاوي نفسه عن المقرئ « وقد قرأت بخطه أن تصانيفه زادت على مائتي مجلدة كبار وان شيوخه بلغت ستمائة نفس » .

ثالثا: ان المتتبع لكتابات السخاوي يكتشف أنه عندما تحجره طبيعته الى الرغبة في اتهام برىء أو تجريح عالم أو النيل من انسان لا غبار عليه فانه كثيرا ما يتستر خلف شيخه واستاذ ابن حجر ، فيقول « قال شيخنا » ، و « ترجمه شيخنا في معجمه فقال . . » هذا غالبا هو أسلوبه في نقد معظم من نقدهم من الاعلام ، ومن جملتهم ابن خلدون والمقرئ ولكننا نتبع كتابات شيخه ، فلا نجد الا قلما عفا واسلوبا مهذبا ، واذا استدعى الامر - احيانا - نقدا هادئا بعيدا عن القذف والتجريح . وعندما يتعرض ابن حجر لذكر تقي الدين المقرئ فانه لا يذكره الا بكل تقدير واجلال . بل يصير ابن حجر - في اكثر من موضع من كتاباته - على وصف المقرئ بأنه صديقه المقرب . ولنا أن نسأل السخاوي كيف ارتضي استاذه وشيخه ان يصادق انسانا خرب الذمة يعرف عنه انه سرق كتابا لغيره ونسبه الى نفسه ؟ وكيف ارتضي استاذه لنفسه ان يوافق ضميره فيصف المقرئ بحسن الخلق وهو يعلم انه خرق العهد وخان الأمانة واستولى على مال لغيره دون وجه حق . اليس شهاب الدين ابن حجر العسقلاني هو الذي قال عن صديقه احمد بن علي المقرئ « وفي الاكثر هو مؤثر للانجماع بمنزله مع حسن الخلق وكرم العهد ، وصدق الود . وبيننا من الود ما لا يسعه الورق . الله تعالى يديم النفع به » (١٦)

اليس ابن حجر هو الذي افتتح كتابه « رفع الاصر عن قضاة مصر » بالاشارة الى المقرئ بوصفه مصدرا من المصادر التي استقى منها مادة كتابه ، فقال عنه « رفيقي الامام الاوحد المطلع تقي الدين المقرئ » (١٧)

(١٦) ابن حجر : المجمع المؤسس والمعجم المفهرس - ورقة ٣٧١ (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(١٧) ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر (مخطوط بدار الكتب المصرية ١٠٥ تاريخ .)

اليس ابن حجر هو الذي ترجم للمقريزي في الصفحات الأخيرة من موسوعته « انباء الغمر » فقال عنه « وكان اماما ، بارعا مفننا ، متقنا ، ضابطا ، دينا ، خيرا ، محبا لاهل السنة ، يميل الى الحديث والعمل به . » (١٨)

واخيرا ، اليس السخاوي نفسه هو الذي كتب عن شيخه واستاذه ابن حجر انه وصف المقريزي بانه صاحب « النظم الفائق ، والنثر العابق ، والتصانيف الباهرة ، خصوصا في تاريخ القاهرة ، فانه احيا معالمها ، وأوضح مجاهلها ، وجدد مآثرها ، وترجم أعيانها » (١٩) .

ومن الواضح ان الإشارة في العبارة الأخيرة الى مآثر المقريزي في كتابته عن القاهرة يقصد بها ماكتبه عنها في خططه . فكيف يصف ابن حجر المؤرخ تقي الدين المقريزي بأنه احيا معالم القاهرة وأوضح مجاهلها . . . وهو يعلم ان ماكتبه عن القاهرة وخططها مسروق عن الأوحدي ؟؟

رابعا :

واذا افترضنا أن الأوحدي قد كتب مؤلفا في خطط مصر والقاهرة وان المقريزي رجع الى هذا الكتاب وأفاد منه فانه لم يفعل بذلك غير ماكان يفعله غيره من جبهة العلماء المعاصرين ، ان لم يكونوا كلهم دون استثناء . ذلك أن الوضع جري في تلك العصور على ان يستعين المؤرخ - على وجه الخصوص - بكتابات من سبقه . ولذا نجد الجزء الجديد المبكر في كتابة اي مؤرخ هو الجزء الذي عاصر المؤرخ احداثه وشاهدها عن كتب ، وسمع بها عن قرب ، ان لم يكن قد شارك بنفسه في صنع بعضها . ولو اتجهنا الى اتهام اي مؤرخ أخذ عن سابقه ومعاصريه بالسرقة ، لما بقي مؤرخ من مؤرخي الاسلام - بعد القرن الرابع للهجرة - لاتقع عليه هذه التهمة ، ولأدين الجميع دون استثناء بمن فيهم السخاوي نفسه ، وشيخه ابن حجر ، وعلى سبيل المثال : لماذا لانتهم مؤرخا عملاقا مثل ابن الأثير بالسرقة لانه افاد من الطبري وغير الطبري من المؤرخين السابقين ؟

خامسا :

ومن هذا المنطلق نرى المقريزي يتبع في خططه كل أثر ، فيذكر تاريخه السابق ، وماطراً عليه من تطورات عبر العصور ، ويترجم للأشخاص الذين يرتبط ذلك الأثر بهم - من مؤسسين ومصلحين وغير ذلك - ويشير خلال ذلك الى المصادر والكتب التي رجع اليها وأفاد منها ، حتى يصل الى ايامه فيذكر ما شاهد عليه هذا الأثر او ذاك من احوال والكيفية التي ادركه عليها . . . وبذلك يضرب مثلا اعلى في الامانة والدقة والمثابرة في التقصي والاستقصاء .

وعلى سبيل المثال فهو يتتبع تاريخ جامع ابن عبد الظاهر، ويترجم لصاحب هذا الجامع ومايزال يتتبع المراحل التي مربها حتى يصل الى عصره ، فيقول « وهو اليوم قائم على اصوله » (٢٠) . وعندما يتكلم عن جامع القلعة يتتبع تاريخه الى أن يقول « وبه الى اليوم يصلي سلطان مصر صلاة الجمعة » (٢١) بل انه في كلامه عن الجامع الاشرفي يتتبع ما اجرى

(١٨) ابن حجر : انباء الغمر بأبناء العمر - وفيات سنة ٨٤٥ هـ - ج ٩ من ١٧٢ طبعة حيدر آباد ١٩٧٦

(١٩) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ ترجمة ٦٦ ، أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي .

(٢٠) المقريزي : المواظ ، ج ٢ من ٣٢٤ - ٣٢٥ (بولاق .)

(٢١) المصدر السابق ، ج ٢ من ٣٢٥ (بولاق)

فيه من زيادات واصلاحات حتى سنة ٨٢٧هـ ، أي بعد وفاة الاوحدى بستة عشر عاما فكيف يقال انه نقل كتابه عن الاوحدى ؟ (٢٢) كذلك في كلامه عن المدرسة القمحية يشير الى ما طرأ على الاوقاف الموقوفة عليها سنة ٨٢٥هـ ، أي بعد وفاة الاوحدى باربعة عشر عاما (٢٣) وعندما يعالج الرخاب ، يقول عن رحبة باب العيد هذه الرحبة كان اولها من باب الريح أحد أبواب القصر الذي ادركنا هدمه . . (٢٤) وعندما يتكلم عن باب النصر ، يقول ابن بدر الدين الجمالي « عندما عمر سور القاهرة نقل باب النصر من حيث وضعه القائد جوهر الى حيث هو الآن ، فصار قريبا من مصلى العيد ، وجعل له باشورة ادركت بعضها . . (٢٥) ، فاذا لم يستطع المقرئ أن يحدد موقع أثر من الآثار الحالية او ذكر معلومة عنه ، توقف وقال « والله اعلم » (٢٦) .

سادسا : لم ينكر المقرئ اتصاله بالأوحدى ، وهو بذلك لم ينف انه قد يكون قد استفاد منه (٢٧) وفي الوقت نفسه فان المقرئ حرص على أن يوضح في تقديمه لكتاب المواعظ المصادر التي اعتمد عليها وافاد منها ، فقال في امانة وصراحة :

« واما أي أنحاء التعاليم التي قصدت في هذا الكتاب ، فاني سلكت فيه ثلاثة أنحاء ، وهي : النقل من الكتب المصنفة في العلوم ، والرواية عن أدركت ، والمشاهدة لما عاينته ورأيت . فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في انواع العلوم ، فاني اعزوكل نقل الى الكتاب الذي نقلت منه ، لاخلص من عهده وابرأ من جريرته . . وحسب العالم ان يعلم ما قبل ذلك ويقف عليه . واما الرواية عن أدركت من الجلة والمشايخ ، فاني في الغالب والاكثر اصرح باسم من حدثني ، الا أن لا يحتاج الى تعيينه او اكون نسيت ، وقل ما يتفق مثل ذلك ، واما ما شاهدته ، فاني ارجو ان اكون - والله الحمد - غير متهم ولا ظنين . »

فهل هناك توثيق للمصادر التي يعتمد عليها باحث ، وتحديد للمراجع التي رجع اليها وافاد منها اكثر من هذا التوثيق وذلك التحديد ؟ مع ملاحظة مستوى العصر الذي عاش فيه المقرئ وما اتصف به ذلك العصر من منهج خاص واسلوب معين في البحث والتسجيل .

سابعا : ولا أدل على امانة المقرئ والممامه بجهود السابقين وآثارهم ، من انه حرص على ان يذكر أسماء من سبقوه من العلماء والمجتهدين في ميدان الخطط ، مركزا على الكندي والقضاعي وابن بركات النحوي والجواني وابن عبد الظاهر وابن المتوج . ويقف عند ابن المتوج بالذات - وليس الاوحدى - ليقول انه كان آخر من كتب قبله عن الخطط ، وانه يصل في كتابه الى ذكر أحوال مصر وخططها الى اعوام بضع وعشرين وسبعمئة .

(٢٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٣٠ - ٣٣١ (بولاق)

(٢٣) المصدر السابق ، ج ، ص ٣٦٤ (بولاق)

(٢٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٧ (بولاق)

(٢٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٨١ (بولاق)

(٢٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤١٣ (بولاق)

(٢٧) المقرئ : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٢٥٦ ، ج ١ ص ١٢ (بولاق)

وإذا افترضنا - جدلا - أن المقرئى أخذ عن الأوحى ، فمأذا يضيره أو يقلل من قيمة عمله ، طالما أنه لم يقتصر على ما ذكره الأوحى ، وإنما استعان بمن سبقوا الأوحى في كتابة خطط مصر والقاهرة . هذا إلى أن السخاوى عندما اتهم المقرئى بأنه نقل ما كتبه الأوحى قال أن ذلك تم « مع زيادات » وطالما أننا لم نعثر على ما كتبه الأوحى ، فمن يدرينا أن تكون هذه الزيادات هي لب اللباب ، وإنما الجوهر الثمين فيها سجله المقرئى ؟

ومن يتتبع أسلوب المقرئى في المواعظ يدرك أن طريقة الاسناد التي اتبعها في ذكر المعلومات والروايات ، لا يمكن أن تتفق مع فكرة نقل الكتاب عن الغير ، وخاصة أن بعض تلك الروايات سمعها المقرئى بأذنيه وأسندها إلى من رواها له . فهو على سبيل المثال يصف قيسارية جهار كس فيقول « رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون لم نرى شيئا من البلاد مثلاً في حسناتها وعظمتها » ثم يتابع كلامه فيقول « قال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد ابن محمود اليعمورى : سمعت الأمير الكبير . . . » (٢٨) وفي كلامه عن الاسواق يقول في ذكر القصبة « سمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول أن القصبة تحتوى على اثني عشر ألف حانوت . . . » وعندما يتكلم عن الحارة المحمودية يقول « ذكرها المسبحي في تاريخه مرارا ، قال في سنة أربع وتسعين وخمسمائة . . . » (٢٩)

ومرة أخرى نؤكد أن خطط المقرئى عبارة عن موسوعة كبرى عالج فيها الجوانب العمرانية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية ، فضلا عن التاريخ بمعناه الكبير الواسع وهو في تأريخه لعصور مصر الاسلامية حرص على أن يشير في كل موضع إلى مؤرخي ذلك العصر الذين أخذ عنهم وأفاد منهم . فإذا تعرض لأوضاع مصر في فجر الاسلام فإنه يشير إلى ابن عبد الحكم وابن يونس والمسعودي ، ويعالج تاريخ الفسطاط منذ انشائها فيشير إلى الكندي وابن زولاق . فإذا تعرض للطولونيين والاحشيديين ومدينة القطائع ، أشار إلى البلوى وابن يونس والكندي . وعند تأسيس القاهرة والكلام عن الفاطميين وآثارهم يشير إلى ابن زولاق والمسبحي وابن المامون والجوائى وغيرهم من اعلام ذلك العصر . ويتدرج إلى العصر الايوبي ، فيركز على القاضي الفاضل واليعمورى وعماد الدين الاصفهاني . وفي العصر المماليكي الاول يشير إلى عميد الدين بن عبد الظاهر وابن المتوج ، فضلا عن معاصريه من المعمرين ومن سمعوا عنهم ، كأن يقول « اخبرني شيخنا قاضي القضاة مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم الخنفي وخال أبي تاج الدين اسماعيل بن أحمد ابن الخطباء أنها أدركا بكوم الريش عدة امراء يسكنون فيها دائما . . . » (٣٠)

والواقع أن هذا هو منهج المقرئى في كافة مؤلفاته وكتبه ، وليس فقط في كتاب المواعظ كما سنذكر فيما بعد .

ثامنا : أن المتأمل في إنتاج المقرئى يدرك أنه أحد العلماء الموسوعيين الذين يفخر بهم عصر سلاطين المماليك . حقيقة أن إنتاجه الخصب ينصب بصفة اساسية على تاريخ مصر الاسلامية ، ولكنه حرص في هذا المجال على أن يغطي جميع حلقات ذلك التاريخ ، بحيث خصص لكل حلقة مؤلفا قائما بذاته . من ذلك أنه وضع كتابا في اخبار مدينة الفسطاط

(٢٨) المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٨٧ (بولاق)

(٢٩) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤ - ٥ (بولاق)

(٣٠) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠ (بولاق)

يغطي تاريخ مصر منذ الفتح العربى الاسلامى حتى قيام الدولة الفاطمية . ووضع كتاب (اتعاظ الخنفا بأخبار الخلفاء)
يغطي تاريخ مصر فى العصر الفاطمى . ووضع كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » يغطي تاريخ دولتى الايوبيين
والمماليك .

فهل من الصعب على عالم واسع المعرفة متنوع الثقافة مثل المقرئى أن يؤلف كتابا فى خطط مصر والقاهرة ، هو فى
جملته موسوعة فى تاريخ مصر وأوضاعها العمرانية فى العصور . الاسلامية ؟

تاسعا : لو كان المقرئى قد نقل كتابه عن غيره ، ولو كان كتاب الخطط المقرئية مسروقا عن مسودة للأوحدى ، لما
احتاج صاحبه فى نقله (وتبسيطه) الى تلك السنين الطويلة التى استنفدها وضع الكتاب المذكور . فالمعروف أن المقرئى
افنى عمره فى وضع كتاب المواعظ والاعتبار فبدأ فى تأليفه عام ٨٢٠ هـ وفرغ منه عام ٨٤٣ هـ أى قبل وفاته بعامين ومعنى
ذلك أنه قضى فى تأليف هذا الكتاب نحو من ربع قرن . فهل يتطلب نقل مسودة كل هذا العمر الطويل ؟

عاشرا : واخيرا ، فإن السخاوى الذى انفرد بتوجيه هذه التهمة الى المقرئى ، هذا السخاوى نفسه لم يستطع - رغم
نزعتة الهدامة عندما يتعرض لسير الرجال - أن يخفى اعجابه بالمقرئى ، فألف كتابا اسماء « التبر المسبوك فى ذيل
السلوك » وهو كتاب ضخيم فى أربعة اجزاء (٣١) وكما يتضح من عنوان الكتاب ، فإن السخاوى وضعه تكملة وذيل
لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقرئى . ولنا أن نسأل : اذا كان المقرئى غير امين واذا كان - كما وصفه
السخاوى - غير ماهو فى (الوقائع الاسلامية ومعرفة الرجال واسمائهم والجرح والتعديل والمراتب والسير وغير ذلك من
أسرار التاريخ ومحاسنه) فلماذا وقع اختيار السخاوى على كتاب المقرئى بالذات دون غيره من عشرات الكتب التاريخية
التي عاجلت تاريخ نفس الحقبة فى القرن التاسع الهجرى - ليضع ذيل له ؟

وبعد ، فاننا نرجو أن تكفى هذه الحثيثات لاصدار حكم عادل فى قضية ظلت معلقة بضعة قرون ، وتخوف معظم
الباحثين المحدثين من البت فيها بقرار حاسم ، ومن جملة هؤلاء الباحثين بعض شيوخنا وأساتذتنا ، غفر الله لهم ولنا .

ومهما يكن من أمر ، فإن كتاب « المواعظ والاعتبار » المعروف باسم « خطط المقرئى » يعتبر دون شك درة فريدة
تزدان بها المكتبة العربية فى حقل الدراسات التاريخية ، لانه يسد فراغا أساسيا ، بحيث لا يمكن الاستعاضة عنه - فى كثير
من المعلومات التى انفرد بها دون غيره - بأى كتاب أو مصدر آخر ، مع كثرة المصادر المعاصرة وتنوعها .

على انه اذا كان تقى الدين أحمد المقرئى قد استهل انتاجه العلمى بالشروع فى تأليف كتاب المواعظ والاعتبار ، فانه
كثيرا ما أحس أثناء وضع هذا الكتاب أن بعض المعلومات التى جاءت فيه تحتاج الى مزيد من الشرح والتفصيل . لذلك
شرع أثناء مسيرته فى تأليف الكتاب فى وضع سلسلة من المؤلفات « قصد فى كل منها أن يشرح ما أجمله من اخبار الدول
الاسلامية المصرية التى تناولها قبلا فى بكر مؤلفاته » (٣٢)

(٣١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك (بولاق ١٨٩٦) انظر ايضا محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ١٠ - ١٢

(٣٢) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ١٣

وقد قسم بعض الباحثين المحدثين^(٣٣) مؤلفات المقرئى الى قسمين : كتب موسوعية ضخمة ، واخرى تخصصية صغيرة . القسم الاول بعضه عنى فيه المقرئى بالتاريخ العام ، مثل كتاب (الخبر عن البشر) وكتاب (الدرر المضيئة فى تاريخ الدول الاسلامية) وكتاب (امتاع الاسماع بما للرسول من الانباء والاحوال والحفدة والمتاع) . والبعض الآخر ركز فيه المقرئى على تاريخ مصر الاسلامية ، وتراجم المشاهير من اهلها وابنائها . ومن هذا البعض كتاب (المقفى الكبير) فى تراجم أهل مصر والوافدين عليها ، وكتاب (درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة) وهذان الكتابان فى التراجم ، خصص اولهما لتراجم البارزين من أهل مصر ، والذين وفدوا عليها وأقاموا فيها منذ الفتح العربى الاسلامى . . والثانى خصصه المقرئى لتراجم المشاهير من معاصريه .

أما فى تاريخ مصر السياسى ، فقد ألف المقرئى ثلاثة كتب تغطى تاريخها منذ الفتح العربى حتى أيامه : الاول كتاب (عقد جواهر الاسفاط فى تاريخ مدينة الفسطاط) ويعالج تاريخ مصر الاسلامية حتى بداية العصر الفاطمى . والثانى كتاب (اتعاظ الخفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا) ، وقد عالج فيه تاريخ مصر الفاطمية . أما الثالث فهو كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) وقد أرخ فيه المقرئى لمصر منذ بداية الدولة الايوبية حتى قبيل وفاته فى سنة ٨٤٥ هـ (٣٤) . وهذه الكتب الثلاثة الاخيرة التى خصصها المقرئى لعلاج تاريخ مصر السياسى فى العصور الاسلامية ، يكملها الكتاب الذى أفرده لعلاج تاريخ مصر العمرانى ، ونعنى به كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) وهو موسوعة تاريخية سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، ثقافية فنية . . بكل معاني الكلمة .

أما عن الكتب التخصصية الصغيرة ، فانها رغم صغر حجمها كبيرة القيمة ، لأن كلا منها عبارة عن رسالة قيمة عالج فيها المقرئى مشكلة من مشاكل التاريخ أوجانبا مهملا من جوانبه أو طرفه من طرف المعرفة ، بحيث يسد كل منها ثغرة احس بوجودها فى عالم الفكر والمعرفة^(٣٥) وإذا كانت موسوعات المقرئى ومؤلفاته الكبيرة تموج بتفاصيل احداث التاريخ واعمال الخلفاء والسلاطين والملوك وتراجم المشاهير من الحكام والامراء والعلماء والتجار ، فان كتبه الصغرى لاتتسع لكل ذلك . ولذا نجدها تتصف بالتركيز والابحاز ، ويغلب عليها أن يتعرض كل كتاب منها لمشكلة معينة فى التاريخ الاسلامى . فكتاب (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) يعالج مشكلة قديمة فى التاريخ . وكتاب (الامام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام) وكذلك كتاب (الطرفة الغريبة من أخبار حضرموت العجيبة) يعالجان بعض الجوانب المهمة فى التاريخ الاسلامى . اما كتاب « الذهب المنسوب بذكر من حج من الخلفاء والملوك »

(٣٣) جمال الدين الشيبان : مؤلفات المقرئى الصغيرة - بحث فى كتاب (دراسات عن المقرئى) الذى سبقت الاشارة اليه - ص ٢٣ وما بعدها .

(٣٤) يقع كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك فى أربعة أجزاء ضخمة ، وقد تم تحقيقه ونشره فى اثني عشر مجلدا ، كل جزء فى ثلاثة أقسام ، وكل قسم فى مجلد قائم بذاته . وقد حقق الجزء من الأول والثانى فى ستة مجلدات استاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة (دار التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) وقمنا نحن من بعده بتحقيق الجزء من الثالث والرابع - حتى نهاية الكتاب - فى ستة مجلدات أخرى ، صدرت عن مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية (١٩٧٠ - ١٩٧٢) وللأسف لم نغز على الكتاب مكتملا بأجزائه الأربعة ومجلداته الاثني عشر فى احدى مكتبات دولة الكويت ، فاضطررنا أثناء كتابة هذا البحث الى الرجوع فى الجزء من الثالث والرابع الى صورة ميكرو فيلم نحفظ بها للمخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٣٣٧ . وأشارنا الى ذلك فى مواضع البحث .

(٣٥) عن هذه المجموعة من مؤلفات المقرئى ، زميلنا الراحل وأخونا الكبير المرحوم جمال الدين الشيبان ، اذ عكف على تحقيق ونشر بعضها فى سلسلة صدرت بعنوان مكتبة المقرئى الصغيرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) كذلك كتب بحثا بعنوان (مؤلفات المقرئى الصغيرة) سبق أن اشرنا اليه .

وكتاب تراجم ملوك الغرب » فيعرفان مجموعة من ملوك الاسلام ربط بينهم نشاط واحد او ركن واحد من اركان الدولة الاسلامية البعيدة .

وهناك من هذه الكتب الصغيرة ما قصد به المقرئزي الفاء الضوء على بعض الاوضاع المعاصرة . مثل كتاب « البيان والاعراب بمن نزل أرض مصر من الاعراب » وهو يعرف بالقبائل العربية المنتشرة في مصر على ايام المؤلف . بل ان المقرئزي تناول في بعض هذه الكتب جوانب من العلوم البحتة ، فهو في كتابه « المقاصد السنية لمعرفة الاجسام المعدنية » يتكلم عن المعادن والاجسام المتولدة من الابخرة والادخنة المحتبسة في الارض ويفرق بين المعادن القابلة للطرق - وهي الذهب والفضة والنحاس الرصاص والحديد والاسراب والخاصين - والمعادن غير القابلة للطرق بسبب ليونتها - كالزئبق - او الاجسام الصلبة التي تتعرض للكسر في حالة الطرق ، مثل اليواقيت والشب والنوشار .

ومن أمثلة هذا النوع من الكتب - أو الرسائل العلمية - التي ألفها المقرئزي كتاب (نحل ابر النحل) ، الذي يتعرض بالشرح فيه للنحل وانواعه ومراحل نموه وطباعه والوانه وأحجامه ، ثم ينتقل الى بيوت النحل أو خلاياه ، فيتكلم عن مواضعها في الجبال والسهول وانواعها ، ويصف أشكالها وطريقة العمل فيها . وبعد أن يوضح الآفات التي يتعرض لها النحل ، ينتقل الى عسل النحل وانواعه وفوائده والوانه ، ويربط ذلك كله بالزهور التي يعيش عليها النحل واثركل منها في نوع العسل الذي يخرج .

والمقرئزي عندما يتكلم في هذه الكتب العلمية عن جانب معين من جوانب العلوم لا يفوته ان يربط كلامه بالحياة الواقعية والاقتصادية . فهو في كلامه عن المعادن يشير الى مالها من أهمية اقتصادية في حياة الناس .

وعندما يتكلم عن النحل يوضح القيمة الاقتصادية للعسل - وبخاصة في العصور الوسطى - وكيف انه يشكل مصدرا هاما لارادات الدولة ، لانه يدخل في المعاملات السلطانية والجهات الديوانية . هذا فضلا عن الشمع الذي يستخرج من بيوت النحل ، وماكان له من دور كبير في الحياتين العامة والخاصة ، بوصفه المصدر الاساسي للاضاءة عندئذ ، حتى ان سوقا كبيرا من أسواق القاهرة - عرف باسم سوق الشماعين - تخصص في تجارة الشموع وحدها .

على أن أهم مؤلفات المقرئزي الصغيرة - في نظرنا - هودون شك كتاب (اغاثة الأمة بكشف الغمة) ، نظرا لماله من قيمة اقتصادية واجتماعية كبيرة ، ولأن المقرئزي ضمنه كثيرا من الآراء والنظريات التي سبق بها عصره بكثير . وفي هذا الكتاب يتعرض المقرئزي لتاريخ المجاعات والابوة التي اصاب مصر وأهلها منذ القدم ، وحتى المجاعة الشديدة التي عاصرها (٧٩٦ - ٨٠٨ هـ) والتي فقد في الطاعون الذي صاحبها ابنته الوحيدة سنة ٨٠٦ هـ - ويبدو أن هذه المحنة التي ابتلى بها المقرئزي جعلته يتحمس لتأليف الكتاب المذكور ، حتى أنه ماكاد ينكب على تأليفه عقب وفاة وحيدته ، حتى فرغ منه بعد قرابة العام ، وعندئذ يقول عن نفسه انه عكف على « ترتيب هذه المقالة وتهذيبها في ليلة واحدة من ليالي المحرم سنة ثمان وثمانمائة » .

وترجع أهمية كتاب « اغاثة الامة » الى انه دراسة ناقدة تحليلية ، يغلب عليها الطابع الاقتصادي الاجتماعى . ومن خلال هذه الدراسة ينتقد المقرئى كثيرا من الاوضاع القائمة فى الدولة وما يرتبط بها من سوء تصرفات الحكام ، ويرجع الازمات الاقتصادية التى تحمل بالبلاد الى تلك الاوضاع والتصرفات . وفى الوقت نفسه نرى المقرئى يحلل تلك الازمات تحليليا اقتصاديا يجمع بين العمق والابحار ، ويشرح مآلها من آثار اقتصادية واجتماعية ، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها فى عصر سلاطين المماليك .

على أن عظمة المقرئى وزعامته لمؤرخى عصره لاتنبع من كثرة مؤلفاته وتنوع مواضيعها ، ومثابرتة على الكتابة والتأليف ، بقدر ماتنبع من منهجه فى كتابة التاريخ . ونستطيع أن نحدد اركان هذا المنهج فى الجوانب الآتية : -

أولا : أمانة العرض ، والقدرة على التجرد من الاهواء ، وعدم التعصب لرأى أو التحيز لفكر مع عفة القلم واحترام الغير .

واذا كانت الامانة صفة لازمة لكل عالم ، فانها ألزم للمؤرخ منها لاي عالم آخر . والمؤرخ عند ما يروى رواية عن الغير ينبغى أن يحافظ عليها كما هى . واذا روى بعض مشاهداته عليه أن يكون دقيقا فيها يسجله ، لان هذه الرواية او تلك ستكون مع الايام سجلا ومرجعا يعتمد عليه اللاحقون . وربما ضاع الاصل الذى استقى منه المؤرخ روايته ، وعندئذ تبقى العبارات التى سجلها المؤرخ مصدرا وشاهدا على التاريخ . والمؤرخ شاهد على الناس - الموق والاحياء ، شاهد على الماضى والحاضر ، والشهادة فى الاسلام لها اصولها وآدابها (٣٦)

وبمقارنة كتابات المقرئى بما دونه غيره من المؤرخين المعاصرين ، نجده اكثرهم اعتدالا ، وأوفرهم دقة ، وأبعدهم عن الاستجابة للأهواء والميول والتزوات . هذا بالاضافة الى أنه فى كتابته للتراجم والسير نراه دائما متحكما فى قلمه ، يحترم الصغير والكبير سواء ، عفيف اللفظ والكلمة . حتى فى نقده لمن يستحق النقد يبدو المقرئى متحرزا منضبطا يخشى الله فيما يقول ، ولا يتخذ من التاريخ اداة لتجريح الناس ونهش اعراضهم والكشف عن خباياهم .

ولا يخفى عنا أن المقرئى عاش فى عصر كثر طوالة التحاسد بين العلماء ، وتعرض بعضهم لبعض بالذم والاساءة . ولكن المقرئى ظل بعيدا عن الخوض فى ذلك المستنقع ، مكتفيا عند الشروع فى تأليف كتاب بأن يدعو الله « أن يحل هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء كما اعوذ به من تطرق أيدي الحساد اليه والجهلاء ، وان يهدينى فيه - وفيها سواء من الاقوال والافعال - الى سواء السبيل » (٣٧) .

وحسبنا الفارق بين هذا النهج المعتدل ، وبين ما كان عليه مؤرخ آخر معاصر كالسخاوى ، وصفه معاصره السيوطى بأنه ألف تاريخا « ملأه بذكر المساوىء وثلب الاعراض » (٣٨) وقال عنه ابن اياس انه « ألف تاريخا فيه كثير من المساوىء فى حق الناس » (٣٩) .

(٣٦) سورة المائدة ، ١٠٨ وسورة البقرة ، ٢٨٢ .

(٣٧) مقدمة كتاب المواظ والاعتبار للمقرئى ، ج ١ ص ٣ (بولاق)

(٣٨) السيوطى : الكاوى على السخاوى (مخطوط بدار الكتب المصرية - ١٥١٠ أدب)

(٣٩) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٢ (طبعة القاهرة)

ثانياً : لم يكتف المقرئى بتدوين ما يسمعه ونقل ما يقرأه . وإنما عرف عنه التدقيق وجب الاستقصاء والرغبة في معرفة أسباب الظواهر وعلل الاحداث . يقول المقرئى عن نفسه - عند ذكر بعض الاحداث « فكثرت تعجبي من ذلك ، وما زلت أفحص عنه على عادتي في الفحص عن أحوال العالم ، حتى وقفت على . . » (٤٠)

وهذه الصفة المتأصلة في المقرئى ، والتي يلمسها الباحث في كتاباته تجعله يسمو فوق مستوى كثيرين غيره من المؤرخين السابقين والمعاصرين ، بل واللاحقين حتى أوائل القرن الماضي . ذلك ان الغالب على المؤرخين عندئذ هوان يسرد الواحد منهم احداث التاريخ مكتفياً بما يصل الى علمه عن طريق النقل والسماع . واذا كان المؤرخ أميناً أسند الرواية الى من نقلها عنه ، وربما فعل ذلك خشية الله او حتى يتحلل من مسئولية وتبعة ما يرويها ولا يقول ان المقرئى تجرد من هذه النزعة او تخلى عن هذا الاسلوب ، فقد لجأ في سرده أخبار السلف الى الاعتماد على روايات السابقين ، وكثيراً ما اشار اليهم حفظاً لحقوقهم وتمسكاً بامانة النقل والرواية . ولكن المقرئى كان لا يكتفي بذلك ، وإنما كثيراً ما يحرص على ان يقف امام الرواية التاريخية ليناقشها ويفندها ، مقارناً اياها بغيرها ، مستقصياً اسبابها ، محاولاً تحليلها . وفي هذا كله تظهر الحاسة التاريخية الموهبة لدى المقرئى ، وقدرته - لا على الاستيعاب وحسن العرض فحسب - بل ايضاً على التحليل والتفنيد والتعليل . ويتضح هذا الاتجاه في كافة مؤلفات المقرئى ، سواء كتبه الكبيرة المليئة بالاحداث - كالسلوك او كتاب المواعظ المشحون بذكر الآثار والمعالم العمرانية ، فضلاً عن كتبه الصغيرة - مثل « اغانة الامة » او في مقالاته ورسائله العلمية مثل كتابه عن المعادن وكتابه عن النحل . . وغيرها .

ثالثاً : عدم الاسراف في الاستطراد . والمقصود بالاستطراد الانتقال من موضوع الى ثان ثم الى ثالث لأتفه الأسباب وأوهى المناسبات . وربما تنبه الكاتب بعد فترة - قد تطول او تقصر - الى انه ترك موضوع حديثه الاصلى ويعد عنه ، فيعتذر للقارئ ، وحيثما يستغفر الله ويعوذ به من الشيطان الرجيم الذى صرفه عن قصده ، ويخط عريض يقول « نعود الى ذكر كذا . . » (٤١) وبذلك يصحح مساره ، ولكنه لا يلبث ان يقع في المحذور من جديد ويعود الى الاستطراد بعد قليل .

ومن المؤرخين المعاصرين من يحاول ان يبرر جنوحه نحو الاستطراد ، فيدعى انه تعتمد ذلك . للترويح عن القارئ وإبعاد السأم عنه اذا هو ظل منكبا على قراءة موضوع واحد ، او انه قصد اتحاف القارئ ببعض الطرائف لينشط فكره ويسرى عنه .

ومهما يقل من اننا نجد احياناً في استطرادات السابقين من المؤرخين معلومات جديدة ، قد يفوق بعضها في مضمونه ما يحويه المتن الاصلى من معلومات ، فان منهج البحث العلمى السليم يتطلب من الباحث تركيز الفكر في موضوع معين ، والوصول الى الحقائق والنتائج عن أقصر الطرق ، وعدم تشتيت الذهن بمسائل اخرى بعيدة عن موضوع البحث الاساسى ، مهما تكن هذه المسائل على درجة من الأهمية والخطورة . وفي ذلك يقول ابن النديم - صاحب الفهرست -

(٤٠) المقرئى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٢٦ هـ

(٤١) انظر على سبيل المثال كتاب : الامام بالاعلام فيما جرت به الاحكام ، للثوري السكندري

من علماء القرن الرابع الهجرى (العاشر للميلاد) : « النفوس تشرب الى النتائج دون المقدمات ، وترتاح الى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات . . . » .

ونلمس استقامة منهج المقرئى وعزوفه عن الاستطراد فى كافة مؤلفاته الكبيرة والصغيرة . ويبدو أنه أدرك ما تعاني منه الكتابة التاريخية من تطويل ومط يعرضها للمسح ويفسد صورة التاريخ ، بدليل ما ذكره فى مقدمة موسوعته « المواعظ والاعتبار » من أنه حرص على أن يكتب كتابه هذا « من غير اطالة ولا اكثار ، ولا اجحاف غل بالغرض ولا اختصار ، بل وسط بين الطرفين وطريق بين بين . . . » وفى هذا يبدو اعتدال المقرئى وتمسكه بالطريق الوسط ، فلا اطالة واستطراد ولا ايجاز ولا اختصار .

ولعلنا لسنا بحاجة الى الاشارة الى ان تنوع الموضوعات التى حواها كتاب « المواعظ والاعتبار » لا ينبغى أن تفسر بأنها نوع من الاستطراد ، لأن طبيعة دراسة الخطوط وما يرتبط بها من آثار ومنشآت وأخبار مؤسسيها ومنشئها ، وما شهدته من أحداث خاصة وعامة . . كل ذلك فى بلد عريق مثل مصر يتمتع بتاريخ حافل ، وفى مدينة خالدة مثل القاهرة اسهمت منذ مولدها بسهم وافر فى النشاط الحضارى لدولة الاسلام . . كل ذلك جعل لكتاب المواعظ وضعاً خاصاً لان طبيعة موضوعه تتطلب تنوع الموضوعات وتشعبها .

رابعا : العناية بأخبار مختلف طبقات الشعب وفئاته . ذلك انه مما يؤخذ على كتابة التاريخ فى تلك العصور ، ان المؤرخين تمشوا مع الاوضاع التى تعتبر التاريخ ربيب الحكام والخلفاء والسلاطين والملوك والامراء ، وبالتالى فانهم ركزوا فى تدوين التاريخ على تسجيل اخبار الحكام وما كان يجرى فى القصور ، مع التطرق أحيانا الى أخبار الاعيان والمروقيين من القادة والتجار والعلماء ونحوهم . أما الشعوب وعامة الناس ، وما كان يجرى فى الاسواق والحارات ، وما دار خارج الحواضر والمدن من ريف ويادية . . فكان المؤرخ لا يتعرض له عادة الا بالقدر الذى يمس سير الحكام والاعيان . ويتضح ذلك من اسماء وعناوين الكتب التاريخية فى تلك العصور مثل « الجواهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين » و « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » و « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » .

ولم يكن باستطاعة المقرئى أن ينزع نفسه من عصر نشأ وعاش فيه ، وصار يعبر عن وجه من فكره وعقليته . ولكننا نجده فى كتابته للتاريخ يذكر الحكام والسلاطين والامراء ، ولا يهمل الاشارة الى عامة الناس والشعب . وعندما أراد اسما لحوليته الشهيرة اختار أن يسميها « السلوك لمعرفة دول الملوك » فهو لم يختص الملوك وإنما استهدف دول الملوك ، وكل دولة فيها الكبير والصغير وإذا كان قد اختص الحكام والخلفاء والملوك بكتاب ، فانه اختصهم بالذكر فى كتاب اكثر ارتباطا بشعائر الدين وذكر الله ، فوضع كتابا صغيرا اسماء « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك » .

ولم يكن المقرئى يكتب للخاصة وحدهم ، وإنما كان يكتب للعامة أيضا . وبعبارة اخرى فانه حرص على أن يجد الجميع فى كتاباته غذاء وسلوى . يقول عن كتابه « المواعظ والاعتبار » ما نصه « وانى لارجو أن يحظى ان شاء الله تعالى

عند الملوك ، ولا ينبو عنه طباع العامى و الصعلوك ويحمله العالم المنتهى ، ويعجب به الطالب المبتدى . وترضاه خلائق العابد الناسك ولا يمحى سمع الخليلع الفاتك . ويتخذاه أهل البطالة والرفاهية سمرا ، ويعدده أولو الراى والتدبير موعظة وعبرا . . . » (٤٢)

خامسا : عدم مدهانة الحكام . ذلك أن آفة خطيرة من الآفات التى ابتلى بها التاريخ على مر العصور هى مدهانة كثير من الكتاب للحكام والسلاطين والملوك ، فيبرزون ما لهم من محاسن ويتسترون على ما لهم من عيوب ، ومن اجل ذلك ربما يقلب بعضهم الحق باطلا والباطل حقا . والمعروف أن المقرئى دون مؤلفاته فى القرن التاسع الهجرى ، أى فى عصر اختلت أمور طبقة الممالك الحاكمة ، واهتز نظامهم ، وفسدت أحوالهم ، وبدت صورتهم غير ما كانت عليه فى القرنين السابقين . ولكنه لم يضعف أمام بريق الجاه ، ولم يصغر أمام السلاطين الذين عاصروهم والذين عرضوا عليه الوظائف والمناصب ، وانما أثر فى مرحلة معينة أن يعتزل الخدمة الحكومية ويترك المناصب للراغبين فيها : واختار المقرئى أن يقضى المرحلة الاخيرة من حياته عاكفا فى بيته بالقاهرة على الاشتغال بالعلم والتأليف والكتابة (٤٣) . ولم يترك داره الا ليتجه الى مكة حيث اقام مجاورا بضغ سنوات قليلة ، واصل خلالها الكتابة والتأليف ، وعاد بعدها الى القاهرة مكبا على حياته العلمية .

وبذلك لم يسمح المقرئى لنفسه أن يكون عبدا للسلطان أو أسيرا للوظيفة ، الامر الذى جعله حرا فيما يكتبه . وبالتالي فانه لم يكن يتحرج من نقد الاوضاع القائمة ، وكشف النقاب عن اوجه الفساد فى جهاز الدولة ، والقاء المسئولية على عاتق السلاطين والحكام . من ذلك انه فى حوادث سنة ٨٣٢ هـ يتحدث عن جشع السلطان برسباى وتطرفه فى سياسة الاحتكار وانزال المظالم بالتجار « حتى حل بالناس بلاء لا يمكن حكايته » (٤٤) وفى حوادث سنة ٨٣٤ هـ ينتقد بشدة الخلل الذى أصاب نظام الحكم وجهاز الحكومة « فتزايدت المضرة لكثرة التناقص وعدم الثبات على الامر واستخفاف العامة براعيها » . . . (٤٥) وهكذا نلمس فى المقرئى قلما منطلقا وفكرا حرا .

على أن أهم ما امتاز به منهج المقرئى فى كتابة التاريخ هو عنايته بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، بحيث يستطيع ان يتلوق القارئ اللامح فى كتاباته طعما جديدا ليس له نظير فى كتابات كثيرين من مؤرخى العصور الوسطى بوجه عام .

ويركز معظم الباحثين تفسيرهم لعناية المقرئى بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية فى صلته بابن خلدون وتأثره به . . . ذلك أنه من المعروف أن المقرئى كان واحدا من تلاميذ ابن خلدون المقرئين اليه ، الملتصقين به ، المتأثرين بأرائه وأفكاره . وعندما يشير فى كتاباته الى ابن خلدون ، فانه يقول « قال لى شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، رحمه الله تعالى . . . » (٤٦)

(٤٢) المقرئى : المواقف والاعتبار ، ج ١ ص ٣

(٤٣) يقول الخاوى فى ترجمته للمقرئى « وكان قد اتصل بالظاهر برقوق ، ودخل دمشق مع ولده الناصر فى سنة عشر وعاد معه . وعرض عليه قضاؤها مرارا فأبى » الغزوة

اللامع ج ٢ ص ٢١ - ترجمة رقم ٦٦

(٤٤) المقرئى : كتاب السلوك لمرة دول الملوك - الجزء الرابع - حوادث سنة ٨٣٢ هـ (تحقيق الباحث ونشر مركز تحقيق التراث بالقاهرة)

(٤٥) المصدر السابق - حوادث سنة ١٨٣٤ هـ .

(٤٦) المقرئى : المواقف والاعتبار ، ج ١ ص ٥٠ (بولاق)

ولكن علينا أن نذكر أن عظمة ابن خلدون في الفكر الاقتصادي الاجتماعي تنبع - بصفة رئيسية - من فلسفته لهذا الفكر في مقدمته الشهيرة . فاذا تركنا المقدمة وعكفنا على دراسة تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر) فاننا لا نجد اثرا واضحا قويا لتطبيق الفكر على الواقع التاريخي . حقيقة ان ابن خلدون استشهد في نظرياته التي اتى بها في مقدمته بأمثلة عديدة من واقع التاريخ ، ولكنه عندما انتقل الى تسجيل الاحداث التاريخية في الاجزاء التالية من كتابه ، غلب على منهجه طابع السرد التاريخي ، ولم يحاول - الا نادرا - الوقوف امام الاحداث ليفسرها في ضوء النظريات الاجتماعية والقوانين الاقتصادية التي سبق ان اتى بها في مقدمته . ومن هنا كانت اهمية ابن خلدون في مقدمته اكثر منها في تاريخه .

اما المقرئ - وهو تلميذ ابن خلدون المعجب به المتأثر بآرائه - فانه في رأينا فاق استاذه في الجانب التطبيقي . ومهما يقل من ان المقرئ استقى من ابن خلدون اهتماماته بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية في التاريخ ، فانه لا بد وان يكون لديه هو نفسه الاستعداد والحاسة التي جعلته يطور تلك الجوانب ويحيد تطبيقها في تسجيل احداث التاريخ . وبعبارة اخرى ، فاننا نرى من المبالغة أن ننسب كل ما نلمسه في كتابات المقرئ من اتجاهات اجتماعية واقتصادية الى مجرد تأثره باستاذ ابن خلدون وآرائه ، دون ان نعمل حسابا لفطرة المقرئ واستعداداته العقلية والنفسية . ففي حقل الدراسات التاريخية بالذات لا يكفي التعلم لكي يخلق من المتعلم مؤرخا ناجحا ، وانما لا بد من حسن الاستعداد وتوافر الحاسة التاريخية الموهبة عند من يريد أن يبرز في حقل التاريخ . والمتتبع لكتابات المقرئ المدقق في عباراته ، المتأمل في آرائه وأفكاره ، يلمس حاسة تاريخية موهبة نابغة من داخله مكنته من ربط الاسباب بالنتائج ، ومن تفسير الروابط بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتطورات السياسية والادارية . . كل ذلك في يقظة وسرعة بديهة ، وقدرة فائقة على الالتقاط والربط والتعليل . ان تلاميذ ابن خلدون الذين التقوا وأعجبوا به وأخذوا عنه كثيرون ، ولكن أحدهم لم يصل الى ما وصل اليه المقرئ من تفوق وإبداع ، والسرف في ذلك يرجع الى المقرئ نفسه وليس الى ابن خلدون .

وعندما نقول ان المقرئ يتمتع بحاسة اقتصادية اجتماعية ظهرت واضحة بين ثنايا كتاباته التاريخية ، فان علينا ان نذكر أن مؤلفات المقرئ الرئيسية ارتبطت أساسا بمصر وتاريخها وقد عبر عن شعوره نحو مصر وارتباطه بها ، وحبها ، وحرصه على تسجيل تاريخها واخبارها فقال « هي مسقط رأسي وملعب أترابي ومجمع ناسي ، ومعنى عشيرتي وحامتي ، وموطن خاصتي وعامتي ، وجؤجؤى الذي ربي جناحي في وكره ، وعش مأربي ، فلا تهوى الأنفاس غير ذكره . ولازلت مد شلوت العلم ، وآتاني ربي الفطنة والفهم ، أرغب في معرفة أخبارها ، وأحب الاشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها . . » (٤٧) وهكذا فاننا في كلامنا عن الاتجاهات واللمسات الاجتماعية والاقتصادية في كتابات المقرئ ، علينا ان نوضح من البداية انها ترتبط اساسا بمصر .

ومن ناحية اخرى فاننا عندما نقول ان الحاسة الاقتصادية والاجتماعية عند المقرئ برزت في علاجه لتاريخ مصر ، فاننا نذكر مرة اخرى بأنه عاش في عصر سلاطين المماليك ، وانه اختص هذا العصر بالذات بقسط كبير من عنايته .

وقد سبق أن أوضحنا أن مصر في ذلك العصر كانت قلب العالم الاسلامي النابض بالحياة والتيارات الحضارية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والفنية وغيرها .

وكان من الطبيعي أن يمحط النشاط الاقتصادي بالذات بعناية خاصة من الباحثين في عصر سلاطين المماليك ، وهو العصر الذي تميز بازدهار التجارة والانتعاش الاقتصادي والثراء الفاحش . ذلك ان قيام دولة سلاطين المماليك جاء مصحوباً بتسلط التار على طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب ، واهمها طريق الخليج وطريق سمرقند البري الى بغداد ، والطريق الممتد الى حوض نهر الفولجا وجنوب روسيا . ونجم عن هذه الظاهرة انه لم يسلم من سيطرة التار على طرق التجارة الكبرى بين الشرق والغرب سوى طريق البحر الاحمر ومصر فكانت توأبل الشرق وحاصلاته تصل الى ميناء عيذاب او القلزم ، ومنها تنقل عبر صحراء مصر الشرقية الى مجرى نهر النيل ، لتتجه فيه الى موانئ مصر على البحر المتوسط ، وبخاصة الاسكندرية ودمياط . وهناك ينتظرها تجار ايطاليا والغرب الاوربي ليحملوها الى بلادهم .

وقد ترتب على هذه الاوضاع الجديدة التي ألت بطرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى أن احتكر سلاطين المماليك تجارة الشرق ، لانه لم يعد هناك طريق آمن بعيد عن عبث التار سوى الطريق المار بدولتهم واراضيهم . وهكذا جنى سلاطين المماليك ثروة طائلة وتحكموا في اثمان كثير من السلع وبخاصة التوابل والفلل ، واكتظت القاهرة ودمياط والاسكندرية بالاسواق والمؤسسات التجارية الكبرى - كالحانات والفنادق والوكالات التي تستقبل التجار على اختلاف أجناسهم ومللهم ، والبضائع على تنوع اصنافها والوانها . هذا في الوقت الذي حرصت القوى التجارية الكبرى - وبخاصة في ايطاليا وجنوب اوربا - على تدعيم علاقاتها الاقتصادية مع سلطنة المماليك وحماية مصالح تجارتها ورعاياها ، فاكثرت من عقد المعاهدات والاتفاقيات التجارية مع سلاطين المماليك لهذا الغرض ، كما سبق أن اشرنا .

واذا كان بعض مؤرخي مصر في عصر سلاطين المماليك قد اشاروا الى النشاط الاقتصادي في ذلك العصر ، فان اشاراتهم جاءت عابرة سريعة متناثرة ، وربما غير مقصودة ، يغلب عليها الطابع العشوائي . فهي تأتي بين ثنايا سردهم للأحداث السياسية دون أن تكون هدفاً في حد ذاتها . أما المقرئ فله مكانة خاصة لانه افرد للحياة الاقتصادية أجزاء معينة من مؤلفاته مستهدفاً اياها بالذات . وجاء ذلك اما في صورة كتب قائمة بذاتها او في صورة فصول وابواب مستقلة داخل الموسوعات التي دونها ، وبخاصة كتاب (المواعظ والاعتبار) . هذا الى أن المقرئ عايش مرحلة خطيرة في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، وهي مرحلة الخلل في اجهزة دولة دخلت فعلاً مرحلة الحريف من عمرها ، فرأى بعينه ولس بحاسته التاريخية المرفهة عظمة النشاط الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك من ناحية ، وبداية الانحراف في اوضاع الدولة من ناحية اخرى ، مما مكنه من المقارنة والنقد ، حتى وضع يديه على اسباب الداء وحاول ان يقترح العلاج .

وهكذا نستطيع أن نصنف جهود المقرئ في علاج التاريخ الاقتصادي لمصر في عصر سلاطين المماليك في قسمين : القسم الاول ينصب على موارد الثروة في مصر - زراعية وصناعية وتجارية وما يرتبط بها من وصف للمؤسسات

الاقتصادية من ناحية ونشاط اقتصادي واسع من ناحية أخرى والقسم الثاني عبارة عن دراسات ناقدة لمظاهر وأسباب عدم الاستقرار الاقتصادي ، الذي اخذت تعاني منه دولة سلاطين المماليك في عصر الممريزي بالذات .

اما عن موارد الثروة في مصر ، فالمعروف عن هذا البلد انه ظل طوال تاريخه يعتمد اعتماداً أساسياً على الزراعة ، وعلى نهر النيل في نشاطه الزراعي ، لذلك نرى الممريزي يركز عند كلامه عن الحياة الاقتصادية في مصر على أهمية نهر النيل ، وماله من مزايا وصفات ، فيقول ان شرب ماء النيل ينسئ الغريب وطنه ، ويذكر بعض الاحاديث النبوية في فضل نهر النيل وبركته ، ويشير الى فيضان نهر النيل وزيادته ، ثم الى المقاييس المقامة عليه لقياس منسوب المياه فيه ، والى الخلدجان التي تخرج من نهر النيل لتحمل الماء فيها « يمينا وشمالا الى البلاد البعيدة عن مجرى النيل » ويوضح ان هذه الخلدجان مرتبطة بمجموعة من الجسور تفتح عندما يفي النيل . وتنتهي زيادته في وقت الفيضان .

وينتقل الممريزي بعد ذلك الى « ذكر نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشا » ويتبع خراج مصر من عهد الى آخر ، حتى بلغ خمسة ملايين دينار في عهد الافضل - ابن امير الجيوش بدر الدين الجمالي - في العصر الفاطمي . وهنا يوضح الممريزي حقيقتين على جانب من الاهمية اولاهما أن كتاب الخراج في مصر كانوا غالبا من النصارى الاقباط لخبرتهم في أمور المحاسبة من جهة ودرايتهم بأوضاع البلاد من جهة أخرى . أما الحقيقة الثانية فهي أن الدورات الزراعية وما يرتبط بها من تحديد مواسم الزراعة ومواقيتها والاجراءات الرسمية وغير الرسمية الخاصة بها ظلت تتم وفق التقويم القبطي - وهو الامر المتعارف عليه بين المزارعين في مصر حتى اليوم نظرا لارتباط هذا التقويم بالشمس وثباته وعدم تعرضه للتغيرات التي يتعرض لها التقويم الهجري المرتبط بالقمر^(٤٨) .

ويوضح الممريزي أن مصر لم تعرف النظام الاقطاعي في حيازة الارض وزراعتها حتى نهاية العصر الفاطمي ، فيقول « واعلم انه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما قبلها من دول أمراء مصر - لعساكر البلاد اقطاعات ، بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية »^(٤٩) ومن الثابت أن صلاح الدين هو أول من طبق هذا النظام في مصر ، فوزع اراضي مصر الى اقطاعات بين الامراء مقابل قيامهم بالخدمة العسكرية واعداد الجند والفرسان اللازمين للقتال ، وبذلك أقام جيشا كبيرا بأقل نفقات ممكنة^(٥٠) .

ويوضح الممريزي حقيقة خطيرة ، هي أن أرض مصر الزراعية صارت كلها في عصر سلاطين المماليك لطبقة الحكام من المماليك انفسهم ، فقسمت الى اربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قرايط ، واختص الامراء بعشرة قرايط ، والاجناد بعشرة قرايط (٥١) على ان زمام الارض فك وعدل أكثر من مرة في عصر سلاطين المماليك ، وهي العملية التي اطلق عليها اسم (الروك) ويشير الممريزي الى الروك الحسامي الذي اجراه السلطان

(٤٨) الممريزي : المواظ والاعتبار ، ج ١ ص ٨٤ (بولاق)

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٨٥

(٥٠) يذكر أبو شامة (كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، ج ٢ ص ١٦) أن صلاح الدين قام سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) باقطاع البلاد والتوزيع بها على الأجناد ،

(٥١) الممريزي : كتاب المواظ والاعتبار ، ج ١ ص ٨٨ (بولاق)

حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) ، والروك الناصري الذي تم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) (٥٢) أما الأمراء المستنون الذين لا يتحملون تبعات الاقطاع ، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحهم بدل الاقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة ، يتناول المقطع نصيبه منها . ويذكر المقرئ انه جاء وقت غدت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة في مصر « عليها اقطاعات الأمراء والأجناد » . (٥٣)

ويتكلم المقرئ عن مال مصر - أي دخلها - فيقسمه الى قسمين : مال خراجي ومال هلالى فالل الخراجي ما يؤخذ مساهمة من الاراضى التي تزرع حبوباً ونخلًا وعنباً وفاكهة ، وما يجبي من الفلاحين على سبيل الهدايا العينية ، مثل الغنم والدجاج والكشك ، وغير ذلك « من طرف الريف » أما المال الهلالى ، فيقصد به المقرئ الضرائب والمكوس غير الشرعية وقال ان « اول من أحدث مالا سوى الخراج بمصر هو أحمد بن محمد بن مدبر ، لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين . . » (٥٤) وقد عرف المال الهلالى في أول الامر بالمرافق والمعاون ولكن كثيرا من الحكام الذين تعاقبوا على مصر رغبوا عن المال الهلالى ، لما فيه من خروج على الشرع ، وتحميل الناس والرعايا أكثر من طاقتهم . ومن هؤلاء أحمد بن طولون الذى اسقط المرافق والمعاون بعد ان بلغت حصيلتها في مصر على عهده مائة الف دينار كل سنة ويمضي المقرئ في هذا البيان الطريف ، فيقول ان الاموال الهلالية اعيدت في ايام الدولة الفاطمية عندما ضعفت الدولة واهتز كيانهما الاقتصادي واشتدت حاجتها الى المال . وظلت هذه الاموال قائمة حتى الغاها صلاح الدين ، وكتب عنه القاضي الفاضل مرسوما بذلك (٥٥)

ومع قيام دولة سلاطين المماليك عاد المال الهلالى الى الظهور تحت اسم « الحقوق والمعاملات » على أن بعض سلاطين المماليك - اعتبارا من الظاهر بيبرس - اتجهوا نحو ابطال هذه المكوس وان كان يبدو ان ابطالها تم تدريجيا ويذكر المقرئ « أن آخر ما أدركنا ابطاله ضمان الاغانى وضمان القرايط في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة على يد الملك الاشرف شعبان ابن حسين » (٥٦) ويشرح المقرئ ضمان الاغانى ، فيصفه انه كان بلاء عظيمًا وانه عبارة عن أخذ مال - او ضريبة - من النساء البغايا ، فاذا دفعت احدها من المال المقرر الى الضامنة ، وسجلت اسمها عندها ، لا يستطيع احد منعها من مزاوله الفاحشة ومن ناحية اخرى ، كان لا يجوز لاحد اقامة فرح باغان دون دفع رسوم معينة لضامنة الاغانى « ومن فعل فرحا باغان او نفس امراته من غير اذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف » أما ضمان القرايط فيعرفه المقرئ بأنه كان يؤخذ من كل من باع ملكا ، عن كل الف درهم عشرون درهما (٥٧) .

اما عن الصناعة ، فيستفاد مما ذكره المقرئ في سياق وصفه لأسواق القاهرة تنوع الصناعات وكثرتها مع جودتها . ومن أهم هذه الصناعات صناعة الشمع الذى كان يباع بسوق الشماعين ، وصناعة المغادن - ومنها الحلوى الدقيقة - مثل

(٥٢) المصدر السابق - نفس الجزء والصفحة .

(٥٣) المصدر السابق (ج ١) ص ٨٨ - ٨٩ ، ١٠٣ - ١١١ (بولاق)

(٥٤) المصدر السابق ، ص ١٠٣

(٥٥) المصدر السابق ، ص ١٠٤

(٥٦) المصدر السابق ، ص ١٠٦

(٥٧) المصدر السابق ، نفس الصفحة

« الخواتيم والفصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك » وكانت تباع في سوق القفصيات حيث كان يضعها الباعة في أقفاص صغار من حديد مشبك ليعاينها المشترون - ويرتبط بالمعادن أيضا صناعة الأسلحة - كالقسي والنشاب والزرديات - وكانت كلها تباع بسوق السلاح . اما المهاميز فكانت تصنع وتباع بسوق المهاميزين . ويقول المقریزی انه ادرك الناس « وهم يتخذون المهماز كله - قاله وسقطه - من الذهب الخالص ، ومن الفضة الخالصة »^(٥٨) هذا عدا سوق الخراطين الذي كانت تصنع وتباع فيه السكاكين ونحوها^(٥٩) .

كذلك انتعشت في مصر في ذلك العصر صناعة التكفيت وهي تطعيم معدن بمعدن آخر . ووجد لهذه الصناعة بالقاهرة سوق كبير هو سوق الكفتين ، وصفه المقریزی ، فقال ان به « عدة حوانيت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم ، وللناس في النحاس المكفت رغبة عظيمة . . فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت . ولا بد ان يكون في شورة العروس دكة نحاس مكفت . والدكة عبارة عن شيء شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والابنوس ، او من خشب مدهون ، وفوق الدكة دست طاسات من نحاس اصفر مكفت بالفضة . . »^(٦٠)

ومثل هذا يقال عن صناعة الجلود ، فقد وصف المقریزی سوق اللجمين بالقاهرة فقال انه كانت تصنع وتباع فيه « آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد ، ويرتبط بها السروج التي كانت تصنع من أصفر وأزرق . اما القضاة ورجال العلم والدين فكانوا يفضلون السروج السود التي تصنع من الجلد البلغاري الاسود » ومن الجلد البلغاري ايضا كانت تصنع الأخفاف الممتازة التي يلبسها السلطان والامراء في اقدمهم^(٦١)

اما صناعة الأخشاب فقد تنوعت ، فمنها ما يرتبط بالابواب والنوافذ ومنابر المساجد ومعظمها كان يحمل بالحفر ، ومنها ما يرتبط بالصناديق والاسرة والخزائن - وكثير منها مطعم بالعاج - وكانت تباع في سوق الصناديقين بالقاهرة^(٦٢)

واشتهرت في مصر عدة مراكز لصناعة المنسوجات والاقمشة ، منها تنيس ودمياط . ويصف المقریزی تنيس في صدر الاسلام بأنها كانت مدينة كبيرة « بها يحاك ثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا ، كما يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لا يدخل فيه من الغزل - سداء ولحمة - غير اوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة عكمة لا تحوج الى تفصيل ولا خياطة . . وليس في الدنيا طراز ثوب كتنان - يبلغ الثوب منه - وهو ساذج بغير ذهب . مائة دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط^(٦٣) » اما الثياب المصنوعة في الاسكندرية فقد وصفها المقریزی بأن « لا نظير لها ، وتحمل الى أقطار

(٥٨) المقریزی : المواظ ، ج ٢ ص ٩٦ - ٩٧ (بولاق)

(٥٩) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٣

(٦٠) المصدر السابق ، ص ١٠٥

(٦١) المصدر السابق ، ص ٩٨

(٦٢) المصدر السابق ، ص ١٠٢

(٦٣) المقریزی : المواظ ج ١ ص ١٧٦ (بولاق)

الأرض» (٦٤) وتشهد أسماء بعض الأسواق في عصر المقرئ - كسوق الجوخيين وسوق الشرابيين ، وسوق الحريرين وسوق الفرايين . . على نشاط وتجارة الأقمشة وما يرتبط بها من ملابس وفراء واجواخ (٦٥)

وهناك صناعات أخرى غذائية متفاوتة الأهمية ، أشار إليها المقرئ ضمن تتبعه للنشاط الاقتصادي في مصر ، ولعل أهم هذه الصناعات صناعة السكر . يذكر المقرئ أنه كان في سمهود سبعة عشر معصرة لعصير القصب كما كان في ملوى عدة معاصر (٦٦) وكان يرتبط بهذه المعاصر - التي انتشرت في كافة أنحاء البلاد - مطابخ لصناعة السكر الذي اشتد الإقبال على استهلاكه نتيجة لحياة الترف التي اشتهرت بها مصر في تلك العصور . ولا أدل على كثرة استهلاك السكر لعمل الحلوى عندئذ ، مما ذكره المقرئ من أن استهلاك السكر على أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بلغ في شهر رمضان وحده - من عام ٧٤٥ هـ - ثلاثة آلاف قنطار ، قيمتها ثلاثون ألف دينار منها ستون قنطارا كل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية (٦٧)

ومهما يكن للزراعة والصناعة من شأن في الحياة الاقتصادية في مصر على عصر سلاطين المماليك ، فإنه مما لا شك فيه أن التجارة كانت المصدر الأول للثراء الكبير الذي اتصف به ذلك العصر ، والذي مكن سلاطين المماليك من تحقيق مشاريعهم الكبرى في الخارج والداخل . ويشير المقرئ - بين ثنايا كتاباته - إلى مدى عناية سلاطين المماليك بتشجيع التجارة عن طريق تأمين الطرق ، وتوفير السلامة للتجار ، وإقامة المؤسسات التجارية في المدن لينزل فيها التجار الوافدون على البلاد ، ويباشرون منها نشاطهم ومعاملاتهم التجارية . من ذلك ما يذكره المقرئ عن تودد السلطان المنصور قلاوون إلى القوى الإسلامية في حوض البحر الأحمر - مثل ملوك اليمن وأمراء الحجاز - وإكرامهم وإرسال الهدايا إليهم ، ليسهلوا مرور التجار ببضائعهم إلى مصر . (٦٨) هذا بالإضافة إلى ما يذكره المقرئ عن حرص سلاطين المماليك على سلامة طرق التجارة وتأمينها حتى أنه عندما اشتد القتال في صحراء عيذاب بين عرب جهينة وعرب رفاعة ، وأدرك السلطان المنصور قلاوون ما يترتب على ذلك من تهديد لأمن القوافل التجارية المتجهة من عيذاب إلى وادي نهر النيل ، أصدر السلطان أوامره إلى الشريف علم الدين صاحب سواكن « بأن يوفق بينهم ولا يعين طائفة على أخرى ، خوفا من فساد الطريق » (٦٩) .

وهناك إشارات عديدة في مختلف مؤلفات المقرئ توضح دور مصر في التجارة العالمية ، وأما كانت مقصد التجار من الشرق والغرب . من ذلك ما يقوله من أن تجار الهند واليمن والحبشة كانوا يردون في البحر إلى عيذاب ، ثم يسلكون صحراء مصر الشرقية إلى قوص ، ومنها يتجهون في النيل إلى القاهرة يحملون أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو

(٦٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٣

(٦٥) المقرئ : المواظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٩٨ - ١٠٣

(٦٦) المقرئ : المواظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤

(٦٧) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣١ (بولاق)

(٦٨) المقرئ : كتاب السلوك لمرقة دول الملوك ج ١ ص ٥٨١ ، ٧٠٢

(٦٩) نفس المصدر والجزء - ص ٧٠٠

ذلك^(٧٠) ويبدو أن طريق عيذاب - قوص أهمل بعد طرد الصليبيين من الشام وزوال خطرهم عن شمال البحر الأحمر ، فصارت المتاجر تأتي في البحر الأحمر إلى القلزم ، ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة . أما من ناحية الجنوب ، فكان ثغر مصر الرئيسي على النيل مدينة اسوان التي قال عنها المقرئى أن « بها تجارات وبضائع تحمل منها إلى النوبة »^(٧١) على أن ثغر اسوان لم يكن باب مصر الوحيد على إفريقية في ذلك العصر وإنما كانت هناك نسبة كبيرة من تجارة مصر مع غرب إفريقية وبلاد السودان الغربى وإفريقية الوسطى ، تصل إلى مصر بالقوافل عن طريق الصحراء الغربية إلى قوص أو إلى الجيزة ، وهناك طريق شهير كان يسلكه الحجاج والتجار من بلاد السودان الغربى إلى مصر - هو طريق غات - يبدأ من مدينة غات في حوض نهر النيجر ، وينتهى عند الأهرام بالجيزة . وقد عرف تجار تلك الجهات باسم الكارم أو الكارمية نسبة إلى مملكة الكارم ، كما عرفوا باسم التكرور نسبة إلى مملكة التكرور ، وهما من ممالك السودان الغربى الإسلامية ، في ذلك العصر^(٧٢) وكان هؤلاء التجار يجلبون إلى دولة سلاطين الممالك بضاعة من أخطر البضائع التي قامت عليها عظمة دولة الممالك واستمدوا منها ثروتهم ، وهى التوابل والفلفل والبحار والبخور والقرنفل . . وكلها أصناف اشتد تهافت الأوروبيين عليها ، ودفع فيها التجار الغربيون الائتمان المرتفعة^(٧٣) . يقول المقرئى « كان تجار الكارم بمصر حينئذ في عدة وافرة ، ولهم أموال عظيمة » ، كذلك أشار المقرئى إلى أن سلاطين الممالك كانوا يقتربون المال منهم أحيانا ، إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك^(٧٤) ، ولا أدل على ازدياد - حجم جالية التكرارة بمصر من أنهم ابنتوا مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق ، غدت مركزا لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور ، ويذكر المقرئى أن الأخيرين من أثرياء التكرارة اعتادوا أن يبعثوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات^(٧٥) .

ومن ناحية أخرى ، فإن بعض التكرارة في مصر كانوا على درجة شديدة من الفقر وهؤلاء حظوا بعطف سلاطين الممالك ، حتى أن المقرئى ذكر أن الملك السعيد بركة خان - ابن السلطان الظاهر بيبرس « عمل للتكرارة خوانا حضره كثير من أهل الخير »^(٧٦) .

أما تجارة مصر مع أوروبا ودول حوض البحر المتوسط ، فكانت أهم ثغورها دمياط والاسكندرية . وقد ظلت دمياط ميناء مصر الأول على البحر المتوسط - أو بحر الروم - طوال الشطر الأول من العصور الوسطى ، الأمر الذي عرضها لعدة هجمات صليبية ، وبخاصة بعد طرد الصليبيين من الشام . ويذكر المقرئى أنه بعد حملة لويس التاسع على

(٧٠) المقرئى : المواظ ، ج ١ ص ٣٠٢

(٧١) المقرئى : المواظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٩٧

(٧٢) ونرجح أن تكون تسمية ساحل مصر على النيل باسم بولاق التكرور نسبة إلى تجار التكرور الذين كانت ترد بضائعهم من قوص عن طريق نهر النيل إلى ساحل بولاق (انظر : سعيد عاشور : العصر المالكي ص ٣٠٢) ويذكر المقرئى .

(كتاب السلوك ج ٢ ص ٣٢٦) أن ساحل بولاق كان يعرف باسم منية بولاق ثم عرف ببولاق التكروري بعد أن نزل هناك الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري ، وكان يعتقد فيه الخير .

(٧٣) انظر ترجمة التاجر الكارمي عز الدين عبد العزيز بن منصور الكوطى ، المتوفى سنة ٧١٣ هـ (المقرئى : كتاب السلوك ج ٢ ، حوادث سنة ٧١٣ هـ ، ص ١٣٢)

(٧٤) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ١٠٣

(٧٥) المقرئى : المواظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣٦٥ (بولاق)

(٧٦) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٤٩

مصر - وهي الحملة التي انتهت بسقوط الدولة الايوبية وقيام دولة سلاطين المماليك في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) - « اتفق أرباب الدولة بمصر - وهم المماليك البحرية - على تخريب مدينة دمياط ، خوفا من مسير الفرنج اليها مرة اخرى ، فسيروا اليها الحجارين والفعلة ، فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان واربعين وستمائة ، حتى خربت كلها ومحييت آثارها » (٧٧) وقد شيدت مدينة دمياط الجديدة في الداخل - بعيدة عن شاطئ البحر - فتقف المراكب التجارية بحدائقها « وينقل ما فيها من البضائع في مراكب نيلية تعرف عند أهل دمياط بالجروم ، واحداها جرم » (٧٨) . ويبدو أن هذا الاجراء لم يؤثر في مكانة دمياط التجارية فاستمرت تقصدها سفن التجار الاوربيين ، ووجدت بها جاليات كبيرة لهم ، حتى أخذت الاسكندرية تحمل محلها تدريجيا ، لتصبح في القرن التالي ميناء مصر الاول على البحر المتوسط . وقد زار المقرئ دمياط وأعجب بمنشأتها ، وقال ان دمياط الجديدة المستحدثة « صارت بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد ، ودورها تشرف على النيل الاعظم ، ومن ورائها البساتين . وهي احسن بلاد الله منظرا » (٧٩) .

واما الاسكندرية فقد وصفها المقرئ بأنها « من أعظم مدائن الدنيا ، وأفاض في سرد تاريخها القديم منذ الاسكندر الاكبر . وقد ازدادت مكانة الاسكندرية التجارية في القرن الثامن الهجري - الرابع عشر للميلاد - مما عرضها للحملة الضليبية التي شنّها عليها بطرس لوزجنان ملك قبرص سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) . ومع ذلك فان هذه الحملة لم تؤثر في مكانة الاسكندرية ، بل على العكس ضاعفت من عناية سلاطين المماليك بها وتحولت الى نيابة يحكمها نائب عن السلطان بعد أن كانت ولاية على رأسها وال . وعلى أيام المقرئ في القرن التاسع الهجري - الخامس عشر للميلاد - شهدت الاسكندرية أزهى أيامها بسبب رواج تجارتها ، وصارت تقصدها سفن التجار البنادقة والجنوية والبيازنة وغيرهم . (٨٠) .

وقد فضل التجار الاوربيون الإقامة في المدن التجارية والثغور ، حيث كان لكل جالية اجنية قنصل يشرف على مصالح افراد الجالية ، كما اتخذت كل جالية لنفسها فندقا ينزل فيه افراد الجالية . وتمتع التجار الاوربيون داخل فنادقهم بقدر كبير من الحرية ، فسمحت لهم حكومة دولة سلاطين المماليك باستحضار الخمر اللازمة لاستهلاكهم وانزالها في فنادقهم ، بعد دفع الضرائب الجمركية المستحقة عليها . ويبدو أن التجار الاوربيين أسرفوا في استحضار الخمر ، اذ يروي المقرئ أن السلطان الصالح اسماعيل حاول منعهم من احضار الخمر الى ثغر الاسكندرية . ولكن حاكم الثغر اعترض على هذه الفكرة وقال ان الضرائب التي تحصل في السنة من تلك الخمر تبلغ اربعين الف دينار (٨١) .

هذا عن التجارة الخارجية ، اما التجارة الداخلية ، في ضوء كتابات المقرئ ، فمن الواضح انها انتعشت في عصر سلاطين المماليك لا رتباطها بالتجارة الخارجية ، من ناحية وبمحالة الرواج الاقتصادي الذي شهدته البلاد في عصر

(٧٧) المقرئ : المواقف والاعتبار ، ج ١ ص ٢٢٣ (بولاق)

(٧٨) المصدر السابق - نفس الجزء والطبعة - ص ٢٢٤

(٧٩) نفس المصدر والجزء والطبعة .

(٨٠) سعيد حافور : العصر المماليكي ، ص ٢٧٧ وما بعدها

(٨١) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٦٩٤

سلاطين المماليك من ناحية أخرى . وتشهد على ذلك كثرة الاسواق والقياسر التي عددها المقريري ووصفها اوصافا تنم عن الانتعاش والازدهار والرواج الذي صار مضرب الامثال . ويكاد المقريري لا يذكر مدينة كبرى من مدن مصر الا ويشيد بأسواقها العامرة . فاذا تعرض المقريري لاسواق القاهرة ، أسهب في تعدادها ، وأفاض في وصفها ، معبرا ليس فقط عن تاريخ كل سوق بل أيضا عن ما رآه بنفسه بوصفه شاهد عيان .

من ذلك ما يقوله المقريري في وصف شوف القصبه « وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت ، غاصة بأنواع المأكّل والمشارب والامتنعة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الانواع ، فضلا عن احصاء ما فيها من الاشخاص »^(٨٢) وإذا تكلم المقريري عن القياسر ، اشار الى جمال بنائها ، وكثرة ما فيها من حوانيت وتنوع ما فيها من بضائع^(٨٣) اما الفواكه على اختلاف أنواعها - سواء المحلية او الواردة من بلاد الشام ، فقد خصص لها فندق دار التفاح - تجاه باب زويلة - وبه « عدة حوانيت تباع فيها الفاكهة ، تذكر رؤيتها وشم عرقها الجنة ، لطيب وحسن منظرها وتأنق الباعة في تنضيدتها واحتفافها بالربا حين والازهار ، وما بين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل الى الفواكه حر الشمس . . . »^(٨٤) وقد شيدت للتجار المسلمين الوافدين من خارج البلاد الوكالات والخانات لينزلوا فيها ومعهم بضائعهم واموالهم تحفظ فيها ، حتى ينجزوا معاملاتهم .

ومن أشهر هذه الوكالات في عصر المقريري وكالة قوصون ، التي يقول فيها « هذه الوكالة في معنى الفنادق والخانات ، ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس والفسق والجوز واللوز والخرنوب والرب ونحو ذلك . وقد أدركنا هذه الوكالة . وان رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس ، وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يتاعها . . . »^(٨٥) .

هذه هي بعض الملامح التي نستخلصها من كتابات المقريري عندما يصف النشاط - الاقتصادي ومظاهره في مصر الاسلامية ، وبخاصة في عصر سلاطين المماليك . على أن - المقريري لم يقف عند ذلك الحد ، وانما انتقد كثيرا من الاوضاع الاقتصادية التي لمسه في عصره ، والتي لم يرض عنها واعتبرها مظهرا للتردي وسببا للفساد الذي أخذ يشتري على أيامه . ذلك ان المقريري المؤرخ - كما سبق أن أشرنا - عايش فترة انتقال خطيرة في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، فرأى آيات من أمجاد هذه الدولة - سجلها بأمانة وإخلاص - ورأى بذور الخلل ، وقد أخذت تتطرق الى اجهزة الدولة ، وعلى رأسها الجهاز الاقتصادي ، وكان أن حرص على أن يضع يده على الداء ويصف العلاج ، فعبر بأمانة عن أسباب الخلل الاقتصادي ، وانتقد بشدة كثيرا من الاوضاع التي رآها بعينه ولمسه بنفسه .

وإذا كان صدق الحاسة الاقتصادية عند المقريري ، جعله يدرك خطورة العامل الاقتصادي وأهميته في تشكيل حياة

(٨٢) المقريري : المواقظ والاختيار ، ج ٢ ص ٩٤ - ٩٥ (بولاق)

(٨٣) المصدر السابق - نفس الجزء والطبعة - ص ٨٦ وما بعدها

(٨٤) المصدر السابق - نفس الجزء والطبعة - ص ٩٣ وما بعدها

(٨٥) المصدر السابق - نفس الجزء والصفحة

البلاد والعباد ، فان هذه النظرة الثاقبة لم تبد فقط في شتى كتاباته ، وانما بدت أشد ما تكون تركيزا ووضوحا في كتابه « اغاثة الامة بكشف الغمة » ذلك أن المقرئزي دون كتابه هذا من منطلق اقتصادي بحث ، وفي ظل ظروف اقتصادية قاسية ، ومن واقع أزمة خانقة عايشها وقاسى منها ، ودفع فيها ثمنا باهظا ترك أعماق الاثر في نفسيته ووجدانه - ونعني بهذه الازمة المجاعة التي حلت بمصر ، واستمرت بصفة متقطعة بين سنتي ٧٩٦ ، ٨٠٨ للهجرة ، وما صاحبها من انتشار الطاعون في البلاد وهو الوباء الذي ذهب ضحيته آلاف الناس ، ومن جملتهم ابنة المقرئزي ووحيدته ، وهكذا فإن المقرئزي عندما عالج سوء الحالة الاقتصادية في كتابه « اغاثة الامة » ويبحث في أسباب الداء ، وفنش عن الدواء ، انما كان يكتب بأحاسيسه ، ويسجل مارآه بعينه ، وما أحسه بفؤاده ، وليس فقط ما سمعه بأذنيه .

وقد بدأ المقرئزي كتابه هذا^(٨٦) بالإشارة الى ان من أجل نعم الله - عز وجل - على الانسان أن ينير بصيرته ويلهمه العلم والحكمة ، ليبين للناس أسباب ما نزل بهم من محن ، ويعرفهم كيف يكون الخلاص منها . ثم يوضح ذلك فيقول ان المحنة التي سبقت الإشارة اليها ، والتي تحت وطأتها وضع كتابه هذا - طال أمددا - وحل فيها بالناس من أنواع البلاء والعذاب مالا يوصف ، حتى ظن بعضهم أن لا أمل في الخلاص منها . ويصف المقرئزي هؤلاء القناطين بأنهم « بأسباب الحوادث جاهلون ، ومن روح الله آيسون » . ومن هذا المنطلق استهدف المقرئزي من تأليف كتابه « اغاثة الامة » أن يوضح حقيقتين كبيرتين :-

الاولى : « الأسباب التي نشأ منها هذا الامر العظيم ، وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصائب الشنيع » .

والثانية : « ما يزيل هذا الداء ويرفع البلاء » .

ويحاول المقرئزي أن يخفف من وقع الأزمة على معاصريه ، فيوضح أن الانسان كثيرا ما يبالغ في الازمات التي يعاني منها في حاضره ، ويتصورها أثقل وطأة من كوارث الماضي كما يتوهم المستقبل أفضل من الحاضر « فلذلك لا يزال الحاضر أبدا منقوصا حقه مجحودا قدره ، لان القليل من شره يرى كثيرا . . » وبهذه العبارة يضعنا المقرئزي أمام حقيقة كثيرا ما تغيب عنا ، وهي اننا نبالغ في الصعوبات التي نواجهها في حاضرنالانها ملموسة ، ونتصورها أفدح مما تعرض له السابقون في الماضي ، وانه لا يمكن ان يحدث في المستقبل ما يماثلها في قسوتها . ولذا فان الحاضر دائما « منقوصا حقه مجحودا قدره » على حد تعبيره .

ويخلص من ذلك الى أن الأزمة المعاصرة التي دفعته الى الكتابة ليست الأولى من نوعها في تاريخ مصر وأهلها ، وليست بحالة من الأحوال أشد وأقسى من غيرها ، وأن بدت كذلك في نظر المعاصرين . ذلك ان (القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر ، اذ مقاساة اليسير من الشدة اشق على النفس من تذكر الكثير مما سلف منها . .)^(٨٧)

(٨٦) المقرئزي : اغاثة الامة بكشف الغمة - تحقيق الاستاذين المرحوم محمد مصطفى زياذة والمرحوم جمال الدين الشبال - الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧

(٨٧) المصدر السابق ، ص ٦٠

ولكني يبرهن على سلامة وجهة نظره يتتبع الازمات الاقتصادية التي حلت بمصر منذ أقدم العصور ، ويرجع بذلك الى ما قبل طوفان نوح عليه السلام ، ويتدرج الى ان وصل الى الأزمة الطاحنة التي حلت بالبلاد زمن يوسف الصديق عليه السلام . وفي ظل الاسلام حدثت اول أزمة اقتصادية بمصر في سنة سبع وثمانين للهجرة ، ووالي مصر يومئذ هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان - الذي وليها من قبل أبيه الخليفة عبد الملك - « فتشأ به الناس ، لانه أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر » .

ومنذ الفتح العربي الاسلامي لمصر حتى أيام المقيزي نفسه ، عدّد هذا المؤرخ نحو من عشرين أزمة اقتصادية ، تفاوتت في شدتها ، أرجع معظمها الى قصور نهر النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان ، وأرجع القليل منها الى كثرة الاضطرابات ، وتعدد الفتن ، وعدم الاستقرار والأمن بسبب المصادمات بين طوائف الجند والامراء ، وما صاحب ذلك من نهب الاسواق واختلال الاوضاع الاقتصادية^(٨٨) وفي جميع الحالات وصف المقيزي بايجاز ما كان يحدث في تلك الازمات أو الغلوات من ارتفاع في الاسعار ، ونقص في الاقوات ، وما كان يصحب ذلك غالبا من انتشار الطاعون والابوثة الفتاكة ، مما يزيد من وقع البلاء .

ومما يسترعي الانتباه ان المقيزي عندما عدد في كتابه « اغاثة الامة » ما حل بمصر من الغلوات^(٨٩) وما نجم عن هذه الغلوات من محن وأبوثة ، فانه لم يشر الى الوباء الاسود الذي انتشر بمصر سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) وهو وباء عالمي عرف في مصادر تاريخ العصور الوسطى باسم « الموت الاسود » Black Death ويعمل الاستاذان الجليلان اللذان قاما بتحقيق كتاب « اغاثة الامة » ذلك بأن المقيزي قصر بحثه في هذا الكتاب على أخبار الابوثة الناجمة عن أسباب داخلية - قصور النيل وسوء الحكم في مصر - في حين أن وباء سنة ٧٤٩ هـ كان خارجي المصدر ، وفد على البلاد نتيجة العدوى التي زحفت من الشرق الأقصى على امتداد الطرق التجارية المتجهة غربا . واستمر هذا الوباء - الذي اجتاحت الشرق الاوسط واوروبا - نحو من قرنين من الزمان حصد فيهما عددا يتراوح بين ثلث ونصف سكان البلاد التي انتشر فيها^(٩٠) .

ومع ذلك فان المقيزي تعرض لهذا الوباء بالتفصيل في موضع آخر من مؤلفاته ، فقال في كتابه « السلوك المعرفة دول الملوك » عن أثر هذا الوباء^(٩١) « . . . وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة الاف الى خمسة عشرة ألف الى عشرين ألف نفس في كل يوم . . . وكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والاربعون واكثر . . . وعم مع ذلك غلاء الدنيا جميعا . . . »

ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع . وزهد أرباب الاموال في اموالهم وتوقفت الاحوال بالقاهرة

(٨٨) المصدر السابق ، ص ١٣

(٨٩) المصدر السابق ، ص ٧ - ٤١

(٩٠) عن هذا الوباء وانتشاره وأثره انظر :-

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى - الجزء الأول - ص ٥٧٥

(٩١) المقيزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، حوادث سنة ٧٤٩ هـ ، الجزء الثاني ص ٧٧٠ - ٧٨٥

ومصر . وابطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة امام الجنائز وبطلت الافراح والاعراس من بين الناس . . . » وفي ذلك قال بعض الشعراء المعاصرين :-

فهذا يوصي بأولاده	وهذا يسود اخوانه
وهذا يهيئ اشغاله	وهذا يجهز اكفانه
وهذا يصالح اعداءه	وهذا يلاطف جيرانه

وفي تتبعنا للمقرئ وهو يسرد اخبار الازمات الاقتصادية والغلوات التي حلت بمصر نلمح اشارات عابرة بين ثنايا السطور توضح ما كان يتمتع به هذا المؤرخ من حاسة تاريخية مرفهة ، وقدرة على تلمس الظواهر الاقتصادية وتحليلها والربط بينها . فهو لا يقتصر على السرد ، وانما يعلق احيانا بقدر ما يسمح به حجم كتابه الموجز على الاحداث ، مبديا ما يرتبط بها من مؤشرات اقتصادية متنوعة . ومن ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - أن المقرئ أبدى الملاحظات الآتية :-

١ - أن قصور النيل كان يصحبه فورا الغلاء وارتفاع الاسعار ، وكانت أسعار صرف العملة أول ما يتأثر بهذه التطورات . يقول المقرئ في حديثه عن الغلاء الذي حدث سنة ٣٨٧ هـ ما نصه « فارتفعت الاسعار ، ووقفت الاحوال في الصرف ، فان الدراهم المعاملة^(٩٢) كانت تسمى يومئذ بالدراهم المزاييدة والقطع ، فتعنت الناس فيها . وكان صرف الدينار ستة وعشرين درهما منها . فتزايد سعر الدينار الى ان كان في سنة سبع وتسعين كل اربعة وثلاثين درهما بدينار . وارتفع السعر وزاد اضطراب الناس ، وكثر عنتهم في الصرف »

٢ - وكما هي العادة - في كل زمان ومكان - كثيرا ماكان التجار والباعة يستغلون فرصة الغلاء لتحقيق مكاسب ضخمة . من ذلك ما يذكره المقرئ عند وصفه للغلاء الذي حدث سنة ٦٩٦ هـ على عهد السلطان العادل كتبغا « وكثرت ارباح التجار والباعة ، وازدادت فوائدهم ، فكان الواحد من الباعة يستفيد في اليوم المائة والمائتين ويصيب الاقل من السوقه ربحا في اليوم ثلاثين درهما . وكذلك كانت مكاسب أرباب الصنائع ، واكتفوا بذلك ، طول الغلاء . . » ولم يفت المقرئ أن يوضح مدى ما أصاب هؤلاء المستغلين من بلاء أنزله الله بهم - عقوبة لهم - حتى « اصيب جماعة كثيرة ممن ربح في الغلال - من الامراء والجنود وغيرهم في مدة الغلاء ، اما في نفسه بأفة من الآفات ، او باتلاف ماله التلاف الشنيع ، حتى لم ينتفع به . . . »^(٩٣) .

٣ - ان بعض هذه الغلوات بلغ درجة من القسوة والشدة جعلت الناس يأكلون القسطنط والكلاب « حتى قلت الكلاب ، فبيع الكلب ليؤكل بخمسة دنائير » بل يذكر المقرئ ان الحال تزايد احيانا « حتى أكل الناس بعضهم

(٩٢) يقصد بالدراهم المعاملة ما كان منها مضروبا حسب قوانين الدولة القائمة ، متداولاً بين الناس بقيمته الرسمية . انظر كتاب « اهاثة الأمة » للمقرئ ج ١٤ حاشية ٣ .

وكذلك ، القلشنبي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٥ - ٤٦٨ ، dozy : supp. dict arabe

(٩٣) المقرئ : اهاثة الأمة ، ص ٣٦ - ٣٧

بعضاً ، وتحرز الناس ، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ، ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب ، فإذا مر بهم أحد القواها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه واكلوه»^(٩٤) ويقول في وصف غلاء سنة ٥٩٦ هـ « وعدم القوت حتى أكل الناس صفار بني آدم من الجوع فكان الاب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا . والمرأة تاكل ولدها»^(٩٥) ومهما يكن في هذه الاوصاف من مبالغة غير مستساغة ، فانها تشير الى مدى قسوة تلك الازمات .

٤ - لم يفت المقرئ أن يشير الى ان هذه النكبات الاقتصادية التي حلت بالناس منذ أقدم العصور « انما تحدث من آفات سماوية » وان الله سبحانه وتعالى جعلها عقوبة للبشر « اذا خالفوا أمره ، وأتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم»^(٩٦) ويبدو أن هذا التعليل كان بمثابة التفسير الاولي الذي حاول به المعاصرون - حكاما ومحكمين - تعليل المحن التي نزلت بهم . ولذلك كثيرا ما كان الناس في تلك الازمات يعلنون توبتهم ، فيكثرون من الصلاة ، كما يلجأ الحكام الى اصدار الأوامر باراقة الخمر وتحرير تعاطيها في مختلف انحاء البلاد ، اظهارا للتوبة^(٩٧) .

٥ - ولكن الشعب - مع ايمانه بالله وقضائه - لم يعف الحكام من مسئوليتهم ازاء هذه المحن . وكان يحدث في كثير من الحالات أن تنور الرعية^(٩٨) وقد حدث ايام الغلاء سنة ٧٩٨ هـ أن هدد العوام المحتسب ، فاضطر الى الانقطاع في بيته لا يجزؤ على مغادرته خوفا من العوام . وقد تخوف السلاطين من غضبة العوام فلجأ بعضهم عند حدوث غلاء الى الامر بجمع الفقراء وذوي الحاجات وتوزيعهم على الاغنياء والامراء ، بحيث يلتزم كل منهم باطعام عدد معين^(٩٩) وفي الغلاء الذي حدث سنة ٧٧٦ هـ ، أمر السلطان الأشرف شعبان « بجمع الفقراء ، وفرقهم على الامراء ومياسير التجار»^(١٠٠)

ومع أن المقرئ نفسه يؤمن بأن المحن والكوارث الاقتصادية هي « عادة الله تعالى في الخلق ، اذا خالفوا أمره وأتوا محارمه » ومع أنه نص صراحة في كل أزمة من الازمات الاقتصادية أو الغلوات أن السبب الرئيسي في حدوثها هو نقص النيل وعدم وفائه الا انه عند تعليله للأزمة الطاحنة التي عاصرها سنة ٨٠٦ هـ - والتي فيها ألف كتابه « اغاثة الامة » - أرجع حدوث هذه الأزمة الى « ثلاثة أشياء لا رابع لها » على حد تعبيره هي :^(١٠١)

اولا : السبب الاول - ويعتبره المقرئ « اصل الفساد » - هو ولاية الخطط السلطانية والمناصب العامة بالرشوة . ومن هذه المناصب ما هو جليل كالوزارة والقضاء ونيابة الاقاليم وولاية الحسبة ، الامر الذي جعل ولايتها « لكل جاهل

(٩٤) المقرئ : اغاثة الامة ص ٢٤

(٩٥) المقرئ : اغاثة الامة ص ٢٩

(٩٦) المصدر السابق ، ص ٤١

(٩٧) المقرئ : كتاب السلوك ، حوادث ٧٠٩ هـ ، ٧٨١ هـ ، ٨٣١ هـ .

(٩٨) المقرئ : اغاثة الامة ، ص ١١

(٩٩) المقرئ : كتاب السلوك ج ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٣

(١٠٠) المصدر السابق ، حوادث سنة ٧٧٦ هـ ، وكذلك كتاب اغاثة الامة ص ٤٠

(١٠١) المقرئ : اغاثة الامة ، ص ٤٣

ومفسد وظالم وباغ « وكان يكفي أن يتوصل أحد هؤلاء الى بعض رجال حاشية السلطان ويوعده بمال للسلطان على ما يريده من الاعمال ، حتى يتسلم ما كان يؤمله من منصب جليل على وجه السرعة ، وغالباً ما يتولى منصبه الجديد وليس معه من المال ما يؤديه للسلطان وحاشيته وفاء لوعده ، فيضطر الى الاستدانة ، ويمد يده الى اموال الرعية ، ويتعسف في ائصالها بالالتزامات ليحصل على ما يريد . فاذا كان صاحب الوظيفة متولياً عملاً من أعمال الريف ، فانه يثقل كواهل الفلاحين بما يفرضه عليهم من ضيافات سنوية وتقادم جلييلة من الخيول والرقيق وغير ذلك . ثم يمضي المقرئ في شرحه وتعليله ، فيقول انه لما دهم أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم ، اختلت أحوالهم وهجروا الارض « فقلت مجابي البلاد ومتحصلها لقلة ما يزرع بها ، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها ، لشدة الوطأة من الولاة عليهم » (١٠٢)

ثانياً : أما الثاني الذي ذكره المقرئ لهذه الازمة التي عاصرها سنة ٨٠٦ هـ فيقول انه غلاء الاطيان . ذلك أن خدم الامراء ووكلائهم « أحبوا مزيد القرية منهم ، ولا وسيلة أقرب اليهم من المال » فاستحضروا مستأجري اراضي الامراء من الفلاحين وضاعفوا عليهم قيمة الايجارات عاما بعد عام ، حتى أن ايجار الفدان - بعد حوادث هذه الازمة - صار عشرة أمثال ما كان عليه قبلها . وهكذا تضاعفت تكاليف الزراعة في الوقت الذي اشتدت - وطأة الامراء وأصحاب الاقطاعات على « أهل الفلح وكثرت المغارم في عمل الجسور وغيرها فخرّب بما ذكرنا معظم القرى ، وتعطلت أكثر الاراضي من الزراعة . فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الارض ، لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب »

ثالثاً : أما السبب الثالث والاخير الذي علل به المقرئ حدوث تلك الازمة ، فهو رواج الفلوس . ويعني بالفلوس هنا العملة النحاسية الصغيرة التي كثر استخدامها في ذلك العصر ، حتى طغت على غيرها من الدينار الذهبية والدرهم الفضية . يقول المقرئ ان « سنة الله في خلقه وعاداته المستمرة منذ كانت الخليقة الى ان حدثت هذه الحوادث » هي أن يكون الذهب والفضة فقط قاعدة التعامل بين الناس . وبعد دراسة مفصلة يأتي بها المقرئ عن أصل النقود وتطورها قبل الاسلام . وفي ظل الاسلام (١٠٣) يختص مصر بفصل خاص ، يستهله بالقول بأن الذهب (١٠٤) ظل قاعدة التعامل الاقتصادي في مصر « وسائر دولها جاهلية واسلاماً » واما الفضة فكانت تستخدم في مصر حلياً وأواني ، وقد يضرب منها الشيء القليل للمعاملات اليومية المحدودة التي تحتاج اليها البيوت وقد تزايد امر الدرهم الفضية منذ أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، ومنذ ذلك الوقت ضربت الفضة نقوداً في مصر ، وازداد تداول الدرهم الفضية . وهكذا - حتى كان عهد السلطان الكامل محمد الايوبي ، فضرِب سنة ٦٢٢ هـ دراهم مستديرة اطلق عليها اسم الكاملية - ثلثها فضة والثلث نحاس . ولم تلبث هذه الدراهم ان حلت محل الذهب في التعامل ، وانتشر استعمالها في مصر والشام بقية العصر الايوبي ، ثم في عصر المماليك « وصارت المبيعات الجليلة تباع وتقوم بها واليها تنسب عامة اثمان المبيعات وقيم الاعمال ، وبها يؤخذ خراج الارضين وأجرة المساكن وغير ذلك . . » (١٠٥)

(١٠٢) المصدر السابق ، ص ٤٣ - ٤٤

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٧٤ - ٦٢

(١٠٤) المصدر السابق ، ص ٦٢

(١٠٥) المصدر السابق ، ص ٦٥

وأما الفلوس النحاسية فيذكر المقرئ أنها خصصت للمحقرات من الأشياء ، أي للتعامل في الأشياء التافهة التي لا تسمح في قيمتها إلى أن تباع بدرهم أو بجزء منه . وقد كثر ضرب الفلوس منذ أيام الكامل الأيوبي ، بحيث كان الدرهم الكامل يصرف بثمانية وأربعين فلسا . ومع تنابع الأزمات ، أكثر سلاطين المماليك من ضرب الفلوس ، فكثر وخف وزنها حتى صار التعامل بها منذ سنة ٦٩٥ هـ يتم بالميزان ، بحيث يكون الرطل منها بدرهمين « وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزنا لا عددا » (١٠٦) .

وهكذا حتى كانت أيام السلطان الظاهر برقوق . فأكثر من ضرب الفلوس النحاسية « وبعث إلى بلاد الفرنجة لجلب النحاس الأحمر » لضررها ، واتخذ الاسكندرية دار ضرب لعمل الفلوس ، « فكثر الفلوس بأيدي الناس كثرة بالغة ، وراجت رواجاً صارت من أجله هي النقد الغالب في البلد » .

هذه هي الأسباب الثلاثة التي علل بها المقرئ للأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها مصر سنة ٨٠٦ هـ ، والتي دون كتابه « اغاثة الأمة » تحت وطأتها . وتحليل الأسباب التي ذكرها المقرئ لتلك الأزمة ، نجد أنه جمع بين أمرين : أولهما الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد سنة ٨٠٦ هـ ، وهذه حدثت مثل غيرها من « الغلوات » السابقة بسبب قصور النيل . يقول المقرئ ما نصه « قصر مد النيل في سنة ست وثمانمائة ، فشنع الأمر ، وارتفعت الأسعار ، حتى تجاوزت أرباب القمح أربع مائة درهم ، وسرى ذلك في كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس . وتزايدت أجر الأجراء - كالبناء والقلة وأرباب الصنائع والمهن - تزايداً لم يسمع بمثله فيما يقرب من هذا الزمن » أما الأمر الثاني فهو اختلال أوضاع الدولة إدارياً واقتصادياً ، الأمر الذي جعل الأزمة لا تنفج رغم زوال سببها الطبيعي المرتبط بنهر النيل .

ففي سنة ٧٠٧ هـ « جاء الغوث من عند الله تعالى ، فكثر زيادة النيل ، وعم النفع به الأقليم » ومع ذلك فإن الأوضاع ظلت سيئة على ما هي عليه ، مما جعل المقرئ يقول « ونحن الآن في أوائل سنة ثمان وثمانمائة ، والامر فيها من اختلاف النقود ، وقلة ما يحتاج إليه ، وسوء التدبير ، وفساد الرأي في غاية لا مرمى وراءها من عظيم البلاد وشنيع الامر » (١٠٧) .

والواقع أنه إذا كان قصور نهر النيل هو السبب الرئيسي في الغلوات ، والأزمات التي تعرضت لها مصر في عصر سلاطين المماليك - وقبل عصر سلاطين المماليك - إلا أننا في ضوء كتابات المقرئ نلمس أسباباً أخرى أخذت تبدو في أفق القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد - أي على عصر المقرئ نفسه - أدت إلى ارتباط اقتصاد البلاد وازدياد الغلاء . وهذه هي الأسباب التي ذكرها المقرئ ، واعتبرها أس الفساد وأصل البلاء .

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ٧٠

(١٠٧) المقرئ : اغاثة الأمة ، ص ٤٢ - ٤٣

وهنا ينبغي أن نشير إلى الفارق الواضح بين السبب الطبيعي المرتبط بقصور النيل والذي كثيرا ما ترتبت عليه أزمات طاحنة - وبين الأسباب الأخرى التي فسر بها المقرئ سوء أوضاع البلاد والعباد سنة ٨٠٨ هـ . فالجانب الأول المرتبط بقصور النيل - مع قسوته وشدته وخطورة آثاره - يشكل سببا طارئا مؤقتا لا يلبث أن يزول بعد عام أو أكثر بارتفاع منسوب المياه في نهر النيل ، وعندئذ يعود الرخاء ، وتعود الحياة الاقتصادية - وغير الاقتصادية - إلى طبيعتها بالتدريج .

أما الأسباب الثلاثة التي ذكرها المقرئ ، وفسر في ضوءها سوء الأوضاع سنة ٨٠٨ هـ فترجع في جوهرها إلى الفساد الذي أخذ يدب في جسم الدولة بعد أن انحل نظامها وفقدت اتزانها ودبت الشيخوخة المبكرة في جسمها .

ولم تغب هذه الفوارق بين الجانبين عن المقرئ ، فيقول في مقدمة كتابه « اغاثة الامة » ما نصه « ويعد ، فانه لما طال أمد هذا البلاء المبين - يعني أزمة ٨٠٦ - ٨٠٨ هـ وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المهين ، ظن كثير من الناس ان هذه المحن لم يكن فيها مضى مثلها ، ولا مر على زمن شبهها . . . ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته ، وعرفه من أوله إلى غايته ، علم أن ما بالناس سوى تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد ، لا أنه كما مر من الغلوات وانقضى من السنوات المهلكات ، الا أن ذلك يحتاج إلى إيضاح وبيان ويقتضي إلى شرح وتبيان » (١٠٨) .

وهكذا ، فإن المقرئ عندما يتخذ لكتابه عنوان « اغاثة الامة بكشف الغمة » فانما يقصد بالغمة أزمة ٨٠٦ - ٨٠٨ هـ . وعندما يحرص على سرد أخبار الغلوات ، والازمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر منذ فجر التاريخ ، فانه يفعل ذلك لإثبات حقيقة كبرى سيطرت على فكره وسعي لإثباتها ، هي أن أزمة ٨٠٦ - ٨٠٨ هـ تختلف في أسبابها الجوهرية عن الأزمات السابقة . فاذا كانت الازمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر منذ أقدم العصور ترتبط أساسا بقصور النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان فان أزمة ٨٠٦ - ٨٠٨ هـ . في نظره ليست الا نتيجة لسبب رئيسي هو « سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح البلاد والعباد » .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن المقرئ عاصر فترة انتقال خطيرة في دولة سلاطين المماليك ، انتقال من المجد والسؤدد والنظام والانضباط والانتعاش الاقتصادي ، إلى وضع آخر - كثيرا ما يصاحب الدول في خريف عمرها - ويتصف بالفساد والخلل الإداري والاقتصادي ، والتفكك الاجتماعي والخلقي . وقد انتقد المقرئ في كتاباته ما صار إليه نظام المماليك في أيامه من انحلال ، بعد أن انعدمت بينهم روح النظام والطاعة التي ميزت أسلافهم ، وحلت محلها روح التمرد والعصيان « فاستطار شرهم ، وتعدوا في العتو طورهم ، حتى خافهم أعيان أهل الدولة . . . » (١٠٩) وبعد أن كان المماليك في أوائل دولتهم مضرب المثل في الانضباط وحسن النظام والطاعة ، صاروا على أيام المقرئ مصدر الفوضى وسوء النظام ، وصاروا ينتشرون في الطرقات والاسواق لنهب الحوانيت ، وخطف العمائم ، وانتزاع الخيول

(١٠٨) المصدر السابق ، ص ٣ - ٤

(١٠٩) المقرئ : كتاب السلوك - الجزء الرابع - حوادث سنة ٨٣٣ هـ

من اصحابها . بل كانوا أحيانا يهجمون على النساء في بيوتهم وفي الحمامات فيخطفونهن^(١١٠) . وقد بلغ حنق المقرئزي على ما صار اليه أمر الماليك في أيامه من فوضى وسوء خلق ونظام ، انه لم يتمالك نفسه فوصفهم بأنهم « ليس فيهم الا من هو أزنى من قرد ، وألص من فاره ، وأفسد من ذئب »^(١١١) .

ومن هذا المنطلق علل المقرئزي سوء الاحوال الاقتصادية بمصر سنة ٨٠٨ هـ . فأرجع أصل الفساد الى عدم كفاية القائمين على شئون الدولة ، والمتولين لشئ وظائفها الكبرى ، لان غالبيتهم تولى منصبه عن طريق الرشوة ، ولذا لم تتوافر فيهم الأهلية والكفاية . بل ان وظائف الدولة صارت « مثل الأموال المملوكة يبيعها صاحبها اذا شاء ويرثها بعده صغار ولده ، وسرى ذلك حتى في التداريس الجليلة وفي نظر الجوامع والمدارس ومشیخة التصوف . فيانفس جدي ان دهرک هازل »^(١١٢) .

ثم ان المقرئزي انتهر فرصة تدوين حولياته الكبرى المعروفة باسم « كتاب السلوك » للتيان بأمثلة واقعية تثبت ماردده من آراء في كتابه « اغاثة الأمة » عن عدم كفاية القائمين على شئون الدولة . من ذلك أنه أشار في حوادث سنة ٨٠٨ هـ الى أن الوظائف العامة صار يلها غير أهلها عن طريق الرشوة ودفع الأموال ، حتى أن أحد باعة السكر استقر في وظيفة حسبة مصر « فكان هذا من أشنع القبائح واقبح الشناعات !! »^(١١٣) ويؤكد المقرئزي هذا المعنى مرة أخرى في سرده لحوادث سنة ٨٣٥ هـ عندما يقول « غير أن الكفاءة غير معتبرة في زماننا ، بحيث أن بعض السوقة ممن نعرفه ولى كتابة السر بحماه على مال قام به . . »^(١١٤) ويلقي المقرئزي بمسئولية هذا كله على القائمين على أمر الدولة ، لأنهم لا يلتزمون بقرار « فتزايدت المضرة لكثرة التناقض وعدم الثبات على الأمر ، واستخفاف العامة براعيها وقلة الاهتبال بما يرسم »^(١١٥)

وينتقل المقرئزي - كما رأينا - الى سوء أوضاع الريف في مصر ، لكثرة المظالم المتنوعة التي حلت بالفلاحين في ظل النظام الاقطاعي ، وهو النظام الذي طبقه الماليك في مصر بروح استغلالية متطرفة . ولم يقتصر الأمر على رفع قيمة ايجارات الاراضي الزراعية ، بل تعدى ذلك الى تسخير الفلاحين في كثير من الاعمال دون أجر ، وجمع أموال اضافية منهم « غير العادة اضعافا »^(١١٦) وعند وصول المشد - المكلف بجمع الاموال الى القرية ، توزع نفقات اقامته على الفلاحين من حيث الأكل والشرب ، وما تحتاج اليه دوابه من عليق ، ويلزم الفلاح بكل ذلك قهرا ، مهما يبلغ فقره . وربما هرب الفلاح لضيق ذات يده ، فتلزم زوجته واولاده بالمطلوب ، وتضطر الى بيع ما لديها لشراء ما يلزم المشد من

(١١٠) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ١٦٤ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٤١٥ ، سعيد عاشور : المصري ص ٨٨ ، ٨٩

(١١١) المقرئزي : المواظ والاعتبار ، ج ٣ ص ٣٤٨ (الطبعة الأهلية)

(١١٢) المقرئزي : كتاب السلوك - الجزء الرابع

(١١٣) المقرئزي : كتاب السلوك - الجزء الرابع - حوادث سنة ٨٠٨ هـ

(١١٤) المصدر السابق - نفس الجزء - حوادث سنة ٨٣٥ هـ

(١١٥) المصدر السابق - نفس الجزء - حوادث سنة ٨٣٤ هـ

(١١٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٣٠٢

دجاج ولحم^(١١٧) وهكذا عاش الفلاحون في عصر سلاطين المماليك « في حال من المغارم معروفة » على حد قول المقرئزي^(١١٨) . وقد أدرك المقرئزي ريف مصر وأهله على حال من الفقر والحرمان لا يعرفون النقود ، فيشترون الكثير من حوائجهم ببعض الدجاج وبنخال الدقيق ، لان « الغلال معظمها لأهل الدولة ، اولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغباتهم ، فخرّب معظم القرى لموت اكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد^(١١٩) » وبلغ الأمر من سوء معاملة الفلاحين في ذلك العصر أنه كان لا يسمح لأحدهم بأن يلبس مئزرا أسود أو يركب فرسا ، أو يتقلد سيفاً ، أو الهجرة من الريف ويخاصة الى القاهرة ، حتى نودي سنة ٨٢٧ هـ . « بخروج أهل الريف من القاهرة ومصر الى بلادهم فلم يعمل بذلك »^(١٢٠) .

وأخيراً يأتي المقرئزي بالسبب الثالث الذي علل به للخلل الاقتصادي وارتفاع الأسعار سنة ٨٠٨ هـ ، وهو كثرة الفلوس النحاسية ، والاعتماد عليها كنقد أساسي ، واستعمالها في المعاملات المالية الكبرى ، دون الذهب والفضة أو بعبارة أخرى دون الدينار والدرهم . ومهما يقال في الفلوس فهي دون شك عملة رديئة لأنها معدن رخيص ، اذا قورنت بالنقود الذهبية والفضية ، ولذا نستطيع ان نقول ان المقرئزي سبق عالم الاقتصاد الانجليزي جريشام بنحو قرن من الزمان ، عندما أعلن قانونه الشهير بأنه اذا وجدت في السوق عملتان احدهما رديئة والاخرى جيدة ، فان العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق .

ثم أن المقرئزي يتهم الحكام باثارة ظاهرة عدم الاستقرار الاقتصادي في السوق لأنهم أكثروا من زيف النقود المتداولة بين الناس ، كما انهم لم يكتفوا بالاكثار من ضرب الفلوس النحاسية فحسب ، وانما اختلفوا في تقدير وزنها ، فحينما يكون الرطل منها بستة دراهم ، واحيانا باثنى عشر درهما ، وربما صار بدرهمين ونصف . وفي جميع الحالات ارغم التجار والاهالي على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة ، مما اضطر كثيرين من التجار الى حبس بضائعهم تجنباً لبخسها ، ويصحب هذه الحالة ارتفاع الأسعار وارتباك السوق وقلة الخبز^(١٢١) . وبحاسة اقتصادية قوية ، يربط المقرئزي - في كتاب السلوك - بين ارتفاع سعر الذهب من ناحية وارتفاع اثمان البضائع واجور العمال وبيع الاراضي من ناحية أخرى^(١٢٢)

واخيراً فان المقرئزي لم يحصر أفقه الاقتصادي داخل مصر أو داخل دولة سلاطين المماليك ، وانما يحرص على أن يربط بين أسعار النقود في مصر وأسعار العملات العالمية الاجنبية . من ذلك أنه يثمن بها الدينار الافرنقي والدينار التركي

(١١٧) سعيد عاشور : المجتمع المصري سلاطين المماليك ، ص ٥٠

(١١٨) المقرئزي : كتاب السلوك ج ٤ ص ٤٦٩

(١١٩) المقرئزي : اغالة الأمة ص ٣٦ - ٤٦

(١٢٠) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٤٦

(١٢١) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٢٧ هـ .

(١٢٢) المقرئزي : اغالة الأمة : ص ٤٧ وما بعدها ، كتاب السلوك ج ٢ ص ١٧ ، سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ٨٨

(١٢٣) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٠٩ هـ

والدينار المغربي ، كما أنه يقارن بين الدينارين السابق سكها في مصر كالدينار الناصري والدينار السالمي ، ويتعرض خلال ذلك الى ما دخل على كل عملة من غش وزيف^(١٢٤) بل انه يحرص في حوادث سنة ٨١٨ هـ ، على بيان أصناف الذهب وسعر كل صنف^(١٢٥) .

هذا عن بعض ملامح الجانب الاقتصادي في كتابات المقرئزي . أما الجانب الاجتماعي في كتاباته فلا يقل شأنًا وأهمية . وهنا نلاحظ أنه اذا كان باستطاعة المقرئزي ان يفرد كتابا من كتبه - مثل كتاب « اغاثة الامة » لدراسة الاوضاع والمشاكل الاقتصادية التي عاصرها ، فان الامر يختلف بالنسبة للجانب الاجتماعي . ذلك أنه كان من الصعب على مؤرخ او عالم في تلك العصور أن يتعرض في بحث مستقل لتصميم أوضاع المجتمع ، وهي اوضاع حساسة في ظل التقاليد التي سادت المجتمع عندئذ ، فضلا عن نظرة الناس الى الحياة ومشاكلها من خلال الدين . ولما كانت الاوضاع الاجتماعية مرتبطة في تلك العصور باحكام الدين وآدابه من ناحية ، وبالظروف الاقتصادية من ناحية أخرى ، فاننا نرى بعض العلماء والفقهاء انتقدوا مالمسوه من انحلال اجتماعي من خلال كتاباتهم الفقهية - مثلما فعل ابن الحاج^(١٢٦) ، في حين انتقد البعض الآخر سوء أوضاع المجتمع من خلال سرده التاريخي او معالجته للجوانب الاقتصادية ، مثلما فعل المقرئزي .

على أنه لا يقلل من قيمة الملاحظات الاجتماعية التي ابداهها المقرئزي انها جاءت متناثرة بين ثنايا كتاباته الاخرى - سياسة كانت أو اقتصادية أو عمرانية - لان العبرة بعمق النظرة التي نظر بها المقرئزي الى المجتمع ومشاكله ، وروح الأمانة والصدق التي صور بها بعض الاوضاع وانتقد بها البعض الآخر . حقيقة ان التقاط مثل هذه الملاحظات المتناثرة من مؤلفات المقرئزي عملية ليست بالسهلة ، ولكننا نستطيع بشيء من الجهد والمثابرة أن ننسج من تلك الخيوط صورة واضحة لبعض ملامح الحياة الاجتماعية على عصر المقرئزي .

وقد وضع المقرئزي تقسيما للمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك فقسم أهل مصر - في الجملة - الى سبعة أقسام : أهل الدولة - ويعني بهم المماليك - وأهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوي الرفاهية ، والباة ومتوسطو الحال من التجار ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق وأهل الفلح وهم « الزراعات والحراث وسكان القرى والريف » ، والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة وارباب الصنائع والاجراء أصحاب المهن ، واخيرا ذوو الحاجة والمسكنة وهم « السؤل الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم »^(١٢٧)

ومهما يكن في هذا التقسيم من ثغرات ، فمن الواضح أن المقرئزي أتى به في سياق دراسة اقتصادية ، ولذا فانه حرص على أن يوضح الحالة الاقتصادية لكل شريحة من شرائح المجتمع التي ذكرها . ولا يخفي عنا أن الوضع

(١٢٤) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨١٤ هـ

(١٢٥) المقرئزي السلوك ، ج ٤ ص ٨١٨

(١٢٦) نؤكد في هذا الصدد على أهمية كتاب المدخل - او مدخل الشرع الشريف على المذاهب - لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري ، الشهير بابن الحاج ، المتوفى سنة ٨٣٧ هـ .

وقد تعرض له المؤلف الكثير من الاوضاع الاجتماعية السيئة التي تفتشت في ذلك العصر والتي تعارضت مع أحكام الشرع الشريف (أربعة أجزاء - القاهرة ١٩٢٩)

(١٢٧) المقرئزي : اغاثة الامة ، ص ٧٢ - ٧٣

الاجتماعي يتأثر الى حد كبير بالوضع الاقتصادي وخاصة في تلك العصور التي عاصرها المقرئ وكتب عنها . هذا الى انه في اشاراته المتناثرة ، يأتي بملاحظات اجتماعية طريفة وجديدة ، قد لا نجد لها شبيها في بقية المصادر . فهو في كلامه عن طوائف المماليك يشير الى أصولهم ، ويوضح كيفية جلبهم والقواعد المتبعة في نسبتهم ، ويلقي الأضواء على أسلوب تربيتهم ونشأتهم ، ويفسر الروابط بين المملوك وأستاذه - أي سيده الذي امتلكه وأشرف على تربيته ولم يضمن عليه بعطف أو مال - والعلاقة بين المماليك وبعضهم وبعض ، ومدى ما كانت تتمتع به طبقة المماليك من ثراء ومظاهر هذا الثراء ومصادره . وهكذا حتى نذكر السنوات الاخيرة من حوليات المقرئ فنلمس كثيرا من الاشارات الى تطرق الفساد الى نظام المماليك ، وانحلال أمرهم ، وانعكاس ذلك على أوضاع الدولة^(١٢٨)

ثم ان كتابات المقرئ تزخر باشارات متناثرة توضح علاقة طبقات المجتمع بعضها ببعض من ناحية ، وعلاقتها بالحكام من ناحية اخرى . من ذلك أنه يشير الى ان سلاطين المماليك في مصر حرصوا على احترام العلماء والفقهاء لان بهم عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون^(١٢٩) ويقول ان بعض السلاطين كان اذا دخل عليه عالم أو أحد رجال الدين انتصب له قائما^(١٣٠) وربما حرص بعض السلاطين على أن يشيع عالما توفي فيمشي على قدميه أمام نعشه . وقد يحاول السلطان حمل النعش على كتفه ، فتحمله أكابر الأمراء عنه^(١٣١)

أما التجار ، فصاروا موضع حسد السلاطين وطمعهم ، لما كانوا فيه من ثروة طائلة في ذلك العصر ، فتماذى بعض السلاطين في فرض الرسوم عليهم ، بل ربما في مصادرتهم ، حتى ذكر المقرئ أن بعض التجار «دعوا على أنفسهم أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم»^(١٣٢) وفي بعض الحالات كان السلطان يحتكر صنفا أو يختزنه لبيعه للتجار بأثمان باهظة يفرضها عليهم ، مما يسبب لهم خسارة بالغة ، حتى «اشتد الأمر على التجار لرمي البضائع عليهم بزيادة الأثمان والقيم ، وكثرت المصادر في الولاة وأرباب الأموال»^(١٣٣) . وشتان بين هذا الوضع الذي آل اليه أمر التجار في اواخر عصر سلاطين المماليك ، وبين ما كانوا فيه من تكريم وتشجيع ورعاية في اوائل ذلك العصر .

ويستشف من كتابات المقرئ أن رقيقي الحال - من الفقراء والمعدمين - كانوا دائما أبدا موضع عطف ورعاية بقية قطاعات المجتمع ، فحرص كثير من السلاطين والاثرياء والميسورين على اقامة المؤسسات الخيرية ، ووقف الاوقاف عليها ، لرعاية الفقراء اجتماعيا وصحيا من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس خصص وقف الطرحاء لتغسيل فقراء

(١٢٨) المقرئ : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ ، ٧١٦ وكتاب المواعظ والاعتبار (الطبعة الأهلية) ج ٣ ص ١١٢ ، ١١٧ - ١١٨ ، ٣٤٧ - ٣٤٨ ،

٣٥١ - ٣٥٠ ، ج ٤ ص ٧٨ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(١٢٩) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٣٨٣

(١٣٠) المصدر السابق - نفس الجزء ، ٥٢٣

(١٣١) المصدر السابق نفس الجزء ، ص ٤٤٤ - وانظر ايضا : سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٨ - ٣٤

(١٣٢) المقرئ : السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٤٤

(١٣٣) المقرئ : الحالة الأمة ، ص ٣٨

المسلمين وتكفينهم ودفنهم^(١٣٤). وفي أوقات الشدائد والمحن والغلوات كان الفقراء يوزعون على الأغنياء ، بحيث يلتزم كل غني باطعام عدد معين منهم^(١٣٥)

أما أهل الذمة - وبخاصة أقباط مصر - فيفهم من كتابات المقريري أنهم عاشوا غالبا في طمأنينة ، حتى انه ذكر أديرتهم بالوجه القبلي فبلغ عددها ثمانية وخمسين ديورا ، يحمل النصارى الى رهبانها النذور والقرايين^(١٣٦) . وكان للأقباط في مصر بطرك يخلع عليه السلطان خلعة البطركية^(١٣٧) ، كما أنهم تمسكوا بلغتهم القبطية في محادثاتهم فيما بينهم وبين بعض^(١٣٨) ولم يكن اليهود في مصر أقل حظا في التمتع بحقوقهم ، فاحتفظوا بعوائدهم ونظمهم الموروثة ، كما احتفظوا بمعبدهم التي عددها المقريري^(١٣٩) . ومع ذلك فان المقريري لم يتناس أن اليهود والنصارى جميعا تعرضوا أحيانا في ذلك العصر في فترات محددة - لبعض ألوان الاضطهاد ، لأسباب طارئة مؤقتة ، ذكرها^(١٤٠)

أما الفلاحون ، فيذكر المقريري أنهم عاشوا « في حال من المغارم معروفة »^(١٤١) فوقعوا بين شقى الرحى بين استغلال الحكام وبطش العربان . وقد سبق أن أشرنا الى أوضاع الريف والفلاحين ، أما العربان الذين انتشروا في أقاليم متعددة ، فقد رفضوا في أول الامر الخضوع للمماليك ، ووصفوا سلطانهم - على حد قول المقريري - بأنه « مملوك قد مسه الرق »^(١٤٢) بل لقد تمادى العربان وقالوا « نحن اصحاب البلاد ، ونحن أحق بالملك من المماليك وهم خوارج خرجوا على البلاد »^(١٤٣) ولم يقتصر أذى العربان في ذلك العصر على الريف وأهله ، بل ان المدن الكبرى - مثل اسيوط والاسكندرية - لم تسلم من اغاراتهم وعيبتهم - وعدوانهم على أهلها^(١٤٤) .

ويتعرض المقريري للحياة الاجتماعية في القاهرة والمدن الكبرى ، فيصفها بالعظمة والاتساع وكثرة السكان وتنوعهم ، وكثرة المنازل وضيق دروبها وطرقاتها ، واكتظاظها بالمارة والسوق والدواب^(١٤٥) وأظهر الحكام في ذلك ابوابها ، ويرتب جماعة من الطواف لكشف الازقة وتفقد الطرقات وتأديب المخالفين ، ومن سار بالليل لغير سبب مقبول العصر حرصا شديدا على اقرار الامن في المدن ليلا ونهارا ففي الليل كانت شوارعها وطرقاتها تضاء بالمصابيح وتغلق

(١٣٤) المقريري : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٣٨

(١٣٥) المقريري : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٣

(١٣٦) المقريري : اخبار قبط مصر ، ص ٣٦ - ٥٤ .

(١٣٧) المقريري : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٨٦

(١٣٨) المقريري : اخبار قبط مصر ، ص ٤٣

(١٣٩) المقريري : المواظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٤٦٤ وما بعدها (بولاق)

(١٤٠) المقريري : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٠٩

ذكر دخول قبط مصر ، ص ١٥٨ .

(١٤١) المقريري : كتاب السلوك ، ج ٤ ص ٤٦٩

(١٤٢) المقريري : البيان والاعراب ، ص ٩

(١٤٣) المقريري : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٨٦

(١٤٤) المقريري : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٢٠

(١٤٥) المقريري : المواظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣٧٣ وما بعدها (بولاق)

قبض عليه^(١٤٦) ومن ناحية أخرى ، شدد سلاطين المماليك العناية بنظافة القاهرة وكنس شوارعها ورشها بالماء ، وأمر أرباب الخوانيت بأن تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل اطفاء ما قد يقع من حريق^(١٤٧) .

والمقرئ عندما يعالج ما حفلت به القاهرة من مؤسسات تجارية وغير تجارية ، لا يغفل عن الإشارة الى ما كان لبعض هذه المؤسسات من نشاط اجتماعي ، وما كان يعج به بعضها من تيارات اجتماعية قوية ، ذلك أن المدن الكبرى - وبخاصة القاهرة - زخرت بمؤسسات ذات صفة دينية كالمساجد والخانقوات ، أو ذات صفة تعليمية ثقافية كالمدارس ، أو ذات صفة صحية كالبيمارستانات ، أو ذات صفة تجارية كالخانات والوكالات والفنادق . ولكن هذه المؤسسات على تباين صفاتها لم تخل من نشاط اجتماعي ، وهو ما حرص المقرئ على ايضاحه وبيان ما كان يجري داخلها من تيارات اجتماعية ينعكس صداها على المجتمع الخارجي .

هذا الى ان المقرئ في تصويره للمجتمع المصري ، حرص على أن يؤكد روح المرح والفكاهة التي اتصف بها أهل مصر ، فوصفهم تارة « بالبشاشة التي أربوا فيها على من تقدم وتأخر . وخصّصوا بالافراط فيها دون جميع الامم حتى صار أمرهم في ذلك مشهورا والمثل بهم مضروبا »^(١٤٨) وتارة أخرى ربط المقرئ بين مرح أهل مصر من ناحية وبين شعور اللامبالاة الغالب على بعضهم من ناحية أخرى ، وردد في ذلك عبارة أخذها عن ابن خلدون « قال لي شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى ، أهل مصر كأغما فرغوا من الحساب »^(١٤٩) .

ويضرب المقرئ أمثلة على ذلك بحب أهل مصر للتسلية والخروج الى المتنزهات كالحدائق والبرك وغيرها^(١٥٠) هذا فضلا عن ركوب نهر النيل صيفا في وقت الفيضان واستئجار القوارب والسفن ، واستصحاب المغاني وجوقات العوالم معهم^(١٥١) بل يذكر المقرئ أن صاحب اليمن عندما أقى لزيارة مصر ، حرص على أن يصطحب معه عند عودته الى بلاده سنة ٧٥٥ هـ « كثيرا من الصناع والمساخر وأرباب الملاهي »^(١٥٢) وكثيرا ما كان الناس يتلهون ببعض الألعاب ، مثل تطيير الحمام والمناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك وغيرها^(١٥٣) . ولم يسلم الحكام من نكات المصريين اللاذعة ، فاطلق العوام على امراء المماليك القبا وتسميات تهكمية قارصة . ومن هؤلاء الأمير عز الدين ايغان وقد اطلقوا عليه لقب « سم الموت » والامير سيف الدين ملكنصر الناصري وقد اطلقوا عليه لقب « الدم الاسود » وناصر الدين - متولي حسبة مصر - وقد اطلقوا عليه « فأر السقوف » وغير ذلك^(١٥٤)

(١٤٦) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ١٩

(١٤٧) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٦٦٧ كتاب المواظ ج ٣ ص ١٧٤ (الأهلية)

(١٤٨) المقرئ : المواظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩ (بولاق)

(١٤٩) المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٠ (بولاق)

(١٥٠) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٤٧ (الأهلية)

(١٥١) المقرئ : المواظ ، ج ٣ ص ٢٣٣ ، ٢٤٤ (الأهلية)

(١٥٢) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٣ ، حوادث سنة ٧٥٥ هـ

(١٥٣) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٧٥٤

(١٥٤) المقرئ : كتاب السلوك ج ١ ص ٥٢٣ ، ج ٢ ص ١٤١ ، ص ٦٤٤ . . الخ

وعندما يتكلم المقريري عن قراة مصر والقاهرة ، لا يكتبني بأن يوضح الدور الرئيسي للقراة بوصفها دارا للموق فحسب ، ويتتبع ما أقيم فيها من البيوت والزوايا والمدارس - وغيرها ، بل حرص المقريري على أن يشير الى أن القراة في ذلك العصر شهدت نشاطا اجتماعيا واسعا في حياة الترح وحياة الفرح سواء ، اذ صارت من جملة متنزهات مصر ، وصار البعض يدعون الأهل والأصدقاء اليها حيث يقيمون فيها ولائم صاخبة ، يكثر فيها الغناء والرقص . وربما عم الفساد نتيجة لاختلاط النساء بالرجال» (١٥٥)

ويلمح المقريري - ضمن كتاباته - الى الأفراح العائلية في عصره ، فيرسم صورة لفرح من أفراح القصور والسلاطين ، هو احتفال السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٢ هـ بزواج ابنه الأمير أنوك ، فأمر السلطان : « باحضار جميع من بالقاهرة ومصر من أرباب الملهى الى - الدور السلطانية ، ووقع الشروع في عمل الخوان ، فأقام الميم سبعة أيام بلياليها . . فلما كانت ليلة السابع منه جلس السلطان على باب القصر ، وتقدم الامراء على قدر مراتبهم واحدا بعد واحد ، ومعهم الشموع . فاذا قدم الواحد ما احضره من الشمع قبل الارض وتأخر . وما زال السلطان بمجلسه حتى انقضت تقادهمهم ، فكانت عدتها ثلاثة آلاف شمعة زنتها ثلاثة آلاف وستون قنطارا . . . حتى اذا كان آخر الليل نهض السلطان ، وعبر حيث مجتمع النساء ، فقامت نساء الامراء بأسرهن ، وقبلن الارض واحدة بعد اخرى ، وهي تقدم ما احضرت من التحف الفاخرة والنقود ، حتى انقضت تقادهمهم جميعا . ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن ، فرقصن أيضا واحدة بعد واحدة ، والمغاني تضرب بدفوفهن ، وانواع المال من الذهب والفضة وشقق الحرير يلقي على المغنيات ، فحصل هن ما يجمل وصفه ، ثم زفت العروس . . . فكان هذا العرس من الأعراس المذكورة ، ذبح فيه من الغنم والبقر والخيول والاوز والدجاج ما يزيد على عشرين الفا ، وعمل فيه من السكر برسم الحلوى والمشروب ثمانية عشر الف قنطار» (١٥٦)

ومن العادات الطريفة التي أشار اليها المقريري انه كان يراعى أن يتضمن شوار العروس دكة نحاس مكفت . والدكة عبارة عن شيء يشبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس وفوق الدكة دست طاسات من نحاس اصفر مكفت بالفضة . وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، تبلغ كبرها ما يسع الارذب من القمح . وتبلغ قيمة الدكة ما يزيد على مائتي دينار ذهبا . فاذا كانت العروس من بنات الامراء أو الوزراء أو الاعيان ، فانها تجهز في شوارها بسبع دك (١٥٧) وفي ليلة الدخلة يخرج العريس قاصدا بيت العروس في موكب كبير يحف به الامل والاصدقاء . وهناك في بيت العروس يقام حفل الزفاف الذي تحييه جوق المغاني ، ويختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء من المدعوات اللاتي يحرضن على ارتداء أفخر الملابس والمجوهرات (١٥٨) . وكثيرا ما يتفاخر المدعوون والمدعوات بتقديم النقود الى المغاني وتقديم الهدايا الى اصحاب العرس ، وتكون هذه الهدايا من الشمع والتحف الفاخرة والخراف والسكر والاوز . . . وغيرها (١٥٩)

(١٥٥) المقريري : المواظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٣١٩ (الأهلية)

(١٥٦) المقريري : كتاب السلوك ج ٢ ص ٣٤٣-٣٤٦ (حوادث سنة ٧٣٢ هـ)

(١٥٧) المقريري : المواظ والاعتبار ، ج ٢ ص ١٠٥ (بولاق)

(١٥٨) المقريري : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٤٢٦ ، ٦٠١

(١٥٩) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٠٥-٣٠٦

ومن المناسبات الاجتماعية التي كان يحتفل بها احتفالاً كبيراً في ذلك العصر « النفاس والولادة » فإذا كان المولود ذكراً تضاعف الحفل ، ويقيم أهل المولود وليمة كبيرة يدعي إليها الاصدقاء ، ويبلغ في عمل الوان الطعام الفاخر ، هذا عدا مظاهر التكريم التي تضاعف لام المولود في هذه الحالة^(١٦١) أما ختان الطفل ، فكان يحتفل به - احتفالاً كبيراً - قد يستمر ثلاثة أيام - ولا بد للمدعوين في هذه الحالة من تقديم النقود لاهل الطفل ، ويضعونه في « الطشت الذي يظهر فيه الولد »^(١٦١)

وفي الحياة الاجتماعية التي حفلت بها مصر في عصر سلاطين المماليك ، لم يفت المقرئ أن يشير - من قريب أو بعيد - الى دور المرأة في الحياة العامة . ففي الحياة السياسية يشير المقرئ بين حين وآخر الى تدخل بعض زوجات السلاطين في شؤون الحاكم مثل ست حلق ، زوج السلطان الناصر محمد ، وكان لها دور ملحوظ في شئون الدولة ، وكلمة مسموعة عند السلطان ، حتى ان التجار لجأوا اليها لرفع بعض المظالم عنهم^(١٦٢) . وفي الحياة العلمية يشير المقرئ الى بعض النساء اللاتي اشتغلن بالفقه والحديث ، وشارك بعضهن في الحديث بصحيح البخاري في قلعة الجبل الى جانب الفقهاء^(١٦٣) ويتكلم المقرئ عن التصوف والزوايا والاربطة - فيسهب في الكلام عن دور المرأة في حياة التصوف من ذلك ما يقوله عن رباط البغدادية « وما برح (هذا الرباط) الى وقتنا هذا يعرف سكانه من النساء بالخير ، وله دائماً شبيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن . وآخر من أدركننا فيه الشبيخة الصالحة سيدة نساء زمانها أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية . . »^(١٦٤) ولم يكن دور المرأة في الاسواق والطرقات والحمامات والمتنزهات أقل شأنًا . ويذكر المقرئ ان بعض سلاطين المماليك حاول منع النساء من الخروج الى الطرقات او الذهاب الى المقابر ومواضع النزهة ، ولكن ذلك المنع لم يستمر الا زمناً محدوداً ، يعود بعده الحال الى ما كان عليه^(١٦٥) وربما احترفت « بنات الهوى » الايقاع بالرجال فتخرج الواحدة الى الطريق وقد استكملت زينتها لتستدرج رجلاً الى حيث يتم سلب أمواله وقتله - بأيدي اعوانها^(١٦٦) .

ويستطيع الباحث العثور في كتابات المقرئ على ملاحظات توضح ملابس النساء في عصره . من ذلك ما يقوله من أن النساء كن يستعملن المقانع ، وهي مناديل توضع فوق الرأس والوجه^(١٦٧) . أما غطاء الرأس فكان عبارة عن عصبة تلبسها المرأة بحيث يكون أولها عند جبينها وآخرها مدلى على ظهرها ، وتسمى هذه العصبة « الشاش »^(١٦٨) على أنه مما

(١٦١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٢

(١٦١) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٥١٩ - ٥٢٠ ، ج ٤ ص ٤٦٦

(١٦٢) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٤١٢

(١٦٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٦٩

(١٦٤) المقرئ : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨

كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

(١٦٥) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٤ ص ٤٢٦ ، ٨٢٣

(١٦٦) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفات .

(١٦٧) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٤٣٣ .

(١٦٨) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٥٤

يسترعى الانتباه ما يذكره المقرئ من أن النساء في عصره كن يعمدن أحيانا الى تقليد الرجال في زى الرأس فلبسن الطواقى ، وتعممن بالعمائم ، حتى اضطرت السلاطين الى المناداة « بأن امرأة لاتتعمم بعمامة ولا تنزيا بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة ايام سلبت ما عليها من الكسوة »^(١٦٩) . وقد حاول المقرئ أن يلتبس للنساء بعض العذر في ذلك ، فقال ان الضرورة هي التي فرضت عليهن محاكاة الرجال في لبس الطواقى السابقة ، بسبب ما نزل من فقر وفاقه ، فتعذر على نساء عصره محاكاة الأوائل في لبس الشاشات الفاخرة ، ولكن هذا التبرير لا يتفق مع قول المقرئ إن هؤلاء النسوة اعتدن ان يزخرفن الطواقى بالذهب والحريز ، وبالبغنى في ذلك^(١٧٠) وربما كان أقرب الى الواقع ما ذكره المقرئ في موضع آخر من كتاباته لتعليل هذه الظاهرة ، وهو ما سنشير اليه فيما بعد .

والواقع انه يفهم من الملاحظات التي أبداها المقرئ أن بعض النساء في ذلك العصر البغنى في ثيابهن ، سواء من ناحية الهيئة أو القيمة ، حتى بلغ الامر بهن أحيانا أن تفصل الواحدة قميصها من اثنين وتسعين ذراعا من القماش البندقي الذي عرضه ثلاثة أذرع ونصف ، وبذلك تصبح مساحة القماش الذي يفصل منه القميص أكثر من ثلثمائة وعشرين ذراعا مربعا^(١٧١) . أما تكاليف مثل هذا القميص ، فقد ذكر المقرئ أنها تجاوزت الألف درهم ، ومثله الأزار الخارجى ، في حين وصل ثمن خف المرأة الى ما بين مائة وخمسمائة درهم^(١٧٢) . ويبدو أن هذا الاسراف من جانب النساء دفع الدولة الى التدخل لتحديد ملابسهن ، فصدرت اوامر في سنة ٧٥١ هـ ، ٧٩٣ هـ ٨٥٠ هـ ، ٨٧٦ هـ ، بالا يزيد طول قميص المرأة عن اثني عشر ذراعا ، وأن لا تكون الاكمام مفرطة في الاتساع . وظاف المنادون في شوارع القاهرة يحذرون النساء من مخالفة هذه التعليمات . بل لقد نصبت اخشاب على سور القاهرة وأبوابها ، وعلقت عليها تماثيل على شكل نساء وقد ارتدين القمصان الطوال ، وذلك لتذكير النساء وتخويفهن^(١٧٣) .

على أن المقرئ - بما أوتي من دقة ملاحظة - أوضح بطريق غير مباشر أن المستحدثات (الموضة) تنتقل في المجتمع من فوق الى تحت ، ومن الطبقات العليا الى مادونها ، فيقول ان ما فعلته عامة نساء المجتمع لن العذر فيه ، لانهن يتشبهن في ملابسهن بما تفعله نساء السلاطين والامراء . ففي حوادث سنة ٧٩٣ هـ يعيب المقرئ في صراحة على عوام النساء انهن تشبهن في الملابس بنساء الملوك والاعيان^(١٧٤) . أما في حوادث سنة ٨٥٠ هـ فيصف المقرئ كيف أن نساء السلاطين وجوارسهن أحدثن ثيابا طوالا تسحب أذيالها على الأرض ، ولها اكمام واسعة ، عرف القميص منها بالهطللة .

(١٦٩) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٣

(١٧٠) المقرئ : المواظ والاعتبار ، ج ٣ ص ١٦٩ (الأملية)

(١٧١) المقرئ : السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٧٣

(١٧٢) المقرئ : المواظ والاعتبار ، ج ٤ ص ١٢٧ (الأملية)

(١٧٣) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٢ ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ .

(١٧٤) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٢ ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ .

ويعقب المقرئ على هذا الخبر بقوله « وتشبه نساء القاهرة بهن في ذلك ، حتى لم تبق امرأة الا وقميصها كذلك » (١٧٥) .

ثم ان المقرئ يشير الى حقيقة اخرى ، هي ان ملابس النساء لم تظهر على حال واحد ، وانما تعرضت للتغيير والتبديل بين فترة واخرى . فهي مرة واسعة وطويلة ، وبعد فترة تصبح ضيقة وقصيرة (١٧٦) .

وأخيرا فان المقرئ بنظرته الاجتماعية ، لم يرض عن كثير من الامراض الاجتماعية التي فشت في المجتمع في عصره ، فانتقدها حيناً في هدوء وحيانا في قوة وعنف . ولم يتمالك هذا العالم الجليل نفسه ، فأظهر الاسف وعبر عن الأسى عندما وجد الناس « اظهروا المنكرات في الخمر ونحوها من المسكرات ، واختلاط النساء والرجال من غير استتار » ويوضح المقرئ أن هذه الامراض الاجتماعية لم تستحدث في زمنه ، وانما جذورها قديمة . ويستشهد على ذلك بما ذكره القاضي الفاضل في متجدداته سنة ٥٨٧ هـ أنه رأى « من البغي ومن المعاصي ومن الجهر بالفسق والزنا واللواط وشهادة الزور وشرب الخمر ما لم يسمح أو يعهد مثله » (١٧٧) .

ويبدو أن هذه الامراض الاجتماعية ازداد فشوها في أواخر عصر سلاطين المماليك ، تمثيا مع المبدأ المعروف في التاريخ ، وهو أن الدول في خريف عمرها لا يقتصر الانحلال الذي يعتريها على الأجهزة السياسية والاقتصادية والادارية والحربية ، وانما يمتد ايضا على الجوانب المعنوية والاجتماعية والخلقية .

ومهما يكن من أمر ، فان المقرئ كان أميناً في تفنيد العيوب والامراض دون مجاملة او مبالغة ، شديداً في رفضه لها ، قاسيا في نقده لبعض الأوضاع التي لا تتفق وتعاليم الدين أو مبادئ الاخلاق . من ذلك أنه ساءه أن تعترف الدولة بالبغاء والبغايا وتفرض عليهن ضرائب مقررة ، مما أدى الى تفشى البغاء والزنا (١٧٨) واستنكر وقوف البغايا في الاسواق أمام المارة وعلى مرأى منهم (١٧٩) . ولم تقتصر هذه الظاهرة على القاهرة والمدن الكبرى ، بل فشت في مراكز الصعيد والوجه البحري حيث خصص للبغايا حارات مريبة (١٨٠) وقد حاول بعض سلاطين المماليك محاصرة هذا الداء قبل أن يفشو ويزداد خطره ، فأصدر السلطان الظاهر بيبرس قرارا بإبطال المكوس المقررة على البغايا ، حتى لا تكتسب هذه الحرفة صفة اعتراف الحكومة بها ، كذلك منع البغاء في سائر البلاد ، وقبض على البغايا حتى يتزوجن ، بحيث لا يزداد

(١٧٥) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٢ حوادث سنة ٨٥٠ هـ (ص ٨٨٤)

(١٧٦) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٢١

(١٧٧) المقرئ : الواظظ والاعتبار ، ج ٣ ص ٣٧ - ٣٨ (الأهلية)

(١٧٨) المقرئ ، كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(١٧٩) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣١٢

(١٨٠) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٠

في مهوورهن عن اربعمائة درهم ، يعجل منها مائتان ، وذلك لتسيير زواجهن^(١٨١) كذلك ذكر المقرئزي انه كان من جملة الضرائب التي ألغاهها الناصر محمد عقب الروك الناصري ، ما كان يجمع من « الفواحش والمنكرات » والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة^(١٨٢) .

ومن الامراض الاجتماعية التي أشار المقرئزي الى فشوها في ذلك العصر الشذوذ الجنسي . وقد عبر المقرئزي عن فشو هذا المرض بين طبقة المماليك بالذات ، فقال انه « فشى في أهل الدولة (يعني المماليك) محبة الذكران » ، حتى عمدت النساء الى التشبه بالذكور في ملبسهم ليستملن قلوب الرجال^(١٨٣) . ولعل في هذا خير تعليل لما سبق أن أشرنا اليه من انتشار لبس الطواقي بين النساء - تشبها بالرجال - في ذلك العصر . كذلك ذكر المقرئزي كيف أضرب الناصر أحمد - ابن الناصر محمد - عن الطعام سنة ٧٤٥ هـ « حتى يأتوه بشاب كان يهواه . . فأتوه به ، فأكل عند ذلك^(١٨٤) » بل لقد ذكر المقرئزي أن كتبغا خلع من السلطنة سنة ٦٩٦ هـ بسبب غلام^(١٨٥) .

وانتقد المقرئزي انتقادا مريرا تفشى المخدرات في أيامه ، فقال عن الحشيش « فشت هذه الشجرة الخبيثة في وقتنا هذا فشوا كبيرا . ولعل بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا ، وتظاهروا بها من غير احتشام . وما شئ في الحقيقة أفسد لطباع البشر منها ، لا شتهارها في وقتنا هذا عند الخاص والعام بمصر والشام والعراق والروم^(١٨٦) » ولم تمنع الدولة تعاطي الحشيش ، وانما فرضت عليه ضريبة كانت تمد خزائنها « بجملة كافية » واستمرت هذه الضريبة حتى ألغاهها السلطان الظاهر بيبرس الذي « أبطل ضمان الحشيشة الخبيثة وأمر بتأديب من أكلها^(١٨٧) » وعلى أيام المقرئزي شاع تعاطي الحشيشة بين الصوفية - وهم الذين عرفوا باسم الفقراء - حتى أطلق عليها المعاصرون اسم « حشيشة الفقراء^(١٨٨) » .

أما الخمر ، فيذكر المقرئزي أن تعاطيها انتشر بين سائر الناس ، فكانت تعصر وتباع في انحاء البلاد على رؤوس الاشهاد ، حتى أن ما عصر منها في خزانة البنود في سنة واحدة بلغ اثنين وثلاثين الف جرة^(١٨٩) وقد عرف المماليك

(١٨١) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٥٧٨ ، ج ٢ ص ١٥٠

(١٨٢) المقرئزي : المواظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٤٤

(١٨٣) المقرئزي : المواظ والاعتبار ، ج ٣ ص ١٦٩ (الأهلية)

(١٨٤) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٦١ - ٦٦٢ (سنة ٧٤٥ هـ)

(١٨٥) المقرئزي : المواظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٢٦ (بولاق)

(١٨٦) نفس المصدر السابق

(١٨٧) المقرئزي : كتاب السلوك ، حوادث سنة ٦٦٤ هـ

(١٨٨) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٣٩

(١٨٩) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٦٨٦ - ٦٨٧

أنواعا عديدة من الخمر ، منها نبيذ القَمْز ويعمل من لبن الخيل^(١٩٠) والمزr ويعمل من القمح^(١٩١) والنبيذ التمر بغاوي وطريقة صنعه أن تمزج عشرة أرطال من الزبيب الى أربعين رطلا من الماء ثم يوضع المزيج في جرار تدفن في زبل الخليل أياما حتى يتخمّر^(١٩٢) وبلغ من انتشار الخمر في ذلك العصر أن أمراء الماليك اعتادوا أن يتهاذوا بها في أفراحهم^(١٩٣) . فاذا احتاج أحد السلاطين أو الأمراء الى كمية كبيرة من الخمر لخل أو ظرف طارئ ، وزعوها على النصاري واليهود المعروفين بصنعها ، وفرضوا على كل طائفة عددا معينا من الجرار ، تقدمها . واذا تقاعسوا - مثلما حدث سنة ٨١٦ هـ - جيت منهم بعنف وعسف وضرب^(١٩٤) وفي كثير من الحفلات والافراح الشعبية اعتبرت الخمر متممة للمغاني^(١٩٥) ويقول المقرئ أنه لاعبرة بالامر التي كان يصدرها سلاطين الماليك في أوقات الأزمات والشدائد باراقة الخمر طلبا لمغفرة الله وعفوه ، مثلما حدث في سنة ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ هـ ، لان هذه التوبة كانت لا تستمر الا مدة قصيرة من الزمن ، يعود الناس بعدها الى التظاهر بشرب الخمر ولم ينتهوا عما هم فيه^(١٩٦) .

وهكذا اهتم المقرئ في كتاباته بالتاريخ الاجتماعي مثل اهتمامه بالتاريخ الاقتصادي وبقية فروع التاريخ ، بحيث جاء انتاجه يعبر عن صورة تاريخية متكاملة ، لها أوجهها السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية وغيرها .

وبعد ، فاننا عندما نصف المقرئ بأنه شيخ المؤرخين في القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد - فانما نعني فعلا أنه تزعم صناعة التاريخ في ذلك العصر ، واجاد هذه الصناعة حتى بلغ الذروة فيها ، بعد أن ألم بآركانها ، واستوفى متطلباتها وادواتها وشروطها .

وعند ما أقدم المقرئ على ممارسة التدوين التاريخي ، فانه لم يكتب فيه كتابة سطحية أو عشوائية . وانما التزم بمنهج علمي ثابت يمثل أرقى ما وصلت اليه كتابة التاريخ في عصره فلم يقتصر على سرد الاحداث مكتفيا بالنقل عن السابقين ، وانما تجاوز ذلك الى النقد والتحليل ، والبحث عن الاسباب وتتبّع النتائج . كما انه لم يقف موقفا سلبيا أمام الظواهر والاحداث ، وانما حاول دائما أن يربط بين أطرافها ، ويعلل لها تعليلا سلبيا منطقيا .

(١٩٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٠٧ (حاشية ٢ للمرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة)

(١٩١) المقرئ : المواقف والاعتبار ، ج ١ ص ١٠٥ (الأملية)

(١٩٢) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٤١

(١٩٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦

(١٩٤) المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٢١ ، ٢٠١

(١٩٥) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٤٢٦

(١٩٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٣ - ٥٤ ، ج ٣ ص ٣٥٤

ثم ان المقرئ لم يتخذ الكتابة التاريخية أداة للتجريح والهدم ، مثلما فعل بعض معاصريه من المؤرخين ، وإنما اتصف بقلمه بالانضباط والعفة .

هذا الى أمانته في نسبة الروايات التي ينقلها الى أصحابها ، وعنايته بتمحيص هذه الروايات للتفرقة بين الغث والسمين منها ، واستبعاد الضعيف والتمسك بالرواية القوية .

يضاف الى هذا جراته في الحق ، وعزوفه عن تملق الحكام والتمسح بركابهم ، وتوجيه النقد اليهم في مواضع النقد .

وصفوة القول أن المؤرخ أحمد بن علي المقرئ جمع بين قوة الحاسة التاريخية من ناحية ، وصدقها وانضباطها من ناحية أخرى ، . هذا فضلا عن ادراكه للابعاد الحقيقية والأركان الرئيسية لعلم التاريخ ، مما جعل منه ظاهرة فريدة بين مؤرخي عصره ، وجعل من تراثه ومؤلفاته ثروة حقيقية تعزز بها المكتبة التاريخية العربية .

شخصيات وآراء

يُعتبر أبوبكر محمد بن زكريا الرازي أحد أعلام العرب لا سيما في العلوم الطبية حيث أُلّف فيها أكثر من خمسين كتاباً ومقالة ، ومن ثم يُعد الرازي - بغير منازع - أعظم أطباء الحضارة الإسلامية ، ومن أشهر كتبه في الطب كتاب « الجامع الكبير » أو كتاب « الحاوي » ، كذا كتاب « الكناش المنصوري » الذي أُلّفه للأمير منصور بن اسحق* الساماني حاكم الري (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ) ، وهو أول من اهتم بالجانب النفسي في العلاج الطبي .

اشتغل الرازي بالعلوم الحِكْمية عموماً ، وله كتب كثيرة في الآليات والمنطق وما بعد الطبيعة ، كذا في الكيمياء والطبيعات والرياضيات والفلك والموسيقى وغيرها .

وقد سبق الرازي كلا من الشيخ الرئيس ابن سينا والعالم الجليل الحسن بن الهيثم في أن الابصار يحصل بورود شعاع من الجسم المُبَصَّر إلى العين ، وبذلك كان أول من نقض قول علماء الاغريق بخروج الشعاع من العين إلى الشيء المُبَصَّر ، كما أن الرازي قد اشتغل بقياس الثقل النوعي بقصد التمييز بين معدني الذهب والفضة .

كذلك بين الرازي أن الأرض ذات هيئة كرية ، وأنها أصغر من الشمس وأعظم من القمر ، ولكنه أخطأ في اعتباره أن الأرض تقع في وسط الفلك . ولقد كان الرازي أحرص ما يكون على الدرس والتأليف ، وهو الذي يقول في مُصنّفه « كتاب السيرة الفلسفية » :

« وإنّه بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويذ في عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة ، وبقيت في عمل « الجامع الكبير » خمس عشرة سنة ،

أبوبكر الرازي
وبحوثه في العلم الطبيعي

جلال شوقي

عميد كلية الهندسة - جامعة قطر

(*) وفي رواية أخرى أنه عمله لمنصور بن أبي قرابة وإلى خراسان .

أعمله الليل والنهار ، حتى ضُفَّ بصري ، وحدث لي فسخ في عضل يدي يمنة في وقتي هذا عن القراءة والكتابة ، وأنا على حالي لا أدعها بمقدار جهدي ، وأستعين دائماً بمن يقرأ ويكتب لي .

هذا هو شأن العالم العربي الكبير الذي نعرض له بالدراسة ، ونحن نقصر بحثنا الحالي على جهد الرازي في مجال الطبيعيات دون أن نلج في آرائه الفلسفية الخاصة بقدّم أشياء خمسة هي الباري والنفس والهيولي (أي المادة) والزمان والمكان ، وإنما نعرض هنا لأقوال الرازي وآرائه في ماهية الهيولي والزمان والمكان والخلاء والنقل والخفة من الوجهة العلمية .

ترجمته

وُلد الرازي في مدينة الريّ جنوبي طهران حوالي سنة ٢٥٠هـ (٨٦٤) وبها نشأ ، وقدم إلى بغداد وعمره نيف وثلاثون سنة ، وأصبح رئيساً للمستشفى العضدي بها ، وكان من قبل رئيساً لمارستان الريّ وذلك قبل قدومه إلى بغداد .

وقد عُرف الرازي في الغرب باسم "Rhases" وترجم كتابه « الحاوي » في الطب إلى اللاتينية بعنوان : "Liber Continens" ، كما تُرجم له كتاب في الصحة العامة حيث ظهرت ترجمته اللاتينية بعنوان : "Miscellanea" .

كرّس الرازي حياته لخدمة العلم ، فلا غرو أن يخلّف وراءه عشرات الكتب والمقالات ، وكان أن ضعف بصره في آخر عمره ، وقد اختلفت الروايات حول تاريخ وفاته ، فالمشهور أنه توفي في بغداد سنة

٣٢٠هـ (٩٣٢م) ، إلا أن القفطي قد ذكر في كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » أن الرازي قد عاش حتى سنة ٣٦٤هـ (٩٧٤م) وأنه اتصل بابن العميد ، بينما يذكر الصفدي في « نكت الهميان » أن الرازي توفي سنة ٣١٠هـ (٩٢٢م) .

شيوخه ومعاصروه

قرأ الرازي الحكمة على أبي زيد البلخي^(١) الذي كان دائم التجوال والترحال في الأمصار الإسلامية وكان على دراية حسنة بالفلسفة وعلوم الأقدمين ، كما أن الرازي قد درس الطب على يد الطبيب الفاضل أبي الحسن علي بن زبن الطبري ، وهو من أهل طبرستان ، وكان الطبري قد قدّم الريّ حوالي سنة ٢٨٩هـ (٩٠٢م) بعد استيلاء السامانيين على طبرستان ، وقد أصاب الرازي من علم الطبري وحكمته الشيء الكثير ، وكان الرازي معاصراً لأبي يعقوب اسحق بن حنين بن اسحق^(٢) الذي كان من أشهر وأقدر نقلة علوم الحكمة إلى اللغة العربية ، وكان الرازي على صلة بأبي الحسن علي بن عيسى الجراح^(٣) أثناء إقامته في بغداد .

أقواله المأثورة :

وللرازي أقوال مأثورة كثيرة نقدم بعضها منها فيما يلي : « مَنْ لم يُعْن بالأمور الطبيعية ، والعلوم الفلسفية ، والقوانين المنطقية ، وعَدَل إلى اللذات الدنيائية ، فأتهمه في علمه ، لا سيما في صناعة الطب » .

« الاستكثار من قراءة كتب الحكماء ، والاشراف على أسرارهم ، نافع لكل حكيم عظيم الخطر » .

(١) هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي ، عاش في الفترة من حوالي سنة ٨٥٠م حتى سنة ٩٣٤م . درس الفلسفة مع الكليني ، وهو من جغرافيه العرب .

(٢) شهد أيام الخلفاء المعتضد والمعتضد والمنتصر ، وتوفي ببغداد في أيام المنتصر ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٨هـ (٩١٠م) .

(٣) كان وزيراً للخليفة المعتضد سنة ٣١٠هـ (٩٢٣م) ، وكذا سنة ٣١٤هـ (٩٢٧م) .

٥٦ تصنيفا	الطب والأقرباين	« متى اجتمع جالينوس ^(٤) وأرسطوطاليس ^(٥) على معنى ، فذلك هو الصواب ، ومتى اختلفا صُعب على العقول إدراك صوابه جدا » .
٣٢ تصنيفا	الطبيعيّات	« ما اجتمع الأطباء عليه ، وشهد عليه القياس ، وعُضدته التجربة ، فليكن إمامك ، وبالضدّ » .
٢١ تصنيفا	الكيميائيات	« متى كان اقتصار الطبيب على التجارب ، دون القياس وقراءة الكتب ، خُذِل » .
١١ تصنيفا	الرياضيات والنجوم	« الأطباء الأميون والمقلّدون ، والأحداث الذين لا تجربة لهم ، ومن قلّت عنايته وكثرت شهواته : قتالون » .
١٦ تصنيفا	الالهيات	« ينبغي للطبيب أن يُوهِم المريض أبدا الصحة ، ويُرجّيه بها ، وإن كان غير واثق بذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » .
١٦ تصنيفا	الفلسفة	
٧ تصنيفا	المنطق	
٦ تصنيفا	ما بعد الطبيعة	
٧ تصنيفا	تفاسير وتلاخيص واختصارات	
١٢ تصنيفا	فنون مختلفة	
١٨٤ تصنيفا	المجموع	

ولنقرأ ما خطّه يد الرازي في معرض دفاعه عن استحقاقه لتسمية « فيلسوف » ، وهو الذي أفنى عمره كله في تحصيل العلم والاشتغال به ، حيث يستشهد بسرد أسماء بعض تصانيفه فيقول في مؤلّفه « كتاب السيرة الفلسفية »^(٨) :

أما في باب العلم فمن قبل أنا لولم تكن عندنا منه إلاّ القوة على تأليف مثل هذا الكتاب لكان ذلك مانعا عن أن يُحمى عنا اسم الفلسفة ، فضلا عن مثل كتابنا « في البرهان » و « في العلم الإلهي » و « في الطب الروحاني » .

وكتابنا « في المدخل إلى العلم الطبيعي » الموسوم « بسمع الكيان » ، ومقالتنا « في الزمان والمكان والمدة والدهر والخلاء » .

آثاره العلمية :

قلّم أبو بكر الرازي إلى العلم العربي إضافات جليلة ، ليس في مجال الطب فحسب وإنما في سائر فروع العلم والمعرفة ، وقد جاء أبو الريحان البيروني^(٦) من بعده ، فاهتم اهتماما خاصا بحصر أعمال الرازي حيث كتب رسالة^(٧) ضمّنها أسماء ما ينوف على مائة وثمانين مُصنّفا من تصانيف الرازي ، ونين فيما يلي إحصاء عاما بهذه المؤلفات :

(٤) طبيب إغريقي شهير عاش في الفترة من حوالي سنة ١٣١م حتى سنة ٢٠١م ، له مؤلفات هامة في الطب ، رجع إليها أطباء العرب .

(٥) هو الفيلسوف والعالم الإغريقي أرسطو ، عاش في الفترة من سنة ٣٨٤ ق.م حتى سنة ٣٢٢ ق.م .

(٦) هو العالم العربي أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الملقب ببرهان الحق وبالأستاذ عاش في الفترة من سنة ٣٦٢هـ (٩٧٣م) حتى سنة ٤٤٣هـ (١٠٥١م) .

(٧) كتب عنها المستشرق . روسكاني مجلة إيزيس ، سنة ١٩٢٣ ، ونشر الرسالة المستشرق بول كراوس في باريس سنة ١٩٣٦ ، وهي بعنوان « في فهرست كتب محمد بن زكريا

الرازي » .

(٨) « رسائل فلسفية » للرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة جامعة فؤاد الأول - بالقاهرة ، سنة ١٩٣٩ ، الصفحات ١٠٨ - ١١٠ .

« فاماً محبّي للعلم ، وحرصني عليه ، واجتهادي فيه ، فمعلوم عند من صجّبتني وشاهد ذلك مني أنّي لم أزل منذ حداثتي وإلى وقتي هذا مُكبّاً عليه حتى أنّي متى اتفق لي كتاب لم أقرأه أو رجّل لم ألقه لم ألتفت إلى شغل بنة - ولو كان في ذلك عليّ عظيم ضرر - دون أن آتي على الكتاب وأعرف ما عند الرجل » .

وقد سبق أن أوردنا في صدر هذا البحث مبلغ اجتهد الرازي الذي سبّب له ضعفاً في بصره وفُسّخاً في عضل يده أودى به إلى الاستعانة بمن يقرأ له ويكتب .

أعمال الرازي في الطبيعيات

كتب الرازي مؤلفات كثيرة في الطبيعيات وما يرتبط بها من علوم ، ولقد اهتم اهتماماً خاصاً بالبحث في ماهية الهولي (المادة) وكُنْه الزمان والمكان ، كما أنه اشتغل بتعيين الثقل النوعي للمواد بقصد التفرقة بين المعادن الثمينة والمعادن غير الثمينة ، كذلك كتب الرازي في كيفية الابصار ، وبحث في حركة الأفلاك ومساراتها ، وله أيضاً كتاب في الحيل ، أي في الوسائل الميكانيكية النافعة ، ونشير فيما يلي إلى بعض مؤلفات الرازي في هذا المجال :

كتاب « في المدخل إلى العلم الطبيعي » الموسوم « بسمع الكيان » .

كتاب « المدخل التعليمي » .

كتاب « المدخل البرهاني » .

كتاب « الهولي الكبير » أو « كتاب كبير في الهولي » .

كتاب « الهولي الصغير » ، ولعله هو « كتاب الهولي المطلقة والجزئية » الذي ذكره ابن النديم في فهرسه .

مقالة « في الزمان والمكان والمدة والدهر والخلاء » .

« مقالة » فيها جرى بينه وبين أبي القاسم الكعبي في الزمان » .

و « في شكل العالم » ،
و « سبب قيام الأرض في وسط الفلك » ،
و « سبب تحرك الفلك في استدارة » ،
ومقالتنا « في التركيب » ،
و « أنّ للجسم حركة من ذاته وأن الحركة معلومة » ،
وكتبنا « في النفس » وكتبنا « في الهولي » ،
وكتبنا في الطب كالكتاب « المنصوري » ،
وكتبنا « إلى من لا يحضره طبيب » ،
وكتبنا « في الأدوية الموجودة » ، والموسوم « بالطب الملوكي » ،

والكتاب الموسوم « بالجامع » الذي لم يسبقني إليه أحد من أهل المملكة ، ولا احتذى فيه أحد بعد احتدائي وحذوي ،
وكتبنا في صناعة الحكمة التي هي عند العامّ الكيمياء .

وبالجملّة فقرأية مائتي كتاب ومقالة ورسالة خرجت عني - إلى وقت عملي هذه المقالة - في فنون الفلسفة من العلم الطبيعي والآمّي .

فاماً الرياضيات فإنّي مُقرٌّ بأنّي إنّما لاحظتها ملاحظة بقدر ما لم يكن لي منها بدّ ، ولم أفنّ زمامي في التمهّر بها بالقصد مني ذلك ، لا للعجز عنه ، ومن شاء أوضحت له عذري في ذلك بأن الصواب في ذلك ما عملته لا ما يعملهُ المُفَنُّون لأعمارهم في الاشتغال بفضول الهندسة من الموسومين بالفلسفة .

فإن لم يكن مبلغني من العلم المبلغ الذي استحقّ أن أسمى فيلسوفاً ، فمن هوليت شعري ذلك في دهرنا هذا » .

ومعني أبوبكر الرازي في « كتاب السيرة الفلسفية » ، فيقول في معرض بيانه وتدليله على مدى حبه للعلم وانكبابه على تحصيله :

وبنى هو على ذلك مذهبه الذي تأصل عنه ، و فرق بين الزمان وبين المدة بوقوع العدد على أحدهما دون الآخر بسبب ما يلحق العددية من التناهي ، كما جعل الفلاسفة الزمان مدة لما له أول وآخر ، والذهب مدة لما لا أول له ولا آخر .

وذكر أن الخمسة في هذا الوجود الموجود اضطرارية ، فالمحسوس فيه هو الهيولي المتصورة بالتركيب ، وهي متمكنة فلا بد من مكان ، واختلاف الأحوال عليه من لوازم الزمان ، فإن بعضها متقدم وبعضها متأخر ، وبالزمان يعرف القدم والحديث والأقدم والأحدث ومعاً فلا بد منه .

وفي الموجود أحياء فلا بد من النفس ، وفيهم عقلاء ، والصنعة على غاية الاتقان ، فلا بد من الباري الحكيم العالم المتقن المصلح بغاية ما أمكن ، الفاضل قوة العقل للتخليص .

ويقول المرزوقي الاصفهاني^(١٠) في « كتاب الأزمنة والأمكنة »^(١١) :

« فنقول وبالله الحول والقوة ، من زعم أن الأزلي أكثر من واحد أربع فرق : الأولى : الذين يقولون هما اثنان ، الفاعل والمادة فقط ، ويعني بالمادة الهيولي ، الثانية : الذين يدعون أن الأزلي ثلاثة ، الفاعل والمادة والخلاء ، الثالثة : الذين يدعون أنه الفاعل والمادة والخلاء والمدة ، الرابعة : الفرقة التي زعيمهم محمد بن زكرياء المتطبيب ، لأنه زاد عليهم النفس الناطقة ، فبلغ عدد الأزلي خمسة ههذيانه .

مقالة « في الفرق بين ابتداء المدة وابتداء الحركات » .
مقالة « في أن للجسم حركة من ذاته وأن الحركة معلومة » .

كتاب « في محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي » ، كتاب « في كيفية الابصار » .
كتاب « في الحيل » .
مقالة « في شكل العالم » ، أو كتاب « هيئة العالم » .
مقالة « في سبب قيام الأرض في وسط الفلك » .
مقالة « في سبب تحرك الفلك على استدارة » .

هذا ونعرض هنا بشيء من التفصيل لأراء الرازي في المادة والزمان والمكان ، وذلك بالرجوع الى كتابات البيروني ، والمرزوقي الاصفهاني ، وناصر خسرو ، وأبي حاتم الرازي ، عن مذهب أبي بكر الرازي فيها .

القدماء الخمسة

يذكر برهان الحق أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة »^(٩) بعضاً من آراء الرازي في العلم الالهي فيقول :

لَبَّ في ذكر المدة والزمان بالاطلاق
وخلق العالم وفنائه

قد حكى محمد بن زكريا الرازي عن أوائل اليونانيين قدما خمسة أشياء منها الباري سبحانه ، ثم النفس الكلية ، ثم الهيولي الأولى ، ثم المكان ثم الزمان المطلقان .

(٩) طبعة لندن ، سنة ١٩١٠ م ، صفحة ١٦٣ .

(١٠) هو أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الاصفهاني المتوفى سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٠ م) .

(١١) طبعة حيدر آباد ، سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٣ م) ، الجزء الأول ، الصفحتان ١٤٤ ، ١٤٥ .

وينكر المرزوقي الأصفهاني على أبي بكر الرازي ما ذهب إليه ، فينقده بقوله :

« أليس من العجائب هذيانه في القدماء الخمسة وما يعتقد من وجود العالم لحدوث العلة ، وما يدعيه من وجود الجوهرين الأزليين : أعني الخلاء والمدة ، لا فعل لهما ولا انفعال ؟ فلو لا خذلان الله إياه وإلا فماذا يعمل بجوهر لا فاعل ولا منفعل ؟

ولم يضع الأرواح المقدسة قبالة الأرواح الفاسدة ، ولم تحدث العلة من غير نقص ولا آفة ، ولم يذكر شيئا ليس فيه جدوى ولا ثمرة ؟

ومضي المرزوقي الأصفهاني في نقده لأبي بكر الرازي في موضوع آخر من كتابه « الأزمنة والأمكنة » حيث يقول (١٢) :

« وأعجب من هذا أن الباري اخترع لجميع ما خلقه ، وأنه لا يُعجزه مطلوب ولا يضاده معلوم » .

ثم أقاموا معه في الأزل الهيولي وهو المادة ، ورتبوا معه الصورة ليكون جميع ذلك كالنجار والخشب والنجارة .

والله تعالى يقول : « قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين » إلى قوله : « وذلك تقدير العزيز العليم » ، ولم يقل ذلك إلا وأهل العلم إذا فكروا فيه أدركوا منه الآية اليقينية والحجة الواضحة .

يبين لنا من الكتابات المتضمنة للآراء المنسوبة إلى الرازي في قدم وأزلية الهيولي والزمان والمكان ، أنه قد تعرض بسببها لنقد شديد من معاصريه ومن أتى بعده

من الفلاسفة والمفكرين ، حتى أن بعضهم قد اتهمه بالهذيان بل وحتى بالالحاد .

وليست قضية القدم والحدث بمعروضة في حد ذاتها على بساط البحث هنا ، وإنما هي آراء الرازي في ماهية هذه الأشياء الثلاثة التي نعرض لها بالدراسة ، ولنبدأ برأي الرازي في الهيولي .

الهيولي (المادة)

ثبت أن للرازي عدة مؤلفات في الهيولي ذكرها أصحاب التراجم ، بيد أننا لم نعثر حتى الآن على كتابات الرازي في هذا المجال اللهم إلا ما ورد عنها في كتاب « زاد المسافرين » (١٣) لناصر خسرو (١٤) باللغة الفارسية ، ونقدم فيما يلي منتخبات من ترجمته العربية (١٥) حيث يورد ناصر خسرو رأي الرازي في الهيولي :

« ليست الهيولي المطلقة سوى أجزاء لا تتجزأ ، بحيث أن يكون لكل واحد (أي لكل واحد من تلك الأجزاء) عظم ، لأنه لو لم يكن لكل واحد من تلك الأجزاء عظم لم يحصل بتجمعها شيء له عظم .

وأيضاً لا يجوز أن يكون لأي جزء (يقصد الجزء الذي لا يتجزأ) من عظم حتى يجوز أن يوجد عظم أصغر مما هو عليه ، وذلك أنه لو كان لجزء الهيولي جزء ، لكان الجزء نفسه جسماً مركباً ، ولم تكن الهيولي مبسطة (١٦) ، مع أن الهيولي التي هي مادة الجسم مبسطة » .

(١٢) نفس المصدر السابق صفحة ١٥٢ .

(١٣) طبعة برلين ، سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) ، صفحة ٧٣ وما بعدها .

(١٤) هو أبو المعين ناصر بن خسرو المتوفى سنة ٤٨١هـ (١٠٨٨م) .

(١٥) من كتاب « رسائل للسنية » للرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة جامعة فؤاد الأول ، سنة ١٩٣٩ ، صفحة ٢٢٠ وما بعدها .

(١٦) أي بسيطة .

أكثر ، ومن أجل هذا صار الماء أخف من الأرض ،
وصار الماء مضيئا بينما كانت الأرض كثيفة مظلمة . . .

وأما التفاوت الذي يوجد بين هذه الأجسام من حيث
الخفة والثقل والنور والظلمة ، فليس سببه سوى تفاوت
أجزاء هذين الجوهرين في تركيبها . . .

كذلك وردت هذه المعاني في كتابات الرازي في
« العلم الآلي » .

مما تقدم يتضح لنا أن الرازي قد ذهب الى أن المادة
تتكون من أجزاء غاية في الصغر ، وأن هذه الأجزاء لا
تقبل التجزئة ، وأن تفرق تركيب أجسام العالم - في آخر
أمر العالم - سيتهي إلى تلك الأجزاء التي أطلق عليها
تسمية الهويولي المطلقة .

وإذا ما قارنا هذه الفكرة بما يتوفر لدينا عن النظرية
الذرية ، لوجدنا - على سبيل المثال - أن قطر ذرة
الهيدروجين يقترب من واحد من عشرة ملايين جزء من
الملليمتر ، وأن النموذج المعروف للذرة يتركب من نواة
تضم عددا من البروتونات والنيوترونات ، تدور حولها
- في مدارات ثابتة - مجموعة من الالكترونات ، وبينما
تكون النواة موجبة التكهرب ، فإن الالكترونات
المحيطة بها سالبة الشحنة ، أما الذرة في مجموعها فهي
متعادلة من الوجهة الكهربائية ، وهناك قوى كهربية
وميكانكية تحفظ على الذرة نظامها الشبيه بنظام
المجموعة الشمسية .

ومن المعروف أن انشطار النواة يؤدي الى اطلاق طاقة
جبارة ، فإن ذرة اليورانيوم ٢٣٥ مثلا (وتضم ٩٢
بروتونا + ١٤٣ نيوترونا ومن هنا جاء الرقم ٢٣٥) إذا ما
قذفت بنيوترون ، انشطرت النواة وتولد عن هذا
الانشطار طاقة كبيرة ، وتتفاعل النيوترونات الناتجة من
الانشطار بدورها مع ذرات اليورانيوم المجاورة لها مسببة
سلسلة من الانشطارات النووية .

وينسب الى الرازي قوله :

« إن تركيب الأجسام من تلك الأجزاء التي لا
تتجزأ ، وسيتهي تفرق تركيب أجسام العالم في آخر أمر
العالم الى تلك الأجزاء بعينها ، وهذه هي الهويولي
المطلقة » .

وقوله أيضا :

« إن ما صار من أجزاء الهويولي متجمعا جدا ، كان
منه جوهر الأرض ، وما صار أكثر تفرقا كان منه جوهر
الماء ، ثم إن ما صار أكثر تفرقا كان منه جوهر الهواء ،
وما صار أكثر تفرقا من جوهر الهواء كان منه جوهر
النار » .

ويستطرد ناصر خسرو في موضع آخر من كتابه « زاد
المسافرين » ناسبا لأبي بكر الرازي قوله :

« إن كفيات الأجسام من ثقل وخفة وظلمة ونور
وغيرها ، إنما ترجع الى قلة أو كثرة الخلاء الذي امتزج
بالهويولي ، فصار شيء ما خفيفا وآخر ثقيلًا ، وشيء ما
مضيئا وآخر مظلمًا ، لأن الكيفية عرض ، والعرض
محمول على الجوهر ، والجوهر هو الهويولي .

وفي هذه الجملة التي عرفناها زبدة قول محمد بن زكرياء
الرازي في الهويولي » .

« إن محمد بن زكرياء الرازي ادعى أن الهويولي
قديمة ، وأنها أجزاء في غاية الصغر ودون أي تركيب ،
وأن الباريء سبحانه ركب أجسام العالم من تلك الأجزاء
في خمسة تراكيب ، أعني الأرض والماء والهواء والنار
والفلك .

ويقول إن ما كان من تلك الأجسام أكثر كثافة صار
أكثر ظلمة ، وإن تركيب جميع الأجسام من (اختلاط)
أجزاء الهويولي بأجزاء الخلاء يعني المكان المطلق ، وإن
أجزاء الهويولي في تركيب الأرض أكثر منها في تركيب
الماء ، وأما أجزاء الخلاء فهي في الأرض أقل ، وفي الماء

ولعل الرازي يقصد أنه « في آخر أمر العالم » فإن الأجسام ستؤول في النهاية الى تلك الأجزاء التي لا تقبل التجزئة ، والتي أسماها بالهولي المطلق .

الزمان

لأبي بكر الرازي آراء في الزمان والدهر وردت في مناظراته مع سميه أبي حاتم الرازي كذا فيما نقله عنه ناصر خسرو ، ففي المناظرات التي جرت بين الرازيين ، ترد فقرات تكشف عن رأي أبي بكر الرازي في ماهية الزمان والدهر^(١٧) ، حيث تجري المناظرة بينهما على النحو التالي :

يقول أبو حاتم الرازي :

« وطالبت في مجلس آخر وقلت له : أخبرني أليس تزعم أن الخمسة قديمة لا قديم غيرها ؟ قال : نعم

قلت : فإذا نعرف الزمان بحركات الأفلاك وبمر الأيام والليالي وعدد السنين والأشهر وانقضاء الأوقات ، فهذه قديمة مع الزمان أم محدثة ؟

قال : لا يجوز أن تكون هذه قديمة لأن هذه كلها مقدرة على حركات الفلك ومعدودة بطلوع الشمس وغروبها ، والفلك وما فيه محدث ، وهذا قول أرسطاطاليس^(١٨) في الزمان ، وقد يخالفه غيره ، وقالوا فيه أقاويل مختلفة .

وأنا أقول إن الزمان زمان مطلق وزمان محصور ، فالمطلق هو المدة والدهر ، وهو القديم ، وهو متحرك غير

لا بئ ، والمحصور هو الذي بحركات الأفلاك وجري الشمس والكواكب .

وإذا ميزت هذا أو توهمت حركة الدهر ، فقد توهمت الزمان المطلق ، وهذا هو الأبد السرمدي .

وإذا توهمت حركة الفلك ، فقد توهمت الزمان المحصور .

وعمد النقاش حول تعريف الزمان المطلق ، وقدم الفلك والعالم إلى أن يبين أبوبكر الرازي موقفه من آراء فلاسفة الاغريق حيث يقول :

« . . . وقد عرفت أن أرسطاطاليس كان يعتقد ما تقوله أنت وقد خولف فيه ، وقول أفلاطون^(١٩) لا يكاد يخالف ما نعتقده في الزمان ، وهذا عندي أصوب الأقوال » .

وتمضي المناظرة بين الرازيين ، بيد أننا نكتفي هنا ببيان قول أبي بكر الرازي في الزمان .

ولقد وردت في مجموعة تحتوي على مقالتين للرازي^(٢٠) فقرة صغيرة بعنوان « ما الفصل بين الدهر والزمان » نصها كما يلي :

« إن الدهر هو عدد الأشياء الدائمة ، والزمان هو عدد الأشياء الزمانية ، وهذان العددان يعدان الأشياء فقط ، أعني الحياة والحركة ، فإن كل عاد إما أن يعد جزءا بعد جزء وإما أن يعد الكل معا ، فإن كان هذا على ذلك قلنا : إن الشيء الذي يعد الكل هو الدهر ، والشيء الذي يعد الأجزاء جزءا بعد جزء هو الزمان .

(١٧) كتاب « أعلام النبوة » لأبي حاتم الرازي ، الصفحات ١٢ - ١٤ . وكتاب « الأقوال الذهبية » لأحمد بن عبد الله الكرماني .

راجع كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩ م ، صفحة ٢٩٥ وما يليها .

(١٨) هو الفيلسوف والعالم الاغريقي أرسطو أو أرسطاطاليس ، أثرى الحضارة الاغريقية بمؤلفاته القيمة ، وهو مؤسس مذهب « فلسفة المشائين » .

(١٩) هو الفيلسوف الاغريقي أفلاطون : Plato عاش في الفترة من حوالي سنة ٤٢٧ ق . م . حتى سنة ٣٤٧ ق . م . وكان تلميذا لسقراط وأستاذا لأرسطو .

(٢٠) مجموعة مخطوط مكتبة راغب باشا باستانبول - رقم ١٤٦٣ ، ورقة ٨٩ ، وتشتمل على مقالين لأبي بكر الرازي ، كذا على رسائل لأبي علي مسكويه ولأبي خير الحسن بن

سوار وغيرهما .

من جملة ما ورد عن مذهب الرازي وآرائه يمكننا أن نخلص إلى أن أبا بكر الرازي قد فرق بين زمانين : زمان مطلق ، وزمان محصور ، ويرى الرازي أن « الزمان المطلق » هو الأبد السرمدي ، أو هو المدة أو الدهر ، وهو قديم ممتد أزلي ، وأما ما أسماه « بالزمان المحصور » فإنه يقصد به الزمان النسبي الذي يقدر بحركة الأفلاك وجري الشمس والكواكب ، وما نحس به من تعاقب الليل والنهار ، وبه صار حساب اليوم والشهر والسنة ، كذا أجزاءها وأضعافها .

المكان :

تتضمن مناظرات أبي حاتم الرازي وأبي بكر الرازي تعريف المكان ، حيث يجري الحديث بينها على النحو التالي (٢٣) :

« قلت (٢٤) : أخبرني عن المكان ، أهو محيط بالأقطار ، أم الأقطار محيطة به ؟

قال : بل الأقطار محيطة بالمكان .

قلت : كيف لا تعد الأقطار مع الخمسة التي زعمت أنها قديمة ، لأنه إن كان المكان قديماً فقد أوجب أن الأقطار قديمة معه !

قال : الأقطار هي المكان ، والمكان هو الأقطار ، وهما شيء واحد لا فرق بينهما .

ونستطرد أبو بكر الرازي في موضع آخر من هذه المناظرة قائلاً :

فقد استبان الآن وصح أن العدد اثنان فقط ، أحدهما يعد الأشياء الدائمة الروحانية وهو الدهر ، والآخر يعد الأشياء الجزئية الواقعة تحت الزمان ، وهو الزمان ، وهو عدد حركات الفلك . » .

ولعل هذا القول للرازي أو لأحد المؤلفين الذين ضمت المجموعة بعضاً من تصانيفهم .

ويقول ناصر خسرو في كتابه « زاد المسافرين » (٢١) ما ترجمته بالعربية (٢٢) :

« إن طائفة الحكماء الذين قالوا إن الهيولي والمكان قديمان قرروا أيضاً أن الزمان جوهر ، وقالوا إن الزمان جوهر ممتد وقديم ، وردوا على قول الحكماء الذين قالوا إن الزمان عدد حركات الجسم ، وقالوا لو كان الزمان عدد حركات الجسم لما جاز أن يتحرك متحركان في زمان واحد بعددين متفاوتين .

وقال إيران شهري الحكيم إن الزمان والدهر والمدة ليست إلا أسماء يرجع معناها إلى جوهر واحد ، (وقال) إن الزمان دليل على علم الله ، كما أن المكان دليل على قدرة الله ، والحركة دليل على فعل الله ، والجسم دليل على قوة الله ، وإن كل واحد من تلك الأربعة غير متناه وقديم ، (وقال) إن الزمان جوهر متنقل بغير قرار ، وأما قول محمد بن زكرياء - الذي جاء بعد إيران شهري - فهو أنه قال إن الزمان جوهر يجري . » .

(٢١) طبعة برلين ، سنة ١٣٤١هـ ، صفحة ١١٠ - ١١٣ .

(٢٢) عن كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، الصفحات ٢٦٦ - ٢٧١ .

(٢٣) كتاب « أعلام النبوة » لأبي حاتم الرازي ، الصفحات ١٤ - ١٧ . راجع كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، الصفحات ٣٠٥ - ٣٠٧ .

(٢٤) هذا القول لأبي حاتم الرازي .

« فأني أقول في المكان أيضا إنه مكان مطلق ، ومكان مضاف .

والمكان المطلق مثاله مثال الوعاء الذي يجمع أجساما ، وإن رفعت الأجسام عن الوهم لم يرتفع الوعاء ، كما لو أننا رفعنا الفلك عن الوهم لم يرتفع الشيء الذي هو فيه عن الوهم بل هو باق في الوهم ، كالدين الذي يفرغ من الشراب ، فارتفع الشراب عن الوهم ولم يرتفع الدين بته .

والمكان المضاف إنما هو مضاف إلى المتمكن ، فإذا لم يكن المتمكن لم يكن مكان ، وهذا مثل العرض الذي إذا رفعته عن الوهم ارتفع الجسم ، كما أنك إذا رفعت الخط عن الوهم ارتفع السطح عن الوهم .

وينهي أبو بكر الرازي حديثه حول المكان بقوله :

« . . . والذي أقوله أيضا في باب المكان هو قول أفلاطون ، والذي قد تشبث به أنت هو قول أرسطاطاليس .

وأما أنا فقد وضعت في المكان والزمان كتابا ، فإن أردت الشفاء في هذا الباب فانظر في ذلك الكتاب .

ولعل الرازي يشير هنا إلى مقالته « في الزمان والمكان والمدة والدهر والخلاء » التي ورد ذكرها في مؤلفه « كتاب السيرة الفلسفية » كما تقدم بيانه .

هيئة العالم وحركته :

تعرض الرازي بالدراسة للعالم الخارجي المحيط بكوننا الأرضي وألف في ذلك عدة مصنفات منها مقالته « في شكل العالم » أو كتابه « هيئة العالم » ، ومقالته « في

سبب تحرك الفلك على استدارة » ، وفيها يناقش الرازي بكروية الأرض ، وبأن الأرض تفوق القمر في الحجم ، بينما هي تقل بكثير عن جرم الشمس ، ولقد كان الرازي من أنصار الرأي القائل بوقوع الأرض في مركز العالم ، كما يبين ذلك في مقالة له بعنوان « في سبب قيام الأرض في وسط الفلك » ، وهو ولا شك اعتقاد خاطئ .

الثقل النوعي للمواد

اهتم الرازي بدراسة الثقل النوعي للمواد ، أي بتعيين ثقل حجم معين من المادة منسوبا إلى ثقل نفس الحجم من الماء ، ويرجع السبب في اشتغال الرازي بهذا الموضوع إلى رغبته في إيجاد وسيلة علمية يمكن بها التمييز بين معدني الذهب والفضة ، ومن ثم كان كتابه « في محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي » ، ومن المعروف أن الثقل النوعي للذهب يفوق بكثير الثقل النوعي للفضة ، ومن هذا التباين يمكن التفرقة بين الذهب والفضة .

كيفية الابصار

لأبي بكر الرازي مصنف بعنوان « في كيفية الابصار » وهو كما يدل عليه عنوانه بحث في كيفية إدراك المبصرات ، ولقد كان الفكر السائد قبل الرازي - كما جاء في المصادر الاغريقية - أن الابصار يحدث نتيجة خروج شعاع ضوئي من العين إلى الجسم المرئي ، فجاء قول الرازي لينقض هذا الزعم ويقدم النظرية الصحيحة للابصار ، وتقوم على خروج الشعاع الضوئي من الجسم المبصر إلى العين حيث يتم الإدراك البصري ، وبذلك يكون لأبي بكر الرازي فضل سبق إلى بيان كيفية الابصار .

خلاصة البحث

والفضة ، كذلك سبق الرازي الى بيان النظرية الصحيحة لكيفية الابصار حيث خالف قول الاغريق بتقريره أن الابصار يتم بخروج شعاع ضوئي من الجسم الى العين ، مسجلا بقوله هذا سبقا واضحا على كل من الشيخ الرئيس ابن سينا ورائد علم البصريات الحسن بن الهيثم .

ان ما تم كشف النقاب عنه من أعمال أبي بكر الرازي لا يعدو النذر اليسير ، وإن المهتمين بالحضارة العربية ليتطلعون بشوق زائد الى مزيد من الدراسات الجادة للتراث العلمي العظيم الذي قدمه العالم الفيلسوف الطبيب أبو بكر الرازي لحضارة الانسان ، ذلك المخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه وعلمه ما لم يعلم .

يعرض هذا البحث لأحد عمالقة العلم العربي ، هو الحكيم أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للميلاد ، وقد وهب الرازي حياته للعلم والمعرفة فتفانى في طلبهما أصدق تفان ، وخلف وراءه ما يقرب من مائتي رسالة ومقال في الطب والأقربايزين والطبيعيات والكيمياء والفلك والفلسفة والمنطق وغيرها من فروع المعرفة المختلفة .

وتقتصر دراستنا هذه على جهد الرازي في مجال الطبيعيات فحسب ، حيث نقدم دراسة مقتضبة لأراء الرازي في ماهية الهيولي والمكان والزمان ، وهي أمور كانت تحتل مكانا هاما في الفلسفة الطبيعية عند العرب ، ولقد أولى الرازي اهتمامه لموضوع الثقل النوعي للمعادن في محاولة علمية للتمييز بين معدني الذهب

مصادر البحث

(أ) المصادر العربية

- (١) كتاب « الفهرست » لمحمد بن اسحق النديم (تم تأليفه عام ٩٨٨ م) طبعة القاهرة : مطبعة الاستقامة عام ١٩٢٩ م .
- (٢) كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » لجمال الدين أبي الحسن القفطي ، طبعة القاهرة : مطبعة الخانجي ، سنة ١٣٢٦ هـ - (١٩٠٨ م) .
- (٣) كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » طبعة بيروت : دار الفكر ، سنة ١٩٥٦ م .
- (٤) كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر محمد بن زكرياء الرازي جمعها وصححها المستشرق بول كراوس جامعة فؤاد الأول - كلية الآداب - المؤلف رقم ٢٢ . مطبعة بول بارييه - القاهرة ، الجزء الأول ، سنة ١٩٣٩ م .
- (٥) « رسالة في فهرست كتب محمد بن زكرياء الرازي » لأبي الريحان البيروني . إعداد بول كراوس ، القاهرة/ باريس ، عام ١٩٣٦ .
- (٦) كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » لأبي الريحان البيروني (يعرف أيضا بالعنوان المختصر : تاريخ الهند) نشره ادوارد سخاو في لندن عام ١٨٨٧ م . ونشره مترجما الى الانجليزية في جزئين عام ١٨٨٨ م . كما ظهرت طبعة جديدة منه في لندن عام ١٩١٠ م .
- طبعته دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن بالهند عام ١٩٥٧ م . وظهرت طبعة نيودلهي (شاند وشركاه) عام ١٩٦٤ م .
- (٧) « شيخ الأطباء : أبو بكر محمد بن زكرياء الرازي » في كتاب « الفلاسفة المسلمون » تأليف اسماعيل حقي الأزميري . مطبعة الأوقاف الاسلامية باستانبول ، عام ١٣٤١ هـ - (١٩٢٢ م) .

(ب) المصادر الأجنبية

- (1) P. kraus :
'Epitre de Beruni contenant le repertoire des ouvrages de Muhammad
b. Zakariyya al Rasi,' paris, 1936.
- (2) J. Rusha :
'Al — Biruni als Quelle fur das Leben und die Schriften al — Razis's'' ISIS,5,
(1923), 26 — 50.
- (3) S. pines :
'Beitrage zur islamischen Atomenlehre,' Berlin, 1936.

مطالعات

تباينت آراء العلماء العرب في تحديد أساس مفهوم العلوم الطبيعية ؛ فمنهم من نظر إليها نظرة فلسفية باعتبارها تحدد القانون الطبيعي بقضيته الفلسفية وجوهره ، فالفارابي مثلاً يعرفها « بأنها العلوم التي تنظر في الأجسام الطبيعية ، وفي الأعراض التي قوامها في هذه الأجسام ، وتعرف الأشياء التي عنها والتي لها ، والتي بها توجد هذه الأجسام والأعراض التي قوامها فيها^(١) » . ويشتمل العلم الطبيعي عند الفارابي على ثمانية أجزاء ينقلها عن أرسطو وهي ، السماع الطبيعي وكتاب السماء والعالم ، وكتاب الكون والفساد والآثار العلوية ، والمعادن والنبات ، والحيوان والنفس .

أما ابن خلدون فيراه « علماً يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون ، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية ، وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعادن ، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل ، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك ، وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات^(٢) » . وعرفه طاش كبرى زاده بأنه « علم يبحث في أحوال الأجسام الطبيعية بأنواعها ، وموضوعه الجسم ، من حيث كونه متغيراً^(٣) » .

كانت العلوم الطبيعية اليونانية مجرد نظريات تستند إلى الأفكار الفلسفية وتقوم على منهج عقلي استنباطي ، لأنها اقتصررت على الحركة ، ومؤداها أن الأشياء تتحرك ، وعلى الإنسان أن يتصدى لهذه الحركة . ولما أخذها العرب درسوها دراسة علمية تستند إلى التجربة

الفيزياء والحيل عند العرب

محمد عيسى صباغ

أستاذ مساعد - قسم التاريخ

جامعة الكويت

(١) الفارابي : احصاء العلوم ، ٩١ ، حسين علي محفوظ : مؤلفات الفارابي ، ١٩٣ ، ٢٥٥ ، ٢٨٩

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ٤٩٢

(٣) طاش كبرى زاده : مفتاح دار السعادة ،

والملاحظة ، ومن ثم وضعوا لها القواعد والأصول الكثيرة ، وخلقوا بذلك علم الطبيعة التجريبي ، فجاءت النتائج والدراسات دقيقة وواضحة مبدعة بدرجة كبيرة ، حتى أنها لا تختلف في بعض المجالات عن النتائج العملية التي توصل إليها العلم الحديث^(٤) .

ومن الجدير بالذكر أن السريان لم يؤلفوا في العلوم الطبيعية كتباً منفردة عدا الأسقف الرهاوي ، الذي صنف كتاب « علة كل العلل » في النصف الثاني من المائة العاشرة ، وعليه فإن المراجع اليونانية التي نُقلت أو فسرت بالعربية ، كادت أن تكون المرجع الأساسي لتزويد العلماء العرب بأوليات العلم ، الذي توسع العرب فيه ، وأضافوا إليه فيما بعد ، وأوجدوا طرقاً متعددة طبقت في أبحاث العلوم الطبيعية ، ومن تلك الكتب الطبيعية التي ترجمت مبكراً ، كتاب الفيزيكنس لارسطاطاليس ، وكتاب الحيل الروحانية ، وكتاب رفع الأثقال لايرن ، وكتاب الدواليب ، والآلات المصنوعة على بعد ٦٠ ميلاً لمورطس ، وخاصة كتابي الأرغن البوقي ، والأرغن التزمري ، وكتب قطيزينوس وهيرون الاسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه ، وكتاب الثقل والخفة لاقليدس ، وكتاب ساعات الماء التي ترمي بالبندق لأرشميدس^(٥) .

ونتيجة لدراسة العرب لهذه الآثار ، استطاعوا أن يزيدوا عليها زيادات تعتبر أساساً لبحوث علم الطبيعة المتنوعة بما طوروه وابتكروه من آلات منذ وقت مبكر فهدت ميادين علم الطبيعة ممثلة فيما يلي :

- علم الحيل. أو الميكانيك ، وتشمل مراكز الثقل

وتطبيقاتها ، وصناعة الأواني العجيبة بأنواعها المختلفة .

- دراسة الصوت .

- دراسة الضوء والبصريات .

- علم السوائل .

- دراسة الجاذبية الأرضية والمد والجزر .

- فيزياء الغازات والرياح .

- أبحاث المغناطيس والبوصلة والرقاص .

- الآلات الحربية (كالمنجنيق والبارود) .

وأهم بحوثهم النظرية في الفيزياء كانت :

- البحوث في القوى .

- البحوث في الحركة .

وكان من أهم بحوثهم العملية المتميزة :

- إقامة الساعات لحساب الزمن .

وقبل أن نبحت انجازات العرب المسلمين في هذه الميادين ، فأننا نسجل بأن العرب قد أعطوا العلوم الطبيعية (الفيزياء والحيل) المنهج الصحيح في البحث العلمي ، بأن خلصوها من الشوائب التي ما فتئت تكدرها ، وذلك بطرح أساطيرها واعتماد منهج موضوعي في فك مغاليقها ، اذ نفوا الخرافات وحاربوها ، فقد تصدى ابن حزم مثلاً للزعم القائل أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع وأثبت أنها دعوى بلا برهان^(٦) ، ورفض العلماء العرب الادعاء بأن أنهار النيل وجيحون والفرات تخرج من الجنة ، وتسقي جميع المعمورة وردوها إلى أهلها وغيرها من الخرافات ، ووافق ذلك سعة اطلاع غدا دستوراً علمياً صحيحاً ،

(٤) كحالة : العلوم البحتة في المصور الإسلامية ، ٢١٦ ، مرجحاً : المرجع في تاريخ العلوم ، ٣٢٢

(٥) ابن النديم : الفهرست ، ٢٤٧ - ٢٥٩ ، الفلستني : صبح الاشمي ، ٧٦/٢ ، سارنون : تاريخ العلم ، ٢٣٥/٥

(٦) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ، ٣٦/٥ ، محمد بن يوسف العامري : الأمد على الأبد ، ٦٨ ، ١١٩ - ١٢١

ومن المؤكد أن العرب قد أطلوا على هذا العلم منقولاً عن اليونانيين وزادوا عليه وطوروه ، وبرز أبناء موسى بن شاكر (محمد ، أحمد ، الحسن) . كأشهر من كتبوا في هذا الفن^(١٠) ، وعلى الأخص ، أحمد بن موسى ، الذي نبغ كعقلية خلاقة مبدعة ، بابتكاراته العديدة التي وصفها بأنها « أوضاع غريبة وأشياء عجيبة في جر الأثقال ، وكلها عملت بالطلليات والبكر »^(١١) ، فقد اخترع أجهزة تمتلئ تلقائياً كلما فرغت من السوائل ، كدنان الخمر التي تفرغ كمية محدودة من ذاتها تعقبها استراحة محدودة ، وقناديل ترتفع فيها الفتائل ، ويصب الزيت فيها تلقائياً كلما أتت النار على جزء منها^(١٢) ، واخترع أيضاً آلات لخدمة الزراعة والفلاحة ، مثل المعالف المخصصة لحيوانات ذات أحجام خاصة ، تتمكن أن تصيب مأكلاً ومشرباً ، فلا تنازعها غيرها الطعام والشراب ، وآلة أخرى تثبت في الحقول وتصدر أصواتاً خاصة ، كلما ارتفع مستوى الماء في الحقول ، لثلا تضييع كميات الماء هدراً ، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية ري المزروعات ، وركب نافورات خاصة تندفع مياهها على أشكال مختلفة وصور متباينة^(١٣) .

ان الاطلاع على الكتاب الموسوم « بحيل بني موسى » حيث جمعت اختراعات أحمد بن موسى بين التطور الميكانيكي لابداعه^(١٤) ، يعطي صورة واضحة

وصاحبه بحث وتنقيب ميداني من خلال الرحلات التي كانت ضرورة من ضروريات العلم عند العرب ، فكانوا يسافرون للقاء أهل العلم والمعرفة والأخذ عنهم علماً وتعليماً والقاء ومحاسبة وتلقيناً^(٧) . كما جعل علماء العرب التجربة منهاجاً مهماً في دراستهم الفيزيائية ولعل مطالعة قصة حي بن يقظان ، وآراء ابن طفيل في الموازنة بين النبات والحيوان والمقارنة بينهما في الخلق ، تؤكد جدية العرب في التجربة والمراقبة العملية الميدانية^(٨) .

وحتى نلم باطار الصورة ، أرى أن نعرض لانجازات العرب ببعض الميادين التي أشرنا اليها سابقاً .

علم الحيل (الميكانيك)

أطلق اليونانيون على العلم المخصص للأجهزة الميكانيكية اصطلاح « نيوماتيك » ، وعربه العلماء العرب باسم « علم الآلات الروحانية وعمل الحيل » وعرفوه « بأنه علم الآلات الروحانية ، المبنية على ضرورة عدم الاخلاء ، كقذح العدل وقذح الجور ، وغيرها من آلات الشراب ، ومنفعته ارتياض النفس بغرائب هذه الآلات » ويبدو جلياً ، أن أكثر هذه الآلات توضح أنواعاً من الحيل المبنية على المبادئ الميكانيكية المنسوبة لهيرون الاسكندري وغيره من علماء اليونان^(٩) .

(٧) فروخ : عبقرية العرب ٨٨٢

(٨) نفس المرجع السابق ، ٩٦

(٩) الشمس : مقدمة لعلماء الفيزياء في الحضارة العربية الاسلامية ، ٢٣٣ ، وجام الجور : اثناء يملأ شراباً وينكس ، فلا ينصب منه شيء فيتوهم الشارب انه استوفي ماله ، أما

جام العدل فإذا صب منه فوق المقدار فرغ كل ماله

(١٠) زيدان : تاريخ دآب اللغة العربية ، ٢٨٦/٣

(١١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٨٥/٥

(١٢) Donald, R. Hill : the Genius of Arab civilization. P. 137.

(١٣) مرجعاً : المرجع ، ٣٥٣

(١٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

لتقدم علم الميكانيك عند العرب . وعلى أي حال ،
فيمكن أن نقسم المؤلفات العربية في الحيل الى قسمين :

الأول : يبحث في مراكز الأثقال وجوهر الأجسام بالقوة
اليسيرة .

والثاني : يبحث في آلات الحركات ، وصناعة الآواني
العجيبة ، وآلات هذه الصناعة .

أما مركز الثقل عندهم « فهو العلم الذي يتعرف منه
كيفية استخراج مركز ثقل الجسم المحور باعتباره حدا في
الجسم ، يتعادل نسبيا مع الحامل » ، ومن ألف فيه أبو
سهل الكوهي ، ونظريته مثبتة رياضيا^(١٥) . وقد أدى
بهم التعمق في دراسة مركز الثقل الى الاهتمام بالموازين
درسا وصنعا وتأليفا ، اذ يعتبرون العمل بالميزان من
عجائب النسبة . وكان أن وضع ثابت بن قرة
ت ٢٨٨هـ / ٩٠٠م أبحاثا في صفة استواء الميزان
والوزن واختلافه وشرايطه ، ففي كتابه (القرسطون -
القبان) . أتى بنظرية ، تعتبر من أهم نظريات العصور
الوسطى ، وملخصها « ان الرافع يكثر في حالة
الاتزان ، اذا وضعنا على أحد ذراعيه عمودا ثقيلًا ممتدا
على أحد ذراعي العمود ، ثم استبدلنا هذا العمود
بثقل ، وزنه مساو لثقل العمود ووضعناه على نصف
المسافة التي كان العمود ممتدا عليها وهذه النظرية تقترب
من حساب التفاضل والتكامل في عصرنا .

اهتم العرب بدراسة الموازين ، فاخترعوا أدقها ،
واستعملوا لموازينهم أوزانا متنوعة دقيقة ، وكان الفرق

بينها لا يصل الى ٠,٠٠٤ ، وهذه النسبة الدقيقة لا
يمكن الوصول اليها الا باستعمال أدق الموازين الكيميائية
الموضوعة في صناديق من زجاج ، لا تؤثر فيها تموجات
الهواء .

ومن الذين ألفوا في الميزان بالاضافة الى أبناء
موسى بن شاكر ، وثابت بن قرة ، برز أبوسهل
الكوهي ، والفارابي ، وقسطا بن لوقا ، وابن سينا
والحسن بن الهيثم ، وابن جامع والجلدكي . ويعتبر
كتاب عبدالرحمن بن نصر المصري ، أحسن ما وضع في
العصر الأيوبي ، فقد أعده للمحتسب لمراقبة الأسواق
أيام صلاح الدين . ومن الجدير بالذكر أن كتاب
« الميزان الطبيعي » الذي صنفه الرازي ت ٣٢٠هـ /
٩٣٢م ، يحظى بمنزلة مرموقة في تقديرنا ، فهو أول
كتاب استقل في نهجه عن أبحاث اليونان في علم
الميزان ، فقد خالف في صناعته وعمله قرسطون
أرشميدس ، فهو يستعمله والكفتان خارجتان عن
الماء ، وكلتاها مملوءتان مترعتان ، ونقصان الماء من كل
كفة منها بقدر مساحة الجرم الذي فيها بينما أرشميدس
يستعمل الكفتين وكلتاها في الماء غائستان ، وهو ذو
شعيرات^(١٦) . وقد جعل الرازي فصوله الثلاث
تشمط على :

- في العمل بالميزان .

- بيان الميزان الطبيعي .

- وضع شعيرات النسبة عليه^(١٧) .

(١٥) القلشندي : صبح الاعشي ، ١ / ٤٧٦

(١٦) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٢٩٠

(١٧) الخازني : ميزان الحكمة ، ٨٣

(معصرة للزياتين) . كلها تعتمد على نقط الارتكاز والمحاور بعد الضغط عليها من الطرف الآخر^(٢١) .

في آلات الحركات وصناعة الأواني العجيبة :

ونعني بها الآلات والأواني التي ابتكرها العلماء العرب للمنفعة العامة كتدبير المنزل أو آلات الحرب والري والآلات الفلكية والساعات أو للتسلية كالدُمى التي تتحرك وحدها أو التي تكشف حيل المشعوذين ، وتقوم هذه الآلات على الحركات الميكانيكية الناتجة من ذات الآلة ومن الماء أو من الرمل ، وكنا قد أشرنا إلى تفوق بني موسى ، وخاصة أحمد في هذا المجال ، ونوهنا بأهمية آلاته التي تجاوزت المائة ، وعظيم فائدتها في دفع العلم الميكانيكي .

وبالإضافة إلى كتاب حيل بني موسى ، فإن هناك مجموعة من المؤلفات عُنيّت بوصف الآلات الميكانيكية ، وأعطت رسوماً توضيحية ، تبين طريقة صنعها وكيفية عملها ولعل من أهمها كتاب « الحيل أو الجامع بين العلم والعمل » لأبي العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري ت ٥٢٩هـ / ١١٣٤م . وقد أولى فيه بديع الزمان الجزري اهتماماً خاصاً بالمسائل العملية لعلم الهيدروليكا والآلات المتحركة بذاتها^(٢٢) ، وقد ألفه للملك الصالح محمد بن قرا أرسلان من آل أرتق بديار بكر في النصف الثاني من القرن ٦هـ بعد عمله في بلاط بني أرتق قرابة ٢٥ سنة ، وحوى الكتاب صورا للبنكام الذي يعرف به ما مضى من ساعات النهار ،

أما كتاب « ميزان الحكمة » الذي وضعه عبدالرحمن الخازني ، فهو من الكتب المعتمدة في علم الطبيعة ، بل وأهم ما ألف في (mecanique) علم الميكانيكا والحيل وموازنة السوائل ، اذ يشتمل على نظرية الثقل والكثافة ونظرية الروافع ، وتطبيقات للميزان ، وطرق لقياس الزمن ، ويضاف إلى ذلك ، أنه من أكثر الكتب استيفاءً لبحوث الميكانيكا . ومن دراستنا لكتاب ميزان الحكمة ، نرجح أنه كان لدى الخازن آلات خاصة لحساب الوزن النوعي ، وأخرى لقياس حرارة السوائل^(١٨) بل أنه ضمن كتابه مصورا لآلة مركبة من عدة أعضاء ، وبها خمس كفات توزن بها الأشياء في الهواء والرطوبات ، وتتحرك على ذراع واحد^(١٩) .

ومن ناحية ثانية ، فقد كان للعرب بحوث نفيسة في الروافع ، وكان لديهم عدد غير قليل من آلات الرفع ، ومع أن فضل اليونان لا ينكر في هذا المجال ، وخاصة إيرن إلا أن العرب ابتدعوا روافع سهلة العمل ، قليلة التعقيد ، وكتاب « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » للجزري ضم صورا عدة لتلك الروافع وشرح طريقة عملها . وتفوق على ما سواه ، وليس معنى ذلك أنه الكتاب الوحيد في هذا المجال ، فقد صمم أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت ت ٥١٢هـ / ١١٣٤هـ آلات بأشكال هندسية ، واستعملها لرفع الأثقال^(٢٠) . وهناك آلات بسيطة جعلت لجر الأجسام بالقوة اليسيرة ، شرحها الخوارزمي في كتابه ، مفاتيح العلوم ، ومنها البرطيس والمخل والبيرم وأبوغلبون والثقل واسقاطولي والأسفين واللولب وغالاغرا

(١٨) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٣٠٥

(١٩) ماجد الشمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٤١ - ٤٢

(٢٠) مجلة تاريخ العلوم العربية : حلب ، السنة الأولى ، العدد الأول ، ١٩٧٧ ص ٥٦

(٢١) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٢

(٢٢) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٣٠٥ ، مجلة تاريخ العلوم ، ١٩٧٧ ع ١٤ ص ٥٦

وصورا لآلات رفع الماء ، وآلات سرية تظهر حركات مذهشة ، كرجل يذق ساعة أو رجل يمشي أو يتحرك ، ورسوما ايضاحية لتركيب الدمى وحركاتها وأشكالها كما أن الكتاب يعد مرجعا هاما لدراسة الساعات عند العرب ، وطرق صنعها وعملها^(٢٣) .

ووضع عبدالرحمن الخازني ت ٥١٢هـ / ١١١٨م ، كتابا في الآلات العجيبة تعرض فيه لعمل آلات الرصد ، وعرف فيه أيضا علم الهيئة ، وكانت تلك الدراسات هي التي مهدت لاختراع البارومتر .

وكان البيروني ت ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م قد ذكر في كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » بعضا من الآلات ، ووصف طريقة عملها ، وخاصة آلات رفع المياه الجوفية من الآبار والعيون ، ومن المعلوم أن للبيروني دراسات مهمة في السوائل والمطر والسحاب والضباب والثقل النوعي ، وتشكل المياه في باطن الأرض وغيرها .

وصنف مجهول لعله أبوعامر (أحمد الأندلسي) ، كتاب « الباهر في عجائب الخيل » ويعرف أيضا « بكتاب الباهر في النارنجات » ، وصف فيه أنواعا من الدمى تتحرك بما يشبه أعمال الحواة ، قصد به الكشف عن حيل بعض المشعوذين ، كادخال البيضة في الزجاج ، وألعاب الأقداح وإخفاء الخواتيم وغيرها^(٢٤) .

وعقد الخوارزمي في كتابه « مفاتيح العلوم » فصولا لصناعة الخيل ، وأفرد فصلا خاصا سماه « في حيل الماء وصناعة الأواني العجيبة »^(٢٥) ، هذا بالإضافة إلى

المؤلفات التي بحثت في الساعات وعملها ، وآلات الحرب التي ترمي البندق وغيرها . أما تقي الدين الراصد ت ٩٩٤هـ / ١٥٨٥م ، فقد كان كتابه « الطرق السنية في الآلات الروحانية » اجمالا لهذه الآلات وأشكالها وأنواعها^(٢٦) .

وأخيرا فقد نشر المستشرق الفرنسي كارا دي فو كتابا عربيا في الميكانيكيات « الحيل الروحانية مخانيقا للماء » ويعتقد أنه لفيلون^(٢٧) ، وهو مفقود باليونانية إلا أنه محفوظ بنصه العربي ، كما أن قسما صغيرا منه موجود باللاتينية نقلا عن النص العربي ، وقام Valentin Rose بنشر النص اللاتيني في Anecdota graeca et graecolatina الصفحات ٢٨١ - ٣١٤م ، برلين ١٨٧٠م . ثم أعاد Wilhelm Schmidt طبعه De ingenis Spiritualibus وباللاتينية والألمانية ، وبارون كارا دوفو باللغة العربية والفرنسية .

Le Livre des appareils pneumatiques et des machines hydrauliques, Notices et extraits de MSS de la Bibliothèque Nationale, 38,211,pp,paris, 1092.

ومن هذه الآلات التي ابتدعها العلماء العرب ما يلي :

- آلات بني موسى للتدبير المنزلي ، مثل المعالف والمشارب وخزانات الحمامات ، ودنان الخمر التي

(٢٣) زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ٣ / ٢٧٤

(٢٤) نلس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٢٥) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٣ - ١٤٥

(٢٦) توجد نسخة من المخطوطة في جستريني تحت رقم ٥٢٩٢ اشار إليها حسن الحسن في كتابه عن تقي الدين الراصد

(٢٧) مجلة المشرق ، السنة السابعة ص ٢٦٥

أبي القاسم عبدالغني بن مسافر (علم الدين الحنفي)
٥٦٤هـ - ٦٤٩هـ / ١١٦٨ - ١٢٥١م . حيث ارتبط
اسمه « بفن السواقي » وكان علم الدين الحنفي قد خدم
أمير حماة ، وأنشأ له النواعير على نهر العاصي (٣١) .

وامتدت ابتكاراتهم الى صنع الأواني العجيبة ، أي
الأوعية الصغيرة التي تدخل في الأعمال المخبرية ،
كالأنابيب الزجاجية والبواتق والدوارق ، وأدوات الرفع
البسيط وغيرها . فالرازي ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م ، مثلاً
يصف ما يزيد على عشرين جهازاً ، منها الزجاجي ،
ومنها المعدني (٣٢) .

ومن ناحية ثانية ، فقد وصف الخوارزمي ، صناعة
الأواني العجيبة التي تتحرك بحيل الماء ، كالاجانة التي
توضع فوق الماء ، وتعلق بها خيوط ، كما تعلق بكفة
الميزان ، وتشد بتلك الخيوط الأجسام التي يراد
حركتها ، فكلما امتلأت الاجانة ، رسبت في الماء ،
وجرت الخيوط ، وما يتعلق بها ، فيحدث لذلك حركة
تختلف أشكالها بالمراد منها (٣٣) . ومن هذه الأدوات
والأواني التي وصفها الخوارزمي نذكر ، الأواني
السحارة ، والسحارة المخنوقة التي تعمل في جام
العدل ، والكوز المغريل السفلى ، والبيثون ، والمليار أو
المينار ، (اناء كبير يسخن فيه الماء) وسرن الرحي ،
وبركار السرن ، والقطارات ، الحنانات (آلات تعمل
فتحن مثل صوت المعازف والمزامير والصفارات وغيره

تسكب القليل ثم تنقطع فترة ، والقناديل التي ترتفع
فتايلها وزيتها تلقائياً ، وآلات مرصد سامراء ، ذات
الشكل الدائري ، والتي تحمل صور النجوم ورموز
الحيوانات ، وتدار بقوة مائية (٣٨) ، واذ كلما غاب نجم
من السماء ، اختفت صورته من الآلة ، وهذا يتطلب
معرفة دقيقة في علم الفلك ، ومهارة فائقة في علم
الميكانيكا تتميز بالخيال الخصب والأفكار العلمية التي
تبرز منها الدقة والتعمق والموضوعية العلمية (٣٩) .

ومن الجدير بالذكر ، أن ابتكار الأدوات الفلكية ،
كان فناً متقدماً عند علماء الفلك العرب ، وقد أدت
آلاتهم الفلكية الغرض المرجو منها ، مما أوجب
الاستمرار في استعمال بعضها حتى في عصرنا الحديث ،
كآلة السدس والربع والاسطرلاب وغيرها .

- آلات رفع الماء : الروافع والنواعير

ومن هذه الروافع ، آلات ترفع من غمرة وبئر ليست
بعميقة ونهر جار ، وآلات ترفع من ماء من غمرة الى
مكان مرتفع بدابة تدير سهما ، وروافع للماء من غمرة أو
بئر تديرها دابة ، وآلات أخرى في بركة ، وسطها عمود
مجنوف ، عليه قرص ، يعلوه تمثال بقرة تدير دولاباً
بأربعة وغيرها من الآلات ، ومن أشهرها مضخة ابن
الرزاز الجزري ، والتي تعد الجسد الأقرب للآلة
البخارية (٣٠) .

وعلى الأنهار ركبوا النواعير ، وقد عرف بها قيصر بن

(٢٨) جورج سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة لقيف من العلماء ، ٥ / ٢٤٠

(٢٩) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٢٩١

(٣٠) مجلة تاريخ العلوم ، حلب ، العدد الأول ، ٥٦

(٣١) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٣٠٦ ، حكمت نجيب : دراسات ، ٢٩١ ، ولقد وردت نماذج لوسائل الري التي استخدمت في السادس هـ في كتاب

The Genius of Arab Civilization PP.181.184. ومنها مقياس النيل عند الروضة

(٣٢) ماجد الشمس : مقدمة العلم ، ٤١

(٣٣) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٣

والنضاحات والفوارات ، والمقاط القلس والشاقول (٣٤) .

وهناك نوع من هذه الأواني تكون على هيئة الأنابيب والبرايخ - أنابيب الفخار والقنوت - ومنها ، المي دزد (سارق الشراب) ، وهو اناء يملأ شراباً وينكس ، فلا ينصب منه شيء فيوهم الشارب أنه استوفى ما فيه ويسمى جام الجود وضده جام العدل ، لأنه اذا زيد فيه شيء يفوق المقدار ، انصب ما فيه كله (٣٥) ، وكذلك المهندس ، وباب مطحون وباب المدفع (المستق) وآلة الدبة ، وهي آلة من نحاس أو غيره مجوفة ولا متنفس بها البتة ، وتوضع في سطل أو نحوه ، ثم يصب في السطل ماء صبا رقيقا ، فكلما ازداد الماء ، طفت تلك الآلة ، ورفعت ما يتعلق بها من الأجسام فيحدث لذلك حركات (٣٦) ..

واستفاد بعض العلماء العرب من الرمل والخردل والجاورس في صنع آلات بحيل بدل الماء ، وتقوم على أنابيب بربخية ، فوقها قطع من الرصاص المشدود بخيط معلق عليه ما يحتاج الى تحريكه ، ويتلخص عمله بأنه كلما تناقص الرمل أو الجاورس تحرك الرصاص الى الأسفل وحرك الخيط وما هو متصل به ومن جهة أخرى ، فقد نشأ علم خاص يسمى « علم الآلات الحربية » وهو علم « يعرف منه كيفية اتخاذ الآلات الحربية ، مثل المنجنيقات والعراذات والخنزيرات والسهام والأسطام وشمل أيضا ، رمي القوس والبندق (٣٧) وعد من فروع علم الهندسة . وقد

نجحت العديد من المكتبات العربية والأجنبية باقتناء العديد من المؤلفات التي تشرح كيفية صنع المجانيق والأقواس والبندق وما إليها ، وكان كتاب « تبصرة أربساب الأبواب في كيفية النجاة في الحروب من الاستواء » ، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء « لمرضي بن علي بن مرضي الطرسوي ت ٥٨٩هـ » ، نشره كلود كاهن بيروت ، ١٩٤٨ ، من أهم كتب الحروب ، فقد وصف فيه طرق صنع السيوف ، والأقواس والرماح والتراس والدروع والجواشن واللتت والأعمدة والدبابيس والمنجنيقات العربية والفارسية والرومية (الفرنجية) . وطرق صنع الدبابات والأبراج والستائر والمثلثات والنفوط وخاصة النفط الذي يمشي على الماء ويصلح لحرق المراكب .

ان صنع الساعات والعمل بها ، كان من أهم ما عرفه العرب في علم الميكانيكا ونظرا لأهميته ، فأرى أن نفردها مكانا في هذا البحث .

الساعات العربية :

يعتقد بعض العلماء أن الإشارة التي وردت في سفر اشعيا « بان الظل رجع على درج آحاز عشر درجات » انما قصد بها الساعة الشمسية المعروفة بالزولة والتي تقوم فكرتها على تقدير الوقت بحسب اتجاه الظل ، فينصب جسم مواز لمحور الأرض على سطح مستو ، قد رسمت عليه الزوايا المطابقة للساعات ، واذا وقع ظل الجسم عليها ، يحدد الوقت بموجبه (٣٨) .

(٣٤) لتوضيح عمل هذه الآلات انظر المرجع السابق ، ١٤٣

(٣٥) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٣٦) المرجع السابق ، ١٤٣

(٣٧) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١/ ١٢٥

(٣٨) مجلة المقتطف ، المجلد ٧٠/ ١٥٩ ، مختار القاضي : أثر المدينة ، ٢٤٣ ، سارتون : تاريخ العلم ، ٢٤٦/٥

الشاهد والغسق والعتمة والفحمة والموهن والقطع والجوشن والعبكة والتباشير والفجر الأول والمعترض والأسفار^(٤٠) ومع أن هناك أسماء أخرى فرضتها اختلاف البيئات القبلية وأسباب موضوعية أخرى ، إلا أنها لا تخرج في معناها عن المشار إليها ، وأطلق عرب الجاهلية على من يعمل بالساعات هذه من غير رجال المعابد ، اسم « المساوعة »^(٤١) ، وهذه دلالة أخرى على اهتمامهم بالوقت وتحديدده .

وفي صدر الاسلام ، كان تحديد مواقيت الصلاة يتم بحركة الشمس اليومية اليوم يبدأ عندهم بصلاة المغرب ، وذلك بعد غروب الشمس ، والعشاء عند اختفاء الشفق الأعلى ، والفجر تبدأ بظهور الفجر ، أما الظهر ، فعندما تبدأ الشمس في انخفاضها بعد عبورها خط الزوال ، وصلاة العصر ، تحل عندما يساوي طول ظل أي قائم ظله عند الظهر ، مضافا اليه طول القائم ، وكانت معرفة الوقت من الأمور التي يتوجب على كل مسلم معرفتها ، حتى أن شاعرهم يقول :

ولا خير ، فيمن كان بالوقت جاهلا
ولم يك ذا علم بما يتعبد^(٤٢)
وقد أجمل أحدهم ضبط الوقت بهذه الأبيات ، ولعلها لابن يونس المصري

ومعرفة الأوقات فرض معين
على عقلاء المسلمين مؤكدا
أنى ذاك في القرآن يصاح مجملا
وفسره خير البرية أحمد

ونحن وإن كنا لا نميل لمعالجة تطور صناعة الساعات والعمل بها عند الأمم الأخرى ، كالكلدان واليونان لخروجه عن مظان بحثنا ، غير أن حساب الزمن وفق النظام السومري - البابلي لا يزال قائما ، ثم ان الكتاب التاسع لفترفيوس قد عني بالمزاو أو الساعات المائية ، ولم يُعثر على نص يوناني لكتاب فيلون « في الحيل الروحانية وميخانيقا الماء » الا بالعربية ، الأمر الذي يؤكد أنه كان لدى الأمم السابقة اهتمام بمسألة الوقت وتحديدده من جهة ، وأن العرب قد اطلعوا عليها من ناحية أخرى^(٣٩) .

وفي رأينا ، أن ذاك التطور الذي وصل اليه عرب الأنباط والحضر وتدمر والحيرة ، لا يمكن أن يتم دون الالتفات لعنصر الزمن ، اذ لا يعقل أنهم بلغوا مستوى حضاريا متقدما بلا معرفة متقدمة عن الساعات وتقسيم الزمن ، سيما وأنهم اهتموا بالأرصاء الفلكية ، هذا بالإضافة الى أن عبادة الأجرام السماوية كانت جزءا من عبادة الصائبة . وما يهمننا هو التأكيد على اهتمام عرب الجاهلية بأمر التوقيت لعوامل تتعلق بشئون حياتهم اليومية ، فالزراعة فرضت عليهم الالتفات الى تقلبات الجو ، كما أن الأعياد وأمور العبادة ، جعلت رجال الدين في المعابد والكهان يقومون بضبط الوقت اعتمادا على الفلك والنجوم والأقواء ، ويبدو أن تحديد الزمن بواسطة الآلة ، مكن عرب الجاهلية من تسمية كل ساعة من ساعات النهار الأربع والعشرين ، باسم خاص ، فساعات النهار هي الذرور والبزوغ والضحي والغزاة والمهاجرة والزوال والدلوك والعصر والأصيل والصبوب ، والحدود والغروب ، وساعات الليل هي ،

(٣٩) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ٤٦٩/٨ ، ابن سيده : المخصص ، ٤٤/٩

(٤٠) أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، مقالة ، علم الميقات لداليدكنج ، ٣٩١

(٤١) نفس المرجع السابق ، ٣٩٢

(٤٢) الشمس : مقدمة ، ٣٦ ، ابن أبي أصيبعة : حيون الانبياء ، ٤٨٣

فمهما رأيت الظل قد زاد فيثبه
فصل صلاة الظهر اذ ذاك يرصد
وزد قامة ظل الزوال فانه
أوان لوقت العصر محدد
وعند غروب الشمس قم صل مغربا
فليس لها وقت سوى ذاك مفرد
وصل العشاء وأنت للجوناظر
اذا الشفق الأعلى يغيب ويفقد^(٤٣)

ومما يجدر ذكره أن العرب قد أقاموا الساعات في
المساجد والمدارس ومعاهد العلم ، وعينوا لها المهندسين
للاشراف عليها والعناية بها ، وكان من مهام المؤذن أن
يكون خبيراً بتحديد أوقات الصلاة ، وألفوا في الميقات
والموقتين والساعاتيين بالجوامع والمدارس ، واتخذت
مؤلفاتهم أشكالا عدة ، فمنها :

مؤلفات في الساعة الشمسية « أو المزولة » :

كانت الساعة الشمسية ، النقالة ، أكثر اختراعاتهم
أصالة وفنا ، وهي المسماة « ساعة الرحلة » ، لا سيما
بعد أن أصبحت دائرية الشكل ، وجعلوا بوسطها محورا
لتحديد موضع الشمس والوقت ، ومن الساعات
الشمسية العربية ما عرف « بالرخامة » وهذا النوع من
الساعات كثرت المؤلفات العربية فيه ، فثابت بن قرة
ت ٢٨٨هـ / ٩٠٠م ، وضع كتابا في آلات الساعات
التي تسمى رخامات^(٤٤) وللخوارزمي ٢٣٢هـ ، كتاب
« الرخامة »^(٤٥) ، ولحبش بن عبد الله المروزي

ت ٢٢٠هـ كتاب الرخائم ، ولمحمد بن كثير الفرغاني
كان « حيا سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م » « عمل
الرخامات »^(٤٦) ، وألف أبو عبد الله الشلوي ، كتابا
« في الرخامة المنحرفة وكتابا آخر في الرخامة
المستطيلة »^(٤٧) . ولا إبراهيم بن محمد بن حبيب
البغدادى ت ١٨٨هـ كتاب « مقياس » ويذكر أنه لا
تزال هناك ساعتان شمسيتان ، الأولى في متحف طوب
قابي في اسطنبول على شكل ربع كرة ، قسم تجويفها الى
اثني عشر قسما ، ومحمولة على قاعدة من نفس المادة وفي
سجلها ، أنها حملت من مدائن صالح ، مما يؤكد ما
ذهبنا اليه أن عرب الجاهلية قد عرفوا العناية بالوقت ،
والأخرى بجوار الغريقة ، بجامع القرويين بالمغرب ،
صنعها (المعدل) محمد بن عمر ت ٧٩٤هـ /
١٣٩١م ، وأضاف مؤلف جامع القرويين ان هناك
أربع ساعات من هذا النوع ثلاثت جلها اليوم ، كما أن
هناك واحدة أخرى بأعلى الصومعة^(٤٨) . وحيث أن هذا
النوع لا يدخل ضمن علم الحيل ، فاننا نكتفي بهذه
العجالة فيه ، أما النوع الآخر من تأليف الساعات ،
والذي قام أساسا على « علم الحيل في الماء » أو ميكانيكا
الماء ، ونبغ فيها العديد من العلماء العرب فندرجها تحت
عنوان التأليف في الساعات المائية .

مؤلفات في ساعات الماء :

اقتصرت الفائدة في استعمال الساعة المزولة على أيام
الصحو ، أما في أيام الغيم والمطر فقد تعذر استعمالها ،

(٤٣) ابحاث الندوة العالمية الاولى ، ٣٩٢

(٤٤) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٧ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ٥١/٢٠ ، البغدادى : هدية العارفين ، ٦/١

(٤٥) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٨ ، ٤٠٣

(٤٦) البغدادى : هدية العارفين ، ٢/٥

(٤٧) ابن النديم : الفهرست ، ٣٩٨ ، الشمس : مقدمة ، ٣٦

(٤٨) التازي : جامع القرويين ، ٣٤٧/٢

على نماذج تلك الساعة^(٥٢) غير أن العلماء العرب قد ارتقوا بهذه الفكرة البسيطة ، ليدخلوها ضمن عمليات رياضية منظمة منسقة أساسها الاستفادة المثل من مكتشفاتهم في علم الحيل ، حتى إذا ما وصلت هذه الاستفادة مرحلة متقدمة ، جعلوها علما ، فنقرأ في كشف الظنون^(٥٣) ، تعريفات لعلم البنكومات ولعلم آلات الساعة ، وعلم البنكومات عندهم يعني الصور والأشكال المصنوعة لمعرفة الساعات المستوية والزمانية وذلك بآلات يقدر بها الزمن ، وموضوعه « حركات مخصوصة في أجسام مخصوصة ، تنقضي بقطع مسافات مخصوصة ، وغايته معرفة أوقات الصلوات وغيرها ، دون ملاحظة حركات الكواكب ، وكذلك معرفة الأوقات المفروضة للقيام في الليل ، تهجدا أو للنظر في تدابير الدول ، والتأمل في الكتب والصكوك والخرائط المنضبط بها أحوال المملكة والرعايا واستمداده من الرياضة والطبيعة » أما علم آلات الساعات ، فيبحث في الصناديق والضواريب وأمثال ذلك .

كان هذا يجري في الوقت الذي اهتم فيه البابا سلفستر الثاني بأخذه السحر ، واستعانته بقوة الشيطان ، بعد صنعه ساعة في مدينة كلدبرج ٣٥٦هـ / ٩٩٦م ، تدور بثقل دواليب^(٥٤) ، ولا ندري ان كان سلفستر قد بنى ساعته على غمط تلك الساعة التي قيل أن هارون الرشيد قد أهدها ١٩٢هـ / ٨٠٧م الى شارلمان ، وقد أغرب واصفوها غاية الاغراب في وصفها ، حيث أورثت رجال الدين حيرة وذهولا ،

لأنها تقوم أساسا على الظل ، ولهذا اضطر العلماء الى استنباط الساعة المائية لحل المشكلة الوقتية ، وبدأت بسيطة بوعاء صنع من مواد مختلفة وبأشكال متعددة ، يصب فيه الماء وينفذ الى وعاء آخر بقدر ، ليقاس الوقت بمقدار ما ينساب من الماء بوحدة زمنية اصطلاحية^(٥٥) ومن ثم زيد منها دولا ب أو أكثر يدور بتناقص الماء في الوعاء ، فيدير عقربا على ميناء فتعرف الساعة^(٥٦) بذلك .

ولعل من معترض يرى أن الساعة المائية ما كانت الا تطويرا لتلك التي كانت موجودة عند الكلدان والهنود واليونان . وفي تقديرنا أن الساعة الكلدانية المائية الهندية واليونانية ، لم تختلف كثيرا عن الساعة الرملية مع فارق ابدال الرمل بالماء ، وكان القصد منها تعيين فترة للقيام بعمل معين ، دون الأخذ بعين الاعتبار زمنا محدودا ، فالخطيب مثلا كان يمنح مهلة للكلام ، تنقضي بفراغ محتويات قارورة من سعة معينة ، بقطع النظر عن سرعة التفريغ ، اذ لم تحفل بالتدرج وحتى لم تربطه بزمان معين^(٥٦) .

وليس معنى هذا أن الأمم السابقة لم تعرف الساعة المائية الميكانيكية ، فقد ذهب سارطون الى أن كيتسيبوس قد اخترع ضاغطة وأرغنا مائيا وساعة مائية ، كما أنه استخدم الماء في القوى الضاغطة ، وتحكم في ذبذبات الهواء لاجراج أصوات معينة ، ويكون بذلك قد أدرك الحاجة الرئيسية للاستطوانة والكباس والصمام ، وأدخل فيلون البيزنطي بعض التحسينات

(٤٩) الشمس : مقدمة ، ٤٥

(٥٠) مجلة المتكلم ، م ٧٠ ص ١٦٠

(٥١) سارطون : تاريخ العلم ، ٢٣٧/٥

(٥٢) سارطون : تاريخ العلم ، ٢٣٦/٥

(٥٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١٤٧/١ ، ٢٠٠

(٥٤) الشطي : مجموعة ابحاث عن تاريخ العلوم الطبيعية ، ١٩ .

ويبدو أن تلك الساعة كانت مائية ، صنعت من نحاس مذهب ولها في وجهها اثنا عشر بابا صغيرا بعدد الساعات ، وكلها مضت ساعة فتح باب وسقطت منها كرات معدنية ، تقع على جرس ، فيقرع بعدد الساعات وتبقى الأبواب مفتوحة تفتح الأبواب الاثنا عشر ، وحينئذ تخرج صور اثني عشر فارسا على خيول تدور على الصفيحة ، ثم تدخل وتغلق الأبواب وراءها .

ونحن وان كنا نشك في وجود مثل تلك الساعة في ذلك الوقت ، لاننا لم نعثر على أية اشارة في المصادر العربية التي اطلعنا عليها ، وذهب بارتولد في بحثه عن تاريخ فلسطين في العصور الوسطى ، الى أن سفارة هارون الرشيد التي أنيطت بها مهمة السفر لمقابلة شارلمان ، ومعها الساعة والمفاتيح ليست الا من وضع اسحق اليهودي لتحقيق أهداف سياسية أصبحت اليوم معروفة ، ومهما كانت التحليلات والدراسات ، فان ايراد الخبر في المراجع الأوربية فيه اقرار أوربي ضمني ، بأن العرب قد بلغوا شأوا في صناعة وعمل الساعات منذ فترة مبكرة (عصر هارون الرشيد) ، وبالتالي تقدم علم الحيل عندهم^(٥٥) ، ومما يجدر ذكره ، أن العرب أطلقوا على الساعة المائية عدة تسميات ، مثل ، ميقاتية ، بنكام ، فنكان ، فنجانة ، منجاة ، القطان .

ولعل أبا يوسف الكندي ت ٢٤٦ هـ / ٨٧٣ م ، كان أول من ألف رسالة في عمل ساعات مائية على صفيحة تنصب على السطح الموازي للأفق ، خير من غيرها^(٥٦) ومبعث شكنا ما ذكره الجاحظ « أن المسلمين

كانوا يستعملون بالنهار الاسطرلابات وبالليل المكبات^(٥٧) ولهم بالنهار ظل يعرفون به ما مضى من النهار ، وما بقي ، وأضاف « وأيناهم يتفقدون المطالع والمجاري^(٥٨) ، فهلا عرف أو سمع الجاحظ برسالة الكندي وهو المنقب الدؤوب ، أو أنها أي صنعة الساعة التي وصفها الكندي لم تكن منتشرة ، واستمر الناس يعرفون الأوقات بالمطالع والمجاري الفلكية .

وكان مؤلف أبي عبد الله الخوارزمي ، (كان حيا ٣٨٠ هـ / ٩٧٦ م) . وما فيه من وصف الساعات المائية ، كآلة النوبة والفيل وصندوق الساعات وغيرها ، أكثر توضيحا من المؤلفات السابقة^(٥٩) .

يبدو أن التقدم الفعلي لصناعة الساعات والعمل بها قد تم في القرون الثلاثة السادس والسابع والثامن الهجرية ، اذ وردت إشارات لمؤلفات في الساعات وصناعاتها ، وتخصص عدد من المهندسين في صنع الساعات وآلاتها ومنهم ، علي بن تغلب (ثعلب) بن أبي البيضاء ت ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، وينسب اليه تدبير الساعات على أبواب المدرسة المستنصرية في بغداد ، وقيل أنه هو الذي صنعها^(٦٠) .

محمد بن رستم الساعاتي ت ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ، وهو الذي صنع الساعات على باب الجامع الأموي بدمشق في زمن نور الدين ، محمود بن زنكي ، وكانت

(٥٥) مجلة المقتطف ، مجلد ١٦٠ / ٧٠ وبجدة الرسالة : الساعات العربية لاجد دهمان ، عدد سنة ١٩٣٦ / ٢ ٦٧٤

(٥٦) البغدادي : هدية العارفين ، ٥٤٠ / ٦ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٣٢ / ٢

(٥٧) ماجد النمس : مقدمة ، ١١٧ ، المكبات (ج مكبة) ، وهو مايلف عليه الغزل او الحيط

(٥٨) الجاحظ : الحيوان ، ١٠٧ / ٢

(٥٩) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٢ - ١٤٦ ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٥١ / ٢

(٦٠) الرسالة : ١٩٣٦ ، مقالة دهمان ، ٦٧٤ ، ناجي معروف : تاريخ معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٥٥ / ٢

النبوغ ، فقد عمل نحاساً ثم نجاراً ، وقرأ الهندسة والرياضيات ، واشتغل بالفلك وعمل الأزياج ، ثم انقطع للطب ، وفي زمنه تخربت ساعات المسجد الأموي ، فأصلحها وكان له في دمشق عطاءان ، أحدهما من طبه في البيمارستان الكبير ، والثاني من تفقده لاصلاح ساعات المسجد الأموي ، ومن مؤلفاته :

- رسالة في معرفة رسم التقويم .

- مقالة في رؤية الهلال (٦٤) .

- أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري ، نبغ في حوالي سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م ، وكنا قد أشرنا إليه سابقاً ، ولكننا نضيف بأن كتابه « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » يعد من أهم المؤلفات العربية في صناعة الساعات المائية بصفة خاصة ، وآلات الحيل بصفة عامة ، ولا أدل على أهميته من استعراض الأبحاث التي كتبت عن ابن الرزاز ، وكان الدوميلي وجورج سارطون وفيدمان وهاوز قد درسوه ، أما المقالات والأبحاث والكتب التي تناولت أعمال ابن الرزاز الجزري فاهمها :

Carra de vaux, Note Sur Les mecaniques de bedi ez-zar el- Djazari et sur un appareil d'hydraul attribue a Appollonius de Perge (Congress d'histoire de Paris, 5 section, 122-12. H.Suter:Mathematiker (137 — 226) 1900.

له الأنعام الكثيرة من السلطان ، وقيل أنه هو الذي صنع الساعة على باب جيرون (٦١) .

رضوان بن محمد رستم الساعاني ت ٦٢٠ هـ / ٢٢١ م ، وقد استوزره الملك الفائز ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وقيل أنه بعد وفاة والده المشار إليه سابقاً انتدب ابن النقاش (لعله محمد بن الحسين بن محمد التنوشي) ، لاصلاح خلل وقع في ساعات المسجد فزادها خراباً ، فعهد الى رضوان ، فأصلحها ، ومنها ساعة شمسية كبيرة تمثلت فيها الشمس والسيارات ، وقام رضوان أيضاً بتحسين ساعات أبيه ، ووضع كتاباً شرح فيه « علم الساعات والعمل بها » بالتفصيل والدقة ، صور كل قطعة منها وسمّاها باسمها ، ووصف مكانها وعملها ، ومن الكتاب نسخة دار الكتب والوثائق القومية في جملة كتب زكي باشا ، منقولة من مكتبة كوبرلي (٦٢) .

أبو عبدالله القيسراني : وهو محمد بن نصر بن صغير بن داغر اخزومي ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م ، أصله من حلب ، وهولده بعكا ووفاته بدمشق ، وقد تولى الاشراف على ساعات باب جيرون بالجامع الأموي ، ثم خزانة الكتب ، وكانت بينه وبين ابن منير الشاعر الطرابلسي مكاتبات وأجوبة ومهاجاة ، وقد أورد صاحب مرآة الزمان خبر انتقال ابن القيسراني من الساحل الفلسطيني الى حلب (٦٣) .

- محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي الدمشقي ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م . وهو عالم بالهندسة والطب ، تعد حياته نادرة من نوادر الدهر ، تجلّى فيها

(٦١) التمهيد : مقدمة ، ٥٤ - ٥٥ ، مجلة الرسالة (١٩٣٦) ، ٦٧٢/٢ .

(٦٢) التمهيد الدمشقي : المدارس في تاريخ المدارس ، ٣٨٨/٢ ، ياقوت : معجم الادباء ، ٢١١/٤ .

(٦٣) زيدا : تاريخ آداب اللغة ، ٢٧٤/٢ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ٢١٣/٨ ، محمود ابراهيم : صدي الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، ٢٩ .

(٦٤) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ١٥/٤ .

هـ / ١٣٤٢ م ، ويتكون من قنطرة طولها نصف أو ثلث ذراع تقريباً ويدور على الدوام من غير ماء ، وبموجب حركات الفلك ، ورتب على أوضاع يعلم منها الساعات المستوية والساعات الرملية الزمانية ، ونستشف من النص ، أنها المرة الأولى التي يستعمل فيها الاسطرلاب كساعة ميقاتية صغيرة الحجم ، سهلة الاستعمال ، ولا مائية ، ومن مصنفات ابن الشاطر في هذا المجال ، تسهيل المواقيت في العمل بصندوق المواقيت .

- النفع العام في العمل التام ، بالتام لمواقيت الاسلام (٦٧) .

- عبد العزيز محمد الوقائي المؤيدي :
ت ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م .

وكان يعمل مؤقتاً بالجامع المؤيدي ، ومن تصانيفه

- نظم العقود في عمل الساعات على العمود .

- رسالة في دائرة المعدل .

- وسيلة الطلاب في عمل استخراج الأعمال بالحساب (٦٨) .

تقي الدين الراصد : ت ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م

وهو محمد بن أبي الفتح ، محمد بن أحمد بن يوسف الأسدي كان أوسع المهندسين بعد الجزري دراية في عمل الساعات وصنعها ، وانعكست خبرته الواسعة على مؤلفاته ، منها

- الطرق السنية في الآلات الروحانية .

- الكواكب الدرية في البنكومات المائية وهو أهمها ،

منه نسخة في مكتبة جامعة Chester deaty

E; Weidmann: Beitrage 3 (Sitzung sberichte, Er Langen. Vol, 37, 259, 262, 1905)

A.C.Coomaras: Treatise of al-Jazari on Automa

Leaves from aMS of Kitab fi ma arifat (21p. 8pi., Boston, 1924).

Creswell : Yearbook of oriental art and culture, A.C.Coomaraswamy: Early Arabic and Islamic Persian Paintings (Museum of fine Art Bulletin, 45 — 52, Boston, 1922).

هناك كتاب دونالد هل

The book of Knowledge of Ingenious Mechanical De Boston, U.S.A. Printed in Nether Land. (٦٥)

ابن الشاطر ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م .

وهو أبو الحسن ، علاء الدين ، علي بن ابراهيم بن حسان الأنصاري الدمشقي ، وكان قد تعلم صناعة تطعيم العاج ، ومن ثم العلوم الرياضية والفلكية وتولى التوقيت ورئاسة المؤذنين بالجامع الأموي ، وينسب اليه الارتقاء بمستوى صناعة الساعات ، فقد جعل حجمها صغيرة ، سهلة الحمل ، ويمكن تعليقها على الجدران ، ولا تحتاج آلاتها الى الماء ، وقد وصف ابن العماد الحنبلي (٦٦) اسطرلاب ابن الشاطر ، الذي كان موجوداً في منزله داخل باب الفراديس ، بدرب الطيار سنة ٧٤٣

(٦٥) النعمي : الدارس ، ٣٧٨/٢ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٣٦٤/٥ ، الصفدي : الوافي ، ٢٧٩/٣ ، الزركلي : الاعلام ، ٢١٥/٦

(٦٦) البغدادي : هدية العارفين ، ٧٢٥/٥ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ٢٥٢/٦

(٦٧) البغدادي : هدية العارفين ، ٥٨٣/٥

(٦٨) نفس المرجع السابق ، ٢٥٧/٦

- خلاصة الأعمال في مواقيت الأيام والليال .

- الدر المنظوم في حل التقويم .

- ربحانة الروح في رسم الساعة على مستوى السطوح (٦٩) . وفي المغرب ، نشط صانعو الساعات في عملها على المساجد والمعاهد والمدارس والطرق العامة ، ومن أهمهم :

- أبو عبدالله - محمد بن الحباك ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م ، وقد ركب ساعة مائية في مدينة فاس بناء على طلب القاضي ، أبي عبدالله ، محمد بن أبي الصبر ، أيوب بن كنون ، ليعرف الناس أوقات النهار والليل ، سواء في الأيام المشمسة أو الغائمة وخاصة أن الساعة الشمسية والرملية ، لم تعد كافية بعد أن وصلت أخبار الساعة المستنصرية وطريقة صنعها (٧٠) .

محمد بن عبدالله الصنهاجي ت ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م . وقد صنع منجاة جامع القرويين ، أيام أبي سعيد ، عثمان المريني ، وذلك بالتعاون مع محمد بن الصديق القرسطوني ، الذي رسم خطوطها (٧١) .

- محمد بن محمد بن العربي ت ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م ، وقد قام بتجديد اصلاح المنجاة على وجه متقن ، ومن ثم أدخل استعمال الاسطرلاب فيها ، ومتى طلعت المسطرة ، تعرف أوقات الليل والنهار ، بتحريك خيوط الاسطرلاب والساعة المائية فربط بين الاسطرلاب والساعة المائية بفن متقدم (٧٢) .

- عبد الرحمن بن سليمان الجاثي ت ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م . وقد صنع ساعة مائية بأمر السلطان أبي سالم ، ابراهيم بن أبي الحسن بن عبد الحق (٧٣) . وهناك فئة من العلماء أثرت أن تبحث في الميقات .

كالحسن بن علي المراكشي ، كان حيا ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م . وصنف في آلات التقويم وجامع المبادئ والغايات في علم الميقات (٧٤) . ومحمد بن سنان القانوني (المعروف بابن كاتب سنان ت ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م ، وقد ألف (تحفة الفقراء في علم الميقات) وابن أبي الخير ، محمد بن عمرو الرشيد الميقاتي ت ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ ، ألف « النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنائع المحتاج اليها في علم الميقات ، وأخيرا نذكر أحمد بن عبد الرحمن ، الواعظ بجامع بني أمية ، وقد ألف كتابه « هدية المشتاق لمعرفة الأوقات في جميع الآفاق ، ولا يزال مخطوطا ، ومنه نسخة في المكتبة الظاهرية تحت رقم ٧٥٦٤ - علوم أخرى (٧٥) .

وجدير بنا أن نشير الى أن العرب قد أطلقوا على الذين يعملون في الساعات اسم « المهندس » أو « الموقت » أو « المعدل » .

أشهر الساعات المائية في المشرق والمغرب :

يستفاد من اشارة ذكرها ناصر الحسين بن علي القيصري ، الذي أنشأ ساعة على باب المدرسة القيصرية

(٦٩) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٧٠) التازي : جامع القرويين ، ٣٢٢/١ - ٣٢٣

(٧١) التازي : جامع القرويين ، ٣٢٢/١

(٧٢) نفس المرجع السابق ، ٣٤٣/٢

(٧٤) البغدادي : هدية العارفين ، ٢٨٦/٥

(٧٥) نفس المرجع السابق ، ح ٢٦/٦ ، ٢٢٥

تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتعرض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ندبر ذلك كله منها ، خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاج ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها ، فلاحث للأبصار دائرة مجمدة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها » .

ويضيف ابن جبير ، أنه أوكّل بها في الغرفة ، متفقد لحالها ، درب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج الى موضعها ، وهي التي يسميها الناس « المنجاة » . (٧٧) .

وهناك ساعة مائية ثانية على باب جامع دمشق القبلي المسمى « باب الزيارة » وهي دائرة بيكار (نصفية) عليها عصفير نحاس ووجه حية من النحاس أيضا ، وغراب فاذا تمت الساعة ، خرجت الحية وصفرت العصفير ، ونعق الغراب ، وسقطت حصاة في الطست ، وهذه الأصوات ليست الا عملية تحكم بذبذبات الهواء بحركات ميكانيكية نتيجة (انتقال الماء وتحريك ما فوقه) (٧٨) .

ومن ناحية ثانية ، قد أشار ابن طولون في حوادث سنة ٨٥٩ هـ الى « احتراق قيسارية الفرنج المعروفة بقيسارية ابن دلامة والتي هي شرق قيسارية ابن المزلق التي على بابها الساعات (٧٩) ، وهذا تأكيد على أن الساعات المائية كانت تنصب على أبواب الأسواق علاوة على المساجد والمدارس .

الكبرى ، أن تكاليف بناء الساعات كانت باهظة فقد كلف بناء الساعة المذكورة أربعين ألف درهم (٧٦) ، وهو مبلغ ضخم آنذاك ، وعليه فقد اقتصر بناء الساعات وتركيبها على الأماكن المهمة دون سواها . وفي الحواضر أو المدن الرئيسية ، وفي المساجد والمعاهد والمدارس والساحات العامة الواسعة أحيانا ، وكانت ساعات دمشق ذات شهرة متميزة ، وقد وصلنا وصف لتلك الساعات من خلال ما ذكره ابن جبير ، الذي وصل دمشق سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ووصف الساعات الموجودة في المسجد الأموي وعلى باب جيرون فذكر « عن يمين الخارج من باب جيرون ، في جدار البلاط الذي أمامه ، غرفة ، ولها هيئة طاق كبير مستدير ، فيه طيقان صفر ، قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا ، فعند انقضاء ساعة من النهار ، تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر ، تحت كل واحد سهم ، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثاني تحت آخرها والطاستان منقوتتان ، فعند وقوع البندقتين منها ، تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البارزين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها ، وتنقضي الساعات ، ثم تعود الى حالها الأول ، ولها بالليل تدبير آخر ، ذلك أن القوس المنعطف على

(٧٦) بدران : منادمة الاطلال ، ومسامرة الخيال ، ١٤١

(٧٧) ابن جبير : الرحلة ، ٢٤٣ - ٢٤٤

(٧٨) مجلة الرسالة : سنة ١٩٣٦ ، العدد ٦٧٥/٢ .

(٧٩) شمس الدين بن طولون : مفاتيح الخللان في حوادث الزمان ، ١١٢/١

الشمس في البروج الاثني عشر ، وكيفية قطعها الفلك والدرج والدقائق ، وهي منقبة جليلة للامام المستنصر بالله (٨٠) .

أما الساعات التي عملت بعد المستنصرية ، فتقوم على دخول كرات رصاصية أو نحاسية الى جوف باز تسقط في وعاء ، فيسمع لها صوت ، وتكون اما بطريقة الضغط المائي . أو برشح من ثقب صغيرة ، أو بذويان شمعة فيقل وزنها وترتفع ، وتكون الشمعة مقسمة الى أجزاء متساوية يخرق كل جزء منها في ساعة وعند نهايته كرة من الرصاص أو الشبة وعند ذويان الشمع عنها تحدث صوتا ، ثم تذهب الى مكانها من ثقب في أسفل الاناء ، أما الأقمار والشموس والنجوم ، فكانت تحدث بتأثير الأضواء من خلفها (٨١) .

وبدت ساعات ابن الرزاز الجزري غاية في التطور واستخدام علم الحيل المائي في عملها . ونستطيع أن نقسمها وفق تطورها الى ثلاثة أنواع :

- ساعات تعمل بميكانيكا الماء ، وفيها سلاسل وموازين وبنادق .

- ساعات تعمل بميكانيكا الماء ولكن بدون سلاسل وموازين وبنادق ، صغيرة الحجم ، قليلة التلف .

- ساعات متطورة كالثابتة ، ولكن يستعمل الشمع فيها بدل الماء ، وحركاتها الميكانيكية بسيطة ، وسهلة الحمل . صغيرة الحجم .

ومن النوع الأول ، اخترع ابن الرزاز .

أما في بغداد ، فقد أدهشت ساعة المدرسة المستنصرية ، مهندسي العصر ببراعة هندستها ودقة صنعها ، ولكونها تعمل عملا ميكانيكيا جيدا ، ثم انها في مدرسة ساهمت في النهضة الفكرية الاسلامية ، والمخطوطة رقم ١٣٨٣ تاريخ والمحفوظة في الخزانة التيمورية في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تصفها ، وجاء في وصفها :

« سنة ٦٣٣ هـ ، تكامل بناء الايوان الذي أنشئ قبالة المدرسة المستنصرية وركب في صدره صندوق الساعات على وضع عجيب ، يعرف منه أوقات الصلوات ، وانقضاء الساعة الزمانية نهارا وليلا ، والصندوق عبارة عن دائرة فيها صورة الفلك ، وجعل فيها طاقات لطاف ، لها أبواب لطيفة ، وفي طرفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ، ووراءها بندقتان من شبة لا يدركهما الناظر ، فعند مضي كل ساعة يفتح فما البازين ، وتقع منهما البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات ، والباب مذهب ، فيصير حينئذ مفضضا ، وحينئذ تمضي ساعة زمانية . وأن وقعت البندقتان في الطاستين ، فانها تذهبان الى مواضعهما من نفسيهما أي بصورة تلقائية ، ثم تطلع شمس من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك ، مع طلوع الشمس الحقيقية ، وتسدور مع دورانها وتغيب مع غيوبتها فاذا غابت الشمس وجاء الليل ، فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة ، تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ، ثم تبتدىء مع الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك أوقات الصلاة وتقضى الساعات الزمانية ليلا ونهارا ، وتوحد الموالييد وحلول

(٨٠) الاربي : خلاصة الذهب المسبوك ، ٢٨٧ ، القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ، ٣١٦ - ٣١٧ ، ناجي معروف تاريخ علماء المستنصرية ، ٥٢/٢

(٨١) معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٥٣/٢ ، ماجد الشمس : مقدمة في علم الميكانيكا ، ٥١ - ٥٠

عربة الميدان تسير مسافة منتظمة القضيب المرتبط بها إحدى الشظايا ، فتسقط بندقة عبر رأس البازي كل ساعة في تعبير الكفة المليئة بماء يعادل ما يسقط ، وميزاب الدستور يؤثر على أول برج السرطان . وحيث أن سقوط الكرة يخل بتوازنها ، فتسكب الماء في الحوض ومنه إلى كفات الدولا ب حيث تتحرك أيدي الطباليين والصنّاج ، ثم إلى القدر الصغير وهكذا (٨٤) .

ساعة الطباليين :

ساعة الزورق : وتتكون من زورق فيه ماء وطرجاة تمتلئ وتفرغ ماء كل ساعة وكاتب على سرير بيده قلم ، وطائر يقذف كرات فم ثعبان ، وملخص عملها « ان حركة الكاتب تؤثر على بقية الأجزاء ، فالطائر يقذف كراته إلى فم الثعبان التي تنقلها إلى صدر الزورق ويسمع لها صوت وترتفع الثعبان . وتكون الحركة في الزورق وأحواضه الداخلية وعمل الكاتب ، وحركة الطائر ورمي البندق ، وحركة السلاسل المحركة لشفرتي الميزاب .

ساعة الفيل : وهي تتفق مع بقية الساعات التي ذكرناها ، إلا أن فيها طائرين واحد يلقي البنادق والآخر يصفر عند القائها ، وكاتب وشخص يجلس في الروشن وثعبان وسلاسل تربط بين الأجزاء التي يراد تحريكها وهيئة فيل وفيال ، بيده فأس يضرب بها ومدة وأثقال وماء طهرجاه وتتم الحركة على عدة مراحل ، فالأجزاء الظاهرة لها حركة منضبطة ، وللفيل والسرير (الحوض) حركة ، بباطن الفيل وفيال ، والأعمدة الأربعة ، والقصر الذي يجلس فيه الكاتب ، وميزاب لكرات ، والرجل الذي في الروشن ، والثعابين والطائر

- بنكام يعرف منه مضي ساعة زمنية ، وتقوم فكرتها على أحداث حركة في الأبواب ، تحرك البازين ، فتلقى كرات الرصاص ويدق الطباليون وينفخ حملة الأبواق ويضرب الصناجون ، وذلك بحركة انسياب المياه من دستور محكم (حنفية) ، وفي الليل يستعمل ضوء القنديلين يشكل أعمار (٨٢) .

طولها (٥) أمتار ، وتتكون من اثنتي عشرة جامعة ، أسفلها شرفات وشخص يقطع كل شرفة ، وطائر يلقي البنادق ، وخزان للماء فيه طفافة وحنفية (فيشون) ومخروط عائم يشكلان بابا مطحونا ، لا ينفذ منه الماء إلا في حينه ، وعربة ذات سفود ، وتسير بموازة الجسامات لتحريك القماط الساتر للضوء المنبعث من قنديل ، يوقد داخل الساعة . ويمكن لحفظ الكرات الساقطة إلى فم الطائر ، وبكرة في سقف بيت الساعة ، ويمر عليها الخيط الواصل بين رأس الطفافة وعجلة الميدان ، وكفة الحوض وأنبوب في الكفة يسمح بانسكاب الماء الزائد عن استيعابها ، ودستور منظم لعملية سقوط الماء (٨٣) حركتها على ثلاث مراحل :

عمل أدوات الماء .

عمل العربة ذات الأربع عجالات .

عمل الأجزاء المحركة لأيدي الطباليين والصنّاج وصوت البواقين .

فهذه الحركات متتابعة ، فهبوط الطفافة ، تجعل

(٨٢) ماجد الشمس : مقدمة في علم الميكانيكا ، ٥٣/٢

(٨٣) انظر وصفها وطريقة عملها في مقدمة في علم الميكانيكا في الحضارة العربية الإسلامية ، ص ١٤٩ ، والعدد الأول من مجلة تاريخ العلوم العربية لسنة ١٩٧٧ .

(٨٤) ابن الرزاز : الجامع بين العلم النافع ، ٦١

الطفافة ، فتحرك الكاتب الى ١٥ درجة وهي تساوي ساعة زمانية ، وعند المساء يعاد الماء من القاعدة الى الكأس بسرعة وهكذا^(٨٦) على نفس النمط تعمل ساعة الطواويس .

أما النوع الثالث من ساعات ابن الرزاز فهي التي تعمل بالشمع بدل الماء ، وفائدتها أنها تحدد الساعات المستوية وأجزائها أيضا ، ومنها :

- ساعة السياف

- ساعة الكاتب .

- ساعة القرد .

- ساعة الأبواب

وتقوم فكرتها جميعا على استعمال الشمعة فيها كمادة تذوب نتيجة الاحتراق بقدر متساو كل ساعة ، فينقص وزنها وترتفع ، وتسقط عند نهاية الذوبان في كل ساعة فينقص وزنها وترتفع ، وتسقط عند نهاية الذوبان في كل ساعة كرة ، يأخذ الثقل بالهبوط الى أسفل فتحرك الأجزاء المربوطة مع بعضها^(٨٧) لتؤشر على تدرج ، جعل كل ١٥ وحدة منه تعادل ساعة زمانية ، وهكذا دواليك أما ساعات المغرب فقد بنيت على نمط ساعة المستنصرية المائية . ولم تستعمل الشمع فيما انتهى الى ولكنها استفادت من شبكة الاسطرلاب بربطها بلولب مع الساعات المائية ، وتقوم فكرتها العامة على :

- ماء في الأوعية ، ينساب بقدر معلوم .

- مجرى فوق الماء فيه خطوط وثقوب .

- طفافة تتحرك بنقصان الماء فتحرك المتصل بها

لتؤشر على التدرج .

والقدحان اللذان على كتفي الفيل . كل واحدة من هذه لها حركة تتم بصورة سريعة ومتتابعة كل ساعة .^(٨٥) ويلاحظ أن ابن الرزاز كان يسعى دائما لتحسين نوعية ساعاته ، ويحاول التغلب على المشاكل الفنية التي تعترضه ، ليجعلها أكثر قبولا ، فساعاته السابقة ذات طول مرتفع يصل في بعضها الى ٥ أمتار (كساعة الطباين) . وبعضها معقد وثقيل ، لكثرة السلاسل والموازين والبنادق فيصعب حملها ، هذا بالإضافة الى كثرة تعطيلها بسبب انقطاع خيط أو عدم انتظام حركة لسلسلة أو غيرها ، ثم ان هذه الأنواع لا تقيس الا الساعات المستوية ، أي ساعات كاملة صحيحة ، العاشرة ، الحادية عشرة ، الثانية عشرة مثلا . أما أجزاء الساعة كالنصف أو الربع أو الثلث فلا تقدر عليه ، علاوة على أن تشغيلها في الليل ، يتطلب مراقبة مستمرة وخاصة للماء ، ولذا ابتكر ابن الرزاز ساعات من نوع جديد ، بناء على طلب أبي الفتح بن محمود بن قرا أرسلان ، خفيفة وسهلة الحمل والتركيب ، ويمكن استصحابها في السفر ، ويعرف بها جزء الساعة وخلصها من السلاسل والموازين والبنادق ، ومن هذه الساعات :

ساعة الكأس وساعة الطواويس :

وتتكون الأولى من كاتب وبيده قلم ، وبكرات ثلاث كبيرة وبكرتين جانبيتين وثقالة ومسطرة تتحرك عليها عوامة ، وجزعة مثقوبة من أسفل وبدن الساعة كأسى الشكل ، بقاعدة رباعية الشكل ، وتلخص فكرة عملها « أنه حين تملأ الكأس ماء ترتفع العوامة ، وينخفض الثقل ، ويبدأ الماء بالنضح من ثقب الجزعة ، فتجذب

(٨٥) المرجع السابق ، ١٧٧

(٨٦) ابن الرزاز الجزري : الجامع بين العلم والعمل ، ١٢٦ - ١٤٣

(٨٧) الشمس : مقدمة ، ١٨١

- يعاد الماء بعد انتقاله بسرعة الى الاناء الأول .
وهكذا فانها تتطلب مراقبة دقيقة ودائمة .
- اضافة شبكة الاسطرلاب الى الساعات .
وأهم تلك الساعات :

- ساعة ابن الحباك ، وتتكون من صحن من الفخار بالقبة العليا بجوامع القرويين ، يملأ ماء ، وعلى وجهه مجرى من النحاس ، ذو خطوط وثقوب ، ويخرج الماء منها بقدر معلوم الى أن يصل الخطوط المرسومة على مختلف ساعات الليل والنهار ، فتعرف بذلك الأوقات ، وهي أصغر حجماً وأبسط تركيباً من ساعات ابن الرزاز (٨٨) .

وأما ساعة الصنهاجي فتتكون من مجن من خشب الارز ، داخله إناءان من الفخار يعلو أحدهما على الآخر ، بأسفله أنبوب محكم العمل ، ينزل منه الماء في الاناء الأسفل ، وفي الجانب طست حوى خطوط تقسيم الوقت ، وعلى وجه الاناء الذي يجتمع في الأسفل جسم عائم مجوف من النحاس على شكل الأتربة ، والطفافة تحرك المسطرة فتظهر الوقت ، وعند المساء لا بد من رد الماء من الوعاء الأسفل الى الأعلى ، وتعلق المسطرة كما كانت (٨٩) .

- ساعة محمد بن محمد بن العربي ت ٧٤٧ هـ ، وقد أضافا الى المجن السابق شبكة الاسطرلاب ، ومتى طلعت المسطرة المذكورة تعرف أوقات النهار والليل بتحريك خيوط الاسطرلاب ورسومه ، وأجريت تحسينات فيها ، اذ أطرت دائرة الاسطرلاب أربع صفائح وثبتت بشكل متين (٩٠) .

هذا بالاضافة الى ساعات المدرسة البوعنانية - نسبة الى السلطان أبي عنان ، بشارع الطالعة من فارس وساعة الجاي ، وتقوم على أبواب وطاسات وكسرات وأنايب تصل بينها . (٩١) وأما في مصر ، فقد ذكر القليوبي في النوادر أنه كان عند السلطان الكامل شمعدان فيه أبواب فكلما مضت ساعة يخرج شخص من باب منها ، يقف في خدمته الى مضي ساعة وهكذا الى تمام الأبواب ، اثنتي عشرة ساعة ، فاذا تم الليل خرج شخص فوق الشمعدان ويقول « أصبح السلطان » فيعلم أن الفجر قد طلع فيتأهب للصلاة (٩٢) .

ولقد أدهشتنا هذه الإشارة فهل عرف العرب تسجيل الصوت ، وحيث أننا لا نقطع برأي حول المسألة ، ونميل الى أن الصوت انما هو تحكم بذبذبات بطريقة خاصة تبعث صوتاً قد يفسره السلطان أو من سمعه « بأصبح السلطان » كما هي المعزوفات الغنائية في زماننا ، غير أننا سنعود لبحثها في درسنا للصوت عند العرب .

ومن ناحية ثانية ، فقد أورد المقرئ في كتابه نفح الطيب وصفاً دقيقاً لساعة تلمسان كأنها حلة يمانية .
« ولها أبواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانية فكلما مضت ساعة ، وقع التقربقدر حسابها ، صورت في أحسن باب من أبوابها ، وبرزت فيه جارية ، صورت في أحسن صورة . وفي يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم تلك الساعة باسمها مسطورة ، فتضعها بين يدي السلطان بلطفافة ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة (٩٣) »

(٨٨) الشمس : مقدمة ، ٢٠٧ ، وصف الساعات في كتاب الجامع ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨

(٨٩) التازي : جامع القرويين ، ٣٢٢/٢

(٩٠) المرجع السابق ٣٢٣/٢

(٩١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٩٢) مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ ، مقالة دهمان ، المجلد ٢ ص ٦٧٤

(٩٣) سعد الخادم : الدمي المتحركة عند العرب ، ٤٠

اللبانية ، السنة الخامسة ص ٣٥٧ - ٣٧٢ ، ان ثبت ما ذهب اليه قدرى طوقان والمستشرقون ، ونجح في ذلك^(٩٥) .

وكانت هذه قفزة هائلة في تاريخ الساعات امتدت آثارها حتى اليوم ، فالساعات الحديثة تقوم عليها ، باستثناء ما بني على استخدام الاليكترونات .

ونشير في النهاية الى نوع من الساعات ، التي لا تزال تستعمل الى يومنا بسيطة الصنع والتركيب ، والغرض منها تعيين فترة محدودة ، وهي الساعات الرملية والتي تتركب من دورتين ، الصقت فوهة أحدهما بفوهة الأخرى بواسطة الشمع وملئت العليا رملا فينزل الرمل بالتدريج الى السفلى ، من ممر بينهما صنع بنسبة مقدرة ، وتقلب الساعة عندما تفرغ العليا ، وهناك ساعة في جامع القرويين تعمل بالنمط الرمي صنعها محمد بن محمد العربي ت ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م ، وبعض أجزائها محفوظة في الغريفة بالجامع^(٩٦) . ان الامام بكل ما ابتكره العرب من آلات وأواني ميكانيكية الحركة ، يتطلب جهداً جماعياً ، لتجمع مخطوطاته ، ويعهد الى المختصين درسها ، ليحدد مدى ما قذفوه الى الحضارة الانسانية في هذا المجال .

أما ما أضافه علماء العرب في الصوت والضوء والبصريات والقوى والحركة والمغناطيس والغازات والرياح ، ومدى استفادة الغرب منها فسيكون موضوع الصفحات التالية ، وتبين منها ما حققه علماء العرب المسلمين في هذا المجال .

ويضيف المقرئ أن خزانة المنجانة كانت ذات تماثيل لجُين محكمة الصنع ، بأعلاها أليكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويختله فيها أرقم خارج من كوة ، يجذب الأليكة صاعدا ، ويصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويُسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين عقابان في يد كل واحد منها صنجة صُفر ، يلقيها الى طست من الصفر مجوف بواسطة ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة الذاهب وتبرز منه جارية محتزمة كأطرف ما أنت راء ، بيمينها اضبارة فيها اسم لساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة^(٩٤) .

وكان التطور الهائل في صناعة الساعات واعتمادها على الميكانيكا بصورة عامة ، فكان حين استعمل العرب الأثقال بدون ماء ، لأحداث الحركة الاوتوماتيكية . فاخترعوا الرقاص (بندول الساعة) ، ويبدو أن مخترعه هو أبوسعيد ، عبدالرحمن بن أحمد بن يونس المصري ت ٣٩٩هـ / ١٠٠٠م ، وقد اعترف بذلك تيسديو وسدويك وتايلر فذكروا أن العرب قد سبقوا غاليليو بستة قرون في اختراع الرقاص واستعماله . وفي إيجاد علاقته بالزمن ، لا سيما وأنه كان لديهم فكرة عن قانون الرقاص ، اذ كان الفلكيون العرب يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد ، ولقد حاول أسامة عانوتي في بحثه « هل اكتشف العرب رقاص الساعة » المنشور في مجلة الدراسات الأدبية - الجامعة

(٩٤) المقرئ : نفع الطيب ، ٢١٦/٩ .

(٩٥) سيديو : تاريخ العرب ، ٢١٤ تايلر : مختصر تاريخ العالم ، ١٦٣ ، سمث : تاريخ الرياضيات ، ٦٧٣/٢ غنار القاضي : اثر المدينة الاسلامية ، ٢٤٣

(٩٦) مجلة الرسالة ، العدد ٥٧ ص ١٢٩٣ ، التازي : جامع القرويين ، ٣٤٧/٢

الصوت ودراسته :

كان للعرب اشتغال في بحوث الصوت ، وأحاطوا بالمعلومات الأساسية فيه ، وذهبوا الى أن السبب في منشأ الأصوات ، انما يعود الى حركة الأجسام المصوتة ، وهذه الحركة تؤثر في الهواء لشدة لطافته وخفة جوهرة وسرعة حركة أجزائه كما قسم علماء العرب الأصوات الى أنواع منها ، الصوت الجهير والصوت الخفيف والحاد والغليظ وغيرها . وعزوا ذلك الى طبيعة الأجسام المصوتة ، وإلى قوة تموج الأصوات بسببها . وتميزت أبحاث الموسيقيين العرب بدراسة الأوتار والأصوات الناجمة عن اهتزازها ، وكشفوا بقوانين رياضية العلاقة بين طول الوتر وغلظه وقوة شدته أو توتره وشدة النقر من جهة ونوع الصوت من جهة أخرى^(٩٧) . وقادهم هذا بالضرورة الى بحث الألحان التي جعلوها ٤٧ نوعا هي : الصياح ، والسجاح ، والنبرات ، والشذرات ، والصرخات ، والنهدات ، والضجرات ، والزجرات ، والتدريج ، والزمة ، والغنة ، والتعليقة ، والتفخيم ، والتأوه ، والنوح ، والترجيح ، والكرة ، والتشبيعة ، والاببدال ، والاستهلال ، والانشاد ، والاستغاث ، والتغير ، والقهقهة ، والهزة ، والاتباع ، والانتزاع ، والتفكيك ، والتفاجر ، والشهقات ، والامالة ، والتمطي ، والتوطئة ، والمهاهة ، والمقطع ، والردة ، والصلة ، والاستحالة ، والتشويب ، والصهيل ، والحمة ، والتجنيسة ، والزحمة ، والتكاهن ، والخمزة^(٩٨) .

وعللوا الصدى ، والذي يحدث حسب تحليلهم عند انعكاس الهواء المتموج بعد مصادمته لعال ، كجبل أو حائط ، ويجوز أن لا يقع الشعور بالانعكاس لقرب

المسافة ، فلا يحس بتفاوت زمني الصوت وعكسه . وقد برع أخوان الصفا في تحليل تموج الصوت بشكل كروي ، وبينوا عوامل قوة وضعف موجاته ، فالسبب في حدوث الصوت عند أخوان الصفا « هو حركة الأجسام المصورة في الهواء ، الذي لشدة لطافته وخفة جوهرة ، وسرعة حركة أجزائه ، يتخلل الأجسام كلها ، فيما اذا صدم جسم جسما آخر ، انسل ذلك الهواء من بينها ، وتدافع وتموج الى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروي ، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج منها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركة تموجه الى أن يسكن ويضمحل^(٩٩) .

ومن ناحية ، فان دراسات العلماء العرب لم تقف عند صوت الانسان بل تعدتها الى دراسة أصوات الحيوانات ، وكان اخوان الصفا والجاحظ والدميري رواداً في هذا المجال ، اذ قسمت أصوات الحيوانات عندهم الى :

- أصوات الحيوانات ذات الرئة وتختلف باختلاف الصدر والحجاب والحلقوم والمنخرين ، وشدة استنشاق الهواء ، وقوة دفع أنفاسها من أفواهها ومناخيرها .

- أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة ، ولكن لها جناحين ، كالزناير والجراد والصرابير وغيرها ، فان الأصوات التي تحدثها ناتجة عن تحرك الهواء بأجنحتها . واختلاف أنواعها انما تستند على لطافة هذه الأجنحة وغلظها وطولها وقصرها وسرعة حركتها .

- أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة ولا أجنحة ، كالسمك والسرطان والسلاحف وما شاكلها ، وتسمى

(٩٧) نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٣١٢ ، كحالة : العلوم البحتة ، ٢٢٠

(٩٨) الكاتب (الحسن بن أحمد) : كتاب كمال ادب الغناء ، ٧٨ ، الفارابي : كتاب الموسيقى الكبير ، ١٠٦٩

(٩٩) اخوان الصفا : الرسائل ، ٤٠٧/٢

الوسط فهي ليست حركة مستقيمة ولا مستديرة ، وإنما حركة وسطية ، كحركة ضياء المصابيح من العلو الى الوسط^(١٠٢) وهو يتحرك الى جهات كثيرة .

ويرى الفلاسفة الطبيعيون ، أن الضوء صورة جوهرية ، وهو معنى من المعاني التي تتقدم منها ماهية الجسم المضيء بذاته ولا تفارقه مادام حافظا لجوهره ومع أن التعريف لا يخرج عن ما أورده أرسطوطاليس^(١٠٣) ، إلا أن ابن سينا أضاف اليه « بأنه انفعال في القابل من المضيء ، أو حصول أثر فيه من واهب الصور »^(١٠٤) .

أما ابن الهيثم فالضوء عنده « حرارة نارية تنبعث من الأجسام المضيئة بذواتها كالشمس أو النار أو الجسم المتوهج ، وأنه اذا أشرق على جسم كثيف أسخنه وإذا انعكس عن مرآة مقعرة ، واجتمع عند نقطة واحدة ، وكان عندها جسم يقبل الاحتراق ، أحرقه »^(١٠٥)

وكيفما كان الحال ، فإن للعلماء العرب أبحاثا متقدمة في الضوء والبصريات تمثلت بالنواحي التالية :

درس ابن سينا انعكاس الضوء وانكساره وأخطاء البصر ، واستطاع أن يعلل بذلك كبر حجم الشمس والقمر والكواكب والنجوم في رأي العين ، حينما تكون قريبة من الأفق عند الشروق والغروب ، وكانت تحليلات ابن سينا لكيفية تكون الهالة القمرية والهالة الشمسية هي أساس التفسير العلمي الحالي ، حيث افترض وجود بخار الماء في الجو وسقوط الشعاع الضوئي

بالحيوانات الخرس ، لأنه لا منطق ولا صوت لها ، وتختلف أصواتها باختلاف اليبس والصلابة والحجم من كبر وصغر وطول وقصر وسعة وضيق وغير ذلك^(١٠٦) .

ولم تتوقف دراسة الصوت عند العرب على المسائل النظرية ، بل طبقوا مبادئ الطبيعة في الصوت وغيره على الموسيقى ، وبدعوا في هذا الفن « وقطعوا فيه شوطا بعيدا ، وكانوا دائما في نظرياتهم الموسيقية عمليين ، فلا يقبلون النظرية الا بعد التثبت منها عمليا . وقد تفوق في هذا المجال ، الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ويوسف الكاتب وابن المنجم والأرموي وغيرهم . ويذكر أن اجادة العرب لبحوث التموجات الكروية للصوت ، هي التي أوحى لزرياب أن يضيف الوتر الخامس للعود وصبغه باللون الأحمر . وجعله^(١٠٧) متوسطا في موضعه بين الأوتار الأربعة .

- الضوء والبصريات :

تجاوزت أبحاث العلماء العرب في الضوء ما انتهى اليه علماء اليونان ، وكانت مقالة حنين بن اسحق « في حقيقة الضوء » بداية الانطلاق نحو دراسة الضوء والاستفادة منه في تحليل العديد من الظواهر الكونية . ومع أن رسالة حنين استندت أساسا على مقالة ارسطوطاليس ، إلا أنه أضاف إليها وطورها بحيث بدت شيئا متميزا ، فالضوء عند حنين عرض وليس بجسم نير وحق أنه ليس بجسم ويورد العديد من البراهين ، ووصف حنين حركة الضوء بأنها تتجه الى

(١٠٠) المرجع السابق ، ١٩١/٢ ، الجاحظ : الحيوان ، ١٩٣/٤ ، ١٣٧/٧

(١٠١) الحظي : زرياب ، ٤٦ عبد الرحمن : تاريخ الموسيقى الاندلسية ، ٢٦ ، صائبات حمدي : تاريخ آلة العود وصناعاته ، ٣٩ .

(١٠٢) حنين بن اسحق : في الضوء وحقيقته ، الشرق ، السنة الثانية ، العدد ٢٤ ، ١٥ كانون اول سنة ١٨٩٩ ، ١١٠٧ ، ١١١٢

(١٠٣) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٨٠ / ١

(١٠٤) ابن سينا : التعليقات ، ٤٧

(١٠٥) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٨٠

على القطرات المكونة للهالة^(١٠٦) . كما علل أسباب تناقص الشفق حينما تصبح الشمس على ١٩ درجة تحت الأفق .

ومع أن ابن سينا هو الذي وضع قانون سير الأشعة سيرا كرويا ، منحنيا كانهناء سطح الأرض غير أن البيروني كان أكثر منه دقة في هذا المجال ، وأشار الى عظم سرعة الضوء اذا ما قيست حتى بالنسبة لسرعة الصوت . ان هذه النتائج أفادت نصير الدين الطوسي في أبحاثه عن المناظر وانعكاس الشعاعات والانعطافات وأتى فيه على برهانه ، مساواة زاويتي السقوط والانعكاس .

وقد حاول ابن سينا أن يدرس الآثار العلوية الكونية ، ففسر كيفية تشكل قوس قزح ، كذا الهالة المحيطة به ، وتعدد الألوان منه كما فعل الكندي حين علل اللون اللازوردي الذي يرى في الجو . الا أن محمد بن مسعود بن مصلح الشيرازي ت ٧١١هـ / ١٣١١م ، كان أكثر العلماء توضيحا لدراسة ظاهرة قوس قزح ، فقد شرحها في كتابه « نهاية الادراك في دراية الأفلاك » شرحا وافيا ، وبين أن ظاهرة قوس قزح انما تحدث من وقوع أشعة الشمس على قطيرات الماء الصغيرة الموجودة في الجو ، عند سقوط الأمطار ، وحينئذ تعاني الأشعة انعكاسا داخليا ، ولعل الشيرازي قد بنى تحليله على تلك الدراسات التي بدأها ابن سينا قبله ، وشملت الظل والثلج والضباب والهالة والقوس والشمسيات والنيازك والرياح والبرق والرعد^(١٠٧) .

لقد بلغت دراسات ابن سينا منزلة متفردة ، فيها أوردته بشأن الأبراق والأرصاد فالبرق عنده نتيجة لاحتكاك وقرع بين الغمام ، أو للاستبراح اللطيف من الغمامة اذا طفئت نارها ، بمعنى انتقال الشحنات أثر الحرارة ، أو اذا كانت في الغمام نار مستكنة وانضغطت الغمامة وانعصرت وتفرقت^(١٠٨) . وأشار ابن سينا الى احتمال حدوث الأرصاد بلا برق أو العكس ، ورسالة ابن سينا في الرعد ، تضمنت الإشارة الى أسبابه ، فالرعد عنده ، يقع اذا تصادمت غمامتان ، واذا دخلت في غمامة جوفاء ربح فدارت عليها ، واذا ما سقطت نار في غمامة رطبة وطفئت ، وحين يقرع الريح غمامة عرضية جليدة قرعا شديدا ، واذا دخلت في غمامة مجوفة وانفتقت ، واخيرا اذا ما احتكت غمامتان خششتان ببعضهما^(١٠٩) . والصواعق عنده أما نار ريحية أو ربح نارية ، ويرى أن الصاعقة تكون لسببين ، أولهما احتكاك الريح بالغمام ومن ثم شدة خروجها وقد صارت نارا ، وثانيهما ، اجتماع الكثير من الغمام الصغار ، فاذا اجتمعت مع بعضها صارت منها صاعقة .

وأما البصريات :

فقد درس العلماء العرب الحواس دراسة وافية ، وكان علماء اليونان والهنود قد أخطأوا في تحديد كيفية الأبصار ، فاشتغل العرب بها وخاصة الكندي الذي ألف في اختلاف المناظر واختلاف مناظر المرأة . وهناك من يعتقد أن ابن سينا قد سبق ابن الهيثم في الوصول الى

(١٠٦) لروخ : هجرية العرب ، ١١٢

(١٠٧) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(١٠٨) كحالة : العلوم البحتة ، ٢٢٦

(١٠٩) المرجع السابق ونفس الصفحة

الحسن بن الهيثم بموافقة على أفعال الحاكم ورضائه عنه ، تظاهر بالخل والجنون ، حتى اذا ما غابت سيرة الحاكم عاد الى حياة البحث والعلم في بيته بجوار الأزهر . ومنهجه في البحث العلمي يقوم على الملاحظة والتجربة والأخذ بالاستقرار والقياس ، وبذلك أنه يستقرىء الموجودات ، ويتصفح أحوال المبصرات ، ويميز خواص الجزئيات ، مع انتقائه المقدمات ، ولذا كانت لابن الهيثم شفاافية علمية خاصة في البحث ، تدفعه وباستمرار للمزيد من التوسع^(١١١) والتعمق في سبر غور المسائل لتحقيقها . وقد صنف ابن الهيثم ما يقرب من مائتي رسالة وكتاب في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والفلسفة والطب ، أشار إليها القفطي والبيهقي وابن النديم وابن أبي اصيبعة ، ودرسها حجاب في مقالته عن الثروة العلمية لابن الهيثم^(١١٢) ، وحدد كتاب تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، أماكن توزعها في المكتبات العربية^(١١٣) ، ولا يزال الباحثون يعملون لكشف المزيد من تراث ابن الهيثم العلمي .

لقد كانت أبحاث ابن الهيثم موضع اهتمام كيلر وفنري وفيتلو وماكس مايرهوف حتى عد بحق أعظم فيزيائي في العصر الوسيط ، بل اعتبر هؤلاء أن عظمة الابتكار الاسلامي انما تتجلى في علم الضوء والبصريات ، وقد ألف ابن الهيثم في الضوء والاضلال وصورة كسوف القمر ، الا أن أعظم مؤلفاته كانت ، كتابه « المناظر » الذي اعتبر أكثرها شمولاً ودقة وتحليلاً ، حتى أنه لا يقل أهمية عن الكتب الحديثة المؤلفة في موضوع انكسار الضوء وتشريح العين ،

قانون الأبصار ، وان ابن الهيثم قد زاد عليه بتشريح العين وتفصيل نظريات الضوء ، وذهب هذا نفر الى أن ما أورده ابن سينا في معرض تعريفه للبصر بأنه « قوة مرتبة في العصبه المجوفة ، تدرك صورة ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من أشباح الأجسام ذوات اللون المتأدية في الأجسام الشفافة بالفعل الى سطوح الأجسام الصقلية » . انما هو شرح لعملية الأبصار ليس الا .

ونحن وان كنا لا نتفق مع ما ذهبت اليه هذه الفئة ، لنرى أن في تناولنا لجهود الحسن بن الهيثم ، كشف لمنجزات العلماء العرب في الضوء والبصريات وتوضيح لما حققوه في هذا المجال ، سيما وأن البحث يبقى مبتورا بدون كشوفات الحسن بن الهيثم البصرية والضوئية .

الحسن بن الهيثم ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٩م

ولد ونشأ في البصرة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م . ثم نزح الى مصر في كهولته ، أثر استدعائه من قبل الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي ، عندما تناسى اليه قول ابن الهيثم « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً ، تحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عال ، وهو في طرف الاقليم المصري »^(١١٠) .

وفي محاولة لتنفيذ مشروعه ، سار ابن الهيثم الى الجنادل ، ولما لم يجد المكان العالي ، قفل عائداً الى القاهرة ، وتولى منصباً هاماً في الدولة ، حتى اذا ما شهرت أفعال الحاكم وتعديه على الناس ، وحتى لا يتهم

(١١٠) القفطي : تاريخ الحكماء ، ١٦٥ ، البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، ٨٥ ، زهير الكندي : الحسن بن الهيثم ، ٩ ، ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ٥٥١

(١١١) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٣٠ / ١ ، Irving : Readingson Logic .P. 256.

(١١٢) حجاب (محمد علي) : الثروة العلمية لابن الهيثم ، مقالة مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، والعدد ١٣٦ / ٢ - ١٣٨

(١١٣) انظر تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، رثبت وطبقت بحيدر أباد سنة ١٣٥٠ سنة هـ .

وكيفية تكوين الضوء على شبكتها . وبالأجمال ، فإنه يبحث عن أحوال حاسة البصر من جهة محسوساتها ومدركاتها وتتناول الكثير من ظواهر الضوء الأساسية وخواصه الذاتية ، وقد جاء الكتاب في سبع مقالات ، تناولت كيفية الأبصار وخواص البصر وتفصيل المعاني التي يدركها البصر وعللها وكيفية ادراكها وأغلاط البصر ، وفي ادراك البصر بالانعكاس عن الأجسام الصغيلة والخيلالات ، وأخيرا في كيفية ادراك البصر بالانعطاف من وراء الأجسام المشقة المخالفة لشفيف الهواء^(١١٤) . والكتاب يحققه صبرا منذ ٣ سنوات . وكانت هذه من أعظم مآثر ابن الهيثم في الضوء ، حيث أبطل النظرية القديمة التي كانت شائعة منذ عهد اليونان الى عصر ابن الهيثم نفسه وهي « أن الأبصار يكون بشعاع يخرج من البصر الى المبصر » ، الا أن ابن الهيثم بين أن المبصر يجب أن يكون مضيئا ، أما بذاته ، أو باشراف ضوء من غيره ، وأن تكون بينه وبين العين مسافة ، وان يكون بين كل نقطة من سطح البصر وبين العين خط مستقيم غير منقطع بشيء كثيف ، واستنتج من ذلك ، على أن السبب الرئيسي للأبصار هو وجود المبصر مع توافر هذه الشروط^(١١٥) .

ويتم بسقوط شعاع أو حزمة من الأشعة على الجسم المرئي وانعكاسه على شبكية العين^(١١٦) . وعلل عدم ازدواج الصورة اذا نظر الى شيء بعينين ، وذلك ان صورة الشيء تتأدى في كل عين ، حتى اذا وصلت الى ملتقى بصر العينين انطبقت صورتان ، اذا كانتا متماثلتين مع أنهما صورتان لا صورة واحدة .

وذهب أبعد من ذلك ، وميز بين الأجسام المشقة التي ينفذ منها الضوء ولها قوة مؤدية للضوء ، والأجسام الكثيفة ، والتي لها قوة قبول الضوء ، ومن خصائص هذه الأجسام عند ابن الهيثم ، أنها إذا جاورت أجساما مضيئة بذاتها ، استضاءت من ضوئها ، وأشرقت منها بفعل هذه المجاورة^(١١٧) . ومن ناحية ثانية فقد كان ابن الهيثم أول من أقام التجارب على البيوت المظلمة ، ودخول الضوء اليها من الثقوب ، وكانت المناسبة التي هدته الى ذلك هي محاولته اثبات أن ضوء الشمس يشرق من جميع أجزاء سطح الشمس ، فأجرى التجارب على ضوء الشمس مدخلا إياه من ثقب يوصل الى غرفة مظلمة ، فتبين له أنه ينتشر داخل الغرفة انتشارا واسعا ، مما يدل على أنه يصدر من أجزاء مختلفة من الشمس ، ويرجح مصطفى نظيف ، ان الحسن بن الهيثم ، وهو يعمم النظر في مواقع الأضواء النافذة من الثقوب قد عرض أمام بصره ، صورة منكوسة لجسم موجود في الخارج ، وقد عرض ابن الهيثم تجربته على الشكل التالي « اذا كان في موضع واحد عدة سرج في أمكنة متفرقة ، وكانت جميعها مقابلة لثقب واحد ، وكان ذلك الثقب ينفذ الى مكان مظلم وكان مقابل ذلك الثقب في المكان المظلم جدار أو قوبل بجسم كثيف ، فان أضواء تلك السرج تظهر على ذلك الجسم ، أو ذلك الجدار ، متفرقة وبعده تلك السرج وكل واحد منها مقابل لواحد من السرج على السميت المستقيم الذي يمر بالثقب ، واذا ستر واحد من السرج ، بطل من الأضواء التي في الموضع المظلم الضوء الذي كان يقابل ذلك السراج فقط ، وأن رفع الساتر عن السراج ، عاد ذلك

(١١٤) صبرة : تطور نظريات الضوء منذ ابن الهيثم حتى الوقت الحاضر ، ٧٤

(١١٥) فروخ : عبقرية العرب ، ١٠٧ ، نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٤٢/١ ، جلال موسى : منهج البحث العلمي ، ٩٨

(١١٦) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٩٣/١

(١١٧) المرجع السابق ، ٨١

وأن سطحه المضيء هو الذي يكون مقابلاً لجرم الشمس^(١٢١) بمعنى أن القمر غير مضيء من ذاته ، وأنه يكتسب ضوءه من الشمس ، وذهب الطبيعيون الى أن ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكسا عن سطحه الى الأرض ، كما ينعكس الضوء عن سطوح الأجسام الصقيلة .

ويعلق ابن الهيثم بقوله « ليس يوجد لأحد منهم قول برهاني يدل على أن ذلك واجب ضرورة ، ما لم يقيم البرهان على أن ذلك واجب ، فليس يحتتمل وجها غير ذلك الوجه الامكاني ، وكان مظنوننا لا متيقنا^(١٢٢) » فابن الهيثم يرى أنه ما لم يقيم البرهان على ما ادعاه الطبيعيون ، تبقى أمكانية الاتيان بفرضيات أخرى لتعليل الظاهرة واردة ، بل وممكنة ، وأتى بتفسير للظاهرة مؤداه « أن ضوء القمر من خواص الأجسام المضيئة من ذاتها » ، اذ كل نقطة من سطحه المضيء يشرق منها ضوء على كل نقطة تقابلها ، أي أن ضوء القمر ثانوي يشرق عن القمر كما يشرق الضوء الثانوي عن سطوح الأجسام الكثيفة التي تستضيء بالأضواء المشرقة من الأجسام المضيئة بذاتها^(١٢٣) .

أما ماهية الأثر الذي يظهر في وجه القمر فهو على صفة واحدة لا يتغير لا في شكله ولا في كنيته سواده . ويورد ابن الهيثم في رسالته عن مائية (ماهية) الأثر الذي في وجه القمر ، آراء الطبيعيين حولله ، من اعتقادهم أن الأثر من نفس جرم القمر أو خارج عن

الضوء الى مكانه^(١١٨) يضاف الى ذلك أن ابن الهيثم عالج الشروط اللازمة لوضع الصورة الحاصلة بواسطة الثقب ، فاشتراط الضيق النسبي للثقب ، لأن الضيق يقلل الضوء ، فتكون الصورة أدنى الى الخفاء عن البصر^(١١٩) .

كما درس ابن الهيثم خواص المرايا المتعددة ، وكيفية تجميع أشعة الشمس في نقطة واحدة ، تكون بمثابة النقطة التي تحدث فيها أشعة الشمس ، وهذا هو المبدأ الذي يقوم عليه الفرن الشمسي في زماننا .

وتعمق ابن الهيثم أيضا في استقراء أشعة الشمس الساقطة على مرآة ، والتي تتبعثر في اتجاهات كثيرة حسب السقوط .

ان هذه الدراسات مهدت الطريق لاختراع آلة التصوير - الكاميرا - بحجرتها المظلمة وعدستها ، وكذا الفائدة من العدسات اللامة والمفرقة للأشعة ، ومن ثم صناعة الآلات البصرية ، القائمة على تسخير ظاهرة الزينج الكروي الطولي^(١٢٠) لتحسين رؤية العين بتلك الآلات ، النظارات الطبية فيما بعد ، وقاده هذا لدراسة العين وتشريحها ، وله في ذلك جهد لا ينكر بفضل رسوماته التشريحية .

وتستحق آراء ابن الهيثم في ضوء القمر وماهية الأثر الذي في وجه القمر وقفة تأملية . فقد كان الرأي الشائع عند الطبيعيين أن « ضوء القمر مستفاد من الشمس ،

(١١٨) المرجع السابق ، ٨٣

(١١٩) زهير الكندي : ابن الهيثم ، ١٤٤

(١٢٠) نظيف : ابن الهيثم ، ١٢١/١

(١٢١) ابن الهيثم : رسالة في ضوء القمر ، ٣ ، ضمن مجموعة رسائل للحسن بن الهيثم ، حيدر اباد الدكن ، سنة ١٣٥٧ هـ .

(١٢٢) أنظر رسائل ابن الهيثم ، ص ٤ ، جلال موسى : منهج البحث ، ٩٩

(١٢٣) نظيف : الحسن بن الهيثم ٢/١

جرم القمر ، أو متوسط بين جرم القمر وبين أبصار الناظرين اليه ، أو صورة تظهر بالانعكاس لأن سطح القمر صقيل ، أو أنه صور البحار التي في الأرض وترى بالانعكاس أو صور الجبال أو صورة قطعة من الأرض التي يقع عليها الشعاع المنعكس . وبعد أن يناقش ابن الهيثم هذه الآراء ويفندها ، يبين أن جوهر القمر يخالف لجوهر جميع الكواكب الباقية ، والظلمة في جرمه سببها أن ذلك الجزء لا يقبل الضوء قبولاً تاماً ، ويعمل هذه الظاهرة بالبراهين التالية :

- أن القمر يقبل الضوء من الشمس وليس فيه شيء من الشفيف (١٢٤) . ومعنى هذا أن في القمر القوة القابلة للضوء ، وليست فيه القوة المنفذة له .

- أن درجة قبول القمر للضوء تختلف من مكان لآخر على سطحه ويعزو ذلك إلى كثافة ذلك الجزء .

وحري بنا أن نشير إلى الدراسات الحديثة لسطح القمر ، والتي عللت الأثر بسبب وجود الجبال والوديان والحفر على سطحه . وليس ببعيد عما ورد في المقالة أن في جسم القمر تقعيراً ، فإذا أشرق عليه ضوء الشمس ، صار لمحيط التقعير ظل على باطن التقعير ، والأثر هو ظل محيط التقعير (١٢٥) .

وأخيراً نشير إلى مسألة على غاية الأهمية ، تعرف بمسألة الحسن بن الهيثم أو « مسألة الهازن » وملخصها « إذا تعرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح عاكس فكيف تعين على هذا السطح نقطة بحيث يكون الواصل

منها إلى إحدى النقطتين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط والواصل منها إلى الأخرى بمثابة شعاع منعكس » وقد درس المسألة العديد من العلماء أمثال بودا وسارطون وفرنه وطوقان وفروخ والدمرداش ، ولكن مصطفى نظيف قد أتى ببرهانها في أكثر من مائة صفحة ، وناقش أوجهها حسب آراء ابن الهيثم (١٢٦) ، وهي تمثل ذروة النبوغ عند الحسن بن الهيثم لزاويا السقوط والانعكاس .

السوائل :

كان للعرب فضل بين في علم السوائل ، فقد شرحوا بعض الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، وكان (منها جهنم) واضحاً ودقيقاً وسهلاً ، وقد حفظ لنا ابن عساكر رواية المعتمر بن سليمان عن أبيه التي توضح مفهوم العرب لتكون ماء المطر في القرن الأول هـ . فالماء عند خالد بن يزيد ، من السماء أو من الغيم الذي يحمله من البحر ، حيث يعذبه البرق والرعد (١٢٧) ، ويضيف خالد ، أن باستطاعته تحليل مياه البحر ، وأحضر القلال إلى المجلس ، ووصف كيف يصنع به حتى يعذب (١٢٨) ويبدو أن مسألة استخراج الماء العذب من البحر كانت معروفة ، فقد لاحظ الكرخي أن أهل السفن يستخرجون من قرار البحر الماء العذب ويشربونه ، وذلك بأنهم يتخذون آنية من الأنك ، مثقوبة من أسفلها ، وفي فمها أنبوبة متخذة

(١٢٤) أنظر ، مقالة أبو علي ، الحسن بن الهيثم في مائة الاثر الذي الذي في وجه القمر ، مخطوطة مكتبة الاسكندرية رقم ٢٠٩٦ د ، نشرها عبد الحميد صبرة في مجلة تاريخ العلوم ، العدد الأول ١٩٧٧ ، ٥ - ١٨ .

(١٢٥) ابن الهيثم : مائة الأثر ، ١٢ .

(١٢٦) الكندي : الحسن بن الهيثم ، ١٥٩ .

(١٢٧) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ١ ، مخطوط ، ترجمة خالد بن يزيد ، بدران : تهذيب تاريخ دمشق ، ١٢٣/٥ .

(١٢٨) نفس المراجع السابقة .

باهتمام العلماء العرب ، اذ حددوا مدى امكانية صعود السوائل منها ، وتحليل ارتفاع الموائع فيها ، وهذا البحث قادهم الى دراسة التوتر السطحي ، Surface Tension^(١٣٣) وفسر ايديمر بن علي ايديمر الجلدكي ، ظاهرة التموج في السوائل ، وجعله (أمر يحدث بعد صدم وسكون بعد سكون) .

ومن ناحية ثانية فقد وصف العلماء العرب طريقة لتجميد الماء في غير وقته ، باستعمال مقادير معلومة من الشب اليماني الجيد المسحوق ويضاف اليه ماء في قدر ، ويجعل في تنور ويطين عليه حتى يتبخر منه الثلثان ويبقى الثلث ، ثم يرفع في قينة ويسد رأسها جيدا ، ويستعمل هذا الماء المحضر بالطريقة السابقة باضافته الى قناني مائية أخرى ، فتجمد ، وهناك طريقة أخرى استعملها المغاربة حيث ينقع بزر الكتان في خل مختمر جيد مركز ، فاذا جمد فيه ، يلقى في جرة أو حب مليء بالماء ، فانه يجمد ما كان فيه من الماء ، ولو في حزيران أو تموز^(١٣٤) وقد اعتاد هارون الرشيد أن يحمل الثلج معه في أسفاره ، وكان يجلب له من الجبال الشمالية للعراق ، أو حتى من جبال لبنان ، الى أماكن حارة كالبحر مثلًا ، وهو أمر يقتضي المعرفة بوسائل جيدة لحفظ الثلج ونقله لمسافات طويلة ولعدة أيام .

الثقل النوعي :

ومن ناحية أخرى فقد عرف العرب الثقل لبعض

من الجلود الرقيقة مشمعة ، فلا يدخلها الماء في خرزها ويسد فم الجرة بكرة مهندمة ، قد جعل فيها خيط ممدود في وسط الأنبوبة ، طوله مثل طولها ، وترسل الأنبوبة الى قعر البحر ، وعند شد الخيط ودخول الماء اليها ، تخرج الأنبوبة بالخيط المشدود في عروة مركبة عليها ، فيوجد فيها ماء عذب^(١٣٥) .

وعرض البيروني لموضوع اتزان السوائل ، فشرح الظواهر التي تقوم على ضغط السوائل واتزانها وتوازنها ، وبين كيفية تجمع مياه الآبار والمياه الجوفية وكذلك صعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى ، وبني عليه اليتابيع وطريقة رفع الماء بأنابيب الرصاص والروافع والبرابخ ، مستندا في ذلك الى سلوك السوائل في الأواني المستطرقة حيث تتساوى السطوح ، فان اخفضت أحدهما عن الأخرى سال الماء الى أن ينتهي الماء أو تعود لحالة التوازن مرة أخرى^(١٣٦) .

وقد حوى كتاب الخازني ، مواضيع هامة في موازنة السوائل ، منها على سبيل المثال ، موازنة عمود الميزان على سطح الأفق والميزان مائي ، وكذلك في أحكام الجسم المصمت (المجوف) في الماء وطفوه ورسوبه ، وعلل الحالات التي يمكن أن تغرق السفينة أو حتى حساب مقدار غوصها في الماء وهي محملة^(١٣٧) ، وكتاب ميزان الحكمة كتاب معتبر في علم الطبيعة العامة ، وعلم الهيدروستاتيكا والميكانيكا خاصة^(١٣٨) .

كما حظيت الخاصية الشعرية في الأنابيب الدقيقة ،

(١٢٩) محمد بن الحسن الحاسب الكرخي : ألباط المياه الجوفية ، ١٠ - ١١

(١٣٠) جلال شوقي : دراسات البيروني في الطبيعيات ، ٢٦٩ ، البيروني : الآثار الباقية ، ٢٦٢ - ٢٦٣

(١٣١) عبدالرحمن الخازني : كتاب ميزان الحكمة ، ط حيدر ابد ، ٢٦ - ٢٨

(١٣٢) مرجحاً : المرجع في تاريخ العلوم ، ٣٤٧

(١٣٣) أنور الرفاعي : تاريخ العلوم ، ١٤٠

(١٣٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ١٢٤ ، الشمس : مقدمة اعلم الميكانيك ، ٤١

ولم تقف جهود العلماء العرب على دراسة الثقل النوعي للمواد الصلبة ، بل شملت أيضا المواد السائلة ، وكانت نتائجهم متفوقة في اقترابها من الأرقام الحديثة :

المادة	أرقام الخازن	الأرقام الحديثة
الماء العذب البارد	١,٠٠	١,٠٠
الماء الحار	٠,٩٥٨	٠,٩٥٩٧
الماء اذا بلغ درجة الصفر	٠,٩٦٥	٠,٩٩٩
ماء البحر	١,٠٤١	١,٠٢٧
زيت الزيتون	٠,٩٢٠	٠,٩١
حليب البقر	١,١١٠	١,٠٤ - ١,٤٢
دم الانسان	١,٠٣٣	١,٠٤٥ - ١,٠٧٥

وتعتبر نسب الخازني دقيقة ، لأن فرق الاختلاف انما يعود الى طبيعة الماء والسوائل وليست للخطأ أو عدم دقة الطريقة^(١٣٨) . فقد استعمل الخازن ميزان الهواء Aero Meter في ذلك ، وقد ذكر محيي الدين عبد القادر بن محمد الطبري ت ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م . في كتابه « عيون المسائل من أعيان الوسائل » ، جداول فيها الأثقال النوعية للذهب والزئبق والرصاص والفضة والنحاس والحديد ولبن البقر والجبن والزيت والياقوت ، والياقوت الأحمر ، والزمرد ، واللازورد والعقيق والماء والزجاج^(١٣٩) .

المواد الصلبة والسائلة ، وقدروا ثقلها بدرجة دقيقة تقرب أحيانا مما قدره علماء العصر الحاضر ، وفي بعض الأحيان تطابق الدراسات الحديثة . بالرغم من اختلاف المستوى العلمي والتقني^(١٣٥) . وقد أوجد العلماء أجهزة لتعين الثقل النوعي ، فالبيروني مثلاً استخدم جهازاً لتعيين الثقل النوعي للمعادن والأحجار الكريمة ، ذا شكل مخروطي ، له مصب بالقرب من فوهته ، بحيث يتجه الى أسفل ، وتقوم طريقة البيروني على القاعدة المعروفة : الكثافة = الحجم / الكتلة = ث = ح / ك ، ولهذا كان يزن الجسم في الهواء وزناً دقيقاً ، ثم يلقيه في الاناء المملوء بالماء ، فعندما يغمر الجسم في الماء يزاح الماء الى وعاء آخر ، وهو حجم الجسم المغمور ، وأهمية الجهاز ، أن يكون معروفاً في هذه الفترة المبكرة من تاريخ العلوم^(١٣٦) ويدخل في أبحاث الكثافة والحجوم وغيرها .

ان استعراض أرقام نتائج دراسات البيروني والخازن في الثقل النوعي ومقارنتها بالأرقام الحديثة تبين أن أرقام البيروني والخازن كانت قريبة جداً من القيم الصحيحة الحالية :

المادة	أرقام البيروني	أرقام الخازن	الرقم الحديث
الذهب	١٩,٢٩	١٩,٠٥	١٩,٢٦
الزئبق	١٣,٤٩	١٣,٥٦	١٣,٥٩
النحاس	٨,٨٣	٨,٦٦	٨,٨٥
النحاس الأصفر	٨,٦٧٦	٨,٥٧	٨,٤ (١٣٧)

(١٣٥) في مكتبة الأتمام الثلاثة للروم الأرثوذكس ، بيروت - هناك رسالة في النسب التي بين الفلزات والجواهر ، أنظر المشرق ، المجلد العاشر ، سنة ١٩٠٦ ، ٩

(١٣٦) جلال شوقي : دراسة البيروني في الطبيعيات ، ٢٦٤ ، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ العلوم حلب ٧٧ ، ٢٦٤

(١٣٧) الأرقام مقارنة الى الماء ، حل أساس أن الوزن النوعي للماء = ١

(١٣٨) الدوميني : العلم عند العرب ، ٢٢٨

(١٣٩) كحالة : العلوم البحتة ، ٢٤٠ ، الرفاعي : تاريخ العلوم في الاسلام ، ١٤٣

والقسرية والارادية والطبيعية^(١٤٥). ولا تخرج قوانين الحركة عن هذه المضامين كما يتضح من مناقشتها.

القانون الأول :

يقول هذا القانون بأن الجسم يبقى في حالة سكون أو حالة حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة ، ويتعلق القانون بخاصية القصور الذاتي أو العطالة .

وقد تناول اخوان الصفا أجزاء من القانون في رسائلهم في أكثر من وضع عند حديثهم عن الحركة ، فالأجسام الكليات كل واحد له موضع مخصوص ، ويكون واقفا فيه لا يخرج الا بقسر قاسر ، فمتى وقفت الدابة ، سكن الدولاب وعدم الاستقاء^(١٤٦).

وابن سينا في الاشارات والتنبيهات ، ذكر « انك لتعلم أن الجسم اذا خلى وطباعه ، ولم يعرض له من خارج تأثير غريب ، لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين فاذا في طباعه مبدأ استيجاب ذلك^(١٤٧) . وما يريد ابن سينا بيانه ان الجسم لا يخلو من موضع وشكل طبيعيين ، لأن فيه طبيعة تقتضي ذلك ، شريطة أن لا يعرض له من الخارج أي تأثير ، لأن التأثير الخارجي ربما جعل للجسم موضعا وشكلا قسريا ، كتأثير الحرارة والآناء المكعب في الماء .

ان التعمق في دراسة كثافة الأجسام ، وثقلها النوعي ، كانت الموحى للعالم العربي الأندلسي عباس بن فرناس ، بفكرة الطيران المعروفة النهاية^(١٤٨) ، اذ وقع وأصيب بكسور سببت له آلاما عاشت معه لسنوات قبل وفاته .

الحركة :

حدد ابن سينا في كتابه الشفاء العناصر الأساسية للحركة وهي ، المتحرك والمحرك وما منه واليه ، والزمان^(١٤٩) . ويرى أبو البركات هبة الله ابن ملكا البغدادي ان اتصال الزمان لازم لاتصال الحركة^(١٥٠) .

وقد قسم فلاسفة العرب الحركة الى عدة أقسام منها : الحركة الانتقالية والحركة الوضعية ، والحركة القسرية والحركة الطبيعية^(١٥١) . وفي عصرنا يقوم علم الحركة على قوانين ثلاثة ، جرى العرف على نسبتها جميعا الى اسحق نيوتن ، علما أن بين العلماء سواء من المشرق أو المغرب من سبقوه اليها ، غير أن فضل نيوتن في حسن وجودة صياغته لها ، وتحديد صورها الرياضية وعلى الأخص القانون الثاني^(١٥٢) .

وقد جمع الجرجاني ت ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م في كتابه « التعريفات » الحالات الممكنة للحركة في الكم والكيف والأين والوضع والحركة العرضية والذاتية

(١٤٠) الرقاصي : تاريخ العلوم في الاسلام ، ١٤٣

(١٤١) المتحرك : الجسم الذي فيه الحركة ، المحرك : القوة المسببة للحركة ، ما فيه : المكان والموضع ، مائه وما اليه : مواضع الابتداء والانهاء ، والزمان : الفترة الزمنية التي تتم فيها الحركة بقطع مسافة الانتقال .

(١٤٢) العراقي (محمد عاطف) : الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ، ط مصر سنة ١٩٦٩ ، ١٩٦ .

(١٤٣) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١ / ١٢٢ .

(١٤٤) : جلال شوقي : تراث العرب في الميكانيك ، ٢٦ .

(١٤٥) الجرجاني (علي بن محمد) : التعريفات ، ٥ .

(١٤٦) اخوان الصفا : الرسائل ، ٣ / ٣٣٣ ، ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢ / ٢٥٤ .

(١٤٧) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢ / ٢٧٣ .

تضمن كتاب المناظر شرحاً للأوضاع التي يراها ابن الهيثم لتصادم الأجسام .

لقد كانت دراسة الحسن بن الهيثم لحركة تصادم الأجسام دراسة علمية مؤيدة بالتجربة والتحليل ، فأمكنه التوصل الى القواعد الأساسية التي تحكم هذه الحركة ، ووقف على معنى كمي للحركة ، وقدم ابن الهيثم أول طريقة عرفها العالم لقياس صلابة الأجسام ، على أساس تباين ممانعة الاجسام للانفعال بالمصادمة^(١٥٢) .

القانون الثاني :

وينص هذا القانون على أن القوة اللازمة للحركة تتناسب مع كل من كتلة الجسم المتحرك وتسارعه ، وبالتالي فإنها تقاس بحاصل ضرب الكتلة والتسارع بحيث يكون التسارع في نفس اتجاه القوة وعلى خط ميلها وبلغتنا الحديثة « تتناسب العجلة التي يتحرك بها جسم تناسباً طردياً مع القوة المؤثرة عليه ، وتناسباً عكسياً مع كتلته » .

ونستطيع القول أن العرب قد وقفوا على بعض المعاني الواردة فيه ، ولم يتوصلوا الى منطوق القانون ذاته ، ولنستعرض مقولات العلماء بهذا الصدد ، فابن سينا يرى بأن القوة في الجسم الأكبر ، اذا كانت مشابهة للقوة في الجسم الأصغر حتى لو فصلت من الأكبر مثل

وعليه فان مبدأ القصور الذاتي أشار اليه ابن سينا أيضاً في طبيعيات الشفاء حيث ان الجسم وهو في حالة الاندفاع تكون قوته المستمدة من السبب الذي أثار حركته في الأصل ، قادرة على دفع تلك القوة التي تعوقه عن الحركة في اتجاه معين أي قادرة على مقاومة الوسط الذي تنطبق فيه ، حتى تتبدد أخيراً في الخلاء^(١٤٨) .

وينبه ابن سينا الى أن الجسم له ميل للاستمرار في حركته ، يحس به المانع والذي لا يتمكن من منع حركته الا فيما يضعفها أولاً ، حيث تأخذ الموانع الخارجية والطبيعية معا في افنائه قليلاً قليلاً^(١٤٩) .

ومجمل القول ، ان ابن سينا قد توصل الى القانون الأول للحركة بشقيه الخاصين بحالة السكون وحالة الحركة المنتظمة ومدافعة الجسم وطلبه البقاء على حاله ومقاومته للتغيير ، وهي ذاتية خاصة بالجسم ، حال سكونه وحال حركته^(١٥٠) .

ومن ناحية أخرى ، فقد تضمنت مباحث ابن الهيثم معنى القصور الذاتي ، فقد ناقش ذلك في وصفه حركة الكرة بعد ارتدادها من السطح ، اذ لا تلبث الكرة حتى تهبط الى أسفل للقوة الطبيعية المحركة لها الى أسفل ، كما أسند تغير قوة الحركة من حيث الكم والمقدار الى القوة ، وذلك واضح من اسناد تغير الحركة الى فعل الممانعة في أقواله عن الانعكاس وعن الانعطاف ، وكذلك في تحليله لفكرة الحركة الى مركبتين متعامدتين^(١٥١) . وقد

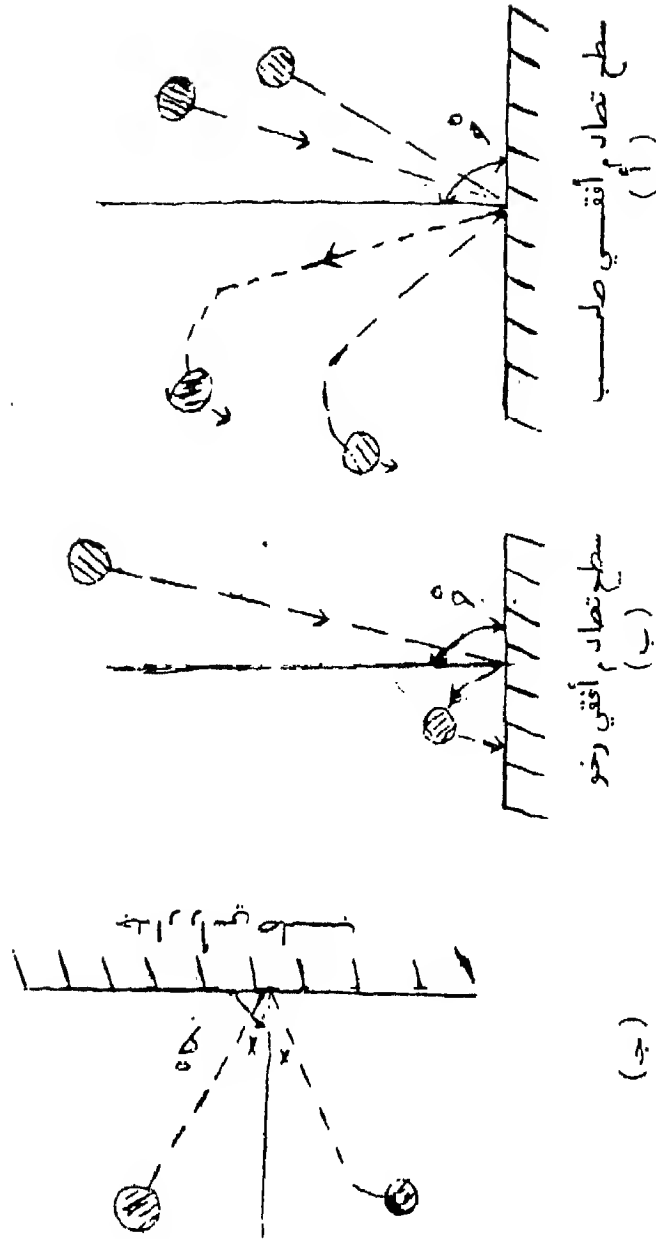
(١٤٨) نصر (سيد حسين : ثلاثة حكماء مسلمين ، ٤٨)

(١٤٩) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢٨٣/٢

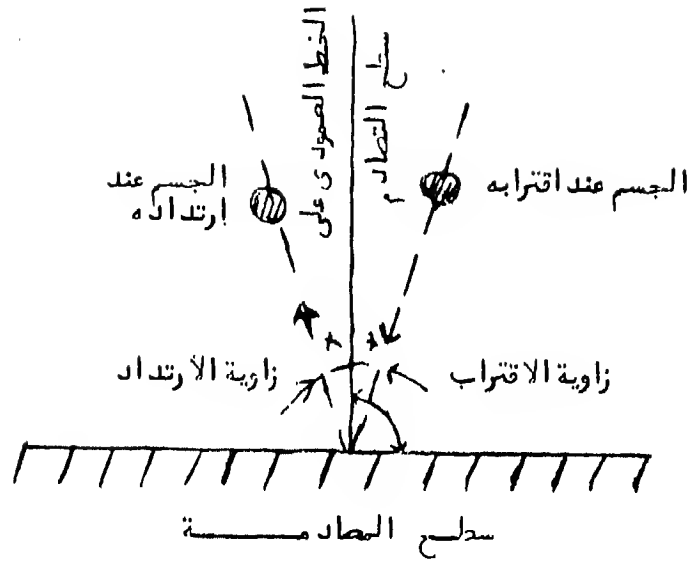
(١٥٠) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦١

(١٥١) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١٤٨/١

(١٥٢) جلال شوقي : تراث العرب ، ٥٥



(شكل ٢١) مسار الجسم الصادم قبل وبعد الاصطدام
عند لقاب ترات العرب العليمة في الميدان كما جردل شوقي



(شكل ٢ / تساوي زاويتي الاقتراب " السقوط " و الارتداد (الانعكاس)
عند تصادم جسم مع سطح أملس .

المفروض ، فيجب أن يحرك الثاني أكثر من الأول ، وذلك لأن المقسور انما يعاون القاسر بحسب طبيعته المخالفة لطبيعة القاسر ، ويستنتج نصير الدين بأن القوة غير المنتهية لو حركت بالغرض جسمين مختلفين ، لوجب أن يكون تحريكها إياهما متفاوتاً^(١٥٦) .

ويقول هبة الله بن ملكا البغدادي ت ٥٤٧ هـ في كتابه «المعتبر في الحكمة» بازدياد السرعة عند اشتداد القوة ، فكلما زادت قوة الدفع زادت سرعة الجسم المتحرك وقصر الزمن لقطع المسافة المحدودة .

وكل هذه النصوص تبين أن العرب قد وقفوا على ما يكاد يكون كل معاني القانون الثاني للحركة ، وإن لم يتوصلوا إلى صياغته بشكل رياضي مناسب كما فعل اسحق نيوتن بعدهم^(١٥٧) .

القانون الثالث :

وينص هذا القانون على أن « لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ، ومضاد في الاتجاه » .

ولنا أن نقرر ، أن العرب قد قالوا بأصول هذا القانون وعلى الأخص ، أبو البركات ، هبة الله بن ملكا البغدادي في كتابه المشار إليه سابقاً ، وكان يراقب لعبة شد الحلقة من قبل متصارعين ، فذهب إلى أن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين ، لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر ، فإن غلب أحدهما ، كانت قوته مقهورة وليست معدومة .

الأصغر ، تشابهت القوتان بالاطلاق ، فإنها في الجسم الأكبر أقوى وأكثر ، إذ فيها من القوة شبيه تلك الزيادة ، ويضيف ابن سينا بأن الجسم الأقل مقدارا أقبل للتحرك وأسرع حركة^(١٥٣) .

ويؤكد فخر الدين الرازي ، ازدياد القوة الطبيعية مع عظم الجسم ، فالأجسام كلما كانت أعظم كان ميلها إلى احيازها الطبيعية أقوى ، فإذا كانت كذلك ، كان قبولها للميل القسري أضعف^(١٥٤) .

وذهب لمثل ذلك نصير الدين الطوسي في معرض شرحه لشارة ابن سينا في الفصل التاسع عشر من النهج السادس من الالهيات ، وقد جاء منها « اعلم أنه لا يجوز أن يكون جسم ذو قوة غير متناهية يحرك جسماً غيره ، لأنه لا يمكن أن يكون الا متناهياً ، فإذا حرك بقوته جسماً ما ، من مبدأ يفرضه ، حركات لا تنهاى في القوة ثم فرضنا أنه يحرك أصغر من ذلك الجسم بتلك القوة ، فيجب أن يحركه أكثر من ذلك من المبدأ المفروض ، فتقع الزيادة التي بالقوة ، في الجانب الآخر ، فيصير الجانب الآخر متناهياً أيضاً ، وهذا محال^(١٥٥) ويشرح نصير الدين الطوسي هذه الإشارة على الكيفية التالية ، ان القوة التي لا نهاية لها ، هي التي تكون على أعمال أو حركات غير متناهية ، والحركة غير المتناهية هي الدورية ، وفي مثل هذه الحالة ، فإن القوى الجسمانية غير متناهية ، ثم اذا فرضنا ان ذلك الجسم المحرك ، يحرك جسماً آخر شبيهاً بالجسم الأول في الطبيعة ، وأصغر منه في المقدار ، بتلك القوة عينها من ذلك المبدأ

(١٥٣) ابن سينا : الطبيعيات ، ١٥ ، جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٦

(١٥٤) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٧

(١٥٥) ابن سينا الاشارات والنتيحات ، ١٦٥/٣

(١٥٦) المرجع السابق ، ١٦٧

(١٥٧) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٩

أما فخر الدين الرازي ، في كتابه « المباحث الشرقية في علم الاهليات والطبيعات » عند حديثه عن الميل والمدافعة ، فيسرى ، أن وقوف الحلقة في الوسط بين المتجاذبين تدل على فعل كل منهما فيها فعلا متساويا وهو يتعدى المدافعة أي قوة الدفع وهو غير قوة الجذب أيضا . ويقرر أن الذي فعله كل منهما لو خلي عن المعارض (العائق) لاقتضى انجذاب الحلقة الى جانبه ، وانتهى أن ما حدث يتعدى العلة الطبيعية والقوة النفسانية .

ومجمل القول ، أن العرب بالفعل قد توصلوا الى أصول القانونين الأول والثالث للحركة ، وكادوا أن يتوصلوا الى القانون الثاني للحركة في صورته الكاملة (١٥٨) .

أما الجاذبية الأرضية :

فقد درس العرب منذ القرن التاسع الميلادي ، قوة التناقل الناشئة عن الجاذبية الأرضية ، وسموها القانون الطبيعي أو الميل الطبيعي ، حيث افترضوا أن لكل جسم مكانه الطبيعي في منظومة الكون ، فإذا ما أخرج منه قسرا ، نزع الى استعادة مكانه الطبيعي . وقد درس مجموعة من العلماء تفاصيل تساقط الأجسام تحت تأثير الجاذبية الأرضية . ومنهم على سبيل المثال ، ثابت بن قرة ، واخوان الصفا ، والبيروني وابن سينا ، وأبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادي وفخر الدين الرازي ونصير الدين الطوسي ، وذهبوا الى أن الجسم

وهو يجاهد ليأخذ مكانه الطبيعي ، انما يسلك في ذلك أقرب الطرق ، الخط المستقيم ، كما حاولوا أن يعللوا العديد من خواص الجذب ، فالمدرة عند ثابت بن قرة انما تعود الى السفلى ، لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة في كل الأعراض من البرودة واليبوسة والكثافة ، والشيء ينجذب الى مثله والأصغر ينجذب الى الأعظم ، وإلى المجاور الأقرب قبل انجذابه الى مجاوره الأبعد . وعند اخوان الصفا أن الاجسام وهي في أمكنتها الطبيعية الخاصة لا توصف بالخفة أو الثقل ، فإذا ما خرجت من أمكنتها وصفت بالثقلية ، ان كانت حركتها نحو المركز (مركز الأرض) ، وبالخفيفة ان كانت حركتها نحو المحيط ، ولعل الثقل والخفة تكون أيضا بسبب الموانع التي تعوق الجسم من أن ينتظم في مكانه الطبيعي ، فيقع التنازع ، ويكون على أشده في المركز وأضعفه في المحيط (١٥٩) ولا تتعدى آراء ابن سينا هذا الاطار في الثقل والخفة ، ولم يأت فيها بجديد ، وانما عرضها على النهج الارسطوطالي ، فلكل جسم مكانه الطبيعي أو ميزة تقتضي طبيعته أن يتحرك اليه ، فالنار مثلا تتحرك الى أعلى ، والجمرة عادة وطبيعا يتحرك الى أسفل (١٦٠) ، والمتحرك الى الوسط هو الذي يسمى ثقيلًا ، اما المتحرك عن الوسط فيكون خفيفا (١٦١) ، وقد علق فخر الدين الرازي على هذه المسألة بأن كل جسم له ميل الى المكان الملائم وميل عن المكان الغريب ، والميل هو الثقل والخفة (١٦٢) .

ومن ناحية أخرى ، فقد أدرك علماء العرب ، أن قوة

(١٥٨) المرجع السابق ، ٧٢

(١٥٩) اخوان الصفا : الرسائل ، أنظر رسالة السماء والعالم

(١٦٠) أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي ، ٣٠٣ ، ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ١٨٨

(١٦١) ابن سينا : الطبيعيات ، ٩

(١٦٢) المرجع السابق ، ٩٩

تظهر عندما تكون الشمس في نصف النهار ، وإنما عند الطلوع أو الغروب ، ولا يختلف هذا القول عن ما ذهب إليه العلم الحديث . وقد صحح البيروني مقولات الهنود حول ظاهرة المد والجزر ، وبين أنها ترتبط بالتغير الدوري لوجه القمر^(١٦٦) .

ولعل البيروني خير من فهم هذه الناحية من العلماء في عصره فهما علميا صحيحا ، فقد عرف بأن الأرض تجذب ما فوقها نحو مركزها ، وأن الأجسام تنزع دوما إلى المركز^(١٦٧) ، وأورد الإدريسي أن الأرض جاذبة لما في أبدانهم (أي أبدان الأجسام) من الثقل وتكون الأرض بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب الحديد . وعرف الخازني في « ميزان الحكمة » أن الأجسام الساقطة تنجذب في سقوطها إلى مركز الأرض ، وتجاوز ذلك إلى معرفة نسبة السرعة المتصاعدة في سقوط الأجسام ، « فالثقل هو القوة التي يتحرك بها الجسم الثقيل إلى مركز العالم » والسرعة تزيد عندما يكون الوسط (الهواء) رطبا وغيرها من الأمور^(١٦٨) .

ومن ناحية أخرى ، فقد سخر العرب ظاهرة الجاذبية الأرضية لخدمة حياتهم اليومية ، وخاصة في الأبرة المغنطيسية ، إذ استعملوها في أسفارهم البحرية لتحديد الاتجاهات ، ولأغراض أخرى ، بعد تطور معرفتهم العلمية ، فمع أن اليونان قد عرفوا المغناطيس ، وتأكدوا من اتجاهه نحو الشمال والجنوب على الأقطاب المغنطيسية الأرضية ، إلا أنهم لم يعرفوا

التثاقل تزيد بكم الجسم وإنما تسلك أقصر الطرق في تساقطها ، وتزيد سرعته مع مسافة السقوط ولا تعتمد تلك السرعة على كتلة الجسم ، وبهذا الصدد يذكر هبة الله بن ملكا في كتابه المعتبر في الحكمة « وأيضا لو تحركت الأجسام في الخلاء لتساوت حركة الثقيل والخفيف والصغير والمخروط المتحرك على رأسه الحاد ، والمخروط المتحرك على قاعدته الواسعة » في السرعة والبطء ، لأنها إنما تختلف الملازمة بهذه الأشياء بسهولة خرقها لما تخرقه من المقاوم المخزوق ، كالماء والهواء وغيره^(١٦٩) . وهذه الأخيرة إنما هي مبادئ للديناميكا الهوائية ، حيث أن مقاومة الهواء تختلف باختلاف الشكل الهندسي للجسم الذي يخترق الهواء ، فالسهم المائل مثلا يجعل من الهواء وسطا حاملا له ، في حين أن الشكل المخروطي يلقي مقاومة من الهواء . ولعمري أنها اللبنة الأولى لدراسة حركة الأجسام في الهواء ، وما يسمى في عصرنا « الديناميكا الهوائية »^(١٧٠) .

ولم تتوقف بحوثهم عند هذا الحد ، فقد أدركوا أن للهواء وزنا ، وأن له قوة رافعة كما في السوائل^(١٧١) ، وأدرك الخازني أن وزن الجسم في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وعلل ابن سينا حركة الرياح بتدخل جهة من الهواء لسخونة أو برودة وكذا الشمسيات التي هي كالشموس ، خيالات تحدث في مرآة شديدة الاتصال والصفالة ، والنيازك عند ابن سينا ، خيالات أيضا في لون قوس قزح ، إلا أنها مستقيمة ، تكون في جنبه الشمس بمنة عنها أو يسرة ، لا تحتها ولا أمامها ، وقلبا

(١٦٣) جلال شولي : تراث العرب ، ٨٣

(١٦٤) هبة الله بن ملكا : المعبر ، ١٠٧/٢

(١٦٥) الخازني : ميزان الحكمة ، ٥

(١٦٦) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ، ٤٢٨/١٣٧

(١٦٧) المرجع السابق ، ٢٢٣

(١٦٨) الخازني : ميزان الحكمة ، ١٦ - ٢٠

البوصلة ، الاختراع الذي تنازعه كل من الصينيين والعرب والطلليان ، وتسقط دعوى الايطاليين لأنها تنسبها الى جيرارد الكريموني ، والذي أثبتت الدراسات المحدثثة الموثوقة ، ان جيرارد اعتاد أن ينسب ما ترجمه من التراث العربي لنفسه ، فيدعي التأليف وما هو بأكثر من مترجم وحتى مترجم ضعيف لأنه لم يكن يجيد العربية ، اما الادعاء الصيني فان المؤرخ الصيني Chuyu يذكر أن الصينيين عرفوا البوصلة عن طريق ملاحين أجنبية هنود أو عرب ، وحيث أن المراجع الهندية لا تذكرها ، فاننا نرجح انها وصلت الصين مع الملاحين العرب الذين كانوا يجوبون الهند والصين في رحلاتهم البحرية وأن البوصلة تطوير عربي لفكرة الابرّة المغناطيسية وامرّها معروف .

ومن الجدير بالذكر ، ان بطرس فون ماريكو ، نقل مباشرة معلوماته عن المغناطيس من العرب ، وكذا كيفية استعمال البوصلة ، وأدخلها الى أوروبا ، ورسالته المسماة « Epistole Mayneie » مشهورة ومعروفة في الأوساط العلمية الأوروبية (١٦٩) .

أثر الفيزيائيين العرب في الترقى الأوربي :

يعد ابن الهيثم أعظم الفيزيائيين العرب بابتكاراته واختراعاته المتعددة ، ويبدو ان اهتمام علماء أوروبا به في بدء نهضتهم يفوق اهتمامهم بأي عالم آخر ، ولعل سارطون أصاب كبد الحقيقة حين قرر « ان ابن الهيثم هو أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ، ومن علماء

البصريّات القليلين المشهورين في العالم كله » . ويبدو ان شهرة ابن الهيثم الأوربية ، انما تعود الى اطلاع الاوروبيين على كتابه « المناظر » منذ فترة مبكرة ، لا سيما وان كتابه « المناظر » يعتبر أهم كتاب ظهر في القرون الوسطى ، لانه استوفى العديد من البحوث الضوئية ، وعالج القوانين الأساسية للانعكاس والانكسار والانعطاف ، تلك القوانين التي تعرف خطأ بقوانين ديكارت بالاضافة الى المواضيع الأخرى ، مما حدا به H.Sutter أن يذكر بأن هذا الكتاب « المناظر » قد أثر تأثيرا عظيما في دراسة علم المناظر أثناء القرون الوسطى من عهد روجر بيكون الى عهد كيلر (١٧٠) .

كان العالم البولوني Witello أول من نشر كتابا في البصريّات في أوروبا سنة ١٢٧٠ م . ، وضعه كما قال هو نفسه على أساس ما جاء في كتاب بطليموس القلودي ، وكتاب آخر لمؤلف عرف في العالم اللاتيني باسم « AL-Hazen » (١٧١) وما هو الا الحسن بن الهيثم .

ان هذه الاشارة التي أوردها « witello » ، كانت بداية التوجه الأوربي نحو دراسة منجزات الحسن بن الهيثم ، ومن يومها ، وأبحاث الحسن بن الهيثم تجد مكانها في الدراسات الأوربية اما بصورة مشتهرة أو بالاعتباس الضمني ، فقد درس جون بيكام سنة ١٢٩١ م ما أسماه « علم المناظر » ولدى تدقيقه من قبل الدوميلي ، خلص الدوميلي بنتيجة مؤداها « ان مناظر J. peckam ليست الا اقتباسا ناقصا من كتاب ابن الهيثم » (١٧٢) . أما روجر بيكون فكان أكثر نبلا ممن

(١٦٩) الشمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٣٦ .

(١٧٠) دي بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ١٩٢ .

(١٧١) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٢ .

(١٧٢) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٢٠٨ .

وقد ترجم جيرار دي كرىمونات ١١٨٧ ، رسالة ابن الهيثم في الشفق ، ونشرت رسالته في الضوء في المجلة الآسيوية - الألمانية (z d m g) في العدد ٣٦ ، الصفحات (١٩٧ - ٢٣٧) ، نشرها المستشرق بارمان ، وفيما بحث عن ماهية الضوء وكيفية انتشاره والأجسام المشقة التي تنفذ . (١٧٥) .

وترجم Carl Shoy مقالة ابن الهيثم في الأثر الظاهر في وجه القمر ، وكان عنوان مقالته في سنة ١٩٢٥ ،

Abhandlung des Shaicks... Ibn Al-Haitham: Über die Natur der Spuren (Flecken), die man der Oberfläche Des Mondes sieht, Hannover, 1925.

واعادها عبد الحميد صبره فيما بعد في مجلة تاريخ العلوم ، ١٩٧٧ ، العدد الأول ونشر أرمان آبل بحثا عن المقالة بالفرنسية بعده بعشر سنوات وعنوانه

La Selenographie d'Ibn Al-haitham (965-1039) das ses rapports avec la sciences, Bruxelles, 19-23, Juin, 1935, p. 76-81. (١٧٦)

ومع أن كاجوري يقر في كتابه history of physics ، بأن الحسن بن الهيثم كان أول طبيب وصف العين بصفة تشريحية ، فقد نسب اكتشاف الخزانة

سبقوه ، فاعترف بأبدي ابن الهيثم فيما توصل اليه من نتائج دراساته البصرية والضوئية سنة ١٢٩٤ م . وقد نشر رنزن سنة ١٥٧٢ ترجمة لاتينية كاملة لكتاب المناظر سماها « الذخيرة في الأوبتيكي للحسن » ، وقد بقيت الترجمة دستورا للبصرييات حتى القرن السابع عشر (١٧٣) . وتواكبت الدراسات عن ابن الهيثم فيما بعد ، فقد اطلع E. Weidemann على مخطوط عربي عنوانه « تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر » لكمال الدين الفارسي ، فألف على أثرها zu ibn alhaitams optik ، وترجم كيفية الأطلال ، وفقرات من رسالته في المكان ، ومسألة ابن الهيثم العددية ، التي أشرنا إليها سابقا ، ورسالته في المرايا المحرقة بالدوائر (١٧٤)

ومن الدراسات المحدثة التي جعلت ابن الهيثم وكشوفه عناوينها الرئيسية نذكر :

H. J. Winter: The Optical researches of Ibn Al-Haitham in Contaurus, 31 (1954) p. 19-120

O. S. Marshall: Al-Hazen and the telescope, Astronomical society of the pacific; San Francisco, 1950

Donald, R. Hill: On the Construction of water Clocks, The Art Bulletin, 11, 1920, p. 206-214 .

Library of the University of Leiden .

(١٧٣) ختار القاضي : أثر المدينة الإسلامية في الحضارة العربية ، ٢١١

(١٧٤) المرجع السابق ، ٢١١

(١٧٥) المشرق : السنة الثانية ، العدد ٢٤ ، سنة ١٩٩٩ ، ١١٠٧

(١٧٦) عبد الحميد صبره : مقالة الحسن بن الهيثم ، حلب ، المجلد الأول ، العدد الأول ، أيار سنة ١٩٧٧ ، ٥ عبد الرحمن بدوي : أبحاث المشرقين في تاريخ العلوم ،

عالم الفكر ، الكويت ، ١٩٧٨ ، ٣٩

الصوت^(١٧٨) . ومعظم هذه الأبحاث وجدت طريقها الى الترجمة المبكرة .

وأخيرا فإن نظرية ابن سينا حول القصور الذاتي ، ظهرت لأول مرة بصورة واضحة في كتابات peter olivi ، وحرفت على يد جون بوريدان غير أن البحث الأوروبي المنصف اعترف بما قدمه علماء الفيزياء العرب في مجالات الحركة والقوى والجاذبية ، مما يتعذر معه على أي باحث في تاريخ العلوم ان يتجاوزه .

أما ما قدمه العرب في علم الحيل وصناعة الأواني وتأثير الأوروبيين بها وعلى الأخص الروافع ، فهذا مما أشرنا اليه في القسم الأول من بحثنا هذا .

ان تاريخ العلوم حلقات متصلة ، وان تجاوز بعضها ، باعتبارها ليست ذات شأن يضعف حلقة النتائج الجديدة ، ولا يضر بأية حال بنية الحلقة المتخطة ، وعندها ، فإن إعادة الربط والوصل بين الحلقات يصبح أمرا محتملا ، وهذا ما نحاول أن نجذره ، فهلا تعاونوا ١٩

المظلمة ذات الثقب الى باتيستا دلابورتا من خلال وصفه لها في كتابه Magia naturalis (السحر الطبيعي) . ونحن وإن كنا نقدر له رأيه ، فنورد ان حنين بن اسحق في مقالاته العشر عن العين قد سبق ابن الهيثم في تشريح العين ، كما أن دلابورتا يثير في كتابه المذكور ، مسألة تأثيره بما توصل اليه ابن الهيثم بهذا الصدد^(١٧٧) ، ولعل ابن الهيثم قد فسر عمل الكيرا تفسيراً مقبولا من الناحية النظرية والعلمية .

ولم يقتصر اهتمام علماء أوروبا على منجزات الحسن بن الهيثم دون غيره ، فقد ترجمت أيضا بصريات الكندي الى اللاتينية ، وكان لها أثر في أعمال روجر بيكون وغيره . اما الكندي ت ٢٥٢هـ / ٨٨٦ م فينسب اليه أكثر من ٢٦٥ بحثا على شكل رسالة ومقالة وكتاب في الفيزياء والطقس والمد والجزر والبصريات والصوت والموسيقى ، بالاضافة الى ماكتبه في المطر والضباب والرياح وأسبابها واتجاهها والكثافة والثلج والبرد والصواعق والرعد واختلاف سرعة الضوء عن سرعة

(١٧٧) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١٨٠ ، مختار القاضي : أثر المدينة ، ٢١٢

(١٧٨) مرجح : المرجع في تاريخ ، ٣٢٣ .

(ملخص)

يعتبر معجم البلدان اهم مصنف في تراث الادب الجغرافي العربي ، وقد كتب كثير من المستشرقين والباحثين حول هذا الكتاب ، حتى قال كراتشكوفسكي « لعله لم يتمتع جغرافي عربي بعدد من الدراسات مثل الذي افرد لياقوت^(١) » . لكن الدراسات والأبحاث السابقة كانت في معظمها تتناول - على أهميتها - موضوعا واحدا من الموضوعات العديدة التي اشار اليها ياقوت عرضا أثناء تصنيفه الكتاب ومحاول هذا البحث من خلال قراءة ثنائية لمعجم ياقوت البلدان النفيس ، أن يقدم عرضا موضوعيا لهذا المعجم ، ويوضح منهج صاحبه في البحث العلمي ، كما يبرز بعض الملامح السياسية الهامة التي يتضمنها معجم البلدان ، وبخاصة تلك المتعلقة بعصر ياقوت المضطرب الذي واكب المرحلة الأخيرة من الحروب الصليبية ، وطلائع الغزوة المغولية المدمرة للمشرق الاسلامي ، وكان للملامح الاقتصادية البارزة نصيب في هذا البحث ، وفي مقدمتها تطور الاقطاعات في الدولة الاسلامية ومصادر الثروة الاقتصادية والتجارية فيها ، اضافة الى بعض الظواهر الاجتماعية المتميزة التي رافقت تطور المجتمع العربي الاسلامي منذ الفترة السابقة على ظهور الاسلام وحتى عصر المؤلف الذي يغطي أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة ، وأواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر للميلاد . وعرض البحث كذلك الى بعض السمات الثقافية للحضارة الاسلامية كما أشار اليها ياقوت في معجمه علاوة على التعرف على مصادره ومراجعته التي استقى منها معلوماته ومواد معجمه . ولم يغفل البحث الإشارة الى الملامح الأثرية المتناثرة في ثنايا

قراءة ثانية في معجم البلدان لياقوت الحموي

احسان مهدي العميد

وزارة الاعلام - الكويت

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ١٩٦٣ ، ١٠ / ٣٣٧ .

الكتاب ، ناهيك عن الدراسات الرائدة التي كتبت عن معجم البلدان .

تمهيد :

الذين أشادوا بياقوت الحموي وآثاره العلمية والادبية كثيرون ، منهم المعاصرون له واللاحقون به والمتأخرون عليه والمحدثون . وهؤلاء وأولئك يغلب على بعضهم الاختصار والتعميم في معرض تقييمهم لتلك الآثار ، في حين يتسم تقويم البعض الآخر بالانفاضة والتخصيص . فابن خلكان وهو من المعاصرين ، يصف ياقوت بأنه « كانت له همة عالية في تحصيل المعارف . . . وان الناس كانوا عقيب موته يشنون عليه ، ويذكرون فضله وأدبه »^(٢) ، والذهبي وهو من اللاحقين ينعتة « بالأديب الاخباري صاحب التصانيف الادبية في التاريخ والانساب والبلدان وغير ذلك »^(٣) . وهو عند ابن تغري بردي المتأخر عنه « صاحب التصانيف والخط »^(٤) .

وكان المستشرقون السابقون من المحدثين هم الذين نوهوا بتراث ياقوت ونبهوا الى اهمية مؤلفاته وبخاصة معجم البلدان ، ويأتي في مقدمة هؤلاء المستشرق الروسي فرين (Frahn) الذي كان اول من كتب منهم عن شخص ياقوت وعرف به ، وتبعه زميله سنكوفسكي (Senkowski) الذي وصفه « بأنه كاتب مدقق مجتهد ندين له بحفظ آثار قيمة . . . وقد أبدى الكثير من الغيرة والحماس في دراسة الاوضاع الجغرافية

والاثنوغرافية والسياسية لعصره » وجاء بعده فستفلد (Wustenfled) الألماني فوصف معجم البلدان بأنه « أحسن مؤلف وضعه واحد من العرب الكبار »^(٥) وقفى عليه الأسباني بونس بوييس (Pons Boigues) فذكر أنه أوسع وأهم ، بل وأكد أقول افضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للعصور الوسطى « وأشار كراتشكوفسكي (Krachkovski) الى أن « أهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة . . . فهو جامع للجغرافيا في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضا ، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية الى جانب الدين والحضارة والأثنولوجيا والأدب الشعبي والأدب الفني في القرون الستة الأولى للهجرة »^(٦) . وأشاد به المستشرق الهولندي كرامرز (Kramers) وبخاصة بالنسبة للإشارات التجارية التي وردت فيه ، واعتبره أثرا جليلا في هذا الميدان ، كما أكد أن علم التاريخ مدين لمعجم البلدان أكثر من علم الجغرافية^(٧) . ونوه به المستشرق الفرنسي كارادوفو (Carra de Voux) حين قال « ان معجم البلدان من المؤلفات التي يحق للاسلام أن يفخر بها كل الفخر »^(٨) .

واولى عدد من الباحثين المحدثين اهتماما مماثلا بمعجم البلدان ، فاعتبره نفيس أحمد كتابا ذا « أهمية فائقة ، اذ يصور العالم الاسلامي في الفترة السابقة على الخراب الذي اصاب ثقافته وثروته بأيدي المغول ويعتبر

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١٩٤٩ ، ٥ / ١٨٠ ، ١٨٩ .

(٣) الذهبي : العبر ، ١٩٦٦ ، ٥ / ١٠٧ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٨٧ / ٨ .

(٥) فستفلد : مقدمة معجم البلدان ، ١٨٦٦ ص ٧ .

(٦) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي ، ١٩٦٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٧) ارتولد : تراث الاسلام ط ١ ، الترجمة العربية ، ١٩٧٢ ، ١٤٤ .

(٨) صلاح الدين المتجدد : اعلام التاريخ والجغرافيا ، ١٩٥٩ ، ١ / ٧٤ .

التي كانت مركز النشاط التجاري بين الخليج والهند في القرن السادس الهجري ، القرن الثاني عشر الميلادي . وكان خلال رحلاته التي اتسعت فيها بعد لتشمل المناطق الواقعة بين مصر وما وراء النهر ، يجتمع بأهل الأدب والعلم ويطلع على ما لديهم من كتب ، حتى اذا بلغ العشرين من عمره انفصل عن مولاه لقفوة وقعت بينهما ، فاشتغل ياقوت بنسخ الكتب ليتكسب منها ، وحصل بالمطالعة فوائد زادت في ثقافته العلمية وحببت اليه الاشتغال في العلم ومكنته منه . وتعود العلاقات الودية بين ياقوت ومولاه ثانية بعد بضع سنين ، ويصبح شريكا لمولاه في التجارة بالمضاربة . وقد أعطاه الأخير مالا خرج به للتجارة في جزيرة قيس ، فلما عاد من رحلته تلك الى بغداد عام ٦٠٦ هـ ، وجد مولاه عسكر بن ابي نصر قد توفي . فأعطى أولاده وزوجته من المال ما أرضاهم به ، وبقيت لديه بقية جعلها رأس ماله ، واستمر يعمل في التجارة بما فيها تجارة الكتب ، فكان يطوف بالبلاد ويتردد على الوراقين ودور الكتب ، ويتعرف على العلما وكبار القوم الذين يرغبون في هذه البضاعة ، فعلت مكانته واشتهر أمره فسعى الى تغيير اسمه الى يعقوب تخلصا من اسم ياقوت الذي كان يطلق على الرقيق . لكن الناس لم يألفوا اسمه الجديد وظلوا يدعونه باسمه الأول ياقوت (١٣) .

وفي اثناء تجوال ياقوت في مدن خراسان أدركته جيوش التتار في مدينة مرو التي أخبها كثيرا وتمنى ان يقضي بقية حياته فيها ، فغادرها مكرها الى اربل ،

الجهد الذي قام به ياقوت دراسة متقنة لما سبق بين يديه من مؤلفات جغرافية ذات قيمة ، وهدانا الى كتب متعددة لم يعد يتيسر الحصول عليها ، كما استعمل المنهج النقدي الذي يأخذ به الجغرافي الحديث (٩) . وعده جرجي زيدان « خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية » (١٠) . وهو عند حسين مؤنس « معجم جغرافي خالد وديوان الجغرافية العربية الاكبر ، وكثرها الذي يمثل صرحا من صروح العبقريّة البشرية في كل العصور » (١١) . وعند عمر كحالة « اكمل مصنف للمعلومات الجغرافية الوصفية والفلكية واللغوية واخبار الرحالين التي جمعها السلف » (١٢) .

صاحب المعجم :

ونتعرف على صاحب معجم البلدان قبل قراءته ، فاذا به في أول نشأته غلام رومي صغير مجهول الاسم يقع في الاسر خلال الحروب المتصلة التي كانت تنشب بين المسلمين والروم في آسيا الصغرى ، ويدخل في ولاء تاجر حموي في بغداد يدعى عسكر بن ابي نصر بن ابراهيم الحموي فيسميه ياقوتا ، وينسبه اليه فيعرف منذ ذلك الوقت بياقوت الرومي الحموي . ومحدثنا ابن خلكان عن الحاق التاجر الحموي البغدادي لياقوت باحد الكتاب ليتنفع به فيما بعد في ضبط تجارتها ، فتعلم ياقوت من مولاه التجارة وأوفده في عدة رحلات تجارية زادت في خبرته ووسعت أفقه ، ومكنته من زيارة عدة بلدان أهمها منطقة الخليج العربي حيث زار البصرة وبعض موانئ الخليج وجزره ، وبخاصة جزيرة قيس

(٩) نفيس احمد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي ، ١٩٧٨ ، ١٠٣ ، ١٠٧ .

(١٠) زيدان : تاريخ آداب ، ١٩٦٧ ، ٩٢/٢ .

(١١) مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ١٩٦٧ ، ٤١٨ .

(١٢) كحالة : التاريخ والجغرافية في العصور الاسلامية ، ١٩٧٢ ، ٢٤٠ .

(١٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١٩٤٩ ، ٥/١٧٨ - ١٨٩ .

ومنها الى الموصل بعد ان قاسى الكثير من المتاعب والاهوال وضيق ذات اليد . وفي الموصل استأنف ياقوت عمله في نسخ الكتب ، وقد نسخ منها الكثير ، اذ يحدّثنا ابن الشعار المبارك بن ابي بكر بن حمدان الموصلّي (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) الذي التقى بياقوت في الموصل ، ان ياقوت « كتب بيده في مدة سبع سنين ثلاثمائة مجلد »^(١٤) . واذا علمنا ان هذه الكمية نسخها ياقوت خلال الفترة (٥٩٦هـ - ٦٠٣هـ) ، امكننا القول انه نسخ بعد هذا التاريخ مئات اخرى من الكتب ، وهذه مهمة شاقة لم تكن تدر على صاحبها فيما يبدو الكثير ، وقد شكّا ياقوت من ذلك وهو في الموصل حيث قال انه كان « يمارس حرفته وبخته . . . ويذيب نفسه في تحصيل اغراض هي لعمر الله اغراض من صحف يكتبها واوراق يستصحبها ، نصبه فيها طويل واستمتع بها قليل ثم الرحيل . . . وهيئات مع حرفة الادب بلوغ وطراو ادراك أرب »^(١٥) . وكتب ياقوت وهو في الموصل رسالة مؤثرة الى جمال الدين علي القفطي وزير الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، شرح له فيها ظروفه السيئة والتمس منه الوفاة عليه والاقامة في كنفه ، فلم يجيب القفطي رجاءه فاستقدمه الى حلب حيث استمر ياقوت فيها يطلع على الكتب وينسخها ويجتمع الى اهل العلم والادب . واكمل خلال تلك الفترة مسودة معجم البلدان الذي اهداه الى الوزير القفطي اعترافا بفضلته عليه . ولم يلبث ياقوت ان توفي في حلب وهو في الخمسين من عمره (٥٧٤هـ - ٦٢٦هـ) (١١٧٨ - ١٢٢٩م) .

وقد صنف ياقوت بالإضافة الى معجم البلدان عدة

كتب وصل اليها منها ارشاد الاريب الى معرفة الاديب المشهور بمعجم الادباء ، والمقتضب من كتاب جمهرة النسب ، والمشارك وضعاً والمفترق صقعا . وفقد من مؤلفاته كتاب المبدأ والمآل في التاريخ ، وكتاب الدول ، ومجموع كلام ابي على الفارسي ، وعنوان كتاب الاغاني ، وكتاب أخبار المتنبي ، وكتاب معجم الشعراء . وقد اتهم ابن الشعار الموصلّي ياقوت بأنه « كان ضئيلاً بما يجمعه ، لا يجب اطلاع احد على ما يؤلف ، شديد الحرص عليه ، لا يفيد لمخلوق فائدة البتة ، وكان ربما سئل عن شيء وهو به عارف ، لم يجب عنه ، شحا وجفاء طبع ، هكذا كانت شيمته مع الناس ، وخلف كتابا ، وأوصى أن توقف ببغداد بدرب دينار بمسجد الشريف الزيدي ، شاهدته بالموصل ، وهو كهل أشقر أحر اللون ، أزرق العينين ، وكانت بينه وبين أخي صداقة وأنس تام . واقتضيت شيئا من شعره ، فأجاب الى ذلك ، وجعل يماطلني ويعدني هكذا مدة من الزمان ، ثم سافر الى الشام فما عدت رأيته بعد ذلك »^(١٦) .

وقد يكون في هذا الاتهام بعض مبالغة المتعاصرين وتنافسهم ، الا ان ياقوت يشير الى شيء من ذلك في مقدمته لمعجم الادباء التي يقول فيها : « فقد رأني جماعة من أهل العصر ، وقد نظمت لأليء هذا الكتاب ، وأبرزته في أبهى من الحل على ترائب الكعاب ، فاستحسنوه ، والتمسوه لينسخوه ، فوجدت في نفسي شحا عليهم وبخلا بعطف جيده عليهم ، لأنه مني بمنزلة الروح من جسد الجبان والسوداوين من العين والجنان ، مع كوني غير راخض لنفسي بذلك المنع ، ولا حامد لها

(١٤) ابن الشعار : عقود الجمعان ، ٩ / ١٧٠ ، غ استانبول .

(١٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ٥ / ١٩٤٩ ، ١٨٤ ، ١٨٧ .

(١٦) ابن الشعار : عقود الجمعان ، ٩ / ١٧٠ ، ابن المستوفي ، تاريخ اربل ، قسم ٢ ، ٢٨٠ .

ثلاثة آلاف ورقة . ومع ان حجم معجم البلدان قريب من حجم تاريخ الطبري المختصر ، الا ان ياقوت تمسك برأيه في عدم اختصار كتابه حتى تكتمل الافادة منه^(١٩) . ويشتمل معجم البلدان على مقدمة وخمسة ابواب ، وهو بعامه ، يغطي اسماء البلدان والجبال والادوية والقيعان والقرى والمحال والاطوان والبحار والانهار وغيرها من المعالم البارزة في العالم المعروف آنذاك وبخاصة العالم الاسلامي . ونشير ابتداء الى الاهمية الكبيرة للمقدمة التي كتبها ياقوت لهذا المعجم ، لاحتوائها على نقاط رئيسية نجملها فيما يلي :

أولا : دواعي تأليف معجم البلدان وأسبابه ، وتتلخص في ما جاء في القرآن الكريم من حث للبشر على السير في الارض والتفكر في عاقبة من عمروها قبلهم ، وحاجة المسلمين الى معرفة أحوال أمصارهم وفتوحها ووصف جغرافيتها ، والالمام بأماكن الزيارة والحج والغزوات والمواقع التي يرد ذكرها في كتب السيرة والتاريخ والأدب^(٢٠) .

ثانيا : مصادر المعجم ، وتضم عرضا موجزا قيما لحركة التأليف الجغرافي لدى علماء العرب والمسلمين ، بالاضافة الى الفوائد التي حصل عليها من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ اهل الادب ، ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهده في اسفاره وحصله في تطوافه وهو كما يقول اضعاغ ذلك^(٢١) .

ذلك الصنع ، لكنها طبيعة عليها جُبلت ، وسجينة اليها جُبرت . . وقد أقسمت ألا أسمح بأعارته ، مادام في مسودته . . فحملهم منعي على احتذائه وتصنيف شرواه في استوائه وما أظنهم يشقون غباره ويحسنون ترتيبه وأسطاره ، وأن وقفت لنظر الجميع ، فستعرف الظالم من الضليع ، فإذا هذبته ونقحته وبيضته ، فتمتع به ، واذكريني في صالح دعائك^(١٧) .

وفي قول ياقوت تبرير معقول لهذا التصرف الذي أجبر عليه كما يقول خوفا من أن يحذوا أقرانه حذوه مادام في مسودته ولم يخرج الى النور بعد ، فربما سطوا عليه أو انتحلوه وهو امر له في تاريخ الأدب العربي أشباه ونظائر . ولعل ذلك هو ما جعل ياقوت يقول في مقدمته لمعجم البلدان : « ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه الا يضيع نصبي ، ونُصب نفسي له وتعبني^(١٨) » .

معجم البلدان :

يقع معجم البلدان في خمسة مجلدات في طبعة بيروت المتداولة . وقد بدأ ياقوت في جمع مادته منذ شبابه واستمر في ذلك حتى قبيل وفاته ، حيث بادر في تسويد أوراقه خشية بفترة الموت قبل تبليج فجره على حد تعبيره . وكان يود لو يمتد به العمر فيضاعف حجمه ، ورفض بشدة اختصار الكتاب ، والاستجابة الى طلبات متكررة باختصاره . وذكرونا ياقوت هنا بعزم شيخ المؤرخين الطبري على جعل تاريخه في ثلاثين ألف ورقة ، الا ان همة طلابه قصرت عن ذلك فاختصره في

(١٧) ياقوت : معجم الادباء ، القاهرة ، ٥٨/١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، الطالغ : المنهم

(١٨) ياقوت : معجم البلدان ، ١٤ ، ١٣ ، ١٩٥٥

(١٩) قارن : ياقوت ، معجم البلدان ، ١٩٥٥ ، الطالغ : المنهم ، ١٣/١ ، البغدادي ، تاريخ بغداد ١٦٣/٢

(٢٠) معجم البلدان : ١٩٥٥ ، ١/١ - ١٠

(٢١) معجم البلدان : ١٩٥٥ ، ١١/١ - ١٢

والغنيمية ، وأدار الباب الخامس على جمل من أخبار البلدان . وكانت المقدمة والأبواب الخمسة الأولى من كتاب معجم البلدان والتي لا تتجاوز الأربعين صفحة ، موضوع رسالة دكتوراه لوديع جريدة ، نشرت في لندن عام ١٩٥٩ بعنوان :

Jwaiden, Wadie: The Introductory Chapters of Yaqut's Mu'jam AL-Buldan, Leiden, 1959.

طريقة ياقوت في البحث العلمي :

التزم ياقوت طريقة علمية دقيقة في معجم البلدان تتمشى مع الروح الواضحة في مقدمته . وقد نوه بذلك عبد المعين الموحى في بحثه عن « الفكر العلمي عند ياقوت الحموي »^(٢٢) . وتبدأ هذه الطريقة بذكر الأسماء الواردة فيه على حروف المعجم ، مع التأكيد على كتابة شكل تلك الأسماء بالحروف خوفاً من الالتباس والتصحيح . ثم يعرض بإيجاز سبب التسمية واشتقاقها اللغوي ، ويحدد مواقع البلدان وظروف فتحها في كثير من الأحيان ذاكرة أي معلومات مفيدة عنها ، ويخلص إلى التنويه بأسماء المشهورين المنسوبين إليها . فكان معجم البلدان بهذه الطريقة أشبه ما يكون بالموسوعة الجغرافية والتاريخية واللغوية والأدبية ، وجاء هذا المعجم أوفى واشمل عمل عربي من نوعه بعد معجم أبي عبيد البكري (ت ٤٩٦هـ / ١١٠٢م) . ويسدو أن هذا الشكل الموسوعي في التأليف لم يرق لبعض المتأخرين على ياقوت مثل ابن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) والسيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) على أساس أن المعجم الجغرافي

ثالثاً : منهج تأليف المعجم ، من حيث حرصه على تسخي الدقة في الوصف ، وضبط الأسماء ومواقع الأمكنة بالنقط والتحريك ، والإشارة إلى ذلك قولاً وكتابةً منعاً للبس والتحريف والتصحيح ، إضافة إلى ميله إلى الشرح والتفصيل وفسوره من الاجتزاء والاختصار ، وتنبيه القاريء إلى ما يرد في الكتاب أحياناً من أساطير ، تبرأ من صحتها ، وأوردها على علاقتها حتى يقف الناس على ما قبل فيها ويكونوا على بينة منها ، وبذلك حفظ لنا معجم البلدان بعض ما كان لدى عدد من الأمم والشعوب من أساطير تهتم الباحثين في علم الميثولوجيا .

رابعاً وأخيراً : تشمل المقدمة معلومات مفيدة بالنسبة لسيرة ياقوت الذاتية ورأيه في عدد من قضايا العلم والأدب ، والجهود الفنية التي بذلها طوال حياته لجمع مادة معجمه ليفيد به الناس ، عله يظفر منهم بالثناء والدعاء ، فينال ذكراً زكياً من المؤمنين ، ويحشر في زمرة الصالحين كما كان يأمل ويرجو^(٢٣) .

وأما البابان الأول والثاني فتتخصص فرائدهما في الوقوف على تطور مفهوم الجغرافية الوصفية وعلاقة المعلومات الفلكية بها ، في حين افرد ياقوت الباب الثالث لشرح معاني المصطلحات الفنية الواردة في المعجم ، كالبريد والفرسخ والميل والاقليم والكورة والمخلاف والرساق والطسوج ، والسكة بمعنى الطريق ، والمصر ، والقطيعة ، وغيرها ، سالكا في ذلك أحدث الطرق في التأليف والتصنيف . ونخصص الباب الرابع لأقوال الفقهاء في أحكام أراضي الفيه

(٢٢) معجم البلدان : ١ / ١٢ - ١٣

(٢٣) مجلة مجمع دمشق : مجلد ٤٦ / ٢٥٢

الاسلامي ، كما هو الحال بالنسبة للتاريخ على السنين الذي يبعثر المادة التاريخية ولا يربط بين موضوعاتها . ولكن ليس بالامكان تجنب هذا التوزيع في المعاجم الابجدية بعامة ما دمنا نسروم الحصول على المعلومات المطلوبة بأقل جهد وأقصر وقت . ومع ذلك فقد بذل ياقوت جهدا رائعا ومشكورا في عرض مواد معجمه ، بهمة عالية وعمل دؤوب ، ويمكن للباحثين المحدثين ان يصوروا خارطة كبيرة لذلك العالم الذي وصفه ياقوت ، ويحاولوا جهدهم وضع اسماء البلدان والأماكن في مواقعها ، وبالتالي يسهل استخراج خارطة مماثلة لكل جزء من ذلك العالم ، كما فعل المستشرق الفرنسي باربييه دي مينار (Barbier de Meynard) الذي وضع كتابا في جغرافية وأدب فارس وماجاورها معتمدا على معجم البلدان لياقوت كمصدر رئيسي في دراسته ، كما افاد المستشرق الانجليزي جي لي سترينج (G. Le Strange) من هذا المعجم في وضع كتابه الشهير بلدان الخلافة الشرقية (Lands of Eastern Caliphate) (٢٨) .

وقد حرص ياقوت في اثناء اعداد وجمع مواد معجم البلدان أن يراعي أصولا علمية دقيقة تشير الدهشة والاعجاب وهي :

أولا : الاعتماد على مصادر موثوق بها ، وهي كثيرة جدا من بينها : فتوح البلدان للبلاذري ، وكتاب الفتوح لأبي

« ينبغي ألا يخلط به غيره مما يُبين في علم آخر لئلا يتشعب الفهم ويطول الكلام فيؤدي الى الاملال ، وهذه حال معجم البلدان ، فان الغرض انما هو معرفة اسماء الاماكن والباقاع على الربيع المسكون من الارض مما ورد به خبر او جاء في شعر ، وبيان جهته من الارض وموضعه من اصقاعها ، فما زاد على هذا القدر فهو فضل لا حاجة اليه » (٢٤) .

لكن هذا الخلط والتنويع اللاحق بالمعلومات الجغرافية المجردة الواردة في معجم بلدان ياقوت ، مهما كان الرأي فيه ، فانه يضيف على المعجم ترويحاً وجمالا وفائدة يحس بها كل من أسعفه وقته بقراءة هذا المعجم المفيد ، كما أن ذلك يدل من ناحية اخرى على ثقافة ياقوت المتنوعة الواسعة ، والملمة الجيد بتاريخ البلدان واخبارها ، وتمكنه من لغة العرب وانسابهم ووقوفه على اشعارهم (٢٥) اضافة الى معرفته بالفارسية وبشيء من اللاتينية ، كما يتضح ذلك من تفسيره الصحيح لاشتقاق اسماء بعض الاماكن والبلدان ، ويتجلى هذا على سبيل المثال في اثناء حديثه على طرابلس ، وطيزناباد ، وهمدان (٢٦) .

على ان اتباع حروف المعجم في ذكر المواد ، وان كان الغرض منه تسهيل طريق الفائدة من معجم البلدان من غير مشقة كما يقول صاحبه (٢٧) ، الا ان هذه الطريقة تفتت المعلومات البلدانية الخاصة بكل جزء من العالم

(٢٤) ابن عبد الحق : مرصد الاطلاع ، ١/١٩٥٤ ، ٣

حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١٩٤١/٢ ، ١٧٣٣

(٢٥) صلاح الدين المجدد : اعلام التاريخ والجغرافية ، ١٩٥٩/١ ، ٧٤ ، ٧٣

(٢٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/٢٥ ، ٥٤ ، ٥٠

(٢٧) نفس المصدر ، ١/١٥

(٢٨) المعقبلي : المستشرقون ، ١٩٦٤/١ ، ٢١٤ ، ١١/٥١١

نصر بن عبد الرحمن الاسكندري (ت ٥٦١هـ/١١٦٦م) المعروف باسم «فيما اختلف واختلف من اسماء البقاع»، ونسبه لنفسه تحت عنوان «ما اتفق لفظه واختلف مسماه» والذي ما يزال مخطوطاً^(٣١).

ويقول ياقوت في ذلك بعد أن اطلع على الكتابين «فوجدته - اي كتاب نصر - تأليف رجل ضابط قد انفذ في تحصيله عمرا وأحسن فيه عينا واثرا، ووجدت الحازمي رحمه الله، قد اختلسه وادعاه، واستجمل الرواة فرواه، فأما انا فكل ما نقلته من كتاب نصر، فقد نسبته اليه واحلته عليه، ولم أضع نصبه، ولا أخلت ذكره وتعبه، والله يشبه ويرحمه»^(٣٢). وقد ألف المستشرق الألماني هير (M. Heer) كتابا حول مصادر ياقوت نشر في ستراسبورغ ١٨٩٨^(٣٣).

ثانياً : الافادة من المشاهدة والمعاينة الشخصية التي اكتسبها من تجارته واسفاره التي امتدت من النيل الى جيحون كما ذكرنا . وقد اشار ياقوت الى ذلك اكثر من مرة كلما دعت المناسبة الى ذلك ، فنراه مثلاً يسهب في الحديث عن خوارزم وخراسان وطبرستان ، ويقول عن الأخيرة « رأيت اطرافها وعاينت جبالها . . . ولا بد من احتمالك لفصل فيه تطويل بالفائدة الباردة ، فهذا من عندنا مما استفدناه بالمشاهدة والمشافهة »^(٣٤) ، ويذكر انه زار البصرة ثماني مرات . ويقول في اثناء تعريفه

حذيفة اسحاق بن بشر القرشي ، وكتاب فتوح الشام لابي حذيفة بن معاذ بن جبل ، وكتاب خطط مصر للقضاعي ، وكتاب أبنية الأسماء (الأبنية) لابن القطاع وكتاب ما اختلف واختلف من اسماء البقاع لنصر بن عبد الرحمن الاسكندري ، وكتاب اشتقاق البلدان أو أنساب البلدان لابن الكلبي ، وكتاب جزيرة العرب للحسن الممداني ، وكتاب جبال نامة لابي الاشعث الكندي ، وكتاب في مياه العرب للغندجاني ، بالإضافة الى العديد من كتب البلدان والمسالك والممالك التي ألفها ابن خرداذبة وابن واضح ، والجيهاني وابن الفقيه والبلخي والاصطخري وابن حوقل والبشاري المقدسي والمهلبني وابن ابي عون البغدادي وغيرهم^(٣٥) . ويلاحظ ان جانباً من هذه المؤلفات قد فقد اوضاع ولم يصل اليها بعد ، مما يجعل لاقتباسات ياقوت عنها اهمية تراثية كبيرة ، ناهيك عما تدل عليه من سعة المصادر التي رجع اليها ياقوت في تأليف معجمه ، فكان لا ينفك منذ نشأته وحتى وفاته يطالع في امهات الكتب ويعكف على الافادة منها والانتباس عنها ، وقد اكد ذلك معاصره ابن الشعار في ترجمته لياقوت فقال في ذلك « فما يعلم انه منذ كان عمره سبع سنين الى ان توفي ، ما خلعت يده من كتاب يستفيد منه او يطالعه او يكتب منه شيئاً أو ينسخه »^(٣٦) . وكان ياقوت أميناً في الاشارة الى اقتباسه عن هذه المصادر . وندد في مقدمته بمن يختلس مؤلفات الآخرين ويسديها مثل الحازمي محمد بن موسى (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م) الذي اخذ مادة كتاب ابي الفتح

(٢٩) ياقوت : معجم البلدان ، ٢١/١

(٣٠) ابن السكيتي : تاريخ اربل ، ١٩٨٠ ، ٢٧/٢

(٣١) الزركلي : الاعلام ، ١٩٦٩ ، ٣٣٩/٧

(٣٢) ياقوت : معجم البلدان ، ١١

(٣٣) المعيني : المستشرقون ، ٧١٦/٢

(٣٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١٣/٤

قريش بن الحارث بن مخلد بن النضر بن كنانة» (٤٠) .
ويذهب مثل ذلك في تحقيقه لخبر فذك حيث يقول « وفي
فذك اختلاف كثير في امره بعد النبي ﷺ وأبي بكر وآل
رسول الله ﷺ ومن رواة خبرها من رواه بحسب الأهواء
وشدة المراء ، وأصبح ما ورد عندي في ذلك ما ذكره احمد
بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب الفتوح له » (٤١) .
فاذا لم يجد ياقوت ما تطمئن اليه نفسه من صحيح
الاخبار ، ظل يبحث ويستقصي حتى يصل الى ضالته
فيهذا ويطمئن . وقد حدث مثل ذلك معه عندما كان
يحقق مواضع الحمادية حيث تبين له بعد البحث
والتنقيب في المصادر وجود محلة بالري كانت تدعى ايضا
الحمادية نسبة الى منشئها الخليفة العباسي محمد
المهدي ، وقال بعد ان توصل الى هذه المعلومة « فلما
وقفت على هذا فرج عني » (٤٢) . وواجه مثل هذا
الموقف لدى جمعه بعض المواد الأخرى لمعجمه ، بل قام
ياقوت بعد البحث والتحقيق بتصحيح أخطاء وقع فيها
بعض من سبقه في هذا الميدان ، مثل ابن الكلبي
والبلاذري وأبي حنيفة الدينوري والمسعودي وابن بطلان
وغيرهم (٤٣) . وتوصل في نفس الوقت الى معلومات
مفيدة عن طبرستان ، وبني النضير ، والبرامكة ، وآل
الصفار ، ودارات العرب وعدد العشرات من أيامهم في
أثناء حديثه عن مواقعها (٤٤) .

بقريه بلجان بين البصرة وعبادان « رأيتها مرارا آخرها
سنة ٥٨٨ هـ أو بعدها » (٣٥) وكذلك الحال بالنسبة
لجزيرة قيس في الخليج العربي (٣٦) ، والخليج العربي
نفسه الذي يشير اليه قائلا : « وأما في زماننا هذا فاني
سافرت في ذلك البحر وركبته عدة نوب » (٣٧) ؛ كما
يشير الى زيارته للقدس واجتيازه ببلدة رأس العين في
الجزيرة ، والى مشاهدته نهر جيحون وهو جامد في اعلاه
وجار في اسفله (٣٨) ، وهكذا تتراوح عباراته في مثل هذه
المواضع والبلدان بين شاهدها ، وزرتها حيناً ، واجتازت
بها ، ورأيتها حيناً ودخلتها حيناً ، ورأيتها مرارا ، وهو
امر يجعل من صاحب المعجم البلدان شاهد عيان
مستنيراً ، ومصدرا موثوقا به في اي بحث عن المناطق
والبلدان التي زارها ، ومن بينها منطقة الخليج في اواخر
القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة (٣٩) .

ثالثا : استقصاء سبل البحث العلمي الدقيق ، من
ملاحظة وتحقيق واجتهاد واستقراء وتحفظ ، فكان
ياقوت لا يثبت القول المنقول في معظم الأحوال الا اذا
اطمأنت اليه نفسه ، وقد اتبع ذلك في كثير من الاخبار
كما هو الحال في حديثه عن سبب تسمية قريش بهذا
الاسم ، فبعد أن يعدد الروايات المختلفة في هذا الشأن
يقول : « والذي تركز اليه نفسي انه اما ان يكون من
التجمع ، او تكون القبيلة سميت باسم رجل يقال له

(٣٥) نفس المصدر : ٤٣٩ / ١ ، ٤٧٩

(٣٦) نفس المصدر : ٤٢٢ / ٤

(٣٧) نفس المصدر : ٨ / ٥

(٣٨) نفس المصدر : ١٩٧ / ٢ ، ١٤ / ٣ ، ٢٨٣ / ١

(٣٩) نفس المصدر : ٤٧٩ ، ٣٤٦ / ١ ، ١٦٩ / ٢ ، ١٥٠ / ٤ ، ٨ / ٥ ، ٤٠٣

(٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٣٧ / ٤

(٤١) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٣٩ / ١ . البلاذري : فتوح البلدان ، ٣٣ - ٣٨

(٤٢) نفس المصدر : ٦٥ / ٥

(٤٣) نفس المصدر : ٣٨٥ / ١ ، ١٨٥ / ٢ ، ٤٢٤ ، ١٥٤ / ٤ ، ٥٠٤ ، ٣٥١

(٤٤) نفس المصدر : ١٢ / ٤ ، ١٦ - ٢٤ / ٢

وكان ياقوت أيضا يرسل أهل الثقة من البلدان ويلتقي ببعضهم فيسألهم عن بلادهم ويستقصي منهم صحة الأخبار المنسوبة إليها ، مثل أصفهان ، وأندرين إحدى قرى حلب ، ومرباط وهي ميناء ظفار^(٤٥) . وتشبه اتصالاته بأهل الأمصار والبلدان التحقيقات الصحفية حول قضية أو موضوع من الموضوعات ، فقد سمع عن عادة غريبة كانت تنسب إلى أهل مرباط بشأن اختلاط الرجال بالنساء ليلا خارج المدينة للسمر والمجالسة والملاعبة . وقد شك ياقوت في صحة الخبر ، فاجتمع برجل منهم أديب عاقل وجري بينهما الحديث على النحو التالي :

ياقوت : « بلغني عنكم شيء أنكرته ولا أعرف صحته ؟

الرجل : لعلك تعني السمر .

ياقوت : ما اردت غيره .

الرجل : الذي بلغك من ذلك صحيح ، وبالله أقسم انه لقيح ، ولكن عليه نشأنا ، وله مذ خلقنا ألفنا ، ولو استطعنا ان نزله لأزلناه ، ولو قدرنا لغيرناه ، ولكن لا سبيل إلى ذلك مع مر السنين واستمرار العادة^(٤٦) .

أما الاستقراء والاستنتاج ، فقد توفرا لياقوت بما كان يتمتع به من حضور ذهن وذكاء متقد ، فنراه يحقق بالاستقراء والاستنتاج مثلا اسم موقع ضيزنا باذ بين الكوفة والقادسية ، ويتوصل بذلك إلى الحقيقة ، يقول

ياقوت في ذلك « والذي يظهر لي من اشتقاقه وسبب تسميته بهذا الاسم ، أنه من عمارة الضيزن . . . ، وأن الفرس ليس في كلامهم الضاد ، فتكلموا بها بالطاء فغلب عليها ، ومعناه عمارة الضيزن ، لأن إباد العمارة . ثم وقفت بعدما كتبت هذا بمدة على كتاب الفتوح للبلاذري فوجدت فيه : قالوا كانت طيزنا باذ تدعى ضيزنا باذ ، نسبت إلى ضيزن بن معاوية بن عمرو بن العبيد السليحي . . . ، فاستحسنتم لنفسى صدق ما ظهر لي فتركته على ما كان^(٤٧) . ومثل ذلك يقول عن المدائن « والذي عندي ان هذا الموضع كان مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم ، فكان كل واحد منهم اذا ملك بني لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسميت مدائن^(٤٨) .

وأما الاجتهاد ، فكان ياقوت يلجأ إليه اذا لم يسعفه الدليل القائم أو النص المقنع ، كما فعل في محاولته معرفة اشتقاق اسم « مناة » اذ يقول : « لم أقف على احد يقول في اشتقاقه ، وأنا أقول فيه ما يسنح لي ، فان وافق الصواب فهو بتوفيق الله ، والا فالمتجهد مصيب ، فلعله يكون من المنا وهو القدر ، وكانهم اجرؤه مجرى ما يعقل^(٤٩) .

واذا اعيت ياقوت كل هذه الوسائل والطرق في الوصول إلى الحقيقة المنشودة ، اعترف بذلك اعتراف العالم الواثق من نفسه ، وأشار إلى ذلك بعبارة واضحة كقوله عند الحديث عن غزوة ذي قرد : « وهذا

(٤٥) نفس المصدر : ٢٠٧/١ ، ٢٦١ ، ٤٢٤/٢ ، ٩٧/٥ ، ٢١٠

(٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٩٧/٥

(٤٧) نفس المصدر : ٥٤/٤ ، ٥٥

البلاذري : فتوح البلدان ، ١٩٥٧ ، قسم ثاني ، ٣٤٨

(٤٨) ياقوت : معجم البلدان ، ٧٥/٥

(٤٩) نفس المصدر : ٢٠٤/٥

أذنت لمن حققه أن يصلحه ويقره»^(٥٥) . وقال في تحقيقه اسم «عزور» : «أنا أخشى أن يكون صحف بالذي قبله (أي عازورا) فتبحث عنه»^(٥٦) . ومثل ذلك قال في «قائمه» من أقاليم لبله في الأندلس «وجدت في نسخة أخرى من كتاب خطط الأندلس قاتيدة فتحقق»^(٥٧) . وفي ذلك أكثر من دليل على دقة ياقوت العلمية وتواضعه .

رابعاً : التحفظ عند ذكر الأساطير التي نقلها من مصادره ، وقد أعرض عن ذكر الكثير منها خوف التهمة ، ولكونها تخالف المؤلف من العادة ، وقد استبعد ياقوت وقوعها ، وتبرأ من عهدتها وفند معظمها مؤكداً «أن الملة الإسلامية تجل عن مثل هذه الخرافات» وكان المبرر عنده لايرادها حتى يعرف القاريء» ما قيل في ذلك حقاً كان أو باطلاً^(٥٨) . ويضيق المجال هنا عن ذكر أمثال تلك الأساطير التي تصلح لبحث مستقل ، ويمكن للباحث في هذا المجال الرجوع الى مواد عديدة في معجم البلدان وردت فيها أساطير ، وكان لياقوت موقفه المذكور منها ، ومن بين تلك المواد : بغداد ، بلط ، الشحر ، مدينة النحاس ، النيل ، وأزوار وهمذان . وتشكل هذه الأساطير وما فيها من خيال واهداف ومعان ، مصدراً غنيا لهواة البحث في الميثولوجيا عند العرب والمسلمين^(٥٩) .

الباب فيه نظر الى الآن لم يتحقق فيه شيء»^(٥٠) ، كما ذكر مثل ذلك عن مدينة «جوسف» من أعمال قوهستان عندما قال : «لم أتأكد ضبطها ، ووجدته في بعض الكتب هكذا»^(٥١) . ويقول عن دير الوليد «بالشام لا ادري أين هو»^(٥٢) ، وعن الصين يقول ياقوت «وهذا شيء من اخبار الصين ، ذكرته كما وجدته ، لا أضمن صحته ، فان كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض ، وان كان كذباً فتعرف ما يقول الناس»^(٥٣) .

بل لقد بلغت الروح العلمية الحقيقية عند ياقوت درجة جعلته يطلب من قارئه ان يتحقق من ضبط بعض الأسماء التي يخالفه شك فيها ، أو عجز هو نفسه عن تحقيقها ، وأجاز لباحث أن يضبط ما يحتاج الى ذلك على عادة بعض مشاهير العلماء المسلمين . وأشار ياقوت الى مثل ذلك أكثر من مرة في معجم البلدان ، وبخاصة عند ذكره التقسيمات الادارية البيزنطية ، اذ قال : «وفي اخبار الروم اسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها ، فليعذر الناظر في كتابي هذا ، ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئاً منها بحثاً ، فقد أذنت له في اصلاحه مأجوراً»^(٥٤) وكرر مثل هذا القول في اسم موقع «القراري» حيث قال : «وأنا مشك فيهِ ، هل أوله قاف أم فاء ، ولعله منسوب الى رجل من بني فزارة وقد

(٥٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٤٩/٤

(٥١) نفس المصدر : ١٨٤/٢

(٥٢) نفس المصدر : ٥٤٠/٢

(٥٣) نفس المصدر : ٤٤٠/٣ ، الموحي ، الفكر العلمي عند ياقوت ، مجلة مجمع دمشق ، ٣٦٤/٤٦٠

(٥٤) نفس المصدر : ٩٨/٣

(٥٥) نفس المصدر : ٣١٦/٤

(٥٦) نفس المصدر : ١١٩/٤

(٥٧) نفس المصدر : ٢٩٧/٤

(٥٨) نفس المصدر : ١٢/١ ، ٤٦٠

(٥٩) ياقوت : معجم البلدان ، ١/٤٦٠ ، ٣٠٤٨٤ ، ٣٠٣٢٧/٥ ، ٨٠/٥ ، ٣٣٩ ، ٤١٢ ، ٣٤٧

الدقة تغلب على معلومات معجم البلدان :

أدى اتباع ياقوت لهذا المنهج العلمي في تأليف معجمه الى الحصول على معلومات دقيقة كثيرة عن العالم المعروف الى زمانه وبخاصة العالم الاسلامي ، وكانت هذه المعلومات أكثر دقة بالنسبة للاقطار التي زارها وتردد عليها ، كمصر وبلاد الشام والعراق ومنطقة الخليج العربي وبلدان المشرق الاسلامي . وأمثال تلك المعلومات تضيق عن الحصر ، نذكر منها على سبيل المثال ، وصفه الدقيق لشبه جزيرة العرب ، وبحر الروم (المتوسط) وبحر الهند (المحيط الهندي) والخليج العربي ، وبحر الخزر ، وتتبعه لمجرى كل من دجلة والنيل ، وظاهرة قصر الليل صيفا في بلاد البغداد التي ذكرها المسعودي بقوله : « والليل في بلادهم في غاية القصر في الصيف ، حتى ان احدهم لا يفرغ من طبخه حتى يأتيه الصبح » وأشار ضمنا الى تأثير ارتفاع الجبال على التنفس ، وذلك حين روي ان « بالتبت جبل يقال له جبل السم ، اذا مر به احد تضيق نفسه ، فممنهم من يموت ، ومنهم من يثقل لسانه » وغير ذلك من المواد التي تزخر بالمعلومات والفوائد^(٦٠) .

على ان دقة ياقوت في معجم البلدان لم تكن كاملة تامة في جميع المواضع والاماكن التي تحدث عنها ، وقد أشار هو الى ذلك ونبه عليه كما ذكرنا ، وقد حاول عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) حين اختصر معجم البلدان في كتابه « مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع » حاول ان يصحح ما يحتاج الى تصحيح في بعض مواد المعجم . يقول ابن عبد الحق البغدادي في ذلك : « وربما زدته بياناً في بعض

المواضع ، أو أصلحت ما تنبعت عليه من خلل وجدته في ذكره لبعض الاماكن ، اما لأنه (ياقوت) نقله عن غيره على ذلك الوجه وهو خطأ او ظنه كذلك ، وقد عرفته انا وحققته وسألت عنه اهل المعرفة من سكانه ومجاوريه والمسافرين الى جهته ، وقد يكون مما رأيته في سفري واجتزت به ، وخاصة في أعمال بغداد ، فانه كثير الخطأ فيها ، ولم أقبل منه شرطه الذي شرطه ، ولا التزمت حظره الذي حظره في اختصاره وتغييره فان ذلك شرط لا يلزم ، ومظنة الفائدة تقدم »^(٦١) . لكن الاخير لا يشير في كتابه صراحة الى المواد والمواضع التي اصلحها . مما جعل محقق مراصد الاطلاع على محمد البجاوي يشير الى ذلك في العديد من الهوامش ، وذلك في اي حال لا ينقص من قيمة معجم البلدان وأمانة صاحبه العلمية وبذله غاية جهده في الضبط والتحقيق .

ويكفي ياقوت فضلا انه استطاع بخبرته وألمعيته وثقافته الموسوعية ، ان يعطي من خلال معجم البلدان صورة صادقة الى حد كبير عن حضارة عالم الاسلام في عصره ، وان يصف بطريق غير مباشر جانباً من أحوال ذلك العالم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وهذا امر يستحق التوقف عنده والتأمل فيه ، لما له من أهمية في التعرف على حضارة العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي المدمر لاقاليم المشرق الاسلامي التي لم تكد تسير في طريقها الطويل للتخلص من الصليبيين حتى دهمها الغزو المغولي الذي كان ياقوت احد الضحايا الذين شردوا وأوذوا بسببه .

الملاح السياسية في معجم البلدان :

تتمثل أولى الملاح التي تواجه من يقرأ معجم البلدان

(٦٠) نفس المصدر : ١ / ٣٨٥ ، ١١ / ٢ ، السعدي : مروج الذهب ، ١٠٩٦٥ / ٢٠٥

(٦١) ابن عبد الحق البغدادي : مراصد الاطلاع ، ١ / ح

والنسل في ربوعها ، فكانت اولى المناطق الاسلامية التي هب عليها اعصار التتار المدمر . وقد اشار ياقوت الى هذه الحقيقة بجلاء وبصيرة نافذة كما يتمثل ذلك في قوله : « وأتت على تلك النواحي حوادث الدهر وصروف الزمان ، أولا من خوارزم شاه محمد بن تكش بن ألب أرسلان . . . فانه لما ملك ما وراء النهر واباد ملك الخانية ، وكانوا جماعة قد حفظ كل واحد منهم طرفه ، فلما لم يبق منهم احد ، عجز عن حفظ تلك البلاد بسعة مملكتها ، فخرب بيده اكثر تلك الثغور وانهبها عساكره . فجلا اهلها عنها وفارقوها . . . فبقيت تلك الجنان خاوية على عروشها . . . ثم تبع ذلك حوادث سنة ٦١٦ هـ التي لم يجر منذ قامت السماوات والأرض مثلهما ، وهو ورود التتر خذلهم الله من أرض الصين ، فأهلكوا من بقي هنالك متماسكا فيمن اهلكوا من غيرهم ، فلم يبق من تلك الجنان المندرة والقصور المشرفة غير حيطان مهدومة وآثار من أمم معدومة » .

ويذكر ياقوت ان اجتياح خوارزم شاه لمناطق ما وراء النهر تم في حدود سنة ٦٠٠ هـ « فطرد عنها الخطا وقتل ملوك ما وراء النهر المعروفين بالخانية (اي الخانات) » (٦٢) .

ويصف النكبة التي حلت بالمسلمين هناك وصفا صادقا مؤثرا رثى فيه حالهم بقوله : « وقد كان اهل تلك البلاد اهل دين متين وصلاح مبين ، ونسك وعبادة ، والاسلام فيهم غرض المجنى حلو المعنى ، يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه ، ولم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء ولكن الله يفعل بعباده ما يشاء » (٦٣) . وياقوت هنا يحمل خوارزم شاه كل المسؤولية في هذه الاحداث التي انتهت بتقدم التتار نحو بلاد المشرق الاسلامي ، ولا يشير الى الدافع الذي

قراءة متأنية ، في الاحساس الواقعي الذي يحسه بوحدة العالم الاسلامي الكبيرة وذلك برغم وجود الكيانات السياسية المتعددة التي كانت قائمة فيه ، والأخطار الداخلية والخارجية التي تهددته فترة من الزمن ، وهنا يعتبر ياقوت الحموي شاهد عيان واعيا لأثار المرحلة الاخيرة من الغزوة الصليبية الطارئة ، التي استهدفت قلب العالم الاسلامي ، وبخاصة مصر وبلاد الشام . وهذا الوصف السياسي الذي قدمه ياقوت عرضا وهو يتحدث عن الأماكن والبلدان يرقى الى مرتبة الوثائق والمذكرات الشخصية المعاصرة لتلك الأحوال ، مما يجعلها تحتل أهمية بالغة لدى المؤرخين للأسباب التالية :

أولا : لأن المعلومات التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان يعتبر جانب منها وثائق معاصرة كتبها عالم مسلم مستنير شاهد الاحداث السياسية وانفعل بها وسجل ملاحظاته عنها . من ذلك مثلا ان ياقوت يحمل خوارزم شاه محمد ابن تكش بن أرسلان (ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) المسؤولية المباشرة في اضعاف قوة المسلمين في مقاطعات ما وراء النهر ، وذلك عن طريق قضائه على مملكة الخطا المتاخمة للتتار في الشرق . وكان عدد كبير من سلاطين تلك المقاطعات المسلمين يحتفظون في ظل مملكة الخطا بمراكزهم وقوتهم النسبية التي تحفظ حدودهم مع التتار . وقد ادى قضاء خوارزم شاه على تلك الدولة وهؤلاء السلاطين الى حدوث فراغ عسكري وسياسي وسكاني لم يملأ بقوة عسكرية منظمة ودائمة . مما أدى الى انهيار الخطوط الدفاعية الأولى عن ديار المسلمين في تلك المناطق التي وقعت فريسة سهلة بأيدي التتار الذين ما لبثوا ان اجتاحتها وأهلكوا الحرث

(٦٢) ياقوت : معجم البلدان ، ١ / ١٧٩ ، ٤٧ / ٢٠

(٦٣) نفس المصدر : ١ / ١٧٩

جعلله يقدم على محاربة الخطأ وهو ما ذكره بعض المؤرخين من ان سلطان سمرقند وبخارى المسلم هو الذي حرضه على ذلك لتخليص المسلمين في تلك المناطق من التبعية لزعماء مملكة الخطا الكفار^(٦٤).

ثانيا : رسم ياقوت أمثال هذه الصورة المؤثرة بروحه الاسلامية الصادقة ، كلما ذكر مكانا وقعت فيه احداث مماثلة ، وبذلك ربط ربطا متلازما بين المكان والانسان وحوادث الزمان ، مما يجعل مؤلف معجم البلدان يدخل ايضا في نطاق التصنيف الخاصة بالجغرافية التاريخية . وكثرت اشارات ياقوت المماثلة في اثناء تعريفه ببلدان الاندلس وما سقط منها في أيدي الاسبان ، وما كانوا يفعلونه بأسرى المسلمين^(٦٥) . كما أورد تفاصيل أوفى عن الغزوات التي كان الروم يشنونها على الثغور الاسلامية في شمال بلاد الشام ، وسقوط طرسوس وحلب في أيديهم . وانتقد ياقوت موقف الأمراء المسلمين المتخاذل في ذلك الوقت ، وعدم توحيد جهودهم لجهاد الروم ووقف غاراتهم على ديار المسلمين التي وقعت كما يقول « وسيف الدولة - الحمداني - حي يرزق بميفارقين ، والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين ، وعطلوا هذا الفرض (الجهاد) ، ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ، ونسأله الكفاية من عنده »^(٦٦).

ثالثا : وياقوت حين يتحدث عن الثغور والرباطات والمسالح في البلدان الواقعة على الحدود الشمالية للدولة الاسلامية ، يقدم معلومات قيمة عن نظام الدفاع عن تلك الحدود زمن الدولة العباسية ، وما بذله خلفاء تلك

الدولة من جهود لتعزيز تلك الحدود ، وهو امر يتمشى مع السياسة الدفاعية التي تبنتها دولة بني العباس وعدم اخذها بسياسة الفتوح الأموية ، التي كانت ترى في الفتوح (الهجوم) خير وسيلة للدفاع عن حدود الدولة وهيبتها . ويزودنا ياقوت بأرقام عن عدد المسالح والحصون الدفاعية المنتشرة من خراسان الى الديلم ، والتي بلغت احدى وثلاثين مسلحة ، ترابط في كل منها حامية يتراوح عدد افراد كل منها ما بين مائتين الى الف مقاتل^(٦٧).

ولا ينسى ياقوت ان يذكر الرباطات التي كانت منتشرة على طول حدود العالم الاسلامي البرية والبحرية ، وبخاصة في مناطق ما وراء النهر . فكان في منطقة بيكند بين جيحون وبخارى « من الرباطات ما لا اعلم ببلد من البلدان مما وراء النهر اكثر منها ، بلغني ان عددها نحو الف رباط » . وكذلك الحال بالنسبة لبسجستان في شمال اقليم طخارستان المتاخم لبلاد الترك ، وباب الأبواب شمال ارمينية على بحر الخزر ، ودمياط وطرابلس (الغرب) ومنستير على الساحل الشرقي لتونس . ونقل ياقوت عن البكري وصفا لبلدة المنستير يفيد بأن هذه البلدة كانت تضم رباطات وحصونا للرجال والنساء ، اهمها القصر الكبير الذي يقال ان الذي بناه بالمنستير هرثمة ابن اعين القائد العباسي عام ١٨٠هـ / ٧٩٦م . ويصف ياقوت هذا القصر بقوله : « وهو حصن كبير عال متقن العمل ، وفي الطبقة الثانية مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين

(٦٤) ابن الاثير : الكامل ، ١٩٦٦/١٢ ، ٢٥٩ ، سجع السوروي : ذيل البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان ، مخطوطة سراي احمد الثالث ، ٢٩٥٩/١٤٤٠

(٦٥) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٣٧٠

(٦٦) نفس المصدر : ٤/ ٢٩

(٦٧) نفس المصدر : ١/ ٣٦٠ ، ٤٣/٥ ، ٤٥ ، ٣٨٥

كما ندد بالظلم لكونه يؤذن بخراب البلاد وجلاء أهلها عنها . فهو على سبيل المثال يصف العدل والاستقرار والرخاء الاقتصادي في مناطق ما وراء النهر قبل اجتياح التتار لها ، اذ كان في منطقة غرستان كما يقول : « عدل حقيقي وبقية من عدل العمرين ، وأهلها صالحون وعلى الخير مجبولون » . وكان فيها مياه كثيرة وبساتين وازر وزبيب يحمل الى البلدان . ومثل ذلك يقول عن اسفيجاب والطالقان ومرو وساهو التي كانت من اعمر بلاد الله وانزهها واوسعها خصبا وشجرا ومياها ورياضا مزدهرة ، كما كانت المياه الجارية في بيوت بعضها والمكتبات كثيرة فيها . وكان ياقوت في هذا الوصف شاهد عيان لأنه أمضى بضعة سنوات يتنقل في ربوعها^(٦٨) .

وفي المقابل يصف ياقوت الخراب الذي حل في بعض البلاد الاسلامية الأخرى ، نتيجة لتكالب العمال والولاة على جمع المال من الرعية ، وعدم انفاقه على شؤون الولاية ، اضافة الى غياب السلطان العادل ، وكثرة الحروب والجيوش التي كانت تعيث في تلك البلاد فسادا . وقد اشار ياقوت الى خراب كرمان وعزا ذلك الى اختلاف الايدي عليها وجور السلطان بها ، لأنها منذ زمن طويل خلت من سلطان يقيم بها ، انما يتولاها الولاة فيجمعون اموالها ويحملونها الى خراسان . وكل ناحية انفقت اموالها في غيرها خربت ، انما تعمر البلدان بسكنى السلطان » وتحدث ياقوت ايضا عن خراب عدد من قرى العراق ، وارجع السبب في ذلك الى « مداومة العساكر السلجوقية ومرورهم عليها ونزولهم فيها ، علاوة على » اختلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضا ،

المرابطين ، وقد حبسوا أنفسهم فيه منفردين عن الأهل والوطن ، وفي قبلته حصن فسيح مزار للنساء المرباطات . . . وأهل القيروان يتبرعون بحمل الاموال اليهم والصدقات ، وكانت هذه الرباطات تقوم في المدن الاسلامية الواقعة في الثغور الممتدة على طول حدود بلاد المسلمين ، مثل فرغانة واسفيجاب وفاراب وبيكند وطرسوس والموانئ الاسلامية المطلة على بحر الروم (المتوسط) . ويشير ياقوت الى ان الثغور الهامة كمدينة اسفيجاب والبلدان المجاورة لها ، كانت معفاة من ضريبة الخراج ، « وذلك ليصرف أهلها خراجها في ثمن السلاح والمعونة على المقام بتلك الارض ، وكذلك كان ما يصاقبها من المدن »^(٦٩) .

وفي هذا الميدان ، اي نظام الدفاع عن الدولة الاسلامية ، يمدنا ياقوت بمعلومات قيمة اخرى عن المراقب والمناظر والمنارات التي كانت منتشرة على طول الخطوط الامامية للحدود من جهة ، وبين هذه الخطوط ومركز القيادة من جهة اخرى ، كما كان الحال في باب الأبواب وقزوين ، حيث يذكر ان المناظر كانت تصل بين قزوين وواسط مقر اقامة الحجاج بن يوسف الثقفي والى بني امية على العراق والمشرق في اواخر القرن الاول الهجري « فاذا دخن اهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهرا ، وان كان ليلا اشعلوا نيرانا فتجرد الخيل اليهم » . فكانت تلك المناظر والمنارات بمثابة وسائل انذار مبكر وسريع للمسلمين من الاخطار التي قد تدهمهم^(٦٩) .

رابعا : اشاد ياقوت في اثناء حديثه عن البلدان بالعدل واعتبره سببا في عمرانها وخصبها وازدهارها ،

(٦٨) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ١٧٩ ، ٣٠٣ ، ٣٦٠ ، ٥٣٣ ، ٢/ ٤٧٣ ، ٥/ ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٦٩) نفس المصدر : ١/ ٢٨١ ، ٣٠٣ ، ٥/ ٣٥٠ .

(٧٠) نفس المصدر : ١/ ١٧٩ ، ٤/ ٧ ، ٥/ ١١٤ .

اذ كان كل من ملك لا يحتفل بالعمارة ، اذ كان قصده ان يحصل ويصير ، فجلا عنه اهله واستمر خرابه» (٧١) .

وهذا تعليل واقعي ودقيق يدل على نفاذ بصيرة ياقوت ، وصدق وصفه والمامه بأصول قيام الدول وزوال العمران . وقد خطا هذا التفكير العلمي في تعليل الظواهر التاريخية خطوات اوسع فيما بعد على يد ابن خلدون في مقدمته الشهيرة ، والمقريري في كتابه المعروف باغاثة الامة بكشف الغمة . بل ان هذا الموقف هو الذي جعل ياقوت يورد نقدا لظلم بني العباس في عهد ابي جعفر المنصور وخيبة الناس في آمالهم التي كانت معقودة على العباسيين لدى تسلمهم الحكم بعد بني امية (٧٢) .

خامسا : يتضمن معجم البلدان عدة اشارات تاريخية تلقى الضوء على بعض الأحداث السياسية التي شهدتها الدولة الاسلامية خلال القرون الستة الأولى من الهجرة ، ومن بينها احداث ادت الى توتر العلاقات بين المسلمين والروم في عهد الرسول ﷺ ، اذ اقدم الروم على قتل فروة بن عمرو الجذامي احد عمال الروم العرب في جنوب بلاد الشام بسبب اسلامه (٧٣) . فاذا اضعنا الى هذه الحادثة ما ذكره الواقدي من اقدام شرحبيل بن عمرو الغساني على قتل مبعوث الرسول الكريم الى ملك بصري (٧٤) ، ادركنا السبب المباشر في

غزوتي مؤتة وتبوك اللتين مهدتا لفتح بلاد الشام بهدف ازالة الحواجز المادية التي كانت تحول دون الانتشار السلمي لدعوة الاسلام في تلك الربوع . وقد سلك ابن بكر نفس الاسلوب قبل ان يوجه الجيوش الى بلاد الشام ، فذكر ياقوت ان ابا بكر اوفد عبادة بن الصامت الى ملك الروم يدعوه الى الاسلام او الحرب (٧٥) . وهناك اشارات اوردها ياقوت توضح الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد في مسيره من العراق الى الشام لنجدة المسلمين في اليرموك . وتدلنا هذه الاشارات بما لا يدع مجالا للشك على ان خالدا سلك الطريق الشمالي الغربي من عين التمر الى دومة القريية منها ، والتي سميت دومة الجندل . ومنها الى النقيرة فقرقر وفسوى بهراء فالكواثل . ومن هذا المكان اتجه خالد بن الوليد جنوبا بغرب الى حاضر طيء جنوب حلب فأرك فتدمر فالقريتين (حوارين) فمرج راهط فبصري فاليرموك . ويمكن الرجوع بسهولة الى هذه المواد في معجم البلدان للوقوف على هذه الاشارات التي استقاها ياقوت من كتاب الفتوح لاسحاق بن بشر (٧٦) .

واذا كان معجم البلدان يضم الكثير من الاخبار عن التشار كما ذكرنا ، فان الكتاب يشتمل ايضا على معلومات قيمة عن الصليبيين الفرنجة وتصدى المسلمين لهم في بلاد الشام ومصر ، ويمكن للباحث ان يجد هذه المعلومات في اثناء تعريف ياقوت بالعديد من مدن الشام ومصر ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر ، بيت

(٧١) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٤٩٦ ، ٤/ ٤٥٤ ، ٥/ ٣٢٥

(٧٢) نفس المصدر : ١/ ٢٣١

(٧٣) ابن هاشم : السيرة ، ٤/ ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ١٣١ ، ١٣٢

(٧٤) الواقدي : المغازي ، ٢/ ٧٥٥

(٧٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٣/ ٦١

(٧٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/ ١٧٦ ، ٤٨٧/ ٥ ، ٣٠١/ ٣ ، ٢٧١/ ٤ ، ١٤٤/ ٤ ، ٤٨٦/ ٢ ، ٢٠٧/ ١ ، ١٥٣/ ١ ، ١٨/ ١ ، ٤٠٤/ ١ ، احمد

كمال : الطريق الى دمشق ٢٤٠ - ٢٦٢

ام حبيب ، نهر ام عبدالله . كما نتعرف على بعض الاقطاعات التي منحت في الدولة الاموية في المواد : سلوقية ، عرب ، مرقية ، نهر العلاء ، مدينة ، مرغاب ، نهر بن عمير . واقطاعات بعض الخلفاء العباسيين في المواد : بغداد راون ، سوق العطش ، سوق خالدة ، صف ، قطيعة اسحاق ، قطيعة ام جعفر ، مرعش ، نهر ابي الخصب .

ويوضح ياقوت المفهوم الاسلامي لهذه القطائع التي كانت تتم في الصوافي والاراضي البور التي لا مالك لها ، ويقول في ذلك ان « القطائع من السلطان انما تجوز في عفو البلاد التي لا ملك لأحد عليها ، ولا عمارة توجب ملكا لأحد »^(٧٩) . وهذه ناحية اقتصادية هامة لان الخلفاء والولاة كانوا بوجه عام لا يتصرفون بملكات الغير ، واذا ارادوا امتلاك ارض مملوكة لاجل المنفعة العامة كبناء مسجد او مدينة ، عمدوا الى شراء الاراضي من اصحابها ، كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي في واسط ، والمهدي في المحمدية بالري ، والمعتمد في سرمن رأى .^(٨٠) وهذه على كل حال قاعدة اسلامية سنها الرسول ﷺ لأول مرة عندما ابتاع ارض مسجده في المدينة ورفض امتلاك الارض دون التعويض على اصحابها .^(٨١) وهنا يعتبر معجم بلدان ياقوت مصدرا هاما ورئيسيا في دراسة تطور الاقطاعات في الدولة الاسلامية .

وفي اثناء حديث ياقوت عن البلدان والارضين يذكر شيئا عن عمارتها واستصلاحها ويورد احيانا بعض

المقدس ، وحطين ، والرملة ، وعسقلان وعكة ، ويبروت ، وصور ، وانطاكية ، وحصن الكراد ، ودمياط ، والمنصورة^(٧٧) . وكانت هذه المعلومات هي الاساس الذي استقى منه هارتفيج ديرينبورغ (Hart-wig Derenbourg) مادة بحثه « الصليبيون في معجم ياقوت » المنشور في الكتاب الصادر في باريس ١٨٩٥ بمناسبة الذكرى المئوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية^(٧٨) .

Les Croisades d'après le dictionnaire de Yakout

الملاحق الاقتصادية :

الاقطاعات : ويتضمن معجم البلدان كذلك اشارات اقتصادية كثيرة وقيمة من بينها اقطاعات الارضين العديدة التي منحت لبعض الاشخاص من قبل الرسول ﷺ والخلفاء من بعده ، سواء في عهد الخلفاء الراشدين او دولة بني امية او دولة بني العباس . ويمكن تتبع هذه الاقطاعات ومعرفة الاشخاص الذين منحوها في مواضع متعددة من المعجم . فبالنسبة للاقطاعات في عهد الرسول ﷺ نجدها في معجم البلدان في ثنايا المواد : حبرون ، الشقراء ، ظبية ، عقيق ، الغميم ، الغورة ، فخ ، قالس ، القبلية ، قطيعة ، مدينة ، ينبع . ونجد الاقطاعات التي منحت في عهد الخلفاء الراشدين وبخاصة في حكم عثمان بن عفان في المواد التالية في المعجم : سنيينا ، شاطيء عثمان ، شط ، عرصه ، نشاستج نهر الاسورة ، نهر

(٧٧) نفس المصدر : ٢٦٩/١ ، ٥٢٥ ، ٢٦٢/٢ ، ٢٧٤ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٦٩/٣ ، ٤٣٣ ، ٧٠ ، ١٢٢/٤ ، ١٤٤ ، ١٧١/٥ ، ٢١٢

Centenaire de L'Ecole des Langues Orientales Vivantes, 1795 — 1895, Paris PP. 71 — 92

(٧٨)

(٧٩) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٧٦/٤

(٨٠) نفس المصدر : ١٧٤/٣ ، ١٦٥/٥ ، ٣٤٨

(٨١) البلاذري : فتوح البلدان ، ٥ ، السهري : وفاة السوف ، ٣٢٢-٣٢٦

المعلومات القيمة عن الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية فيها ، اضافة الى ذكر بعض الصناعات مما يدخل في التاريخ الاقتصادي للدولة الاسلامية . فقد كان في مدينة شيراز مثلاً شجرة تفاح نصفها حلو ونصفها الآخر حامض ، كما كان في بلدة شنتره بالاندلس تفاح محيط الواحدة منه ثلاثة اشبار . واشتهرت تاهرت بالسفرجل ، وتبريز بالمشمش ، وغزة ورفح بالجميز ، وفلسطين وتونس بالزيتون .^(٨٢) وفي مصر كمثال آخر ، يشير ياقوت الى اهمية مياه النيل ، وقياس مستوى ارتفاعها للزراعة ، ويورد كشفاً بأسماء مائة وستة وثلاثين نوعاً من الطيور كانت توجد في منطقة بحيرة تنيس ، بالاضافة الى ثمانين نوعاً من الاسماك فيها^(٨٣) . وكان في بلدة البشمو قرب دمياط خراف ممتازة وصفها ياقوت بأنها « ليس في الدنيا مثلاً عظماً وحسناً وعظماً الليث »^(٨٤) .

المعادن : اما المعادن فأهمها الذهب في غانة وما وراء النهر . وأشار الى معادن اخرى مثل الفضة والحديد والنحاس والزئبق والتوتياء والنوشادر والفيروزج ، والبلازورد ومعادن البلخش المقاوم للياقوت ، والنفط والفحم الحجري وحجر المس والملح . ويلاحظ ان معظم هذه المعادن كان موجوداً بكثرة في الاقاليم الشرقية من الدولة الاسلامية ، مثل كرمان وخراسان واقصى بلاد الشام^(٨٥) . وكان بعض سكان شمال العراق يستخدمون القار في رصف الارض (الاسفلت) حيث كان القير « يطرح في القدور وينحل له ، ويطرح عليه بمقدار يعرفونه ويوقد تحته حتى يذوب ويختلط بالرمل ،

وهم يحركونه تحريكاً ، فاذا بلغ حد استحكامه صب على وجه الارض »^(٨٦) . وذكر ياقوت ايضاً التضخم المالي في بلدة بنجهير بنواحي بلخ نتيجة لكثرة وجود الفضة فيها ، ويصف بدقة طريقة استخراج هذا المعدن من جبل الفضة القريب منها والتنافس الشديد على استخراجها فيقول : « والدرهم بها واسعة كثيرة ، لا يكاد احدهم يشتري شيئاً ولو جزرة باقل من درهم صحيح ، والفضة في اعلى جبل مشرف على البلدة والسوق ، والجبل كالغربال من كثرة الحفر ، وانما يتبعون عروقها يجدونها تدلم على انها تفضي الى الجواهر ، وهم اذا وجدوا عرقاً حفروا ابداً الى ان يصيروا الى الفضة ، فيتفق ان لرجل منهم في الحفر ثلاثمائة الف درهم او زائداً او ناقصاً ، فربما صادف ما يستغني به هو وعقبه ، وربما حصل له مقدار نفقته ، وربما اكبدى واقتقر لغلبة الماء وغير ذلك وربما يتبع الرجل عرقاً ويتبع آخر شعبة اخرى منه بعينه ، فيأخذان جميعاً في الحفر ، والعادة عندهم ان من سبق فاعترض صاحبه فقد استحق ذلك العرق وما يفضي اليه ، فهم يعملون عند هذه المسابقة عملاً لا تعمله الشياطين ، فاذا سبق احد الرجلين ذهبت نفقة الآخر هدراً ، وان استويا اشتركا ، وهم يحفرون ابداً ما حييت السرج وانفذت المصابيح ، فاذا صاروا في البعد الى موضع لا يحمي السراج لم يتقدموا ، ومن تقدم مات في اسرع وقت ، فالرجل منهم يصبح غنياً ويمسي فقيراً ، او يصبح فقيراً ويمسي غنياً »^(٨٧) . وفي هذا النص الطريف وصف

(٨٢) ياقوت : معجم البلدان ، ٨/٢ ، ١٣ ، ٥٨ ، ٢١٣ ، ٣٠٢ ، ٣٢٢/٣ ، ٥٥ ، ٣٦٧ ، ٣٨١ ، ٤/٢٢٣

(٨٣) نفس المصدر : ٥٤٠٥٢/٢

(٨٤) نفس المصدر : ٤٢٨/١

(٨٥) نفس المصدر : ١٧٢/١ ، ٣٢٨ ، ٤٩٨ ، ١٢/٢ ، ٤١٩ ، ٤٧١ ، ٥١/٣ ، ٤٥٤/٤

(٨٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/٢٩٥

(٨٧) نفس المصدر : ٤٩٨/١ ، ٤٩٩

أو لآخر تحولت القوافل عنها الى غيرها ، وفقدت تلك المراكز التجارية اهميتها وازدهارها وربما خربت كما حدث لبلدة برقعيد من أعمال الموصل . وكانت هذه البلدة ممراً للقوافل بين الموصل ونصيبين ، فلما زاد تعرض لصوصها للقوافل التجارية بعد القرن الرابع الهجري ، « وكثرت منهم هذه الأفاعيل تجنبتهم القوافل ، وجعلوا طريقهم على باشزي وانتقلت الأسواق الى باشزي » وأصبحت برقعيد بلدة « خراباً صغيرة حقيرة » على حد وصف ياقوت (٩١) . وكان أعراب بادية الشام يتقاضون من تجار منطقة الجزيرة الفراتية مالا مقابل خفارتهم القوافل التجارية ، اذ كان في الرصافة كما يقول ياقوت نقلاً عن الأصمعي « جماعة من أهل الثروة ، لأنهم بين تاجر يسافر الى أقطار البلاد ، وبين مقيم فيها يعامل العرب (٩٢) » . وقد وصف ابن بطوطة في رحلته بعض الطرق التجارية التي كانت قوافل الحجاج تسلكها أيضاً . ونوه بالمحطات والمراكز التجارية التي كانت تقوم على تلك الطرق داخل جزيرة العرب ، وكيف كان بعض امراء العرب يشتركون مع رجال قبائلهم في المحافظة على هذه القوافل التي كانت تحمل التجارات اضافة الى الحجاج ، فكان عرب تلك المراكز « يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة (٩٣) » . وياقوت وهو يشير الى التجارة الداخلية لا يغفل عن ذكر المراحل والمسافات بين البلدان ، وحجارة الأميال المنصوبة عليها لمعرفة تلك المسافات ، والتي كان العابرون يكتبون على بعضها أحياناً أبياتاً من شعر الحنين الى الأوطان (٩٤) .

دقيق للعمل في مناجم الفضة في تلك المنطقة ، والظروف الصعبة والخطرة التي تكتنف هذا العمل ، وبخاصة عندما يوغل العمال في الحفر وتقل نسبة الاوكسجين اللازم للتنفس مما تتعذر معه الاضاءة او الحياة . وهنا ايضا تفسير اقتصادي لغلبة العملة الفضية في المناطق الشرقية للدولة الاسلامية ، ومن قبل عرفت هذه الظاهرة ايضا في الدولة الساسانية (٨٨) .

الصناعة : اما الصناعات التي اشتهرت بها بعض البلدان فقد اشار ياقوت الى الكثير منها في معجمه . وذكر على سبيل المثال صناعة المنسوجات في تنيس والحريز في فاس ، والفخار والسمك المملح في تونس ، كما نوه بما كانت تلقاه صناعة الكاغذ اي ورق الكتابة من اهتمام بسبب انتشار العلم والحاجة الى تدوينه . ويحدثنا ياقوت عن وجود دور لصناعة الكاغذ في بغداد وخونا بأذربيجان وشاطبة بالاندلس واشتهرت المناطق الشرقية للجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي بالبرود القطرية والرماح الخطية والنبل الفائقة الصنعة (٨٩) .

التجارة : وهناك اشارات بالغة الأهمية بالنسبة للتجارة الداخلية بين أقطار الدولة الاسلامية ، حيث كانت القوافل التجارية تعبر البلاد في طرق معروفة مخفورة تنتشر عليها المدن والقرى والمراكز التجارية والخانات (٩٠) . ويلاحظ ان مصلحة هذه المدن والقرى الواقعة على الطريق البرية كانت تقتضي توفير الأمن لقوافل التجارة ، فاذا لم يتوفر الأمن عند احدها لسبب

(٨٨) نفس المصدر : ٣٥٤/١

(٨٩) نفس المصدر : ٥١/٢ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٣٧٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤٢٢ ، ٣٠٩/٢ ، ٣٧٣/٤ ، ٣٨٩

(٩٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٥٤/٣ ، ٧١

(٩١) نفس المصدر : ٣٨٧/١

(٩٢) نفس المصدر : ٤٧/٣ ، ٤٨

(٩٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ١٩٦٠ ، ١٧٤

(٩٤) ياقوت : معجم البلدان ، ٤٦٢/١ ، ١٨٥/٤

أما التجارة الخارجية فكانت تتم بطريقتين بري وبحري ، يتصل تجار المسلمين بواسطتهما بغيرهم من تجار الأمم والشعوب ، ومن بينها الخزر فكان التجار من أراضي المسلمين يمتازون بمراكبهم بحرقزون الى ارض الخزر ويجلبون من هناك الوبر الكثير^(٩٥) . وقد ذكر ابن فضلان في رسالته ان التجار المسلمين استطاعوا ان يكونوا جالية كبيرة في مدينة اتل عاصمة الخزر حيث كان « على المسلمين رجل من غلمان الملك ، يقال له خز ، وهو مسلم ، واحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين اليهم في التجارات مردودة الى ذلك الغلام المسلم ، لا ينظر في أمورهم ، ولا يقضي بينهم غيره^(٩٦) » . كما تردد التجار المسلمون على بلاد الصقالبة القريبة من بلاد الخزر ، وكانوا يقصدون تلك البلاد بانواع التجارات^(٩٧) . أما التجارة مع الروس فكانت تتم على نهر اتل حيث كان الروسية يوافقون بتجارهم هناك ، ومنها الجواري والسمور والجلود ، ويلتقون مع التجار المسلمين لتبادل العروض التجارية^(٩٨) .

كما يشير ياقوت الى التجارة البحرية بين المواليء الاسلامية في بحر الروم (المتوسط) كنقل الأخشاب من شمال بلاد الشام الى مصر^(٩٩) . ويورد تفصيلات وافية عن التجارة البحرية المزدهرة في مواليء وجزر الخليج العربي ، والدور الذي كانت تقوم به هذه المراكز

في نقل تجارة الهند الى البلدان المجاورة . وقد لعبت البصرة وسيراف ولار وصحار وهرمز وجزيرة قيس والبحرين دوراً هاماً في هذه التجارة ، التي شارك فيها ياقوت نفسه فزار البصرة من أجل ذلك ثماني مرات ، وتردد على مواليء وجزر الخليج « عدة نوب » على حد تعبيره^(١٠٠) . وعبر الخليج كانت المراكب التجارية تتوجه الى السند والهند وسيلان والصين ، كما وصلت تجارة المسلمين البحرية الى مواليء ظفار وحضرموت واليمن والبحر الأحمر وسواحل أفريقيا الشرقية حتى سفاله وجزيرة القمر وهي مدغشقر حسب رأي ياقوت^(١٠١) . وتطلق التسمية اليوم على أربع جزر بين مدغشقر والساحل الشرقي لأفريقيا بما يعرف بدولة جزر القمر . ويعتبر معجم البلدان مصدراً أساسياً لمن أراد التوسع في البحث عن النشاط التجاري لهذه المنطقة حتى القرن السابع الهجري ، القرن الثالث عشر الميلادي .

وياقوت وهو يورد هذه الاشارات التجارية يذكر ان بعض الجواسيس كانوا ينتحلون صفة التجار للوقوف على الأخبار^(١٠٢) ، كما يقدم الينا فكرة عن اسعار بعض المواد الغذائية في بغداد زمن المنصور ، وفي واسط في عهد ياقوت نفسه ، وبذلك يعطي معلومات مفيدة عن تطور الاسعار خلال فترة تصل الى حوالي خمسة قرون^(١٠٣) . ويشير عرضاً كذلك الى ضريبة الخوانيت

(٩٥) نفس المصدر : ٨٨/١ ، ٣٤٢

(٩٦) رسالة ابن فضلان : ١٩٧٨ ، ١٩٤

(٩٧) ياقوت : معجم البلدان ، ٤١٦/٣

(٩٨) نفس المصدر : ٧٩/٣ ، ٨٠ ، ٤٨٨/٤

(٩٩) نفس المصدر : ٦٨/٢

(١٠٠) نفس المصدر : ٤٣٩/١ ، ٨/٥

(١٠١) نفس المصدر : ٤٩١،٣٤٣/١ ، ٤٤٠/٣

(١٠٢) نفس المصدر : ٤٤٨/٤

(١٠٣) نفس المصدر : ٤٥٩/١ ، ٣٥٠/٥

« وكان بنو معد نزولاً بتهامة وما والاها من البلاد ففرقتهم حروب وقعت بينهم ، فخرجوا يطلبون المتسع والريف مما يليهم من بلاد اليمن ومشارف أرض الشام ^(١٠٦) . وكان ابوسفيان زعيم قريش يمتلك قرية نقنس من قرى البلقاء بارض الشام ثم انتقلت الى ولده بعده ^(١٠٧) . وكانت القبائل العربية في شمال الجزيرة تغتنم فرصة حروب ملوك الطوائف في فارس وتغير على السواد مما جعل الفرس يحفرون خندق سابور الممتد من هيت الى كاظمة والخليج لصد تلك الغارات ^(١٠٨) .

وفي هذا المجال يورد ياقوت معلومات قيمة عن تحرك القبائل العربية داخل الجزيرة العربية وخارجها قبل الاسلام ، ويعدد مواطن عدد بارز منها فقد ذكر تفرق قضاة والازد ومواطن بني سعد وبني اسد وطيء وكلب وتغلب وبكر وربيعة ومضر . واستشهد بابيات شعر للاخنس بن شهاب التغلبي تعتبر بمثابة وثيقة تاريخية حول منازل بعض قبائل العرب وهي لكيز وبكر وتميم وغسان وبهراء وايد وتغلب . يقول الشاعر :

لكل اناس من معد عمارة
عروض اليها يلجأون وجانب
لكيز لها البحران والسيف دونها
وان يأتها بأس من الهند كارب
تطايير عن اعجاز حوش كأنها
جهام هراق ماء فهو آيب

التي فرضت في بغداد زمن المهدي ، ومقدار خراج عدد من الأقاليم والولايات . ويبدو أن الأرقام التي أوردها ياقوت قريبة من الصحة ، من ذلك ما ذكره عن جملة خراج فارس مع الأهواز في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي وهو ثمانية عشر ألف درهم . والراجع ان هذا الرقم هو الذي وهم فيه معظم المؤرخين وسحبوه على خراج العراق كله زمن الحجاج متهمين اياه بكسر خراج هذا الأقليم ^(١٠٤) .

الملاحم الاجتماعية :

وتصادفنا في معجم البلدان عدة ملاحم اجتماعية هامة منها :

أولاً : ظاهرة الهجرة السكانية من جزيرة العرب ، على اعتبار ان هذه المنطقة كانت في معظم الحقب التاريخية منطقة طرد بشري الى المناطق الأكثر خصباً . وتعود هذه الظاهرة الى ما قبل الاسلام ، فيذكر ياقوت نقلاً عن رسالة ابي دلف مسعر بن مهلهل ان الأخير صادف وهو في طريقه الى الصين بموضع القليب « بوادي عرب ممن تخلف عن تبع لما غزا بلاد الصين ، لهم مصاييف ومشات في مياه ورمال ، يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا ، يعبدون الأصنام ، وملكهم من أهل بيت منهم ^(١٠٥) . ويتحدث ياقوت أيضاً عن هجرة أخرى لبني معد من تهامة الى اليمن ومشارف بلاد الشام قائلًا :

(١٠٤) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٢٧/٤ ، ٤٤٨ ، احسان العمدة : الحجاج ، ٤٢٥ ، ٤٢٨

(١٠٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٤٤٣/٣ ، ٤٤٤

(١٠٦) نفس المصدر : ٣٢٩/٢ ، ٣١/٥

(١٠٧) نفس المصدر : ٣٠٠/٥

(١٠٨) نفس المصدر : ٣٣٠/٢ ، ٣٩٢

ويكر لها بر العراق وأن تحف
 يحل دونها من في اليمامة حاجب
 وصارت تميم بين قف ورملة
 لها من جبال منتأى ومذاهب
 وكلب لها خبت فرملة عالج
 الى الحرة الرجلاء حيث تحارب
 وغسان جن غيرهم في بيوتهم
 تجالد عنها خسر وكتائب
 وبهراء حي قد علمنا مكانهم
 لهم شرك حول الرصافة لا حب
 وغارت اياد في السواد ووطنها
 برازيق عجم تبتغي من تضارب
 أرى كل قوم قاربوا قيد فحلهم
 ونحن خلعنا قيده فهو سارب (١٠٩)

وعندما جاء الاسلام وتكونت نواة دولته في المدينة
 اتخذت ظاهرة الهجرة السكانية من الجزيرة العربية ابعاداً
 أوسع . فقد أدى ذلك داخل الجزيرة نفسها الى حدوث
 تركيز سكاني في منطقة المدينة مركز الدولة الجديدة ،
 وتدفق الأعراب على المدينة للافادة من العطاء (١١٠) ،
 ولم تلبث اعداد غفيرة من القبائل العربية ان خرجت
 ضمن جيوش الفتح خارج الجزيرة العربية حيث فتحت
 الأقطار وأقامت في الأمصار والثغور وفي بيوت المدن
 المفتوحة كما حدث في خراسان (١١١) . وقد أسهم عرب
 الفتوح في نشر الاسلام والعربية في البلاد المفتوحة .
 ويحدثنا ياقوت نقلاً عن نصر الاسكندري صاحب كتاب

فيها اختلف واختلف من اسماء البقاع عن وجود بقايا
 أولئك العرب الأوائل حتى القرن السادس الهجري في
 بلدة ألبان بين غزنة وكابل ، حيث كانوا ما يزالون على
 مذهب الخوارج « الا انهم مذعنون للسلطان ، وفيهم
 تجار ومياسير وعلماء وادباء يخالطون ملوك الهند والسند
 الذين يقربون منهم ، ولكل واحد من رؤسائهم اسم
 بالعربية واسم بالهندية (١١٢) » . وامثال هؤلاء كما يقول
 ابن خلدون « انفقتهم الدولة الاسلامية العربية ، فبا
 منهم الثغور القصية ، واكثرهم الأقطار المتباعدة ،
 واستلحمتهم الوقائع المذكورة ، فلم يبق منهم . . . الا
 سمع من ذكر اسمائهم في انساب اعقاب متفرقين في
 الامصار . . . فتقطّعوا في البلاد (١١٣) » .

وفي أخبار البعثة الاستطلاعية التي ارسلها الخليفة
 العباسي الواثق بالله لاستطلاع أحوال السد الذي بناه
 ذو القرنين ليحول دون تقدم يأجوج ومأجوج ، ذكر
 ياقوت ان البعثة اجتازت حصوناً فيها « قوم يتكلمون
 بالعربية والفارسية هم مسلمون يقرأون القرآن ولهم
 مساجد وكتاتيب ، الا انهم كانوا منقطعين عن العالم
 الاسلامي ولا يعرفون شيئاً من أخباره (١١٤) » .

ثانياً : وكان العرب لدى انتقالهم الى الامصار
 والأقاليم يسمون بعض مدنها باسماء المدن والمواطن التي
 قدموا منها عليها تذكروهم بمواطنهم الأولى وتهديء من
 شوقهم وحنينهم اليها ، وهي ظاهرة انسانية مألوفة
 ومعروفة . فقد بنى أهل دومة الجندل بلدة أخرى بهذا

(١١٠) نفس المصدر : ٣٥١/٤

(١١١) نفس المصدر : ٣٨٥/١ ، ٣٠٥/٣

(١١٢) نفس المصدر : ٢٤٤/١

(١١٣) ابن خلدون : العبر ، ١٩٥٩ ، ٦/٦

(١١٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١٩٩/٣

يذكر عَرَضاً أخبار العرب المهاجرة الى الامصار ، اخبار الشعوب والفئات الأخرى التي كانت تعيش داخل الدولة الاسلامية ، او تلك التي تقيم على تخومها كالنبط والاساورة والبخارية والأكرد والديلم والجراجمة والترك والصقالبة والخزر والروس والبلغار والزنج واهل الصين ، فاورد وصفاً لجانب من عاداتهم وتقاليدهم . واعتمد في هذه الأخبار على رسائل الرحالة والمبعوثين كما هو الحال بالنسبة لرسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، التي وضعها اوائل القرن الرابع الهجري ، ورسالة ابي دلف في ذكر ما شاهده ورآه في بلاد الترك والصين والهند (١١٨) .

رابعاً : ظاهرة الحنين الى الأوطان :

وطبيعي ان يواكب هجرة العرب الى الأقاليم والامصار حنين قوى الى مواطنها ومرابعها الأولى . وقد وجدت هذه الظاهرة الانسانية بين جميع المهاجرين العرب ابتداء من المسلمين الأوائل الذين هاجروا من مكة الى المدينة ، وانتهاء بأولئك الذين رابطوا في الامصار والثغور . ويزخر معجم البلدان بالأشعار الرقيقة المرفهة التي تعبر بصدق عن هذه المشاعر . ويبدو ان ياقوت اقتبس هذه الأشعار من كتاب الحنين الى الأوطان للقاضي الشريف ابي طاهر الحلبي (١١٩) .

ونورد فيما يلي طائفة من هذه الأشعار على سبيل المثال لا الحصر نظراً للأهمية الاجتماعية لها ، وباعتبارها وثائق تدل على هذه الظاهرة بوضوح .

الاسم قرب عين التمر في العراق ، وشهدت الأندلس بالأندلس وملكوها سموا عدة مدن بها باسماء مدن الشام ، مثل حمص وتدمر (١١٥) .

ثالثاً : وياقوت حين يتحدث عن بعض المدن كالبصرة والكوفة يورد بيانات عمرانية هامة عن مساحتها وسكانها . فالبصرة كانت تضم في عهد زياد بن ابيه ثمانين الف مقاتل من العرب وعيالهم مائة وعشرون ألفاً ، اي ان عدد سكانها حوالي منتصف القرن الأول الهجري مائتا الف نسمة . واضيف الى هؤلاء في زمن عبيد الله بن زياد الفان من البخارية المقاتلين الذين نقلهم من بخاري وفرض لهم العطاء وبنى لهم سكة في البصرة عرفت بالبخارية نسبة لهم . فقد تطورت البصرة زمن خالد ابن عبد الله القسري في اوائل القرن الثاني للهجرة فاصبح طولها فرسخين وعرضها فرسخين الا أنفاً (١١٦) . وشهدت الكوفة تطوراً مماثلاً ، فبعد ان كانت تضم على عهد زياد بن ابيه حوالي مائة واربعين الف نسمة بينهم ستون الف مقاتل من العرب ، أصبحت حوالي عام ٢٦٤هـ / ٨٧٧م تمتد ستة عشر ميلاً وثلاثي ميل . وكان فيها ذلك الوقت خمسون الف دار للعرب من ربيعة ومضر ، واربعة وعشرون الف دار لسائر العرب ، وستة آلاف دار لليمن . فاذا قدرنا ان كل دار يسكنها ستة اشخاص في المتوسط ، وجدنا ان سكان الكوفة في القرن الثالث الهجري كانوا يبلغون حوالي نصف مليون نسمة (١١٧) . ولم يُغفل ياقوت وهو

(١١٥) نفس المصدر : ١١٤/١ ، ٣٠٤/٢ ، ١٠٧/٥

(١١٦) نفس المصدر : ٣٥٦/١ ، ٤٣٤

(١١٧) نفس المصدر : ٤٣٤/١ ، ٤٩٢/٤

(١١٨) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٢٢/١ ، ٣٢٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩/٢ ، ٤٨٨/٣ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ ، ١٥٧/٤ ، ٣٥٢ ، ٣٨٩ ، ٤٠٧ ، ٦/٥ ،

٣٣ ، ٣٤ ، ٤١ ، ١٤٨ ، ٣١٣ ، ٤٢٦ .

(١١٩) نفس المصدر : ٢٣٤/١ ، ٣٦٦ ، ٤٣٩ ، ٤٧٧ ، ٥١/٢ ، ٥٢ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٣٠٣ ، ٣٥٣ ، ١١٩/٣ ، ١٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٨٧ ، ٣١٣ ،

٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ١٠٢/٤ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٦٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٨٣/٥ ، ١٦٢ ، ١٨٣ ، ١٩٢ .

قال بلال مؤذن الرسول يتشوق الى مكة (١٢٠) :

الا ليت شعري هل أبیتن ليلة
بفخ وعندي اذخر وجليل
وهل اردن يوماً مياه مجنة
وهل يبدون لي شامة وطفيل

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري يتشوق الى المدينة
ومنازلها (١٢١) :

اقول لثابت والعين تهمل
دموعاً ما انهنها انحدارا
اعرني نظرة بقرى دجيل
تحايلها ظلاماً او نهارا
فقال ارى برومة او بسلع
منازلنا معطلة قفارا

وانشد اعرابي حنيناً الى الحجاز (١٢٢) :

تطاول ليلى بالعراق ولم يكن
على باكناف الحجاز يطول
فهل لي الى ارض الحجاز ومن به
بعاقبة قبل الفوات سبيل

اذا لم يكن بيني وبينك مرسل
فريح الصبا مني اليك رسول

ومن شعر اعرابي في الامصار يتشوق الى نجد (١٢٣) :

اكرر طرفي نحو نجد وانني
اليه وان لم يدرك الطرف انظر
حنيناً الى ارض كأن تراهها
اذا مطرت عود ومسك وعنبر
مضى يستريح القلب اما مجاور
بحرْب واما نازح يتذكر

وقال آخر يتمنى القفول الى نجد (١٢٤) :

سمعت رحيل القافلين فشاقني
فقلت اقرأوا مني السلام على دعد
احن الى نجد واني لآيس
طوال الليالي من قفول الى نجد
تعزُّ فلا نجد ولا دعد فاعترف
بهجر الى يوم القيامة والوعد

ويصف اعرابي مرابط في الثغور الرومية حنينه الى
نجد بقوله (١٢٥) :

تبدلت من نجد وممن يحمله
محلة جنند ، ما الأعراب والجنند ؟
واصبحت في أرض البنود وقد أرى
زماناً بارض لا يقال لها بند

(١٢٠) نفس المصدر : ١٨٣/٥ .

(١٢١) نفس المصدر : ٣٠٠/١ .

(١٢٢) نفس المصدر : ٢٢٠/٢ .

(١٢٣) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٦٢/٥ .

(١٢٤) نفس المصدر : ٢٦٤/٥ .

(١٢٥) نفس المصدر : ٢٦٤/٥ .

خليلي طال الليل والتبس القذى
بعميني وأستأنست برقاً يمانياً

وقال مالك بن الريب يتشوق إلى موطنه بجزيرة
العرب (١٢٩) :

لعمري لئن غالت خراسان هامي
لقد كنت عن باي خراسان نائياً
ألا ليت شعري هل ابستن ليلة
بجب الغضا ازجي القلوص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

الم ترقى بعث الضلالة بالهدى
وأصبحت في جيش ابن عفان غازياً

وهذا العباس بن الأحنف يقول في هذا
المعنى (١٣٠) :

قالوا خراسان ادنى ما يراد بكم
ثم القفول فهنا جئنا خراسانا

عين الزمان اصابتنا فلا نظرت
وعذبت بفنون الهجر الوانا

وقال عبد الرحمن بن داره ممن كان يقيم بحمص
بالشام (١٢٦) :

خليلي إن حانت بحمص مني
فلا تدفناني وارفعاني إلى نجد

ومرا على أهل الجناح باعظمي
وإن لم يكن أهل الجناح على القصد
وإن انتما لم ترفعاني فسلماً
على صارة فالقور فالابلق الفرد

وينسب إلى الشاعر العماني محمد بن زوزان مما
يتشوق به إلى بلدته صحار (١٢٧) :

لحى الله دهرنا شردتني صروفة
عن الأهل حتى صرت مغترباً فرداً
ألا أيها الركب اليمانون بلغوا
تحية نائي الدار لقيتم رشداً
إذا ما حللتكم في صحار فاطموا
بمسجد بشار وجوزوا به قصداً

فعوجوا إلى داري هناك وسلموا
على والدي زوزان وقيتم جهداً

وقال شاعر يمني مغترب يحن إلى اليمن (١٢٨) :

خليلي إني قد ارتقت ونمت
كبرق يمان فأقعداً عللانياً

(١٢٦) نفس المصدر : ٣٠٣/٢ .

(١٢٧) نفس المصدر : ٣٩٤/٣ .

(١٢٨) نفس المصدر : ٤٤٨/٥ .

(١٢٩) نفس المصدر : ٣٥٣/٢ .

(١٣٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٥٣/٢ .

الارجاء ، عادية البناء (أي ضخمة البناء) ، لها صحن عظيم الف ذراع في الف ذراع ، كان يقف فيها في الأعياد ، وعند ورود الرسل من البلاد ، في كل جانب منها خمسمائة فرس بالراكب الذهب والفضة كل فرس فيها على يد شاكري « ومنظرة الحلبة التي « جعلت ليجلس فيها الخليفة ويستعرض الجيوش في أيام الأعياد (١٣٣) » .

وكان بعض الناس يقصدون القصور والمباني الأثرية وأحياناً الديارات الواقعة خارج المدن لقضاء وقت من الراحة والاستجمام ، ويشهدون هناك في أحيان أخرى سباقات الخيل . وقد شهد مثل هذه السباقات الرسول ﷺ والحجاج بن يوسف والمأمون وغيرهم (١٣٤) . ويحدثنا ياقوت ان المأمون اقتطع جملة من البرية عملها ميداناً لركض الخيل واللعب بالصوالجة ، وحيزاً لجميع الوحوش ، وفتح له باباً شرقياً الى جانب البرية ، واجرى فيه نهراً ساقه من نهر الملعى ، وابتنى . . منازل خاصته واصحابه سميت المأمونية (١٣٥) . اما البعض الآخر من طلاب اللهو والعبث والمتع والتهتك ، فكانوا يقصدون أماكن معروفة لهذا الغرض في الجانب الشرقي من بغداد ، وفي باري ، وقطربل في العراق ، ودالان ودموران قرب دمار من أرض اليمن ، حيث كانوا يمارسون بعض الانحرافات والعادات الخلقية السيئة ، وهو أمر لا يخلو منه عصر من العصور ولا حضارة من الحضارات (١٣٦) . ويلاحظ

خامساً : وهناك اشارات متفرقة وكثيرة عن الترف الاجتماعي والعمراني الذي شهدته بعض المدن الاسلامية ، واوردها ياقوت عند حديثه على تلك المدن ، والثروات الطائلة التي انفق في بناء القصور العباسية ، وبخاصة في عهدي المتوكل والمقتدر . ومن ذلك وصف قصر دار الشجرة الذي بناه المقتدر « وانما سميت بذلك لشجرة هناك من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة مدورة ، امام ايوانها وبين شجربستانها ، ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها فروع كبيرة مكلفة بأنواع الجواهر على شكل الثمار ، وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها ابانت عن عجائب من انواع الصفيير والهدير ، وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثله عن يسار البركة ، وقد البسوا انواع الحرير المديج مقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد ، فيظن ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد (١٣١) » . ويمكن للباحث ان يطلع على مقدار ثروة علي بن احمد الراسبي ، وهو واحد من العمال المتنفيين زمن المقتدر ، كما اوردها ياقوت ، ليكون فكرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يتمتع بها أفراد هذه الطبقة من الناس (١٣٢) واورد ياقوت أيضاً معلومات لا تقل أهمية عن تلك ، حول بعض رسوم الخلافة في بغداد ، مثل دار الخيل التي كانت « من دور الخلافة المعظمة في بغداد ، وكانت داراً عظيمة

(١٣١) نفس المصدر : ٤٢١/٢ .

(١٣٢) نفس المصدر : ٤٨٢/٢ .

(١٣٣) نفس المصدر : ٤١٩/٢ ، ٢١٢/٥ .

(١٣٤) نفس المصدر : ٤/٢ ، ٢٧٦ ، ٣١٨/٥ .

(١٣٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٤/٢ .

(١٣٦) نفس المصدر : ٣٢١/١ ، ٣/٢ ، ٤٦٠ ، ٥٢٥ ، ٣٧١/٤ ، ٣٧٢ ، ٢٢٤/٥ .

مدينة ساوة بين الري وهمذان كانت توجد دار كتب كبيرة وصفها ياقوت بأنه « لم يكن في الدنيا أعظم منها ، بلغني أن الستر احرقوها » وذلك عام ٦١٧هـ / ١٢٢٠م (١٣٩) . وفي مدينة مرو الشاهجان وحدها بخراسان ، كان يوجد عشر دور كبيرة للكتب قبل تدمير المغول لها . ويقول ياقوت في هذا الشأن انه أقام بمرور ثلاثة أعوام وأنه « لولا ما عرا من ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات ، لما لي اهلها من الرفد ولسن الجانب وحسن العشرة ، وكثرة كتب الأصول المتقنة بها ، فاني فارقتها ٦١٦هـ وفيها عشر خزائن للوقوف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان في الجامع احدهما يقال لها العزيزة وقفها رجل يقال له عزيز الدين ابو بكر عتيق الزنجاني او عتيق بن ابي بكر وكان فيها اثنا عشر الف مجلد او ما يقابلها ، والأخرى يقال لها الكمالية ، لا ادري الى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفي ابي سعد محمد بن منصور في مدرسته ، ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤هـ ، وكان حنفي المذهب ، وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق في مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة اخرى في المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك احد الوزراء المتأخرين بها ، والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك . وكانت سهلة التناول ، لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار ، فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد والهامي عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن (١٤٠) » .

هنا ان ياقوت أثبت في أثناء تعريفه بالمدن والأقاليم ما كان قد رآه او روي له او نقله من مصادره من صفات حسنة واخرى سيئة نسبت الى بعض المدن والبلاد وسكانها ، مثل ما ذكره عن أهل حمص والموصل ومرو ومرباط وصقلية والبربر والنبط . وياقوت في ذلك لم يقصد ذم هؤلاء او أولئك وإنما قدم لنا جانباً آخر مما كان يقال او يكتب (١٣٧) .

الملامح الثقافية :

وسجل ياقوت في معجم البلدان بطريق غير مباشر عدة ملامح ثقافية في الدولة الاسلامية . وقد استوفته هذه الملامح لأنه كان أديباً شارك في ثقافة عصره عن طريق نسخ الكتب والتجارة بها ، الى جانب جهوده المشكورة في التأليف ، فضلاً عن ان رصد ياقوت لجوانب من الحياة الثقافية جاء قبيل اجتياح المغول للمشرق الاسلامي وتدميرهم لمعظم المراكز الثقافية فيه . ويمكن تلمس هذه الملامح تحت المؤسسات التالية :

أولاً : المساجد : وكانت المساجد الاسلامية مؤسسات دينية ثقافية واجتماعية هامة منتشرة في جميع انحاء الدولة . كما كان يلحق بمعظمها مكتبات تضم صنوف العلم والمعرفة (١٣٨) .

ثانياً : المكتبات : اذ كان هناك العديد من دور الكتب العامة والخاصة في معظم المدن الاسلامية ، وقد شاهد ياقوت نفسه بعضها وافاد منها فائدة مباشرة . ففي

(١٣٧) نفس المصدر : ٣٦٩/١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٩٧/٥ ، ٢٢٤ ، الملحق ، الفكر العلمي عند ياقوت ، مجلة جمع دمشق ، ٣٧٢/٤٦ - ٣٧٦ .

(١٣٨) نفس المصدر : ١١٤/٥ ، ٢١٠ .

(١٣٩) نفس المصدر : ١٧٩/٣ .

(١٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ١١٤/٥ .

وهذا النص الفريد من نوعه لا يحتاج الى تعليق بقدر ما يحتاج الى وقفة تأمل واعجاب بالحضارة الاسلامية وعظمتها . ويلاحظ هنا ان دور الكتب كانت تلحق بالمدارس والمساجد التي ما زالت تعتبر من أهم مراكز الثقافة في عالم الاسلام . والمعروف ان نواة المساجد والمدارس قد نشأت في وقت مبكر من تاريخ الدولة الاسلامية ، حتى ان ياقوت يذكر عن ابن عساكر ان المدينة المنورة كان فيها زمن ابي بكر الصديق مكتب لتعليم القراءة والكتابة (١٤١) .

وكان هناك أيضاً في العالم الاسلامي مكتبات خاصة يمتلكها العلماء والناهبون والراغبون في العلم . ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ) المحدث الشهير وصاحب التصانيف العديدة ، التي كان طلاب العلم يسافرون للاطلاع عليها « وكان أبو حاتم قد سبل كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها ، فكان السبب في ذهابها مع تطاول الزمان ، ضعف السلطان ، واستيلاء ذوي العبث والفساد على أهل تلك البلاد » . وقد تأثر الخطيب البغدادي من ضياع بعض كتب ابي حاتم البستي ، فقال : « ومثل هذه الكتب الجليلة كان يجب ان يكثر بها النسخ ، فيتنافس فيها أهل العلم يكتبونها ويجلدونها احرازاً لها (١٤٢) » ، وابو القاسم بن عباد بن العباس الطالقاني (ت ٣٨٥هـ) ، وابو المعالي عبد السلام بن محمود ابن احمد الفقيه الحكيم (ت ٥٢٦هـ) الذي كان يستصحب جميع أمواله وكتبه اينما توجه ، وخزانة كتب ابي نصر سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة

التي وقفها صاحبها على طلاب العلم في كرخ بغداد ، ويقول ياقوت عنها انه « لم يكن في الدنيا أحسن كتب منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتمدة واصولهم المحررة ، واحترقت فيما أحرق من محال الكرخ عند ورود طغول بك أول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧هـ » . وكان بعض العلماء يوقفون كتبهم على طلبة العلم كما فعل العالم الأندلسي محمد بن عتيق بن فرج الطليطلي (ت ٤٨٥هـ) . وياقوت نفسه ، الذي أوصى بان توقف مكتبته بعد موته على مسجد الزيدي في بغداد ، وعهد الى المؤرخ عز الدين بن الأثير لتنفيذ وصيته (١٤٣) .

ولئن دلت ظاهرة وقف الكتب على شيء فانما تدل على حب المسلمين للعلم وتشجيعهم طلابه ، وقد بلغ من محبة احد الطلاب للعلم وحرصه على سماع العلم وتقنيده ، حدا جعل هذا الطالب وهو الحسين بن أحمد بن علي البيهقي من أهل خسروجرد (ت ٥٣٦هـ) ، لا يكف عن الكتابة رغم تقدمه بالسن وفقده لأصابع يده . ويقول ياقوت عن هذا الرجل انه قد « أصابته علة في يده فقطع اصابعه ، فكان يمسك بيده ويضع الكاغد على الأرض ويمسك برجله ويكتب خطأ مقروءاً وينسخ (١٤٤) » .

ومع ذلك فان صناعة الوراقة التي كانت تشمل بيع الكتب ونسخها لم تكن حرفة مربحة كثيراً لأصحابها الذين احترفوها حباً في الكتاب ونشروا ، ومنهم ياقوت الحموي نفسه الذي اشتكى من سوء بخته وقلة حظه في

(١٤١) نفس المصدر : ٢/ ٢١٧ .

(١٤٢) ياقوت معجم البلدان ، ١/ ٤١٥-٤١٨ ، الذهي ، تذكرة الحفاظ ، ٣/ ٩٢٠ .

(١٤٣) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٦٥/ ٢ ، ٦٦ ، ٧/ ٤ ، ١٦١/ ٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ١٩٤٩ ، ١٨٩/ ٥ .

(١٤٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٥٣٨ .

الناس ، وحمل الى دمشق بالقصد الى السماع عليه ،
 حمله الملك المحسن احمد بن الملك الناصر من بغداد ،
 فسمع عليه هو وخلق كثير من أهل دمشق ، وكان قد
 انفرد بكثير من الكتب (١٤٦) ، ومنهم سعد الخير بن
 محمد بن سهل البلنسي (ت ٥٤١هـ) فقيه صالح
 ومحدث مكث ، سافر الكثير وركب البحر حتى وصل الى
 الصين ، وانتسب لذلك صينياً ، وعاد الى بغداد واقام
 بها وتعلم الكتابة الصينية (١٤٧) ، وابو القاسم منصور
 بن أحمد بن الفضل الاسفزازي (ت ٥٠٢هـ) ، وكان
 وحيد عصره في حفظ شعائر الاسلام واهله ، متبعاً
 للآثار ، واعظاً حسن الكلام حلو النطق بعيد الإشارة
 في كلام الصوفية . . . يدخل على السلاطين والجبابرة
 يذكرهم الله ويحثهم على طاعته ، ويأمرهم بالمعروف
 وينهاهم عن المنكر ، لا يخاف سطوتهم ، ولا يبالي بهم
 فيقبلون منه أمره (١٤٨) ، ومن هؤلاء أيضاً العالم
 الرحالة ابو بكر عتيق السمنطاري الصقلي (ت
 ٤٦٤هـ) الذي « سافر الى الحجاز وحج وساح في
 البلدان من أرض اليمن والشام الى أرض فارس
 وخراسان ، ولقي بها من العباد وأصحاب الحديث
 والزهاد فيكتب عنهم جميع ما سمع ، وصنف كل ما
 جمع ، وله في دخول البلدان ولقياه العلماء كتاب بناء على
 حروف المعجم في غاية الفصاحة (١٤٩) ، والرحالة
 الشاعر ابراهيم بن عثمان الأشهبي الغزي الذي « سافر
 الدنيا ومات بخراسان عام ٥٢٤هـ (١٥٠) . والمحدث
 المشهورة أمة الله بنت محمد بن أحمد النبازي (١٥١) .

هذه الصناعة على ما ذكرناه . كما اورد شعراً لزميله ابي
 حاتم الوراق يقول فيه (١٤٥) :

ان السوراق حرفة مضمومة
 محرومة ، عيشي بها زمن

ان عشت ، عشت وليس لي أكل
 او مت ، مت وليس لي كفن

ثالثاً : العلماء : وهؤلاء كانت تزخر بهم المدن
 والأقاليم الاسلامية وقد اشتمل معجم البلدان على
 أسماء فئات من العلماء النابهين الذين ذكرهم ياقوت بعد
 تعريفه باسم البلد او القطر الذي ينتمون اليه . ويلاحظ
 ان ياقوتاً اهتم بصفة رئيسية بتراجم أولئك العلماء الذين
 عاصروه ، او سبقوا عصره بقليل مما يجعل لتراجمه
 المرجزة اهمية خاصة . وكان بعض هؤلاء العلماء
 يتنقلون في البلاد الاسلامية استكمالاً لعلمهم من جهة
 ونشر علمهم بين الناس من جهة أخرى . وفي هذا
 الصدد ذكر ياقوت أسماء العديد من علماء المغرب
 والأندلس الذين ارتحلوا الى المشرق للاستزادة من
 العلم . وكان الطلب شديداً على العلماء النابهين يسعى
 الكثيرون اليهم ويتمنون سماعهم . ويذكر ياقوت ان
 أبا حفص عمر ابن محمد بن المعمر بن أحمد المؤدب
 الدارقزي المنسوب الى دار القز وكانت محلة كبيرة في
 بغداد (ت ٦٠٧هـ) « سمع الكثير . . . وطلبه

(١٤٥) نفس المصدر : ٤٦٣/٤ .

(١٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٤٢٢/٢ .

(١٤٧) نفس المصدر : ٤٩١/١ ، ٤٤٠/٣ .

(١٤٨) نفس المصدر : ١٧٨/١ .

(١٤٩) نفس المصدر : ٢٥٣/٣ ، ٢٥٤ .

(١٥٠) نفس المصدر : ٢٠٣/٤ .

(١٥١) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٥٦/٥ .

ولم يغفل ياقوت وهو يورد هذه الاشارات عن الحياة الثقافية في عصره ، ان يذكر ظاهرة انتحال الكتب الجيدة من قبل اشخاص يستحسنونها فينسبونها الى انفسهم بعد ان يزدوا عليها وينقصوا منها ، وقد حذر ياقوت من أمثال هؤلاء العلماء الأدعياء وكشف عن بعضهم ، كما حرص نفسه على ان لا تنسب كتبه الى غيره (١٥٢) .

رابعاً : مصادر ياقوت الثقافية في معجم البلدان :
وطبيعي ان يفيد ياقوت من المصادر العلمية والأدبية التي انتجتها الثقافة الاسلامية حتى عصره . وكان ياقوت أميناً في ذكر معظم المصادر التي استقى منها مادة كتابه . ونص على ذلك في مقدمة الكتاب وثناياه ، وقد اشترنا في مستهل هذا البحث الى بعضها وبخاصة رسالتي ابن فضلان وابي دلف ونورد هنا عدداً آخر من تلك المؤلفات كما ذكرها ياقوت ، وقسم كبير منها لم يصل إلينا ، وهي على وجه العموم تتعلق بتاريخ البلدان والامصار والمدن التي توافق موضوع الكتاب . ومن هذه المصادر كتاب المبدأ والمآل لياقوت نفسه ، وكتاب افتراق العرب ، وكتاب انساب البلدان ، وكتاب اوراق العرب لابن الكلبي ، وكتاب جزيرة العرب للأصمعي ، وكتاب أخبار العرب ، وكتاب ابي محمد الأسود (في مواقع البلدان) وكتاب فتوح البلدان للبلاذري ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وتاريخ الجزيرة لعلي بن الحسين بن علي الحوافي ، وتاريخ البصرة للساجي ، وكتاب الكوفة لابن النجار ، وتاريخ الرقة لأبي علي ، وتاريخ بلخ لأبي اسحاق المستملي ، وكتاب البستان في مناقب نفس لأبي الحارث اسد بن

حدويه النسفي ، وكتاب تاريخ حصن للقاضي عبد الصمد بن سعيد ، وتاريخ اصبهان لابن مندة ، وكتاب مكة لمحمد بن اسحاق الفاكهي ، وتاريخ افريقية لأبي العرب ، وتاريخ ابي غالب ممام بن الفضل بن مهذب المعري ، وتاريخ ابي سعد الأبي ، وكتاب طبقات محدثي اهل الموصل ، وكتاب اخبار زفر بن الحارث للمدائني ، وكتاب الجنان لابن الزبير ، وكتاب تمام النصيح لابن فارس ، وكتاب بغداد وذكر خرابها لهلال بن المحسن الصاهي ، وكتاب موالى اهل مصر ، وكتاب جيب العروس وريحان النفوس في الطب لمحمد بن احمد بن سعيد التميمي ، وكتاب النوادر الممتعة لأبي الفتح بن جني ، وكتاب اللصوص ، وكتاب الحنين الى الاوطان للقاضي الشريف ابي طاهر الحلبي ، وغيرها (١٥٣) .

الملاحع الأثرية :

وخلال وصف ياقوت للبلدان ذكر عدة معلومات أثرية هامة سواء بالنسبة للمساجد والأثار الاسلامية ، او الأثار القديمة التي خلفتها الدول والشعوب في العالم الاسلامي الذي تعاقبت عليه الحضارات . وهناك أمثلة كثيرة على هذه الأثار نجدها في وصف المسجد الحرام والكعبة الشريفة في مكة المكرمة ، ومسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى والصخرة المشرفة في القدس ، والجامع الأموي في دمشق ، وجامع عمرو بن العاص ، وجامع ابن طولون في القسطنطينية ، إضافة الى تحديد المساجد التي اقامها الرسول الكريم بين المدينة وتبوك ، وذكر معلومات أخرى تتعلق بتصميم المدن الاسلامية وطريقة بنائها ، ووصف مواقعها واسوارها

(١٥٢) نفس المصدر : ١١/١ ، ١٢٠/٣ ، معجم الأديب : ١١/١ .

(١٥٣) ياقوت : معجم البلدان ، ١١٨/١ ، ٤٤٧ ، ٤٩٢ ، ١٢٦/٢ ، ٢٥١ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٧٦ ، ٣٨٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٥/٤ ، ١١٥/٤ ، ١٨٣ ، ٣٦٥ ، ٤٦٥ ، ٤٧٤ ، ٢٥/٥ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ ، ٣١٣ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٤٣٩ .

معالم أصحاب الكهف في بلدة انفس ، ذاكراً شيئاً من التقرير الذي كتبه محمد بن موسى المنجم مبعوث الخليفة العباسي الواثق للوقوف على أمر أصحاب الكهف والرقيم . وينوه بوجود جماعة مقتولين في لطف جبل بموضع بيلاد الروم يقال له الابروق . ويستدل من وصف تلك الجماعة على انهم مسلمون ، اذ كانوا سمر اللون وعليهم عمائم ، « ويقول المسلمون انهم من الغزاة في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ماتوا هناك صبراً » بينما يذهب الروم الى انهم منهم ، وقد اقيم الى جانب موضعهم مسجد وكنيسة ، اذ يزور ذلك الموضع المسلمون والنصارى من الآفاق (١٥٦) .

وقد لاحظ ياقوت استغراب الناس من ضخامة هذه الآثار فكثرت ينسبون بناءها الى النبي سليمان بن داود والجن ، كما هو الحال بالنسبة لمدينة زندورد وتدمر وقصر عمدان (١٥٧) . وقد خلق ياقوت على ذلك بقوله : « لكن الناس اذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه اضافوه الى سليمان والى الجن (١٥٨) » . كما لاحظ ان الناس كانوا يرتادون المساكن الأثرية للمشاهدة والتنزه ، وكان بعضهم يكتب العبارات والأبيات الشعرية على جدرانها للموعظة والاعتبار (١٥٩) .

اما الملاحظة الثالثة التي ذكرها ياقوت ، فهي اقدام الخلفاء والولاة وبعض الناس على استخدام حجارة

وقصورها ، وخططها كما هو الحال بالنسبة للبصرة وواسط وبغداد وسمر من رأى والفسطاط والقيروان (١٥٤) .

وهناك اشارة في معجم البلدان الى استخدام التصوير في تزيين المباني منذ منتصف القرن الأول الهجري ، كما تم ذلك في دار عبيد الله بن زياد المعروفة « بالبيضاء » . يقول ياقوت عن البيضاء : « دار عمرها عبيد الله بن زياد بن ابيه بالبصرة ، ولما تم بناؤها أمر وكلاءه ان لا يمنحوا احداً من دخولها ، وان يتحفظوا كلاماً ان تكلم به أحد ، فدخل اعرابي وكان فيها تصاوير ، ثم قال : « لا يتنفع بها صاحبها ولا يلبث فيها الا قليلاً ، فأتى به ابن زياد وأخبر بمقالته ، فقال له : لم هذا ؟ قال : لأني رأيت فيها أسداً كالحا وكلباً نابحاً وكبشاً ناطحاً (١٥٥) » .

اما آثار الأمم الغابرة فقد ذكر ياقوت منها الكثير في المواقع الأثرية في العراق كالخيرة والمدائن ، اضافة الى آثار ورسم دراسة في دستجرد ومرودند وديواند وطبرستان وارمينية . وأشار الى معالم أثرية عديدة في بلاد الشام كدمشق وحصن وتدمر ومعرة النعمان وعلبك وقورس قرب حلب والخليل ، كما وصف آثاراً مبنية قديمة في صنعاء ومأرب بالاضافة الى الآثار المصرية القديمة في منف وعين شمس والصعيد ، وتحدث عن الأهرام وابي الهول والمسلات والمومياء وذكر آثاراً أخرى في قرطاجنة بشمال افريقية . أما آثار بلاد الروم فيتحدث ياقوت عن

(١٥٤) نفس المصدر : ٤٣٤/١ ، ٤٣٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣/٢ ، ٤٧١ ، ١٧٦/٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٦-٢٦٤/٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١/٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٣ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ ، ١٤٥٨ ، ١٤٥٩ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦٣ ، ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ ، ١٤٦٩ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧١ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ ، ١٤٧٥ ، ١٤٧٦ ، ١٤٧٧ ، ١٤٧٨ ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٠ ، ١٤٨١ ، ١٤٨٢ ، ١٤٨٣ ، ١٤٨٤ ، ١٤٨٥ ، ١٤٨٦ ، ١٤٨٧ ، ١٤٨٨ ، ١٤٨٩ ، ١٤٩٠ ، ١٤٩١ ، ١٤٩٢ ، ١٤٩٣ ، ١٤٩٤ ، ١٤٩٥ ، ١٤٩٦ ، ١٤٩٧ ، ١٤٩٨ ، ١٤٩٩ ، ١٥٠٠ ، ١٥٠١ ، ١٥٠٢ ، ١٥٠٣ ، ١٥٠٤ ، ١٥٠٥ ، ١٥٠٦ ، ١٥٠٧ ، ١٥٠٨ ، ١٥٠٩ ، ١٥١٠ ، ١٥١١ ، ١٥١٢ ، ١٥١٣ ، ١٥١٤ ، ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥١٧ ، ١٥١٨ ، ١٥١٩ ، ١٥٢٠ ، ١٥٢١ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٣ ، ١٥٢٤ ، ١٥٢٥ ، ١٥٢٦ ، ١٥٢٧ ، ١٥٢٨ ، ١٥٢٩ ، ١٥٣٠ ، ١٥٣١ ، ١٥٣٢ ، ١٥٣٣ ، ١٥٣٤ ، ١٥٣٥ ، ١٥٣٦ ، ١٥٣٧ ، ١٥٣٨ ، ١٥٣٩ ، ١٥٤٠ ، ١٥٤١ ، ١٥٤٢ ، ١٥٤٣ ، ١٥٤٤ ، ١٥٤٥ ، ١٥٤٦ ، ١٥٤٧ ،

دراسات رائدة لمعجم البلدان :

أشرنا فيما سبق الى ان صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) كان أول من اختصر هذا المعجم في كتاب اسماء « مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع » ، وبعد ذلك بحوالي قرنين قام جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) باختصاره ثانية في كتاب عرف باسم « مختصر معجم البلدان » . ويستفاد من ذيل تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ان هناك نسخة من المختصر الأخير في مكتبة آصفية بحيدرآباد (١٦٢) .

الا ان أول دراسة في مادة معجم البلدان قام بها ياقوت الحموي نفسه وضمنها كتابه المطبوع « المشترك وضعاً والمفترق صقاً » اذ يقول في مادة تلك الدراسة : « هذه طرفة طريفة ، وملحة مليحة تشرب اليها النفوس ... انتخلتها من كتابي الكبير المسمى بمعجم البلدان ، وانتزعتها من رياض حدائقه الكثيرة الافتنان ، فيما اتفق من اسماء البقاع لفظاً وخطاً ، ووافق شكلاً ونقطة ، واфترق مكاناً ومحلّاً ، واختلف صقاً ومحتلاً ... ليخف على الحامل ثقله ويتيسر على الناقل نقله (١٦٣) » .

وفي القرن التاسع عشر تنبه عدد من المستشرقين الى أهمية معجم البلدان لياقوت مدفوعين الى ذلك بالحاجة الى جمع أكبر قدر من المعلومات عن الأقطار الاسلامية . ونورد فيما يلي جانباً من العرض القيم للدراسات الاستشراقية للمعجم ، والذي ضمنه وديع جويده

المباني الأثرية وابوابها واعمدتها في بناء قصورهم وبيوتهم ، كما هو الحال بالنسبة لبقايا مدينة زندورد وايوان كسرى ، وعين شمس ، وقرطاجنة ، ومعرة النعمان ، وسامراء ، والغريب ان خراب الأخيرة كان سريعاً ، اذ كانت في القرن الثالث الهجري تحمل انقاضها الى بغداد ويعمر بها . فقال ابن المعتز في ذلك :

قد اقفرت سر من را
وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها
كأنها آجام
ماتت كما مات فيل
تسل منه العظام

وكان البعض ينتقد هدم الآثار ، وازالة معالمها ، ويرى فيها قيمة تاريخية ، واداة للتفكير والاعتبار ، ومن هؤلاء القاضي ابويعلي عبد الباقي بن أبي حصن المعري الذي يقول :

مررت برسم في سياث فراغني
به زجل الاحجار تحت المعاول
تناولها عبد الذراع كأنما
رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتلفها ؟ شلت يمينك خلها
لمعتبر او زائر او سائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم
ولم أر أحلى من حديث المنازل (١٦٠)

(١٦٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٩٤/١ ، ٣٦٢ ، ٤٦٠ ، ٥/٢ ، ١٣ ، ٦٢ ، ١٥٤/٣ ، ١٧٦ ، ٢٩٢ ، ٣٩٥/٤ .

(١٦١) Brockelmann, Geschichte der arabischen Litteratur Supplement band, (G.A.L.S.), Leyden, 1937—42, 1, 880 .

(١٦٢) ياقوت : المشترك ، ١٨٤٦ ، ٣ ، ٤ .

Jwaideh : The Introductory Chapters of Yaqut's Muja Al-Buldan, Leiden, 1959, pp. IX—XI. (١٦٣)

بحثه دراسة لمقتطفات من رسالة أبي دلف موجودة في معجم البلدان .

وبعد ذلك نشر المستشرق الإيطالي المعروف ميشيل أماري (Michele Amari) في ليبزج ١٨٥٧ كتابه المشهور « المكتبة العربية الصقلية » (Bib-lioteca Arabo—Sicula) ، وهو عن تاريخ جزيرة صقلية ، وقد ضمنه عدة نصوص عربية بدءاً بالمسعودي وانتهاء بحاجي خليفة . واشتمل الباب الحادي عشر من الكتاب على المقتطفات التي أوردها ياقوت في معجم البلدان عن جزيرة صقلية ومدنها وقراها (١٦٥) .

وفي عام ١٨٦١ ظهرت في باريس دراسة للمستشرق الفرنسي باربييه دي مينار (C. Barbier de Meynard) بعنوان « معجم جغرافي تاريخي في أدب فارس والأقطار المجاورة لها ، مستخرج من معجم البلدان لياقوت » (Dictionnaire Geographique, Historique et Litteraire de la Perse et des Contrees Adjacentes, Extrait du Modjem El—Bouldan de Yaqout.)

أما النصوص التي أوردها ياقوت في معجم البلدان عن العرب قبل الاسلام ، فكانت موضع دراسة قام بها المستشرق الألماني لودولف كريسل (Ludolf Krehl) بعنوان « حول ديانة العرب قبل الاسلام » (Uber die Religion der Vorislamischen Araber.) وقد نشرت هذه الدراسة في

مقدمة ترجمته للفصول التمهيدية لمعجم البلدان لياقوت (١٦٤) . فقد قام عدد من كبار المستشرقين في النصف الثاني من القرن الماضي بدراسات علمية تتعلق بموضوعات معينة في المعجم . ففي عام ١٨٢٣ نشر المستشرق الروسي فرين (C. M. J. Fraehn) في بطرسبورغ أول دراسة استشرافية من معجم البلدان تحت عنوان « رسالة ابن فضلان وتقارير عربية مختلفة أخرى عن الروس الأقدمين والشعوب المجاورة لهم » (Ibn Fozzlan's und anderer Araber Berichte Uber die Russen alterer Zeit und ihr Nachbarn.) فكان فرين بهذه الدراسة أول من نشر معلومات عن الروس والسلاف والبلاغات القاطنين ضفاف نهر الفولغا ، وعن الشعوب المجاورة له ، معتمداً في الدرجة الأولى على رسالة ابن فضلان المثبتة في معجم البلدان لياقوت . وقد نشرها متنا مع ترجمة لاتينية ، مضيفاً إليها ما عثر عليه من كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة . كما يعتبر فرين أيضاً أول من كتب عن ياقوت وعرف به ، وقد احتفظ بحثه بقيمته الى اوائل القرن العشرين (١٦٤) .

وكانت دراسة فرين فائحة لأبحاث ودراسات مماثلة ، فقد نشر المستشرق الألماني كورد دي شولتسير (Kurd de Schloezer) الرسالة الأولى لابي دلف متنا وترجمة لاتينية ، وهي رسالته للدكتوراه ، (برلين ١٨٤٥) ، وذلك بعنوان : « أبو دلف ، مسعر بن مهلهل ، ورسالته عن رحلته الآسيوية » (Abu Dolef Misaris ben Mohalhal de ite-nere asiatico Commentarius.)

(١٦٤) جريدة : الفصول المقدمة لمعجم البلدان ، ص *

كراشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ٣٣٦ ، العقيلي : المستشرقون ، ٩٣٤/٣ .

(١٦٥) أماري : المكتبة العربية الصقلية ، ١٨٥٧ ، ١٠٥ ، ١٣٦ .

وفي عام ١٩٢٩ نشر المستشرق إيرنست دامان (Ernest Dammann) بحثاً بعنوان « اسهام المصادر العربية في التعريف بأفريقيا السوداء » (Beit-rage aus arabischen Quellen Zur Kenntnis des negrischen Afrika, Kiel, 1929.) ويكاد هذا البحث الذي ضم دراسة للمصادر العربية المتعلقة بالأفريقيين السود ، ان يكون اعتماده الأساسي قائماً على المعلومات الواردة في معجم البلدان لياقوت ، وآثار البلاد وأخبار العباد للفرزوني .

وخلال الفترة الواقعة بين ١٨٦٦ و ١٨٧٢ تمكن المستشرق الألماني فستفيلد (F. Wustenfeld) من نشر معجم البلدان لأول مرة في ستة مجلدات خصص المجلد الأخير منها للفهارس ، وقدمت الملاحظات والفهارس المختلفة التي وضعها أساساً لدراسة منهجية لمعجم ياقوت البلدان ومصادره ، كما كتب في أثناء عكوفه على نشر المعجم مقالتين عن أسفار ياقوت وعلاقتها بمعجم البلدان ، وتناولت المقالة الأولى « تجوال ياقوت كما صوره في معجم البلدان » . ونشرت في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٤ (Jacut's Reisen, aus seinem geographischen Worterbuche beschrieben, ZDMG, 1864, XVIII, 493—397.) في حين كانت المقالة الثانية بعنوان « ياقوت رحالة كما هو أديب وعالم » وصدرت عن نشرة الجمعية العلمية الملكية في جوتنجن عام ١٨٦٥ (Der Reisende Jacut als Schriftsteller und Gelehrter, Nachrichten Von der Konigl. Gesellschaft der Wissens-

ليبرز عام ١٨٦٣ ، والمعروف ان هذه النصوص اقتبسها ياقوت من كتاب الأصنام لابن الكلبي ، كما ان المستشرق الألماني يوليوس فلهوزن (J. Wel-lhausen) ضمن كتابه القيم « بقايا الوثنية العربية » (Reste arabischen Heidentums) جميع المقتطفات التي اوردها ياقوت من كتاب الأصنام المذكور ، واتبع ترجمتها بالتعليق والتحليل ، ورجع الى مصادر كثيرة أخرى مكنته من جمع مادة غزيرة حول الموضوع الذي يدور عليه كتابه (١٦٦) .

وكانت اراضي الحار في جزيرة العرب موضوع دراسة أخرى قام بها المستشرق الألماني اوتولوث (Otto Loth) معتمداً على ما ذكره ياقوت عن تلك الحرات في معجمه . وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٨ ، بعنوان « حار بلاد العرب عند ياقوت - Die Vulkan-regionen—Harra's—Von Arabien nach Jakut, ZDMG. 1868. XXII, 365—382.)

أما الاشارات المتنوعة التي اوردها ياقوت عرضاً عن الصليبيين فكانت محور دراسة ثانية عملها المستشرق الفرنسي هرتفيج ديرنبورج (Hartwig Deren-bourg) بعنوان « الصليبيون في معجم ياقوت » (Les Croisades d'apres le dictionnaire de yakout.) ونشرت في كتاب الذكرى المثوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس عام ١٨٩٥ (Centenaire de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes. 1795—1895. Paris, 1895, pp. 71—92)

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على طبعة فستفلد لمعجم البلدان فإن هذه الطبعة كما يقول كراتشكوفسكي ما تزال من أهم المراجع لجميع المشتغلين بالدراسات العربية ، وقد أعيد نشر هذه الطبعة بالأوفست في طهران عام ١٩٦٥ . أما طبعة القاهرة التي جاءت في عشرة أجزاء واشرف عليها محمد أمين الخانجي الكتبي (١٩٠٦) فلم تأت بجديد ، وإن كانت أحياناً تقدم قراءات أفضل للاسماء . وأضاف إليها الخانجي مجلدين استدرك فيهما على معجم ياقوت البلدان وسماه « منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان » . وقد لاحظ كراتشكوفسكي أن « هذه الاستدراكات قد تمس أحياناً نقاطاً عاجلها ياقوت فيورد الناشر المعلومات المتأخرة عن ذلك ، ولكنه في أغلب الأحيان يقصر كلامه على بلاد ومدن العالم الحديث في أوروبا وأمريكا وأستراليا ، وهذه الإضافات وإن لم تمثل قيمة ما من وجهة النظر العلمية ، إلا أنها برهان طريف على استمرار الأنماط القديمة للمعاجم الجغرافية التقليدية بين الأوساط العربية المثقفة إلى بداية القرن العشرين (١٦٩) .

وقد استمرت العناية بمعجم البلدان وصاحبه بعد ذلك من قبل كثير من الباحثين والأدباء العرب أمثال محمد كرد علي ، وأسعاف النشاشيبي ، وعباس الغزالي ، وعبد الوهاب عزام ، وعلي أدهم ، وعبد الله مخلص ، وأبو الفتح التوانسي ، وعبد المعين الملوحي (١٧٠) . وليس من شك في أن كثرة الدراسات التي افردت لياقوت ومصنفاته ، تعتبر خير شاهد ودليل على علو كعب هذا الرجل ومكانته العلمية في التراث

chaften, Gottingen, 1865, No. 9, pp. 233—243.)

وفي أواخر القرن الماضي (١٨٩٨) نشر المستشرق الألماني يوستوس هير (F. Justus Heer) دراسة عن مصادر ياقوت تحت عنوان « المصادر التاريخية والجغرافية لمعجم البلدان لياقوت » (Die historischen und geographischen Quellen in Jacut's geographischem Wörterbuch, Strassburg, 1898.) وقد وصف وديع جويذة هذا الكتاب بأنه ما يزال أفضل واشمل دراسة وضعت عن معجم البلدان ومصادره (١٦٧) .

وقدم المستشرق الروسي كراتشكوفسكي (Krachkovski) عدة دراسات حول معجم البلدان بينها « تحليل الاستشهادات الشعرية في معجم البلدان لياقوت » . إذ المعروف أن هذا المعجم يضم حوالي خمسة آلاف بيت من الشعر بينها عدد من الأبيات لياقوت نفسه . والكثير من هذه الأشعار جاءت شواهد تؤيد النص وتكمله ، كما أن القصائد التي قيلت في الفتح والحنين إلى الأوطان وغيرها من المواضيع تعتبر وثائق على جانب كبير من الأهمية ، في ضوء ندرة الوثائق التي ترجع إلى القرون الهجرية الأولى . ويمكن للباحثين أن يجدوا في هذا الشعر مادة خصبة ومفيدة ، وبخاصة في القرن الأول الهجري . وكان كراتشكوفسكي من أوائل الذين تنبهوا إلى هذه الحقيقة . كما وضع هذا المستشرق الكبير دراسة أخرى حول الرسالة الثانية لأبي دلف في معجم البلدان ، وشهزور في معجم ياقوت (١٦٨) .

(١٦٧) جويذة : الفصول التمهيدية لمعجم البلدان ، ١ ، خ .

(١٦٨) الطيفي : المستشرقون ، ٩٥٥/٣ .

(١٦٩) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ٣٣٧/١ .

(١٧٠) الملوحي : الفكر العلمي عند ياقوت الحموي ، مجلة مجمع دمشق ، ٣٤٣ ، ٣٤٢/٤٦ .

العربي الاسلامي ، الذي يمثل فيه معجم البلدان مكانة بارزة .

والحق ان ياقوت الحموي نفسه كان يدرك أهمية العمل العلمي العظيم الذي قام به ، فوصف كتابه الضخم بانه « اوجد في بابه ، مؤمر على جميع اضرابه واترايه ، لا يقوم لمثله الا من أيد بالتوفيق ، وركب في طلب فوائده كل طريق ، فغار وانجد ، وطوّح بنفسه فابعد ، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته ، وظهرت منه امارات الحرص

وحركته » وياقوت وهو يشير هنا الى المعاناة الكبيرة التي عايشها وهو يجمع مادة كتابه القيم حباً في العلم والمعرفة وانتفاع الناس بهما ، كان كل أمله ومبتغاه ، أمنية في ان لا ينسب هذا الجهد الى سواه ، ودعاء توجه به الى الله عز وجل « ان لا يحرمه ثواب التعب فيه ، وان تكون جائزته على ما اوضح اليه ركاب خاطره ، واسهر في تحصيله بدنه وناظره ، دعاء المستفيدين وذكر زكي من المؤمنين بان يحشر في زمرة الصالحين^(١٧١) . رحم الله ياقوت الحموي رحمة واسعة وجزاه عن عمله وجهده ونصبه أحسن الجزاء .

(١٧١) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ١٣ .

المصادر والمراجع :

اعتمد البحث على طبعة بيروت لمعجم البلدان - دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٥ ، وذلك لتيسر هذه الطبعة وتداولها في أيدي الباحثين . وأشار الباحث في مواضع قليلة أخرى تطلبها البحث الى طبعة لايزج القيمة ١٨٦٦ .

مصادر مخطوطة :

- سنجر السروري : علم الدين الصالحى (ت ٦٨٦هـ)
- ذيل البستان الجامع لجميع نوارىخ أهل الزمان استانبول ، مكتبة سراي أحمد الثالث ، خ/ ٢٩٥٩ .
- ابن الشعار : المبارك بن أبي بكر بن حمدان الموصلى (ت ٦٥٤هـ) عقود الجمان في شعراء هذا الزمان . استانبول ، مكتبة اسعد الفندي ، خ/ ٢٣٢٣ - ٢٣٣٠ .

مصادر ومراجع مطبوعة :

- ابن الأثير : علي بن محمد الشيباني ، أبو الحسن ، عز الدين (ت ٦٣٠هـ) .
- الكامل في التاريخ .
- ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٦ .
- آرنولد : توماس (ت ١٩٣٠) .
- تراث الاسلام (ط ١ ، ترجمة ، جرجيس فتح الله) .
- ط بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٢ .
- البخداي : أحمد بن علي الخطيب ، أبو بكر (ت ٤٦٣هـ) .
- تاريخ بغداد (او مدينة السلام) .
- ط بيروت ، دار الكتاب العربي ، (بدون تاريخ) .
- ابن بطوطة : محمد بن ابراهيم اللواتي ، أبو عبد الله (ت ٧٧٩هـ) .
- تحفة النظار في غرائب الأمصار وجهاب الأسفار .
- ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .
- البلداني : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) .
- فتوح البلدان (تحقيق صلاح الدين المنجد) .
- ط القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٦ .
- ابن تغري بردي : يوسف ، أبو المحاسن ، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ) .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
- ط القاهرة ، من طبعة دار الكتب ، (بدون تاريخ) .

- حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله (١٠٦٧هـ) .
 كشف الظنون عن اسمى الكتب والفنون .
 ط مكتبة المثنى ببغداد ، عن طبعة ١٩٤١ .
- جيسسده : عبد الرحمن .
 اعلام الجنرافين العرب ومقتطفات من آثارهم .
 ط بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٠ .
- ابن خلصون : عبد الرحمن بن محمد ، ابو زيد (ت ٨٠٨هـ) .
 كتاب العبر وحيوان المجدد والخبر .
 ط بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٩ .
- ابن خلصان : احمد بن محمد ، ابو العباس ، شمس الدين (ت ٦٨١هـ) .
 وفيات الاحياء واثبات ابناء الزمان .
 ط القاهرة ، دار السعادة ، ١٩٤٨ - ١٩٤٩ .
- الذهبي : محمد بن احمد بن عثمان ، ابو عبد الله ، شمس الدين (ت ٧٤٨هـ) .
 العبر في خبر من خبر .
 ط الكويت ، مطبعة الحكومة ، ١٩٦٠ - ١٩٦٦ .
 تذكرة الحفاظ .
 ط بيروت ، عن مطبعة حيدر اباد الدكن ، (بدون تاريخ) .
- زبيدات : جرجي بن حبيب (ت ١٩١٤م) .
 تاريخ آداب اللغة العربية .
 ط بيروت ، دار الحياة ، ١٩٦٧ .
- السمهوري : علي بن احمد نور الدين (ت ٩١١هـ) .
 وفاة الولا باخبار دار المصطفى .
 ط بيروت ، عن طبعة القاهرة ، دار احياء التراث العربي (بدون تاريخ) .
- الطبرسي : محمد بن جبر (ت ٣١٠هـ) .
 تاريخ الرسل والملوك .
 ط القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ .
- ابن عبد الحق البغدادي : عبد المؤمن ، صفي الدين (ت ٧٣٩هـ) .
 مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبنايا .
 ط القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٥ .
- المغليسي : نجيب .
 المشرقون .
 ط القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ .

محمّد : إسحاق صديقي .

الحجاج بن يوسف الثقفي .

ط بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٣ .

فنيهم : عبد الله يوسف .

مصادر البكري ومعهجه الجبرائي .

ط القاهرة ، مطبعة ليلي ، ١٩٧٤ .

ابن فضلان : أحمد بن فضلان بن الهيثم بن راشد بن حماد (ت ق ٤ هـ) .

رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والحزر والروس والصقالية .

ط دمشق ، مطبعة وزارة الثقافة ، ١٩٧٨ .

المهزون : يوليوس (ت ١٩١٨ م) .

تاريخ الدولة العربية (ترجمة محمد عبد الحفيظ البروي) .

ط القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ .

القرطبي : زكريا بن محمد بن حمزة (ت ٦٨٢ هـ) .

آثار البلاد وأخبار العباد .

ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

كحليلة : عمرو رضا .

التاريخ والجغرافية في المصنوع الاسلامي .

ط دمشق ، المطبعة الثقافية ، ١٩٧٢ .

كراتشكوفسكي : ألكسندر يوليا لوفتش (ت ١٩٥١) .

تاريخ الأوب الجبرائي العربي (ترجمة صلاح الدين عيسى) .

ط القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣ .

كنيسل : أحمد عادل .

الطريق إلى دمشق .

ط بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٠ .

ابن المصوني : المبارك بن أحمد اللخمي ، ابن البركات ، عرف الدين (ت ٦٣٧ هـ) .

تاريخ ادبي (ترجمة البلاد الخليل بن وده من الأمازيغ) .

ط بيروت ، المركز العربي للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ .

المجيب : صلاح الدين .

أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب .

ط بيروت ، مؤسسة طر القراءات العربي ، ١٩٥٩ .

نفيس أحمد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي (ترجمة فتحى عثمان) .
ط الكويت ، دار القلم ، ١٩٧٨ .

ابن هشام : عبد الملك ابو محمد (ت ٢١٣هـ) .
سيرة النبي ﷺ (السيرة النبوية) .
ط القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٦ .

الواقسي : محمد بن صبر بن واقد (ت ٢٠٧هـ) .
كتاب المغازي .
ط طهران ، عن طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٦ .

يالت بن عبد الله الحموي : (ت ٦٢٦هـ) .
- معجم البلدان ط ليزج ١٨٦٦ .
- معجم البلدان ط القاهرة ، مطبعة دار السعادة ، ١٩٠٦ .
- معجم البلدان ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٥ .
- معجم الأدباء ط بيروت ، دار احياء التراث العربي ، عن طبعة دار المأمون بالقاهرة .
- المشترك وصفاً والمفترق صغماً ، ط جوتنجن ١٨٤٦ .

Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur Supplementband, (G. A. L. Supp.), Leyden, 1937—42.

Jwaideh. W : The Introductory Chapters of yagut's Mujam Al—Buldan, Leiden, 1959.

مجلات ودوريات :

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد السادس والأربعون ، دمشق ١٩٧١ .

مجلة المقتبس ، القاهرة ، المجلد الأول ، ١٣٢٤هـ .

مجلة الجمعية الشرقية الألمانية .

Z. D. M. G : Zeitschrift des Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft.

(١)

هذا كتاب غزير بأفكاره المتحررة ومواقفه المتطرفة واتجاهاته المتصلبة . وقد جاء بأسلوب مركز بشكل لا يتيح لقارئه تخطي أي سطر من سطوره دونما وقفة متبصرة لكل ما يبطنه من فحوى او يظهره من معنى . وربما كان الأجدر بإدارة مجلة « عالم الفكر » ان تطلب ترجمة هذا الكتاب ترجمة كاملة دون الاكتفاء بعرض موجز لأهم افكاره واتجاهاته .

والكتاب يتناول موضوعات معاصرة على درجة كبيرة من الأهمية لأنها تشكل أرضية عريضة واسعة للجدل العلمي والفلسفي والفقهي والقانوني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي او غير ذلك من ميادين المعرفة العلمية المنظمة .

وسنحاول جهدنا في عرض ما تضمنه من فكر وتحليل وعسى أن نكون قد أفلحنا في إبراز أهم أفكاره وفرضياته .

الصراع من أجل أن تكون إنساناً " الجريمة وعلم الأبرام والفوضوية "

تأليف : ل. تيفت ود. سوليقات

عرض وتحليل : عدنان الدوري

استاذ بجامعة الكويت

والكتاب مطبوع حديثاً (١٩٨٠) يحمل عنواناً مثيراً ولكنه يمثل اتجاهاً ليبرالياً معاصراً يتناول تحليل مفهومي الجريمة والعقاب من زاوية فلسفية جدلية وأخرى اجتماعية علمية جديدة . فهو يدعو الى ربط الجريمة وربط العقاب بعملية المعاناة البشرية من أجل تحرير الذات . اذ يرى أن علماء الاجتماع ، الأكاديميين منهم والماركسيين على السواء ، قد عبثوا حتى الآن عن رسم طريق أمام الانسان المعاصر الى حياة اجتماعية آمنة مستقرة . ذلك ان العنف والمظاهر السلطوية التي تمارسها الدولة وكل ما يتفرع عنها من مؤسسات سلطوية لا يمكن ان تحقق بحال من الأحوال بعض ما يطمح به أفراد المجتمع من استقرار اجتماعي وسلامة فكرية .

وان بناء حياة اجتماعية متكاملة متوافقة ، من وجهة نظر مؤلفي هذا الكتاب ، ينبغي أن تعتمد على كفاءة الانسان ذاته وعلى مدى جدواه الوظيفية في المجتمع الذي يعيش فيه . كما أن تطور الحياة الاجتماعية وتقدمها يخضعان بالدرجة الأولى لما يقدمه الأفراد انفسهم من عون متبادل بناءً ومن خلال تعاون جماعي ايجابي ملموس .

ويوضح الكتاب كيف اننا لا نزال نعيش حياة أقل ما يقال فيها انها تقوم على الانتكالية المطلقة والاعتماد الكامل على الآخرين ، ولذلك فليس من الصواب الاصرار على الاعتقاد باستقلالية ظاهري الجريمة والعقاب عن حقل الاقتصاد او عن الدولة او حتى استقلاليتها عن الحياة ذاتها . ان غالبية علماء الاجتماع وعلماء الجريمة الأكاديميين يخفقون في ادراك أهمية الظروف الأساسية التي تحيط بحياة الانسان المعاشية لأنهم لا يزالون يدورون في فلك الدولة وحول محور القانون والخضوع لسلطان كل منها . ان ظروف الانسان المعاشية تستدعي التعاون الكبير بين الأفراد وهذا التعاون هو الذي يطبع عجلة الحياة في نمطها المعاصر .

حتى أنصار الفكر الراديكالي أنفسهم ، ممن ينضون تحت مظلة الفكر الاشتراكي في علم الاجرام المعاصر لا يستطيعون الافلات من فكرة مركزية الدولة وقوة سلطتها في توجيه دفة الحياة الاجتماعية نحو التقدم والحركة والتطور . ان مثل هؤلاء لا يستطيعون ان يتجاوزوا في تحليلاتهم الايديولوجية امكانية العيش خارج اسوار مركزية الدولة لأنهم لا يزالون يربطون بين عملية التنظيم الاجتماعي ذاته وبين قوة فاعلية السلطة المركزية للدولة .

واذا كانت أهمية علم الاجرام ، كمعرفة علمية متخصصة ، لا زالت اليوم بعيدة المنال في وعي مجتمعاتنا المعاصرة فان هذا العلم وحده لاشك يستطيع أن يكون الدرع الدفاعي المنيع الذي يمكن أن يحمي الأفراد ضد تسلط الدولة ، ولذلك ينبغي انقاذ هذا العلم من السقوط في جاذبية الدولة أو الخضوع لسلطانها وتبعيتها . ان مهمة علم الاجرام ، او عالم الاجرام الجديد ، أن يحرر نفسه من سلطان الدولة باثبات عدم جدوى النظرة العقابية التقليدية نحو الجريمة والتي لا تزال تربط الجريمة بقوانين الدولة الجزائية ويطأ عضواً مباشراً . ان غياب علم اجرام جديد بهذا المعنى يتركنا نتطلع دوماً الى الدولة في كل ما يتصل بشؤون الجريمة والعقاب الأمر الذي يجعلنا نسير في مدار الدولة ونخضع لسلطانها .

(٢)

ويتضمن هذا الكتاب مقدمة طويلة اعقبها فصول أربعة جاوز بعضها الخمسين صفحة . ولعل ابرز ما في مقدمة الكتاب تلك الفكرة التي تناولت صراع الانسان الطويل نحو تحقيق انسانيته ، وذلك من خلال تبني فلسفة علم اجرام حديث من علوم الانسان المعاصرة . وقد استطاع المؤلفان وهما من علماء الاجتماع الأميركيين ، ان يبلورا فلسفة هذا الكتاب حول موضوع الجريمة وعلم الاجرام الجديد .

يقول المؤلفان اننا بدأنا نسمع اليوم بعض أصوات علماء الجريمة الرافضين لبعض التعريفات القانونية التقليدية التي التصقت بفكرة الجريمة وفكرة العقاب او حتى بمفهوم معاملة المذنبين ان مثل هذه التعريفات لا شك تحجب وراءها تلك المعاني الإنسانية لمفهوم العدالة الاجتماعية ، فمعاناة الانسان المسجون خلف قضبان

الماركسيين انفسهم يرسخون سلطان الدولة بعد نجاح محاولتهم في قلب النظام القائم .

فالبديل المطلوب هو نظرة انسانية متفتحة نحو العالم بحيث يسود التوافق بدل التغيير والذوبان بدل الالغاء والتناغم بين الانسان وبين كل ما هو طبيعي .

اننا لا نزال نعيش في عالم يتميز بألوان العنف والعدوانية ، سواء كان ذلك في مجتمعاتنا الكبيرة او المحلية ، او في بيوتنا او في مدارسنا او في دوائر عملنا او مصانعنا وحقولنا الزراعية . ان جميع هذه المؤسسات تصطبغ بصبغة القهر والتسلط والقمع والعدوانية وطلب الطاعة العمياء ، ونحن لا نزال نتزعزع من خلال مفاهيم اجتماعية محدودة لا تخرج عن دائرة الطاعة او حدود الواجب او الخوف من العقاب . ولذلك فنحن لم نعد نشعر بوجود العنف من حولنا لأننا غير منفصلين عنه بل صار جزءاً من حياتنا . كما أنه ليس بوسعنا ادراك لا مشروعية العنف الذي نعانيه ، ولا يمكننا تقويم لا أخلاقياته ، لأننا نعجز في الواقع عن ادانة مصدر هذا العنف وهو الدولة . ان الدولة بوصفها صاحبة السلطة المطلقة تستطيع ان تمارس اعمال القتل والايذاء والحبس ومصادرة المال وانتهاك حرمة البيوت ومصادرة الحريات الفردية ، ومع ذلك فان مثل هذه الأعمال تكتسب التسميات الاجرامية التقليدية حين يقوم بها فرد من الأفراد حيث يصبح هذا الفرد قاتلاً او سارقاً او مغتصباً او متتهك حرمات . اما العنف المشروع الذي يصدر عن سلطة شرعية كالدولة فهو الذي لا يمكن ادانته لأنه يستند الى شرعية تقوم على سيادة الدولة على الافراد . وموجز ما يراه مؤلفاً هذا الكتاب ان معاناتنا لا تنبعث عن تلك الأفعال الاجتماعية التي يعاقب عليها القانون كجرائم ، بل عن تلك الأفعال المشروعة التي لا توصم

السجون لا تختلف عن معاناة أخيه الانسان الآخر الذي يموت جوعاً في أفريقيا الشرقية ، أو أولئك الأطفال الذين يحرقون أحياء بقنابل حرب فيتنام . إن المعاناة الانسانية واحدة مهما اختلفت أسبابها وتباينت صورها وأشكالها . اننا في الواقع لا نستطيع أن نفسر جريمة الايذاء التي يرتكبها شخص ضد آخر وفقاً لمنطق ذلك القانون العلمي الأحادي الذي يقوم على السبب والنتيجة . ان هذا القانون لا يأبه للمعاناة الانسانية الذاتية التي يعانيها الانسان في سبيل تحقيق المساواة الاقتصادية والاجتماعية . ان مفهوم العقاب المعاصر ، مهما اختلفت أشكاله وصوره ، لم يعد له ثمة معنى مقبول وذلك من خلال ما يمارس فيه من جراحة طبية وايلام بدني وتعذيب نفسي وعزل مادي يقيد حرية الانسان بصورة قاسية بحيث لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً ولا يقابل بشراً .

اننا لا نستطيع ان ندرك معنى الحرية ذاتها الا اذا خرجنا عن مجال الدولة المغناطيسي الجاذب ، كما كان عالم الفلك « كوبرنيك » لا يستطيع ان يتصور حركة الأرض الا حين يتاح له الخروج منها بعيداً عنها والنظر اليها من على سطح الشمس . ويظهر ان صاحبي هذا الكتاب لا يدعون الى تصحيح مسيرة علم الاجرام الحالي كفزع من فروع المعرفة العلمية او وضع هذا العلم في اطار فكري انساني جديد . انها في الحقيقة يدعون الى اقامة مجتمع بديل لمجتمعنا الراهن حيث لا يكون هناك حاجة الى علم إجرام او الى عقاب ينبعث عن سلطان الدولة . ان العلاج هو في الغاء الدولة والغاء الرأسمالية معاً والغاء كل ما يتفرع عنها من مؤسسات سلطوية وهذا لا شك يلغي حاجتنا الى علم اجرام يقوم على سلطة الدولة . ومع ذلك فان المؤلفين لا يقدمان الحل الماركسي بديلاً لمواجهة الحالة . انهم يعتقدان بان

بوصمة الجريمة والاجرام . ان مثل هذه الأفعال المشروعة قد تشيع الكثير من العوز والتعاسة والدمار والصراع ، ومع ذلك فهي تعاسة تظل غير منظورة لأنها بعيدة عن الاشارة والتنويه .

(٣)

ان التعريف القانوني للجريمة ، الذي لا يزال يقوم على فكرة الضرر بالمصلحة الاجتماعية لا يربط بالضرورة بين مخالفة القانون وبين حدوث بعض الضرر بالمصلحة الاجتماعية او حتى انتهاك بعض المعايير الاجتماعية او القيم الأخلاقية . ذلك ان هناك جرائم كثيرة لا ينشأ عنها ضرر ما لأحد من الأفراد سوى صاحبها كجريمة التسكع وجريمة السكر او حتى تغيب حدث صغير عن بيته او عن مدرسته . وهناك من الناحية الأخرى أفعال ضارة مؤلمة لا يحتضنها التعريف القانوني للجريمة كعقوبة الاعدام ذاتها وعقوبة الحبس والحرب وتلوث البيئة والتعصب العنصري والاباحية الجنسية والمعاملة القاسية التي يلقيها الصغار من قبل ذويهم .

ان الجريمة من الناحية القانونية لا تعدو كل فعل او امتناع يرد بنص في القانون الجزائي ، وهذا يفيد بأن الجريمة كل نمط سلوكي معين يفرج على معيار قانوني معين وكل ما عدا ذلك لا يشكل جريمة . وهذا يفيد ببساطة ان غياب نص القانون الجزائي ذاته يؤدي الى انعدام الجريمة ذاتها .

وكذلك شأن العقوبة كجزء رسمي فهي تمثل ذلك الضرر او الايلام المتعمد الذي تلحقه سلطة ذات صلاحية شرعية بفرد معين وذلك عن فعل تعتبره ضاراً بها . واذا كانت الدولة قد نشأت في أول مراتبها لحماية

مصالح طبقة التجار وذوي اليسار فقد استخدم مفهوم الجريمة لحماية هذه المصالح . ان القانون الجنائي لا يهدف لحماية تلك الاعراف والمعايير الاجتماعية السائدة في المجتمع بل هو قد جاء لحماية مصالح الدولة . فالدولة غالباً ما تنتهك بعض الاعراف والمعايير الاجتماعية تحت بعض المبررات الاقتصادية والسياسية . لقد كانت انظمة الرق ، التي سادت لدى مجتمعات كثيرة ، بعض جهود أولئك الذين يملكون السلطة الكافية لتقرير مشروعية الرق . وحين انحسر النظام الاقطاعي وضعفت فعالية مؤسساته انبثقت السلطة المركزية للدولة تحت أشكال مختلفة تحت مظلة سيادة الدولة متبينة حماية الأفراد . وهكذا بدأت الدولة أو (الصفوة) تضع تعريف الجريمة المناسب وتفرض لها العقاب المناسب ، وصارت الجريمة مفهوماً رسمياً يرتبط بمخالفة القانون ، والخروج على النظام القائم ، وهذا بذاته عمل موجه ضد سلطة الدولة . ان تاريخ تطور القانون الجنائي وما تضمن من ممارسات رسمية لمواجهة ظاهرة الجريمة تعكس تلك الانماط المناسبة التي تتضمن مطلب الضبط والطاعة .

وهذه لا شك ترتبط ببعض الخلفيات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في كل عصر من العصور .

وكذلك كان شأن العقوبة ذاتها كجزء رسمي يصدر عن سلطة رسمية هي الدولة . لقد صار العقاب ذلك الضرر المتعمد الذي يصدر عن سلطة ذات شرعية لمعاقبة فرد من الأفراد عن فعل معين ضار بمصلحة الدولة . ومن هنا فان فكرة قبول القانون ذاته تعتبر تبريراً للدولة مهما اتخذت هذه الدولة من اجراءات لمواجهة المشكلات او التعاسة التي تخلقها بنفسها . ان

مضاعفة تعاستنا ومعاناتنا في سبيل تحقيق مجتمع انساني صالح سليم . وان الضرر الرسمي الذي يصدر عن سلطة شرعية يشيع في مجتمعاتنا التعاسة والعناء والتناقض والدمار والحاجة . ورغم هذا فان الضرر الذي قد يلحق بالفرد من جراء سرقة لا قانونية او من قبل سلطة تحتمي وراء القانون يظل يسير في دورته المعتادة دون توقف . واذا كانت الكرة الأرضية عاجزة اليوم عن حماية مواردها الطبيعية من النفاد العاجل فان الضمير الانساني عاجز اليوم عن حماية نفسه من الاندثار والضياع ، واذا كان لا بد من العيش بدون سلطة او بدون قهر سلطوي فعلياً التركيز على حياة مجتمعية جديدة قائمة على التعاون المتبادل .

وفي اطار بيئة محددة باقتصاديات طبيعية معينة فان صراع الانسان لكي يكون انساناً يصبح امتداداً حيوياً للحياة ذاته . فاذا كان الانسان لا يزال يسعى الى تطوير موارد الطبيعة بما يسر له حياته الطبيعية فان من الأولى ان يبدأ الانسان بتطوير ذاته بما يكفل بعث الحياة الى الجنس الانساني عامة وذلك من خلال ما يتمتع من ذكاء وحب وحيوية وما يحس به من تعاون نحو الآخرين . ان حرصنا اليوم على المشاركة الجماعية في ما نملكه من خيرات الطبيعة ينبغي أن يمتد الى مشاركة انسانية اخرى في خدمة اهداف الجنس الانساني الذي ننتمي اليه .

ولعل هذا لا يفف عند حدود تحقيق مطلب العدالة والمساواة فحسب بل ينبغي أن يمتد الى ذلك المصدر الداخلي الذاتي الذي يقودنا الى التعامل مع الآخرين كما نرغب ان نعامل نحن به في ظروف مماثلة . واذا كنا لا نريد ان نكون محكومين لأحد فان علينا أن لا نحكم الآخرين .

فكرة قبول القانون تعني ان الأطفال الذين تساء معاملتهم او الجوع الذين يتضورون جوعاً وضحايا العنف البدني وضحايا عنف الدولة لم تعد اليوم مشكلات ينبغي ان نهم بها بصورة مباشرة او نتحمل مسؤولياتها . لقد صار القانون ذاته وما يفرزه من علاقات تبعية هي الأمور التي تجاوزت الآن درجة معاناتنا . ان الأفعال الضارة التي تقع بيننا اليوم كالاغتصاب الجنسي والقتل والحرب وقسوة العقاب والاستغلال الاقتصادي والايذاء البدني يمكن تقليصها وتخفيف آثارها وأضرارها فيما لو تركنا القانون جانباً وأقمنا بدله مجتمعات انسانية تقوم على المساواة والحرية والتعاون المشترك . ولعل هذا يتيح لنا الطريق الى إيجاد حلول اجتماعية عادلة لكل ما نعانيه من صراعات وتناقضات تعاني منها مجتمعاتنا .

ان الشعور بمسؤولية الفرد نحو الجماعة يمكن ان يكون البديل الصالح لكل المسؤوليات المتعددة التي تضطلع بها تلك اللجان الكثيرة التي تشكلها لايجاد الحلول البيروقراطية لمشكلاتنا الراهنة . ان الشعور بالعدالة في حياتنا اليومية والطرق التي نستجيب بها لمواجهة صراعاتنا وتعاستنا يمكن ان تكون بادراكنا الكبير لمدى شعورنا بالحاجة الى الآخرين .

(٤)

ولا شك ان فحوى الكتاب تتلخص في ان جذور مشكلاتنا الراهنة تنحصر في اننا لا زلنا نركز على دراسة الجريمة من الناحية العلمية بمعزل عن مطلبين اساسيين هما مطلب دراسة الدولة ذاتها التي تنشيء القانون الجنائي ومطلب دراسة المعاناة الانسانية من أجل تحرير أنفسنا . ان اغفالنا لأهمية المطلب الأخير هو المسئول عن

تقييد ارادتهم . انها قوة متحررة تعمل من خلال ما تملكه من مهارات خاصة لتكون ذات تأثير معين على الآخرين . وفي إطار بيئة تتميز بتنظيم اجتماعي يقوم على مثل هذه الحرية فانه لا مكان للخوف من تسلط فردي أو عدوان على الآخرين .

ان تحقيق مثل هذه المطالب الكبيرة يستلزم مواصلة الصراع نحو تحقيق انسانيتنا .

ولعل هذا لا يعني اطعام الجوع من البشر وفق احساسنا الادمي بآلام الجوع بل ليمتد الى تلك المشاركة الوجدانية من خلال التعاون الكامل مع الآخرين وتطوير علاقاتنا بهم على نحو يملأ ذلك الفراغ الانساني الفسيح الذي يفصل بيننا .

ان الحرية التي ننشدها لنا وللآخرين ينبغي أن تكون حرية خلاقة تعمل بدون سلطة أو تسلط على الآخرين أو

العدد التالي من المجلة

العدد الثالث - المجلد الرابع عشر
أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر
قسم خاص عن
أربع المراسلات
بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

ليرة	٣	بُوربِيا	٥	ريالات	الخليج العربي
ملياً	٢٥٠	الفتاهية	٥	ريالات	السعودية
ملياً	٢٥٠	السودان	٤٠٠	فلس	البحرين
قرشاً	٣٥	تسبيا	٤,٥	ريال	اليمن الشمالية
باية	٤٠٠	مستط	٤٠٠	فلس	اليمن الجنوبية
دنانير	٥	الجزائر	٣٠٠	فلس	العراق
دينار	٥٠٠	تشونسي	٢,٥	ليرة	لبنان
راهم	٥	المغرب	٢٥٠	فلما	الأردن

الاشتراكات :

البلاد العربية ٢٥٠٠ دينار

البلاد الاجنبية ٣٠٠٠ " "

تحويل قيمة الاشتراك بالريال الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل مسودة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك الى

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب ١٩٣ الكويت